كيف دافعنا عن عرابى وصحبه

(قصة مصر والمصريين)

بقلم كبير محاميه : ا . م برودلى

ترجمة وتحقيق : عبد الحميد سليم

الله ينصرك يا عرابى

« صيحة جماهير مصر فى يوليو ١٨٨٢ »



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

كيف دافعنا عن عرابي وصحبه

(قصة مصر والمصريين)

الاخراج الفنى : البير جورجى   تصميم الغلاف : محمد عبد العال

الاشراف الفنى : راجيه حسين

للوثيقة أشطب على ترجمتى وأضع مكانها النص العربى بلغة عصره دون ما تحريف ، فاذا لم أجد الاصل العربى (وهى حالات قليلة) ، أبقيت على ترجمتى العربية لما سبق أن ترجمه مترجمو « برودلى » عن الأصل العربى وقت وجوده تحت أيديهم ، ويرجع اطمئنانى الى ترجمة مترجمى « برودلى » الى حقيقة أن مترجميه كان اختياره لهم اختيارا موفقا ، اذ أن « برودلى » بعد نقله لنشاطه من « فندق شبرد » الى « بيت المفتى » بحى الجمالية ، كان أول أمر اهتم به بعد جمعه للموظفين الذى سيعاونونه فى مكتبه من كتبة وناسخين — اهتم بانشاء قلم للترجمة لعلمه أنه سيقع عليه العبء الاكبر من العمل ، فأسند رئاسته الى مستشرق اسمه مستر ادوارد بولدين Mr. Edward Baldwin (١) ، وعمل تحت رئاسته وطنيان أرمينيا الجنسية هما : «نجيب ابكاريوس» و « جوزيف قنواتى » (٢) ثم استدعى من روما مترجما رابعا هو مستر سانتلانا Mr. Santillana (٣) ، وكانوا يجيدون اللغتين العربية والأجنبية كما كانت تتميز ترجمتهم عن العربية بالدقة التامة حتى أنه لو أعيد ترجمتها الى العربية لما اختلفت عن النص العربى الا قليلا ، وخير لك أن تكون تحت يدك وثيقة مترجمة هى أقرب الى الأصل ، عن أن لا تكون تحت يدك وثيقة على الاطلاق ·

وعدم وجود بعض أصول الوثائق العربية التى كان من المفروض وجودها فى كتاب « برودلى » (نظرا لأن ترجمتها الانجليزية واردة بالأصل الانجليزى) ، يدفعنا الى احتمال أن يكون « برودلى » قد أنجزها لنفسه نظرا لما أحس به من قيمتها الوثائقية (والمعروف أن الانجليز كانوا أسبق منا فى مجال تقويم الوثائق) ، وهذا القول ليس من فراغ اذ أن تقرير « عرابى » الذى قدمه لمحاميه وكان قد كتبه فى سجن الدائرة السنية فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢م (١٦ ذى الحجة ١٢٩٩هـ) لم أجد أصله العربى بين الأصول العربية الملصقة بكتاب « برودلى » المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، وانما وجدته مصورا عن مخطوطة بخط عرابى مودعة بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة

---

(١) التحق بعد ذلك بخدمة هكس باشا ، ورافقه فى حملته التأديبية للمهدى فى السودان ، ولكن المهدى انتصر على الحملة وأبادها حتى آخرها وكان هو من بينها (المحقق) ·

(٢) هو الجد الأكبر للأب جورج شحاته قنواتى ، العلامة المحقق لكتب التراث العربى (المحقق)

(٣) كان فى الأصل يشغل منصبا مرموقا بالحكومة الفرنسية ، فلما اختلف معها غادرها الى روما حيث استقر به المقام هناك (المحقق) ·

سوى الرجوع الى من سبقنى من مؤرخى هذه الفترة وأسعدهم الحظ بالاطلاع على هذه الدوريات من نصف قرن مضى قبل أن تبلى (وأخص بالذكر منهم الأستاذين عبد الرحمن الرافعى ومحمود الخفيف ،وكلاهما اطلعا على كلتا الدوريتين ونقلا عنهمـــا) ، ومما لا شـــك فيه أن كلا الأستاذين الرافعى والخفيف من المؤرخين المدققين الثقات ، وهـذا هو ما دفعنى الى الرجوع اليهما ، دون سواهما ، فى استكمال تحقيقى ٠

ومع كل هذا الجهد فى التحقيق ، الا أن المرء يحس أثناءه بمتعة ما بعدها متعة ، وأكثر امتاعا من ذلك هو ما يتكشف لك من أسلوب كتابة العصر الذى يبحث فيه (القرن التاسع عشر) ، نظـرا لما كان يتميز به العصر الذى كانت تشوب كتابته بعض العبـارات التركيـة (نظرا لتبعية البلاد ــ من خلال خديويها ــ للدولة العلية (تركيا) ، أسوق منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الأمثلة :

● **مسميات ادارية :** (أ) نظارة (وزارة) ، الجهادية (الحربية) النافعة (الأشغال العمومية بعد اضافة الزراعة عليها) ، الحقانيـــة (العدل) ، الروزنامة (بيت المال) ، الدواوين (الادارات والمصـــالح الحكومية) ، القومسيون (اللجنة) ٠

(ب) حضرتلرى (المحتــرم) ، دولتلــو (صــاحب الدولــة) ، سعادتلو (صاحب السعادة) ، حضرة فخامتلو دولتلو (حضرة صاحب الفخامة والدولة ــ وكانت هذه الصيغة يكتب بها الى جناب الخديو) ، المابين الهمايونى (المعية السلطانية) ، مهردا ــ خديو (باشـــكاتب الخديو) ، مستحفظين (ضباط الحجز) نوبتجى الخديو (حامل نرجيلة الخديو) قواسة الخديو (فرقة حملة الأقواس بحرس الحضرة الخديوية) ٠ الخديوية) ٠

● **عبارات ادارية :** جناب المحتشم (حضرة المحترم) ، الرقيم (المؤرخ) ، أعرضت (أشرت الى) ، الضبطيـــة (مأمورية الشرطة) ، الأوروباوى (الأوربى أو الأجنبى) ، الفرائض (الفروض) ، المخابرة (التخاطب) ، العقابات (العقوبات) ، استنطاق (اســـتجواب) ، التداخل (التدخل أو التوسط) ، ما اتضح ببوصلة سعادتكم (ما جاء بخطاب سعادتكم) ٠

● **رتب وعبارات عسكرية :** (١) صاغقول ألماسى (قائد فرقة) بمباشى (عقيد) ميرلوا (أميرالاى) ٠

(ب) التجـــريدة (الحملة) ، المقتلة (القتل) ، العساكر أو

فاننا نرجو ممن هم معقود عليهم الأمل وممن بيدهم مسئولية اتخـاذ القرار أساسا ، ألا يتجاهلوا بالمرة الدروس التى قد تعلموها من دراستهم الدقيقة لتأريخ الوطنية المصرية ٠

أيها القارىء العزيز ! اننى سأحاول أن أوضح لك فى كتابى هذا شيئا عن المصريين من خلال « منظارهم » المصرى ٠ ان عبـارة « مصر للمصريين » كما اعتدنا سماعها مستخدمة قد لا يحس المرء بما لمعناها من عمق مثل احساسه بها « كشعار » على راية عرابى وصحبه ، اذ كانت تعنى شيئا كبيرا ، وهذا هو بالضبط ما أرجو أن يسمح لى القارىء أن أوضحه له ٠ وأنا كمؤلف أعرف أحوال مصر من خلال « المنظار » المالى كان لى رأيى ، وان مثل هذه الموهبة موهبة ابداء الرأى من خلال منظار ملون ، قد وهبت بالمثل لأناس أتجاسر وأصفهم بأنهم يمثلون مختلف السياسات والدبلوماسية والنفوذ الفرنسى والمصالح الثابتة والأفـكار الانجليزيـة المصرية ، ومختلف أصداء ما كان يتردد فى الشرفات التاريخية لفندق شبرد Shepbeard بالقاهرة ٠ كل هؤلاء السادة كان عندهم صبر الانصـات ، وكان لهم معرضهم ، كمـا كان لهم سوقهم المفتوحـة التى يعرضون فيها بضاعتهم ، وجدت المنبر شاغرا للحظة ، خطوت ، ولعلها كانت شجاعة منى أن أخطو الى المكان الشاغر ولبست « منظارى المصرى»، ومن هذا المنبر فاننى أدعو الشعب البريطانى الكريم لمشاهدة « بانوراما » الوطنية المصرية ، وسيتكشف الأمر عن أن الشخصيات الرئيسية فيهـا سيعاونها موكلو الأخيرين ، اننى أعد القارىء بأكثر من هذا ، أعده بأننى سـأتيح له من وقت لآخر ، أن يتعرف على ما وراء المظهر الخـادع لفن السياسـة المصرى ٠

اننى سأبذل قصارى جهدى ألا أجهد من يأتون لمشاهدة ما عندى من « صندوق الدنيا المصرى «Egyptian raree show» » اننى أكاد أتخيل أن بعض المشاهدين سيشكون من أن ما أقدمه لهم من الكوميديا كثير ، فى حين أن ما أقدمه لهم من التراجيديا ليس بالقدر الـكافى ، ولكن دعونى ، ولكن دعونى أرد على الفور على هؤلاء النقاد الصرحاء ، فأقـول بأنه تحت الطابع العميق للمرح يكمن كل الأساس الأصـلى للمجتمـع الشرقى ، ويواجهك فى كل اتجاه ، ولو أننى محوت كل ما يثير الضحك فى قصتى لفشلت فى تسلية قرائى وفى تثقيفهم معا ٠ ان الحقيقـة والحياة متطلبان على حد سواء ، ولذلك ، فسيكون من الأفضل لى أن أنزع منظارى المصرى من البداية ٠ اننا نعيش عصر المراسلات الخاصة والسرعة فى صنع التاريخ ، وأنا أشك كثيرا اذا كان الناس اليوم لديهم من الوقت ما يسمح لهم أن يستوعبوا الموضوعات السياسية الواقعية ويناقشـوا

مدى أسهم ما لحق بجيش « عرابى » من أبناء الشعب من سوء معاملة واذلال وتحقير بعد موقعة التل الكبير • أسهم بنصيب فى تحطيم أمل « الكولونيل هكس » الضائع • وما لم تكن انجلترا مستعدة لأن تهيىء « بداية طيبة » لهذا البلد دون ما تأخير ، فان مغادرتها لها سيكون أمرا مستحيلا •

فى السنة الماضية ، كان نصيبى أن أكتب قصة الغزو الفرنسى ل « تونس » (١) ، أما اليوم فأنا أضع بين يدى قرائى روايتى عن دفاعى عن « عرابى » وصحبه ، التى استلزمت بطبيعة الحال ، تقديم بيان عن الحركة الوطنية المصرية التى صار فيها « عرابى » الزعيم . بموجب الموافقات الضمنية التى خولتها له مصر بأسرها •

لقد كان العقد التاسع من القرن التاسع عشر فترة بالغة الأهمية فى تاريخ شمال أفريقيا • لقد شهد غزو فرنسا ل « تونس » واحتلالها الدائم لها ، كما شهد الحملة الانجليزية على مصر ، وسيتوقف الكثير ، بلا شك ، على القرارات التى ستصل اليها انجلترا فيما يتصل بطبيعة بقائها فى هذا البلد ، فلو كان بقاؤها مؤقتا ، وآخذة فى اعتبارها دائما أن تبدأ البلاد « بداية طيبة » ، كما أكد ذلك رئيس وزرائها مستر جلادستون Mr. Gladstone . ففى هذه الحالة قد لا أكون مبالغا فى تأريخ الأيام الأخيرة ل « طرابلس الغرب Tripoli بليبيا فى سنة ١٨٨٤(٢) ولسقوط امبراطورية مراكش (المغرب) فى سنة ١٨٨٥ (٣) ، ولن يكون هناك ما يمكن أن ينقذ شمال أفريقيا من أن يصبح منطقة جذب للعدوان الأوربى عليه •

---

(١) تونس بماضيها وحاضرها ، آخر الحروب البونيقية Tunis Past and Present, The The Last Punic Wars مجلدات) : لندن ١٨٨٢ ، وكلمة Punic Poenicus كلمة لاتينية محرفة عن أصلها الاغريقى Phonix (فينيقيا) وهو الاسم الذى كان يطلق على قرطاج Carthage فى العصرين اليونانى والرومانى (تونس الحالية) وكانت الحروب سجالا بين روما وقرطاج على السيادة على جزر البحر المتوسط ، وقد امتدت على ثلاث حقب تاريخية : الأولى ٢٣ سنة (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق٠م) والثانية ١٧ سنة (٢١٨ ـ ٢٠١ ق٠م) والثالثة ٣ سنوات (١٤٩ ـ ١٤٦) • وكان أخطرها الحقبة الثانية التى أبرزت شخصية هانيبال Hannibal القرطاجى الذى هزم روما فى عقر دارها فى معركة كاناى Cannae (٢١٦ ق٠م) ، هزمه القائد الرومانى سكبيو Scipio فى معركة زاما Zama فى ٢٠٢ ق٠م ، وكان لهذه الهزيمة خطرها فى قضائها التام على سيادة قرطاج على جزر البحر المتوسط • (المحقق) •

(٢) احتلت ايطاليا ليبيا فى سنة ١٩١٢ بعد هزيمة تركيا فى الحرب التركية الايطالية ١٩١١/١٢ ، ونالت ليبيا استقلالها سنة ١٩٥١ •

(٣) احتلت فرنسا المغرب سنة ١٩١٢ واستقلت سنة ١٩٥٦ • (المحقق) •

« متوال Mutwal في ٢٨ سبتمبر ١٨٨٣

عزيزي مستر برودلى

بالرغم من اننى قد وعدتك بان احرر لك خطابا بالانجليزية خلال ستة أشـــهر ، فاننى احرره الآن رغم ان هذه المدة لم تنقض بعد ، ولكنى اطلعت على خطابك الى صديقى عرابى فوجدتك تخبره فيه أن يطلب منى ان احرر لك خطابا كما سبق أن طلبت منى . اننى اكتب اليك هذه السطور القليلة لترى ما اكتب . أنا الآن على خير مايرام ، وارجو ان يكون حالك كذلك انت الآخر ، وانا سعيد أن أعرف أنك لم تنسنى .

انا دائما

صديقك المخلص

محمود سامى »

بينما كتب لى يعقوب سامى ، الذى كان وكيل نظارة الجهادية وقت أن كان عرابى ناظرها :

« ويفرترى هاوس Wavertree

جزيرة سليف Slave Island

كولومبو فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٣

سيدى العزيز

اود ان اخبرك فى هذه السطور القليلة اننى لم اتلق منك اى خطـــاب منذ فترة طويلة . انا الآن ادرس القليل من اللغة الانجليزية ، معلمى اسمه « أبو سالى » وهو يعمل بالحكومة ، ويقوم بالتدريس لى ساعتين فقط فى الصباح . انه ليسعدنى أن اطمئن على صحتك لذلك ارجو أن تتكرم وتبعث لى بخطاب بالانجليزية يطمئننى عن صحتك . اننى لا اتحدث الانجليزية بطلاقة ولكنى اتحدثها قليلا . هذا هو خط يدى حررت به خطابى هذا لتطلع عليه ، وقد ارفقت مع خطابى خطابا من ابنتى كتبته أيضا بالانجليزية وبخط يدها . اننى فى صحة جيدة وكذلك اسرتى فى صحة جيدة هى الأخرى .

المنى ،

صديقك المخلص

يعقوب سامى

أ. م. برودلى المحترم .

تحت عنوان « الخديو والعصاة » أيد فيه بصراحة أن يعامل العصاة معاملة حازمة على اعتبار أن ذلك اجراء ضرورى ومناسب لحفظ كرامة الخديو فى المستقبل • وجاء فى خطاب سير صمويل : « ان أوربا والعالم أجمع ليشاركون فى التصفيق الذى هو خليق بمهارة واستراتيجية سير جارنيت ولسلى Sir Garnet Woaseky (١) التى لا تعرف التردد • ان السؤال الذى يثار الآن هو « ما هو مصير عرابى والزعماء العصاة ؟ » ان من يتحدون القانون يجب أن يتحملوا العقوبة التى يحددها القانــون وبدون أى استثناء لما تقتضيه هذه الضرورة الرادعة •• لن يكون هناك ما هو أخطر على المصالح الحقيقية لمصر من أن ننصح بالاعتدال فى معاملة المهزومين • وفى العقلية الشرقية أن الرأفة دليل على الضعف ، ويجب أن يتعلم المصريون بالمثل الرادع الذى لا هوادة فيه ، أن الخديو هو الرئيس الشرعى وأنه يمثل حكومة مصر وأن العصيان على سلطانه هو الخيانة العظمى ، وأن عقوبة الخيانة العظمى ستوقع دون ما اتاحة لفرصة تأجيل تنفيذها أو العفو عنها ، واذا كان عرابى وزعماء العصيان الأخير (٢)

---

(١) هو قائد أيرلندى من قادة الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٨٢ ، لم تكن له أية مهارة عسكرية ، حارب عرابى فى معركة القصاصين وكسبها بطريق غير مشروع ، اذ قبل بدء المعركة كسب بالرشوة البدو لجانبه ، كما كسب لجانبه أيضا أحد قادة عرابى وهو الخائن على بك يوسف خنفس الذى سرق التخطيط الذى خططه عرابى بنفسه للمعركة واوصلها الخائن لولسلى مقابل خمسة آلاف جنيه انجليزى مزيفة ، وكانت قوة المصريين ١٨٠٠٠ جندى والقوة الانجليزية ٢٥٠٠ جندى ومعهم الدوق كونوى Duke of Connaugn وكانت الخطة المصرية أن يقود الخائن على يوسف وسط الجيش المصرى ويتقدم فيسحق الجيش الانجليزى ويأسر الأمير ، فبعد قبضه للرشوة المزيفة ترك الخائن ميدان القتال فهيأ الفرصة لكسر جناحى الجيش المصرى ، فكانت النتيجة هزيمة العرابيين • ومما ينهض دليلا على مدى احكام التخطيط المصرى للمعركة ، أما سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson (القنصل الانجليزى فى مصر) لما زار عرابى فى السجن أثنى على خطته فى المعركة (وكان قد علم بسرقتها منه) ، وقال له لو أنها نفذت لهزم الجيش الانجليزى أيما هزيمة •

ومع ما ذكرناه من اجراء غير مشروع قام به ولسلى ، الا أننا لا نهضمه حقه فى أن كانت له مؤلفات عسكرية منها : دليل الجيب للجندى Soldier's Pocket lBook ١٨٦٩) Marlborogh (ونابوليون Napoleon (١٨٩٥) ، وترجمة ذاتية فى جزئين عنوانها ، قصة حياة جندى The Story of a Soldier's ١٩٠٣) (المحقق

(٢) عبارة « العصيان الأخير » أراد بيكر أن يذكر بها أن كان هناك عصيان سابق لهذا العصيان تمثل فى مسيرة الجيش بجميع فرقه المرابطة بالقاهرة ، بقيـــادة عرابى ، الى ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ (فى عهد الخديو اسمعايل) مطالبة بتحقيق مطالب الجيش والأمة : صرف برواتب الجيش المتأخرة وبلاغ عـــدد الجيش الى ما هو محدد فى الفرمانات السلطانية وهو ١٨٠٠٠ جندى ، وعزل نظارة رياض باشا وتعيين شريف باشا

سيحاكمون أمام محكمة عسكرية ويعاقبون ، فانه لا جدال في أن هذا من سلطة الخديو ، ويشترط أن يساندها لمدة لا تقل عن اثنى عشر شهرا ، جيش احتلال بريطاني كاف » ٠

وما كدت أنتهي من قراءة وجهة النظر الدراكونية (١) ٠ هذه فيما يتصل بقضية « عرابى » وصحبه ، حتى وصلنى خطاب ، فنحيت الجريدة جانبا لأفضى الخطاب ، كان الخطاب الذى تلقيته من مستر آلجرنون بورك Mr. Algernon Bourke (٢) ، وكان يحوى العرض الذى لم أكن أتوقعه أبدا وهو أننى يجب أن أتوجه فورا الى القاهرة على نفقة مستر ويلفريد سكون بلنت Mr. Wilfre Scawen Blunt (٤) ، وطبقا لتعليماته ، للدفاع عن « العصاة » الذين نصب لهم سير صمويل بيكر المحكمة وأدانهم ونفذ فيهم أحكامه نظريا طبقا لقانون صارم ٠

فى هذا الوقت كان عرابى أسير حرب احتجزته القوات البريطانية ، اذ بعد دخولها العاصمة المصرية سلم عرابى نفسه وسيفه الى الجنرال لو General Lowe دون ما اراقة للدماء ، وفعـــل صـــديقه ورفيقه طلبة باشا مثلما فعل ، وعقب تسليمهما تولى حراستهما بعناية جنود بريطانيون

= الخواطر الدينية ضد الرقابة الثنائية ، ويخلص منه الخديو قبل أن تبدأ محاكمته ، وتنفيذا فورا ، فاجيبت ، فهل يعتبر هذا الاجراء الوطنى السليم عصيانا ؟ ــ (المحقق) ٠

(١) الدراكونية : نسبه الى دراكون Drakon المشرع الاغريقى الذى عاش فى القرن السابع ق٠م ، والذى اشتهر بقوانينه الصارمة ــ (المحقق) ٠

(٢) كان « آلجرنون بورك » عضـــوا بمجلس العموم البريطـــانى ، وكان يلقبه أصـــدقاؤه ب Button (البرعم) وكان صـــديقا حميما ل بلنت Blunt لقرابتهما من ناحية ثم لتقارب أعمارهما ، وكان من المهتمين بالقضية المصرية ، كان يعمل بجريدة التايمز Times لا كواحد من محرريها بل كضابط اتصال بين شينرى Chenery رئيس تحريرها وقتذاك والشخصيات السياسية التى كان يعرفها جميعها الى جانب معرفته التامة بدنيا المال ، والجدير بالذكر أن عمه هو لورد روبرت بورك Lord Robert Bourk الذى كان زعيم المعارضة فى البرلمان الانجليزى ووكيل خارجيتها آنذاك ٠ (المحقق)

(٤) كان « بلنت » سياسيا انجليزيا نشيطا وشاعرا ، بعد أن خدم فى الســـلك الدبلوماسى البريطانى لأحد عشر عاما (١٨٥٨ ــ ٦٩) شغلته القضايا المناهضة للامبريالية ، ثم زاد اهتمامه بالصراعات الوطنية فى مصر والهند وأيرلندا ٠ كان من أشد المؤيدين لعرابى وقضيته الوطنيـــة المصرية ، بل انه كلف المحامين الانجليزيين الشـــهيرين : برودلى Broadley ونابيير Napier بالتوجه الى مصر على نفقته الخاصة للدفاع عنه ، وكان له انتاج فكرى تمثل فى ديوانى شعر : سونيتات حب بروتيو 7ove Sonner of Proteus (١٨٩٠) وايستر Esther (١٨٩٢) ، كما ألف كتابا سياسيا يعد أحسن ما كتبه من مؤلفات بل ويعد مرجعا فى تاريخ مصر السياسى ، عنوانه : التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر Secret History of the English Occupation of Egypt (١٩٠٧) (المحقق)

وأودعا غرفة من الغرف السفلية في قصر عابدين ولا شك أن استسلام عرابى الفورى قد أثار دهشة الجمهور البريطـــانى (١) ، اذ كان من المتوقع ، بكل تأكيد ، أن تكون هناك محاولة أخيرة ، لفترة ، للمقاومة أمام القاهرة ؛ وأنه ؛ حتى لو كان كل شيء قد فقد في التل الكبير ،فلربما كان من السهل عليه تدمير الاتصالات التلغرافية واطالة عمليات القتال في أعالى الصعيد ، أو كان في استطاعته ـ في سهولة ، أن يختفي (مثلما فعل بعض من أتباعه) عبر قفار الصحارى الليبية أو يلجأ الى الزعيم القوى « محمد السنوسى » على الحدود الجنوبية لطرابلس الغرب • عندما

---

(١) كان اجراء حكيما من عرابى أن استسلم على الفور : اذ أنه ظهر يوم الهزيمة (١٣ سبتمبر ١٨٨٣) كان أعضاء المجلس العرفى مجتمعين منذ ساعات طويلة فى قصر النيل انتظارا لأبناء المعركة ، وبينما هم جلوس حضر عرابى وفى صحبته على الروبى ، وعقد اجتماع حافل للمجلس ضم أعضاء المجلس العرفى وبعض الأمراء والكبراء ، وشرح لهم عرابى أسباب الهزيمة ، ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله هل الاستمرار فى المقاومة أو التسليم ، وكان الرأى الذى استقر عليه المجلس هو انشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة • وتنفيذا لهذا الرأى ذهب عرابى الى العباسية بصحبة محمد محمد مرعشلى باشا باشمهندس الاستحكامات ومحمد رضا باشا قائد لواء الفرسان واللواء حسن باشا مظهر لاختيار الموقع الملائم لخط الدفع ، وطلب من مرعشلى باشا وضع تصميم لانشاء خط دفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس ليمتد يمينا الى الجبل وشمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف الى النيل عند فم رياح ترعة الاسماعيلية بالقرب من شبرا • ثم ذهب عرابى ومن معه الى مركز الطوبجية ، فلما استعرض العساكر الموجودة هناك لم يجد الا ألف رجل من خفراء البلاد بلا ضباط ، ونحو أربعين نفر سوارى فى مركز عساكر الخيالة مع أحمد بك ، فلما شاهد عرابى ذلك علم أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من ويلات الحرب والدمار • فلما رجع عرابى ومن معه الى المجلس العرفى بقصر النيل ، أخبر الحاضرين بما شاهده ، فاستقر رأى الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة الى الخديو يلتمسون فيهـــا العفو عنهم ، ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضية فحرروا العريضة وأمضاها عرابى ومن معه وأرسلوها مع وفد مؤلف من رءوف باشا حكمدار السودان وبطرس غالى وكيل الحقانية وعلى باشا الروبى ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية • فلما وصل جيش الاحتلال القاهرة كان عرابى وصحبه مجتمعين فى دار على فهمى باشا ، الذى كان لا يزال جريحا ملازما بيته بعد اصابته فى معركة القصاصين ، فتلقى عرابى برقية من قائد العباســـية يخبره فيها أن القائد الانجليزى يطلب منه تجريد الجنود من أسلحتهم ، فأمره عرابى بالتسليم • ولما انفض الاجتماع خرج عرابى بصحبة طلبة باشا ومحمود سامى باشـــا البارودى متجهين الى ثكنات الجيش فى العباسية ، بناء على نصيحة جون نينه الفرنسى الذى كان معهم عند زيارتهم لزميلهم الجريح ، على أنه لم يتوجه الى الثكنات الا عرابى وطلبة عصمت ، وقابلا القائد الانجليزى وسلما سيفيهما ، فأمر باعتقالهما باحدى غرف الثكنة ، ثم سارت كتيبة من الفرسان الانجليز ليلا الى القلعة عن طريق الجبـــل واحتلتها ثم احتل الانجليز بعد ذلك ثكنات قصر النيل وقشلاق عابدين ، ثم احتل الانجليز بعـــد ذلك مواقع الدفاع الأخرى دون مقـــاومة (انظر الرافعى : أحمـــد عرابى ؛ ص ص ١٩٣ ـ ١٩٧) ـ (المحقق) •

وصلت لندن أولى أنباء أسره لم يكد يصدقها أحد ، بل ان جامعى المانشتتات التى تشد القارىء فى الصحف المسائية أسبقوا النبأ ، بثاقب وعيهم ، بكلمتى « أشيع » أو « روى » ، بل ان باعة الصحف رغم قلة حرصهم (وكانت بضاعتهم لها رواج مثمر لم يسبق له مثيل) كانوا حريصين على اغفال ذكر ذلك الجزء من الأنباء عند ندائهم على جرائدهم للجمهور المتحمس للحرب والمؤيد لها ، ومع ذلك ، فلقد كان صحيحا تماما أن عرابى أسر ، وأن الخديو حليف بريطانيا المخلص ، وندماءه دمثى الأخلاق مشغولون الآن بالاسكندرية ليرتبوا بأسرع ما يمكن لأسلاك التليفونات التى أعيد اصلاحهم ، أن تسعفهم بها — أن يرتبوا حملة واسعة الانتشار ، للاتصال بأهم أصدقاء الخديو والمتعاطفين معه ، لتكون بمثابة حملة استهلال لدخوله مظفرا الى القاهرة — « المدينة المنصورة » ٠

ولم يكن عرابى أسيرا فحسب ٠ بل كانت حياته أيضا فى خطر ٠ لقد كان أول تعبير عن رأى الشعب الانجليزى فى مصير عرابى — وقد أعلنه وسط فرحته المفاجئة بالنصر — كان تعبيرا لم يكن خليقا بالانجليز : اذ سمعنا للحظة فقط عن الضرورة القصوى للانتقام منه وانتهاز هذه الفرصة السانحة وايقاع العقوبة عليه ليكون عبرة ٠ هذه العبارات مع غرابة التفوه بها ، غالبا ما كانت تصدر من أفواه رجال يؤمنون بالعقيدة السياسية التى يدعونها هم أنفسهم العقيدة الليبرالية Liberal Creed (١)، وقد وردت تلغرافات غزيرة ومتلاحقة من مصر تحمل نفس هذه النغمة وعقد مراسلو الصحف المتحمسون لقاءات مع توفيق وشريف ورياض ليتعرفوا على وجهات نظرهم فى معاملة المهزومين ، فكانت اجاباتهم موحدة — حياة عرابى يجب أن تكون ثمنا لفشله ، عرابى وصحبه يجب أن يموتوا ٠

وللحظة وللحظة فقط ، بدا كما لو أن المبدأ الدموى هو الحل الملائم والذى ارتضته الغالبية ، ومع ذلك فما لبث أن ظهر رد فعل لهذا الاتجاه ، وكان أساسا رد فعل قام به رجل واحد هو مستر بلنت Mr. Blunt ٠ لم يكن بلنت خجلا على الاطلاق من أن يدعو « العاصى »

---

(١) ونسوق مثلا لهذا ما كتبه سير جوليان جولد سميد Sir Julian Goldsmid يوم ٢٦ سبتمبر اذ قال : « اذا كنا قد سلمنا زعماء الثورة الى الخديو ، فمن الواضح أن الواجب يقتضى أن يترك له معاقبتهم نظير جريرتهم طبقا للقانون المصرى ، ونتيجة لذلك ، فمن واجبنا ألا نتدخل فى الحكم الذى لا شك أنه سينفذ على عرابى وعلى غيره ممن الزعماء الرئيسيين فى أية دولة أوربية ، وهو حكم الاعدام ٠٠٠ وفى الشرق ، ينظر الى الرأفة على أنها ضعف وتدعو آخرين الى اقتراف مخاطرات متهورة فاشلة ، ولذلك فاننى أحث الى أنه ينبغى ألا ندع فرصة لاحساس بعطف أو شفقة أو رحمة أن تتسلل وتعوق تنفيذ حكم الاعدام » ٠

عرابى صديقه وأنه خلال المراحل المبكرة للحركة الوطنية فى مصر كثيرا ما كان يقدم له المشورة والنصح ، ولكن كان كل ذلك فى الوقت الذى كان فيه مستر جلادستون Mr. Gladstone لا يزال يؤمن بشرعية مطامح المصريين · لقد تعلم مستر بلنت وزوجته خلال تجولاتها وسط خيام سوريا والجزيرة العربية أن يحبا ويقدرا الجنس العربى ، وقد تعاطفا مع عرابى لأنها كانا يعتبرانه قائدا أمينا لشعب مظلوم يناضل من أجل الحرية · ان الخطر الوشيك الذى يتهدد عرابى الآن قد استوجب سخط واحتجاج مستر بلنت البليغ ، وما لبثت أنى وجدت استغاثته صدى · لم يطالب مستر بلنت الا بأن محاكمة عرابى يجب أن تكون محاكمة عادلة ولما كان الرأى العام الانجليزى كريما دائما ، فانه أيد فى هذه القضية مطلب مستر بلنت ـ قد يكون عرابى مذنبا ولكن يجب أن يسمع دفاعه قبل النطق بمصيره ، وما لبث دعاة اغتنام الفرص أن وجدوا أنفسهم قلة ، وبدأت الصحافة كلها تقريبا ، تصرخ حاثة على محاكمة منصفة وبحث متقص ·

---

(١) كان من بين الشخصيات القيادية فى حركة الاصلاح الليبرالى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر · كان الابن الرابع لتاجر اسكتلندى يتجر فى تجارة الرقيق جمع منها مالا وفيرا وبخاصة أثناء حروب نابوليون · تلقى جلادنستون علومه فى ايتون Eton واكسفورد Oxford . ودخل البرلمان فى سنة ١٨٣٢ ، متجاهلا بذلك رغبة الأسرة فى أن يكون قسيسا انجليكانيا ·

شغل وظيفة بسيطة فى أول وزارة رأسها سير روبرت بيل Sir Robert Peel فى سنة ١٨٣٨ ، وفى سنة ١٨٥٣ شغل منصب وزير الخزانة فى الحكومة الائتلافية التى رأسها ايرل أبردين Earl of Aberdeen · وكان فى مساندة جلادستون لتحرير التجارة والمشروعات ما حرر الصناعة والتجارة من الاجراءات التى كانت تكبلها ، وباسلوبه افتتح عهدا لم يسبق له مثيل من الرخاء القومى ·

كان جلادستون مؤمنا بأن حرية العبادة وحرية التعبير مصاحبتين وملازمتين بحرية التجارة والمشروعات وأن ضمير الفرد يجب أن يحل محل سلطة الكنيسة والدولة ، ومن هذا المنطلق الليبرالى قبل جلادستون أن يعمل فى سنة ١٨٥٩ فى وزارة لورد بالمرستون Lord Palmerstone رغم كراهيته له شخصيا وعدم ثقته فيه · وقد بدأت شعبية جلادستون فى الظهور بمخاطبته طبقة البروليتاريا على أنهم أسمى من يقدر القيم الأخلاقية ·

وبعد وفاة بالمرستون فى أكتوبر ١٨٦٥ خلفه فى رئاسة الحزب الليبرالى ايرل راسل Earl Russel ثم خلفه بعد ذلك فى رئاسة الوزارة ، وما أن اعتزل السلطة فى ديسمبر ١٨٦٧ حتى تولى جلادستون رئاسة الحزب وبعد ذلك شكل أول وزارة له ·

وعقب رئاسة جلادستون للحزب الليبرالى اهتم بقضايا البلاد وفى مقدمتها المشكلة الأيرلندية ، وبعد نجاحه فى كثير من الاصلاحات ، حارب من أجل الدخول فى معركة الانتخابات فى سنة ١٨٧٤ ، ونجح فيها ، وأسندت اليه رئاسة الوزارة أكثر من مرة ، وتوفى فى مايو ١٨٩٨ عن سبعة وثمانين عاما ـ (المحقق) ·

ولم يحصر مستر بلنت جهوده فى كلمات فحسب ، بل عقد عزمه ليس فقط على أن يتحمل وحده ، اذا لزم الأمر ، كافة مصاريف الدفاع عن أصدقائه المصريين ، بل وألا يضع حدا أيا كان للنفقات التى افترض أن يتجشمها . وفى هذا الوضع الحرج للأحداث وقبل أن يهيب بالحكومة وبالجمهور مطالبا بضمان محاكمة عادلة ، عرض على ، من خلال صديقنا المشترك ، مستر بورك ، أن أتولى قضية الدفاع عن عرابى . ربما كان هناك رباط قوى من الوحدة فيما بيننا قد يكون مسئولا الى حد ما عن هذا العرض المغرى غير المتوقع : فقد كنا كلانا متفهمين تقريبا فيما بيننا لقضية عرب شمال افريقيا ، وكنا كلانا نؤمن بكل تأكيد بأن قضيتهم قضية عادلة، وكنت قد كرست نفسى منذ شهر فبراير ١٨٨١ لمهمة تأريخ مسيرة العدوان الفرنسى على تونس ، وقمت بما تمليه على مهنتى بالدفاع عن مسيو ليفى Mr. Levy فى القضية التى كادت تنسى الآن وهى قضية النفيضة Enfida (١) وعن الراحل باى تونس محمد الصادق ، خلال الرحلة العنيفة للغزو الفرنسى التى سبقت قبوله لقيام جمهورية تحت الحماية . وخلال صيف العام الماضى (١٨٨١) نشرت بيانا تفصيليا عن الغزو الفرنسى لولاية تونس Tunisian Regency (الاستيلاء على قرطاج Carthage طبقا للتعبير الدبلوماسى لمؤتمر برلين) تحت اسم « آخر اسم حرب بونيقية » . والعلاقة القائمة بين الأحداث الراهنة فى تونس وتلك الأكثر حداثة فى مصر علاقة وثيقة ، وظهرت الحركة الوطنية فى مصر ، بسرعة ، فى أعقاب تقدم العدوان الفرنسى على تونس ، ولم تمض الا فترة وجيزة فقط قدرها اثنا عشر شهرا بين قصف « صفاقس » وضرب « الاسكندرية » بالمدافع ، بل كادت تتماثل آمال ومطامع وأخطاء وأحزان عرب شمال أفريقيا فى تونس وفى مصر . ولابد لى من أن أعترف الآن أننى أحس بأنه من الصعب على الرد على نقد أصدقائى الفرنسيين عندما يسألوننى فى خبث عما اذا كنت لا أزال أعتقد أن غارتهم على تونس كانت

---

(١) هى قطعة أرض ، كانت مساحتها مائة ألف فدان ، تقع ما بين « تونس » و « سوسة » ، وكان « الباى » قد وهبها ل « خير الدين » ، فلما أقصى الأخير عن الحكم ، باع هذه الأرض الى الشركة المرسيلية (من رعايا فرنسا) فى نوفمبر ١٨٨٠ ، وذلك قبل رحيله الى « تركيا » ، فلما علم بذلك « ليفى » (وهو يهودى من أصل تونسى) ، وكانت أرضه مجاورة لها ، طالب بحق الشفعة فى شراء تلك الأرض ، ومما زاد القضية تعقيدا أن « ليفى » كان قد يجنس بالجنسية البريطانية ، فطلب مساندة بريطانيا له ، فأيده قنصلها ريد Reed وتولى الدفاع عن القضية المحامى البريطانى « برودلى » وكسبها ، وبذلك انتصر القنصل البريطانى على زميله روستان Rousian القنصل الفرنسى ــ (المحقق) .

فى الواقع « آخر » حرب بونيقية أم أننى اقترح تعديل كلمة « آخر » الى « قبل الأخيرة » .

كنت على أهبة العودة مرة أخرى الى تونس عندما تلقيت عرض بلنت ، ولم أضيع وقتا فى الذهاب لمقابلته بخصوص الموضوع . كان عملى فى تونس قد منعنى من أن أتابع متابعة وثيقة المراحل المبكرة للأحداث فى مصر ، وأستطيع أن أؤكد لقرائى أننى لم تكن لدى وقتها أفكار سابقة أو تعاطف شديد لصالح موكلى المقبل لم أكن أؤمن ايمانا كبيرا فى مقدرة عرابى أو فى دوافعه الوطنية ، ولم آكن قد تخلصت تماما من انطباعى المضاد عنه ، الذى كاد أن يكون نتيجة حتمية لما ألتهمه يوميا من جرعات كبيرة من مراسلات خاصة معادية . عندما التقينا مستر بلنت وأنا عصر يوم ١٩ سبتمبر ، حثنى مستر بلنت بما وهبه الله به من نشاط ، على أن أتوجه الى مصر فورا فى مهمة أرادنى أن أضطلع بها . أما عنى أنا ، فقد فكرت على النقيض من ذلك ، فكرت أنه سيكون أكثر فائدة للقضية وأكثر تمشيا مع رسميات مهنتى أنى أحاول الحصول على مقدم أتعابى مباشرة من عرابى قبل أن أتوجه الى القاهرة . لم يكن جام غضب بريطانيا (الذى كان أثناء تقدم العمليات العسكرية فى مصر يزداد توقدا بوجه عام) يعرف الرحمة . اننى أعتقد الآن انه لم يكن من الانصاف أن تنهال على مستر بلنت ما انهال عليه من حملات صورته بأسلوبها الصحفى على أنه « الحليف الانجليزى لعرابى » ، بل ان نبيلا لوردا ، وصف بلنت ، فى براعة ، فى معرض نقاش وقور فى مجلس اللوردات ، بأنه « ليس الا « عرابيا آخر يرتدى سترة انجليزية رسمية » . لقد أحسست أن قبولى لمقدم أتعابى من عرابى نفسه سيحسن ويعزز وضعى في مصر، ويتيح لى في الوقت نفسه بأن أطالب بصورة أفضل بكل قوة تعاطف الرأى العام أيكون فى صالحه . وبعد تشاور طويل ، وافق مستر بلنت على اتباع الأسلوب الذى اقترحته ، وتم الاتفاق على أننى يجب أن أتوجه فورا الى تونس ، وهناك ، فى منتصف طريقى الى مصر ، انتظر وصول مقدم أتعابى الذى طلبت الحصول عليه ؛ وفى الوقت نفسه كتب مستر بلنت الى عرابى الرسالة التالية التى تشرح كل خططه :

٢٢ سبتمبر ١٨٨٢

الى عرابى باشا

اللهم احفظك فى الضراء والسراء . انت كجندى ووطنى ، ستدرك الأسباب التى حالت بينى وبين الكتابة اليك أو ارسالى أية رسالة لك خلال الحرب التعيسة الأخيرة ، والآن ، أما وقد انتهت الحرب ، فاننى آمل أن أوضح لك أن صداقتنا لم تكن مجرد كلمات فحسب ، اذ يبدو من المحتمل تقديمك للمحاكمة اما بتهمة العصيان أو بتهمة

اخرى غيرها ، طبيعتها لم أعرفها بعد ، وما لم يكن الدفاع عنـــك دفاعا قويا وبارعا فستواجه الكثير من المخاطر بأن يعجل بالحكم عليك ، ولذلك ، فقد قررت ، طبقا لموافقتك ، ان أحضر الى القاهرة لاساعدك بكل ما يمكننى أن أقدمه من أدلة ، وســـيرافقنى محام انجليزى ، أمين وعالم ، ليتولى الدفاع عنك ، وقد أحطت علم الحكومة الانجليزية بمقصدى ، ولذلك ، أرجوك ، بدون ما تأخير ، ان تفوضنى بأن أتولى هذا الأمر نيابة عنك ، لأن موافقتك الشكلية ضرورية ، وسيكون من الأفضل لو بعثت لى بتلغراف وأن تبعث لى ايضا بخطاب تفوضنى فيه أن أعين محاميا باسمك . ان كثيرين من الانجليز من ذوى العقلية الليبرالية من ذوى المناصب الرفيعة سيشاركوننى فى تحمل كافة مصاريف القضية ، وتستطيع أن تعتمد على شخصيا لتعلم ان أسرتك ، طوال فترة اسرك ، لن تترك فى عوز . وانى لأرجو الله أن يمنحك الشجاعة على تحمل الأذى بالصبر .

و. س. ب.

[هذه الرسالة لم تصل عرابى على الاطلاق ، ويبدو أنها ضلت طريقها دبلوماسيا .]

الفصل الثانى

لقاء فى آسنيير Asnières على نهر السين

بعد ذلك بيومين ، غادرت لندن متجها الى تونس ، وكان اهتمامى بالشئون المصرية قد زاد ، بطبيعة الحال ، الى حد ما ، لاحتمال (ولم يكن بعد الا احتمالا) أن أتولى الدفاع عن عرابى ، وأثناء اقامة قصيرة لى فى باريس ، توجهت لزيارة خديو مصر السابق ، وقد كان مقيما وقتها فى حى مجاور لمكان اقامتى ، وقدمت له خطابا من ابنه الأمير ابراهيم يقدمنى له • ولقد سررت بالغ السرور من حديثى مع اسماعيل باشا ، رغم أن حديثه لم يشجعنى كثيرا بالنسبة لمهمتى المقبلة فى البلد الذى كان هو فيه يوما ما أعتى حكامه • وقت زيارتى له ، كان يقطن فيلا سورها أبيض تطل على نهر السين Seine عند آسنيير • ولم يكن القصر الذى ينزل به يميزه عن غيره من القصور أمثاله فى شارع سانت دينيس Rue St. Denis ، وكان رقمه من بينها رقم ١١٨ ، سوى أنه كان معروفا بأنه القصر ذى الشرفة Château de la Terrasse ، وكان مالكه مسيو آرثور Mr. Arthur ، وقد أثثه السمسار بأزهى طراز من التنجيد الفرنسى الحديث • وقد استخدم هذا القصر لأكثر من مناسبة كمأوى مؤقت للملوك أقصوا عن عروشهم • وكانت ساعات الحائط العديدة والأوانى المعدنية المكفتة والزهور الصناعية والستائر المتعددة الألوان وستائر الأبواب Portières ، تذكر المرء فى آن واحد بقصور القسطنطينية وبشارع وردور Wardour بلندن ، والكن كان لها ما يعوضها الى حد ما من حديقة ظليلة ومشهد لنهر منعطف تحتها • استقبلنى اسماعيل باشا فى صالون من صالونات الطابق الأول ، صورة طبق الأصل من الغرف التى تحتها ذات الزخارف الزاهية • كان اسماعيل باشا يحمل

سنوات عمره الاثنين والخمسين فى صحة جيدة ، وكان شعره الخفيف قد بدأ يخطه اللون الرمادى ، وهو لا يزال يرتدى الطربوش التركى كما كان يرتديه من قديم الزمان ، وكانت لحيته الصحرة (١) قد قصرت كثيرا وشذبت بعناية ، وكان قد ازداد بدانة بعض الشىء منذ نكباته ، وكان فى الامكان ملاحظة هذا التغيير أكثر بسبب قامته التى لم تزد عن خمس أقدام ، وكان لا يزال حريصا على ارتداء معطف الفروك Frock Coat الذى لا يتخلى عنه ، وكان يلبس دبابيس وزراير مرصعة بالجواهر . كان اسماعيل باشا يتحدث الفرنسية بسرعة ومع الكثير من الايماءات الفرنسية ، وكان دائما يغلق احدى عينيه عندما يكون منتعشا . كان هدوءه وأسلوبه الجليل يشهدان كلا الاهتمام والتعاطف ، ويبدو أنه كان مشوقا لأن يتحدث بالتفصيل عن محنة مصر ، وأبدى رأيه فى كل النقاط التى نوقشت بصراحة وبدون أدنى تردد أو تحفظ . لقد بدأ حديثه بملاحظة أن ما أدهشه هو أن ينظر اليه الآن فى انجلترا نظرة حاكم متهم بتعضيده المصالح الفرنسية فقط طوال حكمه فى مصر . وقال : « لقد كان كل شىء انجليزيا يوما ما فى مصر ، وكان الرجل الانجليزى على رأس كل مصلحة تقريبا ، وقد استمر هذا الوضع حتى قدوم مستر كيف Mr. Cave (٢) ، وكان مستر كيف وانجلترا يرغبان فى تعاون فرنسا ومشاركتها ، وفى النهاية حصلت انجلترا على أكثر مما أرادته من تعاون ومشاركة فرنسا ، ولكن كان الخطأ خطأها وحدها وليس خطئى أنا » .

وفى حديثه بوجه عام عن الرقابة الثنائية ، علق بعد ذلك قائلا : « كانت الفكرة فى الأصل ممتازة ، ووافقت عليها على الفور ، وكان من الممكن أن تعمل الرقابة على خير مايرام وبصورة مرضية جدا ، لو أن

---

(١) الصحرة Cluburn (بضم الصاد وتسكين الحاء) السمراء النحاسية (المحقق)

(٢) كان « كيف » عضوا بالبرلمان الانجليزى ، أوفدته حكومته فى سنة ١٨٧٥ على رأس بعثة من الماليين ، تلبية لطلب الخديو اسماعيل الذى أوعز به الى قنصل انجلترا العام مستر ستوتون Mr. Stauten ، لدراسة الحالة المالية فى مصر ، أملا فى اعادة ثقة البيوت المالية الأوربية فى مصر ، خاصة بعد شراء انجلترا لأسهم مصر فى قناة السويس . ولم يلجأ اسماعيل ، كعادته ، فى أداء هذه المهمة الى فرنسا نظرا لخروجها من حربها مع ألمانيا (التى بدأت سنة ١٨٧٠) منهوكة القوى . وقد قدم « كيف » تقريره الذى أوضح فيه سوء الحالة المالية فى مصر التى كان من بين أسبابها القروض المتوالية والاسراف فى حملات حربية لا فائدة منها ، واقترح كشرط ضرورى الى اصلاح انشاء رقابة مالية يحترم الخديو قراراتها ولا يعقد قرضا الا بموافقتها . ولما علمت فرنسا بذلك أوفدت أحد موظفيها الماليين مسيو فيله Viller لمساعدة الخديو اسماعيل على تنظيم ماليته وحتى لا تنفرد انجلترا بالتدخل فى شئون مصر . (المحقق)

المراقبين حصروا حماسهم واهتمامهم فى اختصاصاتهم المالية ، ولكنهم كانوا من الوهلة الأولى ، وكلاء سياسيين فى كثير أو قليـــل ، وكانوا يريدون أن يحكموا البلاد بالاضـــافة الى ادارتهم لايراداتها . لقد كان الموظفون الفرنسيون يتدخلون دائما فى شئوننا الداخلية أكثر من زملائهم الانجليز بالدرجة التى دفعتنى مرة لأن أقول لنابليون الثالثNapoleon III « ان ممثلكم يتدخل كثيرا فى شئون مصر حتى انه لا يترك لزميله الانجليزى فرصة ليتدخل بالمرة سواء رضى أو لم يرض » . وعندما صار المراقبون يفرضون تعيين أو تنحية القناصل العاملين ، خولوا لأنفسهم سلطة محفوفة بالخطر لها نتائج خطيرة فى المستقبل » . وكان اسماعيل باشا يعتقد أن النتيجة التى كانت متوقعة والتى أثرت على أذهان المصريين هى تعيين موظفين أوربيين عديدين فى الوظائف الحكومية بصورة جاوزت التقدير . لقد كان الأسلوب الذى وزع به هؤلاء الموظفون الأوربيون هو المسئول أساسا عما لحق بالبلاد من ضرر ، وقال : « لقد وضعت أنا الأوربيين من كافة الشعوب فى مختلف فروع خدمات الادارة المصرية ، ولكنى كنت أراعى دائما الكفاءة الفردية العالية للمعينين . لم يشك أحد من هذا ، ولكن لما جاء الوقت الذى كان يعين فيه الأوربيون جملة ، لا لشىء الا لأنهم أوربيون « ومحميون » فحسب ، بغض النظر عن مؤهلاتهم الشخصية أو قدرتهم على القيام بأعباء الواجبات الموكلة اليهم ، عندئذ ، نظر الى الوضع بحق على أنه حيف بالغ الخطورة فعلا » .

ثم وصف اسماعيل الحركة الوطنية بقوله : « اننى لا أؤمن للحظة، فى صدق أو مدى أو وطنية ما يطلقــون عليه الشعور الوطنى بوضعه الراهن اليوم ، بالرغم من أن الوطنية المصرية الحقيقية قديمة قدم التاريخ . ان الجيل الحالى من الوطنيين المصريين جن جنونه لافتقاره الى زعيم قوى ، وفشل قضيتهم ما هو الا نتيجة طبيعية لضعف الحكومة المصرية من ناحية، ونجاح المؤامرات التركية من ناحية أخرى . والوحدة الاسلامية ليست ابداعا جديدا ولكنى لم أسمع عن نشاطها على الاطلاق . ومن وقتها ترك العنان لمختلف المشاورات ، ونحن الآن نواجه النتائج . كنت دائما أضع لى ترتيبى بوسيلة أو بأخرى ، كيف أتحكم وأوجه الحماس الدينى لرعاياى فى مصـــر ، ولكن عنـــدما تأتى كلمـــة الأمـــر من القسطنطينية وليس من القاهرة ، يصبح الحماس الدينى تعصـــبا دينيا ، ومن ثم كان الوجود والتأثير والنجاح المؤقت لشخص فى وضع « عرابى » ، أمرا ممكنا . اننى أتذكر عرابى جيدا (١) . ان انطباعى عنه انطباع غير مرضى . يمكن

(١) لم يكن الخديو اسماعيل مخطئا فيما قاله ، لأنه يذكر لـ « عرابى » اشتراكه فى ثورتين : أولاهما فى فبراير ١٨٧٩ ، وكان الباعث على شكواهم من تأخر رواتبهم ،

تصوير « عرابى » فى كلمة يطلقها الفرنسيون وهى مخادع blagueur فهو يتكلم ولا يفعل الا القليل ، ولكن أشجع رجال حزبه هما « على فهمى » و « عبد العال » ، فهما جنديان بحق ، ولكننى أشك اذا كان عرابى نفسه أو أى واحد منهم يمكن أن يعرف تعريفا ذكيا « الوطنية » أو « الشعور الوطنى » اننى مشدوه كيف أن نصف أوربا تميل الى اعتباره المنقذ المنتظر لبلاده • ان الحقيقة هى أن الشعب المصرى يجب أن يتكىء على شىء ويتبع شخصا ما • لقد كانت الحكومة المصرية ضعيفة بصورة ميئوس منها ، وكان « عرابى » وصحبه يعرفون ذلك • لقد حقق هو وموالوه ثلاثة نجاحات واضحة وبارزة (١) ، وقد شهد المصريون هذا ، ورأوا أكثر من هذا أن ممثلى الدولتين العظميين ، من الناحية العملية مؤيدون له • لقد أشار عرابى ، فى انتصار ، الى هذه الحقائق ، وذكر للمصريين أن فى استطاعته أن يعيد وسيعيد مصر للمصريين ، ولم يكن غريبا ، فى مثل هذه الظروف ، أن يتمسكوا به على اعتبار أنه السفينة الأقوى • لقد كانت الحركة التى رأسها منذ البداية تلقى تشجيعا فعالا من القسطنطينية ، ولكن كان أمرا بعيد الاحتمال تماما أن كان السلطان نفسه أو أحد من نظاره المسئولين ، على اتصال مباشر اما به أو بأعوانه ، اذ ان الاتصال المباشر ليس مظهرا من مظاهر التآمر التركى ، لأن النتيجة المطلوبة يمكن أن تتحقق بدونه » •

أما عن نظام الحكم الجديد فى مصر ، فكان رأى اسماعيل فيه واضحا كل الوضوح ، اذ ذكر أن مصر ستستقل عن الباب العالى ، وهو مؤمن بأن الحماية البريطانية ليست أمرا محتوما فحسب بل هى أحسن شىء لرفاهية

= واحالة ٢٥٠٠ منهم الى الاستيداع ، فذهب نحو ٦٠٠ ضابط يتبعهم لفيف من طلبة مدرسة الجهادية ونحو ٢٠٠٠٠ جندى الى مبنى نظارة المالية بحجة مظلمتهم ، الى « نوبار » وسير ريفرز ويلسون Sir Rivers Wilson ناظر المالية ، فهجموا على « نوبار » واعتدوا عليه بالضرب ، واعتدوا على سير ريفرز ، وحبسوا نوبار ورياض (وكان وقتها ناظرا للداخلية) كما حبسوا أسير ريفرز ، وكان نتيجة هذه الثورة سقوط نظارة نوبار ؛ أما **ثانيتهما** ، فهى المظاهرة العسكرية التى توجهت الى سراى عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وطالبت بعزل رياض وتشكيل مجلس النواب ، وابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية (١٨٠٠٠ جندى) ، وأذعن الخديو لمطالب الجيش ، فتولى شريف النظارة وشكل مجلس النواب ، ووصل عدد الجيش الى النصاب المحدد له بالفرمانات السلطانية • (المحقق)

(١) فى هذه العبارة اشارة الى مسيرة الجيش التى قادها عرابى الى سراى عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ (وكان اسماعيل لا يزال خديوى مصر) ، ونجحت فى تحقيق مطالبها التى انحصرت فى ثلاثة بنود : (١) عزل رياض باشا (٢) تشكيل مجلس النواب (٣) ابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية (١٨٠٠٠ جندى) ، وقد تحققت هذه المطالب الثلاثة جميعها ، فعزل رياض وتولى النظارة بدلا منه شريف باشا ، وفى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ افتتح مجلس النواب ، كما وصل عدد الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى • (المحقق)

البلاد ، وفى اعتقاده أن الحماية ستعتمد أساسا على قوة الحكومة المحلية التى تدين للحماية بالتبعية • لقد كان هبوط المسعى والفوضى فى تونس : النتيجتين الطبيعيتين لحماية شيء وهمى • ان خديويى المستقبل يجب أن يحكموا بسلاح قوى ، ويتقبلوا تحمل المسئولية الشخصية ، لأن النظار الذين يتحملون المسئولية مازال من النادر وجودهم فى مصر •

ان مجلس النــواب يجب أن يستشــار فقط فى أمور الترتيبــات الداخلية ، أما أن تعطيه سلطة الرقابة أو حتى التدخل فى السياسات الخارجية فسيكون انتحارا له • وكان اسماعيل باشا يساوره قليل من الشك فى أن حكومة قوية فعلا فى مصر ستكون لديها اليوم فرصة أكبر للنجاح فى ظل حماية انجليزية حقيقية عن أن تكون تحت سـيادة تركية وهمية وتحــدث الخديو الســابق ، بمرارة بالغة عن موضــوعين آخرين ـ ابنة توفيق وعن مستقبل الامبراطورية العثمانية ، فقال : « من أجل توفيق قبلت البساط » وأذللت نفسى لســبعة عشر عاما أمام جلالة الســلطان • لقد حصلت من أجله على الفرمان الذى كثيرا ما كنت أتمناه وهو أن تكون الوراثة مباشرة فى فرعى ، ولكنه أظهر نفسه أنه خلو من العقل والقلب والشجاعة «ni tête, ni coeur, ni courage ، وكل هذه الخصال متطلبة لحــكم مصر • انه ابنى ، ولا أقول عنه أكثر من هــذا • ان أيام الامبراطورية التركية معدودة (١) • وقد استسلمت الخلافة ، اليوم ، فى الحقيقة للنتائج المؤسفة لمؤامرة الوحدة الاسلامية ، ولا تلبث أن تلحق السلطنة بها • ان ما عجل بانهيارهما كليهما : الدبلوماسية الضعيفة التى ساعدت فرنسا على اثارة السخط فى طرابلس الغرب Tripoli ، وكانت سببا فى اراقة الدماء فى مصر » •

---

(١) لقد صدقت نبوءة الخديو اسماعيل ، اذ لم تمض أكثر من أربعين سنة على حديثه مع « برودلى » حتى تحولت « الامبراطورية » العثمانية الى « جمهورية » تركية تحت رئاســـة كمال أتاتورك Kemal Ataturk (١٨٨١ ـ ١٩٣٨) ، وكان حكمه ديكتاتوريا ، ومن أبرز انجازاته أنه فصـــل بين الكنيســة والدولة ، وألغى : (١) نظام تعدد الزوجات (٢) حجاب المرأة (٣) ارتداء الطربوش والملابس الوطنيـــة (٤) الألقاب (٥) استخدام الحروف العربية واستخدم بدلا منها الحروف اللاتينية ؛ وأحبط الشيوعية ، وكان أول من طبق نظام أخذ احصــائيات النفوس ، وطور الصــناعة ، وبوجه عام ، جعل تركيا دولة غربية • (المحقق)

غادرت باريس فى اليوم التالى متجها الى تونس • وكانت زيارتى لمصر التى تلت ذلك قد صححت لى أشياء كثيرة عرفتها فى لقائى القصير مع حاكم كان يوما ما حاكما ناجحا ، ولكننى ما لبثت أن وصلت الى نتيجة مختلفة اختلافا واسعا عن وجهة نظره فيما يختص بطبيعة ومدى قوة تلك المرحلة من المطامح الوطنية المصرية التى خلقت من « أحمد عرابى » زعيما للشعب •

الفصل الثالث

من تونس الى الاسكندرية

بلغت تونس مبكرا صباح يوم ٢٧ سبتمبر ، وكان الوضع السياسى هناك قد طرأ عليه تغيير طفيف أو لم يطرأ عليه تغيير منذ أن غادرتها من ثلاثة أشهر مضت ، وكان مسيو كامبون Mr. Cambon الذى خلف مسيو روستان Mr. Roustan (١) ، يعتقد أنه من المناسب انتهاج سياسة تكاد تعتبر تحسينا للنشاط العسكرى لسياسة سلفه : اذ لجأ الى نوع من اللامبالاة المعوقة والمثيرة للفتن وذلك ليدفع بالقوتين (٢) الى امتثال سريع لرغبته الشخصية ولرغبة حكومته فى الغاء الامتيازات الأجنبية — آخر مظهر متبق واضح لمصالحهما فى البلاد ، وفى الوقت نفسه ، ترك الأوربيون والتونسيون بالمثل ليواجهوا فى أحسن صورة ممكنة نتائج البلبلة السائدة ، وينتظروا فى صبر : أفضل الأوقات التى وعدهم بها مسيو كامبون عندما تحكم الامبراطورية الفرنسية وحدها وتكون لها اليد الطولى فى البلاد . وكانت الصحف التركية (حتى نفس ليلة معركة التل الكبير : وطنية متعمدة المناداة بالوحدة الاسلامية) قد وصلت باسم وشهرة « أحمد عرابى المصرى » الى كل جزء من تونس التى صارت مؤخرا بعد غزوها ، تحت الوصاية الفرنسية ، لقد كان التونسيون يتضرعون

---

(١) شغل مسيو روستان منصب القنصل الفرنسى لتونس منذ سنة ١٨٧٤ ، ويعد أول مخطط لغزو تونس من الجزائر سنة ١٨٨١ واعترافا من فرنسا بخدماته أنعمت عليه بمنصب الوزير المقيم بتونس ، وظل يشغله حتى سنة ١٨٨٢ عندما خلفه كامبون فيه . (المحقق)

(٢) المقصود بالقوتين هنا : انجلترا ثم الباب العالى — (المحقق)

الى الله فى المساجد والأضرحة فى القيروان المقدسة لكى ينصر الله عرابى ، وكان الزعيم التونسى العجوز الأعرج « على بن خليفة » لا يزال ملتزما ومؤمنا ، ولكن فى قنوط ، بالوعود الخلابة التى وعدها الخليفة السلطان العثمانى خاصا بالحدود الطرابلسية . وبدأت مرة أخرى تدب الشجاعة بين التونسيين ، فلقد كنت تسمع عربيا يهمس لأخ عربى مثله متسائلا : « هل يمكن أن يظهر فى النهاية منقذ فى العالم الاسلامى ؟ » .

عندما عرف عرب تونس أن الرجل الذى عقدوا عليه كل الآمال قد هزم وأنه أسير الآن ، أحسوا تماما كما أحس اخوانهم المصريون ، بمرارة القنوط . ولا شك أن انتصار انجلترا فى مصر قد وفر على فرنسا غزوا ثالثا لتونس كما حطم فى المهد ثورة عربية كانت ستمتد من القاهرة الى الجزائر . لقد كان من نتيجة فوز القوات البريطانيـة فى معركة التل الكبير أن جعلت انسحاب جزء كبير من جيش الاحتلال الفرنسى فى تونس اما أمرا تمليه الحكمة أو تمليه الضرورة .

وطوال الأيام القليلة التى بقيتها فى تونس تبادلنا : مستر بلنت وأنا ، رسائل تلغرافية مستمرة فيما يتصـل بالفرص المختلفة التى سيسنح بها لدفاع حقيقى عن « عرابى » . ولم يزد من قلقى الا ما كانت تعلنه وكالة هافاس Havas بانتظام اما عن سرعة بدء المحاكمة وتوقع تنفيذ الحكم على موكلى ، أو توكيد استبعاد حضور المحامى الأجنبى الذى سيتولى الدفاع عنه . وفى الوقت نفسـه كان معـاونى المنتظر مـارك نابير Mark Napier (١) قد وصـل الى القـاهرة ، وبمسـاعدة مستر ايف Mr. Eve (٢) كان يبذل أقصى جهوده ليبدأ اتصاله بالأسير نفسه . على أن فترة القلق ما البثت أن انتهت أخيرا : اذ فى ٩ أكتوبر وصلنى تلغرافان موجزان من زميلى فى القاهرة ، « تلقينا وعدا بالاتصال به ،

---

(١) نبيل بريطانى ، وهو المحامى الثانى الذى اختاره مستر بلنت ليعاون برودلى فى مهمـة الدفاع عن عرابى ، وصـحبه فيما بعـد ، وكان سبب اختيـار بلنت له أنه واسع الاتصالات والحصول على معلومات ، الى جانب علمه التام بالقانون ، وكان من السهل عليه استخدام الأساليب الدبلوماسية باعتباره ابن دبلوماسى بريطانى سابق ، فضلا عن تحدثه الفرنسية بطلاقة ، كانت مهمته أن يذهب الى القاهرة ، ويسـتطلع الجو وذلك بالاتصال فورا بمستر ماليت Mr. Malet قنصل بريطانيا العام فى القاهرة ويخبره بأنه محامى عرابى ويصر على رؤية موكله ، فلو رفض ماليت فله أن يحتج على ذلك ، ولكن من حسن الطالع أنه وفق فى مهمته ، فبعث بتلغراف الى برودلى ينعجل قدومه للقاهرة . (المحقق)

(٢) هو محام آخر كان قد رافق « نابير » فى سفره الى مصر ، ولكنه لم يبق طويلا ، اذ مالبث أن غادرها بعد وصول « برودلى » بقليل . (المحقق)

احضر فورا » ، وكان الثانى من مستر بلنت « سمحوا بالمحامى ، ابدأ فورا » ٠

ومما زاد فى سوء الطالع أنه لم تكن هناك باخرة مسافرة الى مالطة Malta ، ولم أبدأ رحلتى أخيرا الا يوم الخميس التالى (١٢ من سبتمبر) ٠ وكان من بين القلة المسافرين الذين رافقونى : قنصل فرنسى عائد ، رغم أنفه malgré lui الى منصبه فى مالطة ، ويبدو أنه أثناء اقامته بها تعرض لاهانة اذ أنه استدعى أمام قاضى وطنى نظرا لاهانة القنصل الفرنسى للمحكمة ، ومن جراء ذلك كان لا يتوقف ، فى فترات احساسه بدوار البحر ، عن شتم المالطيين (وكان دائم الوصف لهم بأنهم الزنوج les nègres) وشتم جمهوريته التى أعادته ثانيــة فى قســوة بالغة ليعيش بينهم ، وشتم الحكومة البريطانية التى رفضت فى غير ما انصاف أن تنتقم لأخطائه ! ، ثم حول شتمه الى « عرابى » لأنه لم يسعده الحظ بما فيه الكفاية ليضرب الانجليز ، وأكد لى أن مهمتى لا طائل تحتها لأن الأسرى سيضربون بالرصاص بكل تأكيد قبل وصولى ، وأضاف : « هذا لو كان الانجليز سيفعلون مثلما نفعل نحن الفرنسيين فى ظروف مماثلة » ٠ وفى غســق الليلة التالية وصــلت باخرتنا مينــاء فاليتا Valetta ، وعلى الفور ، عبرت الشوارع التى أعرفها حق المعرفة ، وهى شـــوارع ذات ســـلالم ، واتخـذت طريقى الى جراند أوتيــل Grand Hotel ، حيث توقعت أن أتلقى تعليماتى الأخيرة من مستر بلنت ٠ حيانى سالفو Salvo . رئيس النزل ، وكنت أعرفه من قديم ، حيانى بابتسامة عريضة ٠ لقد لاحظت أن نبأ مهمتى قد وصل مالطة بالفعل ٠

قال لى سالفو : « ان المالطيين مغتبطون جدا لتوجهك للدفاع عن عرابى ، ولكن من المؤكد أن سيكون القائد الانجليزى قد شنقه قبل أن تصل الى مصر » ، وبذلك لم يكن سالفو أقل تثبيطا من صديقى القنصل الفرنسى ، ولكنه سلمنى تلغرافين واحدا من لندن والثــانى من القاهرة يحثانى بالاسراع ما أمكننى ذلك ، الى وجهتى ٠ وفى الصباح التالى صحوت مبكرا لأتأكد متى ستغادر الباخرة ميناء مالطة متجهة الى الاسكندرية ، ولدهشتى البالغة علمت أنه ليس هناك موعد محدد بالمرة ، وأننى تأخرت يوما واحدا عن موعد الوصول الاسبوعى للباخرة القادمة من صقلية Sicily فقفلت راجعــا وأنا أحس بخيبة الأمل طــوال ســيرى بشـــارع الملك Strada Reale ــ وهو فى مالطة مثل شارع ريجنت Regent Street فى لندن ــ واذ من باب أحد المحلات تحيينى شخصية من الشخصيات العامة المحلية ، صديقى مستر بيترو باولو بورج Petro Paolo Borg تاجر التبغ الناجح ، والذى يتجر فى الدنتلا والمرجان والمصوغات الفضية



الفصل الرابع

القـاهرة

ما أن خرجت من شارع ضيق مزدحم حتى وجدت نفسى فجأة أمام مشهد مقفر كان يوما ما الميدان الكبير · كثير من البيوت الخربة قوضت والحجارة كومت باتقان بجانب الطريق · ومن حين لآخر ، كان « جمالون » مقفر ، أو علامة احترقت أو لوحة نحاسية مهشمة تحدد مكان دكان معين أو مكتب معين ، وشاهدت أكثر من رقعة اسم محطمة لقنصلية مدمرة لا زالت معلقة بالحوائط التى تكلست · ما كنت لأتخيل هذا المدى الذى بلغه الخراب · ومع ما تبقى من الاسكندرية كانت لا تزال تحتل مكانة المدينة الأولى فى القطر المصرى · كان وسط الميدان الكبير مليئا بحوانيت خشبية وأكواخ ، وأكبر جانب منها يبدو أنه كان مخصصا لبيع المشروبات الروحية ، وبين الأطلال ، وبعيدا عن اعاقة مانحى التصاريح ومأمورى الضرائب ، انتعشت الحركة فى خمارة « جورج أمير ويلز » و « البار الأمريكى » و « البحار البريطانى » و « التل الكبير » و « أسلحة ولسلى » ، كما أقام باريسى أشقر مقهى كبيرا عبر الرصيف ورفض فى عناد أن يتحرك من مكانه ما لم يدفع له تعويض مادى ·

وما لبثت أن وصلت محطة السكة الحديد ، وكان كل شىء فيها فى ارتباك ، ولكنى دبرت أمورى لأسجل أمتعتى ولأضمن مقعدا فى قطار خاص يصل القاهرة بعد الظهر · وبينما كنت أنتظر على الرصيف ، استرعى انتباهى شىء أو شيئان بصورة خاصة · لقد لاحظت فى المقام الأول أن احتلال بريطانيا لمصر له ما له من فطنة (لو صح لى أن أدعوه كذلك) · لقد شاهدت جنديين انجليزيين فى الاسكندرية ، أحدهما يقوم بالخدمة فى المدينة والآخر يقوم بالخدمة عند نهايتها · فى تونس

اعتدت على صوت ورؤية الغزاة المستمرة ، قعقعة المهاميز على الرصيف وزيادة الطلب على احتساء شراب الآبسنث absinthe (١) فى المقاهى التى كان يتردد الجند عليها كثيرا ، والموسيقى والدوريات التى لا ينقطع مرورها جيئة وذهابا . اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من القول (فى مجال المقارنة بين الغزوين الفرنسى ل « تونس » والانجليزى ل « مصر ») أن خطة غزو انجلترا لمصر لم تسبب الا القليل من الحزازة فى القلوب . والتناقض بين الجمهور المصرى والجمهور التونسى تناقض واضح جدا ، ففى أحدهما المظهر الرئيسى هو الملابس القاتمة ، زرقاء داكنة أو سوداء ، أما الآخر فملابسه زاهية وبيضاء تبهر البصر . أما بالنسبة لأشكالهم فان أصدقائى التونسيين هم بكل تأكيد يفضلونهم . وقبل أن أبدأ رحلتى اشتريت جريدتين مصريتين ، وقد جاء فيهما أن المهاجرين (كما كانوا يدعون) الذين غادروا مصر فى أفواج فى يونيو ، عائدون اليوم بكامل قوتهم . وكانت العربة التى ركبت فيها مكتظة الى أقصى حد .

وبعد بضع دقائق من مغادرتنا للاسكندرية مررنا بخطوط عرابى ، وكانت التحصينات عند كفر الدوار لا تزال على حالها بصورة واضحة . كان رفاقى فى السفر ودودين وثرثارين ، أحدهم محام فرنسى من القاهرة كان عائدا اليها مع كل أفراد أسرته . لقد اعترف بأنه يمكن أن يقال الكثير دفاعا عن عرابى ، وأشار الى أن أشخاصا كثيرين من ذوى المناصب الرفيعة سيصلون الى تسوية لموضوعه ، واعترف لى بصراحة أن بين يدى قضية عظيمة un beau procès ، وكان يجلس عن يسارى أستاذ ايطالى يدرس الكيمياء — تمادى فى الحديث معى . لقد كان من رأيه أن عرابى مخطىء بصورة عامة ؛ بل ذهب الى أبعد من هذا ، الى أنه عرض على بعض الاقتراحات الغامضة ، وتمنى لى النجاح فى مهمتى ، ثم اتجهت لقراءة جرائدى . كانت بكل تأكيد أقل تشجيعا على قراءتها من سماعى لأحاديث رفاقى فى السفر . لقد وجدت فى جريدة « الجازيت المصرية » ، وهى جريدة الرأى العام الانجليزى فى مصر ، وجدت خطابا مطولا موقعا عليه باسم أ. ت. روجرز بك E.T. Rogers Bey ، لا يمكننى أن أمنع نفسى من أن أنقل منه بعض اقتباسات . لقد بدأ الخطاب على هذه الصورة :

سيدى ،

لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أكتب اليك بضعة أسطر ، باعتبارك رئيس تحرير الجريدة الانجليزية الوحيدة بمصر ، لأعبر عن رأيى القاطع ، سيكون هناك اجهاض للعدالة

---

(١) شراب مسكر ، شديد التأثير ، مقطر من الخمر Wine والشيح Wonmwled وهو شراب شعبى فى فرنسا (المحقق) .

لو سمح لمستشارين انجليز ومحامين انجليز بالدفاع عن زعيم العصاة ، عرابى ، ان أعضاء المحكمة الانجليز لمهارتهم البلاغية يمكنهم بمنطقهم أن يجعلوا الأسود يبدو أبيضا والعكس بالعكس ، وهم فى حاجة بالمثل الى محامين آخرين هم بالمثل بارعين فى المغالطات القانونية ليقنعوا القاضى والمحلفين بحقيقة اللون مثار الخلاف ، اننى أقول انه سيكون هناك اجهاض للعدالة لأنه بعد أن يكون المستشار الانجليزى قد عبر عن رأيه القانونى ، فلن يكون هناك لانسان من جانب المدعى العام القدرة على أن يعارض حججه .

هذا الكلام كان فيه اطراء على أية حال ، ولكن الكاتب ما لبث أن انتقل من المحامين الى الموكلين ، فقال :

هناك حكمة قديمة تقول : خير البر عاجله **Bis dat qui cito dat** وهى تنطبق عشر مرات على القضية الراهنة ، بل ان أى تاخير للقصاص يزيد فى اجهاضه ، لأن شعب البلاد فى حالة هياج ثائر ولن يخمده الا الاعدام الفورى لزعماء العصيان الأصليين .

ومن المؤكد انه يجب أن نعترف أن النظار بالغى النزاهة وبالغى الوفاء الموجودين الآن فى نظارة الخديو (١) ، يعرفون خصال شعب هذا البلد أفضل من الانجليز الذين لم يكن لهم وجود فى مصر من قبل او الذين لم يمض على وجودهم أكثر من بضعة أسابيع او حتى شهور . وقد أعلن الفريق الأول أن البلاد لا يمكن أن تهدأ مالم يكف العصاة عن جرائمهم ، بينما يريد الفريق الثانى ان يقدم العصاة للمحاكمة طبقا للمبادىء الانجليزية التى لن تدوم لأشهر بل لسنوات ، كما حدث فى قضية النبيل التعس المتهوك القولى فى دارتمور Dartmoor (وكانت جريرته بسيطة جدا بالمقارنة بما فعله زعماء العصيان الراهن) اذ حوكم مرتين ، واستمرت كل واحدة منهما لعدة شهور ، فلو اتخذ اجراء مماثل مع أحمد عرابى ومحمود سامى وغيرهما من العصاة ، فستدوم محاكمتهم لسنوات ما فى ذلك من شك ، ولكن هذا لا يمكن ان يسمح به لأن الانجليز المستوطنين فى مصر لسنوات والذين هم جديرون بلقب انجليز مصريون ، يعرفون خصال المصريين كما يعرفها النظار ، وهم يتفقون معهم تماما فى ضرورة ايقاع العقاب على من هم خليقون به .

* * *

ان أهالى القرى التى لا يزال العصاة يبعثون اليها بخطب ثورية ، والتى لا يزال الأوربيون يلقون فيها الاهانات عند مرورهم بها ، لا يعتقدون أن عرابى أسير ، وهم لا يعتقدون أنهم اقترفوا ، خطأ فى قتلهم المسيحيين ،

---

(١) اذ بعد استقالة نظارة البارودى فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، بعد موافقة الخديو توفيق على المذكرة الثنائية التى تقدم بها قنصلا بريطانيا وفرنسا ، وكان أول بنودها استقالة النظارة الحاكمة للبلاد) ظلت مصر بلا نظارة ، فتولى الخديو توفيق مهام رئاستها ، فلما وقعت حادثة ١١ يونيو ، اتجهت الأنظار الى وجوب تاليف نظارة جديدة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التى عمت البلاد فوافق اسماعيل باشا راغب على تولى رئاستها ، مع بقاء عرابى ناظرا للجهادية والبحرية (بناء على طلب الخديو نفسه ، تحقيقا لرغبة الشعب) ـ (المحقق) .

ولا فى نهبهم ممتلكاتهم ، وهم لن يقتنعوا بخطأ أساليبهم حتى يحاكم زعماء العصيان ويلقون جزاءهم .

ومن خلال قراءتى للجريدة الفرنسية المعاصرة للجازيت المصرية ، علمت أن كثيرا من الناس كانوا يعدون أنفسهم للمجيء الى القاهرة ليشهدوا المحاكمة المنتظرة ، وأن ناظر الحقانية قرر أن يصدر دعـــوات شخصية لـ ٣٠٠٠ر٣ شخص وأن الدعوات قد طبعت بالفعل ، وكان الطلب عليها أكثر من الطلب على تذاكر حضـــور افتتاح « أوبرا عايدة » فى دار الأوبرا الخديوية .

كانت درجة حرارة الجو مرتفعة جدا ، والغبار لا يحتمل ، وكنا قد أتينا بحق على كل ما فى الجريدتين المحليتين الصادرتين باللغتين الانجليزية والفرنسية ، من أخبار ، وكنا قد استنفدنا مناقشة كل وجه من أوجه السياسات المصرية عندما طالعتنا الأشجار الخضراء فى ميادين شبرا . ومآذن القلعة ، كما شاهدنا من بعيد الأهرامات ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا فى القاهرة . وكان الارتباك هنا يفوق ما قابلته فى الاسكندرية ، ولكنى فى النهاية تسللت الى احدى السيارات العامة أحمل معى متاعى القليل (وكان أهم جانب منه يتكون من كتب قانونية جليلة المنظر) . نقلتنى السيارة الى الفندق الجديد New Hotel حيث قررت البقاء فيه حتى يمكننى رؤية زميلى المحاميين : ايف Eve ونابير Napier . والفندق الجـــديد (الذى أعتقد أنـه كان يسمى يوما ما الفنـدق الخـــديوى (Hotel Khedivial ، وهو واحـــد من الفنادق التذكارية العـــديدة التى شيدت فى الأيام الزاهية لحكم الخديو اسماعيل . لقد كان قصرا مستوفيا لكل المقاصد والأغراض . كان يطل على حدائق الأزبكية وعلى أجمل حى فى القاهرة ، ولكن كمكان للتأمل ، فهو بصراحة يعجز أن يكون كذلك ، ولا يمكنه على الاطلاق أن يضاهى موقع فندق شبرد Shepheard بما فيه من راحة وظلال ، وما يصاحب مناظره بما يذكر بعالم الماضى بآثاره . ان فندق شبرد يفوق كل فندق فى الشرق . وما كدت انتهى من فك أمتعتى حتى حضر زميلاى (وكنت قد بعثت اليهما بتلغراف من الاسكندرية) ، واتفقنا على أن نتوجه الى الحدائق المتاخمة ، لنعقد أول اجتماع للتشاور فى الدفاع عن عرابى .

الفصل الخامس

أولى مشاوراتنا

قبل لقائنا يوم ١٨ أكتوبر لم يسبق لى من قبل أن رايت « مستر نابير » على الاطلاق ، ولكن معرفتى ب « مستر ايف » كانت معرفة عابرة ، وكان أول تعارف لى به فى جو ودى فى شارع الملكة العظيمة Great Queen St مما ساعد الى حد كبير فى ذلك الاتحاد فى الخطط والأفكار التى كانت ضرورية لنجاح القضية · كان أول سؤال وجهته ، وكان سؤالا متوقعا – ما هو الاجراء الذى اتخذتموه ؟ فرد على مستر نابير على الفور بأن أعطانى بيانا واضحا عما قام به من أعمال ، فقال : « صباح يوم ٢٩ سبتمبر تصادف أن كنت فى مكتبى الكائن برقم ٦ شارع محكمة فجترى Fig-Tree فى حى تمبل Temple وكانت محض المصادفة هى التى أعادتنى من أجازة طويلة كنت أقضيها فى جولة فى شمال فرنسا ، أعادتنى قبل موعد انتهائها · وفى اليوم المذكور لم أكن أتوقع زوارا على الاطلاق ، وحوالى الحادية عشر مر على الكاتبن لابريمادى Captain Laprimadie (وكيل مستر بلنت) وسألنى اذا كان فى استطاعتى أن أسافر الى القاهرة فى نفس ذلك المساء ، وأن أبذل جهدى للحصول على تصريح لمقابلة عرابى ، استعدادا للانضمام اليـــك عندما سيكون من واجبنا ، لو سمح لنا بذلك ، أن نترافع عنه مشتركين ، عند محاكمته أنت ككبير المحامين وأنا كالمحامى الأصغر · وبعد اجتماع قصير مع مستر بلنت وزوجته ، وافقت وأعددت نفسى لمغادرة لندن راكبا قطار البريد الاسبوعى · وعند وصـــولى الى كاليه Calais ، وجدت أن كل الأماكن كانت محجوزة فى عربات النوم الى برنديزى Brindisi ، ولكن مع ترتيب خاص مع الحارس سويت كل شىء ، وبعد ستة أيام وطئت قدماى

تقديمه للمحاكمة عن الاتهامات السبق ذكرها بمقتضى وطبقا للشروط التى سلم المدعو عرابى باشا نفسه لسير جارنيت ولسلى قائد جيش صاحب الجلالة البريطانية فى مصر لدى صاحب السمو الخديو ٠

تحرر هذا فى التاسع من اكتوبر سنة ١٨٨٢ ، بفندق شبرد بالقاهرة ٠

ريتشارد ايف

توقيع ثان

مارك ف٠ نابير

محام ، تمبل ، لندن

واستطرد مستر نابير قائلا : « وبالرغم من الاعلان ، لم يجب رياض باشا ما طلبناه ، فأعطيناه مهلة حتى الثلاثاء ، ولكن فى اليوم التالى عدنا الى مكتب ناظر الداخلية فأخبرنا « سير ادوارد ماليت » أن « رياض » اعترض بأن المحامى الذى سيتولى الدفاع عن المواطنين المصريين وليس من الأجانب وأنه (أى ماليت) بعث الى وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office بتلغراف ليتلقى مزيدا من التعليمات ٠ لقد كان شيئا يبعث على الفرحة ، مع ذلك ، أن نعلم من « سير تشارلز ويلسون » أن عرابى علم بوصولنا ، وكان راضيا عن أن أكون محاميا عنه ٠ وفى المساء ، سطرت احتجاجا قصيرا وبعثت به الى « سير ادوارد ماليت » لأننى أعتقد أن من الأفضل أن أكون فى الجانب الأحوط ٠

وفيما يلى نص الاحتجاج :

فندق شبرد ، القاهرة

١١ اكتوبر ١٨٨٢

سيدى ،

اننى اعتقد انه واجب حتمى على ، كمحام لعرابى باشا ان اعرض عليك احتجاجى التالى على سلوك الترافع

وفيما يلى ما يعد اكثر أسباب الشكوى خطورة :

١ - أن عرابى باشا منذ أن سلمته السلطات البريطانية الى السلطات المصرية (وكان ذلك ، على ما أعتقد ، بتاريخ ٤ اكتوبر) تعرض لحبس صارم كما تعرض أيضا لسلسلة من الاستجوابات الدقيقة ، لقد رفضوا السماح له بحرية الاتصال ، أو الاتصال بالمرة ، بأصدقائه ومساعديه القانونيين ٠

بـ « سير ادوارد ماليت » . وأن على أن أنتقل من اليوم التالى ومعى أمتعتى الى فندق شبرد ٠

وفى انتظار العربة التى ستقلنا ، قمنا بجولة فى المبنى الذى استخدم فى ستة الأشهر الماضية كمجلس نواب مصرى ٠ ولعله من سخرية القدر العجيبة أن نفس المبنى يجرى اعداده الآن لافتتاح محاكمة زعيم العصاة ٠ والمنظر بديع ، منظر كراسى القضاة المكسوة بالمخمل الأخضر ، كما كانت هناك مقاعد مريحة وألواح كسوتها من الجوخ الأخضر خصصت لمشاهدين يصل عددهم الى ثلاثة آلاف ، ومنبر مهيب للمدعى العام ، ومنصة فى مكان ظاهر ليوضع عرابى لى مكان مرتفع أمام الشعب ٠ لم يكن هناك نوع من الأعداد لاستراحة أى محام من محاميى الدفاع ٠ لقد أنفق على هذا الاعداد مال ببذخ ليضفى على القاهرة منظرا جديدا ٠ كان من المتوقع أن يحتل نفس هذه القاعة مجلس الشيوخ المصرى ليشهد محاكمة عرابى ولكن لم يشأ القدر له بذلك ، وبعد مضى سنة شهد هذا المكان اجتماع برلمان مصرى آخر ، ولكن فى هذه المرة كانت تحت رعاية انجلترا ، ولورد دافرين Lord Dufferin (١) ٠

(١) لورد دافرين دبلوماسى أيرلندى ، تلقى ثقافته العليا فى أكسفورد ٠ تقلد مناصب دبلوماسية عديدة منها : قنصل عام كندا ، سفيرا لبلاده فى روسيا وتركيا وايطاليا وفرنسا وحاكما عاما للهند ٠ كان يبعث به لحل المشكلات ؛ كانت بداية نجاحه الدبلوماسى لما مثل بريطانيا فى مفاوضات الدول الستة فى القسطنطينية حول مذبحة المسيحيين فى سوريا ، ثم أعقب هذا نجاح آخر عندما طلب منه لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا التوجه الى مصر لتقصى الحقائق فى قضية عرابى ، وكان له الفضل الأكبر فى الوصول بالقضية الى دور المصالحة وتخفيف حكم الاعدام الى النفى الى سيلان ٠ أنعم عليه فى سنة ١٨٨٨ بلقب ماركيز دافرين وآفا Marquess of Dufferin and Ava صدر له كتاب فى الرحلات عنوانه « رسائل من خطوط العرض العليا Letters from High Lattitudes » وصف فيها رحلته الى ايسلندة Ieeland

(المحقق)

شرفة فندق شبرد

بعد غسق مساء يوم ١٨ أكتوبر ، زرنا ثلاثتنا « سير ادوارد ماليت » الذى كان يقطن فى فيلا جميلة فى ضاحية الاسماعيلية بالقاهرة • وطبقا للأسلوب الشرقى ، كان يقف ببابه حارس انكشارى تركى أو ألبانى فى ملابس فخمة لونها أزرق وذهبى ويتحدث الانجليزية بطلاقة ملحوظة • وبعد حديث دام بضع دقائق مع « سير ادوارد ماليت » لاحظت أنه كان قد أجهده من كل قلبه الموضوع المثار vexata quaestio الخاص بمصير عرابى • ودافعت لفترة قصيرة ، أثناء حديثى معه ، وببلاغة ما أمكننى ذلك ، عن نوايانا الطيبة تجاه الحكومة المصرية ، وأعربت له عن رغبتنا الجادة فى المساعدة فى أن تأخذ العدالة مجراها ، طالما أن هذا متوائم مع الواجب الذى ندين به لموكلينا ، وفى الوقت نفسه ، دافعت بقوة عن النمط الذى اتبعه الفرنسيون فى تونس ، وتساءلت : « ألم يعين غزاة الولاية ، بصورة لا تتغير ، محامين أوربيين لأولئك المواطنين من أبناء هذا البلد الذين اختاروا أن يسموهم عصاة وحاكمتهم محكمة عسكرية لمعارضتهم ، بكل ما مكنتهم بنادقهم ومدافعهم العنيفة من مناهضة بعثة الحضارة التى غزت أرض أجدادهم ؟ ألم يشترك حتى المساجين فى مذبحة عوين الزرقا Oued Zerga (١) التى حدثت فى العام الماضى وتولى

(١) كانت منطقة « عوين الزرقا » تبعد عن مدينة تونس بما يقرب من ٧٠ ميلا ، وكانت أول خطة قام بها الاحتلال الفرنسى لتونس هو ربط البلاد من أقصاها الى أقصاها عن طريق سكة حديد ، وبدأ الخط من « تونس » ولم تلق قوات الاحتلال أية مقاومة حتى وصلت الى « عوين الزرقا » (وكانت المحطة السادسة) ، واذ بالأهالى ينقضون على قوات الاحتلال ونزعوا قضبان السكة الحديد وأحرقوا عرباتها بمن فيها حتى تفحمت أجسامهم .

الدفاع عنهم محامون فرنسيون ؟ » واستطردت قائلا : « ألا يمكن سواء لانجلترا أو لمصر أن يفعلا أقل من ذلك لرجل التقينا به وجها لوجه فى ساحة القتال ؟ » كنت آمل أن نكون قد تركنا « سير ادوارد ماليت » نصف مقتنع أو على الأقل موقنا بأن المحامين الانجليز لن يكونوا بالغى الخطورة كما افترض ذلك روجرز بك Rogers Bey (١) .

ومن فيلا « سير ادوارد ماليت » قفلنا راجعين الى فندق شبرد فى حى الأزبكية بالمدينة . لقد كان ، تقريبا ، المبنى الوحيد فى القاهرة الذى أستطيع أن أصفه وصفا دقيقا ، وقد لعب هذا المبنى دورا هاما فى القصة التى أقوم بسردها ، بل اننى واثق أنه لعب دورا فى كل حادثة لها صلة بتاريخ مصر السياسى فى أى وقت طوال الثلاثين سنة الأخيرة (٢).

فندق شبرد قصر يتكون من طابقين ، وهو مهدم بعض الشىء ، أشبه بقصر التيه ، يقع على الجانب الأيسر من الشارع المؤدى من محطة السكة الحديد الى وسط المدينة . غرفاته الفسيحة تحيط بمربع ، والحديقة التى تتواسطه تظللها أشجار النخيل الفارعة والنباتات المتسلقة الخضراء المنعشة ، وهناك سلم قصير مكون من بضع درجات يقودك من الشارع الى شرفة عريضة رطبة مسقوفة ، أرضيتها من المرمر ، ومن خلالها يؤدى المدخل الرئيسى الى بار المرطبات الذى يفتح على غرف الطعام . لقد شهد فندق شبرد أزهى أيامه عندما كانت القاهرة بمثابة فندق فى منتصف الطريق للرحالة الانجليز الهنود الكرماء الذين كانوا دائمى العبور بها فى جيئتهم وذهابهم بين الاسكندرية والسويس والسويس والاسكندرية . لقد احترق منذ نيف وسبعة عشر عاما ، ولكن ما لبث أن نهض مرة أخرى من رماده . والمؤسسون الأصليون لفندق شبرد كادوا يكونون فى طى النسيان الآن . كان مؤسسه الفعلى « هر زيك Herr Zech » ، ولم تدم اقامته كثيرا فى القاهرة ، وآثر الاقامة فى أوربا ، أما وكيلاه

فانتقم الفرنسيون منهم باحراق الأهالى وقطع رءوسهم وتعليقها على سونكى البنادق تنكيلا بهم . (المحقق)

(١) كان روجرز بك دبلوماسيا بريطانيا . عمل قنصلا فى دمشق ثم نقل ليعمل بالقسم المالى بالسفارة البريطانية فى القاهرة . كان مولعا بالدراسة الشرقية ، يذكر عنه بلنت فى كتابه : « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » أنه هو الذى دله على عالم من علماء الأزهر وقتذاك يدعى الشيخ محمد خليل ، الذى علمه اللغة العربية ، واتضح ل « بلنت » من تردد الشيخ محمد خليل عليه أنه عالم واسع الأفق فخور بدينه وبعقيدته ، ولم يجد فى ذلك غرابة اذ أنه كان أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده . (المحقق)

(٢) يقصد به عهود حكم الخديويين : عباس (١٨٤٨ ــ ٥٤) وسعيد (١٨٥٤ ــ ٦٣) واسماعيل (١٨٦٣ ــ ٧٩) . (المحقق)

« مستر جروس Mr. Grosse» و « ســــنيور لويجى Signor Luigi» فهما يسهران بكل كفاءة على تحقيق مطالب النزلاء • وتعد شرفة فندق شبرد أكثر من ردهة استراحة عادية أو منظر بهيج تقضى فيه عطلة شرقية لذيذة dolce for niente – هى مجتمع مصرى ، وعندما نسمع فى لندن أن « الرأى الأوربى فى مصر عميق التأثر » وأن « المصالح الأروبية مهددة من أساسها » وأن « الرأى الأوربى يقر » أو « الحساسية الانجليزية المصرية ثائرة » فسنعرف أن نزلاء شرفـة شبرد قد تحدثوا ، بل ان الكراسى المريحة المتعددة الأشيــكال والتى تمــلأ أكثر تــلك الفرندات verandahs رطوبة ، تعد ذات صلة وثيقة بماضى وحاضر ومستقبل مصر • وتشكل درجات الفندق حاجزا منيعا (١) ، لا يجرؤ أن يتخطاها صبية الحمارين والباعة المتجولون بصخبهم • اننى لا أعتقد أنه طوال تاريخ فندق شبرد ، لم تكن شرفته أكثر امتلاء على الاطلاق ولا أكثر حيوية مما كانت عليه ليلة ١٨ أكتوبر ، اذ كان البار داخلها محشودا بصغار الضباط من جيش الاحتلال ، بينما كان يجلس فى الخارج فى ضوء غسق الخريف القصير « بيكر باشا » ، الذى كان قد قدم لتوه من القسطنطينية ليتولى لفترة قيادة البراعم الجديدة للجيش المصرى ، كما كان من بين الجالسين « دكتور و٠هـ٠ راسل Dr. W. H. Russell » ، المدير السابق للمراسلات الخاصــــة ، ومستر كاميرون Mr. Cameron مندوب جريدة ستاندرد Standard ، والكولونيل سينج Colonel Synge ، ضحية قطاع الطرق الألبان ، وكثير غيرهم من الرجال ذوى المكانة والشهرة •

ولم يكن هناك غير موضوع واحد للمناقشــة ذلك المســاء : هل سيترافع عن « عرابى » محامون أوربيون ؟ أجابت أغالبية ضخمة على هذا السؤال ، بالنفى ، وبصوت عال ، لأن عرابى لم يكن له الا قلة من الأصدقاء ، بل كادت شرفة فندق شبرد ترفض الاقتراح بالاجماع ، وبطبيعة الحال ، أعلن الصدى التلغرافى فى لندن أن « الرأى العام الأوربى فى مصر كان معارضا بشدة لأى جديد لا يتواءم مع هذا » • وكان من أشد أعداء عرابى فى مجلس الشيوخ الليلى فى شبرد ، أذكر أنه كان ضابطا من ألمانيا ، التحق بهيئة الجيش الانجليزى ، وكان شخصية لها شهرتها الواضحة بصورة خاصة ، بدليل ما كان يرتديه عادة من عدد من النياشين • لم

---

(١) استخدم المؤلف للتعبير عن كلمة حاجز لفظ "rubicon" ، وهو لفظ لم يعد مستهملا الآن ، ولكن له دلالة تاريخية ، اذ أن اللفظ نسبة الى جدول مائى يحمل نفس هذا الاسم ويقع الى شمال ايطاليا ويفصل بلاد الغال الالبية Cisalpie Gaul (فرنسا الحالية) عن ايطاليا ، ومما ينهض دليلا على خطورته أنه لما عبره يوليوس قيصر Julius Caesar اندلعت حرب أهلية • (المحقق)

الفصل السابع

مناوشات من البداية

فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى (١٩ أكتوبر) أعددت العدة للانتقال من الفندق الجديد New Hotel الى فندق شبرد ، وقبل أن أغادر « الفندق الجديد » تبادلت حديثا طريفا مع مديره المساعد السويسرى الذى ، فى الوقت الذى كان يعترف فيه بالنظام الرائع المستتب فى القاهره ، خلال الحرب التى دامت ستين يوما ، كان يتحدث عن كراهيته المريرة ، بصورة خاصة لعرابى ، وكان كريما بما فيه الكفاية ليحذرنى من أننى فى حالة تبرئتى لساحة موكلى ، أن أتجنب المرور بالاسكندرية فى رحلة عودتى ، اذ ربما أدفع أنا شخصيا عقوبة سوء أعماله ، بعد أن استقرت اقامتى الجديدة فى فندق شبرد ، قمت بزيارة « مستر مويرلى بيل Mr. Moberley Bell » مراسل جريدة التايمز Times ، الذى كان مقيما بنفس الفندق ، بينما توجه « مستر نابير » الى قصر عابدين ليتأكد من الملابسات الصحيحة المتصلة باعتقال عرابى أو استسلامه ٠

وبعد تناول الغداء ، كنت أجلس فى هدوء فى الشرفة الشهيرة ، عندما وصلتنى بطاقة ٠ كان الاسم الذى تحمله اسم لشخص غريب على « مسيو أوكتاف بوريللى Monsieur Octave Borelli وتحت الاسم كتابة بالرصاص بخط سير ادوارد ماليت « وكانت على الوجه التالى » أقدم لك مسيو بوريللى المستشار القانونى بنظارة الداخلية » ٠ وقبل أن يلاحظ أى من أصدقائى الجدد ، مراسلى الصحف ، غيابى ، كنت فى اجتماع مع « مستشار الطرف الآخر » ٠ كان مسيو بوريللى واحدا من أكثر الرجال سحرا ولطفا ممن التقيت بهم على الاطلاق ٠ لقد سبق له

أن تقلد منصبا رفيعا فى الجهاز التنفيذى فى فرنسا واختلف مع النظام الجمهورى فى آرائه ، ومن دافع نفوره منهم جاء الى مصر ، وفى مدى أربع سنوات وصل الى المنصب القضائى الأول فى البلاد ٠ كان مغتبطا بمعرفتى ، وكان يعرف كل شىء عن خلافاتى فى تونس مع « مسيو روستان »(١) ، وكان واثقا أننا ينبغى أن نرتب كل شىء فيما بيننا فى بهجة وسرور كأهل بيت en famille وسرعان ما أدركت حقيقتين بالغتى الأهمية :

الأولى : أن الحكومة المصرية قد وافقت على السماح لواحد أو أكثر من المعتقلين السياسيين أن يعطينا مقدم الأتعاب ٠

والثانية : أن زميلنا المحامى المصرى لا يحفل كثيرا بأية شروط وافق هو عليها ، اذا كان فى الامكان التجنب تماما لنشر غسيل سياسى قذر علانية أو التخفيف منه فى تبصر ٠ لقد اقترح على ، عن طريق اتفاق متبادل ، أن نرتب لنوع من التقنين لاجراءات الدفاع ، فأجبت أنه لن يناسبنا خير من ذلك ، ثم اقترح على ، مرة أخرى ، أن ينحصر استجواب الشهود فى التحقيق الابتدائى أو المعلومة الابتدائية ، وأن الدليل سيقرأ فقط أمام المحكمة العسكرية ، ولكنى ، لأسباب استراتيجية ، تظاهرت بالاعتراض ، فقال لى مسيو بوريللى : « ولكن يا صديقى العزيز mon cher ami ليس مسموحا لك بأن تتكلم أو حتى أن تلمح الى السياسات ، اذ أن هذا ، وهو ما أؤكده لك ، سيقوض أهمية القضية الى حد كبير ، ولكن لو أنك تخليت عن استجوابك علانية ، فاننى أفكر فى أن أسمح لك بقليل وقليل جدا من الكلام وأسمح بتلميح طفيف وطفيف جدا الى السياسات المعاصرة » ، وعلى الفور وافقت على الاقتراح ، اذ أننا سنكسب بذلك ثلاث ، فوائد هامة ، أعنى ، التصريح بتحقيق ابتدائى أو معلومة ابتدائية ، وهو أمر يحظره القانون الفرنسى ؛ ثم حق مخاطبة المحكمة ، وأخيرا وهو الأهم ، المجادلة من وجهة النظر السياسية ٠ وبدون أن أدرى ، كنت قد ضمنت شروطا أكثر تقدما فى آراء وزارة الخارجية البريطانية ، اذ علمت بعد ذلك أن رسالة مؤرخة ١٣ أكتوبر والتى لابد أنها وصلت القاهرة فى اليوم الذى أعقب اجتماعى مع مسيو بوريللى ، عبرت عن رأى حكومة جلالة الملكة وهو : « لن يسمح بأية مجادلات أو براهين فيما يتصل بالدوافع أو الأسباب السياسية تبريرا للجريرة المتهم فيها ، ولكن يسمح فقط

---

(١) بخصوص قضية « النفيضة » التى سبقت الاشارة اليها فى حينها (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب) ٠ (المحقق)

البند الثالث : كافة أوراق التحقيق الابتدائى توضع فى أقلام القومسيون تحت طلب المدافعين ·

البند الرابع : يجوز للمدافعين عن المتهمين أن يقدموا للقومسنيون الشهود الذين يرون لزومهم ويطلبوا منه سماع شهاداتهم فى شأن أى مسألة متعلقة بالدعوى بحضورهم وحضور المتهمين وتسمع اذا شهادات الشهود المذكورين سواء سبق سماعها أو لم يسبق ·

البند الخامس : يجوز لكل من المدعى بالتهمة أو المدافع عنه المتهم أن يقدم الشهادات التى سمعت فى البلاد الخارجة عن القطر المصرى فى المحاكم أو الجهات الأخرى وتعتبر هذه الشهادات كالشهادات التى أخذت بالقومسيون ·

البند السادس : يجب على المدافعين أن يأتوا فى مجرى الدعوى بكامل السرعة والاستعجال وأما ظهرت رغبتهم أن يستطيلوا مدة الدعوى الى عهد غير محدود فرييس القومسيون له الحق أن يأمر بختم التحقيق ·

البند السابع : اجراءات المرافعة هى قسم ملتصق بالتحقيق الابتدائى الذى يقفل بابه نهائيا بمقتضى اتفاق من الطرفين أى من جهة المدعى أو المدعى عليه أو يكون قفله بمقتضى أمر من الرييس فى الحالة المنوه عنها فى البند السابق ·

البند الثامن : يجتمع المجلس الحربى سبعة أيام بعد ختم التحقيق الابتدائى ختما نهائيا ولا يجوز طلب مهلة ثانية لأى سبب كان انما للمحكمة الحربية أن ترخص بتأخير افتتاح الدعوة عندما تمس الحاجة الى ذلك ·

البند التاسع : لا تسمع شهادة أى شاهد أمام المجلس الحربى سواء كان بناء على طلب من طرف المدعى أو من طرف المدعى عليه ولابناء على أمر المجلس من تلقاء نفسه ؛

البند العاشر : فى اليوم الثامن من بعد ختم التحقيق الابتدائى تبتدىء المرافعة أمام المجلس الحربى وعلى الرئيس وقتئذ أن يأمر بتلاوة ورقة الاتهام وأوامر الاستنطاقات وكافة الأوراق المتعلقة بالدعوى باللغة العربية وحين انتهاء التلاوة يأذن الرئيس للمتهمين وللمدافعين عنهم بالتكلم، وعند انتهاء ما يقوله المدافع عن المتهمين يجاوب مندوب القومسيون اذا اقتضى الحال ذلك ، ويجوز للمتهمين وللمدافعين عنهم أن يجاوبوا مرة أخرى وبعد ذلك يقفل فى الحال باب المرافعة انما يجوز للمدعى والمدافعين عن المتهمين لغاية قفل المرافعة أن يقدموا نتيجة أقوالهم تحريرا :

البند الحادى عشر : الحكم الذى يصدر من المحكمة يتلى علنا .

البند الثانى عشر : للمدافع الحرية التامة فى المرافعة انما لرييس المجلس الحربى أن يمنعه من التكلم اذا أبدى أقوال أو ملحوظات خارجة عن موضوع الدعوى أو استعمل عبارات تشتمل على سب أو قدح فى حق الحكومة وجهاتها .

وما أن تمت شكليات التوقيع حتى بدأ « بوريللى بك » ، بطبيعته البالغة الطيبة ، فى البحث عن القرار الذى يسمح لنا ، بعد بضع ساعات ، أن نكون فى حضرة « أحمد عرابى » .

الفصل الثامن

عــرابى فى السجن

لقد صار أمرا ضروريا الآن أن نحصل ، بدون أدنى تأخير ، ما أمكن، على خدمات كتبة ومترجمين وخدم ، وأن نعد أنفسنا لاقامة طويلة بمصر ٠ لقد كانت المهمة مهمة صعبة ، لأن العمل الذى عرضنا القيــام به يلزم من قبلوا القيام به ، بنوع من العزلة الاجتماعية عن حزب البلاط الذى هو فى موقع السلطة الآن ٠ ولم يكن « حسن » وهو أحد المصريين من مالكى الحمير ، يعير أهمية لمثل هذه الأمور ٠ كان يحب عرابى وصحبه ٠ كان يكن ازدراء قلبيا وعلنا لحزب الخديو ، ويحترم الانجليز كغــزاة منتصرين وكمصدر مؤكد للدخل ٠ منذ أن بدأ حياته سايسا كان همه الرئيسى جمع شهادات من عملائه الأوربيين ، فلديه شهادة من أمير ويلز Prince of Wales ، الذى رفعه « بقشيشه » السخى على الفور من أدنى درجة فى مهنته من صبى حمار الى أرقى فئة ، فئة مالكى الحمير ، واعترافا بجميله ، أطلق اسمه على أول عضو فى اصطبله ٠ وبالرغم من ذلك كان « حسن » وطنيا ، وبصوت عال كان يصيح « الله ينصرك يا عرابى » كما كان يصيح به أقرانه ، وقد بدل « حسن جلبابه » الأزرق الداكن الى رداء من الحرير ولبس عمامة صفراء ، وعين عنده نــائب حمار ليشرف على أعماله ، ونصب نفسه ناقل رسائل لنا Courier ومنجزا لكل ما نحتاج اليه من أعمال Factorum ؛ وكادت تكــون انجليزيته كلاسيكية ، ولكنه كان مترجما ممتازا ٠ كان أمينا الى أقصى درجة ، ويستطيع أن يرى الغريب مدينة القاهرة والأهرامات خيرا من أى من غرمائه ، وكان يتمتع بثقتنا الكاملة وثقة موكلينا الذين كانوا يخشون بوجه عام السوريين والأقباط ٠ وكثيرا ما اعتدت أن أتحدث الى

« حسن » المخلص عن المحنة التى مر بها بلده • وقد عبر لى « حسن » مرة عن وجهات نظره السياسية ، اذ قال : « عرابى رجل طيب جدا ، لقد حاول أن يفعل الخير لمصر ، ولكن « عرابى » ليس على شاكلة « حسن » ، اذ عندما يأخذ « حسن » حمارة الى الأهرامات يفكر كيف يعود بالحمار ثانية ، أما « عرابى » فقد جاء بنا الى « كفر الدوار » و « التل الكبير » ولكنه لم يفكر أبدا فيما سيحدث بعد ذلك » •

لقد عينا كرئيس للمترجمين عندنا : شابا مستقيما من ولاية ويلز ، يدعى « ادوارد بلدوين ايفانز Edward Baldwin Evans، الذى تعرف على ابن مقاطعته مستر ستانلى Mr. Stanley (١) فى صحارى السودان وقضى زمنا فى استكشاف ساحل البحر الأحمر ، وعاد الى مصر مع الفرقة الهندية • لقد قدم لنا خدمة جليلة وبقى معنا حتى النهاية • وقد توجه مستر ايفانز مع هكس باشا Hicks Pacha لمحاربة المهدى(٢) ، كما أننا دبرنا أيضا تعيين كاتبين أرمنيين هما « نجيب ابكاريوس » و « يوسف قنواتى » ، وكلاهما مترجمان وناسخان جيدان •

---

(١) هو أحد الصحفيين الانجليز الذين اجتذبتهم أفريقيا لاستكشاف مجاهلها ، وقد تهيأت له هذه الفرصة عند كلفته جريدة « نيويورك هيرالد » بجولة صحفية طويلة تبدأ بتغطية احتفالات مصر بافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) تعقيبها زيارة لمنابع النيل وكتابه تقرير صحفى عن المناطق السياحية فى افريقيا التى تجذب اهتمام السائح الأمريكى ، ثم زيارة للقدس فالقسطنطينية فالقرم Crimea فبحر الخزر Caspian Sea ، فزيارة لبلاد الفرس (ايران الحالية) فالهند ، وبعد الانتهاء من هذه الجولة ، يمكنه أن يبحث عن د. ليفنجستون Dr. Livingstone المستكشف الذى انقطعت أخباره • وقد وفق استانلى فى مهمته تماما والتقى بـ « لفنجستون » فى سنة ١٨٧١ وقدم له مساعدات بشرية لاستكمال استكشافه حتى توفى يوم أول مايو ١٨٧٣ ، وبعد وفاة « لفنجستون » واصل ستانلى اكتشافاته فيها حتى كانت وفاته سنة ١٩٠٤ • وقد اصدر كتابا فى ست لغات فى سنة ١٨٩٠ عنوانه « فى مجاهل افريقيا In Darkest Africa»(المحقق)

(٢) عقدت « هكس باشا » قيادة الحملة العسكرية المتجهة من القاهرة الى السودان لمحاربة المهدى ، وكان قوام هذه الحملة عددا قليلا من الأوربيين من بينهم مراسلى جريدتى التايمز Times وجرافيك Graphic اللندنيتين ، الى جانب ما يقرب من ٧٫٠٠٠ من المشاة و ١٫٠٠٠ من الخيالة وأكثر من ٥٫٠٠٠ جمل لحمل المؤن عبر الصحراء ومعدات عسكرية تشمل مدافع جبلية ومدافع سريعة • ولكن بالرغم من ضخامة هذه الحملة ومعداتها وعتادها ، فقد منيت بهزيمة منكرة على يد الأمير النجومى ، أحد أتباع المهدى • ويرجع السبب فى هذه الهزيمة الى أن غالبية جنودها كانوا ممن حكم عليهم بالسجن لاشتراكهم مع عرابى ، فلما بعث بهم الى السودان كانوا مصفدين فى الأغلال وظلوا كذلك طوال الحملة ، فكان مآلهم الموت المحقق لأنهم جند عزل • وكان لهزيمة « هكس » دوى أسى كبير فى انجلترا ، فكانت الصحف الانجليزية تدعوها مرة هزيمة defeat وتارة تدعوها كارثة disaster وأحيانا تعتبرها مصيرا fate (المحقق)

القاهرة فى ١٨٨٢/١٠/٣١

ارجو ان تسمح لى بأن اقدم لكم ابن عرابى باشا

سيدى العزيز ،

المخلص

س٠ و٠ ويلسون

وبعد بضع دقائق ، دخل حجرتى شاب نحيف ضعيف البنية فى الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره ، بشرته أدكن من بشرة المصرى العادى ، وكل ذكاء للتعبير شوهه تلف كامل فى احدى عينيه وحول فى الأخرى ٠ اننى لا يمكننى أن أنسى نظرته الجحولة المنقبة ، ولدقيقة بدا أنه غير قادر على الكلام ٠٠ بذلت جهدى كى أهدىء من روعه ، ونظرا لأنه لم يكن أحد من مترجمينا موجودا ، أحسست بمزيد من الراحة عندما اكتشفت أنه يعرف اللهجة العربية التونسية ٠ لقد ذكر لى قصة مؤلمة عن سوء معاملة أمه ، وأن كل أفراد عائلة أبيه تعرضوا لسوء المعاملة منذ دخول الانجليز القاهرة ، بل وأكثر من ذلك بعد استسلام عرابى للخديو ، يبدو أن اجراء قد اتبع كدلالة على بداية حكم ارهابى حقيقى ٠

وما كاد المحاميان « ايف » و « نابير » ينضمان لنا ، حتى حضر رسول من عند « بوريللى بك » يحمل التصريح التالى :

الى اليمباشى عثمان شريف ، مدير السجن بالدائرة السنية

يسمح لحضرات المحامين « برودلى » و « ايف » و « نابير » مع مترجمهم بزيارة « احمد عرابى » كلما حضروا الى السجن ٠

(توقيع) رياض

ناظر الداخلية

وعلى الفور أطلعت محمد بن أحمد عرابى على هذا التصريح ، الذى حتى وسط دموعه ، هلل بمجيئه على أنه فأل طيب ، وبدون أدنى تأخير يممنا شطر المبنى المعروف بالدائرة السنية ٠

وفى شارع ظليل يقود من الميدان الذى يحوط دار الأوبرا الخديوية الى ميدان الاسماعيلية ، وجدنا قصرا ضخما مؤلفا من طابقين يمكن استخدامه كاصلاحية أو مستشفى أو حتى كفندق ٠ وللمبنى بوابة

ضخمة فى الوسط تؤدى بك على الفور الى مربع مبلط بنى حوله القصر، لتصل الى طرقات تؤدى الى غرف على الطابق الأرضى . وهناك سلم عريض جدا يصل بك الى غرف وردهات الطابق العلوى . والغرف على جانب واحد من القصر تطل على الشارع بميدانه الذى تزينه أشجار الدلب Plane trees . ونوافذ الغرف الأخرى اما تفتح على المربع أو على بعض ساحات خلفية . ويدعى هذا المكان الدائرة السنية ، لأن تلك الدائرة استخدمته يوما ما مكاتب لها ، كما أن هذا المكان استخدم بدوره كفندق عملاق ، وكمؤسسة للطباعة وكمخزن الوازم المسرح وسقط المتاع . كانت غرفه العديدة بجدرانها التى طليت بمزيد من اللون الأبيض الناصع البياض وطرقاتها الطويلة ، تؤهله بكل تأكيد ، وبما يبعث على الاعجاب ، ليكون سجنا . وقد وصلت الحكومة المصرية الى نفس هذا الرأى واستولت عليه دون موافقة المالك وطلته كله من جديد وخلعت النوافذ ووضعت مكانها قضبانا قوية ، كما وضعت أقفالا على الأبواب ، وكان وجود هذا المبنى سببا فى مجىء « عرابى » وحوالى مائة من صحبه اليه فى اليوم السابق لوصول مستر « نابير » الى القاهرة . وفى مواجهة الدائرة السنية ، يوجد بهو كبير فى الطابق الأرضى مبلط بالرخام ويملأ جانبا كاملا من المربع ، واحتل حرس من الجنود البريطانيين يرأسهم أونباشى ، احتلوا البوابة الكبيرة والغرفة الملاصقة لها مباشرة .

وعلى السلالم ، قابلت « سير تشارلز ويلسون » ، كانت الطرقات يراقبها جنود مصريون ، كلهم ، على ما أعتقد ، أتراك وجراكسة - مسلحون بالبنادق . كان الجو لا يزال دافئا ، وكانوا يرتدون ملابسهم الرسمية البيضاء . وفى مواجهة قمة السلم يؤدى باب من الطرقة (التى تمتد بطول المبنى كله) الى قومسيون التحقيق . كانت الغرفة المجاورة على اليمين تستخدم كمكتب ، والى جوارها كانت زنزانة « محمود سامى باشا » والى جوارها أيضا زنزانة « عرابى » . وقد خصصت الغرفة المقابلة على الجانب الآخر من القومسيون ، خصصت لنا بعد ذلك ليستريح فيها مترجمونا . وكانت على الأبواب لافتات لا عناية فيها كانت تحمل كتابات بالعربية : أحمد عرابى رقم ١ ، محمود سامى رقم ٢ ، الخ .. ولما كانت النوافذ محكمة الغلق ، فقد كاد المعتقلون أن يختنقوا من شدة الحرارة ، ولعلاج هذا ثبتت أسياخ من الحديد على باب كل زنزانة بقصد التهوية . كانت زنزانة عرابى فى طريق التشييد عندما وصلنا ، ولكى ندخل الغرفة كان علينا أن نزحف تحت سلم خشبى ، وسط سحابة من الغبار والجير . كانت الغرفة المحتجز فيها حوالى اثنتا عشرة أو أربع عشرة قدما مربعة وشاهقة الارتفاع جدا . كانت تضيئوها

نافذتان ضيقتان تطلان على الشارع ، وان كانت تظلمها الى حد ما السياج الحديدى والشيش نصف المغلق . وعلى الفور ظهر الكولونيل ويلسون ، واذ برجل طويل القامة قوى البنية ينهض من على سجادة فى آقـــرب ركن من الغرفة للنافذة ، نهض ليحيينا . ثم قدمنا « سير » ويلسون الى موكلنا وبناء على طلب سير تشارلز ويلسون ، أمر « عثمان أفندى » ، مدير السجن ، الحراس بأن يحضروا لنا منضدة صغيرة وبعض الكراسى . كان الأثاث الوحيد الموجود فى الغرفة قبل قدومنا : ســجادة شيرازى جميلة وستارة ناموسية ومرتبة وبعض الوسائد وسجادة صلاة مطرزة ومصحف ، وبعض الأوانى النحاسية والخزفية ، وأرجو أن يؤخذ وصفى لمحتويات الغرفة على أنه شكوى ، اذ ان الشرقى نادرا ما يحتاج لأكثر من هذا . كان عرابى يرتدى بنطلونا مدنيا وقميصا أبيض وسترة ، وأحيانا ما كان يغير السترة ويرتدى بدلا منها معطفا استانبوليا أسود أو معطف فروك تركى ، وكان يمسك فى يده فى عصــبية بمسبحة صغيرة ، وقد بذل ما فى وسعه ليحيينا فى سماحة بالغة ، ما أمكنه ذلك . وبعد أن تركنا سير تشارلز ويلسون ، قدمت ل « عرابى » خطابا من مستر بلنت كان مستر نابير قد جاء به . لقد استأذننا فى أن يقرأه(١) .

وعند قراءته للخطاب أتيحت لى فرصة ممتازة لكى أدرس وجـــه شخص سمعت عنه أوربا الكثير . فى سكونه ، كاد يكون وجهه فى تجهم ثابت مع تقطيب للحاجبين ما كان يثير الا انطباعـــا عن كآبة ممقوتة ، ولكننى سرعان ما اكتشفت أنه كان نتيجة تفكير عميق ودائم ، عن أن يكون اكتئابا أو حدة مزاج ، وجدير بالذكر أن عادة عرابى فى تفكيره الدائم قد أوجدت له أعداء كثيرين من بينهم من يحكمون عليه من أول نظرة ، أما اذا ما انفرجت أساريره بالانتعاش فان التغيير الذى يطرأ على تعبيره يكون عجيبا جدا حتى أنك قل أن تعرف فيه نفس الشخص . كانت عيناه تشعان ذكاء حادا وابتسامته جذابة بصورة خاصة . بشرته أفتح من بشرة ابنه ، ولكن أنفه مفلطح جدا وشفتيه غليظتان فلا تسمح له بأن يصف نفسه بأنه رجل وسيم . ومن الواضح أن قامته تزيد على ست أقدام ، عريض المنكبين فى تناسب . لقد تغير مظهره تغيرا ملموسا أثناء اعتقاله : فقد نمت لحيته الرمادية . وعلى طريقة الفلاحين ، كان حول رسغه وشم على شكل شريط ، ونذر ، بل كان من المحال تماما ، أن كان يتخلى عن الامساك بمسبحة سوداء صغيرة ، اذ انه كان يحركها

---

(١) الخطاب ، على ما اعتقد ، يكاد يكون نسخة ثانية من ذلك الخطاب الذى سبق أن بعثه اليه مستر بلنت منذ شهر مضى تماما .

فلما استجاب عرابى للاجراء الشكلى على الفور ، دعوته أن يمنحنا ثقته الكاملة ويتحدث بلا تحفظ عن دفاعه • كان أول تعليق له أنه فى نهاية المعركة (على شاكلة ما فعله كثير غيره من القادة الذين لم يكتب لهم النصر) سلم سيفه وشرفه الى الجنرال لوGeneral Lowe، وقد فعل هذا فى ثقة تامة من أن خصومه السابقين فى ميدان القتـــال ، وليس أعداؤه السياسيون ، سيكونون حكام مصيره • لقد حافظ على استتباب النظام وراعى ما يتبع فى الحروب فى الدول المتحضرة وتعامل مع أسراه بانسانية وشفقة • هل كان من حقه آن يطالب بأن تعامله انجلترا معاملة أفضل من المعاملة التى تلقاها على أيدينا ؟ أليس وجودنا اليوم رغم أنف أعدائه دليلا على أنه لم يكن مخطئا تماما ؟ لقد قاد المصريين فى نضال من أجل الحرية وحقق نجاحا جزئيا عندما أوقفت أسلحتنا تقدمـــه ، ونفس المطامح التى كان هو ، طبقــا لارادة الشعب بأسره ، رمزا لها ، تحطمت فى هزيمة التل الكبير ، ثم سحقتها سحقا ميئوسا منه القسوة التركية والجركسية التى أعقبت الهزيمـة • لقـد قال لى « عرابى » : لو تحريت الأمر لاكتشفت ولكان فى مقدورك أن تبرهن على أن مصر كلها كانت معى : الأسرة الخديوية ، المسنون من عهد محمد على ، العلماء ، والجيش والفلاحون ، ولكن فى وجودى فى السجن والأسر ومع التعذيب والتهديدات ، من الذى يعترف بهذا لصالحى الآن ؟ ان هذا لا يدهشنى، اذ أن أبنائى أنفسهم أنكرونى فى مواجهتى أمام قومسيون التحقيق ! بعد ذلك ، أعطانا « عرابى » بيانا تفصيليا عن متاعبه الشخصية عندما سجن(١) ، وكانت ملاحظته أنه اذا كان هو قد عومل بهذه الصـــورة ،

---

(١) عقب ذلك قدم لى البيان التالى المكتوب عن الموضوع :

« صديقى العزيز والمحامى عنى مستر برودلى دام كماله •

انه بناء على ما تيقننه من حسن مقاصد دولة انكلترا نحـو مصر سلمت سيفى ونفسى الى ذمة وشرف الانكليز عن يد الجنرال لوى (٢) بالنيابة « عن القايد العمـــومى للجيش الانكليزى الجنرال ولسلى حالة كون كان فى نفس مصر من العساكر المصرية خمسة وثلاثون الف نفر وفى باقى الجهات مثلهم وبنا « على ذلك مكثت مع العساكر الانكليزية مكرما عشرين يوم من ابتدا ليلة ١٥ سبتمبر سنة ٨٢ لغاية ٤ أكتوبر سنة ٨٢ وفى يوم ٥ أكتوبر صار سجنى » وفى السجن المصرى فحصل لى من الاهانة ما يأباه شرف انكلترا وشرف كل انكليزى وذلك بأنه فضـــلا عن تفتيشى من خدامين وأغوات « سراى الخديو وتردد ذلك التفتيش أربع مرات ثم قلعونى الجزمة من أقدامى فى يوم واحد وفى ليلة ٩ أكتوبر الساعة ثمانية ونصف بعد أن نمت « فتح على الباب ودخل على نحو عشرة أو أزيد من الناس وقال أحدهم يا عرابى أتعرف من أنا فقلت لا من أنت وماذا تريد منى فبهذا الوقت فقال أنا « ابراهيم آغا الذى كنت داير وراه يا كلب يا خنزير وتفل على ثلاث مرات وصار=

فماذا يمكن أن يتوقعه أو يأمل فيه أتباعه أن يعاملوا به ، وهم الأقل قدرا منه ؟ لقد ذكر ان المصريين خجولون بطبيعتهم وضعاف الأجسام • لقد وترو أعصابهم للنضال الذى خسروا فيه وأحسوا الآن برد فعل القنوط المر • وفى طول وعرض مصر بأسرها ، أودع أتباعه فى السجن ، وكل من عرف البلاد سوف يفهم تأثير هذا على عقول الناس ، وهو نفسه استجوبه القومسيون ولم يكن فى استطاعته أن يرد فى قليل أو كثير على الذى سجلوه ضده • ومن كل ما رأى كان يخشى أن أشجع أتباعه — أشخاصا أمثال محمود سامى ويعقوب سامى — سيجبنون تحت التعذيب المعنوى والجسمانى الذى يلاقونه وتحت وضعهم الراهن المزرى الذى لا أمل من ورائه • وبالنسبة لسلوكه الشخصى ، اعتقد أن عنده دفاع طيب ، وقال « لقد قسمته الى قسمين — ما حدث قبل ١١ يوليو وما حدث بعد ذلك • لم أكن فى أى وقت أدعى أبدا : عاصيا • لقد شاركنا الخديو رأينا أننا سنرد على النيران البريطانية . وعبر السلطان مرارا وتكرارا عن رضاه عما اتخذته من اجراءات وبعد ذلك صار الخديو سجينكم واستمررت أنا اتبع أوامر مجلس النظار التى أقرتها وأيدتها البلاد بأسرها والتى أقرها السلطان كذلك • واذا كان الخديو والسلطان هما رئيساى ، فقد أكون عدوا لكم ولكنى لم أكن عاصيا لهما • ان كل ما أقوله لكم هو أننى آمل أن أكون قادرا على أن أقدم البرهان • اننى لا أخشى شيئا ، اذ انه لا دخل لى بالثورة التى قامت فى الأسكندرية فى يونيو الماضى أو بالحريق المتعمد incendiarism الذى أعقب ضربها بالمدافع » •

وقد وعد عرابى بأنه بمجرد تمكنه من رؤية ابنه ، سيتفق معه على اعطائنا الأوراق اللازمة لصالح قضيته • لقد قال انه كان متلهفا لأن يضع بين أيدينا كافة المستندات اللازمة للدفاع عنه لو أننا زودناه

= يسبنى ويشتمنى حتى تصورت انه مامور بقتلى فيهذه الليلة » ومكثت على ذلك نحو ثمان دقايق وخرج من المحل الذى أنا مسجون وحيث أن حصول ذلك منما لا ترتضيه ذمة وشرف انكلترا خصوصا « لمثلى الذى سلم نفسه اعتمادا على شرف الدولة الانكليزية فقد حررت هذا بما حصل لى من الاهانة • »

٢٩ أكتوبر ٨٢ أحمد عرابى

ختم

خاتم يحمل اسم أحمد عرابى

(١) يقصد جنرال لو General Lowe (المحقق)

بأدوات الكتابه ، ولكنه كان يأمل منا ألا ننسى فى الوقت نفسه رفاقه المسجونين ، حتى لو كانوا قد دفعوا لتجريمه دفعا . ان كل ما كان يريده فى سجنه هو ضوء حتى يعمل بالليل وأن يسمحوا لخادمه أن يحضر له طعامه مباشرة . ومع ابتسامة متجهمة أوضح لنا مخاطر امرار طعامه بين أيدى الديدبانات الجراكسة ، وذكر لنا كيف أن صديقه « عبد العال » كادوا أن يسموه فى مرحلة مبكرة من الحركة الوطنية ، ولذلك لم يكن أمرا يبعث على الاستغراب أن يرجونا عرابى ، تحت ظل هذه الظروف ، أن نبذل كل جهد للحصول على موافقة بأن يوضع حرس انجليز داخل وخارج السجن . وبعد انتهاء لقائنا الذى دام قرابة ثلاث ساعات ، غادرنا السجن بانطباع مشجع جدا من حديث وسلوك موكلنا المشهور . وفى هبوطنا الردهة بين صف من الجنود الأتراك والجراكسة القائمين بالخدمة ، سمعنا رفسة قوية عند باب زنزانة مجاورة ، عرفت بعد ذلك أنها كانت زنزانة « طلبة باشا » الذى كان يحاول بلا جدوى أن يجذب انتباهنا . لقد اشترك مع رفيقه « عرابى » فى ارسال تلغراف الى « مستر بلنت » ، وعندما رآنا من ثقب الباب أراد أن يعبر عن أن مصلحته المؤكدة فى تولى المحامى الانجليزى لقضيته .

ليستخدمها ، وتموينا ضـــخما من أدوات الكتابة · كان عــرابى أكثر ابتهاجا مما كان عليه فى زيارتنا الســابقة له ، وطلب منـــا أن نبعث بتحياته الى « سير ادوارد ماليت » مع اعراب منه عن أســـفه على أنه لايستطيع أن يقدمها له شخصيا كما فعل ذلك فى العام الماضى · لقد أوضحت له مدى الأهمية البالغة لأى دليل وثائقى يمكن أن يقدمــه فى دفاعه ورجوناه أن يعطينا دليلا على ائتمانه لنا بأن يثق فينا ثقة تامة · لقد أطنبت فى الحديث ، بعض الشىء عن العلاقات بين المستشار القــانونى وموكله كما نفهمها فى انجلترا ، وأشرت الى الخطــورة البالغــة فى أية تحفظات من جانبه ، ويبــدو أن عرابى اقتنع بهــا قلناه له · لقد كان مجرد جوابه « لضمان ما تريده ، يجب أن أرى ابنى وخادمى محمد بن أحمد · ما زال عندى كثير من الأوراق فى أمان وان كانت كمية قد أخذت من دارى بالقاهرة ومن خيمتى فى التل الكبير » ·

وعند مغادرتنا له ، اتصلت بمدير السجن « بمباشى عثمان شريف » وطلبت منه تحقيق رغبة عرابى ولكنه رفض بشدة أن يسمح لا للابن ولا للخادم بدخول الزنزانة · ان هذا الانسان ذا المنصب الهام سبق أن شارك هو نفسه فى الدفاع الوطنى ولكن المسئولين تغاضــوا عن عدم تبصره على اعتبار أنه خطأ من أخطاء غالبيــة الأتراك والجراكسة ، لأنه من المستحيل على « توفيق باشا » حتى مع مساعدة جيش الاحتلال له أن يزج بكل المصريين فى السجن ، وكان « عثمان أفندى » بمثابة نوع من الترمومتر السياسى عندما بدا أن الخديو قد استرد نفوذه وأنه قادر على كل شىء ، كان « عثمان أفندى »فى غفلة هو راض عنها فى ذات الوقت الذى جاء فيه الشماشرجية وحملة الغلايين (الجركسية) البباشروا غرضهم الدنى· لقد عامل المساجين فى مجاملة رقيقة بعد السماح لنا بالدخول كمحامين لهم · لقد أحس بقلق شــديد ، لم يكن خلوا تمامــا من غرض ، عــلى مستقبلهم عندما صرف النظر عن الاتهامات الأكثر خطورة وبعد المحاكمة الرسمية صار أريحيا بصورة مطلقة بل وكان وطنيا · وفى نفس الصباح التالى وجدته مشغولا ومنهمكا باضافة عبارة « باشــا » بحروف كبيرة للافتات أبواب زنزاناتهم الخاصة بهم · وفى مصر ليس هناك أقوى من السلطة وبوجه عام ، لقد أدى « عثمان أفندى » واجبه على أكمل وجه ، وكنت بالغ السرور عندما تدخل « سير تشارلز ويلسون » لايقاف ترقيته السابقة لأوانها للعمل بقوة السودان ، كاعتراف رسمى عن تساهلـــه البالغ تجاه من هم محتجزون عنده ·

وفى محنتنــا لجــأنا الى « سير أدوارد ماليت » « وسير تشــارلز

ويلسون » ولم نفعل ذلك من فراغ · فى نفس الليلة اصطحب خادم عرابى الأمين ، الخادم الزنجى الخلاسى « محمد بن أحمد » اصطحب كلانا سير تشارلز ويلسون ، وأنا الى زنزانة سيدة · قبل محمد فى احترام كم الباشا وأراه ورقة أحضرها معه ، لم أكن أعرف ما هى ، وقتها ، ولكنى أعرف ما هى الآن : أميرة مصرية كانت تؤيد بحرارة القضية التى صارت الآن لا أمل فيها كتبت له خطابا ممهورا بتوقيعهما ، نصحت فيه « عرابى » بأن يضع ثقته الكاملة فى « مستر نابير » وفى شخصى وأن يعطيهما كل المستندات التى لايزال يحتفظ بها · بعد ذلك ، وصف عرابى لخادمه الأماكن المختلفة التى سيجد فيها الأوراق ، وأصدر اليه أمره أن يطلب من ابنه أن يعطيها النا « بدون خوف أو تردد » · لم ألتق فى مصر بانسان استحق فى نظرى احتراما أكثر من هذا الانسان المسكين « محمد بن أحمد » ، الذى رافق عرابى منذ ذلك الوقت حتى المنفى · لعله لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى جلباب أزرق وسترة من قماش مهلهل ليغطى بها جلبابه ، ولم تكن التهديدات ولا الرشا فى استطاعتها أن تزعزع من ولائه لسيده الذى كبا · كانت الدنيا قد أظلمت عندما غادرنا السجن ، وسألت « محمد بن أحمد » فى قلق متى يعتقد أنه يمكن أن يأتينى بالأوراق ، فقال انه سيستغرق الليل بطوله لينفذ أوامر الباشا وانه ليس لديه شك فى امكان احضارها لى فى الصباح · لقد عبرت له عن مدى أهمية المهمة التى أؤتمن عليها ، ثم لحقنى ب « مستر نابير » فى فندق شبرد ، وفى الوقت نفسه كان زميلاى مشغولين تماما · ف مستر « ايف » أعد ، طبقا لأسلوب المحامين الانجليز ، ملخصات الدعوى الشكلية التى تسلم لنا نيابة عن « عرابى » ، أعدها « ايف » قبل مغادرته القاهرة الى انجلترا فى اليوم التالى ، وكان « مستر نابير » قد نقل من التقارير الرسمية البريطانية (١) رواية واضحة وموجزة عن الأحداث فى مصر خلال عشر السنوات الماضية · لقد أحسست الآن بالحاجة المطلقة لأكثر من مترجم عادى قادر على مساعدتنا فى القضية ، ومترجم يمكن أن يترجم بسهولة الى العربية ومنها · مثل هذا الشخص يجب البحث عنه اذا كان علينا أن نقدم بيانات مكتوبة بالعربية الى المحكمة وهو

---

(١) هى التقارير التى كانت ترد الى وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office (وتختصر فى هذه الصورة F.O. من قناصلها العموم ومندوبيها السامين فى دول العالم التى بها سفارات أو قنصليات لها ، وتعرف هذه التقارير الرسمية باسم الكتب الزرقاء Blue Books ، ولكنى آثرت أن أسميها بمسماها الواقعى وهو التقارير الرسمية · ومما ينهض دليلا على خطورة هذه التقارير أن كان يستشهد بها فى الرد على المناقشات والاستجوابات التى كانت تثار فى البرلمان بمجلسيه : العموم واللوردات · (المحقق)

الفصل العاشر

انحراف عن التقارير الرسمية البريطانية

لا بد لى أن أستأذن قارئى اذا كنت سأترك عرابى للحظة مشغولا ببياناته التى يكتبها فى سجن الدائرة السنية ، لكى أصور له ، بكل ما يمكننى من ايجاز ، مجرى الأحداث التى جاءت به الى هناك • اننى أعتقد ، سواء كنت صائبا في اعتقادى أو خاطئا ، أن بيانا مجملا بهذه الصورة أمر ضرورى لنقل فكرة صحيحة عن الظروف التى أحاطت على الفور باختفاء القادة الوطنيين ، لفترة على الأقل ، من مسرح السياسات المصرية • والتاريخ يدون اليوم بسرعة ، ولما كانت الحقائق تتزاحم على بعضها البعض بسرعة مذهلة ومحيرة ، فان الذاكرة فى حاجة الى قدر كبير من المساعدة تمكننا من أن نلحق بالخطوة التى كنا نتحرك تجاهها • ولكى نتفهم بحق وضع « عرابى » فى الوقت الذى أصفه فيه ، يجب علينا أولا ، أن نلقى نظرة على الماضى •

ولكى نفعل ذلك ، فانه يكفى تماما الرجوع الى التقارير الرسمية البريطانية Blue Books ، لأنه من الغريب القول أنه يمكن تجميع دفاع ممتاز جدا عن موكلى ، من صفحاتها هى وحدها • وصانعة التقارير الرسمية البريطانية هى ادارة للأدب ، وهى احدى الملامح الأساسية لعصر المراسلات الخاصة والتدوين السريع للتاريخ الذى نعيش فيه ، وهدفها أن تكشف عن القليل ما أمكن وأن تجعل غير الممهد ممهدا والمعوج مستقيما وأن تخلق انطباعات سارة من طبيعة غامضة وغير واضحة فى كثير أو قليل ، ولو كان من الممكن اصدارها فى أوقات معينة فى مجلدات سنوية أنيقة ، لما أحاطتنا علما بشىء على الاطلاق ولكن الضرورة الملحة

هى النى تدعو الى اصدارها في مواعيد غير ثابتة فى فترات تسمح بضياع كثير من الحقائق ، فمثلا مستر سيمور كى Mr. Seymour Keay لم يخدمه في اخراج كتيبه الممتاز (١) الا ضوء من التقارير الرسمية البريطانية التى كشفت النقاب بصورة أكثر فعالية عن حقيقة مالية مصر ، ولو أنه أصدر كتيبه مبكرا عن هذا ، لكنت أميل الى الاعتقاد بأن الحرب فى مصر كان فى الامكان تفاديها ولما كنت قد قبلت الدفاع عن « عرابى » بالمرة • ومن الغريب القول بأنه على الرغم من أنه لم ينظر كاتب واحد من كتاب نفس هذه التقارير حتى ولو نظرة تسامح لمطامح الوطنية المصرية ، الا أنها يمكن أن يشيد منها تاريخ مفيد لمراحلها الأخيرة (لأن القضية ذاتها يرجع تاريخها الى زمن ما قبل اعتلاء توفيق باشا العرش) ، ومما يؤسفنى أننى لا أجد من الوقت متسعا لأطبق مرة أخرى بالتفصيل الاختبارات الفاحصة التى ابتكرها « مستر كى » ، ولكنى سأحاول ، مستعينا بهذه التسجيلات ، أن أكتب السرد الموجز الذى أعتقد أن له أهمية بالنسبة للقصة التى أخذت على عاتقى أن أرويها :

يرتفع فجأة ، تقريبا ، ستار المسرحية الرسمية والتقليدية لمأساة مصر • نحن لا نسمع شيئا عن الظروف التى صاحبت محاولة القاء القبض على أشخاص : عرابى وزميلين أميرالايين فى فبراير ١٨٨١ ، أو أسى الأهالى والعسكريين الذى ولد الضجر المتزايد والذى أعطى للقضية الوطنية شكلا عمليا متفاقما • وعن هذا المشهد من التذبذب والنفاق والتآمر الملتوى والطغيان النزق صمتت التقارير الرسمية البريطانية • يبدأ تاريخ التقارير الرسمية البريطانية بالمظاهرة التى نادت بتحقيق مطالب الجيش military pronunciamento وكان ذلك فى التاسع من سبتمبر ١٨٨١ ، ويبدو ، فى الواقع ، أنها لم تكن أكثر من عرض عسكرى ، ولم يكن هناك من شىء ليكشف أن الجنود الذين شاركوا فيها كانوا مزودين حتى بالذخيرة ، وكان وضعهم بكل تأكيد لا ثائرا ولا مخلا بالنظام •

وكان الأميرالاى عرابى يمثل مطالب الشعب التى كانت ثلاثة فى عددها :

أولا : عزل رياض باشا •

ثانيا : تشكيل مجلس النواب •

---

(١) نهب المصريين Spoiling the Egyptions ، لندن ، الناشر س• كيجان بول وشركاه C. Kegan Poul, Co. ١٨٨٢ •

السفن الحربية المياه المصرية . وقبل أن يغادر عرابى القاهرة ، زار المراقب الانجليزى مستر (الآن سير) أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin الذى كان لسلوكه وأسلوبه أفضل انطباع عند عرابى . ومنذ ١ سبتمبر ، يبدو أن عرابى قد صار بالتصويت الضمنى لأبناء وطنه الزعيم المعترف به « للقضية الوطنية » ـ وهو تعبير صار يستخدم من وقته بصورة متكررة ومتداولة فى المكاتبات الرسمية ، بالرغم من أن نفس التعبير قد أدين من وقتها بأنه اختلاق تعوزه الفطنة .

ومرة أخرى ، اتخذت الشئون المصرية مظهر سلام خادع . لقد استهلت السنة الجديدة (١٨٨٢) بثلاثة أحداث هامة ، أعنى ، افتتاح الخديو لمجلس النواب بخطاب يفيض وطنية لا حياة فيها ، ثم تعيين عرابى (وكان لا يزال وقتها الأميرالاى عرابى بك) وكيلا لنظارة الجهادية : ثم تقديم انجلترا وفرنسا لمذكرة مشتركة متماثلة . ويبدو أن «لورد جرانفيل قد وقع لسوء الحظ ، رغم احجامه الشديد ، فى فخ أوقعه فيه مسيو جامبيتا M. Gambetta (١) الذى ابتدع المشروع المعنى ، باعتبار أنه أداة موائمة لتدعيم مطامح فرنسا على ضفاف النيل ، ولكنه ، ويالقسوة القدر ، عاش فقط ليشهد أشد النتائج مرارة بالنسبة له ولفرنسا (٢) . وفى هذه المذكرة الثنائية ، أعلنت فرنسا وانجلترا متشددتين أنهما قد صممتا على استتباب الأمور فى مصر وتأييد الخديو .

وننتقل الآن الى مناقشة طويلة معقدة وحادة عن القواعد الجديدة لتنظيم مجلس النواب . فى ١١ يناير ، كتب لورد جرانفيل أو بعث بتلغراف بأن « حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى أن تلجأ الى منع مجلس

---

(١) كان رئيسا لوزراء خارجية فرنسا وقتها ، ولكن وزارته لم يكتب لها النجاح ولم تجد التأييد الكافى لها ولذلك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر (من نوفمبر ١٨٨١) حتى يناير ١٨٨٢) ، وخلفه من بعده مسيو فريسسنه M. defreycinet . (المحقق)

(٢) يجب أن نأخذ فى اعتبارنا دائما أنه طبقا للسياسة الخارجية الفرنسية المتوارثة والتى لا يطرأ عليها أبدا أى تغيير ملموس ، أن مصر جزء من امبراطورية ضخمة فى المستقبل ـ امبراطورية قرطاج الغالية (الفرنسية) Carthage Gauloise لقد كتب نابوليون الثالث Napoleon III وكله أمل فى الوقت الذى تترسخ فيه سيادة فرنسا عند سفح جبل أطلس ، عندما تبدو للعرب أنها تدبير من السماء ، وعندئذ يتردد صدى مجد فرنسا من تونس الى الفرات » . ويؤكد الكتيب الشعبى « تحديد العسكرية الفرنسية La Regéntation Militaire Française فى شجاعة ، أن افريقيا (وهو الاسم الذى كان يطلق من قديم على تونس) تنتمى اليوم الى فرنسا ، وبمساعدة ما بها من جمال وهجين ، تستطيع فرنسا أن تذهب الى السودان ، ومن تونس تذهب الى الفرات ، بل لقد ذكر مسيو فرنسييه (رئيس وزراء فرنسا الذى أعقب جامبيتا مباشرة) فى وضوح تام للكولونيل فلاتر Cal. Fletters أنه لابد من تكوين حزب فرنسى فى السودان .

حسن اخلاصكم وشدة غيرتكم الوطنية ، وانى لم اكلفكم باحتمال أعباء هذا المسند العظيم الا لعلمى بحميتكم ، ووثوقى باخلاصكم التام المؤيد بما أبديتم من الخدمات الصادقة فيما تقلبتم فيه من المصالح المتنوعة ، وانى موافق على ما احتواه تقريركم من المبادىء المهمة التى هى اساس للعدل ورابطة للنظام ، وكافلة باستقرار الأمن ، وشموله جميع سكنة الديار المصرية ، وأرى مثل ما رأيتم أن من الضرورى أن تهتم حكومتى باجراء الاصلاحات القضائية والادارية ، وتأسيس قانون مجلس النواب على النحو المبين فى تقريركم وتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة ، وانى مستعد على الدوام لمساعدتكم كل المساعدة على تنجيز جميع ذلك بصدق النية واخلاص الطوية ، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه خير البلاد وراحة العباد ٠

٤ فبراير ١٨٨٢

وكادت تكون خطة محمود سامى ، المسكين ، موجزا نبوئيا لتقرير « لورد دافرين » ، وللملاحظة مدى هذا التقارب يمكن قراءة الاثنين جنبا الى جنب ٠

غادرنا «سير ادوارد ماليت» (١٧ مارس) ، ومرة أخرى أوحت الأمور بمظهر سلمى ، وصار المسئول من بعده « مستر كوكس «Mr. Cookson الذى تحدث فى ٢٠ مارس عن « عرابى » على أساس أنه من المحتمل أن قاوم المؤامرات التركية لعودة « حليم » للعرش الخديوى ٠ وفى ابريل عاد « سير ادوارد ماليت » ، واذ بهدوء الموقف تعكر صفـوة المؤامرة الجركسية على حياة « عرابى » التى تبين أنها كانت حقيقية ولم تكن مختلفة والتى أقر حقيقتها الخديو توفيق ورأى فيها خطرا محققا لنفسه من المصدر ذاته ٠ وفى رسالة « سير ادوارد » الرسمية بتاريخ ٢٣ ابريل كتب يصف هذا « الامير الشاب المحبوب » بأنه لون من طراز الحاكم الدستورى، ولكنه لاحظ أنه « قد استحث لينصب نفسه على رأس الحركة الوطنية ، وهو طريق قد يجبره على أن يتخلص من الموظفين الاوربيين » ٠ وقد حوكم الجراكسة ، وكانت النتيجة ببساطة هى النفى بعد أن خفف الخديـو الحكم الذى حكم عليهم به أصلا (١) ٠

---

(١) بعد انتهاء الدورة النيابية لمجلس النواب ، علم عرابى فى ابريل ١٨٨٢ من من « طلبة باشا عصمت » قائد اللواء الأول ، أن بعض الضباط الجراكسة يأتمرون به ويدبرون الأمر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين والنظار ؛ فعرض عرابى الأمر على النظار ثم على الخديو ، فتقرر اجراء تحقيق ، فعقد مجلس عسكرى برئاسة (الفريق) راشد باشا حسنى ، وبلغ عدد المتهمين أربعين ضابطا ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية السابق ٠ وسيق المقبوض عليهم الى ثكنات قصر النيل ٠ وفى ٣٠ ابريل ١٨٨٢ أصدر المجلس حكمه فى القضية بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، مع مراعاة تفريقهم فى الجهات التى ينفون اليها ،

في بادىء الأمر أن تستقيل ، ولكن بعد ذلك ببضعة أيام (٢٥ مايو) قدم النظار استقالتهم من نظاراتهم على أساس أن « توفيق باشا » قد قبل المذكرة المشتركة ، خلافا لنصيحة النظار الجماعية له ، وعليه ، فقد طلب من وكلاء النظارات أن يستمروا في مباشرة مهام نظاراتهم ، ومع ذلك ، فقد أيدت المؤتمرات الشعبية « عرابي » وأعيد لمنصبه ناظرا للجهادية ، ووصل الأسطول الى مياه الاسكندرية ليكون مطابقا في تأييده المعنوى للمذكرة الثنائية • عندئذ لجأ الخديو ، دون معارضة ظاهرية من ممثلي الدولتين العظميين ، لجأ مرة أخرى الى الباب العالي ليبعث له بوفد عثماني امبراطوري • وفي ٣ يونيو غادر « درويش باشا » « وأحمد أسعد » ، مع حاشيتهما ، القسطنطينية • لقد كانت شكوى الأميرال الانجليزي من أنه شيدت استحكامات جديدة بالاسكندرية ، وقدم احتجاجا للسلطان ، الذي تلقى تأكيدا تلغرافيا من الخديو أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل • وينفي عرابي الآن وبشدة أنه لجأ الى أي تأثير غير مشروع لاثارة أي هياج لاعادته لتولي منصبه ، بالرغم من أن « سير ادوارد ماليت » يدحض ذلك ، رغم أنه لا يوجد أي دليل يؤكد هذا • ووصل « درويش » (٧ يونيو) وكانت وجهته القاهرة •

في هذا الوقت ، يبدو أن انجلترا قد وضعت بعض ثقتها في فعالية التدخل التركي ، لأنه في يوم ٨ يونيو ، كانت سيادة السلطان على مصر معترفا بها اعترافا تاما ، وقد علمنا أن « موسوروس باشا » قد تأكد له أن « انجلترا راغبة في الحفاظ على حقوق جلالة السلطان التي هي حقه » ، ويبدو أن درويش باشا بدأ مهمته باللعب على الخديو وعلى الوطنيين ، ولم يفعل شيئا غير هذا ، ونحن باطلاعنا الآن على الرسائل الرسمية نجد أن « عمر باشا لطفي » ، آخر خليفة ل « عرابي » وناظر الجهادية المصري الفعلي ، كان في القاهرة وقتها ، ولم يكن بالرسائل ما يوضح متى عاد عرابي لتولي منصبه •

ومن المؤكد أن « عمر لطفي » كان في الاسكندرية يوم ١١ يونيو عندما اندلعت ثورة خطيرة (عرفت من وقتها باسم مذبحة الاسكندرية) • وقد قتل كثير من الأوربيين والوطنيين قبل أن يتمكن الجنود من قمع الشغب • لقد نقلت التقارير الرسمية البريطانية بصورة واضحة الانطباع بأن « عمر لطفي » كاد يكون شاهدا سلبيا للمشهد (١) ، وهي تقرر

---

(١) شهد الكاتبان الاخوان أونوفريو Brothers Onefrio أنهما رأيا عمر لطفي على بعد بضع ياردات من « مستر كوكسن » عندما أوقعه رجل أرضا اثر ضربة من هراوة ، =

بصورة واضحة تماما أن الشغب كان مدبرا ولم يكن عرضيا (١) ، وأنه قل أن تجد أى اختلاف بين سلوك المستحفظين ، أو البوليس وبين سلوك الشعب ، وأن القوات وحدها قد باشرت من تلقاء ذاتها استتباب النظام والحيلولة دون قيام شغب من جديد ٠

وفى اليوم التالى ، عقد مؤتمر فى القصر الخديوى بالقاهرة ، وفى حضور الممثلين الأجانب والخديو ، دخل درويش باشا وعرابى فى اتفاق مشترك وملزم « عن مسئوليتهما الشخصية فى حفظ النظام فى مصر وطاعة الخديو الذى يتلقى تعليماته من سلطاننا المهيب أمير المؤمنين » ٠

كانت المحنة تقترب الآن اذ لم يتوقف عرابى قط عن الشكوى من « التهديد الدائم » لوجود الأسطول ، فى الوقت الذى بعث فيه « سير بوشامب سيمور Sir Beauchamp Seymour » برسالة فى أثر رسالة عن « التهديد الدائم » للطوابى ٠ وقد ذكر درويش لـ « سير ادوارد ماليت » ، ساخرا ، أنه من المفروض أن يتركز الجيش فى الاسكندرية، حتى اذا قاوم ، لو استدعى الأمر ذلك ، يمكن تحطيم مقاومته عند أول ضربة » ٠ ووثق « سير ادوارد ماليت » بكلامه ! وكان « الخـديو » و « درويش » يوم (١٣ يونيو) فى الاسكندرية ٠ وكان من الواضح أن شيئا يجب أن يؤدى ويؤدى بسرعة ، فاقترح « لورد جرانفيل » أنه « يجب دعوة الباب العالى للانضمام الى القوتين العظميين فى انزال قوات فى مصر»، ولكن « سير ادوارد ماليت » (فى ١٧ يونيو) فى الساعة الحادية عشرة ، نصح بدعوة « الحزب الوطنى » القديم ، الذى كانوا ينكرون حتى وجوده٠

= ورغم أن عمر لطفى كان حوله جند أو رجال بوليس (اذ لم يكن واضحا أيهما) لم يفعل شيئا ليساعد كوكسن ٠

(١) هذا غير صحيح ، وفيما يلى ما يوضح كيف بدأت المذبحة : وقع شجار يوم الأحد ١١ يونيو ١٨٨٢ نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، بين أحد المالطيين من رعايا الانجليز وأحد السكندريين يدعى « السيد العجان » ، وكان المالطى هو البادى بالعدوان ، فقد كان للوطنى حمار ركبه المالطى وأخذ يطوف به من الصباح متنقلا من قهوة الى أخرى وانتهى طوافه عند خمارة قريبة من قهوة القزاز بالقرب من مخفر اللبان آخر شارع السبع بنات ، فطالب الوطنى المالطى بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد ، فجادله فى قلة الأجر ، فما كان من المالطى الا أن أشهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على اثرها ، ووقع الحادث فى الزقاق الكائن خلف قهوة القزاز ، فهرع رفاق القتيل الى ذلك المكان يريدون أن يمسكو بالقاتل ولكنه فر الى أحد المنازل المجاورة ، وأخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الآهلين من الأبواب والنوافذ فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم وتحركت طبقات الدهماء للاعتداء على الأوربيين عامة ، فأخذوا يهجمون على كل من يلقـونه منهم فى الطرقات أو فى الدكاكين ويوسعوهم ضربا ، وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهراوات ٠ (المحقق)

وقد استدعى النواب للوصول الى تعبير عن رغبات البلاد ، وكان هناك وعد بوضع دستور ، واتفق الجميع على « قيام إتحاد بين النواب والحزب العسكرى ، وأن تكون كلمات سرهم « الوطنية والقانون » . وبعد كثير من المسيرات السياسية والمسيرات المضادة قرر الخديو (١٧ يونيو) تشكيل نوع من حكومة ائتلافية تحت رئاسة « راغب » ، وكان موظفا سابقا فى عهد أبيه . وقد ضمت النظارة الجديدة « عرابى » وواحدا أو اثنين من أعضاء نظارة سامى المقالة ، وقد اتخذت هذه الخطوة تحت تأثير ألمانيا والنمسا ، ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا الاعتراف بالنظار ، ووصلت تعليمات الى « مستر كارترايت Mr. Carwright » (الذى كان قائما بأعمال سير ادوارد ماليت (أثناء اصابته بالحمى) بأن يكون اتصاله فقط برئيس النظار ، وبالاهتمام فقط بحماية أرواح الرعايا البريطانيين . ووسط هذا الاضطراب ، بدا الخديو توفيق كموضوع لعبة شد حبل دبلوماسى : اذا أمره درويش باشا كما أمره السلطان ، بالعودة الى القاهرة ، بينما منعه « سير آرشيبولد كولفن Sir Archibald Colvin من مغادرة الاسكندرية .

لم يثبط شىء من همة رئيس مجلس النظار الذى ناهز الثمانين عاما ، أن يصدر (فى ٢٠ يونيو) برنامجا عادلا ومتحررا : العفو عن كافة الجنح السياسية باستثناء الاشتراك فى حوادث ١١ يونيو ، ويحكم الخديو حكما دستوريا طبقا لمرسوم اسماعيل باشا الصادر فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ (بمعنى آخر ، بموافقة ومشورة نظاره) ، ولن يعاقب فرد الا بمقتضى تشريع قضائى ، وينبغى على ناظر الخارجية وحده ، من الآن فصاعدا ، أن يتصل رسميا بالوكلاء السياسيين الأجانب . وبعد ذلك بأسبوع (فى ٢٦ يوليو) فكر السلطان فى أن يبعث بقوات من عنده . فى هذا الوقت ، يجب أن نذكر أنه لا الخديو ولا أى من أصحابه اشتم حتى أدنى شك فى اشتراك عرابى فى حوادث الشغب التى حدثت فى يونيو ، ولم ينهض أى دليل من الأدلة المقدمة فى أية صورة من الصور ، لتأكيد ذلك، وهو فى النهاية تلقى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، من السلطان ، بل ان « لورد دافرين » عندما توجه الى قصر يلدز Yildiz Kiosk يطلب تفسيرا لتفكير السلطان فى ارسال قوات تركية الى مصر ، اضطر لأن يرضى نفسه بتوكيد تكهنى بأنه « سيحين الوقت الذى سيصفق فيه تصفيقا حادا على المسرحية » ، وبعد ذلك بعث توفيق الى « عزيزه » راغب باشا بموافقته الكاملة على تقريره كما سبق له أن وافق منذ أربعة أشهر على تقرير « عزيزه » محمود سامى ، وفى ١٠ يوليو قدم درويش الى مستر

كارترايت احتجاجا قديرا فعلا ضد الوضع الاستفزازى الذى اتخـــذه الأسطول البريطانى ، وقد ذكر فيه درويش ان الخديو اما أن يصمد أو يسقط مع نظارته · ومنذ ثلاثة أيام مضت (ولا شك أن ذلك كان تحت تأثير درويش) أعلن توفيق نفسه ل « مستر كولفن » انه لا يمكن أن يتخلى عن مصر « اذا ما هاجمتها قوة أجنبية » ، وبعث بتلغراف الى الباب العالى بأنه « ليست هناك كلمة صدق » فى التقـــارير التى وصـــلت القسطنطينية والتى تقول بأن طوابى الاسكندرية قد زيد فى استحكاماتها بعد تلقى أوامر بذلك ، وأن هذا يخالف الواقع ·

لم يرد بالتقارير الرسمية البريطانيـــة ذكر عن الاجتماعات التى عقدت برئاسة « الخديو » و « درويش باشا » ، وان كان هناك بيان كامل عن ضرب الاسكندرية ، وهناك تعبير عن المزيد من الهلع فى اســتخدام المفاوضات عديمة النفع ، وفى استخدام الراية البيضاء « لكسب الوقت » · وقـــد وصلت تعليمات للمندوبين البريطـــانيين فى كـــل من القسطنطينية والاسكندرية (حيث وضع الخديو نفسه تحت الحماية البريطانيـــة) بالاصرار على أن يعلنا رسميا أن عرابى عاص · ويحول السلطان مجرى الحديث فى الوقت الذى أكدت فيه الصـــحافة التركية الموهوبة ، وفى جرأة وبدون ما خوف من تكذيب لها ، أن « القوات االتركية فى طريقها الى مصر لحماية الأهالى الوطنيين من العدوان الأجنبى الغاشم » ، ومجدت تمجيدا عاليا فى ورع ووطنيـــــة « عرابى » · وتردد الخديو ، ثم أخيرا عزل « عرابى » وعين « عمر لطفى » فى منصبه ، ووعد باصـــدار عفو عمومى عمن يعودون لولائهم ، وأخيرا ، فى ٢٤ يوليو (بعـــد أسبوعين تقريبا من ضرب الاســـكندرية) أعلن أن « عـــرابى » عاص ، وذلك فى منشور علق على الجدران بشوارع اســـكندرية ، تميز بالغموض وعدم الاقناع · وفيه قال الخديو (١) ·

---

(١) لم يكن هـــذا المنشور الا تبريرا من الخـــديو لعزله لعرابى ، اعمـــالا بنصيحة « كارتريت » له وتنفيذا لتعليمات « لورد جرانفيل » ! ! ؟ أما قرار العزل فقد نشر فى الوقائع المصرية العدد الصادر فى ٢١ سبتمبر ١٨٨٢ وفيما يلى نصه بعد الديباجة :

« ان ذهابكم الى كفر الدوار مستصحبا العساكر واخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة الينا ومنع حضور المهاجرين الى وطنهم باسكندرية واستمراركم فى التجهيزات الحربية وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوما » ·

وجدير بالذكر أن الخديو عين عمر باشا لطفى ناظرا للجهـــادية والبحرية خلفا ل « عرابى باشا » · (المحقق)

« ليعلم كل من يقرأ هذا الأمر سبب عزل احمد عرابى باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب الشواطىء ، حطمت طوابينا وحطم أربعمائة مدفع من مدافعنا وقتل القسم الأكبر من رجال مدفعيتنا أو عطلوا بينما لم يفقد الأسطول الانكليزى الا خمسة رجال ولم تصب سفنه اصابات ذات بال ، وجاءنا حينذاك أحمد عرابى يعلن الينا النبأ المؤلم عن تحطيم طوابينا • وقد طلب الأميرال الانـــكليزى منا اخلاء طوابى العجمى والدخيلة والمكس لتحتلها جنوده ، ولما كان مجلس النظار منعقدا بحضور درويش باشا ، فقد تقرر انه لا يمكن اخلاء الطوابى الا بأمر من صاحب الجلالة الشاهانية السلطان ، وانه على عكس ذلك صار من الضرورى العمل على تدبير وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة تمنع نزول الجنود الأجنبية ، وفى نفس الوقت ، أرسلنا تلغراف بذلك الى الباب العالى ولكن عرابى باشا توجه الى جهة باب رشيد باسكندرية دون أن يتخذ أى اجراء حربى فارسلت اليه أحد ياورى ليذكره أنه يجب عليه ارسال امدادات الى الطوابى المذكورة ، فاجاب بانه لا يستطيع أن يرسل جنديا واحدا وأمر الجند بأن ينسحبوا معه وعسكر فى كفر الدوار تاركا المدينة بغير دفاع وفى اليوم التالى نزلت القوات الانكليزية عند الاسكندرية أهم بقعة فى بلادنا واحتلت المدينة بدون اطلاق طلقة واحدة ، وهى حقيقة مشينة فى شرف الجيش المصرى ، ولا تقع شينها الذى لا يمحى الا على مسببها ــ على « عرابى باشا » ••• الى آخر ماجاء بالقرار الذى يوضح بمعنى آخر ، ان اعلان « عرابى » عاصيا مرده الى أنه لم يضرب الانجليز عند اسكندرية •

والجدير بالذكر أن كل حقبة من شئون الشرق يتخللها ، الى حد كبير ، عنصر هزلى ، ولم تسلم التقارير الرسمية البريطـــانية من هذه العـــدوى بالمرة ، ومن ثم فاننى مضطر ، عـــلى مضض ، لأن أتوقف عن متابعة الخطابات التى بعث بها « لورد دافرين » من القسطنطينية • ان وصفه الطريف الرفيع لغرائب المؤتمر ، وعن محاولاته الحصول على قرار ضد عرابى ، وعن المفاوضات التى نجحت فى الحيلولة دون توجه جيش تركى الى مصر ، لهو جدير بأن يعتبر صورة أكثر شعبية من أن يكون مجرد تسجيل رسمى • وهى مع تهكمها وسخريتها العذبة تكاد تتفوق عليهـــــا بمرح أعـــرض ، نوعـــا ما ، ما كانت تذكره جريـــــدة القصر Court Journal من أنباء كانت متأخرة عن أوانها Post-dated والتى كان يحررها أحد الشبان الموهوبين من السلك الدبلوماسى ــ اسمه مستر جيرالد ه• بورتال Mr. Gerald H. Portal والتى تذكرلنا تفاصيل أسوأ لقاء لربع ساعة mauvais quart d'heure مع الخديو توفيق فى الرمل يومى ١١ و ١٢ يوليو ، والتى بدت فى الرزانة المتطلبة فيها على اعتبار أنها الوثيقة رقم ٤٧١ ضمن مجلد التقارير الرسمية البريطانية رقم ١١ لسنة ١٨٨٢ • والمقتبسات التالية تعطى فكرة طفيفـــة • عما تضمنته من مواهب كاتبها :

لقد اتضح بعد ذلك « أن رئيس خبازى القصر توجه الى عرابى باشا واخبره ان الخديو وحزبه ، اعتقادا منه بأن الجيش المصرى كان يعانى معاناة قاسية ــ كان غاية فى

السرور en état royannant ، وطلب مقاومة القوات حتى لا تهاجم القصر ....

وبعد فترة قصيرة من انصراف طلبة باشا ، أحيط قصر الرمل فجأة بالخيالة والمشاة ، وكانوا فى مجموعهم حوالى ٤٠٠ ، فى اخشن ملبس ، وكثير منهم كانوا بلا سراويل وغيرهم بدون سترات . وكان أول ما فكر فيه من فى القصر عنهم أنهم من البدو الذين أعلنـــوا ولاءهم فى الصباح ، ولكن ما لبث ان اكتشفوا أن حوالى ٢٠٠٠ جنيه استرلينى قد وزعها اعوان عرابى بينهم وبين غيرهم من الموالين للخديو لضمان تغيبهم . ونتيجة لذلك ترك الخديو بلا حول له مع قلة من اتباعه . عم الهلع القصر ، وصار الخدم جميعهم متلاحمين من الخوف . وقد أظهر الخديو نفسه أقصى ضبط للنفس واقصى هدوء ، واستبدل خفـه بحذاء طويل ، ثم أمر باحضار بندقية له ، وفعل درويش مثلما فعل (هل استبدل الخف بحذاء طويل ؟) معلنا ، والدموع فى مآقيه نيته فى أن يموت تحت قدمى سموه .

***

وعقد اجتماع عام فى القصر للمداولة فى مخاطر الموقف :

فنصح درويش باشـــا بأنهم يجب أن يهربوا الى « بنها » ثم يتوجهـــوا منها الى « السويس » ، وكان البعض يفضلون الذهاب الى القاهرة ولكن الخديو لا يمكن أن ينصت الى هذه النصيحة .

ولقد استقر الرأى فى النهاية على أن أهم نقطة هى احاطة علم الأميرال بالوضـــع ، وان يكون هناك ، ان أمكن اتصال بالأسطول . استمرت هذه الحالة من التشكك والقلق حتى الصباح التالى عندما أعلن (فى ١٣ يوليو) البمباشى (قائد) القوات منيب افندى ، أعلن عن ولائه للخديو ، استدعى للحضرة الخديوية ووجه صاحب السمو حديثا حازما ومؤثرا على العواطف حتى دمعت عيناه ، ثم استدعى الضـــباط الذين كانوا فى صحبته للحضرة الخديوية ، واقسموا جميعهم بالولاء للخديو ، وقبلوا يد صاحب السمو كما قبلوا يد درويش باشا .

وأعقب ذلك توزيع الخديو للنياشين ، وعادت الثقة فى أعظم صورة.

ثم أرسل « زهران بك » الى الأميرال لاخبار فخامته ان صاحب السمو يريد ان يركب « المحروسة » أو ما هو خير من ذلك ، التوجه الى قصر راس التين ، اذا لم يكن القصر قد دمر .

وفى الساعة الواحدة عاد « زهران » بنبأ ان الأميرال قد وضع حراسة عند « القبارى » و « الترسانة » ؛ من جراء ذلك ارسل فى الساعة الثانية « تكران بك » ليعلن للأميرال ان الخديو سيبدأ فى التوجه الى الترسانة فى خلال ساعة .

وفى حوالى الساعة الرابعة ، وصل سموه الى قصر راس التين ، وكان قد التقى به فى الطريق كلا « سير ا. كولفن » و « مستر كارترايت » ، بينما استقبله عند نهاية الدرج الأميرال « سير بوشامب سيمور » .

***

بما يفوق الوصف فاستولى على اموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفى الحكومة واستبدلهم بغيرهم فى حالة كونه معزولا من وظيفته معدا للعقاب الصارم الشديد • ولقد راينا ان قلوب كثيرين من رعيتنا لا تزال قاسية مائلة الى عرابى بالرغم من اوامرنا السابقة فلذلك اصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيه أن كل شخص ذا ضلع مع عرابى وميل اليه عددناه عاصيا مستحقا لجزاء العصيان •

فرحمة بمصر واهلها تستانف الآن اعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا آن كل من اصر على عصياننا وانقياده لعرابى كان مذنبا امام الله وغير مقبول العذر لدينا فنجرده من ولده وذريته من جميع الرتب والرواتب ومعينات التقاعد وسائر الامتيازات التى كان متمتعا بها • »

وتستمر التقارير الرسمية البريطـانية (التى نشرت فى الفترة السابقة لمحاكمة «عرابى») فى سردها للأحداث فنقول انه حدث بعد ذلك أن « شريف » و « رياض » (الذى عاد من اقامته القصيرة فى جنيف) خلفا « راغب » (فى ٢٧ أغسطس) فى حين أن عمر لطفى بقى زميلا لهما فى نظارة الجهادية مكافأة له على ولائه للخديو ، وفى (٢٢ أغسطس) أعلن أن أوامر « سير جارنيت ولسلى «Sir Garnet Wolseley» تكون لها نفس قوة أوامر صـــاحب السمو ، وبعـــد ذلك بفترة قصـــيرة (٢٨ أغسطس) طلب « لورد جرانفيل » من الحكومة المصرية ألا توافق على تنفيذ حكم الاعدام فى أى أسير حرب يسلم نفسه لهم أثناء « العمليات العسكرية » بدون موافقة من انجلترا • وتنتهى سلسلة التقارير الرسمية البريطانية ببيان عن المفاوضات التى أدت الى السماح بالدفاع عن عرابى وعن العديد من صحبه الذين سلموا على هذا الأساس الى السلطات المحلية. وهنا تنتهى قصة التقارير الرسمية البريطانية •

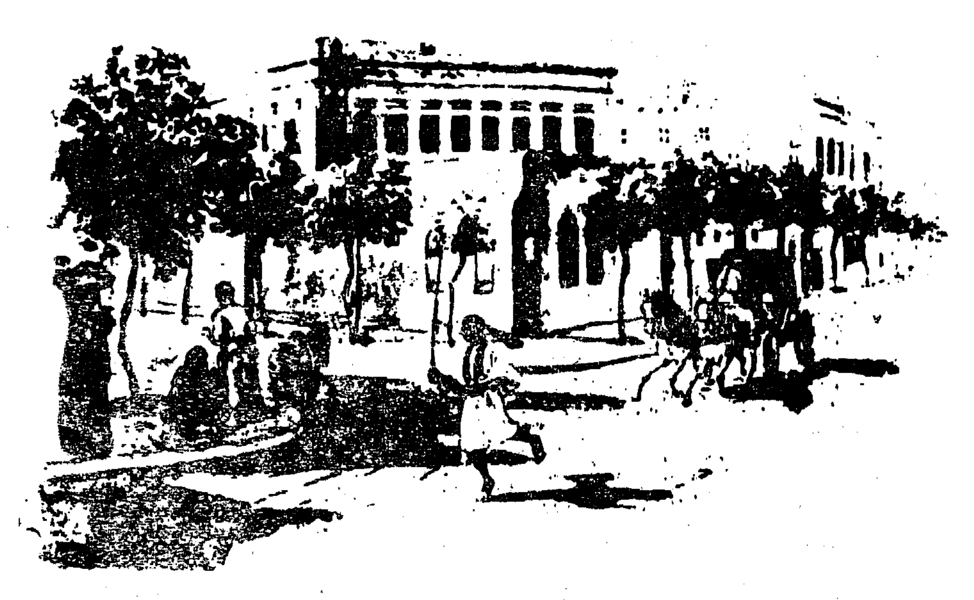
والنتيجة من قراءة هذه التقارير الرسمية قراءة متمعنة لا تخلو من اعطاء مدلولة لها معناها عندما يفكر المرء فى أنها تشكل صفحة فى تاريخ انجلترا ، ولم يرد بها ذكر عن أن طريق انجلترا الى الشرق كان محفوفا بالمخاطر لمدة طويلة ، ولم يرد ذكر شيء عن الالتزام « باستتباب النظام » الذى يبدو أنه النظير الانجليزى «للمهمة الحضارية «mission de civilisation» للانتهازية الفرنسية • ولقد لاحظ « مستر جاستن مكارثى «Justin M'Carthy» (١) فى صدق بالغ أن « التاريخ لا يذكر دائما على لسان مدبرى أى حرب ، الدافع الحقيقى والموحى بالحـــرب ؛ وهو فى الواقع لا يرى غالبا على حقيقته ولا مصرحا به ، حتى فى آراء المشجعين عليها

(١) انظر كتابه : « تاريخ زماننا A History of Our Own Times ، لندن ، ١٨٨٢ ، المجلد الأول ، ص ١١٩ •

لزيارتنا فى الساعات المبكرة ، المثقلة ، فى الصباح أو فى عتمة الغسق المصرى ، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن وجود القوات الانجليزية قد أزال كل الأسباب الحقيقية للخوف · لقد روى لنا ابن عرابى وخادمه ، لعـــدة أيام ، روايات محزنة عن كيف أن أسرة « عرابى » تعرضـــت للاضطهاد وأنهم اختبئوا فى بيت فى حى مغمور من أحياء المدينـــة · وجاءنا « بشير » وهو عبد نوبى يعمل عند « طلبة باشا » ، يطلب منا تولى الدفاع عن سيده ، وختم على الطلب بخاتمه حتى يكتســـب قوة التوثيق عند تقديمه للمدعى · وفضل « محمـــد فهمى » ، ابن شقيق على فهمى باشا أن يقدم طلبا مماثلا نيابة عن عمه ، كما فعل أيضا الصبى ضئيل الجسم أسود العينين ذو الأربعة عشر عاما واسمه « سعيد » بوجهه الذكى الذى كشف عن الدم الزنجى الذى كان يجرى فى عروقه ، اذ قدم لنا طلبا نيابة عن أبيه « عبد العال » ، الذى لم يتخل عن واجبه ، أبدا طوال الحرب حتى استسلم فى دمياط لا لشىء الا ليرحل الى السجن · فى هذا الوقت ، كان الجركسى الشرير المدعو « عبد الرحمن أفندى » الذى كان ، طبقا لخطة ، يسىء معاملة أقارب العصاة المهزومين سيئى الحظ ، وكانت شكايات زوارنا ، نتيجة لذلك ، تكاد لا تنتهى على أن هذا الطاغية النزق ، ما لبث أن خمد بعد فترة ، لأن واضـــعى الخطة بدءوا يشكون فيما اذا كان المساجين ، على أية حال ، ليسوا عديمى الحيلة ، كما كانوا يتوقعون ·

زرنا عرابى فى السجن أثناء صباح اليوم التالى (٢٥ أكتوبر) ووجدناه مشغولا بكتابة مذكراته · كان يكتب بسرعة كبيرة ، ولكنه قال لنا بصراحة أن ذاكرته أحيانا ما تخونه ، ومرد ذلك ، فى اعتقاده الى الاستفزاز الذى مر به مؤخرا ، وكان عرابى يتوق الى أن تكون بغرفته اضاءة حتى يمكنه أن يكتب بعد أن يخيم الظلام ، ولكن طلبنا رفض ، من جراء محاولة مزعومة كانت تستهدف ادخال الغاز فى السجن ، ولنفس السبب منعت سلطات السجن خدم المسجونين من الاتيان بطعام لهم · وكان موضوع الاضاءة دائما طلبا مثيرا للازعاج ، وحتى نهاية اقامتنا فى مصر ، تقريبا ، كان حكرا على الحرس الذين كانوا يبيعون الكبريت لمن كانوا فى الحجز عندهم ، بفائدة تصل الى بضعة آلاف فى المائة ·

وكان عرابى شديد السخط من قصة الغـــاز ، وقد كتب المذكرة التالية الى مستر Mr. Bell مراسل جريدة « التـــايمز » ، اذ تصور « عرابى » أنها موجهة اليه ، فأراد أن يكذبها علانية :



(شكل ٢) ـ بيت عرابى ـ مستشفى ليدى سترانجفورد

« جناب المحتشم والمحامى عنى مستر برودلى دام كماله

من حيث بلغكم بأن تابعى دخل عندى فى أوده السجن وترك فيها زجاجة مملوءة غاز لأجل حريق محلات السجن فينبغى أن تكذب هذا الخبر فانه محض افتراء حيث أنى محروم بعد رؤية خادمى حتى النظر من يوم انتقالى الى السجن المصرى فى ٥ أكتوبر ١٨٨٢ وكيف يتصور ان احرق نفسى واموت مخالفا لأحكام الشرع وأنا ابن صاحب الشريعة ثم كيف لم افعل ذلك فى المدة التى اقمتها مسجونا بطرف عسكر الانكليز حالة كون خادمى يخدمنى ليلا ونهارا من غير حرج فاذا كنت يأست من ظهور الحق كنت هاجرت فى ارض الله الواسعة وكنت توجهت الى لندرة ملجأ الخائفين ولكنى سلمت نفسى الى شرف الانكليز وزمنها فى مصر وفرضت انى دخلت فى لندرة وان لا خوف على وانما هذه اكذوبة بعدم مساعدتى بخدمة خادمى لأنه فى ذلك نوع من العذاب وشرف انكلترا يأبى اهانتى بعد استسلامى ، احمد عرابى ٢٨ أكتوبر ١٨٨٢

كان عرابى فى غمرة سروره عند سماعه عن توقعات أننا سنتولى أيضا الدفاع عن « على فهمى » و « عبد العال » ، نظرا لأن ثلاثتهم وقفوا فى مقدمة الحركة الوطنية منذ أن سجنوا وأطلق سراحهم فى تاريخ يرجع الى فبراير ١٨٨١ · وقد كتب عرابى خطابا موجز كتعريف لكل منهما ، راجيا من صديقيه أن يضعا ثقتهما الكاملة فينا مثلما فعل هو ·

وفى وقت متأخر من النهار ، زارنا « بوريللى بك » ، ولم يكن يبدو فى بشاشته العادية ، وتحدث فى قنوط عن كثرة عمله وعن صعوبات المحاكمة ، وانتهى حديثنا فى مشروع وفاق مشترك على اثره اتصلت ب « سير ادوارد ماليث » ، ولكنه لم يأت بنتيجة لسبب غير معلوم ، ولم تكن الأمور قد نضجت بعد لتسوية من هذا النوع ·

بعد الظهر ، قمنا بزيارة للمستشفى الانجليزى الذى أنشأته ليدى سترانجفورد Lady Strangford مكان الدار الضخمة التى استأجرها عرابى يوما ما ؛ وكانت ليدى سترانجفورد تعمل فى المستشفى بصورة لاتكل لتخفف عن المعاناه التى كانت تسود قوات الاحتلال ، وكان مشهد جنازات جنود الاحتلال لا يثير حزن الانجليز يوما بعد يوم ، ولقد اتخذ رسام فرنسى مشهور منظرا من هذه المناظر ليكون موضوعا لاحدى صوره التى سيعرضها فى صالونه القادم · ان رد فعل الارهاق ومتطلبات الحياة غالبا ما يكون خطيرا اذا ما توقف الانطلاق عن اثارته · وفى القاهرة ، يبدو أن المرض قد ولدته بالفعل المشروبات السامة التى كانت تباع فى مقاصف المالطيين واليونانيين التى ظهرت حول كل معسكر ·

عند دخولنا القاهرة ، كاد أثاث عرابى أن يتحطم كله بحثا عن أوراق

تكشف عن خيانة ، فالأرائك والوسائد قد شقت بطولها وخلعت الأرضيات وثقبت الأسقف ، فلما طلبت « ليدى سترانجفورد » الدار أعطاها لها الخديو (١) · انني لم أسمع قط كيف حصل عليها عرابى نفسه · لقد كانت غرفها الطلقة الهواء والشاهقة الارتفاع (التى كانت من ثلاثة أشهر مضت مزدحمـــة بالزوار المعجبين ب «عرابى») كانت أحســـن ملاءمة لاستخدامها الراهن ، وأما ترتيبها الدقيق فكان يحقق كل الرغبـات · لقد كان من الصعب أن نتصور ، ونحن فى هذه الدار ، المشاهد البسيطة للحياة البيئية ل «عرابى» التى وصفتها ليدى جريجورىLady Gregory أحسن وصف ·

انني أخشى أن تكون « ليدى سترانجفورد » قد سمعت كل شيء غير منصف فى حق عرابى ولم نسمع شيئا لصالحه · كانت لا تزال هناك قطة كبيرة سوداء أبيض ذيلهـــا تقتحم الحجرات بحثا عن قاطنى الدار القدامى ، وكان الاعتقاد بوجه عام أن القطة قد تملكتها روح شريرة · لقد ذكرت أخت الخديو لصديقة « لليدى سترانجفـــورد » أنه سيكون بتدبير من عند الله لو أن عرابى مرض وجيء به الى المستشفى حتى يمكن تقديم قدح من القهوة على الطريقة الشرقية · لقد حاولت أن أثير اهتمام « ليدى سترانجفورد » بموكلى ، الذى بعث لها فى اليوم التالى بصورته وبرسالة ذكر فيها أنه لم يسعده شيء أكثر من استخدام داره القديمة فى هذا العمل الانسانى الجليل ، ولكننى لم أذكر ل «عرابى» قصة أخت الخديو ، ولكنه رجانى أن أؤكد لفخامة الليدى الصفات الحميدة التى تتميز بها القطة التى كثيرا ما كانت تساء معاملتها ·

وما لبث عرابى المسكين أن وجد عند « ليدى سترانجفورد » برهانا على شفقتها ، ذلك أن ابنا صغيرا لعرابى مرض ، فلم يتقدم طبيب وطنى مخلص ليعالج طفلا لشخص عاص · جاءنا « محمد بن عرابى » فى محنته ، وبدأ الأمر يستوجب تحركا عاجلا ، هرع خادمنا الأمين « حسن » يبحث

---

(١) قبل استلام ليدى سترانجفورد للدار كانت السراى دائمة استعجال ضبطية مصر لاخلاء دار الزعيم عرابى ، وفيما يلى صورة طبق الأصل لتلغراف السراى : « من مهردار خديوى فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ الى مأمور ضبطية مصر ·

سبق تحرر لكم باخلا منزل الشقى عرابى بنا على الأمر وطلب منكم الافادة ولحد تاريخه لم ترد وحيث المنزل المذكور مقتضى اجعاله شفخانة صدقة للمجروحين فبوصوله يجرى اللازم لاخلاه ويفاد حالا » (محفظة ٨ دوسيه نمرة ٧/د/٥٣ ـ دار الوثائق القومية بالقلعة)

وانه لمن الخسة أن ينعت هذا الباشكاتب بضآلته ، زعيما كان ملء الدنيا معقد آمال مصر ب « الشقى » ، ولا شك أنه لم يكن ليجرؤ على نعته لزعيم أمته بهذا النعت ما لم يجد تشجيعا من ولى نعمة الخديو الذى كان يحرس قصره عساكر انجليز !! (المحقق) ·

عن « دكتور جرانت بك Dr. Grant Bey ، كما لجأ « مستر نابير » الى طبيب للدى سترانجفورد ، « دكتور سيفكنج «Dr. Sievcking» ، وتوجه كلاهما على الفور فى مهمتهما الرحيمة · وعلى الفور ، أبرق ناقلو الأنباء الخصوصيون ، ممن لهم الحظوة عند القصر ، بهذا الوضع على أســاس أنه برهان على عدم شعبية عرابى ، فى حين أن من كانوا يميلون الى العطف على عرابى علقوا على ما حدث بأنه مثل على قسوة أعدائه ، ولنختتم القصة كلها ، نقول ان كلا الطبيبين الانجليزيين بدءا نقاشا جدليا حادا فى « المجلة الطبية البريطانية » (١) عن من يكون له شرف معالجة طفــل عرابى ، وعن ما يعانى منه الطفل · والفقرة التالية المنقولة عن جريدة « التايمز » اللندنية حسمت الموضوع فى النهاية ، بل انها قد حطمت تماما أى بهتان يمكن الرد به : —



(شكل ٣) — على فهمى باشا

طفل عرابى — ترى المجلة الطبية البريطانية ا نطفل عرابى الذى نمى الينا مؤخرا أنه مريض مرضا خطيرا ، والذى رفض الأطباء المصريون علاجه لأسباب سياسية ، أنه تبين عندما تولى علاجه الأطباء البريطانيون أنه يعانى من تهيج جلدى حاد
Sevre attack of itch

---

(١) The British Medicel Journal.

انني واثق من أن مستشفى « ليدى سترانجفورد » ستزدهر لمدة طويلة فى القـاهرة لتـــكون بمثابة تذكار للجانب المشرق للاحتـــلال الانجليزى .

وفى الصباح التالى حصـــلنا على تصريح بزيارة موكلينا الثلاثة الجدد : « على فهمى » و « عبد العال » و « الشيخ محمد عبده » ، بالرغم من أن التصديق الرسمى على من سيترافع عنهم لم يصدق عليه بعد . وكان الاثنان الأولان يحتلان زنزانتين متجاورتين فى الطرقة التى تقع الى يمينهـــا غرفة عرابى . أما عن « على فهمى » فهو نحيل الجسم ، ذكى المظهر داكن البشرة فى حوالى الأربعين من عمره وكان الانطباع عنه يبعث على السرور . لقد رحب بنا بحرارة ، وقد أسره خطاب عرابى له سرورا واضحا ، ورفعه عدة مرات الى شفتيه وجبهته . كان مرتديا رداء رماديا داكنا أو بالطو زرايره نحاسية عسكرية ، وكانت احدى ساقيه مضمدة بضمادات ، وكان يعرج بعض الشىء متألما من جرح أصابه فى القصاصين . كانت زنزانته المسجون فيها تشبه فى مساحتها غرفة عرابى تماما ، مع فارق واحد هو أن نافذته كانت تطل على ساحة السنجن . لقد كان على استعداد لأن يوقع لنا على تفويض لنتولى أموره نيابة عنه ؛ كما اعترف لنا بأنه « ما من كاتب مثل عرابى » . لقد رجانا أن نؤدى له خدمة بأن نسمح له بأن يملى مذكراته على أحد كتبتنا . وكان « على فهمى » واحدا من أكثر أصدقاء « عرابى » ولاء له ؛ وكان متزوجا من واحدة من حريم « الخديو اسماعيل » ، كان يوما ما ممن لهم الحظوة الكبرى عند «توفيق» ، وكان يرأس الحرس الخديوى ، وكانت امرأته موسرة الى حد ما ، وكانا يعيشان فى بيت من أجمل بيوت القاهرة . لقد خسر كل شىء ، ولم يكسب شيئا بترسمه خطا عرابى . لقد قال « على فهمى » مرة : « ان لدى كلمة واحدة لأقولها دفاعــا عن نفسى ـ انني مصرى . » . وأمام قومسيون التحقيق لم يتذلل ولم يضعف . لقد أجاب على كل ســؤال فى حزم ، ولم يلجأ قط الى أن يتلمس لنفسه المعاذير بأن يلقى اللوم على غيره ، وعندما انتهى استجوابه توجه الى المنفى دون ما تذمر . وفى أول لقاء لنا معه ، ذكر الشىء الكثير عن أخيه أكثر مما قاله عن نفسه ، لأن أخاه ، نظير اتهامه البسيط بأنه « قريب شخص عاص » ألقى به فى سجن فى أقاصى الصعيد . ذكرت هذه الحادثة ل «سير ادوارد ماليث» ، الذى عن طريق صلاته الطيبة ، أفرج عن شقيق « على فهمى » فورا .

أما عن « عبد العال باشا » فكان يمثل النقيض التام ل «على فهمى» ، فقد كان بدينا ، كاد يكون مورد الوجه ، صوته جهورى ، وكان تجسيدا



(شكل ٤) عبد العال حلمى باشا

للجندى الفظ . استقبلنا فيما يشبه الصخب وصرح لنا بأنه لا يخشى الآن شيئا . ولما زال الهرج الأول للقائنا ، شكا لنا شكاية مرة عما حدث له فى الأيام الأولى من سجنه (١) ويمكننى أن أذكر أنه على الرغم من

---

(١) قدم لى « عبد العال » هذا البيان : ـ

جناب حضرة المستر برودلى الأبوكاتو الوكيل عنى فى المرافعة لظهور حقى

بما أنى أوضح لجنابكم بما حصل من الظلم والغدر والاستعباد الذى أصابنى من الحضرة الخديوية من منذ استنتين وسأوضحها لجنابكم فيما بعد عند السوال منى وانما أوضح لجنابكم الذى أصابنى وأنا فى السجن الذى أنا فيه الآن من الضرب والاهانة وهو أولا حضر لى ياوران وقواسه الحضرة الخديوية وليجروا تفتيشى بحالة غير مرضية وأخذوا منى أوراقى ومفتاح الخزنة مغلوق منى والتى بها النقود مغلوق مغلوق وكانت به أمانة عندى وأوراق تلزمنى الآن فى التحقيق ضرورى والمفتاح المحكى عنه الآن هو موجود بطرف سعادة مأمور الضبطية فأرجو جنابكم طلب المفتاح منه وتتسلموا لنا لأخذ الأوراق اللازمة لى وأيضا أخبر جنابكم أن فى ليلة سبعة وعشرون فى الشهر الذى معنا الساعة خمسة ونصف عربى تقريبا حضر لى ابراهيم أغا تتونجى الحضرة الخديوية ومعه ثلاثة أشخاص الذى هو الواسطة الوحيدة فى بث الدسايس والفتن من بعد دخوله عليا فى الأوده الذى أنا بها =

أن القصة الكاملة لـ « ابراهيم أغا التلانجى » قد أنكرها القصر فى حنق ، الا أن مفاتيح « عبد العال » أعيدت لى عقب ذلك ، نتيجة مطالبتى الملحة . وكان « عبد العال » فى معطفه الأبيض بحزام وســطه العريض الذهبى وروبه الأسود أو الباركان baaracan يكاد يوحى بمظهر مهيب .

ولمـا كانت سلطات السجن قد رفضت اعارتنا أى مزيد من الأثاث نطلبه ، فقد اضطررنا لأن نزود كل موكلينا بقدر قليـــل من المناضـد وكراسى من القش . كنا كل يوم نتوقع دائما أن نسمع شيئا مؤكدا من « بوريللى بك » ، ولكن لدهشتنا لم تصل أنباء منه . لقد كانت أوراق القضية ، بالنسبة لنا ، حتى الآن مجرد كتاب مختوم .

وفى الصباح التالى (٢٧ أكتوبر) ، رفض عثمان أفندى ، بصورة قاطعة ، أن يسمح لنا بلقاء موكلينا الجدد ، على أساس أن التصريح لنا قد وقعه اسماعيل أيوب باشا ولم يوقعه ناظر الداخلية وكان كل شىء يحمل مظهر عواصف فى انتظارنا ، فتوجهت مرة أخرى الى « سير ادوارد مالت » . بعد ما سمعته من عبد العال (وقد قص على قصة طويلة ، اتضح أنها صادقة تماما ، وعن محاولة دس السم له من بضعة أشهر مضت) أحسست أننى محق فى الحث بشدة فى ابعاد الحراس الجراكسة وأن يقدم طعام المساجين اليهم مباشرة وليس عن طريق هؤلاء الحراس .

وعند عودتى الى السجن ، حيانى مصرى (قال انه من الرعـــايا الروس) وقدم لى نفسه بصفته زميلا à titre de confrère على أنه محامى « محمود سامى » . رأيت أن أغفل ذكر أنه قبل وصولى ببضعة أيام ، تلقى كل سجين اعلانا بأنه سيحاكم فى يوم محدد ــ ١٥ أكتوبر وعلى

= قرب عليا وقللى انتا يا عبد العال انتا تعرفنى أنا من فقلت له لا أعرف أنت من فقاللى أنا ابراهيم أغا تتونجى الخديو بتاع التسعتاشر ضابط الذى كانوا عندك فى الآلاى وقرب عليا وتف فى وجهى وضربنى بالقلم على وجهى دوفعتين وقالولى اصبروا انتو وقعتم يأولاد الكلب أنا رايح أوريكم وبعدها خرج من عندى ، ويتواجه هو ومن معه ، وهذا هو ما أجراه ابراهيم أوضحه لجنابكم فأولا أرجو طلب المفتاح وتسليمه لى لأخذ الأوراق اللازمة لى فى التحقيق وثانيا النظر فما أصابنى من ابراهيم أغا حيث أن المسجون الذى تحت التحقيق لا يوبخ لضربه ولا اهانته الى من بعد التحقيق .

(توقيع) عبد العال حلمى

٢٩ أكتوبر سنة ٨٢ خاتم

كل منهم أن يقدم طلبا على الفور لاختيار محام من قائمة منسقة تنتظم ٨٠ محاميا ، وكان تعليق عرابى الوحيـد هو أنه سمع الشىء الكثير عن محاكمة مدحت باشا وأنه وقع فى فخ مماثل » ، ولكن محمود سامى ، أضعفهم شخصية ، استسلم واختار محاميا عنه ، شابا فى الثامنة عشرة من عمره من « رعايا الروسية » • وقد اقترح « زميلى » أن ندخل مباشرة فى مناقشة خطتى فى الدفاع ، ولكنى رأيت من الأفضل ، كما لو كنت سلطانا ، « تغيير مجرى الحديث » ، وقد أظهرت الأحداث التى أعقبت ذلك أننى سلكت مسلكا حكيما •

وفى وقت متأخر بعض الشىء من النهار ، وصل التصريح المطلوب للسماح لنا بزيارة المساجين الجدد ، وقمت بأول زيارة لصديق شخصى لـ « مستر بلنت » وهو « الشيخ محمد عبده » وكانت اللافتة على باب زنزانته تصفه بأنه « جورنالجى » أو صحفى • من أول نظرة أحسست نحوه باكتئاب بعض الشىء • لقد كان رئيس التحرير السابق لجريدة الوقائع المصرية الرسمية ، رجلا نحيلا ، ضئيل الجسم داكن البشرة ، ملابسه كلها بيضاء ويرتدى عمامة بيضاء ، وكانت عيناه شديدتى السواد ونافذتين وذقنه السوداء مقصوصة بعناية ، وكان كل ما فى زنزانته ابريق من النحاس ومرتبة متواضعة جدا ومصحف • لقد بدا لى أن الشيخ محمد عبده كان يفتقد تماما الى الحماس الذى كان عليه « الأميرالايـات الثلاث » • وحتى بعد قراءته لخطاب « مســتر بلنت » الذى أحضرناه معنا ، بدا عليه التردد • كان من الواضح أنه تحت تأثير الخوف من اليأس الذى ساور نفسه • كان من الصعب علينا ، للحظة ، أن نتعرف فيه الكاتب الوطنى فأكثر المتحدثين هجوما فى اجتماعات المجلس (العرفى) الذى كان يتولى الحكم فى القاهرة طوال حرب الستين يوما • كان الشيخ محمد عبده كثير التفكير ، ولكنه قرر فى النهاية أن يجازف بمصيره مع الآخرين ، وما لبث أن انبلجت الحقيقة • لم ينج الشيخ محمد عبده من الزيارة الليلية للحراس الجراكسة ، ولكن بيانه عن الحادثة صيغ فى لغة فاترة الحماس تنبىء عن تخوفه(١) • لقد استغرقنا بعض الوقت

---

(١) اننى مع احترامى لعظمة الخديو المعظم حفظه الله أقول ان ابراهيم أغا التوتنجى دخل عندى فى يوم الخميس ٢٥ ذى القعدة وشتمنى وكان معه حملة من شاويشيته المعية الســـنية جاءوا لأجل تفتيش أودتى وبعـــد التفتيش بغاية الدقة أخذوا من عندى ثلاث مجلدات مجلد من كتاب العقد الفريد فى علم الأدب والمجلد الأول من تاريخ ما توسط من القرون ترجم من الفرنساوى للعربى بطبع مصر ، ولما سألت حامل المجلدات الى أين تأخذ الكتب وقلت له ان كان ولابد من أخذها فأوصلها الى بيتى فقال هل لك بيت ومكثت بعد ذلك ثمانية عشر يوما لا يدخل عندى مكتوب ولا يقرؤ من أى نوع كان حتى جاء عندى

لكسب ثقة الشيخ محمد عبده ، ولكن عندما نجحنا فى النهاية ، لم يكن من أحد ليتحدث بصورة أكثر شجاعة أو يعطينا معلومة أكثر ثقة منـه هو ، وقبل مغادرتنا لزنزانته ، رجانا أن ندافع أيضا عن رئيسه القديم « أحمد رفعت بك » ، الذى كان دارسا ممتازا للغة الفرنسية ويمكن أن يقدم لنا مساعدة لها فائدتها .



شكل ٧ ـ المتعاطفون مع عرابى من الأهالى خارج سجن الدائرة السنية

أحد رجال الدولة الانكليزية يسأل عن حالى فطلبت منه الاذن بدخول المصحف فاذن لى به ، فكان بذلك فرح كأنى خرجت من السجن .

١٤ ذى الحجة ١٢٩٩ (توقيع) محمد عبده

وفى الصباح التالى ، وجدت عرابى مشغولا جدا بتسجيل دفاعه ؛ وفجأة صاح فينا متسائلا : «هل تريدون برهانا على أن أهالى مصر كانوا معى ـ انظروا هنا » وسحبنى الى النافذة ، ومن خلال الشبابيك الحصير المسمرة ، شاهدت عددا من النسوة والأطفال يبكون وهم وقوف على الجانب المقابل من الطريق ، لقد أخذ الحشد يزداد يوما بعد يوم حتى اضطر الحراس الى تفريقهم ، ولم أر « عرابى » متكدرا قط مثلما شهدته وقتها ٠

كنت قد حصلت على تصريح لابن « عبد العال » ليزور أباه ، وكان لقاؤهما فى السجن منظرا مؤثرا ٠ تلقى عبد العال توكيدا من جديد بأن ستعود اليه مفاتيحه مرة أخرى ، وقد أصدر تعليماته للصبى بأن يفتح الخزانة ويعطينى صندوقا صغيرا بداخله أوراق ٠ وتوجهت وفى صحبتى مستر ماكدونالد Mr. Macdonald مراسل الديلى نيوز Daily News الى دار عبد العال ٠ كان بيتا جميلا قد من الصخر ويقـــع فى أطراف المدينة ٠ لم يكن ينقص الدار من دلالات لتوضح ما حل بقاطنيها من خراب : فالحديقة الصغيرة التى أمام الدار بنخيلها وريحانها صارت مهملة، كما سمعنا أصوات نحيب داخلها ٠ تناولنا القهوة فى تعريشة مهجورة أقيمت فى الحديقة من الطوب والجص ، ثم أحضر لنا الأوراق الصبى الصغير وكان اسمه « سعيد » ٠

مر أسبوع الآن منذ رأيت « عرابى » ، وعندما دخلت زنزانته فى اليوم التالى ، كان فى حالة نفسية مرتفعة ٠ سألته عما اذا كان قد انتهى من عمله ، فرد على بتساؤل آخر : « هل تظننى آلة بخارية ؟ (١) » ، ولكنه فتح حافظة خطاباته ، وأرانى الأوراق كاملة ، بالاضافة الى خطاب أو خطابين كان قد وعد بكتابتهما ، وطلب منى فى الحاح أن أحضر له بعض الصحف المصرية ٠ ترددت فى الرد لأننى كنت أعرف طبيعة محتوياتها ، فلما وجدته مصرا على طلبه وعدته بتحقيق طلبه ، وعلى أية حال كان عليه اذن أن يتعلم من خلالها درسا مرا عن تقلب الصداقة البشرية ، وعن البون بين الفشل والنجاح ٠

---

(١) لاحظ هنا تشبيه عصر « عرابى » ، اذ لم تكن الطائرة النفاثة قد عرفت بعد حتى يشبه نفسه بها ٠ (المحقق)

الفصل الثانى عشر

تقرير كتبه عرابى (١)

بدون الاستعانة بأية مذكرات مكتوبة أو أى مرجع من المراجـع ، وطبقا لاقتراحه الشخصى ، ألف « عرابى » فى مدى ستة أيام ، تقريرا ضخما عن قضيته ، وقد ألحقه فيما بعد بحواشى اضافية ، اذ وجدها لازمة ، كما أدخل عليه تصويبا أو تصويبين قبل أن يحين الوقت المحدد للمحاكمة . واذا أخذ في الاعتبار كافة الظروف التى ألف فيها هـــذا التقرير ، وأثر الاستفزاز الذى تعرض له والذى كان أثره على فكـــره بصورة لا يرقى اليها شك ؛ فان تقرير « عرابى » يشكل ردا ممتازا على من كانوا يصرون على اعتباره مغامرا عسكريا جاهلا كل الجهل .

يبدأ تقريره ببيان عن الظلم الذى تعرض له المصريون بعبئه الثقيل وكيف أن الشعب بكل قواه مدنيين وعسكريين التحم فى اتحاد عام من أجل الأمان المشترك ، ووضح كيف أن هذه الحالة السيئة التى كانت تسير فيها الأمور قد تفاقمت وازدادت سوءا من جراء نظام الطغيان والتآمر المغيظين ، الذى بدا أنه صار سمة الادارة المصرية قبل مسيرة الجيش فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ المنادية بتحقيق مطالب الجيش والشعب معا . وكمثل للأحداث التى بدت أنها وحدهـــا أكثر أهميـــة فى ذلك الوقت ، قص « عرابى » قصة « السيدة عائشة هانم » التى زعموا أنها تدخلت تدخلا غير ملائم بأسلوب غير طبيعى فى شئون الأسرة الخديوية ، وكان مآلها النفى الى أعالى البحر الأحمر أو جنوبه دون استجوابها أو محاكمتها .

---

(١) نشر الجزء الأكبر من هذا الفصل في مجلة القرن التاسع عشر **Nineteenth Century** (عدد ديسمبر ١٨٨٢) ، وقد أعيد طبعه بتصريح من محرر المجلة « مستر جيمس نولز Mr. James Knowles.

اسناد النظارة الى محمود سامى ، على أثر موضوع الميزانية (١) بعد ذلك بأربعة أشهر ، وبخصوصه كتب المذكرة القديرة التالية :

« اننى لن أتعرض هنا لموضوع الميزانية فهو معروف للجميع . لم يلجأ المصريون قط الى التداخل فى دفعيات الويركو المقرر للآستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية او المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية ، وانما كان كل ما طلبوه هو النظر فى القدر الباقى . ان الشعب جميعه طالب بهذا . هل يمكن لمثل هذه الأمنية أن تكون مثار لوم لو أنها كانت تخص شعبا آخر غير شعب مصر ؟ لقد كانت وحدها واحدة من أكبر الأحزان التى كان الشعب المصرى يئن منها ، وكان يحس بها على حد سواء : الجيش والأهالى جميعهم » .

ثم ينتقل الى زمن مؤامرة الجراكسة فيقول :

« جرى تحقيق تلك المؤامرة الجركسية فى مجلس عسكرى تحت رياسة الجنرال الكبير راشد باشا حسنى الجركسى لكونه رجلا ذا شرف وذمة وأمانة ومن التحقيق اتضح عظم هذا الحزب وأن مصدره الحضرة الخديوية كما هو واضح بجرنال التحقيق وتوقعت عليهم الأحكام بارسالهم الى البلاد السودانية نفيا مؤبدا وعرض هذا الجرنال على الخديو وتلى عليه بحضور جميع النظار . ولما كانت بلاد السودان بها حرارة قوية شديدة لا توافق صحة الجراكسة المولودين فى بلاد باردة وأنها تكون سببا فى ضياع حياتهم ، طلبت من اخوانى النظار مساعدتى على انقاذهم من تلك الأحكام وارسالهم الى بلادهم والى محل ما يرغبون خارج الحكومة المصرية برتبهم وشرفهم حرصا على حفظ الحياة حتى لمن قصد اتلاف حياتى فاجابونى لذلك مع التعجب وعرضنا عريضة مختومة منا جميعا وعرضناها للحضرة الخديوية وتوجهنا اليها جميعا نرجوها قبول هذا الرجا رحمة بهم .

وبعد ذلك ، يصف « عرابى » السبب الذى أدى ، فى اعتقاده ، بطريق مباشر ، الى الأحداث التى أفضت الى الحرب :

« فى مساء ذلك اليوم كنا فى وليمة بطرف عمر بك رحمى ومعنا ريس النظار محمود سامى باشا فجاؤه خبر ان حضراة قنصلى دولة انكلترا ، وفرانسا الجنرالية حضروا بمنزله وأنهم يريدون مقابلته ، فقام فى الحال وتوجه اليهم وبرفقته ناظر الخارجية مصطفى باشا فهمى فأخبره ان حياة الخديو والأورباويين مهددة فاجابهما أن حياتهم جميعا مكفولة بحياته وسالهما عن أسباب ذلك فاجاباه ان الخديو أعلمهما بذلك وان محمود باشا هدد الخديو بقوله له ان حياتك وحياة الأورباويين على خطر فانكر حصول ذلك وأخبرهما بما عرضه

---

(١) من المؤكد أن هذه الفقرة كانت فى موضعها هذا من التعرير الذى قدمه عرابى لمحاميه مستر برودلى والتى ترجمها عنه مع تضمينها صيغة لائحة مجلس النواب ؛ ولكن لما عاود عرابى كتابة تقريره هذا وهو فى المنفى فى مدينة كولومبو ، أغفل ذكر هذا الموضوع تماما ؛ وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى الى الأستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطى لاعطائى نسخة من تقرير عرابى « المعدل » الذى نشرّه سيادته مصورا عن الأصل المحفوظ بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن تحت رقم ١٤١٣٩٤ ضمن ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر بلنت Mr. Blunt (المحقق)

الخديو ويطلبون منه امرا بابقائى فى نظارة الجهادية كما كنت • وفى تلك الليلة ، حصلت مذكرات ومحاورات فى حالة البلاد وما كانت عليه فى الأزمنة الماضية وما حل بهـــا من النكبات وما ابيح فيها من الدماء ، كل ذلك نتيجة الأحكام الاستبدادية وفى الحالة التى وصلت اليها البلاد ، وفى امر اللائحة التى قبلها الخديو فالكل اجمع على طلب خلع الخديو اذا لم يرفض قبول اللائحة المذكورة ، وانصرف المجلس على ذلك • وفى صباح غد حضر لمنزلى رئيس مجلس النواب وسليمان باشا اباظة وسلمنى سليمان باشا بيده امرا من الخديو بابقائى ناظرا على الجهادية ، وظنوا أن بهذا الأمر يبطل مفعول اللائحة ولكن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ثم انى قدمت تشكراتى للخديوى وقبلنى بغاية البشاشة وصرت أباشر جميع الأشغال فى مدة انحلال النظارة التى هى عبارة عن عشرين يوم ولم يحصل فيها ما يكدر صفاء الراحة •

« وفى تلك المدة (٨ يونيو) ، حضر الوفد العثمانى تحت رياسة دولتلو درويش باشا وأنزل فى سراى الجزيرة فهرعت اليه وجوه الناس ونبهائهم وعلماؤهم ليسلموا عليه ويشكو اليه ما هو حاصل من الخديو ومن لزوم مراعات أحكام الشرع الشريف فصـــار سجنهم الآن جميعا ظلما وعدوانا بل انتقاما حتى غصت الســـجون بالمديريات ومصر واسكندرية ، ثم بتفقده احوال العسكرية تحقق أن العسكرية محافظة على الطاعة والانتظام ولم يقع منهم ادنى شيء يوجب المسئولية وبناء على ذلك طلب من الحضرة السلطانية نحو المائتين نيشان على ذمة ضباط الجيش مكافئة لهم على حسن سلوكهم وطلب لى أيضـــا النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ذات الكوردون •

وسار كل شيء على ما يرام حتى كانت حادثة اسكندرية المحزنة الواقعة فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ •

« وبناء على امر المعية بتعيين من يلزم من الجهادية لتحقيق تلك الحادثة ، تعين وأرسل سعادة وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى وارسل آلايين بيادة وبطاريتين طوبجية وأورطتين سوارى لحفظ الأمن العمومى داخل اسكندرية وخارجها وقد لهجت جميع جرانيل الأورباويين بحسن تيقظ عساكر الالات وسهرهم على حصول الأمن والراحة ••• وقد سمعت من الحضرة الخديوية نبا عليما ورد من محافظ اسكندرية أن أصل هذه الحادثة رجل مالطى ورجل حمار من اهل اسكندرية وانه باجتماع الناس اطلقت عليهم البنادق والطبنجات من الشبابيك ، وبناء على ذلك تحرر منى خطاب الى وكيل الجهادية يعقوب باشا بما هو مشاع وأنه يتبصر فى حقيقة تلك الحادثة بغاية الحزم ويجتهد فى اظهار الفاعل الحقيقى مع المحاماة عن شرف الحكومة والعسكرية والميل الى اتباع الحق ، هذا ما علمته من امر تلك الحادثة •

ثم عين راغب باشا رئيسا للنظارة ، ويستأنف « عرابى » سرده فيقول :

« وقبل تشكيل هذه النظارة ، كان جارى تصليح وترميم الاستحكامات على حسب العادة السنوية ، فصدر أمر الخديو بناء على امر الحضرة السلطانية بابطال انشاء استحكامات فى اسكندرية بما ان ذلك يعد تهديدا للدونانمة الانجليزية وان لم يصر ابطالها تضرب الدونانمة بالمدافع على البعد حتى تهدمها وتحرقها حسب تبليغات كاتب سر سفارة انكلترى بالأستانة للمابين الهمايونى فصار ابطال جميع الأعمال حتى ان الخديوى أرسل مندوبين

من طرفه لأجل تحقيق ابطال الأشغال وتحرر منه للآستانة بذلك ؛ وكنا نتعجب كيف أن الترميمات فى الطوابى العادية تعد تهديدا ، حضور المراكب الحربية واحاطتها بالثغور المصرية لا تعد تهديدا .

« وفى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ، بعد تشكيل هذه النظارة حضر النيشان المجيدى بفرمانه العالى الشان من الاستانة واستلمتهما من يد الحضرة الخديوية اظهارا لرضائه عنى ، وابلغه ممنونيته منى وانه تحقق صدق خداماتى وانصرفت شاكرا لهذه المنة واعرضت تشكراتى تلغرافيا للمابين الهمايونى وتشرفت برد جوابه تلغرافيا بابلاغ محظوظية الحضرة السلطانية من حسن طاعتى وخلوصى وأن ذلك النيشان مكافئة لى على حسن سلوكى وصداقتى ....

« وبعد استلامى النيشان ، كلفنى دولتلو درويش باشا بأن أتوجه للآستانة لأعيش فى كنف الحضرة السلطانية مع بعض اخوانى فاعرضت عليه أعذارى التى أخبرت عنهـا قنصل جنرال فرنسا وأنى أخشى أن النـاس يمنعونى من السفر بطريقة غير معقولة كما هو مشاهد لدولته من ازدحام الناس بالاسكندرية وحين مرورى لشدة تعقلهم بى وكذلك سعادة راغب باشا رئيس النظار لعلمه بما يحصل للناس من الدهشة وتوقيع ضرر عظيم اذا صار توجهى الى الاستانة عرف دولته بأن هذا التكليف لا يوافق المصلحة . ومما سبق تسطيره يعلم أنى كنت محبوبا عند جميع الشعب المصرى محب لخير العموم موثوق بأمانتى وشرفى وانه ليس لى غاية شخصية كما يزعموا المبطلون بل غايتى الوحيدة هى تحرير بلادى ورفاهية أهلها وتمتعهم بخيرها فى ظل حكومة شورية عادلة تعطى الحقوق لأربابها بدون فرق بين الأهليين والأجنبيين حتى يكون جميع سكان مصر كالواحد بدون فرق بين تعدد المذاهب والاعتقادات اذا لكل انسان تجمعنا جامعة الانسانية ، ومما يدل على عدم تمكنى من الخروج من مصر اذ ذاك ما عرض تلغرافيا من رؤساء العساكر البرية والبحرية باسكندرية للخديو بشأنى يوم استعفاء نظارة محمود سامى باشا ، ومما يدل على أن الناس غير قابلين لتلك اللائحة اعتراف الخديو بالتلغراف الصادر من جنابه الكريم الى الرؤساء المذكورين ردا لما ورد منهم فى اليوم المذكور .

ثم يتعرض لعلاقاته مع صاحب الجلالة الشاهانية الســـلطان أثناء الأحداث الأخيرة فى هذا البلد . فيقول :

« ... اقول ان الحضرة الخديوية كانت أرسلت ثابت باشا الجركسى (١) المشـــهور بالتعصب الجنسى الى الآستانة ليكون وكيلا له فيها ، فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ولأجل تغيير افكار رجال الدولة من جهة العساكر المصرية حتى يتوصل بذلك الى تغيير الذات السلطانية . اشيع فى دوائر الاستانة بأن العساكر المصرية خرجوا عن الطاعة وأنهم يريدوا تشكيل دولة عربية وانى متفق مع الانكليز على ذلك ، فكثر اللغط بذلك حتى توجست شرا اذ لا معرفة لى بأحد فى الآستانة ليدافع عنى ويكذب ما نسب الى من الأباطيل ، واذا بحضرة الشريف السيد أحمد أسعد وكيل الفراشة الشريفة بالمدينة المنورة عن السلطان، حضر الى مصر فارفقته بعريضة تبرأت فيها لما نسب لى وللجيش بغير حق وورد الى من

---

(١) فى تقرير « عرابى » الذى قدمه لمحاميه مستر برودلى (والذى سجله فى كتابه ، ولم أجده بين وثائق الكتاب المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة) ـ أن الشخص الذى أرسله الخديو للاستانة كان « طلعت باشا » ولم يكن « ثابت باشا » . (المحقق)

سيادته جواب بقبول تلك العريضة مع طلب محافظتى على الطاعة استجلابا لرضى الحضرة السلطانية (١) ٠

وبعد ذلك يقدم عرابى بيانا موجزا عن الحرب ، فيقول :

« فى الحرب العوان ، وما أدراك ما الحرب العوان ، هى « حرب الانكليز » ، الأمة التى فيها نصراء الانسانية ، الأمة المحامية عن المظلومين ، الأمة المحررة لرقاب العباد المستعبدين ، الأمة المحافظة على اتباع الحق والقوانين ، (مع من) مصر ، البلاد التى لا ينكر أحد ما فيه أهلها من الاستعباد وما تجرعوه من غصص الاستبداد ، البلاد التى طالما سفكت دماء أهلها بغير وجه شرعى ، ولا حكم قانونى ، البلاد التى طغت حكامها وبغت وتفننت فى أنواع المظالم ، البلاد التى لا يعتبر حكامها شرعا ولا قانونا ، البلاد التى عبدت حكامها من دون رب العالمين ، البلاد التى كانت تظن أن لا منقذ لها من جب الظالمين ولا موصلها الى فضاء الانسانية الا دولة انكلترا الشفوقة على النوع الانسانى فخاب أملها ٠ وبعد أن قربت أبنائها من فم ذلك الجب وظنوا أنهم ناجين اذ جاءهم الحرب الانكليزى فاوقع القبض على من خرج من الجب والقاه فى قراره لتنهشه الأفاعى خلافا لما هو معهود فى رجال الانكليز من الشفقة والرأفة على النوع الانسانى ٠

---

(١) نجد هنا أيضا اختلافا آخر بين ما رواه « عرابى » عن هذه الواقعة فى تقريره الأول وبين ما أعاد كتابته وهو فى المنفى بكولومبو ، الذى نسجله هنا على هذه الصفحات ــ اذ يقول فى تقريره الأول أنه نظرا لأنه لا يعرف أحدا فى الاستانة ، لجأ الى « الشيخ محمد ظافر » ، مستشار السلطان للشؤون الدينية (من خلال على راغب) ، كما لجأ أيضا الى « أحمد راتب باشا » الذى كان له معه لقاء شخصى طويل عند مجيئه الى مصر ، وذلك ليقوما بدحض أباطيل المغرضين ، وقد ألحا فى ذلك وبعثا له برسالتين تؤكدان له نجاحهما فى مسعاهما ورضا السلطان عنه ٠

ويستطرد « عرابى » فيذكر أن « الشريف أحمد أسعد » لما جاء الى مصر الوفد العثمانى برئاسة « درويش باشا » أكد لعرابى أن الخديو بعث بمندوب له الى السلطان يدعى فيها خروج « عرابى » وعساكره عن طاعته ، فقدم عرابى للشريف ملتمسا للسلطان يعلن فيه هو وعساكره عن ولائهم له وأنهم ليسوا بعصاة على الاطلاق ، وقدم الشريف الملتمس للسلطان ، وأبلغ عرابى بذلك ٠ وبعد ذلك بعث عرابى بتلغراف (فى ٦ أغسطس ١٨٨٢) الى « بسيم بك » (أحد حجاب السلطان) يذكر فيه أن « درويش باشا » بدلا من أن ينصح الخديو بالبقاء مع شعبه سمح له بالانضمام الى العدو ، وأن مدينة الاسكندرية سلمت الى الأميرال البريطانى ٠

ويتابع عرابى سرده ، فى تقريره الأول ، فيقول انه عندما وصله (أى عرابى) نبأ أن الباب العالى اقترح ارسال قوات تركية الى مصر ، مع علمه بأن هذا الاجراء قد يؤذى المصريين ، بعث الى « بسيم بك » تلغرافا جاء فيه أن مصر بها ما يكفيها من الرجال والسلاح والعتاد للدفاع عن البلاد ولحماية حقوق السلطان ، وأنه ومن معه مجمعين فى قرارهم على الذود عن هذه الحقوق ٠

ويختتم عرابى سرده فيقول : « وطوال هذه المفاوضات أو بعدها ، وحتى هذا الوقت ، كان الباب العالى مقرا دائما لكل أعمالنا ، وكان السلطان بأفعاله وخطاباته يقرها دائما ، فكيف أكون اذن عصيا ؟ ألا يعترف الانكليز أن السلطان هو صاحب السيادة على مصر ؟ » ٠ (المحقق)

« ذلك انه لما أعلمنا الخديو أن حياته وحياة الأورباويين فى خطر ، حضرت المراكب الحربية من جميع الدول اى دول اوربا العظام ، وهاجرت الأورباويون من مصر الا قليلا منهم ، وهاجت افكار الناس جميعا لحضور المراكب ، وأسف المصريون على فراق اخوانهم الأورباويين الذين كانوا معهم على وفاق تام ؛ ثم قيل بأن فى ترميمـــات الطوابى تهديد للدونتمة الانكليزية دون باقى مراكب الدول الأورباوية الموجودة بسكندرية ، فأبطل عمل الترميمات .

« ثم حضر الى قومندان عساكر اسكندرية . مخاطبة من جناب « الأميرال سيمور » الانكليزى بأنه جارى قفل بغاز مينا اسكندرية بالأحجار وأنه ان لم يمنع رمى الأحجار فانه يقابل هذا العمل بمثله ، فبامر الخديو ورأى النظار كتب له بأنه لا أصل لرمى الأحجار ولا لزوم لذلك ، وأرسل اليه أيضا وكيل البحرية ورخص لجنابه فى القبض على من يفعل ذلك .

« ثم فى يوم عشرة يوليه سنة ١٨٨٢ ، حضر خطـاب ثان من الأميرال المذكور الى القومندان المذكور بأنه جارى تركيب مدافع فى طابية صالح والمكس وقايد بأى ، وأنه يريد تنزيل جميع الأسلحة الموجودة فى طوابى اسكندرية من العجمى الى برج قايد بك ، مع ان الطوابى المذكورة لا يكن فيها الا الأسلحة الموجودة بها من مدة محمد على باشا حتى القذافات الخشب أكلها السوس ولم يكن بها أسلحة جديدة أصلا الا الموجود فى طابية قايد بك من مدة اسماعيل باشا ، وان لم يجاب الى ذلك ، يضرب على الطوابى عند طلوع الشمس من يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ حتى يهدمها ويخربها .

« فعقد لذلك مجلس النظار والاختيارية من الذوات وتحت رياسة الخديو ودرويش باشا وقدرى بك من الوفد العثمانى (١) ، وبعد المذاكرة تقرر ارسال ناظر المالية وناظر الداخلية ووكيل البحرية واحد رجال المعية وكران بك ، الى الأميرال سيمور يترجوه فى ان الطوابى المذكورة لم يكن بها اشغال ولم يتركب فيها اسلحة مستجدة أبدا ، وهاهى مستعدة للكشف عليها من طرفه ، ومع ذلك فيسمح له بتنزيل ثلاثة مدافع من الطوابى المذكورة ارضاء لخاطره ، فتوجهوا المذكورين ورجعوا بالبلاغ الأخير وهو أنه لابد من تنزيل كافة المدافع وانما يتنازل فى كونه يسمح للعساكر المصرية أنها هى التى تجرى تنزيل المدافع عوضا عن العساكر الانجليزية .

« فبعد المداولة طويلا بالمجلس المذكور تقرر ان تنزيل اسلحة الطوابى الموضـــوعة من مدة خمسين سنة بلا موجب حربى : عار كبير لا يمكن تحمله ، ومع كوننا لا نريد حربا مع أى دولة خصوصا دولة الانجليز لكن بطريق المجبورية وحفظا للشرف اذا ضربت المراكب

---

(١) ذكر « عرابى » فى تقريره الذى كتبه وهو فى سجن الدائرة السنية ، أن الجانب المصرى الذى حضر الاجتماع كان أعضاؤه : راغب باشا وأحمد باشا رشيد ، و عبد الرحمن بك رشدى وسليمان باشا أباظة وحسن باشا الشريعى ومحمود باشا فهمى واسماعيل باشا حقى ومرعشلى باشا ورءوف باشا (الذى صار بعد ذلك رئيسا للمحكمة العسكرية التى حاكمت عرابى عن عصيانه) ومحمد باشا سعيد وقاسم باشـــا وابراهيم باشا فريق وعرابى . (المحقق)

على الطوابى انما تكون المجاوبة بعد خروج خمس أو ست ضربات من مدافع المراكب (١) .
وكان الخديو يظهر شدة الغيرة والحماس ولطالما قال اذا حصل ضرب فانه يحمل بندقية ويكون في مقدمة العسكر ، ثم انصرف المجلس على ذلك وعرض للاستانة من طرف الخديو ودرويش باشا بما تقرر .

« ولما اتت الساعة المعينة أطلقت كلة من مركبي الأميرال ثم تتابع الضرب من جمع المراكب ، وبعد خروج نحو الخمسة عشر كلة من المراكب جاوبتها مدافع الطوابى واحتدمت نيران الحرب مدة عشرة ساعات ونصف متوالية حتى تهدمت الطوابى جميعها لكونها من الطرز القديم وسقطت مدافعها وتهدمت سراى رأس التين واحترقت من نيران الكلل مع هدم كثيرا من البيوت التى داخل البلد خصوصا جهة محطة اســكندرية لأنه كثيرا من مقذوفات المراكب الهائلة كانت متوجهة على طابية الداماس التى كنت بها مع جميع النظار وكانت المقذوفات تقع على البيوت المجاورة لتلك الطابية والمحطة المذكورة ، وبعد ذلك انقطع الضرب من الطرفين .

« وفى أثناء اشتداد القتال كانت تأتينا ياوران الخديو ومحيى الدين أفندى ياور درويش باشا يترددون فى كل ساعة يشجعوننا ويبلغوننا سلام الخديو ودرويش باشا ويمدحون العساكر على صبرهم وثباتهم مع عدم استعداد الطوابى وجودة أسلحة المراكب الحربية الانجليزية ونحن مع ذلك نتعجب من وجود الخديو فى سراى الرمل على شاطئ

---

(١) همش مستر برودلى لهذه العبارة بأنه حصل من أحد موكليه على نسخة من قرار الخديو الذى أعلن فيه الحرب ضد انجلترا (وأنا أذكر بوصفى محققا أننى لم أجده ضمن وثائق الكتاب المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة) ، وفيما يلى ترجمة لما سجله مستر برودلى فى كتابه للقرار المفقود :

« ذكرت اتصالات وخطابات أميرال الاسطول الانكليزى أن ثمانية مدافع قد نصبت فعلا فى طوابى السلسلة وقايتباى وصالح لاحقا لطلب وقف أعمال الاستحكامات باعتبار أن هذا الاجراء يعتبر تهديدا للاسطول الانكليزى ، وأنه نتيجة لذلك ، يطلب الأميرال من الحكومة المصرية التفويض له بانزال المدافع فى طابية رأس التين وعلى الطرف الجنوبى من الميناء الشرقى ، فاذا رفضت الحكومة المصرية هذا الطلب فستضرب الطوابى عند شروق شمس الثلاثاء ١١ يوليه .

« وقد قرر المجلس بعد تفكير عميق أن طابيتى السلسلة وقايتباى والمدافع المنصوبة فى الميناء الشرقى لا يمكن أن تشكل أى تهديد للسفن الراسية فى الميناء الغربى وأنه بناء على أمر جلالة السلطان ، وخلافا لما هو مزعوم ، لم تنصب أية مدافع حديثة فى المكان ، كما لم تتخذ أية استعدادات حربية ، فضلا عن أى مطالب الأميرال مخالفة للقانون الدولى العام .

« وبالرغم من ذلك ، وحفاظا على العلاقات الطيبة القائمة بين الخديو ودولة انكلترا ، ولتقديم برهان صادق على حسن نوايا الحكومة المصرية تجاهها ، قرر المجلس انزال ثلاثة مدافع من الطوابى التى كان قد انجز العمل فيها ، ويمكن للأميرال أن ينزل هذه المدافع فى طابية أو ينزل مدفعا فى ثلاثة طوابى مختلفة .

« وقد طلب من رئيس مجلس النظار أن يكتب الى الأميرال بهذا المعنى ، فاذا رفض وأصر على نيته فى ضرب الطوابى ، فان هذا الضرب لن يرد عليه الا بعد خامس كلة ، فسيرد عليها بالنار ، والله خير الحاكمين يفصل بيننا وبينكم . » (المحقق)

البحر من غير مبالاة ولا خوف من المراكب كأنه لم يكن حرب بين حكومته وبين مراكب الانجليز ولكن لا عجب من أمر الله .

« ثم انه عند انقطاع ضرب المدافع ، توجهت مع النظار الى الخديو وأعرضنا لجنابه الرفيع ما حصل في هذا اليوم فشكر العساكر على ما أظهروه من الثبات ، وأعرضت له أيضا أنه اذا كان الغرض هدم الطوابى فقد تهدمت واذا كان الغرض غير ذلك فماذا نصنع ؟ .

« فعقد مجلس النظار تحت رياسة الخديو ودرويش باشا المندوب السلطانى فى النظر فيما يصير اجراءه بعد اتلاف الطوابى اذا استمر القتال ، فبعد المداولة تقرر أنه اذا اطلقت المدافع من المراكب ففى الحال ترفع الرايات البيضاء من جميع الطوابى علامة التوقيف عن الضرب والشروع فى المخابرات السلمية ، واذ ذاك يتوجه طلبة باشا ودكران بك فى صندل بحرى لطرف لركب الأميرال سيمور ويخبرانه بأن الحكومة المصرية لا يكن بينها وبين حكومة انكلترا ما يوجب تكدير الخاطر فضلا عن الحرب بل دائما محافظة على حقوقها وحقوق رعاياها ، واذا كان الغرض الأصلى تنزيل المدافع فقد تهدمت الطوابى جميعها وتكسرت المدافع وأنه لا يكن عندنا قوة تدافع المراكب بل ولا تريد حربا ويأخذ رأيه عن ذلك ، وانصرف المجلس ليلا وعطيت التعليمات بذلك الى كافة الطوابى وتوجهت الى باب شرقى وبت فيه .

« وفى صباح يوم ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢ قبل الظهر بساعتين ونصف ابتدأت المراكب تضرب على البلد فرفعت الرايات البيضاء من كافة الطوابى ولكن المراكب لم تلتفت اليها الا بعد أن أطلقت نحو عدد ٢٥ او عدد ٣٠ كلة ثم بطل الضرب وتوجه طلبة باشا فى البحر الى طرف الأميرال فقابله مأمور من طرف الأميرال فأخبره بما قر عليه رأى الخديو والمجلس فبلغه المأمور ان جناب الأميرال يطلب استلام مدافع متجاورة وهى طابية العجمى والمكس وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للجيش الانجليزى وأنه يريد حضور امر بذلك من الخديو قبل الساعة ٣ بعد الظهر وان تاخر فانه بيستانف الضرب ثانية ويأخذ تلك المواقع قهرا وكان باقى عليهذا الوقت ساعة ونصف فقط .

« فرجع طلبة باشا مسرعا وتوجه الى الرمل وكنت توجهت اليها أيضا مع رئيس النظار ، واعرض طلبه باشا طلب الأميرال على الخديو ، فعقد لذلك مجلس تحت رياسة الخديو ودرويش باشا حضره اسماعيل باشا حقى المشهور بأبى جبل من الاختيارية وأبو سلطان باشا ريش النواب وتقرر بالعرض عن ذلك للاستانة حيث أن الفرمان السلطانى لا يجوز للخديو ان يعطى قطعة أرض من أراضى الحكومة الى أية دولة أجنبية ، وان يعود طلبة باشا ليبلغ الأميرال ذلك ، فتوجه المذكور لكنه لبعد المسافة وقصر الوقت تاخر عن الميعاد المحدد وبوصوله الى ديوان البحرية ، وجد أن مندوب الأميرال حضر الى ديوان البحرية فى الميعاد وترك هنا خبرا بأن الميعاد مضى ولم يأت جواب من الخديو وانه عاد وسيستأنف الضرب على البلد ثانيا ، وأما الخديو فانه أمرنى فى المجلس بارسال قوة الى جهة طابية العجمى ولا يمكنون العساكر الانجليزية من الخروج الى البر ، فاعرضت على جنابه بأن هناك أرض مكشوفة ومقذوفات المراكب لا تمكن عساكر البيادة من الدنو الى شاطىء فضلا عن قطع خط المواصلة ما بين اسكندرية وبينها ، فغضب لذلك وقال : لم جعلتم عساكر اذا كنتم لم تمنعوا عساكر العدو عن بلادكم ؟ ثم انصرف المجلس .

***

وبعد أن توجه « عرابى » الى منزل راغب باشا الكائن على شاطىء المحمودية ، استدعيا الى سراى الرمل ، ويصف ما حـــدث بعــد ذلك فيقول :

« ... ثم بعد ان مكثنا فى بيت سعادته نحـــو ساعة ، جاءنا طلب من الخديو ، فتوجهنا معا الى سراى الرمل وأخبرنى الخديو بأنه حضر اربع بلوكات بيادة الى الرمل لأى سبب وحيث كنت لا أعلم حقيقة ذلك ، فاعرضت على جنابه بأنه لا علم لى الا أنه يمكن انهم حضروا لتقوية الغفر على السراى ، فقال لا يلزم وجودهم هنا وان الغفر الموجود من قبل كفاية فدعهم يتوجهوا لتادية خدمة فى الجيش أولى وانفع ، فخرجت اليهم وطلبت الضابط المعين معهم وسالته عن أسباب حضوره وبأمر من حضر ، فاخبرنى ان رئيســه سليمان بك سامى امره بالحضور لتقوية الغفر فامرته بالتوجه الى الآليه لعدم لزوم العسكر بطرف الخديوى وان الغفر الموجود من قبل كفاية ، وتركت وتوجهت الى جهة اسكندرية .

« فلما قربت من وابور المياه القريب من باب الشرق ، وجدت ازدحام شديد والعساكر مختلطة مع الأهالى والجميع متوجهين جهة المحمودية فكان الرجل لا يلتفت لزوجته والمرأة لا تسال عن طفلها والأطفال تصيح والنساء تبكى كأنه يوم المحشر تدهش لرؤيته أرباب العقول فنزلت عن العربة وتخللت الناس ماشيا حتى وصلت الى باب شرق ، فوجدت عيد بك الميرالاى وسالته عن هذه الحالة فقال أنه أشيع بأن المراكب ستضرب على البلد فخرج من كان باقيا فيها وخرجت العساكر بأولادها وأزواجها بغير انتظام وأنه بيجمع عساكر الالويه فامرت بسرعة ومنع العساكر عن الخروج ثم انى وقفت بنفسى فى الباب أمنع العساكر وقيل لى سليمان بك سامى مع جانب من العساكر يريد احراق البـــلد ، وأنه فى حالة جنون ، فارسلت له حالا بالحضور فحضر ومعه نحو بلوكين غير منتظمين ، فسالته عما نسب اليه من كونه يريد احراق البلد فانكر ذلك وقال انه كان معه اورطة متفرقة فى الشوارع الموصلة الى المينا لمنع خروج عساكر المراكب الحربية الى البر ولكن وجدت بعض العساكر معهم اقمشة بفتة فامرته بضبط تلك الاقمشة ومعرفة الذين وجدت معهم فجمعها واولع النار فيها فامرته بعدم احراقها وحفظها حتى تسلم للمحافظة بعد معرفة أسباب وجودها مع من وجدت معهم ، ومازلت اجول بين العساكر وأذكرهم بالشرف والعار وامنعهم عن الخروج وآمرهم بالمداومة على حفظ البـــلد . وكنت ارى كثيرا من العربان خارجين من البلد مع الأهالى وجميعهم حاملين السلاح ومعهم اشيات تظهر انها جديدة وانها لا تليق ان تكون من لوازم العربان سكان البادية وكأنه ما كان اجتماعهم حول سراى الخديو بالرمل الا لهذا الغرض ولا يبعد أنهم اخذوا بعض البضائع من الدكاكين وحرقوا البعض لعدم معلوميتهم بعواقب الأمور . ومازلت امنع العساكر واشجعهم على عدم ترك البلد ، واذا بحضور حسن باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وحسين بك الترك ياور الخديو ومحيى الدين افندى ياور درويش باشا واخبرونى ان العساكر الذين بالرمل وقفت تحت السلاح سوارى وبيادة واحتاطوا بالسراى ، فلأى سبب حصل ذلك ، فدهشت لما سمعت هذا الكلام ، وبعد فاقتنى ارسلت طلبة باشا ليفرق العساكر عن السراى ويبحث عن السبب ، وتبرأت من هـــذا العمل ، وسالت سليمان بك سامى عن أسباب ارسال عساكر البيادة من آلايه الى الرمل ، فقال انه وجد مراكب متوجهة جهة الرمل فارسل لها اربعة بلوكات تقوية من نفســه بدون أمر .

« ولما توجه طلبة باشا الى السراى المذكورة لم يجد شيء من ذلك واتضح ان العساكر

رات مراكب متوجهة جهة طابية برج السلسلة القريبة من الرمل فظنوا أنها آتية لتأخذ الخديو ، فحملوا أسلحتهم واحتاطوا بالسراى لحفظ الخديو ، فتشكر الخديو لذلك وارسل حسين بك .الترك ياور خديو مع سعادة طلبة باشا ليبلغنى سلام الخديو ولكنه ما وصل الى لما سيذكر ، ذلك ان معظم العساكر خرجت من البلد بصورة غير منتظمة ، ولم يتجمع عند باب شرقى الا القليل ، وحضر كثير من الضباط وفيهم نسيم بك قائمقام سواحل اسكندرية واخبروا ان المراكب أتته تحت برج السلسلة لتتمكن من الضرب على قشلاق باب شرقى ولتقطع خط الرجعة فرأيت انه غير متيسر جمع العساكر فى هذه الحالة وانه لابد من اتخاذ موقع مناسب لتجمع العساكر وازالة ما قام بأفكارهم من الدهشة والاضطراب ، فامرت اميرى الالايين هم عيد بك وسليمان بك سامى بأن يذهبوا بمن تجمع معهم من العساكر الى المحمودية بعد خروج جميع الأهالى ، وخرجت مع راغب باشا راكبا عربته لحد مفرق السكة فنزلت من عربتـــه حيث كان هو متوجه الى الخديو وأنا توجهت الى المحمودية ، ولازلت أسرع فى المسير بقصد أن أدرك أول النـــاس لأوقف العساكر حتى وصلت بعد المغرب الى كوبرى المحمودية المارة عليه السكة الحديدية ، وهناك انتخبت قطعة ارض خلف المحمودية ، ووجـــدت بروجى فأمرته بضرب علامة التجمع ولازالت العساكر تتوارد شيئا فشيئا الى الصباح ، والضباط الذين تركتهم باسكندرية ما حضروا بعساكرهم الا الساعة ٧ ليلا لعدم خلو الطريق حيث كانت شواطىء المحمودية مزدحمة بالناس والبهايم والعربات وغيرها ولكل يبكى ويصيح على ما حل به .

وفى الساعة الخامسة من الليل تقريبا ، حضر طلبة باشا واخبرنى بامر العساكر المقال بانهم احتاطوا بالسراى وانه ما وجد اثرا لذلك وان الخديو مسرور وارسل معه حسين بك الترك ليبلغنى السلام وانه كان مرافقا له لحد الكوبرى ، ولكن لكثرة الازدحام وشدة الظلام وعدم معرفة الموقع رجع الى الرمل .

« وفى صباح يوم الخميس ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ، رأيت أن الذى تجمع من العساكر لا يبلغ الثلث وان معظم الجيش تقدم الى قدام وان الموقع لا يصلح لأنه تحت نيران مقذوفات المراكب وخلفه الملاحة ، فتوجهنا بالعساكر حتى وصلنا الى محل يقال له عزبة خورشيد الكائنة فى جنوب محطة الملاحة بمسافة خمسة آلاف متر ، وهناك اقامت العساكر الى اليوم الثانى ، فتجمع نحو نصفهم ، وفى اليوم المذكور كان اورسل وابورات مخصوصة من مصر الى الرمل لأجل ركوب الخديو وفاملته ومن بمعيته فيها ورجوعهم الى القـــاهرة ، فتوجهت الوابورات وعادت فوارغ ، واتضح ان الخديو توجه بعائلته ومن معه الى اسكندرية وانه تحت الحرس الانجليزى .

« وفى يوم الجمعة ١٤ يوليو ، توجهت بالعساكر الى عزبة كنج عثمان وهناك اتخذت المعسكر وتجمعت العساكر فيه وابتدىء فى أعمال المتاريس ، وحيث انه فى ١١ يوليو يوم الضرب على اسكندرية كان تحرر اعلان بالتلغراف من رئيس مجلس النظارة الى كافة جهات الحكومة ان البلاد صارة فى حالة حربية وان الحكومة صارة فى هيئة عرفية تحت احكام القوانين العسكرية حسب الأصول فكل من وقع منه ما يخل بالراحة العمـــومية يجازى على مقتضى الحكم العسكرى ، فترتب لذلك مجلس حربى بالجهادية .

« ولما أن الخديو توجه الى اسكندرية بعد خروج الأهالى والعساكر منها تحت الحرس الانجليزى ، فاما أن يكون أسيرا واما ان يكون انحاز الى الجيش المحارب لبلاده ، وفى كلا الحالتين لا يجوز ترك البلاد بلا حاكم حسب احكام الشرع الشريف الاسلامى اذ أن فى

من ذوات المعية الخديوية والاختيارية من الذوات المتقاعدين ، ونظرت فيه جميع الأوراق والمنشورات التى صدرت من الخديوى وما كتبت منى • وبعد المداولة بالمجلس المذكور ، تقرر فيه بتوقيف الخديوى والا يسمع له امر أصلا لكونه خرج عن حدود الشرع الشريف والقانون المنيف ، وتقرر ايضا بوجوب المدافعة عن البلاد والزامى بالمحاماة وبالمرافعة عنها حيث كنت موجود مع العساكر بجهة كفر الدوار ، وختم بذلك على هذا القرار من جميع أعضاء هذا المجلس وتحرر منه تلغرافيا للحضرة السلطانية مع ذكر أسماء المشاهير من الموقعين على هذا القرار ، وصار اعلانى بذلك رسميا •

« فترتب مجلس ادارى للنظر فى أحوال البلاد من ضمنهم : حسين باشا وكيل الداخلية وبطرس باشا وكيل الحقانية ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية وأحمد باشا نشأت ناظر الدايرة السنية وغيرهم ، عبارة عن جمهورية مؤقتة لحفظ نظام البلاد الى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر • كل ذلك ولم أحضر هذا المجلس ولم اشهده ولم يكن لى فيه رأى حتى انهم لقبونى بلقب حامى حمى البلاد المصرية ، وصاروا جميعا يخاطبونى بهذا العنوان ، ولكن أين المنصفون ، فمما ذكر جميعه يعلم بأدنى تأمل أن هذه الحرب التى لم يسبق لها نظير فى سرعة تنوعها وتشكيلها باشكال غريبة متباينة ، كانت شرعية قانونية وأنى مأمور بالمحاربة بمقتضى قرار المجلس المشكل تحت رياسة الخديوى وبمقتضى ما ذكر فى أمر الخديوى الصادر بعزلى وأوامره التى نشرت فى شأن ذلك ، الدالة على أنه امرنى بالمداومة على الحرب وعزلنى بسبب انهزام الجيش ، ومأمور بالمدافعة والمحاماة عن البلاد بمقتضى قرار المجلس العام الذى هو عبارة عن الأمة المصرية على اختلاف أديانها ومذاهبها • وان الخديوى صار لا حق له فى الحكم على البلاد التى قرر أهلها بخروجه عن حدود الشرع والقانون •

« ومن المعلوم أن الجهاد على مقتضى الشريعة الاسلامية اما يكون بالنفس أو بالمال أو بالراى ، وقد أدت الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها ما يجب عليها فى سبيل المدافعة عن الوطن : فانهم قدموا انفسهم واولادهم متطوعين عن طيب نفس ، وبذلوا أموالهم فى سبيل الشرف والوطن فمنهم من تبرع بنصف ماله ومنهم من تطوع بماله اجمع ومنهم من تطوع بثلاثين راس من الخيل وثلاثة آلاف اردب من الغلال • يعلم ذلك من التلغرافات الواردة من اهالى المديريات بدون واسطة الى ديوان الجهادية والبنـــا بكفر الدوار ومن التلغرافات التى كتبت من طرفى للمتبرعين بالتشكر لهم ، ويعلم أيضا من التلغرافات الواردة من حكام المديريات حتى أنه فى مدة ثلاثين يوم اجتمع نحو الف نفس من العساكر والمتطوعين والعربان وملئت الأشوان بالذخائر الوافرة واجتمع نحو الثمانية آلاف من الخيول والبغال من المتبرعين ونحو الأربعة آلاف جمل وكثير من النقود من غير واسطة • تلك غيرة لم يسبق لها نظير من عهد صدر الاسلام للآن •

« واما الراى ، فجميع الذوات والعلماء واعيان البلاد كانت تاتينا بدون انقطاع فى كفر الدوار وحتى فى رأس الوادى • وكل يجود بما عنده من الراى وبناء عليما ذكر تكون الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها اما انها محاربة بالحق والقانون واما أنها عاصية باغية بالقوة والقهر المنافيان للحق والعدل ، هذا ، وأما ما تبرعت الناس به من البقر والجاموس والأغنام فهذا شىء لا يمكن تقديره ، ومن جملة التبرعات توارد الخوخ والعنب والبطيخ للجيش من جميع الجهات بدون انقطاع ، واضح ذلك بقيودات التلغراف بكفر الدوار والتل الكبير ورشيد ودمياط حتى ومن جملة المتبرعين دايرة رياض باشا وخيرى باشا مع كونهما

غائبين عن مصر ، وجميع دواير أعضاء العائلة الخديوية ، ومع كل ذلك ، كانت المخابرات الجفرية التلغرافية لا تنقطع ما بين رأس التين وبين بعض الناس بمصر والاستانة الى أن حصل تبويظ التلغراف أخيرا من جهة رأس التين ، وفيما ذكر تبصرة وذكرى للمنصفين .

***

ثم ينتقل « عرابى » ليعدد كل الاجراءات التى اتخـــذت لحفظ الأمن العمومى والمحافظة على أرواح وممتلكات الأوروباويين .

فكان يقبض على كل الناهبين ما أمكن ذلك ، ويبعث بهم الى المجلس العرفى مع خطابات توضح طبيعة جرائمهم ومقدار الأشياء المنهوبة الموجودة معهم لمجازاتهم ، وواضح ذلك فى قلم الوقوعات فى أركان حرب الذى كان بكفر الدوار .

« ... كما أنه حصل بمديرية طنطا هيجان من المهاجرين الاســكندرانيين قتل فيها بعض الأوروباويين بنفس المديرية ، من أجل ذلك صار استبدال المدير ابراهيم باشا أدهم وأرسل الى المجلس لمحاكمته على عدم حفظ الأمن فى المديرية ، وفى الحال ارسلت العساكر البيسادة والسوارى الى طنطا وزفته والمحلة وغيرها من مراكز المديرية فاستتبت الراحة وحصل الأمن .

« ومن قبل ذلك كان تحرر منى منشورات الى كافة المديريات والمحافظات وجميع الدواوين: بالمحافظة على أرواح جميع الأوروباويين اللذين بالمدن منهم والذين بالأرياف فى حفظ أموالهم حيث أن من اقام منهم معنا آمنا فله ما لنا وعليه ما علينا وانهم اخواننا فى الانسانية حتى ولو كان انكليزيا اذ أنه لا يعد محاربا الا اللذين بأيديهم السلاح فى ميدان الحرب ، ومن أراد منهم التوجه الى بلاده فعلينا حفظه وصيانته كما نحافظ على انفسنا وأولاده الى ان يبلغ مأمنه حسب أحكام الشرع الشريف المحمدى . معلوم ذلك بدفاتر كل ديوان من دواوين الحكومة حتى أن من كان يريد التوجه منهم الى الاسماعيلية كان يتعين معهم عساكر لمحافظتهم لحد تلك الجهة ، يعـــلم ذلك المسيو دلسبس والمسيو مازتوا قنصل دولة ايطاليا بالزقازيق والمسيو دبون قنصل فرانسا بها أيضا ، والتحريرات التى تحررت منى تلغرافيا بهذا الخصوص للجهادية والضبطية والمنصورة والزقازيق وغيرها وبما حصـــل من تلك النصائح والتنبيهات كانت جميع الأهالى مع من بقى من الأوروباويين اخوة فى غاية التودد حتى ترتب على ذلك اعادة كثير من الاسماعيلية وبورسعيد من التجار الأوروباويين الى مصر معلومة اسماؤهم بطرف ابراهيم بك فوزى مأمور الضبطية وقتهـــا . وكذلك تحرر منى لضبطية مصر ومديريا تالوجه البحرى بتوزيع مهاجرى الاسكندرية على البلاد والبيـــوت الشهيرة وأن يدعوا الناس لاعانتهم وأن يسكنوهم فى مساكن طيبة ويحسنوا اليهم غاية الاحسان فى مدة هجرتهم وبذلك حصل لهم من اقبال الناس عليهم بالاكرام ما لا يقـــدر قدره .

« وفى أوائل شهر أغسطس ١٨٨٢ وقع الضابط دادلى روتشير الانكليزى أسيرا فى يد عساكر فرقة أبو قير فارسله لى قومندان الفرقة المذكورة خورشيد باشا طاهر مكرما فاستقبلته وأجلسته بجانبى وأزلت روعه واتخذته صديقا لى وأكرمت مثواه ثم أرسلته الى مصر بافادة للجهادية بأن يصير اقامته فى محل يليق لاقامت الأشراف ويتعين له من يؤانسه من الضباط الذين يعرفون اللغة الانــكليزية ويكرمونه غاية الاكرام وأن يقبـلوا منه

التلغرافات والمحررات التى يكتبها لوالدته أو لرئيسه أو لأى جهة حتى ان والدة الضابط المذكور حررت لى تلغرافا من لندن تشكرنى على حسن عنايتى بولدها كما تحرر لها من طرفه وتخصص لاقامته السراى المعدة لتعليم أولاد الخديوى .

« ثم وقع اسيرا ضابط قيل انه تليانى فصار اكرامه وأرسل أيضا بالافادة لاقامته مع روتشير لكونه كان مستخدما فى الجيش الانكليزى ، ثم جئ لى بضابط بحرى تليانى وجدته دازوية فرقة مريوط وهو منفردا ماشيا بارض الملاحة لا ملابس عليه أصلا الا قميص فقط ولا قدرة له على السير ، فالبسوه ملابس احدى العساكر وأرسلوه مكرما فوجدته ضعيفا واقدامه متورمة من تأثيرات الأملاح عليها فأكرمته وأرسلته اسبتالية كفر الدوار واستحضرت له ملابس مخصوصة من مصر ولازال هناك الى آخر يوم ولا أدرى محله الآن . وهذا الضابط كان خاطبنى عنه مسيو دلسبس قبل وجوده ، وعند حضــــوره انقطعت المخابرات التلغرافية بين مصر والاسماعيلية فلم امكن اعطاء خبر عنه كما انه أبى أن يعطى عنه اخبار الى قنصل دولته .... وكذلك ضبط اثنين ضباط وواحد حكيم وتسعة عساكر كانوا خرجوا من فلوكة الى البر جهة أبى قير وارسلهم لطرفنا قومنـــدان فرقة ابو قير مع الاكرام وبالتحقيق اتضح انهم نمساويين من مركب نمساوية وكانوا أتوا الى تلك الجهة عن غلط حصل عن عدم معرفة الخرطة جيدا وجاءتنا مكاتبة من قنصل النمسا فى اسكندرية فأرسلناهم مكرمين الى مركبهم يتحدثون بما لاقوه من الاكرام ، وكذا الاثنين ضباط اللذين صار ضبطهم بمعرفة طلائع فرقة الصالحية وأرسلوا الى مصر بغاية الاكرام بما وجد معهم من النقود التى تبلغ ثلثماية جنيه انجليزى ، وكذلك الضابط الذى وقع أسير يوم اختلاط سوارى الجيشين فى معركة القصاصين أرسل مكرما لاقامته مع دادلى روتشير . تلك كانت معاملتنا مع الأسرى ونحن متهومين بالتوحش . فما بالنا الآن لا نعامل بمعاملة مثلها ونحن مستسلمين بأنفسنا لدولة عظيمة ذات شرف وذمة هى انجلترا وما بالنا وضعنا فى سجن خصمنا الذى طالما تمنى وقوعنا فى حالة كهذه كأنه لم كان محاربا لدولة الانكليز معنا ، فنكل الأمر فى فصل ذلك لنصراء الانسانية .

« واما احترامى للمنافع العمومية فمثبوت بما حررته مرارا الى جناب مسيو دلسبس تلغرافيا وما ورد لى من طرفه تلغرافيا بخصوص احترام قناة السويس كل الاحترام مادام ان المراكب الحربية لم تتخذه ميدانا للحرب ولازال الاحترام الى أن شغلته المراكب الحربية واجرت الضرب على جهة نفيشة ، فكتب الى الموسيو المذكور من طرفى بأنه مادام القنال اتخذ ميدانا للحرب فقوانين الحرب تقضى علينا باعتباره كذلك فاجابنا بأن نعمل بما يســـوغه لنا قانون الحرب ، هنالك تحرر تلغرافا من طرفى بذلك الى قومندان فرقة الخط الشرقى الجنرال الكبير راشد باشا حسنى وباشمهندس عموم الاستحكامات محمود باشا فهمى وباجراء سد الترعة الحلوة والقنال ان امكنهم ذلك حسب ما تقتضيه الأحوال الحربية . ومن الاطلاع على صور محررات جنابه الى ولده وزوجته فى باريس يعلم شدة حرصنا على احترام القنال المذكور وكذلك مداومة مراكب البوسطة على السفرية بعد حصول الحرب ، ولما حصل توقيف من العساكر عن السفر وتحرر لنا عن ذلك من وكيل السفر بالسويس فامرته تلغرافيا بمداولة السفرية حسب المعتاد حيث ان ذلك من المنافع العمومية مع تفهيم العســـاكر بذلك ، فكانت البوسطة منتظمة فى سيرها لحين خروج العساكر الانجليزية الى السويس .

« وبالنسبة لحرصنا على احترام القنال لم كان أرسل الى الجهة الشرقية قوة عسكرية لحفظها لأننا كنا لا نتصور أصلا انتهاك حرمة القنـــال ، من أجل ذلك لم صـــار ايجاد

متاريس وطواب للمدافعة تحمى بعضها بعضا . فلما اتخذت الاسماعيلية مركزا للجيش الانجليزى وحصلت المحاربة مع العساكر المصرية الذين كانوا فى المحسمة لأعمال المتاريس فى يوم الجمعة الموافق ٢٥ أغسطس ١٨٨٢ ، والخيل الانجليزية أخذت عليهم خط الرجعة ، انهزمة عساكرنا ومعهم راشد باشا وخالد باشا وأما المهندس الشهير محمود فهمى باشا فانه اخذ اسيرا لما ناله من شدة الأسف على ترك هذا الموقع المهم الذى لم تسمح له نفسه بتركه وفراره لالحاقه بالتل الكبير . هنالك توجهت فى يومها من كفر الدوار الى التل الكبير اكتفاءا بوجود طلبة باشا بفرقة كفر الدوار وكذلك على باشا فهمى قام من مصر ومعه الالاى الأول من البيادة الى التل الكبير لتقوية عساكره ، وتتابع ورود العساكر طوبجية وسوارى وبيادة واخذ فى عمل المتاريس والطوابى بقصد توصيلها من الصالحية الى التل الكبير الى الدار البيضا الى جبل عتاقة بوضع تتمكن به العساكر من ان تحمى بعضها بعضا ، وبذلك يمكن المدافعة عن البلاد من غير خسارة كما حصل فى كفر الدوار ، ومع ذلك حصل حركتين حربيتين بجهة كوبرى القصاصين ثبت فيهما الجيشين المتحاربين ثباتا عظيما وجرح فى ثانيتهما الجنرال الكبير راشد باشا حسنى وسعادة على باشا فهمى فارسلوا الى مصر وجاء بدلهما على باشا الروبى ليكون قومندانا للجيش ، ومن قبل ان نتمكن من اتمام عمل المتاريس كما ذكر ، عاجلتنا العساكر الانجليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السوارى التى تطير معها أينما طارت على حين غفلة فى ظلمة الفجر ، واشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ، ثم أتت فرقة سوارى بطوبجيتها من خلف الجيش ، فكان ذلك سببا لخذلان الجيش وتشتته فى يوم الأربعاء ٢٩ شوال ١٢٩٩ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ميلادية .

« ولما حصل هذا الخذلان ، توجهت من الجبل الى بلبيس ، وسوارى الانجليز على مقربة منى ، وهناك تقابلت مع على باشا الروبى ، فتوجهنا الى انشاص ثم ركبنا وابور السكة الحديد وتوجهنا الى القاهرة ، فوجدنا اهل المجلس جميعهم فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات حضروا أيضا بالديوان ، وبعد المداولة والتيقنة بان دولة الانجليز لا تريد الاستيلاء على مصر ، تقرر أنه حيث الأمر كما ذكر ، فلا لزوم للدفاع بعد ذلك اعتمادا على ان دولة الانجليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال فى كل امر وانها متى تحققت الأمر ووقفت على افكار اهل البلاد لا شك أنها تسعى فيما يوجب تحريرهم وراحتهم وحفظهم ، وبناء على ذلك كتب تلغراف من طرفى لحكمدار فرقة العباسية المكونة من خمسة وثلاثين الف عسكرى ، سعادة رضا باشا ، فى يوم ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بانه اذا حضرت عساكر الانجليز ترفع لهم الرايات البيضا ويتقابل مع ريس العساكر الانجليزية ويخبره بانتهاء الحرب اعتمادا على شرف دولة الانجليز وحرصا على حفظ البلاد من الدمار .

« وعند الغروب أتت عساكر السوارى الانجليزية والهندية فرفعت لهم الرايات البيضا وتوجه رضا باشا لمقابلة الجنرال (لو Lowe) وكذلك ارسلت ابراهيم بك فوزى ضابط مصر لمقابلة الجنرال أيضا ، وارسل وقد قبل ذلك من قبل المجلس لمقابلة الجنرال (ولسلى Wolseley) فى بنها ، وبعد الغروب بساعة ونصف حضر ابراهيم بك فوزى المذكور واخبرنى بان الجنرال (لو) الانجليزى يريد مقابلتى فى العباسية وكذلك قومندان فرقة عساكر كفر الدوار كان حضر فى هذا اليوم الى الديوان فجاءه تلغراف من قومندان فرقة العباسية بان الجنرال . المذكور يريد مقابلته فى هذه الساعة وتوجهنا جميعا الى طرف الجنرال (لو) بالعباسية وكذلك ارسلت له على بك يوسف ريس الالاى الذى فى القلعة حسب طلب جنابه .

« ولما تقابلت مع الجنرال ومعى طلبة باشا ، فقال الجنرال (لو) المذكور هل تقبلا ان تسلما انفسكم أسرى للدولة الانجليزية ، فقلنا نعم على شرط ان تكون فى ذمة دولة انجلترا وشرفها ، وخلعنا سيوفنا وسلمناها ليد الجنرال (لو) نيابة عن القائد العمومى ولسلى وقلنا له سلمنا سيوفنا وانفسنا الى ذمة انجلترا وشرفها ، فصوت أولادنا وصوت الانسانية يطالبون انجلترا وكل انجليزى بحقوقنا ، وجنابكم بالنيابة عن الحكومة الانجليزية وعن كل انجليزى ، واعلم انه موجود بالعباسية خمسة وثلاثون ألف عسكرى ومثلهم فى كفر الدوار ورشيد ودمياط وغيرها ، ولكن حرصا على البلاد وحقنا للدماء واعتمادا على شرف انجلترا وانها لا تريد الاستيلاء على البلاد المصرية قد أبطلنا المدافعة وسلمنا أنفسنا لذمتكم وشرفكم ، فقبل ذلك منا ، وبقينا بطرفه ثلاثة أيام ، ثم حضرنا الى عابدين ومكثنا بطرف الكولونيل (ثين Thynne) لغاية ٤ أوكتوبر ١٨٨٢ ونحن فى غاية الراحة ، ثم صار تسليمنا الى السجن المصرى فى يوم الخميس الموافق ٥ أوكتوبر ١٨٨٢ ، فذاك اليوم كان يوما عظيما حيث فرقوا بينى وبين صاحبى طلبة باشا الذى كان يؤانسنى وأؤانسه ، ووضعونى فى اودة لا شىء فيها ولا كرسى وقفلوها على فمكثت فيها حتى جاء خادمى فلم يسمح له السجان بدخول شىء غير سجادة ولحاف .

« ثم دخل على الضابط الموكل باهانة المسجونين ، وفتشنى وأخذ ما كان معى من الأوراق الخصوصية لارسالها لمجلس التحقيق ، وخرج هو ومن معه من رجال الاهانة ثم دخل بعده طائفة من حاشية الخديو أعرف منهم عثمان بك رافت ناظر الاسطبل الخديوى ، وحسين افندى فوزى من قلم تشريفات خديوى ، وتقدم الى رجل من الأتراك اللذين يركبون دائما ويسيرون امام الخديوى المعدين لاعدام الحياة عند اللزوم ، وصار يفتشنى ويخرج قميصى من تحت البنطلون فلم يجد معى الا أحجبة كنت حاملها لحفظ أولادى الأطفال من داء التشنج العصبى الذى كانوا يموتون به ، فأخذها بعنف وقوة وكنت اقول له دعنى أخرجها اليك فيقول لا انا مامور ، بصوت مزعج ، حتى أنه أخرج الجزمة من قدمى وفتشها ثم خرجوا .

« وبعد ساعة فتح الباب واذا بمحرر جريدة الأهرام اسمه (بشارة تقله) فظننت انه جاء ليزورنى ويهون على المصاب لكونه كان معنا قبل الحرب وكان يحلف بدينه وشرفه أنه كواحد منا وانه من دعاة الحرية وكنا نجله ونكرمه ، واذا به أتى بوقاحته ليشمت بنا وقال لى بنفور : عرابى اى شىء سويت رأيت اى شىء صار لك ، فعلمت أنه ذو وجهين وانه لا شرف له ، فلم اجاوبه ، فتوجه .

« وبعد ساعة اخرى ، دخل طائفة ثانية من الأتراك اتباع دايرة الخديوى وبعض عساكر المراسلة الذين هم بمعيته ، وفتشوا السجادة واللحاف والقوهم يمينا وشمالا ، وخرجوا واقاموا ليلتها غفراء على المسجونين ، وفى يوم ٦ اوكتوبر توجهوا لأشغالهم .

« وفى ليلة ٩ أوكتوبر الساعة ٨ افرنجى من الليل يوافق الساعة ثلاثة ونصف عربى تقريبا ، بعد ان خلعت حوائجى ونمت واذا بالباب قد فتح ودخل على جماعة نحو العشرة اشخاص او اثنى عشر شخصا ، لا حققتهم لشدة الظلام وقال قائل منهم بصوت قبيح هائل يا عرابى أما تعرفنى فظننت انهم مامورين بقتلى ، الا أنى تثبت وقلت له لست أعرفك فمن انت ؟ وما الذى تريده فى هذا الوقت ، فقال انا ابراهيم اغا ، وسبنى وشتمنى بقوله يا كلب يا خنزير انت كنت عايز ايه منى ؟ وتفل على ثلاث مرات ، وعلمت انه ابراهيم آغا تتونجى الخديو الذى كان توجه الى الشام هربا بسبب سرقة الألماس من سراى

عابدين لأجل عدم التحقيق مع محمد حسن الذى أرسل الى البحر الأحمر ليلقى فيه كما سبق ذكره .

« وها انا فى اودة ذات منفذين من جهة واحدة عليها أقفاص من حديد وخارجهما شمسيات من خشب مسمورين لا ينفتحان أبدا ، وعند مجىء الطعام من البيت : صحن الخادم يأخذه منه أحد الأتراك غفراء السجن يفتح الباب ثم يدخل الطعام داخل البـاب ويقفله سريعا ويتركنى وشانى كانى وحش داخل قفص ، الا ان قفص الوحش متجدد الهواء دائما وينور له ليلا ونحن محرم علينا القيادة وغيرها مطلقا مبالغة فى الاهانة .

« وكذلك صار القبض على جميع الضباط من رتبة البكباشى فصاعدا وبعض الصاغات واليوزباشى والملازمين وسجنوهم وكذلك على كثير من العلماء وأعضاء مجلس النواب والأعيان من العمد والتجار وغيرهم حتى غصت بهم السجون فى مصر واسكندرية والمديريات ، وظهر مصداق قول اعضاء مجلس النواب أن بقاء المجلس لا يكون الا ببقائى فان أنا خرجت من مصر فلا مجلس ولا بلاد بل بعد ازالة جميع الأعيان والمتنبهين من المصريين وتبعيدهم وخراب بيوتهم يصبح اهالى مصر عبيدا ارقاء يستخدمون فى اقذر الخدامات .

« تلك المحاربة التى لم يسبق لها مثيل ، حيث أن الخديوى تسبب فى حضور المراكب الحربية الى مصر ثم كان أول مشاع الى الحرب ومحرض عليها حتى التبس علينا الأمر ، ثم انحاز للجيش المحارب لبلاده ، ثم استمر الحرب باسمه فكانت عساكر الانجليز تقاتل باسم الخديوى اعتمادا على أن الجيش المصرى عصاة ، والخديوى ينشر المنشورات بأن عساكر الانجليز لا تريد الاستيلاء على البلاد ، وهكذا تنوعت فى صفاتها وظهرت فى أشكال غريبة ، فاذا كان الجيش عاصيا ، على زعمهم ، فما بال الناس جميعا ؟ ينظرون الى كثير من الذوات الملكية مسجونين وكثير من العلماء الأعلام واعضاء مجلس النواب واعيان العمد والتجار ونبهاء الدواوين وغيرهم من الأهالى صار سجنهم حتى ملئت السجون بكافة المديريات والمحافظات وغيرها . واذا كان الجيش والمذكورين وباقى الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها كلها على رأى واحد مشتركين فى امر واحد وهو الحق فما بالنا نرى أول دولة مشيدة لأركان العدل والحق تقهر تلك الأمة سيئة البخت ارضاء لشخص واحد ، على أن هذا الشخص لا تجيز شريعة قومه أن يكون أميرا عليهم أبدا ، هذا مع احترام دولة انكلترا للشرائع والأديان ، وكيف تكون تلك السيرة فى بطون التواريخ لدى عالم الانسانية ، فنكل الحكم فى ذلك لشرف الأمة الانجليزية .

« ان مصر لم تكن محاربة لدولة الانجليز أصلا ، ولكنها كانت مدافعة عن نفسـها فقط حرصا على اعادة المودة مع دولة انجلترا المحافظة على حقوق المصريين منذ زمن مديد ، وطلبا لبقاء أبواب الصلح مفتحة واعتمادا على أنها متى ثبتت الحقيقة لا تظلم المصريين حقوقهم ، وحجتنا فى ذلك ما هو مشاهد فى تحسين حالة الزراعة وحفظ النيل وعدم ما يخل بالراحة العمومية التى بها يتخيل ان البلاد لم يكن فيها حرب اصلا ، هذا مع حفظ أملاك الأورورباويين وزراعاتهم فى العاصمة والأرياف ، وغير ذلك حصول التسليم مع وجـــود سبعون الف من العساكر والمتطوعين وكثير من الأسلحة والذخائر الحربية ، فضلا عن كثرة الترع والجسور والخلجان التى يستعان بها كثيرا فى المحاربات خصــوصا فى مدة النيل .

« فاذا كنت عاصيا فكيف أسلم نفسى مع وجود تلك القوات الكبيرة الكثيرة معى والبلاد مستعدة لاعانتى بالرجال والمال ؟ واذا انقطعت جميع الأسباب فكيف أسلم نفسى ؟

بعض موكلين آخرين

كان «وكيل» فندق شبرد فى ذلك الوقت من بين النزلاء سيىء الحظ على سجن الدائرة السنية ، وكان هناك مزيد من النواح بين سيدات الأسرة الخديوية لأن « عثمان باشا فوزى » كانت له الحظوة عندهن بوجه عام . كان « عثمان » فى شبابه مملوكا من مماليك محمد على الكبير ، وكان فى شيخوخته لا يزال الوكيل الأمين ومتولى كل الخدمات factorum لابنته « الأميرة زينب » (مالكة فندق شبرد) وابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، « الأمير حليم » . « وعثمان » جركسى المولد تركى الثقافة والآراء ، « حليمى » فى السياسات ، ذكى ، دارس للفرنسية لمستوى محدود ، ونديم خفيف الظل bon-vivant ، كانت له شهرة لا تفارقه هى عثمان العجوز المجنون Old Dély Osman ، وكان الفريد فى مكانه وسط المصريين الوطنيين . لقد أيد عرابى ، وهذا صحيح ، ولكن فقط لأنه كان معقد أمله أن تنتهى حركة عرابى فى تحقيق حلم حياته . أن يعتلى عرش البلاد ابن سيده : حليم . لم يكن يتعاطف مع مطامح المصريين ، ولكنه كان يظن أنها يمكن استغلالها وتحويلها الى ذريعة معقولة لتطبيق حكيم لمؤامرات تركية ، وكان « عثمان » يمثل النفوذ القوى للحريم فى القاهرة والذى أعلن عن نفسه مناهضا للحكم القائم . وأثناء الحرب اعتاد عثمان أن يذهب الى مقبرة « محمد على » ، ويهز بقوة التابوت الخشبى الذى يغطى قبره ويدعو بصوت عال خالق الخلق أن يبعث حفيدا آخر يكون جديرا بأن يكون حفيدا لمحمد على بحق ويقصى توفيق الضعيف عن العرش. وبناء على طلب « مستر جروس «Mr. Grosse » ، الوكيل الأول للفندق ، وافقنا على أن نبذل كل ما فى وسعنا من أجل « عثمان باشا فوزى » ، ولأسباب سبق أن شرحتها ، قبلنا بالفعل مقدم أتعاب « طلبة باشا »

يعرب عن حبه لرئيسه اعرابا يكاد يحس به المرء · لقد قدم لنا ، على الفور ، تفويضه ، وبدأ فى املاء دفاعه ·

لم يكن استقبال عثمان « العجوز » لنا مرضيا أصلا · عند دخولنا زنزانته ، اذ برجل هزيل عجوز أشقر البشرة رومانى الأنف رمادى اللحية أشعثها ، ينهض ببطء من على سجادة فى ركن من الغرفة ، شرحنا له مهمتنا ، فقال متعجبا : « عرابى » واستطرد : « اننى لا أعرف الرجل ! ألا تدرك أننى كتركى وابن تركى لا يمكننى أن أشارك المصريين آراءهم ولا اهتماماتهم ؟ ألم تسمع أننى أعبد ذات الأرض التى يطؤها أى حفيد من أحفاد « محمد على » ؟ اننى عبد « توفيق » المفضل اننى لا أتخيل لأية لحظة لماذا أنا هنا · اننى أبرىء نفسى تماما من عرابى ومن قضيته · اقترحنا أن ننسحب من الموضوع ، عندئذ رفض · كان صديقه « مستر جروس » قد بعث الينا متوقعا أننا يمكن أن نتولى الدفاع عن « عرابى » وعنه بدون أية مضايقة · ولأسباب واضحة لم نسمع عن « عثمان باشا » شيئا أكثر من هذا حتى انتهت محاكمة عرابى · لقد اعتاد أن يركل باب زانزانته بشدة كلما مررنا به ، وفى اعتقادى أنه كان يتمنى ألا يكون سلوكه بهذا العنف على زملائه من المصريين المساجين ·

أما « يعقوب سامى » (الذى قدمه لنا « سير تشارلز ويلسون ») فكان يمثل قلب وروح المقاومة فى القاهرة . ورغم أنه تركى المولد ، الا أنه ربط مصيره بمصير الوطنيين . ونظم بطريقة منسقة الامدادات الضخمة والتعزيزات الهائلة من كل أرجاء مصر التى أرسلت الى « عرابى » أولا فى كفر الدوار ثم فى التل الكبير · وكان فى الوقت نفسه واحدا من الأرواح المتحركة فى المجلس الوطنى فى القاهرة · وعندما انتهى كل شىء رتب الأمور لاستسلام الفرق فى كافة أرجاء البلاد · ومن الغريب القول أنه منذ اللحظة التى ألقى فيها فى السجن صار نابط العزم تماما ويائسا تماما · وعلى شاكلة الباقين أسيئت معاملته وهو فى زنزانته ـ ضرب وأهين وبصق عليه ، وأمام قومسيون التحقيق أهين اهانة متعمدة وكاد يجن من الخوف · لقد تنكر بلا حياء لقائده ولقضيته · لقد روى لنا معاناته بدموع منهمرة مريرة · وعندما قرأ خطاب عرابى كاد ينهار تماما ، وأخيرا ، استجمع شجاعته ووقع بحماس تفويضا لنا لنتولى الدفاع عنه ، وطلب منا أن نبلغ عرابى انه لا يستحق الكلمات الرقيقة التى وجهها عرابى اليه · « ويعقوب سامى » قصير القامة ممتلىء الجسم ، بشرته شقراء وملامحه واضحة جيدا ومعبرة وكان معتادا على لبس نظارة · لقد كونت أسمى رأى عن قدرته ومهاراته ، وبعد ذلك اكتشفت أن نافذة زنزانته تطل على ساحة مليئة بصناديق خشبية كبيرة مظهرها متين جدا ،

ولازلت أجهل استخدامها أو السبب فى وضعها فى مكانها · كان من شاهدها من المساجين يعتقدون أنها تشير الى وسيلة للتسليم للسجن بلا مراسم · اننى لن أنسى وجه « طلبة » المسكين عندما نقل الى غرفة فى ذلك الجانب من المبنى نتيجة زعمهم بأنه كان كثير الثرثرة مع كتبة مصرف مجاور ·

أما موكلنا الثامن ، فكان « أحمد رفعت بك » · كانت زنزانته تكشف عن دلالات عن تمتعه بالراحة التامة وعن ما فيها من انسجام · كانت زنزانته التى يقيم فيها بها كتب ووسائد مطرزة وسجادة ايرانية ومرآة وناموسية ممتازة ، وكلها أشياء تنبىء عن أقدر من أناقة نزيلها · هرع لاستقبالنا عند الباب شاب فى حوالى الثلاثين من عمره ، وجهه شاحب بعض الشىء ، ومظهره يكاد يكون أوربيا · كانت على محياه كل علامات الرضا الكامل · كان رفعت يتحدث الفرنسية كأحد أبنائها · قال انه من اللحظة التى سمع فيها عن مقدمنا (وكان يحتل زنزانة تطل على الشارع عند أقصى طرف السجن تقابل تماما الركن المقابل لـ «عرابى» وكثيرا ما كان يرانا فى الدخول والخروج من السجن) قر قراره على أن يجاهد بشجاعة ، رغم أنه زاره فى زنزانته شخصيات مهددة له ومتوعدة منذ القاء القبض عليه · كان كل ما يطلبه هو قلم وحبر وورق ليقدم لنا دفاعا مكتوبا · لقد قص علينا فى أول لقائنا به جانبا من تاريخ حياته ، قال : أبى هو «قانى باشا» الذى يعيش فى القسطنطينية ، كان ناظرا للمالية أكثر من مرة ، وكانوا يطلقون عليه « التركى الأمين الوحيد » · تلقيت دراستى فى باريس ، واجتزت التدريبات اللازمة لتولى الوظائف القانونية ، ولكننى قبل أن أحصل على أجازتى العلمية ، عدت الى وطنى لأتزوج ابنة « كامل باشا » كبير التشريفات الامبراطورية ، ثم عدت ثانية الى باريس ملحقا بالسفارة ، ولكننى فقدت وظيفتى لزيارتى للمنفيين من حزب تركيا الفتاة Jeune Turquie ، وبعد ذلك عينت مديرا للمراسلات الأوربية فى نظارة الخارجية للباب العالى ، ولكننى قررت أن أبحث عن مستقبلى فى مصر أولا عيننى « اسماعيل باشا » (الخديو) وأخذت أترقى تدريجيا الى أن رأس « محمود سامى » النظارة فى فبراير الماضى ؛ شغلت منصب سكرتير مجلس النظار ورئيس ادارة الصحافة · اننى تركى ، وليس لى من دافع لأن أقول لك ما ليس بصحيح · كان عرابى يسانده تعاطف مصر كلها ، كما أنه اكتسب تعاطفى أنا أيضا · كان عرابى قائدا ومتحدث بلسان الأهالى الذين استعبدوا وأخطىء فى حقهم خطأ عميقا والذين كانوا يناضلون من أجل الحرية وكانت مصر كلها معه فى نضاله · لقد غدر به الخديو وخدعه السلطان · ان القضية الوطنية

تصدعت اليوم تصدعا لا أمل فيه ، والمصريون على شاكلة كل الشعوب المغلوبة على أمرها ، جبناء ، ولا يمكنهم مقاومة الاحباط المعنوى الذى جرته عليهم هزيمتهم التامة . من يجرؤ اليوم أن يشهد لصالحنا ؟ بل اننى ارتعدت وتلعثمت أمام قومسيون التحقيق الذى حاول فقط أن يدفع بى الى الاساءة الى سمعة رؤسائى . وبالرغم من كل هذا ، اذا كنا سنحاكم محاكمة عادلة فى وضح النهار ، فستعلم أوربا الطبيعة الحقة لخلق عرابى وستتضح قضيته العامة ، بالرغم من سلطان أعدائه . ان عرابى ، اذن ، ليس فى حاجة لأن يخشى شيئا » . كان لقاؤنا مع « أحمد بك رفعت » مشجعا بكل تأكيد . ثم عدت الى عرابى لأنقل له التقدم الذى أحرزناه .

وعلى غير العادة وجدت مزاج « عرابى » الهادىء شديد القلق . كان قد أصر على قراءة جريدة « الجوائب Jowaib » (وهى جريدة عربية تصدر فى القسطنطينية تحت رعاية شبه رسمية) كانت قد مجدت منه كبطل حتى ليلة معركة التل الكبير ، ولكنها اتهمته ، كما كان متوقعا ، بالعصيان لحظة أن هزم ، وكان عدد الجريدة الذى وصل مؤخرا ، على غير العادة ، أكثر مرارة فى عدائه . رجانى « عرابى » أن أسمح له بالرد عليه . لم أر معارضة قانونية لفعله هذا ، واذا به يحرر الخطاب التالى الى مدير « التايمز » بلندن ، مستر شستري .

كتاب الى مستر شيستري ، مدير التيمس بلندن

رايت فى جريدة الجوائب (١) نمرة ١١٠٥ تحت عنوان القبض على المفسدين فى مصر نقلا عما يتشدقون به كتاب الجرايد العربية من غير مبالاة انه صار القبض على عدد كذا من الضباط العصاة وكذا من عمد البلاد ومشايخ العربان وفلان القاضى وفلان النائب وفلان العالم وفلان المدير وفلان المامور والمترجم والكاتب والتاجر وأودعوا السجن فيا دعاة الحرية اذا كانت العساكر هم العصات فما بال جميع اعيان البلاد وعلمائها وقضاتها على اختلاف وظائفهم صار سجنهم واهانتهم واذا كانت الأمة على اختلاف انواعها على رأى واحد فى أمر واحد هو تحرير البلاد والمدافعة عنها فلما يوسمون بسمة العصاة لعمر الحق ان هذا لهو الظلم المبين وكيف نوصف بصفة العصاة والحرب كانت شرعيته قانونية بمقتضى قرار مجلس تحت رياسة الخديوى ومندوب الحضرة السلطانية وبعد خلو اسكندرية من الأهالى والعساكر وتوجه الخديو اليها وانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده الأمر الذى تمقته جميع الشرائع اجمعت الأمة المصرية باسرها على وجوب توقيف الخديو لخروجه عن احكام الشرع الشريف والقانون الحنيف وعلى دوام المدافعة عن البلاد بمقتضى قرار عرض عنه للحضرة السلطانية ابعد هذا نكون عصاة فالحق اقول اننا كنا مدافعين عن بلادنا مدافعة شرعية قانونية ومن قال غير ذلك فليس هو من الحق فى شىء بل هو عبدا للهوى والدراهم والدينار وان علماء

---

(١) « الجوائب » جريدة كانت تصدر بالآستانة باللغة العربية لصاحبها احمد فارس الشدياق . (المحقق)

السفن الحربية المياه المصرية • وقبل أن يغادر عرابى القاهرة ، زار المراقب الانجليزى مستر (الآن سير) أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin الذى كان لسلوكه وأسلوبه أفضل انطباع عند عرابى • ومنذ ١١ سبتمبر ، يبدو أن عرابى قد صار بالتصويت الضمنى لأبناء وطنه الزعيم المعترف به « للقضية الوطنية » ــ وهو تعبير صار يستخدم من وقتها بصورة متكررة ومتداولة فى المكاتبات الرسمية ، بالرغم من أن نفس التعبير قد أدين من وقتها بأنه اختلاق تعوزه الفطنة •

ومرة أخرى ، اتخذت الشئون المصرية مظهر سلام خادع • لقد استهللت السنة الجديدة (١٨٨٢) بثلاثة أحداث هامة ، أعنى ، افتتاح الخديو لمجلس النواب بخطاب يفيض وطنية لا حياة فيها ، ثم تعيين عرابى (وكان لا يزال وقتها الأميرالاى عرابى بك) وكيلا لنظارة الجهادية : ثم تقديم انجلترا وفرنسا لمذكرة مشتركة متماثلة • ويبدو أن «لورد جرانفيل» قد وقع لسوء الحظ ، رغم احجامه الشديد ، فى فخ أوقعه فيه مسيو جامبيتا M. Gambetta (١) الذى ابتدع المشروع المعنى ، باعتبار أنه أداة موائمة لتدعيم مطامح فرنسا على ضفاف النيل ، ولكنه ، وياالقسوة القدر ، عاش فقط ليشهد أشد النتائج مرارة بالنسبة له ولفرنسا (٢) • وفى هذه المذكرة الثنائية ، أعلنت فرنسا وانجلترا متشددتين أنهما قد صممتا على استتباب الأمور فى مصر وتأييد الخديو •

وننتقل الآن الى مناقشة طويلة معقدة وحادة عن القواعد الجديدة لتنظيم مجلس النواب • فى ١١ يناير ، كتب لورد جرانفيل أو بعث بتلغراف بأن « حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى أن تلجأ الى منع مجلس

---

(١) كان رئيسا لوزراء خارجية فرنسا وقتها ، ولكن وزارته لم يكتب لها النجاح ولم تجد التأييد الكافى لها ولذلك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر (من نوفمبر ١٨٨١) حتى يناير ١٨٨٢) ، وخلفه من بعده مسيو فريسسنه M. defreycinet • (المحقق)

(٢) يجب أن نأخذ فى اعتبارنا دائما أنه طبقا للسياسة الخارجية الفرنسية المتوارثة ، والتى لا يطرأ عليها أبدا أى تغيير ملموس ، أن مصر جزء من امبراطورية ضخمة فى المستقبل ــ امبراطورية قرطاج الغالية (الفرنسية) Carthage Gauloise لقد كتب نابوليون الثالث Napoleon III وكله أمل فى الوقت الذى تترسخ فيه سيادة فرنسا عند سفح جبل أطلس ، عندما تبدو للعرب أنها تدبير من السماء ، وعندئذ يتردد صدى مجد فرنسا من تونس الى الفرات » • ويؤكد الكتيب الشعبى « تحديد العسكرية الفرنسية La Regéntation Militaire Françaîse فى شجاعة ، أن افريقيا (وهو الاسم الذى كان يطلق من قديم على تونس) تنتمى اليوم الى فرنسا ، وبمساعدة ما بها من جمال وهجين ، تستطيع فرنسا أن تذهب الى السودان ، ومن تونس تذهب الى الفرات ، بل لقد ذكر مسيو فرنسييه (رئيس وزراء فرنسا الذى أعقب جامبيتا مباشرة) فى وضوح تام للكولونيل فلاتر Cal. Fletters. أنه لابد من تكوين حزب فرنسى فى السودان •

النواب منعا تاما ودائما من حق اقرار الميزانية » ولكنه أضاف بأنه يجب مراعاة الحذر ، اذ « لا بد وأن يؤخذ فى الاعتبار المصالح المالية التى تعمل حكومة جلالة الملكة من أجلها » ، وهو يسأل فى النهاية عما ستكون عليه النتيجة لو أن المجلس سمح له بالتصرف فى الايرادات غير المخصصة لسداد الدين العام ، ويجيب « سير ادوارد ماليت » على الفور (١٦ يناير) بخطاب أو بتلغراف بأن المرتبات الرسمية التى لا تنظمها عقود تخضع لرقابة المجلس ، الذى قد يلغى مسح الأراضى ويستغنى عن الكثير من الأوربيين من الادارات » ، وتوضح رسالة رسمية كتبت بعد ذلك بثلاثة أيام ، أن « سلطان باشا » رئيس المجلس وقتذاك (وهو وطنى حيى ، وسيتردد ذكره كثيرا فى هذا الكتاب) كان يعلن مؤكدا ومرارا وتكرارا أنه لا يعمل بأية صورة تحت ضغط الحزب العسكرى ، بل ذلك الطريق الذى اقترحه ويؤيده ، أعنى تصويت المجلس على الجزء « غير المخصص » فى الميزانية ، الذى صدقت عليه الرغبة الجماعية للبلاد ، بوصف المجلس ممثلها الحقيقى والمتحدث باسمها ٠

صار الموقف أكثر وأكثر توترا ، وكان شريف باشا يبدو ضعيفا فى تردده بين كلا الطرفين ، وفى يوم ٣ من فبراير بعـــد تلقى الخـديو ملتمســا من وفد عن مجلس النـــواب أقال النظــــارة التى كان يرأسها شريف ، وعين نظـارة وطنيــة خالصة تحت رئاسة محمود باشا سامى ، ووزعت مناصب النظارة المختلفة على الوجه التالى : على صادق للمالية وأحمد عرابى للجهادية ومصطفى فهمى للخارجية وحسن شريعى للأوقاف ، ومحمود فهمى للأشغال العمومية وعبد الله فكرى للمعارف العمومية ، وبالرغم من معارضة المعتمدين الفرنسى والانجليزى ، تأييدا للمصالح المالية اللذين يعملان من أجلها ، الا أن الخديو وافق فى ٨ فبراير على اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس ، متضمنة بنود الميزانية : وفى اليوم نفسه ، قدم مصطفى فهمى مذكرة قانونية جدا ومقنعة جدا يعارض فيها تدخل القنصلين العامين الأجنبيين فى شـئون ادارية هى شئون داخلية بحتة ، وفى الوقت نفسه تقريبا ، بعث السلطان بتلغراف الى الخديو مؤداه أنه (أى الخديو) يجب أن يترك هذه المناقشة الخاصـــة بالميزانية ، لمجلس النواب » ٠ وقد تقدم رئيس النظار الجديد الى الخديو بتقرير متزن ولبق ، وتلقى فى اليوم التالى ردا عليه ، وأصل الخطاب هو اليوم فى حوزتى :

خطاب الجناب الخديوى المعظم أيده الله ٠

عزيزى محمود سامى باشا

ان فى قبولكم تاليف هيئة نظارة جديدة مع ما فى ذلك من عظم الأهمية دليلا قويا على

وجدنا « رفعت بك » مشغولا فى كتابة دفاعه ، ويبدو أن زيارتنا له عادت لتلهب فيه حماسه القديم ، وكان قد رتب فى ذلك الصباح ليرى ابنه الصبى . كان طفلا ذكيا فى التاسعة من عمره ، كان يرتدى بذلة بهيجة ، وكان هو وأخواه اللذان يصغرانه ، وكانت أعمـــارهما الثامنة والسابعة ، قد طردوا عن مدرسة خديوية لغلطة لا تغتفر وهى أنهم أبناء رجل « عاص » ، وكان أكبرهم قد صدم ، فى وقاحة ، ولاء شعب مصر الذى جدده لخديويه عندما قدم بنفسه الى « عباس » ابن توفيق باشا ، وكان صبيا فى نفس عمره ، ملتمسا مكتوبا بخط يده لاطلاق سراح أبيه . وكان « رفعت » قد أعطانا فى هذا اللقاء بيانا طريفا عن تصرفات درويش باشا طوال الشهر الذى كان مليئا بالأحداث والذى سبق ضرب الاسكندرية وقال : » اذا أردت برهانا على آراء السلطان فينا ، فاننى أستطيع أن أعطيك برهانا واحدا ، اذ أنه قبل الثانى عشر من يوليو بيوم أو يومين ، أعطانى درويش باشا دليلا على رضاء جلالة الامبراطور عن سلوكى كعضو فى الحزب الوطنى ، أعطانى « فرمانا » فيه ترقيتى الى رتبة الباشوية ، وإقد طلب منى أن احتفظ بهذا سرا فى وقتها ، ولكن لو توجهت الى دارى بخطاب منى ، فستعطيه لك زوجتى » .

وفى وقت متأخر من النهار ، توجهت الى دار « رفعت » ، وكان مبنى فسيحا كبيرا ، بالقرب من قصر عابدين ، كان يعيش فيه عيشة تكاد تكون أوربية ، فيه وجدت مربية فرنسية كانت تتولى تربية كل أطفاله ، وكان رفعت يفخر بأنه يمتلك مكتبة ممتازة ، خصصت لها غرفة واسعة ، كانت تطل على حديقة ظليلة . منذ أن سجن انقلبت رأسا على عقب بحثا عن خيانة مكتوبة ، وبعد حديث طويل مع المربية ، عن مصر والمصريين أفلحت فى الحصول على الوثيقة المطلوبة التى أكدت تماما كل ما قاله « رفعت » وكشفت عن دليل آخر جديد فى دعوى « العصاة » لتبرير موقفهم .

ولما كان « اسماعيل أيوب » قد وعدنا فى لقائنا القصير معه : بسرعة الاتصال بكل الشهود الذين كانت قد سجلت اللجنة أسماءهم حتى ذلك الوقت ، واعداد الوثائق التى اقترح الاتهام الاعتماد عليها ، فقد عينا بالاضافة الى مـا عندنا ، خمسة عشر كاتبا لينسخوها لنـــا بالعربية والفرنسية ، وإقد خصص القومسيون غرفة صغيرة لتكون تحت تصرفنا، مجاورة لزنزانة « رفعت » واشترينا مزيدا من المناضد وتموينا ضخما من الأدوات الكتابية ولوازم المكتب ، وكان ناسخونا الجدد ، بصورة أخص من الأقباط والسوريين أو الفرنسيين ، ونظرا لأن الأمر لم يكن يستلزم سرية ، تركنا الاشراف والرعاية لمساعد « مسيو بوريللى » ، وكان شابا

مصريا ذكيا جدا ، حاصلا على ليسانس الحقوق licencié-en-droit يدعى « حشمت » ٠

سلمت سجلات القومسيون فى بطء شديد فى أول الأمر ، ولم أكن متعجبا من هذا ، فقد كان واضحا أن « بوريللى » يعتقد أن مثل هذه المهمة لم تكن تستحق مثل هذا الاهتمام الذى كرست من أجله تلك المواهب التى كان فى استطاعتها أن تنشر أكثر من مرة ، دستورا مصريا فى ليلة واحدة ٠ ولما كان بوريللى غارقا فى أعمال أكثر وزنا وأهمية ، لذا فقد ترك مجرد الأعمال التى يبت فيها تلقائيا ، تركها كلها لمرءوسيه ٠ كان عرابى قد حكم عليه مسبقا d'avance ، وكان نجاح أعدائه هو أكبر برهان قاطع على « عصيانه » ٠ ولم يكن من المتوقع من القضاة ذوى الذمم الحزبية ، الذين كان عليهم أن يلعبوا دورا فى المشهد الاستعراضى للمحاكمة الشكلية — لم يكن من المتوقع أن يكونوا بالغى الدقة بصورة تشككية فى سؤال الشهود ٠ ان كل ما كان يحتاج اليه الأمر هو ملف dossier أنيق يسر النظر ، محتوياته مكتوبة بخط واضح وعلى ورق ممتاز ، والملف يطرز بالحرير الأخضر ليخفى الكثير من عيوبه الداخلية ويحفظ مظهره ٠ لقد اتضح أن الشهادات التى جمعت فيه كانت عديمة النفع من وجهة النظر القانونية ، وللحصول على نسخة كاملة منها ، دفع « مستر بلنت » ما يقرب من خمسمائة جنيه ، وسيظل محتفظا بها لتكون دليل اثبات على أن العدالة كانت فى غيبة فى مصر ، وهى العدالة التى طالما نادى بها عرابى بلا جدوى ٠ انها تصوير كامل لكل شيء مؤسف مع بلبلة فى الأفكار عمت النظم التشريعية فى الشرق ٠ شائعة تجمعت فوق شائعة ورأى سجل عن رأى آخر ، وتعبير فى أثر تعبير ، أما الدليل المباشر الذى يمكن الاعتماد عليه ، والذى يعد ثقة فلم يكن له وجود بالمرة ٠ ولم يكن المتهمون حضورا على الاطلاق عند سماع القومسيون وحده للشهود ضدهم ، كما أنه لم يحدث أن كان هناك استجواب للشهود بالمرة ، وكانت نصف الأدلة تقريبا مؤلفة من خطابات كتبت غيابيا in absentiâ ، بناء على طلب القومسيون ، وقد صرف النظر تماما عن تأدية اليمين ٠ وبعض هذه الاقرارات التى جمعت من أجزاء مختلفة فى مصر تماثلت كل كلمة من كلماتها بل وفى كل ترقيم فيها ، فقدمت بذلك برهانا ثابتا على تداول الاقرار « النموذجى » ٠

اننى لن أتعب قرائى بمحاولة أن أصف بالتفصيل هذا التسجيل الثقيل للغرائب التشريعية من خلال ما اضطررت أن آكد فيه لعدة أيام رهيبة ٠ وبعد أن وزنها رجال أمثال « لورد دافرين » و « سير تشارلز ويلسون » ووجدوا أنها ناقصة ، فانه يمكننى أن أحذفها من قصة الدفاع

عن عرابى . كانت خلاصتها غاية فى البساطة : « كل فرد اعتقد اليوم أن « عرابى » عاص وأن « توفيق » حاكم مثالى — وأن ما فعله شعب مصر بأسره كان نابعا من خوفهم من عرابى ومن الجيش ، وان بعض الأفراد « سمعوا » أن عرابى أحرق الاسكندرية واعتقدوا أنه « من المحتمل » أن تكون له يد فى مذابح يونيو ، ولم يساور الناس أدنى شك اليوم فى أن عرابى يستحق سوء معاملة بلده له ، لقد فشل فى مهمته ، ولذلك وجب عليه أن يعاقب » . ولقد ندر أن وجه سؤال لم يكن من النوع الذى يوصف فنيا بأنه سؤال يتضمن الجواب leading question ، وكادت تقدم كل صفحة شاهدا من داخلها على أن تأثيرا غير سليم قد اتبع . لقد ضاعت أيام كاملة فى جمع تلك التفاهات المضحكة التى ليست بمستغربة عن الشرق . لقد استجوب عشرون شاهدا للبرهنة على أن المتهم « محمود سامى » قال أن الخديو عليه أن يحمل حقيبته Portmanteau ويذهب الى فندق شبرد « ، بينما وجه أخطر اتهام الى واحد من أعيان مديرية الشرقية لأنه قتل رميا بالرصاص بعض القطط والكلاب التى ألبست كسوة تمثل شخصيات « سير جارنيت ولسلى » و « سير بوشامب سيمور » ! ولا داعى لى لأن أذكر المزيد عن تسجيلات طرف واحد ex-parte ، أعنى تسجيلات الحكومة المصرية التى جمعتها كلها ضد عرابى وصحبه .

وفى مستهل شهر نوفمبر كان مكتبانا يعملان كل الوقت وفى نظام ، وكان الكتبة والمترجمون الذين كانوا يباشرون عملهم فى دارنا ، مشغولين بالبيانات التى قدمها لنا موكلونا ، وأما من كانوا يباشرون عملهم فى السجن فكانوا ينسخون بصورة آلية ملخص الدعوى (الذى عندما استكمل كان ارتفاع أوراقه قرابة القدمين) ، وكان يوافينا بنبأه تدريجيا محمد حمدى بك ، نيابة عن القومسيون وقد بذل « مستر بلنت » وزوجته أقصى جهدها ليساعدانا وهما فى انجلترا ، فقد كانت تصلنا مجموعات من مقتطفات من الصحف (كومتها بعناية ليدى آن بلنت) مع كل بريد ، حتى يمكننا أن نتابع بذكاء مناقشة القضية لدى أقوى محكمة للرأى العام فى انجلترا ، وكنا قد زودنا فى حينه بقدر كاف من الكتب القانونية الفرنسية والانجليزية التى تتناول موضوع المحاكمة القادمة وكانت تصلنا كل جريدة برلمانية عند ظهورها ، وكنت بحق شديد الانشغال بما ورد لى من اقتراحات من كافة الأرجاء بالنسبة للطريق الذى ينبغى على أن أسلكه ، وكان بعضها لها طابع غير عادى .

ويبدو أن السيدات الأمريكيات كن فى تنافس فيما بينهن فى الحصول على توقيع من عرابى بخط يده autograph ويتمنون له « نجاة آمنة من أعدائه » ، لأن أشد تعاطف عليه خارج مصر ، جاء فى

يدعى « سلامة بك » ، كان دارسا ممتازا للانجليزية وكان رئيسا للبريد والبرق أثناء الفترات العصيبة ، وبالرغم من ميوله الوطنية دبر للهروب بأسلوب بسيط هو اعتزاله العمل واعتزاله المجتمع ٠

لقد رأينا مرات عديدة مستر برنارد Mr. Bernard المراسل الخاص لجريدة نيويورك هيرالد New York Herald الذى كان يدعى أنه يحتكر ما كان يدعوه تلغرافات « ممتعة Picturesque» ، لقد أرانى واحدة منها كانت تعلن عن قدومى ، وكانت فى الحقيقة ممتعة جدا ، اذ كانت على النحو التالى :

« لقد وصل مستر ب ٠ محامى عرابى ، وهو طويل القامة وسمين يتحدث كثيرا عن براءة موكله ، ويرتدى قمصانا حريرية ملونة مزدانة بأشرطة وشراريب ، بدلا من أن يرتدى قمصانا بيضاء وأربطة عنق » الخ ٠٠ واستطرد يقول « ان الأشرطة كان ينظر اليها على أنها رمز لمصير عرابى المحتوم ، واستمر التلغراف بنفس هذا الأسلوب من الكلام على مدى عدة سطور ، وكان كل هذا الوصف نظير ٤ شلنات عن كل كلمة ٠ ولما كان « مستر برنارد » جمهوريا أمينا لذا ، كان شديد الميل لـ « عرابى » ، وفكر أخيرا فى خطة « لشرائه » عن طريق اتفاق ودى مع السادة جوردون بنيت Messrs. Gordon Bennett وبارنوم Barnum ، وقال برنارد : « ليس أيسر من أن ينقله يخت « بنيت » فى هدوء ٠ وعلى مدى الاثنى عشر شهرا الأولى سيكتب عرابى ثلاثة أرباع عمود كل أسبوع لجريدة « هيرالد » عن السياسات المصرية ، ثم يستقبله « بارنوم » على رصيف الولايات المتحدة ٠ اننا سندفع ٢٥٠٠٠٠ر٢٥٠ جنيه استرلينى وسنعطى عرابى ١٠٠٠ر١ جنيه استرلينى سنويا » ٠ وأنا ، من جانبى ، نظرت الى الاقتراح على أنه نكتة ، ولكن بعد ذلك ، لما كان هناك تفكير فى النفى ، اذ بـ « مستر برنارد » يطرح هذا الاقتراح فى جدية رزينة على كل من « لورد دافرين » وسكرتيره ٠ ومن الغريب أن أذكر أن « برنارد » لم يكن وحده الوحيد الذى نادى بهذه الفكرة ، فلقد سمعت من « سير ادوارد ماليت » أن الكونت زيزينيا Count Zizinia (اذا لم أكن مخطىء فى الاسم) عرض مبلغا مماثلا تقريبا نظير « امتياز خاص بعرض عرابى فى كافة عواصم مدن أوربا على مدى سنة » ٠

ولم يكن المراسلون الفرنسيون جميعهم بغرباء عن مكتبنا ، بل ان « مسـيو جبرايل شارم M. Gabriel Charmes» من جريدة المجادلات Journal des Débats الذى تبارزت معه جدليا عن المشكلة

التونسية ، كان من زوارنا ، وسيتردد الحديث عنه كثيرا فى هذا الكتاب،
وكان هناك أيضا الفنان الفرنسى الخاص لجريدة « المصور Illustration»
الذى أراد أن ينتقم منى لعلمه بكراهيتى المشهود عنها لضم « تونس »
ل « فرنسا » ، فصورنى في جريدته كعجوز خرف في الثمانين يحمل ريشة
قلم ضخم ، كالأسلوب الذى كان متبعا فى الأزمنة القديمة ، ويرتدى شعرا
مستعارا ضخما كالذى كان يرتدى زمن لويس الرابع عشر Louis XIV

الأوربيين وأعمالهم التى يقصد منها ايقاع الفتن والمشاغبات ويكون واقفا لهم بالمرصاد ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسهما سوء ، فمن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا الأعظم ويكن مقبولا لدى جلالته .

وانى أرجوكم أن لا تؤاخذونى فى عدم كتابة تفصيلات أخرى بخطابى هذا حيث أن احمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة ايام فقط ومع ذلك ففى تلك المدة القصيرة نظرا للاقوال التى صرح بها من حسن مقاصدكم الشريفة وعبوديتكم لجلالته - اظهر عظيم ثقته فيكم ، هذا ولقد وصلنى بالأمس فقط الخطاب الذى ارسلته لى واتعشم بامكان ارسال جوابه لكم فى بريد الأسبوع الآتى متضمنا تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع اى خطاب من الخطابات التى ترسلونها فى أيدى الغير واجتهدوا فى الحصول على مراسل مخصوص بيننا تثقون فيه ، اما فى هذه المرة فالأوفق هو تسليم هذا الخطاب ليد حامله .

فى ٤ ربيع الآخر ١٢٩٩هـ	خادمكم
و ٢٢ فبراير ١٨٨٢ م	الشيخ محمد ظافر

وهذا خطاب آخر بنفس التاريخ من « أحمد راتب باشا » ياور وسكرتير السلطان وفيه يقول :

الى ناظر الجهادية المصرية احمد بك عرابى .

قد بلغت جلالة السلطان الأعظم المحادثة التى حصلت بيننا بالسكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة عند عودتى الى الآستانة وقد احدثت تلك المحادثة سرورا عظيما عند جلالته وامرنى ان ابلغكم تشكراته الملوكانية .

وانى بلغت جلالته المعاملة الحسنة التى عوملت بها على يديكم والاكرام الذى راته عيناى مدة وجودى بالمحروسة وجلالته اظهر عظيم محظوظيته حتى ان الرضا الذى حصل عنده القنع جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم اضعافا مضاعفة . هذا وقد سعى اناس فى جعل جلالته يفتكر انكم كنتم تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم (ولا ادرى كيف ذلك) ونجحوا فى تغيير فكرة جلالته نحوكم . واما الآن بعد ان اوضحت لجلالته حقيقة المسالة - اقسم لكم أن جلالته متاسف جدا لكونه سمع للاقوال الكاذبة والمختلفة التى بلغته عنكم والذى يثبت لكم ذلك هو ان جلالته امرنى ان احرر هذا لكم واوضح لكم فيه الخواطر الآتية : لا اهمية فى من يكون خديوى مصر - ويجب أن تكون افكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث ان جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة وفى الوقت نفسه يجب ان يظهر الغيرة التامة والاخلاص فى تاييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من يتربع من الولاة على الأريكة الخديوية .

« اسماعيل باشا » وأسلافه اولئك الذين رشوا « غالى باشا » و « وفؤاد باشا » ونائبيهم الخائنين فى الباب العالى - وبعد ان اغمضوا عيون اولئك الموظفين المذكورين اجترءوا على ظلم المصريين وضرب الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة - وزيادة على ذلك فانهم تداينوا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم فى نظر الدنيا تستدعى رأفتنا الخصوصية لهم . فالمركز باكمله فى غاية

يستحق رتبة الباشوية ، لذلك فاننا رقينا عرابى باشا الى هذه الرتبة ، وقد منحناكم اياها ، لأنكم جديرون بها ، وقد صدر الفرمان الخاص بهذا الموضوع من ديواننا الامبراطورى ٠

انتم اذن ، لأنكم أهل لهذا الفضل والشرف ، ولأنكم تقلدتم رتبة « ميرلوا » ، يجب عليكم دائما أن تظهروا أعظم كفاءة ونشاط فى تنفيذكم لكل أوامرنا ، وتظهروا كل ثبات وحذر وولاء ، كما يجب عليكم دائما أن تحذروا أن تعملوا بأى اسلوب فيه اضرار بنفوذ الخليفة أو منافيا للقانون والعدالة ٠

(خاتم السلطان)

فرمان البراءة :

نظرا لما تتحلى به الشخصية الشريفة الطاهرة لعرابى باشا من أمانة وكفاءة ومهارة وذكاء تام ، فاننا نحن العظيم بين العظماء وأمير الأمراء الكرام ، نشعر أنه شىء لزام علينا أن نضاعف أفضالنا على ناظر الجهادية على جيشنا المصرى الامبراطورى ، ولهذا فانه طبقا لهذا الفرمان الامبراطورى الذى أصدرناه ، قد أنعمنا تعطفا بالنيشان المجيدى من الطبقة الأولى على المذكور عرابى باشا ، وهذه البراءة المؤكدة لها قد صدرت بناء على ذلك ٠

(خاتم السلطان)

هاتان الوثيقتان ، بالاضافة الى غيرهما من ذات الطابع ، تضمنت من بين ما تضمنت ، خطابات وتلغرافات من « الباب العالى » و « قصر يلدز » الى راغب باشا ومحمود سامى ، والتى كنا نأمل فى النهاية أن نحصل عليها ، قد برهنت على أى ثقة السلطان فى عمل عرابى وعلى استمرار الثقة فيه حتى نفس ليلة هزيمته ٠ واننى لا أستطيع أن أؤكد ، اذا كان هذا الدفاع يقلل ، فى أية صورة من الصور ، من حق « عرابى » فى أن يحتل مكانه بين الوطنيين الحقيقيين ٠ لقد كان يعترف دائما بالسيادة والسلطان الدينى للباب العالى ، باعتبار أن هذا الأمر يواكب الحركة التى كان يتزعمها ٠ واستنادا الى هذا كتب « مستر بلنت » عندما نشر ، عن ثقة ، منذ ستة أشهر قبل الحرب ، برنامج الوطنيين المصريين :

هم يعترفون بالسلطان عبد الحميد خان سيدا لهم وملكهم وخليفتهم الفعلى أو رئيس الديانة الاسلامية ، كما أنهم لا يفترضون ، طالما ان الامبراطورية قائمة ، ان يبـــدلوا هذه العلاقة ، وهم يعترفون بحق الباب العالى فى الجزية التى حددها القـــانون ، وفى المعونة العسكرية فى حالة حرب أجنبية ، وهم فى الوقت نفسه ، مصممون تصميما جازما على الدفاع عن حقوقهم وامتيازاتهم الوطنية وعلى أن يعارضوا بكل وسيلة فى أيديهم ، محاولات من يحاولون أن يبقوا عليها مرة أخرى مجرد ولاية باشوية تركية Turkish Pachlik انهم يثقون فى حماية القوتين الأوربيتين وبخاصة فى انجلترا ، فى استمرار ضمانهما لاستقلال مصر استقلالا اداريا . »

عن هذا الاعتراف العقائدى لم يحد عرابى عنه قط .

أما الأوراق الباقية التى أعطاها لنا عرابى ، فقد أوضحت بصورة قاطعة تماما (ولنستعر كلماته هو نفسه) .

« ان مصر كلها معه » . وقد أكدت الملتمسات والخطابات التى كانت تحمل مئات (وأحيانا آلاف) التوقيعات والأختام من كبار الشخصيات من كل جزء فى البلاد ما بين أسيوط ومصب النيل أكدت موافقة الشعب على « نظارة الأمة » والايمان التام القائم بعرابى ، وتكشف السخط على المذكرة المشتركة (١) وعلى من « وافق عليها » ، ورغبة الحماس التى سرت بين المصريين فى أن يسيروا وراء الراية التى رفعها « عرابى » ، كما أن التماسات وخطابات أخرى قد صيغت بنفس الأســـلوب ، تدفقت على مندوبى الامبراطور لتوضع تحت أقدام أمير المؤمنين . وقد احتفظ عرابى بنسخ أصلية من كثير من هذه . وقد وضع علماء الأزهر « توفيق » فى الميزان ، واكتشفوا أنه أقل قدرا ، وهم لذلك شاركوا أيضا فى الصيحة العامه التى كانت تردد : من طرف فى مصر الى طرف آخر ، تردد : « الله ينصرك يا عرابى » .

والرسالة التالية وردت من رئيس أعيان الشرقية (٢) :

ان النظارة التى تشكلت بموافقة مجلس النواب برئاسة محمـــود سامى باشا منذ اليوم الذى تسلمت فيه مقاليد الحكم ، سعت الى تحسين

---

(١) كانت معروفة بين الناس وقتها باسم « اللائحة » أو « اللايحة » على حد نطقهم لها ، وكانوا ينادون فى الشوارع قائلين « اللايحة اللايحة ، مرفوضة مرفوضة » ، معبرين عن تضامنهم مع الحكومة الوطنية التى كان عرابى فيها ناظرا للجهادية والبحرية . (المحقق)

(٢) لم أجد النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كتاب برودلى المحفـــوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى ترجمتها عنه بصورة تقربها من الأصل العربى . (المحقق)

ظروف البلاد وناضلت لترسيخ مبادىء العدالة لتدعيم قواعد النظـــام ولمحو أخطاء الأزمنة التى سبقت تشكيلها •

لقد تبنت أحسن الاجراءات فعالية لاستئصال الطغيان الذى حطم البلاد وشوه جمالها • لقد بدأت مع كل ما أمكنها من مهارة وذكـــاء ، فى انصاف من كانوا يسعون اليه ، ولذلك ، فنحن كبار رجال مديرية الشرقية ، لما كانت لدينا أهم رغبة فى نفس هذه الأمور . فاننا نطالب بالحفاظ على هذه النظارة حتى يمكنها أن تكمل اجراءاتها الطيبة التى هى بمشيئة الله فى صالحنا ورخائنا • نحن نعاهد أنفسنا على أن نؤيد هذه النظارة كما لو كنا ندافع عن شرفنا وممتلكاتنا وكل ما نعتز به • » •

أما كبار رجال الاسكندرية فقد قالوا الآتى (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وصلى الله على رسول الله ، وبعد

نحن نؤمن يقينا بأن وجود الأسطول على مقربة من مدينتنا لا يمكن أن يكون لغرض آخر غير تنفيذ المذكرة التى تقدم بها القنصلان العامان لانجلترا وفرنسا الى الحكومة المصرية •

وفى المطالب التى طرحت فى هذه المذكرة وضعت محاولة لمهاجمة حقوق الشعب وحقوق بلده والغاء فرمانات الباب العالى والتدخل بصراحة ووضوح فى شئون الادارة الداخلية البحتة » انها تطالب أيضا بنفى المصريين واعفاء من هم نظارنا ، وهذا لا يمكن ان يعنى شيئا آخر سوى تملك بلدنا • لقد سمعنا أن سمو الخديو قد قبل المذكرة المعنية دون أن ينتقد كلمة فيها • لقد فعل هذا بالرغم من أن تبعية مصر للباب العالى الذى منح حاكمها التوجيه الكامل فى كافة امورها الداخلية ، وان الاستسلام للمذكرة فيه قضاء على الفـــور على امتيازاتنا وعلى امتيازات الباب العالى ، نحن أبناء الاسكندرية ، نرفض مذكرة القوتين العظميين وان من يقبلها عليه أن يفصل كلية والى الأبد قضيته عن قضيتنا •

اننا نرفض أن نفصل أنفسنا عن الباب العالى وان نربط أنفسنا بأية قوة أجنبية حتى لو كان علينا ان نموت من اجل ذلك ، لأنه من الأفضل ان نموت من اجل حياة بلدنا عن أن نعيش بينما بلدنا يموت • »

ويبدو أن خطابات من هذا النوع تدفقت من كافة أرجاء البلاد ، من رشيد ، من الدقهلية ، من المنصورة ، من الغربية والفيوم ، وهى وان اختلفت صيغتها الا أن موضوعها واحد ــ تأييد عرابى فى معارضته للمذكرة المشتركة وفى احتجاجه على وصول الأسطول البريطانى ، وفى التماس

(١) لم أعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كتاب برودلى المحفـــوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى ترجمتها عنه بصورة تقربها من الأصل العربى • (المحقق) •

التدخل المفضل للسلطان • وقد انتهج شيوخ البدو منهج اخوانهم فى المدن ، وربما كانت التماساتهم أغرب الالتماسات جميعا ، ففى عشرين منها . مصير تونس يشد اليه كانذار وكنموذج ؛ ولو أن هذه الوثائق نشرت لملأت مجلدا كاملا •

وبالنسبة لغرضى الراهن ، سأكتفى بذكر نموذج آخر من بين الوثائق ، هو حكم كبار علماء الأزهر الشريف (أقدم جامعة اسلامية فى الشرق على الخديو توفيق •

وفيما يلى استفتاء (١) :

أيها الأعيان وكبار العلماء ، يا من تقدمون المشورة الحكيمة للمسلمين، يا من تحافظون على الشريعة الاسلامية نقية طاهرة ، وتراقبون تنفيذ سننها ، أنصتوا وأجيبوا على الأسئلة التى طرحها الشعب المصرى فى السطور التالية • قدموا المشورة السليمة ، هداكم الله للحق وسدد الله خطاكم وألهمكم الطريق المستقيم !

ما القول فى حاكم مولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله فنقض العهد وأحدث الفتن بين المسلمين وشق عصاهم ثم انتهى به الأمر الى أن إختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين وطلب من الأمم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم فى بلاد الحكومة الاسلامية وحمل رعاياه على أن يدينوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية وبذل عنايته فى المدافعة عنها ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك أبى وامتنع وأصر على الخروج عن طاعة السلطان والمروق من الشريعة • فهل يجوز شرعا أن يبقى هذا الحاكم حاكما حتى يمكن قوة الأجانب من السلطة فى البلاد الاسلامية أو يتعين فبهذه الحالة عزله واقامة بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه ؟

الفتوى :

حمدا لله وصلاة وسلاما على مولانا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه المحبين له وبعد :

فى هذه الحالة يجب أن يعزل ويجب أن يعين أحد مكانه يحافظ

(١) لم أعثر ، بالمثل ، على النص العربى لهذا الاستفتاء ضمن وثائق برودلى المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كان مثبتا فى الأصل الانجليزى ترجمته عنه بصورة تقربه من الأصل العربى • (المحقق)

على الشرع ويدافع عنه ويحترم حقوق أمير المؤمنين مولانا الخليفة ، خليفة الرسول سيد الخلق أجمعين .

لقد قال الله تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم »(١) ، وقال تعالى جل وعلا « الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » (٢) وقوله جل وعلا : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(٣) وقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٤) . وقوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥) ، ومرة أخرى قوله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا . » (٦) .

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » (٧) ، وقوله تعالى : « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » (٨) ، وقوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » (٩) ، وقال جل وعلا : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » (١٠) .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أن من يعظم شعائر الله فى الأرض سيكرمه الله يوم البعث ومن يهن الله فما له من مكرم يوم القيامة .

والحمد لله القوى العليم وصلى اللهم وبارك على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) المائدة : ٥١ (المحقق) .
(٢) الأنفال : ٧٣ (المحقق) .
(٣) المائدة : ٤٤ (المحقق) .
(٤) المائدة : ٤٧ (المحقق) .
(٥) المائدة : ٤٥ (المحقق) .
(٦) النساء : ١٣٨ و ١٣٩ (المحقق) .
(٧) الممتحنة : (المحقق) .
(٨) الممتحنة : (المحقق) .
(٩) الممتحنة : ٤ (المحقق) .
(١٠) الممتحنة : ٦ (المحقق) .

وأعقبت الفتوى توقيعات ثمانية من كبار علماء الأزهر الشريف كان على قمتهم « الشيخ محمد عليش » الذى توفى فى أوائل محنته ، والذى صار خليفته الشرعى « حسن العدوى » وكان أكثر المسجونين شهرة ممن قابلتهم بسجن الدائرة السنية ٠

لقد كانت أوراق عرابى ، على ما أعتقد ، أكثر من كافية لدفع أى اتهام بالعصيان بالمعنى الدارج للكلمة ، انها توضح الى أى مدى لو أنه عصى بالمرة فانما كان عصيانه على اعتبار أنه زعيم لخمسة ملايين (١) من الأهالى وأنه كان على رأس الشعب المصرى بأسره ٠

(١) تعداد سكان جمهورية مصر العربية الآن فى هذا العقد الأخير يقترب من الخمسين مليون نسمة ٠ (المحقق) ٠

قواعد المرافعات ومعركتها

لقد استهل شهر نوفمبر بأقوى دلالات ، من جانب مسيو بوريللى وقومسيون التحقيق ، على أن كليهما كانا يتوقان الى الهروب ما أمكنهما من قواعد المرافعات التى كانا قد اتفقا عليها نيابة عن الحكومة ، والتى قبلتها أنا نيابة عن موكلي ٠ لقد رأينا فيها ، على العكس من ذلك ، ملاذنا ، وقررنا الالتزام بها التزاما تاما ، نتيجة لذلك ٠ وعند توجهنا الى السجن كالمعتاد (٢ نوفمبر) أدهشنا أن نجد القومسيون فى اجتماع وقور ، بالرغم من أنه تبعا لاتفاقنا ، كان من المفروض الآن أن نكون حضورا ، حتى على أقصى حد ، حضور استجواب الشهود ٠ لقد شاهدنا «محمود فهمى» ناظر الأشغال العمومية وكبير المهندسين في نظارة عرابي شاهدناه يدخل الغرفة وسط صفين من الجنود عندما وصلنا لتونا ٠ بعثت بمذكرة الى « مسيو بوريللى » أسأله فيها ما يعنى كل هذا ٠ رجانا أن نكون صابرين وأكد لنا بشدة انه لايرى لهجة خيانة فى العبارة التى تفوه بها «محمد فهمى» فى حق الخديو من أن عليه أن يرحل بحقيبته ، وأنها ليست ببالغة الأهميـــة لحيثيات القضية ٠

ولما كنت مصـــــمما على تقديم احتجـاج رســمى للقومسيون ، بعث القومسيون ب « مسيو بوريللى » رسولا لى لوضع الأمور فى نصابها ما أمكن ، وانتهى الموضوع باتفاق مكتوب اتفقنا بموجبه على أن القومسيون يجب أن يعد ، خلال أربعة أيام ، اعتبارا من ٣ نوفمبر ، لأن يستمع فى جلسة مغلقة in camera الى الشهود الذين سبق استدعاؤهم ، «ولا أحد غيرهم»، بعد هذا يجب على القومسيون أن يعلن الممثلين القانونيين للمتهمين ، اذا كانت هناك أسس كافية لاستمرار التحقيق ٠ (بند) من ذات اليوم وبعد ذلك التاريخ ، لو اتضح بفحص سنجل القضية أن الأمر يستلزم استئناف

التحقيق ، « يمكن أن يستأنف فقط » فى حضــــور المتهمين رمحاميهم ، وتمشيا مع الاتفاق الموقع بيننا يوم ٢١ أكتوبر » (١) ٠

وفى الوقت الذى كانت تسير فيه المفاوضات قدما ، تأجل انعقاد القومسيون ، وأخذ « مسيو بوريللى » يتحرك جيئة وذهابا للمشـــاورة مع الرئيس ٠ وفى النهاية وقع الاتفاق بين كلينا فى مكتب مجاور متصل بغرفة المحكمة بباب مفتوح ٠ وعندما انتهى الاتفاق ، قدم لى « اسماعيل أيوب » نهانيه فى حضور زملائه ، وستظهر أهمية ما حدث عن قريب ٠ وبعد ذلك بعشرة أيام ، وصلت تعليمات للقومسيون من « رياض باشا » تنكر أنهم كانوا على علم سواء بهذا الترتيب أو بالاتفاق الأول الذى كان فيه « بوريللى بك » طرفا نيابة عن الحكومة الخديوية ٠

وبينما كنا ننتظر فى الردهة ، وجدت فجأة من يخاطبنى بلغــــة انجليزية سليمة ٠ كان محدثى مصريا قصير القامة ممتلىء الجســـم ، برونزى البشرة جدا ، يرتدى بدلة بحرية قديمة ممزقة ، وكان يحرسه بعناية جندى على كل جانب من جانبيه ، ولكى يبعد عنى الشك فى أمره ، حرك شــفتيه بصعوبة ٠ ومع توقفات كثيرة ذكر لى القصــــة التاليـــة : اســـمى « على راغب » ، كنت ملازما ثانيـــا فى خدمة ادارة البواخـــر الخديوية ٠ وفى مناسبات عديدة ، طلب منى أن أقوم بتوصيل خطابات الى « عرابى » من « قصر يلدز » ٠ ومرة أو مرتين حملت ردوده ، وبعد ضرب الاسكندرية قبض على عند وصولى الاسكندرية ٠ كانت معى بعض خطابات بالشفرة ليست مرســـلة الى عرابى ولكنها تخص أشـــخاصا آخرين ، وكنت لا أعرف شـــيئا عن محتوياتهما ، فأصـــدرت محكمة الاسكندرية العسكرية حكمها على بالأشغال الشاقة لمدة عشر ســـنوات أقضيها فى الســـودان ، وهذا معناه الموت لى ولذلك فاننى أرجوك أن تستدعينى كشاهد لصـــالح عرابى ٠ اننى سأشـــهد لصالحه لقد كان الزعيم المختار لنا جميعنا نحن المصريين وان كان قد تخلى عنه الجميع الآن ٠ هل يمكنك أن ترفع ضد الحكم الذى صدر على ؟ » ٠

بعد ذلك طلبت اســتدعاء «على راغب » كشــــاهد فأصـــدر اليـــه القومسيون أمرا على الفور بأن يتوجه الى السودان ، ولكن « سير تشارلز ويلسون » أوقف تنفيذ تسفيره هذا ، وحاولت أنا بلا جدوى لأحـــرك السلطات لصالحه ، ولكن كان هذا أمرا ميئوسا منه ، ولقد كان الحكم عليه لمدة خمسة عشر عاما وليس لعشر سنوات كما توهم ، ولكن ماذا حدث له منذ ذلك الوقت ؟

---

(١) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب ٠ (المحقق)

لقد قضيت الأيام التي أعقبت ذلك في قراءة مختلف البيانات التي قدمها لي المسجونون ، وفي فحص تلك الشهادات التي دبرنا الحصول عليها من القومسيون • لقد بدت أدوات الدفاع المتين جاهزة في متناول أيدينا ، وصار من الصعوبة بمكان على الحكومة المصرية أن تخفي الوضع الصادق للقضية ، ما لم (كما علق عرابي نفســه في براعة تامة) تستطيع اختراع « سلسلة يمكن أن تربط فيها خمســة ملايين من الناس » (١) • وأثناء بحث مجهد عن نسخة كاملة من جريدة المرشد المصري Le Moniteur Egyptien (وتكاد تكون سـجلا خطيرا يماثل التقارير الرسمية البريطانية (Blue Books) تعرفت ب « مسيو ليون جابلان M. Léon Jablin » الذي كان يوما ما رئيس تحريرها • انني لم آخذ منه فحسب ما أريده ، بل أمدني أيضا ، دون أن أسأله ، بالكثير من المعلومات الجديدة ذات القيمة بالنسبة لموكلي وقضيتهم • كان « مسيو جابلان » قد نشر في الربيع كتيبا ممتازا من تأليفه شرح فيه آراء وأهداف الوطنيين وكان عنوان كتيبه « مصر الحديثة «L'Egypte Nouvelle وكان جديرا بالقراءة حقا • عندما رأيته ، كان يبيع كل ما يملكه استعدادا لعودته الى وطنه ، وقال لي : « ان رياض باشـا وأنا لايمكن أن نعيش الآن في بلد واحد » •

وكان من حسن طالعي أيضـا أن التقيت ب « مستر ماك كولوج «Mr. M'Culogh » وكان دارسا ممتازا للغة العربية ، وواحدا من أذكى الموظفين في مكتب البريد المصري • لقد كان على وشك « الموت » عند جرد خيمة عرابي ، وكان عميق التأثر مما رآه من آلاف التلغرافات التي وجدت فيهـا والتي كانت أبلغ دليـل على ذيوع قضيته • ولم يكن « ماك كولوج » يؤمن ب « عرابي » على الاطـلاق حتى تلك اللحظـة ، أما الآن فلم يعد يعتقد فيه فحسب بل صار متحمسا أيضا للدفاع عنه • وباستثناء الخديو وأمه ، قل أن تجد رجلا أو امرأة من الأسرة الحاكمة لم يبعث له يعرض عليه مالا أو معدات للمعسكرات أو يبعث بتلغرافات أو خطابات مديح لزعيم الشـعب • لقد اطلع « ماك كولاج » على هـذه التلغرافات والخطابات ، بل انه نسـخ بعضـا منها ، وفيما يلي نموذج منهـا :

---

(١) اشارة الى تعداد سكان مصر في ذلك الوقت • (المحقق) •

من البرنس ابراهيم بالقاهرة الى عرابى باشا ، بكفر الدوار (١)

الى سعادة حامى حمى الديار المصرية احمد باشا عرابى ، اننى اقدم لسعادتكم أخلص واحر التحيات وتحياتى العامة ، راجيا أن تبعثوا بمثلها الى رؤساء الجيش والى كل الضباط والعساكر النابهين المهرة . اننى اقدم لكم تشكراتى الحارة والدائمة على خوفكم على بلدنا العزيزة التى هى اغلى ما فى الوجود عند المصريين جميعا . اننى مغتبط أن رجال بلدنا قدموا انفسهم بهدف الدفاع عنها ضد العدو . اننى اعزو هذا الى محاولاتكم الطيبة ، التى عززها النصر . اننى ادعو الله ان يديم عليكم سعادتكم ويتوجها بالنصر والسلامة وان يصلنى عنكم دائما تقرير عن صحتكم وسلامتكم وعن استمرار النصر حليفكم ، والهزيمة المنكرة للعدو الشرير . اللهم امنحنا النصر بشفاعة الرسول علية السلام ، انه الله هو العلى القدير .

« ابراهيم »

ومن خلال الاتصالات المفيدة التى كان يقوم بها « مستر روبرت أوليفانت Mr. Robert Oliphant » أحد كتبتنا ، التقينا بصورة مستمرة بـ « مستر جاروود Mr. Garwood » الذى كان حتى عهد قريب مدير حركة مرور السكة الحديد فى القاهرة والاسكندرية ، وقد حصلنا منه على كثير من التفاصيل بالنسبة لفردية الأسلوب الماهر الذى كان ينتهجه عرابى والذى أدى الى استتباب الأمن والسلام فى القاهرة حتى يوم هزيمته . وحتى أثناء الحرب كانت حسابات شركة السكة الحديد حتى ذلك اليوم مدونة بدقة فائقة ، ولم يوضع قرش واحد من الايرادات فى غير محله ، بل الى نفس هذه الدفاتر يمكن أن توضح فى النهاية أن « مصر كلها كانت مع عرابى » بالفعل كما كانت معه بالقول ، ولقد ضرب لنا « جاروود » أمثلة عديدة تدعم توكيداته ، فقص علينا قصة غريبة عن مغامرة حدثت له قبل بداية العداوات ، اذ قال :

« فى الليلة السابقة لتوجه عرابى الى الاسكندرية ، كنت أجلس مع « مستر أوليفانت » فى شرفة فندق شبرد عندما اقترب منا شخص تركى كان يتحدث الفرنسية وكان معروفا لنا على أنه من الشخصيات الطفيلية المترددة على مكاتب الحكومة ، طلبنا له مشروبا وانضم الرجل الى جماعتنا ، وبعد بضع ملاحظات عن الموضوع الذى كان يحتل اهتمام الناس وتتذاك ، قال لى شيئا فجأة : « ألا ترغب فى الحصول على مكافأة

---

(١) لم أعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ، ضمن وثائق كتاب برودلى المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى ، ترجمتها عنه بصورة تقربها من النص العربى . (المحقق)

في غير ما رحمة ، ووضعت مكانها ألواح من الخشب • انني أذكر جيدا كيف أخذني « علي فهمي » المسكين الى نافذة زنزانته التي كانت تطل على المربع الأوسط للمبنى ، وهو يقول لي : « ألا تريد أن تعرف أي لون من الناس يحكموننا ؟ تطلع هناك ! هل تريد أن تعرف كيف تنفق أموال مصر ؟ انظر هناك ! » •

وفي اليوم الذي أعقب بدء هذه الاستعدادات (٥ نوفمبر) قابلت مرة أخرى في طرقة السجن : « يوسف كامل » محامي « محمود سامي » • لقد طلب مني أن يزور موكله ، ولذلك اصطحبته معي الى الزنزانة التي كان ينزل بها • كان رئيس النظار السابق أقصر قليلا من الطول المعتاد ، كان شاحب الوجه ، ووجهه كاد يكون صورة مهذبة للوجه التركي (رغم أنه كان يدعي أن دمه مزيج من الدم المصري والتركي وأن أسرته استقر بها المقام في مصر على مدى ثلاثة أجيال على الأقل) ، ويبدو أنه كان يحس بموقفه الراهن بصورة واقعية تماما • كان اسمه الكامل « محمود سامي البارودي » ، والبارودي معناها صانع البارود ، وهي كنية فقدت معناها الآن • وفي تدقيقي في الشخصية الواهنة التي أمامي ، كان من الصعب علي أن أصدق القصة القاتمة التي يثيرها دائما أعداؤه ضده عن انتقامه لخطأ زيجي • كانت زوجته الثانية ــ وهي أميرة من الأسرة اليكنية تربطها قرابة من بعيد بالأسرة الخديوية ــ قد أظهرت أعمق الحب لزوجها أثناء محنته • « ومحمود سامي » في وضعه الراهن ، أملت عليه الحكمة أن يتبادل التحيات الرسمية مع كلا الطرفين • ولم تمضي عدة أسابيع حتى شاءت لي الظروف أن أعرف المزيد عن « محمود سامي » •

أنا الآن كثيرا ما أشاهد « اسماعيل أيوب » ، الذي استخدم الكثير من المراهنات ليغريني بأن أغير اجراءات المرافعة ، والذي فشل تماما في فهم معنى الاستجواب • وطبقا لاعتقاده الأمين ، أن شخصا في وضع اجتماعي وضيع أو شخصا « وطنيا » معينا قد يعامل معاملة مهينة سافرة ، في حين أنها تعتبر خيانة عظمى لو لم يعامل « الباشا » أو الـ « بك » في أي وضع من الأوضاع ، على أنه « مخلص » ويخاطب بلغة تدل على غاية الاحترام • لقد بدأ يتضح له أيضا ببطء ، أنه تبعا لقواعدنا الخاصة بالمرافعة ، أنه قد خول لنا الآن الحق في استجواب كثير من الناس عن المناصب الرفيعة ، بما في ذلك الخديو نفسه الذي قدم هو ، مع رياض وشريف ، تشهيرات مكتوبة ، من طرف واحد ex-parte ، ضد العصاة ، وكان من الواضح أن « اسماعيل أيوب »

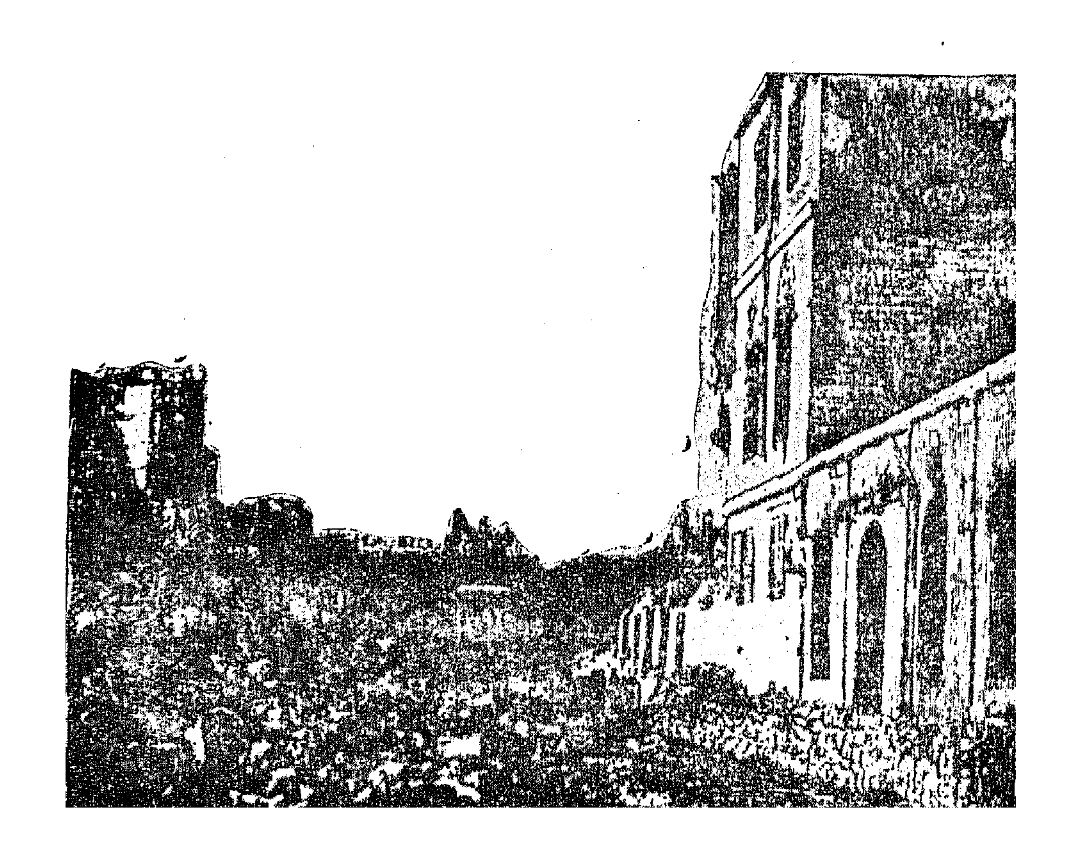
لم يكن مستريحا ٠ لو كان عرابى سيحاكم محاكمة عادلة ، فهو فى الواقع لايمكنه أن يفهم ، لماذا قدم الانجليز الى مصر بالمرة ٠

ولما كان القومسيون قد أصر على ألا يعلن عن انعقاده ، فلقد كان لزاما علينا أن نبدأ فى الاتصال ، لأننا لو لم نفعل شيئا ، لكنا واثقين من أننا سنتهم بالتأخير ٠ طلبنا أن يسمح لنا بأن نرى شهودا آخرين من بين المسجونين الذين اقترحنا استدعاءهم كشهود ، ولكن ما طلبناه قوبل بالرفض على الفور ٠ طلبنا متواضعين أن نعرف بموجب أى قانون سيحاكم موكلونا ، فكان الجواب ينحصر فى كلمتين «القانون العسكرى»٠ قدمنا طلبنا باستدعاء الشهود ولكننا لم نحصل على رد بأية صورة من الصور ٠

وفى يوم ٧ نوفمبر دعينا لاجتماع القومسيون ، وكان من الملاحظ أنه حتى القهوة والسجاير التى كانت تشكل كالمعتاد «فاتحة» للمناقشة ، عجزت عن أن تضفى أى جو ودى على سير المناقشات ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا تمر بعملية استجواب تهدف الى تحطيم قواعد المرافعة التى وضعناها ٠ كم سيطول استجوابنا للشهود ؟ ومن هو فعلا الذى سيطرح الأسئلة ؟ وتفسير من سيكون ملزما ؟ هل سيسمح للمسجونين بالكلام ؟ هل يمكننا أن نعترض على أن نقدم للقومسيون « أوراق عرابى » فورا ؟ أليس المسجونون فى انجلترا يدانون بعد استجواب بسيط ؟ لنفرض أننا أربكنا الشهود فى الاستجوابات ، ثم دفعهم « بوريللى » لأن يناقضوا أنفسهم عند اعادة استجوابهم ، فأية شهادة سيصدقها القومسيون ؟ وفى اليوم التالى ، قدمنا الى « اسماعيل باشا أيوب » ردا كتابيا حكيما صيغ فى أقصى لغة ودية ، مع التزام تام بالاتفاق الذى دخلنا فيه مع « بوريللى بك » الذى مثل فيه الحكومة المصرية ٠

وصل اليوم مترجمنا « مستر سانتلانا Mr. Santillana» الذى بقدرته العظيمة مقرونة بتمكنه التام من اللغة العربية ، اكتسب ثقة المسجونين ، بل انه أثار اعجاب القومسيون ، وصار على الفور متحمسا لمشاركتنا فى أعمالنا الدءوبة المتزايدة ٠

لقد حدثت الآن حادثة غير مستساغة : كان مدير الشرقية من الأقرباء المقربين لرياض باشا ، وكان قد أقصى مرة من منصبه ، فراوده الشك فى أن اثنين من كبار أهالى المديرية لهما يد ، الى حد ما ، فى تدبير اقصائه ، ولكن مالبث أن تنكس القدر لهذين الاثنين عندما عاد « فريد باشا » مديرا للزقازيق مرة أخرى ، فساء وضع الاثنين ، ولم يكن خصما « فريد باشا » سوى « أمين بك شمس » « وأحمد بك أباظة »



(شكل ٨) ـ صورة توضح آثار التدمير فى ميدان محمد على بالاسكندرية

(وكلاهما من أنصار عرابى الأقويـاء) ، وأودع كلاهما الســجن فى القاهرة ، اذ هل يمكن أن تفلت هذه الفرصــة النادرة لانتقام بسيط موات ؟ ، ثم رحل كل من « شمس » و « أباظة » الى الزقازيق وصارا تحت حنان رحمات عدوهما الســابق • أما عن أنهما ألقيـا فى السجن مكبلين فى زنزانة مظلمة بلا فراش ينامان عليه فهذا أمر لا ينكره أحد ، ولكن ذاعت قصة مؤداها أنهما أجبرا على تنظيف الســجن والا عوملا معاملة لا انســانية ومهينة لكرامتهما • وكان من بين الموظفين العديدين الذين يعملون عند « شمس » كاتب سورى يدعى « نيقولا كرمى » ، طالب بأن يتمتع بحقه كأحد رعايا بريطانيا باعتبار أنه حفيد آل كرمى Curmi أحد مواطنى مالطة Malta • كان كرمى فى داره فى بيروت أثنـاء

الاضطرابات الأخيرة ، فلما عاد الى الزقازيق وجد سـيده فى السجن وأسرته يخيم عليها الحزن والأسى ، وكانوا جميعهم ينتابهم الذعر بحق •

سمع « كرمى » عن تولينا الدفاع عن « عرابى » ، فصمم على أن يرى اذا كان فى استطاعتنا أن نفعل شيئا لتخفيف الحكم على سيده ، وبناء على رغبة أسرة « شمسى » جاء الى القاهرة • وبعد ظهر يوم ٨ نوفمبر ، زارنا ليعرف اذا كان فى اسـتطاعتنا أن نتولى الدفاع عن عن « شمسى » • لقد تعقبته الجواسيس بعد انصرافه من عندنا وألقت القبض عليه بتهمة اثارة الفتن ، وبالرغم من انه مسيحى وأحد رعايا بريطانيا ، وبالرغم من أنه كان متغيبا عن البلاد أثناء الحرب ، فقد أرسل فورا بالقطار الى الاسكندرية ، ورحل الى بيروت باعتبار أنه مشاغب سياسى خطير ، وفى اليوم التالى تلقينا تلغرافين يائسين من « كرمى » المسكين وهو فى طريق رحلته القهرية نحو الجنوب ، ولم يكن فى استطاعتنا أن نفعل شيئا ، ولم يكن فى استطاعة « سير ادوارد ماليت » (وهذا ما كان يؤسفه ، على ما أعتقد أن يتدخل فى حق الخديو المطلق Khedivial prerogative فى طرد الأشخاص المشتبه فيهم ، من بلاده •

لقد بدت آمالنا قاتمة تماما • لقد صار قومسيون التحقيق معاديا لنا بصورة علنية ، ويبدو أنه كان مصمما على أن يفرض علينا اجراء من وحيه هو ، اذ أن « بوريللى بك » الذى كنا قد وصلنا معه الى اتفاق ، بدا أنه يميل بشكل واضح لأن يفعل شيئا ، ولو قليلا ، ما أمكنه ذلك ، بالقضية ، وكان كل ما استطعنا أن نحصل عليه هو سجلات الدعوى ، حصلنا عليها على دفعات بسيطة ، لمنع أى فحص عام للقضية • لقد تحطم موقفنا الى حد كبير من جراء الارهاب المتعمد الصريح الذى اقترف فى حق « كرمى » • وبدا الشعب فى انجلترا على استعداد لأن يثير هياجا للتأخير الذى عزى الى رغبتنا فى الدخول فى مجادلات لا طائل تحتها • وازاء ما كاد يتملكنا من يأس ، حررنا الخطاب التالى الى جريدة « التايمز » :

الى رئيس تحرير التايمز :

سيدى ، ــ حتى نحول دون سوء فهم خطير فى انجلترا ، فاننا نتجاسر ونرجوك ان تسمح لنا ان نقول بضع كلمات عن موضوع المحاكمة المقبلة : يبدو ان شعورا أو آخر قد قام فى انجلترا ان العصيان هو ذاته لم ينكر نفسه وان الصعوبة الوحيدة هى التصرف النهائى مع الشخصيات القيادية له • اننا نأسف لأن واجبنا لا يسمح لنا ان نتعجل نفس التسوية التى لها أهميتها البالغة بالنسبة لمصر ، بقبول هذه النتيجة •

ان المسجونين لينكرون انه كان هناك عصيان بمعناه القانونى ، اذ هم يقـولون ، وسيبرهنون ، لو سمح لهم بذلك من بيدهم الأمر ، أن الباب العالى قد اقر اعمالهم من

ستقع على كاهلهم بصورة اساسية مسئولية مستقبل مصر ليعرفوا الحقيقة كاملة وليتعرفوا على الأحداث الراهنة وليتعجلوا مجرد محاكمة شكلية لا لشيء الا لأن « عرابى باشا » يقع حجر عثرة فى الطريق .

ونحن يا سيدى خادماك المطيعان

أ.م. برودلى

المحاميان

مارك ف. نابير

القاهرة فى ٨ نوفمبر ١٨٨٢

[فى نفس ذلك المساء وصل لورد دافرين الى القاهرة]

مجيء لورد دافرين

بالرغم من الصعوبات التى سردناها فى الفصل السابق ، الا أن انقشاع السحب من وقت لآخر كان يساعد فى ادخال البهجة علينا وسط متاعبنا ، وكان كثير وكثير من الشواهد التى فى صالح عرابى على وشك الظهور . لقد حصل « مستر نابير » على بعض الأدلة القيمة للوقائع التى أعقبت ضرب الاسكندرية ، بل لقد اعترف لنا « ويلسون بك Wilson Bey » ، وهو مهندس حكومى ، بأن الأسلوب الذى اتبعه عرابى فى حراسة داره (أى دار ويلسون) كان أسلوبا يفوق كل مدح ، بينما كان رؤساء طائفة دينية أو طائفتين دينيتين ، كانوا على استعداد للاعتراف بالمعاملة النموذجية الطيبة التى عوملوا بها أثناء الحرب .

بل ان الاهتمام المكثف بالمحاكمة الذى كان يحس به ، قد أخذ فى التناقص بصورة ملموسة فى وجود الاثارة التى سببها ايفاد « لورد دافرين » الى مصر ، فلقد كان الخديو ونظاره على علم تام بأن لورد دافرين كان قد أحبط دبلوماسية « قصر يلدز » الملتوية ، ومن ثم فقد كان قدومه المنتظر الى مصر مبعث خوف وارتعاد . ووسط التوقعات العصبية السائدة ، أعتقد أنه ، حتى « اسماعيل أيوب » قد بذل جهده ليعطى أعضاء القومسيون الشديدى الاجهاد ، فرصة قصيرة ليستريحوا فيها وليروا أى اتجاه ستتخذه الأمور الآن . ويبدو أن ايفاد « لورد دافرين » الى مصر ، الذى لم يكن متوقعا على الاطلاق ، كان وقعه كوقع « دش سياسى «political shower-bath » على مختلف الأحزاب المتنافسة ، التى صار كل منها يأمل فى بعض النفع من الوضع الجديد المتطور للأمور ،

والذى كان على وشـك أن يفتتح تحت رعاية aegis انجلترا . كان الخديو ، قبل كل شىء ، قلقا وغير مستريح نفسيا ، لأنه أحس بأن لورد دافرين لابد أنه عرف القـــدر الكبير جدا عن هدف القسطنطينية من المؤامرة التركية البالغة التعقيد التى تحاك حول مصر . لقد قرر « نوبار باشا » أن يسرع بالعودة الى البلد الذى تبناه ، ليفتن سيادة اللورد بأحاديثه السطحية المعادة عن النظم المالية والاصلاحات القانونية . لقد كان « رياض » و « شريف » (وهما ناظران على النقيض من بعضهما البعض) قلقين ليريا على أى منهما سيقع الاختيار حتما ، بينما « الوطنيون » المقهورون فى زنزاناتهم ، كانوا يثقون فى حماس فى أن بعض العدل وبعض الراحة النفسية لهم ستكون نتيجة لقدومه .

وفى وسط هذا الصخب من التفكير ، اتخذ لورد دافرين ، فى هدوء ، قصر اقامته المؤقت فى قصر النزهة المموه بالذهب ، فى نهاية ميدان شبرا الظليل ، وعاش فى نفس الغرف التى نزل فيها جيلان من أعضاء الوفود التركية خلال الاثنى عشر شهرا الماضية .

وفى واحدة من هذه الغرف استقبل لورد دافرين : « مستر نابير » وأنا ، صباح يوم ١١ نوفمبر . لقد أتاح لى على الفور الفرصة الكاملة لعرض قضيتى . وبعناية رويت كل حادثة حدثت منذ يوم قدومنا حتى لحظة هذا اللقاء . لقد أنصت فى صبر بالغ الى كل ما كان على أن أقوله ، وهو ، كخبير دبلوماسى ، لم يقل الا القليل جدا هو نفسه ، وعند ذلك احسست ، وأنا مقتنع كل الاقتناع ، أن « الوطنيين » لم يعودوا فى حاجة بعد لأن يقنطوا من أن العدالة ستأخذ مجراها .

وبعد ظهر اليوم التالى ، تلقينا (ردا على التماس من التماساتنا العديدة) ثلاثة طرود ، كنا متأكدين أنها كانت تحوى كل الأوراق التى تخص كلا من « عرابى » و « يعقوب سامى » و « أحمد رفعت » ، وعلى الفور طلبت من « عرابى » أن يحدد أيا من الوثائق يعتبر أهميتها فى الدفاع عنه ، فتبين أنه لم يكن فيها ما يهم ، اذ كانت تحوى خطابات وتلغرافات ، الخ ... تماما كما وصفها « مستر ماك كولوج » ، كانت أشبه بشكل أو بآخر ، بأوراق مسافر رتبها كيفما اتفق بعد تفتيشه فى منطقه مدور in transitû ، وأما الباقى منها فكانت لا تقل عنها فى عدم جدواها . وكان « عرابى » يلتزم دائما بصمت البسالة البالغة ازاء الفرنسيين الذين كانوا متعاطفين معه ، ولكن من بين الأوراق التى قدمها لى أعضاء القومسيون وجدت بمحض المصادفة ، خطابا غريبا مؤرخا بتاريخ يسبق شهر يونيو ببضعة أيام ، كتبه « فوازان بك Voisin Bey»

وهو قد كان ، فى خدمة الخديو ، يصف نفسه على أنه « ضابط بحرى سابق ancien officier de marine » ، ذكر فى خطاب لـ « عرابى » أنه كان على ظهر احدى السفن الحربية الفرنسية المدرعة ، وأنه قابل أميرالها وهو الآن فى وضع يؤكد فيه لـ « الوطنى المخلص المدافع عن بلاده » أن الأسطول الفرنسى لم يأت الا ليراقب تحركات الانجليز ، وليست به نية على الاطلاق لمهاجمة المصريين · ويقول « فوازان بك » انه لم يعدم وسيلة أن يعرف الضباط الفرنسيين بالوضع الحقيقى للقضـية و « السلوك الباسل لزعيم الشعب المصرى » · وهكذا نجد فى خطاب « فوازان بك » مثلا صادقا لأولى ثمار المعاهدة الانجليزية الفرنسية ·

ولقد شهد اليوم التالى بداية العام الهجرى الجديد عند المسلمين ، بداية القرن الرابع عشر الهجرى · ومن عادة المسلمين أن يستبشروا خيرا ببداية كل عام هجرى جديد ، ولكن فى الظروف التى كانت تمر بها البلاد ، لم يكن حتى صوت أى نبوءة ليلهب الحماس لسماعها فى القاهرة · لقد فكر قومسيون التحقيق أنه من المناسب أن يسجل التاريخ باستصدار منشور manifesto ، فأرسل الينا ما يمكن اعتباره لائحة ، استبدل فيها قواعد جديدة تماما ومبتكرة عما سبق الاتفاق عليه بيننا وبين « بوريللى بك » ، وفيما يلى ملخص موجز لنصوصها : ــ سيستأنف التحقيق فى أية حالة يوم ٢٥ نوفمبر ، والقضية ككل ستضم الاستجوابات وتقديم المستندات ويجب ، تحت كل الظروف وبدون أى عذر محتمل ، أن يستكمل فى مدى ثلاثين يوما ، ويمكن للمحامين أن يستجوبوا الشهود ، فقط ، من خلال الرئيس الذى يمكنه أن يرفض أى سؤال يعتقد أنه غير مناسب ، والمتهمون يمكنهم فقط أن يعينوا محامين عنهم وذلك بعد استكمال الاستجواب الابتدائى ، ويجب على محامى الدفاع أن يسلموا مستندهم الوثائقى الى قومسيون التحقيق قبل استكماله لأعماله ·

ولم يكن فى الامكان تجاهل معنى مثل هذا التغيير الأساسى للجبهة · لقد صار عمل ما يقرب من شهر بأكمله بلا نتيجة ، لأن نفس الأمل فى محاكمة عادلة قد صارت أمرا مشكوكا فيه ، وازاء ذلك ، لم يكن فى وسعنا أن نفعل شيئا سوى أن بعثنا بردنا التالى الذى يحمل احترامنا (١)

---

(١) القاهرة فى ١٢ نوفمبر ١٨٨٢

الى سعادتلو اسماعيل باشا أيوب ، رئيس قومسيون التحقيق الابتدائى

يا صاحب السعادة ،

نود أن نحيط علم سيادتكم باننا تسلمنا رسالتكم المؤرخة بتاريخ اليوم ونحن نتعجل منحيطكم علما أنه بالنيابة عن موكلينا ، ومع احترامنا البالغ لكم ،

الى « اسماعيل أيوب » ، ونوجه أنظار لورد دافرين الى الموضوع ٠ وقد أعقبنا خطابنا الى رئيس القومسيون باتصالات أخرى ، موجهين أنظاره الى مختلف التساؤلات التى تركها بلا اجابة عليها ودوافعنا الى اعتبار أن « قواعد المرافعات » وحدها ملزمة ورسمية ، والتى يمكن أن نعترف بصراحة أننا ندين بها الى « الخبرة العظيمة وروح الوفاق والاستبصار القانونى المعهود فى سعادتلو « بوريلى بك » ٠

وفى الوقت نفسه ، استمر موكلونا يعملون فى اعداد دفوعهم وهم لا يشعرون تماما بالعاصفة التى كانت تثار حولهم ٠ وقد جمع « الشيخ محمد عبده » ، لصالحنا ، تحليلا ذكيا لجريدة « الوقائع الرسمية » ، التى كان رئيسا لتحريرها ، وزودنا بالقدر الكبير من المعلومات عن الأيام الأولى للحركة الوطنية ، وفى صورة جلية واضحة وصف كيف صار « عرابى » البطل الشعبى لمصر ، وكيف أن الوفا من الآباء المصريين سموا أبناءهم باسمه ، فى الوقت الذى أضحى فيه اسم « توفيق » من البلاد ٠

ولأسباب ، سأذكرها الآن ، صار « رياض باشا » أكثر جرأة وأكثر تعويقا ، حتى أنه رفض أخيرا ، فى ١٤ نوفمبر ، دخولنا الى كل موكلينا فيما عدا « عرابى » ، بدعوى أنه وصل خطاب مجهول يذكر أن بعض كتبتنا كانوا مستمرين ، بدون علمنا ، فى تيسير الاتصال بين بعض المسجونين وأصدقائهم بقصد اثارة انتفاضة شعبية ، على أنه ، بعد ذلك ، تدخل « سير تشارلز ويلسون » على الفور ، نيابة عنا ، واقترح رفع الحظر .

فاننا نرفض قبول البنود الواردة فى رسالتكم باعتبار أنها تختلف تماما عن الترتيبات التى توصلنا اليها مع سعادتلو « بوريلى بك » نيابة عنكم ونيابة عن حكومة سمو الخديو ، حتى يكون فى استطاعتنا أن نقدم البراهين اذا طلب منا ذلك ٠

اننا نأسف غاية الأسف لأن احساسنا الشديد بواجبنا تجاه موكلينا ، يملى علينا ، لذلك ، أن نقف مثل هذا الموقف ، ونسجل رفضنا التام لما ورد فى خطابكم من بنود ، من أجلها ، نرفع الأمر ، وكلنا ثقة ، الى أسمى احساس بالعدالة ، الى صاحب السمو الخديو ونظاره الذين بموافقتكم (وبموافقتكم وتبنيكم للموضوع) أعطوا قوة قانونية للاتفاق الذى أبرمه نيابة عنكم سعادتلو « بوريلى بك » ٠

ونحن يا صاحب السعادة

خادماك المتواضعان

(توقيع) أ٠م٠ برودلى
مارك نابير
المحاميان

ولقد حدثت أحداث جديرة بالأهمية فى السجن فى ذلك اليوم . لقد قص علينا « عرابى » حلما غريبا حلم به أثناء الليل أفزعه بعض الشىء ، ونظرا لثقتنا فى « عرابى » لم تثر فينا الضحك روايته لحلمه . لقد كان عرابى مصريا واسع الاطلاع ، قديرا ، ومصريا موهوبا ، وهذا صحيح ، وهو مصرى ولا أكثر من ذلك . ويعتقد الشرقيون دائما ، فى كثير أو قليل فى الرؤى ، منذ أيام شاءول Saul (١) وداوود David اللذين كانا شخصيتين فى زمنهما . وليست هناك غرابة فى أن يتحدث عرابى عن حلمه ، لقد حلم أنه فى الليل هاجمه ثعبان ضخم ، وهو فى زنزانته ، وكان رأس الثعبان كهيئة السلطان عبد الحميد وذيله على هيئة الخديو توفيق ، وأخيرا قتله عرابى بسيفه . لقد هز هـذا الحلم كيان عرابى تماما .

وقد حدث مشهد غريب فى زنزانة « عبد العال » . لم يكن أمرا أقل من محاولة اجرامية خطيرة . منذ عدة أشهر كان حارسه ، وهو شاب جركسى يدعى « محمد حسنى » (وكان قد اعتاد فعلا أن يصطحب « سعيد » ، ابن عبد العال الصغير ، الوصى عليه ، فى زياراته لمكتبنا) قد اكتشف متلبسا بمحاولته وضع السم للباشا فى فنجان الشاى الذى كان يتناوله فى المساء . وقد تأجلت قضية السجان بصورة أو بأخرى ، وفجأة استكملت ، وقرئت قوائم طويلة بالشهود وأخيرا حكم عليه أثناء انعقاد الجلسة céance tenante ، بالحبس احدى عشرة سنة يقضيها بالقرب من النيل الأبيض . وفى اليوم التالى زارنى رجل عظيم جدا ، شخص يدعى « حسين باشـا » (أحد أعضـاء المحكمة العسكرية) زارنى وقال لى أنه عين وصيا على الشاب اللطيف ، بدلا من « عبد العال » ، وبناء على توجيه من موكلى ، ذهبت بعد ذلك الى منزل « عبد العـال » وفتحت خزينته وأخرجت منهـا ٣٠٠٠ر٣ جنيه مصرى سلمتها لوكيل « حسين باشا » . وقد رجانى الحارس ، وكان لا يزال طليقا ، بلا جدوى ، أن أعطيه عشرة جنيهات لنفسه ، لأنه كان يقول فى صدق واضح ان هذا المبلغ هو المحتمل تماما أن يكون كل ما سيراه من ماله .

وفى طرقة السجن ، بعد ظهر ذلك اليوم ، التقيت بـ « اسماعيل أيوب » . لقد أراد أن يفهمنى أنه لم يكن يحمل حقدا أو ضغينة ، وكان يدعو الله فى حماس أن تسوى خلافاتنا كلها تسوية دبلوماسية بصورة

---

(١) أول ملوك اسرائيل . (المحقق)

أو بأخرى وفى هذه الأثناء ، صعد مسجونان اثنان السلالم فى حراسة مشددة ، وكان الاثنان هما : « سليمان بك سامى » و « حسن موسى العقاد » ، الذى كان قد قدم ذلك اليوم من جزيرة كريت Crete ان المحنة الكبرى لمصير عرابى قد حلت ، ولكن حلمه ثبت أنه فأل حسن على أية حال .

بمحاكمة محايدة • اننا لا يمكن أن نقبل احتمال أية مغالطة فى الموضوع — ان انجلترا والشعب الانجليزى هم قضاتنا الحقيقيون • اننى لا أخشى أن أتكلم بصراحة الآن •

ان الأوربيين مخطئون خطأ ذريعا لأنهم يحاولون أن يفهموا الشرق فى ضوء أفكار وصلت اليهم من فترة سابقة ، خلقها لون مختلف من التعليم كما خلقتها ظروف اجتماعية مختلفة اختلافا عريضا ، ولهـذا السبب سيظل الشرق غامضا بوجه عام — سيظل كتابا مختوما ؛ بل ان بعض الكتاب ليتخيل أن الفوارق السياسية كتلك الفوارق القائمة بين أحزاب « المحافظين » و « الليبراليين » و « الراديكاليين » لها وجودها فى مصر حين أنه ليس هناك سوى حزب سياسى واحد سواء فى هذا البلد أو فى الشرق — اننى سأدعو هذا الحزب « حزب المتعطشين للعدالة le parti des affame's de justice الذى ينتمى اليـه الرجال الأمناء من كل الطبقات حتى أصغر الفلاحين المزارعين بل وحتى الفلاحين أنفسهم • وتبعا لتنوع ذكائهم ، كلهم راغبون فى المشاركة فى الفوائد التى تعـود على مثل هذه التنظيمات السياسية التى تمتلكها أوربا : أن يحكمهم العدل والمساواة وأن يشهدوا ادارة أمينة بعيدة عن الفساد ، تضع حدا لسـوء استخدام السلطة ، وتحس بأقل احساس ممكن بمعانقة « الكورباج » لأبدانهم • ان « المتعطشين للعدالة » يطلبون باختصار الأمن لأرواحهم وشرفهم وممتلكاتهم •

« هذا التعطش للعدالة هو الفـكرة الكبرى التى تملـكت قلوب الشرقيين ، طالما أن المعالم القديمة التى حطمها الزمن قد صارت عاجزة عن حمايتهم من المضايقات ومن الطغيان ، ولكن الحاجة الى أية تنظيمات شعبية حقيقية مقرونة بعدم وجود محاكم تمارس عملها بالعدل ، وبقوانين عادلة ، قد أضعفت الفكرة السياسية التى حاولت وصفها وحصرتها فى أنها رغبة شديدة الحياء «sentiment très timide» » •

« لقد بدت كما لو كانت نجما فى الشـتاء ، حالما تظهر سرعان ما تختفى بين السحب ، وكان أول برهان ملمـوس على وجودها هو اصدار السلطان عبد المجيد لفرمان Hatt Hamayun of Gulhané الذى ضمن لرعايا الامبراطورية أمن الحياة والشرف والملكية ، وعندما امتد العمل به فى مصر ، رغم معارضة « سعيد باشا » ، صارت « الرغبة الحيية » أكثر جرأة ، وبدأت زيادة الاتصال بأوربا والأوربيين تخلق فى المصريين احساسهم بوطنيتهم •

« واعتلى توفيق العرش ، مع كثير من التصريحات عن نواياه فى

افتتاح عهد جديد من الأعمال ليكون عهد حكم دستورى حازم • ولكن المظهر الخادع للتنسيق والرخاء ما لبث أن حجب نوره خطئان كبيران ـ الحل الجائر « لمشكلة المقابلة » (١) ثم الافراط فى توظيف الأوروبيين • والمصرى لا هو لئيم ولا هو بالمتعصب • انه لا يكره الأوربى الذى يرى فيه لونا من التفوق ، ولكن لو أن المصرى نحى عن الطريق فى استخفاف ولو أن أوربيا منح أجرا يفوقه مرتين أو ثلاث مرات أو حتى أربع مرات على أدائه عملا (من المفروض أن يؤديه مصرى) أو بالأحرى على دفعه مصريا لأداء عمل مصرى لأنه (أى الأوربى) قد أؤتمن على أدائه ، ولا يشكر المصرى على أدائه ، لا يثور المصرى (لأن المصرى لن يثور أبدا) ولكنه سيصب شكواه فى أذن صديق قائلا : « ياله من ظلم !!
«quelle injustice !

ثم جاء طغيان وسوء ادارة « عثمان باشا رفقى » ناظر ديوان الجهادية الذى دبر لاطلاق اسم « الجركسى Cirassian على الحزب الذى أقامه قسرا ، وأما « رياض باشا » ، فقد كان مما يسعده أن يوقف تيار التبرم ما أمكنه ، ولكن الوقت كان متأخرا جدا الآن • ان المظالم العسكرية العميقة الراهنة ما لبث أن انضم اليها بالمثل الطوفان القوى لسوء معاملة المدنيين وهما معا شكلا المرحلة الأخيرة للوطنية المصرية • ان اعلان مطالب الجيش Pronunciamento فى فبراير (٢) الذى نجم عنه فسقط تغيير ناظر النظار أعقبه أعلان سبتمبر (٣) الذى جر الى سقوط النظارة بكاملها • وفى الفترة الزمنية بين الأحداث كان شعور السخط الذى عم الجيش قد ضخمه اكتشاف مؤامرات معينة من جانب « يوسف كامل باشا » مدير الدائرة الخاصة ليغرى ضباط آلايه للتخلص من أميرالايهم عبد العال (٤) •

---

(١) كان قانون المقابلة يعطى للمزارعين دافعى الضرائب مقدما الحق فى الاعفاء من نصف المربوط عليهم من الضرائب ، فلما الغى هذا القانون ، كان معناه مصادرة أموال المزارعين الذين ادوا نصف المربوط عليهم فى الضرائب للحكومة ، الأمر الذى ألحق بهم خسارة كبيرة ، تدرها مستر كى Keay فى كتابه « نهب المصريين Spoiling the Egyptian (ص ٤٩) بما يصل الى ١٧ مليون جنيه ، هذا بالاضافة الى ما تكبده هؤلاء المزارعون من دفع ضرائب عن الأراضى المصادرة بلغت ١٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا ، حصلت من ما يقرب من مليون مزارع لتدفع الحملة أسهم قناة السويس الأجانب !!

(٢) فى هذا التاريخ (٢ فبراير ١٨٧٩) ثار الضباط فى عهد الخديو اسماعيل على نظارة نوبار • (المحقق)

(٣) تاريخ هذا الاعلان هو ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وكان ذلك فى عهد الخديو توفيق • (المحقق)

(٤) تبرهن الأوراق التى أعطانيها « عبد العال » ، على وجود هذه المؤامرة • (المؤلف)

حين أن الجمعية الثانية ، واسمها « التوفيق الخيرية » ، كان يرأسها ابن الخديو الأصغر ، وكان نائب الرئيس : رئيس النظار الجديد ، محمود باشا سامى ، وبالرغم من أن النقاش السياسى كان محظورا طبقا للوائح ، الا أن هذين المكانين الملاذين ، صارا الآن (وبعلم السلطات الكامل بذلك) مشهدا لسلسلة أعياد fêtes زاهية ، فيهـا تلقى خطب فى اثر خطب ، خطب تصور فى ألوان حية العهد الجديد المقبل على مصر ، وحرية دخول المصريين كافة المناصب الحكومية ، واقتراب نهاية التدخل الأجنبى والاستعلاء الاجتماعى · لقد فتن المصريون بالآمال التى كانت تنتظرهم ، وأفسحت الرغبة الحيية sentiment timidc المجال لأمل أكثر وثوقا منه · لقد أخذت جدران قاعات الاجتماعات تردد مرارا وتكرارا عبارة « عاش الخديو » ·

« بدت النظارة الجديدة التى رأس فيها « عرابى » نظارة الجهادية ، بدت ، أكثر حل ملائم للمشكلات القائمة · لقد صوره من لا يعرفونه على أنه ثائر ناجح يكره العنصرين التركى والجركسى ، أما من كانوا يعرفونه فقد رأوا فيه مدافعا عن نفس فكرة العدالة · لقد صار اسمه فى بضعة أشهر راية ، كل من الجيش وكبار رجال البلاد على استعداد لأن يلتفوا حولها · كانت قلة من الناس لهم علاقات وطيـدة ب « عرابى » أكثر منى لقد أعلنت ، من غير ما تردد ، أننى كنت أراه رجلا أمينا مستقيما ، مكرسا جهوده تماما لوطنه ولعقيدته · لم يكن عرابى لا دبلوماسيا عظيما ولا سياسيا عبقريا ، ولم تكن عنده القدرة ، وهو القائد العسكرى ، ليقاوم القوة العظمى لبريطانيا ، ولكنه كمصرى أمين حقا وغير طموح حقـا ، كان قادرا على أن يقود أبناء بلده فى حربهم الصليبية من أجل العدالة ·

« اننى أذكر جيدا أول مساء بعد تشكيل النظارة الجديدة ، عندما تقابلنا جميعا فى دار « محمود سامى » · عرض « بوريللى بك » مشروعا خططه ليكون برنامجا للنظارة ، وفيه تجنب ببراعة المشكلة الحاسمة ، مشكلة الميزانية ، وكان « عرابى باشا » يجلس قبالته ، فأظهر بوضوح الأهمية الحيوية لهذه المشكلة من وجهة النظر المصرية ، وعدلت مسودة المشروع بناء على رغباته ، وبذلك أقره الخديو ·

« وسارت النظارة فى طريقهـا على ما يرام حتى حدثت المؤامرة الجركسية التى بدت أنها قلبت فجأة كل شىء رأسا على عقب ؛ اننى أعنى بها المؤامرة المفتضحة لوضع السم فى طعام « عبد العال » عن طريق حارسه الجركسى الشاب المدعو « حسنى » ، وأعقب ذلك مؤامرة على معيار أكبر ضد « عرابى » ، ولم أكن حاضرا جلسات المجلس (العسكرى) التى

توقش فيها الموضوع ، ولكننى أعددت ، بعد ذلك ، مسودة ملتمس طالب فيه النظار أنفسهم بتخفيف الحكم .

« وصارت العلاقات بين الخديو والنظارة : باردة ، وكان من الصعب تجنب صدع مكشوف . ولقد دونت بمهارتى الوظيفية ، تسجيلا لعديد من المناقشات الحادة ، ودبر وفاق بطريقة أو بأخرى ، عندما حدث ما أثار فزعنا (يوم ٢٥ من مايو) عندما قدم القنصـلان الفرنسى والانجليزى مذكرتين متماثلتين ، يطلبان فيها : ابعاد « عرابى » عن مصر ، واقالة النظارة . وطبقا لأوامر رؤسائى ، أعددت ردا مناسبا أملوه على ، ورفعه « محمود سامى » و « مصطفى فهمى » الى الخديو . ولمدة طويلة ، كان واضحا أن « توفيق » مصمم على أن يضع ثقته فى أوربا وأن يتخلى تماما عن القضية التى كان متأثرا ، بل وكاد يكون فخورا بتأييدها ، ويطحن ذات المطامح والآمال التى كان هو نفسه قد أسهم فى الحض عليها . ولقد صممت النظارة على رفض المذكرة فى الوقت الذى قرر الخديو قبولها . ولقد كان هناك حل وحيد ممكن وهو استقالة النظارة ، ومع ذلك ، فلقد ساند الرأى العام « عرابى » بـكل قوته حتى أنه أعيد تعيينـه ناظرا للجهادية بعد ذلك بيومين ، وبناء على طلب القنصليين العاملين : تعهـد بضمان الأمن العام .

« وبعد ذلك بأسبوعين ، جاء درويش باشا (١) الى مصر .

« وفى العاشر من يونيو ، أرسـلونى الى القصر ، حيث وجدت صاحب السمو مع مستر سينادينو M. Sinadino الصراف ، وسـالا باشا Sala Pacha مدير ادارة حظر تجارة الرقيق . لقد ذكر لى سموه أن هذين السيدين هما شاهداه ، وطـلب منى أن أقدم له ما يدل على وفائى ، أن أعطيه السجل الرسمى لمحضر اجتماع مجلس النظار الأخير ، الذى سبق أن أشرت اليه . عند مغادرتى القصر ، أخذت أفكر أن فى تحقيـق هذا المطلب سيشكل ما يقرب من أن يفقـدنى ثقة رؤسـائى السابقين ؛ فتوجهت لزيارة « عرابى » ، باعتبار أنه الوحيد فيهم الذى لا يزال فى السلطة ، وأخبرته بالأمر الذى تلقيته . فى تلك اللحظة ، كانت الوثائق المعنية فى حوزتى ، فقال لى عرابى اننى يمكننى أن أعطى الخديو صورة موثقة ، ولكنه (أى عرابى) سيعتبرنى مسئولا رسـميا لو أننى تخليت عن الأصول التى كانت تشكل السجل الوحيد لمسـلك النظارة ؛ ونتيجة لهذه التعليمات ، كتبت لسـكرتير الخديو أشرح له

---

(١) انظر الصفحات التالية .

الاجتماع الأخير (اجتماع الداخلية) على ارسال وفد وطنى الى الاسكندرية للتأكد من حقيقة الأمور ، وفى حالة ما اذا لم يكن الخديو ونظاره مسجونين فعلا ، يطالبهم الوفد باستكمال مهام وظائفهم فى القاهرة ، وقد أرسلت نسخة من هذا القرار ، تلغرافيا ، الى القسطنطينية ٠

« وقبل التأكد من كل شيء تأكدا تاما ، ذكرت تلغرافات وخطابات واردة من عرابى باشا أن الخديو (الذى كان فى تلك اللحظة اما سجينا أو لاجئا) قد عزله من منصبه ، كما أنه ألغى قرار الحرب ، التى كانت فى الحقيقة مستمرة ٠ لقد طلب عرابى أن يعرف رغبات البلاد فيما يتصل بالطريق الذى ينبغى عليه أن يتبعه ٠

زاد عدد حاضرى الاجتماع زيادة ملحوظة عمن حضروا الاجتماع الأول (اذ حضره حتى أمراء العائلة الخديوية والبطارقة ورؤساء مختلف الطوائف الدينية ، الى جانب كبار رجال الدولة) وقرروا تأييد « عرابى باشا » ضد ارادة الخديو الذى كان يعمل مخالفا للشرائع المدنية والدينية لحكم الاسلام ، وأن تستمر الاستعدادات للحرب حتى يصل رد من السلطان الذى أرسل اليه تلغرافيا بتقرير رسمى procès-verbal عما اتخذ من اجراءات ٠

« وبعد هذا الاجتماع ، لم تظهر أبدا أية اختلافات فى الرأى ، ولم يكن عرابى فى أعين المصريين يعدو أكثر من خادم للبلاد ومدافع عنها — كان ممثلا لخمسة ملايين من النـــاس الذين كانوا يقـاومون غزو أرض أجدادهم ضد جيش أجنبى ، بل ان الأشخاص الذين كانوا يعارضون وجهات نظره يوما ما ، شاركوا تماما الرأى العام ، بل اننى لأذكر أن « يعقوب باشا صبرى » ، الذى كان يوما ما مملوكا من مماليك « عباس باشا » ومواليا شديد الولاء و « توفيق » ، أنه كان يقول صراحة أنه « حتى وقت ضرب الاسكندرية كنت دائما الى جانب الخديو ضد عرابى ، ولكن الآن بعد أن انحاز الخديو الى الانجليز ، فانه ليس من صـــالح المسلمين أن يبقوا عليه (يقصد الخديو توفيق) بعد اليـوم ٠ » وفى اجتماع عند « حسين الدرملى » سألت مرة ، قاضى قضاة القـــاهرة (الملا أفندى) (١) حول نفس النقطة فأجابنا بتوكيد تام أنه « لا الخديو فحسب ، بل السلطان نفسه ، يدين بوضعه كحاكم وخليفة ، لارادة شعب الامبراطورية » ٠

« ان الحماس الذى أظهرته كل طبقات الشعب من الأمراء والأميرات

(١) هذا هو اللقب التركى الذى كان يطلق على قاضى القضاة ٠ (المحقق)

حتى أصغر الأطفال ، ليتحدث عن نفسه • وان سجلات الحكومة لتنهض دليلا لا تدحض على هذا الموضوع ، بل ان هناك أيضا ، بالفعل ، موظفين حكوميين فى استطاعتهما أن يقولا الكثير عن ذلك ، أما أحدهما فهو : « خليل بك عفت » الذى لا يزال مديرا لمديرية المنيا ، وكان أول من أرسل تعزيزات ومؤن من القمح ، وقد فعل هذا مع حماس شديد وكفاءة بالغة ، حتى أنه صدر منشور بالجريدة الرسمية بمساندة عرابى ، واعتبار « خليل بك عفت » مثلا ونموذجا للوطنى الحق ، أما المثل الثانى ، فهو « عثمان باشا غالب » الذى هو اليوم رئيس ضبطية القاهرة ، والذى كان منذ ثلاثة أشهر مضت ، تقريبا ، مديرا لأسيوط ـ أرسل ١٠٫٠٠٠ أردب من القمح الى معسكر عرابى • وفى كل مسجد وفى كل بيت فى مصر ، كان المصلون يدعون يوميا راجين التوفيق لقواتنا ، بل ان « اسماعيل باشا أيوب » صحبنى الى كفر الدوار لنهنىء عرابى بعيد أضحى سعيد وبنصر قريب (١) وعندما كنت أؤدى واجبى تجاه بلد تبنيته ، كنت أعمل بنفس الأسلوب الذى يتبعه الآلاف من الشخصيات البالغة الأهمية الذين هم أحرار بل ويتقلدون اليوم مناصب رفيعة ، وفعلت كل ما أمكننى للحفاظ على حسن النظام ، ومن أجل هذا الهدف أوقفت فى المطبعة الأهلية كثيرا من المقالات التى كانت تميل الى اثارة التعصب الدينى والفرقة وزيادة الكراهية الطاغية للأجانب •

« اننى أترك مصيرى ، وكلى ثقة تامة ، فى أيدى انجلترا ، لأنها عاجلا أو آجلا ، ستنصف ، بكل تأكيد ، قضية الوطنية المصرية المتصدعة الآن • أية ثقة يمكن أن أضعها فى قضاة يحاكموننى اليوم عن أفعال شاركوا فيها هم أنفسهم منذ ستة أسابيع مضت ؟ وما لم تساعدنا انجلترا ، فسيكون ملاذ الساعين وراء العدالة فى مصر أبعد مما كان من قبل » •

---

(١) انظر : الفصل العشرون ، من هذا الكتاب •

الفصل الثامن عشر

رواية وكيل نظارة عرابى (١)

« اسمى « يعقوب سامى » • أنا تركى المولد ، ومنذ شبابى توظفت فى الجيش وديوان الجهادية • لقد شهدت معارك كثيرة فى ميدان القتال ، وفزت بعدة ميداليات ونياشين • منذ ثلاث سنوات مضت ، على شاكلة كثير من رفاقى ، تزوجت سيدة من حريم الخديو • فى الأيام الأولى من حركة عرابى ، كنت قليل التعاطف معه ، وفى الحقيقة ، تلقيت ضربة سونكى فى فخذى أثناء الاضطرابات التى أعقبت الافراج عن « الأميرالايات الثلاثة » عندما هرب « عثمان باشا رفقى » الى غرفة فى الطابق الأعلى ، وأغلق الباب على نفسه ، وتركنى لأواجه الجند الساخطين ، ولكن جاء الوقت الذى صارت فيه المطامح التى ظننتها يوما ما مطامح « عرابى » وحده ــ صارت مطامح مصر كلها ، ثم انضمت الى « عرابى » بــكل قلبى • اننى خجل أن أقول أننى تنكرت للقضية التى من أجلها حاربنا ، وأسأت الى « عرابى » أمام أعضاء القومسيون الذين عينهم الخديو للنظر فى قضيتنا • لقد فعلت ما فعلته لأننى عانيت من معاملة أفقدتنى أحاسيس لفترة من الزمن ، وقد قررت أن أنكر ما دفعت لذكره ، وفى الواقع ، كانت أفعالى الذاتية هى أحســن نقيض للكلمات التى انتزعت منى انتزاعا : فلا يمــكن لانســان أن ينظم ، وهو فى خوف ، آلاى ميرة

(١) لم أعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كتاب برودلى المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى فقد ترجمتها عنه بصورة تقربها من النص العربى • (المحقق)

من ۱۰۰٫۰۰۰ رجل • وقبل أن أروى سلوكى كوكيل commissariat نظارة مصرى سابق لديوان الجهادية بالقاهرة ، سأشرح لك كل ما حدث منذ استسلامنا ، لأنى ما لم أفعل ذلك فلن أكسب احترامك أبدا :

« عندما عاد عرابى الى القاهرة بعد هزيمته ، صممنا جميعا ألا نستمر فى مقاومة أحسسنا الآن أنها لا أمل فيها • توجهت لمقابلة القادة الانجليز وقمت بتنفيذ استسلام ۳۵٫۰۰۰ فرقة بالقرب من المدينة بكامل رضاهم . وما أن أديت هذه المهمة على الوجه الأكمل ، حتى تلقيت بعدها مكافآت رسمية من الخديو ، ثم تقـــدمت الى كفر الدوار حيث ألقيت كلمة فى الضـــباط المصريين وأوضــحت لهم استحالة اســتمرار الحرب ، وتبعـا لنصيحتى الجادة حذوا حذو قوات القاهرة ، وأعرب الضباط الانجليز عن عظيم رضاهم عن كل ما فعلته • وبعد أن بقيت بضـــعة أيام فى المعسكر ، أمرت أن أتوجه الى الاسكندرية ، وصحبت الكولونيل القائد البريطانى ، بكل احترام ، الى محطة القبارى •

« وعندما وصل القطار ، نزل منه « حسن أفندى فوزى » ، مساعد رئيس التشريفات الخديوية ، وعندما رآنى صاح فى قائلا : « انزل من عربتك واذهب مع ذلك الضابط » مشيرا الى جركسى يدعى « محمد لاما » ، الذى كان قد جرم ونفى من قبل لتآمره على اغتيال عرابى • كان مع هذا الرجل كثير من رجال البوليس الذين سحبونى مع كل صورة من صور الامتهان ، خلال شوارع المدينة ، وبعد أن سجنت فى مدرسة رأس التين ، اقتادونى سيرا على الأقدام الى محطة السكة الحديد ووضعت فى عربة بضاعة تستخدم فى نقل الشحم والزيت ، فكان من المستحيل على أن أجلس ، ثم نقلت بعد ذلك الى سبنسة القطار ، وهكذا أحضرونى الى القاهرة مع « على باشا روبى » و « محمود باشا فهمى » وغيرهما ، وقادونا خلال الشوارع المزدحمة وسط صفين من الجنود يرأسهم ضابط جركسى ، حتى وصلنا الى السجن العام ، وفيه زجوا بنا فى غرفة صغيرة ؛ ولقد مر خمسة عشر منا بالكثير من سوء المعاملة هناك لمدة خمسة أيام ، ثم جاء ضباط انجليز ليرونا ، ثم جىء بنا الى هنا الى ســجن الدائرة السنية • وبعد ظهر يوم وصولنا ، جاء أربعة من حاشية الخديو حاملين السيوف ، اندفعوا الى زنزانتى ، وفى قسوة هاجمونى ، وكانت أفعالهم يشاهدها من الباب نفس ذلك الشخص المدعو « حسن أفندى فوزى » ، وفى النهاية انصرفوا ، ولكن الحراس خارج زنزانتى اعتادوا على أن يدقوا على الباب فى فترات متباعدة طوال الليل حتى يمنعونى من النوم الذى لم أذق منه أكثر من بضع دقائق فى مجموعها • وفى الوقت نفســـه ، توجه البوليس الى منزلى مرتين ، ونقلوا كل أوراقى ، وأهينت أسرتى

أيضا ، فى كل صــورة ممكنة ، وفجـــأة ذات يوم فتح باب زنزانتى ، وأحضرونى أمام أعضاء القومسيون الجالسين فى الغرفة المجاورة لزنزانتى ، وكثيرا ما كانوا يتحدثون جميعهم فى وقت واحد ، وكان حديثهم دائما فى أسلوب متوعد • وفى اجابتى على أسئلتهم ، أعتقد أننى قلت أننى فعلت ما فعلت خوفا من عرابى • لم يكن هذا صحيحا ، وأنا أريد أن أصحح اجاباتى ، لأننى لم أعد بعــد فى خوف على حياة أطفـــالى ، التى أثرت على أكثر من الخطر الذى أواجهه شخصيا (١) •

***

« ولا شك أن غيرى سردوا عليك ، مختلف الأحــداث التى أدت الى ضرب الاسكندرية ، ومقاومة القلاع ردا على الضرب • ولما كنت جنديا ولست سياسيا ولا مؤرخا ، فاننى سأتحدث فقط عن أسلوب الدفاع عن مصر الذى نظم فى القاهرة ونصيبى فى نفس الأسلوب • فى المقام الأول ، ذكر رئيس النظار أن الحرب قد أعلنت ، وبعد ذلك أخبرنا الخديو أنه أعلن السلام ، وأخيرا ، أرسل لنا عرابى تلغرافا أن الخديو فى الحقيقة كان أسيرا وأن العداوات مازالت مستمرة ، وقد تقرر عقد اجتمـــاع للمجلس العرفى ، يضم كل طبقات الأهالى لمناقشة أى طريق سينتهج ، وبهذا الأسلوب استقر الرأى على ارسال وفد الى الاسكندرية بقصـــد دعوة النظار للعودة الى القاهرة ، واذا كان هناك ما يستوجب اجتماع المجلس العرفى مرة أخرى للتداول فى الأمر ، ولكن فى الوقت نفســه الاستعدادات للحرب يجب ألا تتوقف •

« وعلى الفور ، جيء بقطار خاص الى قصر النيل واستقله أعضاء الوفد متجهين الى الاسكندرية ، وأحيط « عرابى باشا » علما بالقرار الذى اتخذه المجلس ، وطلب منه تسهيل مرور الوفد الى الاســـكندرية حتى يمكنه الحصول على معلومات عن الوضع الصحيح للأمور • وبعد سـفر الوفد ، قرر وكلاء النظارات أن مجلسا مكونا من أنفسنا ليس بكاف ، وأن حضور الأعيان المتقدمين فى الســـن ، الذين شاركوا فى ادارات أخرى ، والذين كانوا أكثر حنكة منا ، كان حضورهم ضروريا ، وأن الشباب الذين لهم قدراتهم يجب أن يحضروا أيضا • ونتيجة لذلك ، أصدر المجلس العرفى قرارا باختياره سعادتلو « جعفر باشا » رئيس المحكمة التشريعية ، وعند عودة سعادتلو « اسماعيل باشا أبو جبل »

---

(١) بعد ذلك يستمر يعقوب سامى فى ايضاح الجانب الفعال الذى قام به اسماعيل باشا أيوب وبقية أعضاء المحكمة فى تنظيم الدفاع الوطنى •

من الاسكندرية عين أيضا مع سعادتلو « مرعشلى باشـا » وسعادتلو « ابراهيم باشا خليل » والى جانب هؤلاء ، اختير « ابراهيم باشا سامى » ، و « أحمد باشا نشأت » ناظر الدائرة السنية ، و « رياض باشا » مدير تقسيم القاهرة ، و « حسن باشا مظهر » مدير المدفعية ، و « اسماعيل باشا أيوب » ، و « راشد باشا حسنى » قائد فرقة ، و « خليل باشا » و « على بك يوسف » ، أميرالاى الفرقة الثالثة مشاه ، و « أحمد بك نير » أميرالاى الفرقة الثانية خيالة ، و « أحمد بك رفعت » سكرتير مجلس النظار ، و « محمود بك رمضان » رئيس كتبة الدائرة السنية • هذا المجلس العرفى الذى تشكل من الأعضاء الوارد ذكرهم آنفا ، كان يجتمع كل ليلة بديوان الجهادية خلال شهر رمضان وذلك لفحص أوراق كل ادارة ، وباتفاق عام ، لاصدار الردود الملائمة لنفس الادارات •

« وأثناء وجود هذا المجلس ، كان الأمن العام مكفولا ، ولم يذكر قط أن شخصا واحدا قد سلب منه أى شىء • وبعد بدء العداوات بفترة من الزمن ، جاءنى القنصـلان الروسى والايطالى فى ديوان نظارة الجهادية وذكرا لى أن لهما رعايا يصل عددهم الى ٢٫٠٠٠ شخص ، وهم يرغبون السفر الى الاسماعيلية ، ولكنهم كانوا يخافون من أن يغتالوا فى الطريق على يد أشخاص متهورين من الاسكندرية أو غيرهم من قطاع الطرق • وعلى الفور ، رتبت لهم القطارات اللازمة عند قصر النيل وعند محطة مصر ، وبعثت معهم بمرافقين من الضباط والجنود لحمايتهم على الطريق الى الاسماعيلية ، ولو أنك تحريت الأمر من هذين القنصـلين لاقتنعت بالخطوات التى اتخذتها لحماية حياتهم ولأمنهم العام • وبعد وقت (لا أذكر تاريخه) وصلت رسالة تقول أن عرابى باشا قد عزل من منصبه كناظر للجهادية ، ووصل خطاب آخر من « عمر باشا لطفى » ذكر فيه أنه عين ناظرا للجهادية خلفا ل « عرابى » ، وكان مرفقا بالخطاب صورة من أوامر الخديو بتعيينه فى هذا المنصب • وضعت أنا هذه الأوراق أما المجلس ، وكان مشكلا من الأشخاص ذوى المناصب الذين سبق ذكرهم ، الذين قرروا أنه طالما أن هذا هو أهم موضوع ، ونظرا لأن الوفد الذى توجه الى الاسكندرية لاستدعاء النظار لم يعد ، فمن الواجب دعوة الجمعية العمومية المكونة من الأمراء فى القاهرة وكافة النبلاء والقضاة والحكماء وكبار تجار المدينة ، ومديرى المديريات وأربعة أو خمسة أشخاص من البـارزين فى كل مديرية ، من بينهم القضاة وكبار التجار ، الى جانب كبار الشخصيات العامة والعلماء ، وقضاة السويس ودمياط وكل مكان ، وذلك للتشاور فى عزل الخديو ل « عرابى باشا » •

« لقد كتب الى هؤلاء جميعا ، والتقوا في ديوان الداخلية ، ولما اكتمل

اجتماع المجلس ، نهض « على باشا الروبى » وكيل النظارة لشـــئون السودان ، وتحدث ، ولكنى لم أتمكن من سماع حديثه نظرا لأننى كنت أجلس بعيدا فى نهاية القاعة التى كانت تضم أكثر من ٤٠٠ شخص ٠ وبعد أن جلس ، أخذت مكانى ، بوصفى كرئيس ، وســـط الجمعية ، وذكرت أنه قد وردت مذكرة من ديوان الخديو تذكر أن سموه قد أصدر قرارا بعزل « عرابى باشا » ، كما قرأت بصوت عال محتويات اتصالات عرابى باشا السابق ذكرها ، وشرحت ما كتبه «عرابى باشا» الى المديريات والادارات فيما يتصــل بهــذا الأمر ، وقلت : ما رأيكم بالنسبة لهــذا العزل ؟ » واستطردت : « هل اذا صدرت أية أوامر من الخديو : تنفذ أم لا ؟ ادلوا برأيكم » ٠ واذ بالجمعية بأسرها ، وفى صوت واحد تعلن أن عرابى باشا يجب ألا يعزل ، وأضافت : « ونظرا لأن الخديو قد لجأ الى الغزاة فان أوامره لاغيه » ٠

« هذا القرار ترجم بعد ذلك كتابة فى حضور الجمعية ، كتبه كاتب نظارة الداخلية الذى رشحه « حسين باشا » وكيل نظارة الداخلية ، وعلى الفور ، وقع عليه الأعضاء تحت اشراف هذا الباشا نفسه ، ثم توجهت أنا بعد ذلك الى ديوان الجهادية لأتولى أعمال الديوان ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام ، أحضر لى سعادتلو « حسين باشا » قرار الجمعية العمومية مع القرار السابق أيضا ، كى يحفظا فى الأرشيف ٠

« وطبقا لروح هذه القرارات ، كان مديرو المديريات والمصريون جميعا مطالبين باتخاذ الاستعدادات وتزويد الجنود بالمؤن بأقصى سرعة ٠ وقد بعث سعادتلو مدير أسيوط ، « عثمان باشا غالب » (وهو الآن مدير البوليس) بتلغراف يذكر فيه أن الأوامر العليا لشعب المديرية ، الذين هم تحت رئاسته ، هو اسهامه اختياريا منه للحرب ، قمحا بحد أقصى عشرة آلاف أردب ، وعددا من الخيول والجمال » كما ورد تلغراف آخر من سعادتلو « دانش باشا » مدير مديرية الغربية ، يفيدنا بأن كل شعب مديريته قدموا كمساهمة اختيارية منهم كل ما قررت المديرية أن تبعث به من قمح وماشية ، أعنى ، أنهم رفضوا أن يقبلوا ثمنا لها ٠ وعلى هذه الصورة تلقينا باستمرار رسائل من مديرى المديريات ومن المشايخ ومن أهالى كافة المديريات ، مظهرة مدى حماس الشعب فى تقديم المساهمات الاختيارية والمساعدات التى قدموها بارســـال الاحتيــاطى والمجندين الجدد ، فى حين أنه وقت الحرب الحبشية ، أثناء حكم الخديو السابق ، كان من المتعذر جمع عشر هذا العدد من الرجال ، ومن هذا يمكن ملاحظة أن الحركة كانت متحدة تماما من جانب الشعب المصرى فى الدفاع عن وطنه وعن حياته » ٠

الشيخ محمد عبده ـ عالم وصحفى

ربما كان الشيخ محمد عبده أكثر رجل موهوب فى فئات الوطنيين المصريين • كان كاتبا رشيق القلم ، دارسا متعمقـا فى الدراسـات العربية ومحدثا بليغا ومؤثرا • كان تأثيره له تقديره بين أكثر الطبقات تعلما من أبناء وطنه • ومما لاشك فيه ، أنه ساعد مساعدة كبيرة فى جعل الرأى العام عاملا واقعيا فى التقدم المصرى • لم يكن الشيخ محمد عبده شخصا متعصبا خطيرا ، أو كان له خطره فى تحمسه الدينى ، لأنه كان ينتمى الى أعرق مدرسة فى الفكر الاسلامى ، كانت تتمسك بعقيدة سياسية قريبة للنظام الجمهورى البحت pure republicanism كما كان الرئيس الغيور للمحفل الماسونى Massonic Lodge وكانت وطنيته البعيدة عن الأثرة هى وحدها التى منعت بعضا من رفاقه ، الأكثر حماسة من أن يصرحوا عن استيائهم لعدم تمسكه بالتقاليد بالصورة التى تثير مزيدا من الشكوك حوله ، حتى أن صديقه « عرابى » صرح مرة أن « الشيخ محمد عبده أنسب له أن يرتدى قبعة عن أن يرتدى عمامة » •

كانت شخصية محمد عبده فى مجموعها مثلا لقوة ثقافية عظيمة غيم عليها لفترة : ضعف معنوى وفيزيائى ، وعقليته وجسمه بالمثـل يبدو أنهما طحنا ، بعد ما استبان له من آمال ضاعت وكفـاح عنيف لا طائل من ورائه • وعلى شاكلة زملائه ، أهين وأسـيئت معاملته فى السجن ، ولكن تقريره الذاتى عن معاناته كان ضعيفا ومبهما ، بالمقارنة بتقاريرهم • وقرب الأيام الأخيرة من سجنه ، بدا أنه قد أفاق من صدمة

إعتقاله لأول مرة . وبدأ يعاملنا بالثقة التى حاولنا أن نكون جديرين بأحقيتها ، وأحيانا ، كاد أن يكون من الصعب علينا أن نصدق اذا كان الشيخ محمد عبده هو واضع التفسيرات الجريئة الحية لأهداف وموضوعات الوطنيين المصريين التى قدمها منذ ما يقرب من ستة أشهر مضت الى « مستر بلنت » • سيكون أمرا من الصعب ، بالمثل ، على الانجليز فى بلادهم أن الاحباط الكامل للعزائم الناجم عن خيبة الأمل المقرونة بالخطر والتعذيب الجسمانى ، يكون له تأثيره على أقوى وأشجع العقول المصرية • ان منظم الزيارات المسائية للمسجونين السياسيين فى زنزاناتهم ، بعد نقلهم الى الحجز المصرى ، كان يدرك ، بلا شك ، أهميتهم العظيمة ، من وجهة نظر الشرق ، فى نجاح المحاكمة المقبلة • لقد ساهموا بأكثر صورة مادية فى هزيمة نفس الموضوع الذى كان من المقصود أن يؤثر فيهم •

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة دفاعه بأسلوب الدارس للغة العربية ، ولقد آثارت ، كعمل أدبى ، اعجاب مترجمنا « مستر سانتلانا » الى حد كبير ، وانى كنت أرى أنها أقرب لأن تكون تبريرا عن أن تكون دفاعا • ان الوضع الذى إتخذه بصورة فطنة يكاد يكون وضعا لا يمكن دحضة قانونيا وفنيا • وطوال كل « دراما » الثورة المصرية كان دوره هو بصورة واضحة كل الوضوح ، دور تابع يطيع وأمين ، وقبل رفع الستار ، كان قد صار رئيس تحرير الوقائع المصرية • ومع هذه الكفاءة من أول الأمر الى نهايته ، كان يطيع أوامر رؤسائه الشرعيين الذين كانوا يتعاقبون الواحد تلو الآخر على خشبة مسرح الأحداث • وتصبح روايته طريفة فقط عندما يصل الى موضوع آرائه وخبراته الشخصية • وبالنسبة لاعفائه من مزاولة واجباته العامة ، فان نص تبريره هو الطاعة السلبية للسلطة القديرة وفى دفاعه عن سلوكه كمواطن عادى ، يردد نفسه فى قياس بارع مقنع :

••• ان وطنيتى ووطنية « سلطان باشا » واحدة ، وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، فقد اصبح « سلطان باشا » ذا لقب « سير » ، وحصل على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلينى ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة واهلا للثناء عليها ؟!! ••• اذن يكون سلوكنا كلينا اهلا للثناء عليه ؟! فلماذا ياترى أزج فى السجن منتظرا محاكمتى على وطنيتى بينما يصبح « سلطان باشا » حائزا رتبة الشرف الانكليزية وحاصلا على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه إسترلينى ؟!

كان تقرير « الشيخ محمد عبده » عن العلاقة الوثيقة بين « سلطان باشا » و « عرابى » عنصرا هاما فى تاريخ الحركة الوطنية ، وحتى زمن

« اعلان » عابدين لمطالب الجيش ، كانت وجهات نظر « الشيخ محمد عبده » معارضة تماما لوجهات نظر « عرابى » الذى كان يعتبره الرمز الناجح للآراء العسكرية البحتة ، وهو يقول ان الاجتماعات الشعبية المختلفة التى عقدت للمطالبة بوضع دستور للبلاد ، عقــدت تحت رئاسة « سلطان باشا » ، وأعقبه قيام الدستور على الفور ، الذى غير وضع « عرابى » من قائد للجيش الى قائد لـ « مصر » ، وفى ذلك يكتب الشيخ « محمد عبده » : —

٠٠٠ اصبحت و « سلطان باشا » والبــلاد المصرية قاطبة من اتباع عرابى ٠٠٠ ومن ذلك الوقت رأيت يوما بعد يوم أعيان القاهرة وكبار العلماء والشــيوخ ومشاهير الشخصيات فى مصر ، دائما فى خدمة « سلطان باشــا » و « عرابى بك » ٠ رأيت « سلطان باشا » كريم الوفادة فى بيته من وقت لآخر ، ولعرابى بك وزملائه ، ولشيوخ مشهود لهم بالتقوى والعلم ، انتهزوا فرصة قيام عهد جديد فبدءوا بتقديم التماس بعزل شيخ الاسلام ، شيخ الجامع الأزهر ، وكانت الصحف مجمعة على مدحهم ، وأكدت ان البلد مقبلة حقا على تحقيق حرياتها ، وان كل فئات الشعب كانت تصبح بمدح « عرابى » ، وكانوا يصفون الحركة بأنها مولد من جديد للبلاد ، بل لقد استدعى « شريف باشا » تلغرافيا « اديب افندى اسحق » ، وكان مديرا وعالما قديرا يعمل بجريدة عربية تصدر فى باريس اسمها « مصر القاهرة » ، وكان معارضا دائما لـ « رياض باشا » ، على اعتبار انه رجل خان وطنه للانجليز ٠ وقابلت هذا السيد اول ليلة وصل فيها ، وسمعته يقول فى اجتماع مكتظ بالناس : « ان عرابى بك قد حقق بالفعل عملا مجيدا » ، وكان هذا العالم قد عين رئيسا لقلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية ، ثم رقى الى كاتب ثان بالجمعيــة المصرية بناء على طلب « سلطان باشا » نفسه ٠

وصار « سلطان باشا » يدعى الآن « أبو بلده » ، وكان موضوع احاديثه الوحيد هو السيادة التى ليست فى محلها : لأجنبى بيننا ، وبينما كان يصيح « مصر للمصريين » كنت انادى واعظا بالسلام والتآخى لقد وقفت وحدى ، بينما « سلطان باشا » وصحبه لم يكلو ابدا عن التودد لعرابى ٠ وفى الوقت الذى بقيت فيه فى دارى ، كان « أبو بلدة » يعد الآن وليمة للضباط ، مودعا « عرابى » فى طريقه الى « رأس الوادى » ، ويسـاعد « عبد العال » للسفر الى دمياط وصار عرابى ناظرا للجهــادية وسط التصفيق الحاد لـ « سلطان باشا » وصحبه الذين عقدوا اجتماعا خاصا من الأعيان لتهنئة « عرابى » على ترقيته الجديدة ٠ وسرت مرتين اشاعة أن « سلطان باشا » قد رضخ لضغط عسكرى لا مبرر له ، ومرتين رجانى « سلطان باشا » ان انفى فى الجريدة الرسمية بشــدة ، الوشاية المعيبة المعزوة الى شخصه باعتباره مواطنا صالحا » ٠

ثم كتب « الشيخ محمد عبده » بعد ذلك عن أحداث الحرب يقول :

هل يقدر احد ان يشك فى كون جهادنا وطنيا بعد ان آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ، فكان يتالف المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحمــاس غريب وبكل ما اوتوه من حول وقوة ، لاعتقادهم انها حرب بين المصريين والانجليز ؟ ٠٠٠ اننى لم أعلم

انه قيل ان الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره ، وقد رسخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس انه أقال عرابى من منصبه لأنه لم يمتثل امره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاء لنزول غزاة من البحر .

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين ويدعون بالنصر لعساكر « عرابى » وبالهزيمة للانجليز . وكان أمام الخديو الشيخ الصالح العالم « الابيارى » فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنية ، فنشر قصيدة « ابراهيم دريد » فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى « المعتصم » وهى عبارة عن دعاء وابتهال ، وقد أضاف اليها ابياتا من نظمه ، فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة « البخارى » ، وقد طلب الى ان أنشرها فى الجريدة (يقصد الوقائع المصرية) حتى يطلع عليها الجيش ايضا ، وقد كان عمله هذا مشروعا ، اذ أن من المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب اسلامية ضد الكفار . وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب ، خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته !! .

وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية ـ حتى النساء ـ بالخيل والحبوب والنقود اللازمة للجيش ، واظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة ـ غيرة وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية .

وقد ارسل « عثمان باشا غالب » مدير أسيوط ، فى ذلك الزمن ، ورئيس بوليس العاصمة الآن ، بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات ، وقام بامر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء نظارة الجهادية وها هو ذا كما قلنا آنفا ، رئيس العاصمة بامر بوليس الخديو ؟! .

وهذا شأن « خليل بك عفت » الذى تعين مديرا بامر ناظر الجهادية ، فاظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل فى الجريدة الرسمية ، وها هو ذا نراه الآن مدير المنيا ، بامر الخديو ؟! .

وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلى : أموالهم بسخاء فى سبيل الحرب ، اما مباشرة أو بواسطة دوائرهم وهم :

البرنسيس « جميلة » ، اخت الخديو وحرم المرحوم سعيد باشا ، و « خيرى باشا » ، وصيف الخديو ، و « على باشا مبارك » ، ناظر الأشغال العمومية الآن ، و « يوسف باشا جدوى » احد اعضاء لجنة التموين ، و « محمود بك » كاتب (أو امين) اسرار الخديو و على « حيدر باشا » ناظر المالية الفعلى .

واسماء هؤلاء وردت فى أعداد الجريدة الرسمية ، واذا كانت سجلات المديريات لا تزال موجودة ، فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد .

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم ، متشوقين لقاتلة الانكليز ، وقد شمل هذا الحماس الاقباط ، وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم ، وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمدح عرابى ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا .

سوف تثق به وسنفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك أن أساطيل الدول فى ميـــاه اسكندرية ، وان عقول الناس فى هياج وان الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم ••• والآن ، فاختر لنفسك هل تخدم « عرابى » فى ضمانه هل تخدمنا ؟ » •

***

« وفى يوم هذه الحادثة (١) ، توجهت الى السراى ، فرأيت موظفيها فى جدال عظيم مما حدث ، وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ، ويضحكون من عهد « عرابى » بالمحافظة على الأمن العام • ومن المعلوم ان موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن الكآبة جهدهم •

« وبعد اثنى عشر يوما من هذا التاريخ ، كنت فى الاسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون أن المحافظ « عمر لطفى » سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد ، لأنه كان مقيما فى البلد ولم يصدر امرا بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضى الوقت ، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه ، واجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ، وعلمنا ايضا انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحـــافظ يتمشى من مكان الى آخر ، اذا بأوربى فى شباك وفى يده مسدس فقال له احد البدو : 'ارمى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له ارمه ، فاطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ، وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقاربه فى ذلك اليوم الأسود •

« وقد سمعت ايضا أنه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك وانه اشار الى البوليس الا يتداخلوا قائلا : « خليهم يموتوا أولاد الكلاب » •

« ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى اسباب هذه الفتنة « عمر لطفى » عن شىء مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو قد اوعز اليه أن يستعفى بدعوى المرض •

***

« كان عمر لطفى محافظ الاسكندرية زمن الفتنة ، وقد اهمل امر القيام بحفظ الأمن العام على أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه ، هذا اذا لم نقل انه هو المحرض عليها ، فاذا كان ما فعل اطاعة لأمر « عرابى » كما ادعى ، مع أن وظيفته تابعة رأسا الى الخديو ــ لأن الخديو أصدر امرا مخصوصا صرح فيه انه بعد استعفاء نظارة محمود سامى ، افضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراى ــ فكيف كان تعيينه ناظرا للجهادية جزاء لطـــاعة « عرابى » وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الأمر اهمالا منه ، فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه ناظرا للجهادية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا على ما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟ •

« لا ريب فى أن استقراء سير الحوادث ، يظهر أتم الظهور ، ان الخديو ، بالاشتراك مع « عمر لطفى » ، كانا سبب هذه الفتنة ، اى مذبحة الاسكندرية • »

---

(١) المقصود به : مذبحة الاسكندرية • (المحقق)

ان الحذر والخوف اللذين يظهرهما « الشـــيخ محمد عبده » ، بصورة مطردة ، يعطيان نقلا لما أعلنه حتى انه ليندر أن أجدهما فى أى تقرير قدمه شخص آخر فى موقعه ، وحتى يطرأ تغيير أســـاسى فى الظروف الاجتماعية للمصريين فلن نستطيع ان نحل لغز ١١ يونيو ، ومختلف المظان المتصلة به ستظل موضوع رأى واحتمال ، ومع ذلك فانه من الصعب أن نعتقد أن شخصا مثل « الشيخ محمد عبده » ، الذى أسبق شكواه من أنه كان يبصق عليه فى السجن ، بتقديمه فروض الاحترام لسمو الخديو ، قد وضع مثل هذا المبـــدأ ، ما لم يكن عنده بالفعل استبصار عميق فى خبايا « مؤامرة قصر » مصرية . وهنـــاك شىء واحد يمكننى أن أؤكده شخصيا ، هو توكيد الغير لروايته ، وهـــم الذين لم تكن لديه وسيلة ممكنة ليتصل بهم .

وفى مساء أول يناير ١٨٨٣ ، ودعت فى الظلام « الشيخ محمد عبده » ، الذى هرب اخيرا مع ثلاث سنوات نفى من مصر ، ومنذ ذلك الوقت ، سمعت أنه كان يعيش فى فقر وبؤس فى بيروت . واذا كان لمصر أن تسير وحدها أو أن تبدأ بداية طيبة ، فلا يمكن لها أن تتخـلى بسهولة عن رجال أمثال « الشيخ محمد عبده » — عالما وصحفيا .

كيف استجوب قومسيون التحقيق رفعت بك

لقد بدا على الفور أن وصول السجينين من « كريت » (اللذين سبقت الاشارة اليهما من قبل) قد أمد قومسيون التحقيق بحماس وغيرة غير عاديين · لقد قرروا فجأة أن يسيروا قدما فى شىء ، واننى أعتقد أنه من سوء حظ راحة بالهم تماما أن كان هذا الشىء هو الاستمرار فى استجواب « أحمد بك رفعت » السكرتير السابق لمجلس النظار والذى كان يوما ما مراسلا لجريدة « الطان Temps» · ففى وقت مبكر من صباح يوم ١٦ نوفمبر ، تلقيت رقعة بالعربية موجهة من القومسيون الى « صديقنا المحبوب مستر برودلى » تطلب منى الحضور الى القومسيون فى الساعة العاشرة ·

وبعد أن قدمت التحية كالمعتاد من قهوة وسجاير ، دخل « رفعت » المسكين ، وكان يبدو بالغ العصبية ، واستراح على كرسى بجوارى ، ولقد تأكد لى أننى بمصافحتى لموكلى قد خرجت عن حدود اللياقة التى يلتزم بها الأعضاء · اننى لن أنسى على الاطلاق طرفة عين « اسماعيل أيوب » الخبيثة التى لا أخطئها ، وهو يخرج ، بصورة متعمدة جدا ، نسخة قديمة وقذرة جدا من جريدة « الطان » تحوى بالفعل مقارنة بعيدة عن أية مداهنة بين الحضارة الفرنسية والأعيرة الانجليزية المنطلقة من قلم « رفعت » الوطنى · قال رئيس القومسيون موجها الحديث الى شخصى : « ياعزيزى ، بعد هذا ، أعتقد أن من واجبك أن تتخلى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل » ، وألقى بجريدة قديمة وقذرة جدا عبر بحر من الجوخ الأخضر يفصل بيننا ، وقرأت المقال ، وكتبت بضع كلمات

الخديوية ، وحررت اذا هذا التلغراف ، ومن تأمل فى فحواه يجد أنه ليس ببيان أفكارى الخصوصية الذاتية بل بيان الحالة التى كانت عليها البلاد ، وأكرر أن ما قلته من تلك الحالة هى عين الواقع وقتها ، وأما من مخصوص عضوية سعادة أفندم الباشا ، فولو أنه لا يمكننى الادعاء أن لسعادته أختام على المحاضر أم لا ، انما كنت أعرف أن سعادته كان عضوا فى المجلس العرفى مثل باقى الذوات العظام حتى وانه فى يوم الجمعة ٣ شوال ١٢٩٩ هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ م توجه سعادته معنا ومع سعادة رءوف باشا وسعادة عثمان باشا فوزى وسعادة اسماعيل باشا محمد وسعادة حسن باشا الدرملى ، بوابور مخصوص بكفر الدوار للتبريك لعرابى باشا بالعيد ، وعند وصولنا هناك توجهنا جميعا لآخر خط الاستحكامات ووجدناها مستوفاة حتى وعند وجودنا ظهر وابور (انجليزى مدرع) من جهة الملاحة وكان يظن انه جاء لمناوشة (وكانت مدافعنا على استعداد لأداء عملها) فأدونا جميعا الحضور فى ذلك (بل أن سعادتكم شكوتم وقتها من أنكم باعتباركم جنديا سابقا لم يسمح لكم بالمشاركة فى القتال) ، ولم نترك الاستحكامات للرجوع فى ثانى يوم فى الفجر الا بناء على اصرار طلبة باشا ، فكل هذا كان يؤيد أن سعادة اسماعيل باشا أيوب كان من أعضاء المجلس العرفى .

الرئيس : (يعرف كل شخص ، بمن فى ذلك جناب الخديو ، أننى ذهبت الى هناك . لقد كانت رحلة بهدف الاستطلاع) الجواب الذى قلته لم يكن موافقا للسؤال ، ففيه صراحة هل كتبت البند الذى نحن بصدده عن أفكارك خاصة أو بناء على تكليف بتحريره من أحد ؟

احمد رفعت : عرضت أن ذلك أفكارى وأفكار الجميع فى ذلك الوقت وتحريره كان بعلم يعقوب باشا سامى ، اذ قال لى أن أبين الحالة كالمشاهد لى ، وجميع ما احتواه البند المذكور هو أفكارى ومعتقدى .

الرئيس : حيث أنك كنت ريس قلم المطبوعات ومن وظايفك ملاحظة الجرايد الجارى نشرها ، فنشر فى جريدة « الطايف » وجريدة « المفيد » عبارة قذح وذم فى حق الحضرة الخديوية ، وقد تلى عليك جملتان مندرجتان بعددين من جريدة الطايف احداهما معنونة (فعل الخديوى) والأخرى معنونة (سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا)

ويوجد كثير خلاف هذين العددين فلم سمحت بذلك ولم تراع واجبات وظيفتك ؟

(أحمد رفعت : أطلعونى عليهما) ·

(طرح عددان من الجريدة بدون تاريخ ، وكانت المقالتان فيهما قدح لكلا الخديوى والانجليز) ·

أحمد رفعت : أجاوب بنوع خصوصى عما صار تلاوته وما شابه ذلك ، وبنوع عمومى عن كيفية قيامى بوظايفى ، فمن جهة النوع الخصوصى أقول أن كل ما حرره الطايف وخلافه من الجرايد كان نتيجة هيجان الأفكار ضد الحضرة الخديوية وتأييد هذا الهيجان بالمجلس العمومى فى الداخلية وتعتمد فيه توقيف أوامر سموها لحين صدور الأمر من الاستانة ، وهذه الأفكار كانت حاصلة عند جميع الأهالى حتى الأطفال فى الطرق وليست خاصة بجريدة أو جريدتين فقط ، وأما النوع العمومى ، فأقول انى من بعد صدور تلغراف سعادة راغب باشا بأن الحرب انتشبت بين الدولة الانجليزية والمصريين وأن القطر صار تحت حكم القانون العسكرى ، وبعد ورود افادة من الجهادية مقيدة فى دفاتر الداخلية بأن لا يدرج شىء بالجرايد الا بعد الاطلاع على ما بها ، فكنت أؤدى وظيفتى كالواجب وأعرض على المجلس العرفى أولا فأولا ما كنت أرى فيه أهمية ، وكان مطمح الأنظار عدم تحرير شىء يهيج التعصب الدينى أو الطعن الشخصى الغير سياسى فقط حتى ، ولما رأيت فى أحد الأيام « حسن أفندى الشمسى » حرر مقالة أدرك فيها عبارات تعصبية وطعن شخص عذرته رسميا أمام المجلس وانفصل من بعد ذلك من « المفيد » ، ثم ، وجريدة « الفسطاط » حررت مرة أخرى مقالة تحتوى على تعصب دينى محض ، فبحضور سعادة « بطرس باشا » و « عريان بك » وجميع أعضاء المجلس تقرر قفلها بناء على ما عرضته ، وبذلك أظن أنى لم أقصر فى أداء واجبات مأموريتى ·

الرئيس : حيث أنك قلت أنه لما أدرج « حسن أفندى الشمسى » فى جريدة « المفيد » مقالة مخالفة عذرته وكدرته رسميا ، وكذلك لما تعدت جريدة الفسطاط حدودها تقرر بقفلها بناء على ما عرضه ، أما ما نشر فى جريدة « الطايف » وخصوصا فى العددين اللذين تليا عليك قلت ان هذا موافق لأفكار العامة حتى الأطفال ، فيعلم من ذلك أنك استحسنت أنت أيضا عبارات الجريدة المذكورة ؟

احمد رفعت : عرضت أن المجلس العام المنعقد بالداخلية الذى كان يحتوى على جميع وجهاء وأعاظم العلماء والذوات ورؤساء المذاهب المختلفة والبرنسات ، قرر توقيف أوامر الحضرة الخديوية ، وقال فى المحضر السابق ختمه من الجميع بأن الحضرة الخديوية خالفت الشرع الشريف والقانون المنيف ، وحيث أنى أحد أبناء هذا القطر . فكيف يمكننى أن أخالف الجميع حتى أخالف أفكارى وما أنا مشاهده وأجازى « الطايف » ؟

الرئيس : يعلم اذاً أن الذى تحرر ونشر بجريدة الطايف وقع عندك موقع القبول ؟

احمد رفعت : حيث لم يمكننى فهم المراد من وقوع ذلك عندى موقع القبول فأرجو اقالتى من الاجابة عن ذلك لأن ما قلته فيه الكفاية .

الرئيس : لما سئلت أولا عن محاضر بعض جلسات مجلس النظار التى طلبها منك الجناب الخديوى وامتنعت من اعطائها اليه قلت ان « أحمد عرابى » نبه عليك بعدم اعطائها وتسليمها ، فكيف مع وجود الحضرة الخديوية ومع كون أحمد عرابى ناظر جهادية وبه فقط تحتج بهذه الحجة وتمتنع عن الاذعان لأوامر الحضرة الخديوية ؟

احمد رفعت : سأجاوب عن سؤال سعادتكم ، انما أرجو أن يسمح لى بابداء بعض ملحوظات تراءت لى عند اطلاعى على محضر استجوابى فى يوم ٧ و ٩ من الشهر الماضى حيث وجدت به بعض تحريفات ناشئة لابد من عدم تفهمى كما ينبغى أو من غلط حصل فى التبييض وهذه الملحوظات هى :

الرئيس : جاوب عن السؤال الذى سئلت عنه ولا تخرج عن موضوعه .

احمد رفعت : (سأفعل هذا) لما اطلعت على صورة محضر استجوابى فى يومى ٧ و ٩ من الشهر الماضى ، وجدت أن السؤال المذكور فيه تحريف لأنه لما سألنى وقتها « بوريللى بك » بعلم واذن سعادتكم جاوبته بأن الحضرة الخديوية لما طلبت منى أن أسلم لمحمود بك خليل المحاضر المذكورة وذلك بحضور «موسيو امبرواز سينارينو» و « وسالا باشا » لم أقتنع بل امتثلت كل الامتثال ، انما حيث وظيفتى هى كاتب تلك المحاضر كان (عرابى) فى ذلك الوقت ناظر جهادية وبحرية الحضرة الخديوية ، فتوجهت ومعى المحاضر قصد اخباره فقط (ثم أعطيها للحضرة الخديوية) (ولكن عرابى

أمرنى ألا أسلمها والا تحملت المسئولية شخصيا لو فعلت) ، وبدلا (من ذلك) أقدم صورها فقط ، فحينئذ حررت مكتوبا بالحالة لمحمود بك خليل لأجل عرض ما حصـــل على الأعتاب السنية واخبارى بما يصدر به المنطق الكريم نحو تقديم صور مصدق عليها منا بمطابقتها للأصل كما هو جار حتى فيما يتعلق بالمحـاضر الرسـمية ، هذه هى الحقيقة . وورد لى جواب منه شفوى أنه لا لزوم للصور .

الرئيس : فى أحد الأيام كنت موجودا بأودة « حســين باشا الدرمللى » بديوان الداخلية وجالسا أمامه على كرسى ، وكان حسين باشا يقول لك انه بلغة أنه مندرج بجريدة افرنجية صورة تلغراف وارد للحضرة السلطانية من جناب البرنس بسمارك (يهنئه فيه على الحلف الذى عقد بين تركيا وألمانيا) يهنئه بوجـود قوتين يصـادم بهما من عاداه ، احداهما تركية والأخـرى مصرية ، و (يتمنى) أن (يظل) العساكر المصرية منصورين والانجليز دواما منهزمين ، وأن الانجليز استحضروا وابور مشحون كلاب . وأنه بلغه أن الجناب الخديوى تندم ومن كثرة الأفكار صار ضعيفا جدا ، فجاوبته قائلا « لا قدر الله لو عاد الجناب الخديوى لمصر فيقابل العالم بأى وجه ؟ ولو فرضنا المستحيل وحضر ، فهل يجد له محل أو أوده يجلس بها ؟ » فهل حصل ذلك حقيقة ؟

أحمد رفعت : انى لم أكن متذكرا .

الرئيس : موجود هنا رسالة مكتوب عليها فى أولها : « الجنة تحت ظلال السيوف » ومطبوعة بالحجر ونشرت ، فحيث انك كنت ريس قلم المطبوعات ، فهل تعلم بها ، بصفتك المذكورة ، وهل ضبطت بالبوستة أو بخلافها أم لا ؟

أحمد رفعت : لم أعلم شــيئا بخصوص هذه الرسالة بصفة مدير قلم المطبوعات ، انما بلغنى أن نظارة الجهادية كانت أجرت ضبطها من البوستة ، ومع ذلك يسأل من يعقوب باشا سامى عنها .

الرئيس : هل تعلم من أين حضرت هذه الرسالة ؟

أحمد رفعت : لم أعلم .

الرئيس : فى أحد أجوبتك السابقة قلت ان التهديدات التى كانت حاصلة من الزمرة العسكرية سمع بها شخصان أو ثلاثة تعرفهم ولم تبين أسماءهم ، فمن هم ؟

الثانية هى ترجمة التلغرافات التى وردت فى شأن أخذ السويس ومكتوبة بخطى أيضا ·

الرئيس : حيث أنك اعترفت أن الأوراق التى صار اطلاعك عليها انشئت عباراتها بمعرفتك وبعضها مكتوب بخطك ومختوم على جميعها منك ماعدا الصور ، فهل ما ذكر فيها هو اعتقادك وأفكارك أم مخالف لآرائك الشخصية وتكلفت فقط بالتحرير والختم عليها بالجبر أو بدونه ؟

احمد رفعت : عرضت أن تحرير وارسال تلك التلغرافات كان بناء على قرار واستصواب المجلس العـــرفى أى أعاظم ذوات ورجال الحكومة المصرية من عهد المرحوم محمد على باشا ومن الذوات الكرام المستجدين ، وأزيد على ذلك قولى أن لزوم المخابرة مع الاستانة كان تقرر بالمجلسين العموميين اللذين انعقدا فى الداخلية حتى وأن المجلس الأول الذى انعقد للنظر فيما يتعلق بلزوم دواعى التجهيزات تكلم بطريرك الأرمن وسعادة عبد اللطيف باشا فى شأن لزوم المخابرة مع الاستانة ، وأما تعيينى عضوا فى المجلس العرفى فكان بناء على تحريرات رسمية وردت لى من وكيل الداخلية الذى هو رئيسى الرسمى ، فلهذه الأسباب وبهذه الصفات ختمت أنا أيضا ولم أجبر على ختمها ولا على تحريرها ، بل كانت مطابقة وموافقة لأفكارى ·

الرئيس : من ضمن ما ذكر بتلك الأوراق أن المجلس العرفى قر رأيه على سد القنال ، فهل كان هذا مطابقا لأفكارك أيضا ؟

احمد رفعت : نعم ، كان ذلك موافقا لأفكارى وكان من مقتضيات الحرب ، ولكننى كنت متأسفا على هذه الضرورة ·

الرئيس : ذكر أيضا فى احــدى الأوراق المحررة للمابين الهمـــايونى أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية واتهموا العساكر المصرية بذلك ، فهل كنت تعلم حقيقة أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية وألم تزل معتقدا ذلك أم لا ؟

احمد رفعت : ما كنت أعلم أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا حقيقة اسكندرية وعددت نفسى سعيدا أن علمت أن ما نسب للعســاكر المذكورين غير حقيقى ، ولا أظن أيضا أن العساكر المصريين هم الذين ارتكبوا هذا الفعل الشنيع ·

الرئيس : حيث أنك ما كنت تعلم أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية ، فكيف أخبرت بذلك المابين الهمايونى ؟

أحمد رفعت : عرضت أن الاخبار كان بناء على قرار من المجلس العرفى ، وكان المشاع كذا ، فى ذلك الوقت ٠

الرئيس : الاشعار الذى أرسل من المجلس الى المابين الهمايونى بما نسب للانكليز كان بناء على اشاعة أو بناء على تلغرافات ؟

أحمد رفعت : يسأل عن ذلك من ريس المجلس العرفى ، أما أنا فما كنت أعلم هذه المسألة الا بناء على اشاعة ٠

الرئيس : حرق اسكندرية معلوم ومشهور ، وقلت فى أحد أجوبتك السابقة أنك علمت أن الانكليز لم يحرقوها ، ولا تظن أن العساكر المصريين فعلوا هذا الأمر ، فمن اذا الذى حرقها ؟ اذ أنه لا يعقل أنك تجهل من حرقها مع أنك عضو فى المجلس العرفى الذى تولى ادارة البلد زمنا مديدا ٠

أحمد رفعت : المجلس العرفى كان مستقره بالقاهرة والمواصلات كانت منقطعة بين اسكندرية وبين مصر ، وبصفتى الشخصية لم أعلم أن الانكليز لم يحرقوا البلد الا بعد دخول الجيش وتحققت ذلك خاصة من المدعو « بلال أغا » تابع حرمنا باسكندرية الذى كان هناك فى وقت الواقعة ، وليس من خصائص البحث عمن حرق اسكندرية أو معرفته ٠

الرئيس : حيث أنك قلت ان « الاغا » التابع لحرمك الذى كان باسكندرية أخبرك بعد عودته بأن الانكليز لم يحرقوا اسكندرية ، فطبعا علمت أيضا منه أو من خلافه فاعل هذا الأمر ٠

أحمد رفعت : لم أر الأغا المذكور ، انما تحقق نفى ما أسند للانكليز من جهة حرق اسكندرية ، بلغنى مذ كنت فى الضبطية ٠

الرئيس : فمن بلغك ذلك ؟

احمد رفعت : بلغنى من خادمى الذى كان يحضر بطرفى هناك ٠

الرئيس : ألم يخبرك أيضا عن الذى حرق اسكندرية ؟

أحمد رفعت : لم أسأله عن ذلك ولم يخبرنى ، كما أن معرفتى ما قلته آنفا كان صدفة وليس بناء على استفهام منى ٠

الرئيس : مذكور فى احدى الأوراق التى اطلعت عليها واعترفت بها أن

المجلس العرفى نبه على محافظ السويس باخبار الأميرال الانكليزى الذى كان هناك أن الحكومة موجودة فى مصر ، فكيف مع وجود الحضرة الخديوية التى لم توجد المجلس المذكور تنبهوا على المحافظ المشار اليه باخبار الأميرال الانكليزى الذى حضر بأمر الخديوى أن الحكومة الرسمية هى الحكومة الموجودة فى مصر ؟

أحمد رفعت : عرضت أول أمس أن أوامر الحضرة الخديوية كان صار توقيفها بمقتضى قرار عمومى صادر من أعاظم العلماء والوجهاء وجميع المديرين ونواب الأهالى والبرنسات والرؤساء الروحانيين، فبناء على ذلك ، كانت الهيئة المسيرة أعنى المجلس العرفى هى بالفعل الحكومة الرسمية المؤيدة برضا جميع الأمة المصرية التى كانت تبذل الأرواح والأموال بدون مراعاة الاختلاف فى الجنس والدين للمحاماة عن الوطن ، فبناء على هذه الأسباب كان حرر المجلس العرفى وبالجملة وأنا من ضمنه ، التلغراف المذكور (ومن قبله أرسل تلغراف الى الاستانة) وأما التنبيه على وكيل محافظة السويس (وهو ما تشيرون اليه) مصدر من طرف رئيس المجلس مباشرة ٠

الرئيس : هل ختمت على القرار الصادر من الجمعية التى ذكرتها فى جوابك السابق بايقاف أوامر الخديو أم لم تختم ؟ وفى حالة الايجاب هل ختمت برغبتك ورضاك أو بالجبر ؟

أحمد رفعت : القرار كان باتحاد الآراء وباختيار الجميع حتى ومن ضمنهم سعادة يعقوب باشا جرى المعلوم انتسابه للحضرة الفخيمة الخديوية وبابا أحمد باشا ، وختمت برضاى بدون جبر وحصلت محادثة بينى وبين يعقوب باشا المشار اليه ٠

(**الرئيس** : تأجل الاستجواب الى الغد ٠)

وصلت الأمور الى ذروتها فى الجلسة المؤجلة ٠ كم كان الوفاء سائدا ، حتى أن القهوة والسجاير قد استغنى عنهما ، وبدأ الرئيس بقراءة تقرير يبلغ فى حجمه حجم كراسة صغيرة brochure

الرئيس : علم من أجوبتك السابقة التى أبديتها وقت استجوابك فى أول دفعة أن التهديدات التى سمعتها والأحوال التى شاهدتها نحو حريق اسكندرية وغير ذلك ، أثرت عليك حتى توقعت

حصول أمور فى مصر من قبيل ما وقع فى اسكندرية واتفقت مع « على باشا شريف » على الالتجاء بطرفه مع حريمك وأولادك من باب الأينون ، وقلت أنك كنت خائفا من القوة « العسكرية » التى كانت تحت يد زمرة العسكرية لتهورهم ، وأيدت قولك بما سمعته من يعقوب سامى بحضور ناس من تهديده اياكم بأخذ البوليس من مصر والمستحفظين والتوجه بهم لمحل المحاربة وتركنكم بدون حارس لكم ، ان لم تكونوا ، أعنى معشر الملكية ، يدا واحدة مع الجهادية ، ولاسيما قوله لكم انه اذا كانوا الملكية أعداء للجهادية من خلف العدو والآخر من أمام ، فيهلك هو وباقى رؤساء العصبة العدو الداخلى قبل الخارجى ، ولما سئلت أخيرا ، علم من أجوبتك أن الأقوال التى نشرت « بالطايف » بالقدح والذم فى حق الحضرة الخديوية والعبارات التى اندرجت بها لتهييج الأفكار كانت موافقة لآرائك ، وكذلك التوقيع منك على محاضر الجمعيات التى انعقدت بالداخلية كان برغبتك ورضاك ، ووصفت ذلك المجلس العرفى الذى قيل عنه أنه كان آلة فى يد الجهادية أنه هو بالفعل الحكومة الرسمية ، فما سبب هذا التناقص : هل كانت أفعال الجهادية تروعك مرة وتطمئنك مرة أخرى ؟

احمد رفعت : لما سئلت يوم الخميس عن مسئلة المحاضر التى طلب تسليمها منى ، كنت عرضت أن لى تصحيحات وكلام يختص بصورة محضر استجوابى فى يومى ٧ و ٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، الذى صار وقتها بغير حضور موسيو برودلى المحامى عنى ، وما عرضت ذلك فى يوم الخميس الا بالنظر لكون مسألة المحاضر كانت من المسائل التى سئلت عنها فى اليومين المذكورين ، فسعادتكم أمرتم وقتها بأن الكلام على وجه العموم فى استجوابى هو خارج عن الموضوع الذى سئلت عنه وأن ليس لى الحق الا فى التكلم عن المسألة الخصوصية التى وجهت الى ، أعنى مسألة المحاضر ، وبما أن السؤال الموضح أعلاه هو مستنبط من جميع أجوبتى المندرجة فى المحضر المذكور الذى لى فيه كلام طويل مؤيد بأدلة واثباتات ولى تصحيحات سأبينها على مهل وهنا بالتطبيق على ما أجبت عنه فى يومى الخميس والسبت بحضور جناب موسيو برودلى ، فأرجو من سعادتكم اما أن تسمحوا لى أن أبدى ملحوظاتى وأبين تصحيحاتى فيما يتعلق بالصورة المحكى عنها وبعدها ان كان سعادتكم تصرون على توجيه السؤال المذكور

أعلاه ، فأنا مستعد للاجابة عنه بكل الصدق والحرية ، واما سعادتكم تتفضلوا بسؤالى عن أمر معلوم مادة فمادة ، وعند الاجابة عنها أبدى تصحيحاتى أولا فأولا ٠

(**الرئيس** : يمكنك أن تفعل ذلك كتابة)

(**مستر برودلى** : هل ستشكل جانبا من المحضر ؟)

(**الرئيس** : نعـم)

(اعترض كثيرون من أعضـاء القومسيون على هذا الرد ، فسحب الرئيس تصريحه) ٠

الرئيس : السؤال الذى وجهناه لك صريح ، فانك سئلت عن التناقض الموجود بين أجوبتك السابقة المقول فيها أنك كنت خائفا من زمرة العسكرية وبين أجوبتك الأخيرة المقول فيها أنك أجريت ما أجريته برغبتك ورضاك ، فأفد عن هذا السؤال ٠

أحمد رفعت : عرضت فى جوابى السابق أن تصحيحاتى وكلامى ستكون مثبوتة بحقايق ، فلو رخصتم لى سعادتكم أن أبديها كما جرت به العادة من أعطاء الرخصة لكل مسئول أن يبدى ملحوظاته ويتكلم بالحرية بشرط عدم خروجه عن الموضوع ، فبوقتها يعلم لسعادتكم من تصحيحاتى ومن كلامى الذى سيكون متعلقا بحقايق ليست منكرة أن ليس هناك تناقض ، فأرجو من سعادتكم أن تعطونى هذا الحق الذى لم يحرم منه أدنى شخص مسئول فى أدنى قضية ، وهنا بالنسبة لأهمية المسألة المسئول فيها ولزوم معرفة الحقايق ٠

الرئيس : لم يمنع أحد من المسئولين عن ابداء أقواله ، بشرط عدم خروجه عن السؤال الموجه اليه ، فقل ما ترغبه فى شأن ما سئلت عنه ، بحيث لا تخرج عند حد السؤال الموجه اليك ٠

(**أحمد رفعت** : لقد أسيئت معاملتى اساءة بالغة وأنا فى الحبس ، ذلك أن تتونجى لم أعرف اسمه ٠٠٠٠٠) ٠

(**الرئيس** : اسكت ، ليس هذا هو السؤال ٠ كلنا يعرف أنه لم يشك أحد من التتونجى سوى عرابى وعبد الغفار) ٠

(**سير تشارلز ويلسون** : ليس هذا هو الواقع ٠ اننى أشعر أن من واجبى أن أقول اننى عند زيارتى الاسبوعية كان كل أو غالبية المسجونين يشكون من زيارة هذا الرجل ومن سلوكه) ٠

« **الرئيس** : يجب أن نبعث فى طلب «مسيو بوريللى» ، فهو النائب العام»

« **مستر برودلى** : اننى أتجاسر وأطالبكم بتسجيل هذا أنه نظرا لأن اتفاقات مسيو بوريللى على هذه الصورة قد أغفلت ، فاننى أرجو من المحكمة الآن أن تلتزم بتعهدات « مسيو بوريللى الرسمية » .

« **الرئيس** : يستدعى مسيو بوريللى » .

(يحضر مسيو بوريللى متأخرا ساعة) .

« **مستر برودلى** : هل التجىء اليك يا سيدى ، اذا لم تلتزم المحكمة بتسجيل الاجابة الكاملة لشخص متهم ؟ » .

« **مسيو بوريللى** : نعم ، ولكن يجب أن يكون موجزا » .

« **الرئيس** : اذن ، طالما أن النائب العام يقول هذا ، فيمكن لرفعت بك أن يجيب » .

أحمد رفعت : لما صار نقلنا من حبس الضبطية الذى استشهد على حالتنا به بحضرة الكولونيل ويلسون ، وحضرنا فى هذا المحل ، وضعونا كل واحد فى محل مخصوص منفردا وعليه خفر ، ولم يسمح لى بمقابلة أحد من الخارج ، ذلك بعد ما صار من اهانتنا بواسطة شخص ضابط عسكرى علمت فيما بعد أنه أحمد أفندى كمال الصاغقول أغاسى المأمور فى حبس الدايرة السنية ، وتلك الاهانة هى أنه طلبنا للنزول فى حوش الضبطية صار اخبارنا أنه لازم أن تنزل حالا لو بقفاطين النوم ثم لما لبسنا تكررت المراسلة فى أثناء ذلك ، وحصلت أيضا الاهانة المذكورة لحسين باشا الدرملى وكيل الداخلية سابق . نزلنا فوجدنا الأفندى المذكور ، مسكنا من ذراعنا وقال : « دا مين ده ؟ » ، فأجبت بأنه أحمد رفعت ، فعندها أمر الجاويشية بغاية العنف ، وقال : « خدوا ده وحطوه هناك » ، وأشار الى الصف الأول . هذه ، هى الاهانة لا تعد شيئا يذكر بالنسبة لما حصل فيما بعد ، وبعد ذلك ، بقيت أتفكر فيما أخبرنى عنه ابراهيم بك فوزى مأمور الضبطية اذ ذاك ، فى أول يوم حبسى ، حيث كان آتى حضرته من منزل سلطان باشا مرعوبا ومصفر الوجه وقال اننا لا نتعشم فى اجراء أدنى تحقيق بل حتى وان حصل فسيكون تحقيقا ظاهريا يحجر علينا فيه عن التكلم بالحرية وان الموت هو واحد سواء كان الآن أو فيما بعد ، وعندها محمود باشا سامى ، قال انه متفكر فى قطع عرق من ذراعه ليموت بسهولة . فقال له ابراهيم بك فوزى ، « انت والحالة هذه خسرت الدنيا ،

الفصل الحادى والعشرون

سليمان سامي ، المعترف

ان القول المأثور « الحقيقة أغرب من الخيال » قل أن يجد تصويرا أصدق من قصة « سليمان سامي » ٠ وما من حادثة غيرها لها صلة بالمشاهد الختامية للمأساة التى لعب فيها « عرابى » الدور الرئيسى يمكن اعتبارها ذات أهمية درامية وارتبطت هى نفسها بتفاصيل القبض على « سليمان » فى كريت ، وما أعقب ذلك من تحوله الى معترف بجرمه approver فى القاهرة ، ثم ما كان من اعترافه المقتضب جدا الذى بموجبه حكم عليه بعد ذلك بستة أشهر ونفذ فيه الحكم على المقصلة التى أقيمت بسرعة وسط أطلال « الميدان الكبير » فى الاسكندرية ٠ اننى لم أر « سليمان سامي » الا مرة واحدة ٠ كان ابنا لـ « داود باشا » ، وكان من قدامى الموظفين المصريين ، وأحيانا كانوا ينادونه « سليمان سامي » وأحيانا أخرى « سليمان داود » ، وأعتقد أن اسمه الصحيح هو « سليمان بك سامي بن داود » ٠ ومما لا شك فيه أنه قام بدور هام فى العمليات الحربية فى الاسكندرية ، ولم يعد هناك أدنى شك فى أنه أشرف بنفسه على حريق جزء من الحى الأوربى فى المدينة ٠ وعلى شاكلة كل ضباط الجهادية غيره فى مثل رتبته ، كان معروفا عند « عرابى » ، الذى كان قبل قيام الحرب على صداقة به كانت أقرب لأن تكون حميمة ، وبعد الهزيمة فى التل الكبير ، اختفى مع شخص يدعى « حسن موسى العقاد » ، وهو تاجر قاهرى ومن ملاك الأراضى ، وكان معروفا عنه أنه مختص باضرام الحرائق العمدية incendiary ، وأنه متعصب وان كان فى الحقيقة سياسيا مصريا نشيطا ، وأما عن أمانته فهى مثار شك ٠ وفى أسلوب

جنونى لا يمكن تعليله ، وجد الاثنان طريقهما الى « كريت » ، وهناك أمكن التعرف عليهما على الفور وألقى القبض عليهما . لقد بدا من هروبهما الطائش أنه دليل قاطع على اقتراف ذنب ، وقد أعادهما الحاكم التركى الى مصر بما يلزم ذلك الموقف من حزم .

وقد تصادف أننى كنت فى طرقة سجن الدائرة السنية عند وصول السجينين ، وقد بدا وجه « سليمان » داكنا تماما من الخوف ، ولم يكن محياه ، على ما أذكر ، جذابا بصورة فريدة ، وكان يرتدى معطفا عسكريا كاكى اللون وحذاء جلده لميع ، أما « حسن موسى » ، فكان يرتدى عمامة بيضاء فى لون الثلج ورداء ضيقا لاصقا بجسمه قماشه فى لون الشكولاتة (وهو رداء أظهره فى شكل وجيه بجسمه النحيل ومحياه الزيتونى ، وبوجهه الذى كان وجها نمطيا للمصرى) وكان يبدو أنه لا يعير اهتماما بالمرة ، وكان ينحنى انحناءة باسمة تدل على معرفة لكل من كان يلتقى به . لقد كان معتادا تماما على مثل هذا اللون من الحياة ، لأن حياته كلها كادت تكون قد أنفقت فى القبض عليه وفى النفى . وقد وضع القادمان الجديدان فى زنزانتين متجاورتين ، بعد زنزانة « عبد العال » ، وبعد ذلك غادرت أنا السجن وأنا لا أدرى تماما ما هو متوقع أن يحدث .

وفى ذلك الوقت تماما ، كان عملنا دؤوبا بصورة خاصة . كنت أفحص كل شهادة كانت تصل الى أيدينا ، وكنا نكرس أقصى وقت ممكن لدراسة نقاط معينة عن الشريعة الاسلامية والقانون الدولى باعتبار أنها ستكون مفيــدة فى المحاكمة المقبلة . وكان « لورد هنرى لينوكس Lord Henry Lennox » فى ذلك الوقت موجودا فى القاهرة ، وأعرب « عرابى » عن رغبته فى مشاهدته ، ومع ذلك فقد رد « رياض باشا » أن رفض طلب السماح بالدخول ، وكان هــذا الرفض هو ما فضله « لورد هنرى » . وقد حدث هذا فى اليوم الذى أعقب وصول الأربعين الاثنين ، وقد استنفدت بضع ساعات فى استجواب لا جدوى من ورائه لـ « رفعت بك » ، وقد بدا هذا الاستجواب الآن ، مرة أخرى ، غاية فى الأهمية فى اعتقاد أعضاء القومسيون .

كان الوقت متأخرا فى المساء عندما شاهدت « عرابى » الذى أخبرنى أن شيئا غير عادى قد حدث . قال انه ما أن غــادر « سير تشــارلز ويلسون » السجن ، حتى اجتمع أعضاء القومسيون الذين كانوا قد تفرقوا ، اجتمعوا من جديد ، وظلوا فى المبنى حتى وقت متأخر من المســاء ، وكان فى استطاعته أن يسمع بوضوح أنه سيعقد اجتمــاع فى الغرفة المجاورة ، وقد اتضح أن الاجتماع استمر بدون توقف طوال عدة ساعات ، ومن خلال شبابيك الحصير المسمرة ، رأى أكثر من واحد من

رسل القصر ممتطى الجيـــاد غادين رائحين بين سجن الدائرة السنية والقصر ٠

كان « عرابى » على علم بالموافقة التى حصلنا عليها والتى كانت خاصة الآن بالسماح بالحضور ، وكانت لهذه الموافقة أهميتها فى تلك الاستجوابات ، وهو لذلك تشكك على الفوز فى أن لعبـــة غدر تحـاك ٠ وقد أكد « رفعت بك » ، كما أكد صاغ سابق عبوس فى سلاح المشاة ، يدعى « خضر بك خضر » (وكان يشـــاركه زنزانته وكان متهمـــا فقط بالمشاركة فى مسيرتى مطالب الجيش pronunciamentos (١) اللتين صدر عفو عنهما) أكدا تماما كل ما قاله « عرابى » ٠ لقد سمع « رفعت » من الحراس ، فضلا عن هذا ، أن « سليمان سامى » قد استجوب على مدى ست ساعات متصلة ٠ لقد طلبت من المساجين الثلاثة أن يكتبوا تقريرا عن كل ما حدث ، وعدت الى دارى وأنا فى غاية من الانزعاج من هـــذا المظهر الذى يدل على الاجحاف الذى أدركت أننا نعامل به ٠

وفى المساء ، علمت حقائق معينة ، لها صلة بعودة « سليمان سامى » الى القاهرة ، مكنتنى من أن أتوقع ، وكلى ثقة ، الخطوة التالية من جانب غرمائنا ، أعنى ، السماح لـ « سليمان بك » بأن يدلى بشهادته كمعترف بالجرم الذى اتهم به ٠ ومنذ اللحظة التى قدم فيها الى الاسكندرية حتى وصوله السجن فى القاهرة ، لم يغب لحظة واحدة عن أعين أعوان الخديو الغيورين : فقد أخذه مدير مديرية الاسكندرية فى عربة مغلقة الى محطة سكة حديد نائية بعض الشىء عن المدينة حتى وضع فى ديوان خاص فى القطار ، وأرسل الى القاهرة تحت العناية الشخصية لنائب مدير مديرية الاسكندرية ٠ ولم يدم توترنا طويلا ، اذ فى صـــباح اليوم التالى زاد الطلب على العدد الصادر من جريدة الجازيت المصرية The Egyptian Gazette بصورة لم يسبق لها مثيل ، اذ اشتمل على بيان كامل ، صحيح وفريد ، أعلن فيه « سليمان بك سامى » أنه المعترف على نفسه بأنه حارق الاسكندرية ، وقد ملأ البيان المقصود ثلاثة أعمدة فى الجريدة ، وعلى أساس أن « له تتمة » ، وفى اليوم الذى أعقبه ، نشرت الجـــريدة جزءا آخر من البيان غطى عمودين أيضا ، وعلى أساس أن « له تتمة » أيضا ، ولكن لسبب أو لآخر ، لم تظهر التتمة على الاطلاق منذ ذلك الوقت حتى الآن ، ومن المحتمل ألا تنشر ٠

ارتفع الاحساس الحزبى فى القاهرة ، مرة أخرى ، وكاد حكم شرفة

---

(١) المقصود بهما مسيرتى : فبراير ١٨٧٩ فى نظارة نوبار عهد الخديو اسماعيل ، ثم مسيرة سبتمبر ١٨٨١ فى عهد الخديو توفيق ٠ (المحقق) ٠

فندق شبرد يكون اجماعيا : قصة « سليمان سامى » يجب أن تعامل ، بطبيعة الحال ، على أنها لا رجعة فيها ، وأن مصير عرابى يجب أن ينظر اليه ، بناء على ذلك ، على أنه قد تقرر . وان التتبع السطحى التام لآخر عمل بارع « لاسماعيل أيوب » ، ولو أنه تتبع سريع ، ليوضح القدر الحقيقى ، أو بمعنى أصح ، التفاهة الحقيقية للبيان الذى صدر عن « سليمان سامى » والذى يكاد لا ينتهى . لقد حاول كثيرا أن يبرهن ، وقد رأيت على الفور أن ادعاءاته يعوزها تماما الاثبات . لقد ادعى « سليمان سامى » أن « عرابى » أمره شفويا ، فى حضور كثير من الأشخاص لا يستطيع أن يحددهم ، بأن يحرق الاسكندرية ، كما ادعى أيضا أن عرابى أرسله الى قصر الرمل ليقتل الخديو ، ولكنه فى طريقه التقى ب « سلطان باشا » (ولم يكن قد حصل بعد على وسام K.C.M.G. (١) ، وكان لا يزال أبو بلده) كما التقى ب « حسن باشا شريعى » ، وعند رؤيته لهذين الشخصين لام نفسه واعترف بنيته الاجرامية ، وتخلى عن تصميمه المنطوى على العقوق ، وعاد من حيث أتى . أما بالنسبة لاضرام النار ، فكان واضحا أن توكيده كان محالا ، ودليل الاشتراك المشكوك فيه لا يمكن أن يحمل ادانة كالتحريض على القتل . كنت قد حصلت بالفعل على شهادتى « سلطان » و « حسن شريعى » ، ولم تكن أى من الشهادتين تتضمن أقل تلميح لمثل هذا الحادث ، ولم تكن الشهادتان تحويان ، على الأقل شهادة سلطان ، أى أساس بتوكيد صحتها .

ومع ذلك ، فقد كان ضروريا اتخاذ بعض الخطوات لحماية حقنا الذى ضمنه لنا اتفاقنا مع « بوريلى بك » ، لقد بعثنا بخطاب الى « اسماعيل بك أيوب » يتضمن العبارات التالية :

« لقد علمنا من الصحف السيارة ان شخصين يدعيان « سليمان داود » و « حسن موسى العقاد » استجوبهما القومسيون كشاهدين ضد موكلنا « عرابى باشا » ، وكان ذلك فى عدم حضورنا وفى عدم وجود المتهم ، ومخالفا لشروط الاتفاق الذى وقع فى ٢ نوفمبر ، الذى وقعه سعادتلو « بوريلى بك » نيابة عن القومسيون .

« ومع احترامنا ، نحن نحتج على هذه الانتهاكات لاتفاق يربط كل الأطراف ، وبالتالى فان الاجراء الذى استخدم فى أية مرحلة عند مناقشة المحكمة للدليل الذى أمكن التوصل اليه ، مخالفا لما ينبغى اتباعه ، ونحن نعتبر هذا الدليل كان لم يكن فضلا عن بطلانه . »

---

(١) هذه الحروف اختصار لوسام قائد فرسان كتيبتى القديس مايكل والقديس جورج ، وفيما يلى الاسم الكامل للوسام :

knight commander of Saint Michel and Saint George. (المحقق)

ولم يكتب لهيئة المحكمة أن تدوم فرحتها التى لم تخفها وهى تتفكر فى خيانة « سليمان سامى » ، اذ ان كثيرا من الأشخاص الذين أشار اليهم بالوصف أو لم يشر كشهود ، واجهوه فى نفس اليوم التالى ولكنهم لم يؤيدوا ، أفرادا وجماعات ، هـــذه القصة · ناقض « حسن شريعى » وهو فى السجن ، « وسلطان باشا » وهو فى قصره ، ناقضا بصراحة معلوماته الرومانتيكية عن لقائه بهما ، الذى ادعاه ، على طريق الرمل · وجدت أن أوربيا ، شديد العداء فى آرائه للحركة الوطنية كان حاضرا عندما جاء وفد القومسيون لاســتجوابه « أبو بلده » باحترام عن الموضوع ، فرد « سلطان » على السؤال الذى وجه اليه بانكار قاطع، وقد علق الزائر الأوربى على ذلك قائلا : « واأسفاه ، ان اجابة مختلفة ربما كانت قد حسمت الموضوع كله » · ترى هل كانت بعض شكوك الضمير تؤلم ذهن « سلطان باشا » حتى فى الساعة الحادية عشرة ؟ أعتقد ذلك ·

هناك اختلاف شاسع بين مبادىء الماسونية Freemasonary وتطبيقها فى انجلترا ، ومبادئها وتطبيقها فى القارة الأوربية ، فالمنهج الانجليزى لا يضم شيئا أكثر اثارة من : البر Charity والصـــحبة الطيبة ، والماسونية الأجنبية تكاد تكون ، بصراحة ، مجالا مناســبا وملائما للنقاش السياسى ولكلتا الحيرتين السياسية والدينية · وكلتا العقيدتين ليس بينهما أى شىء مشترك بالمرة سوى قليل من الاشارات الظاهرية والمنظورة التى تنقل الى أذهان الذين يســتخدمونها معـــانى مختلفة تماما · ففى مصر ، آراء ماسونية القارة ، بشعاراتها الجمهورية: اخاء Fraternité وحرية Liberté ومســـــاواة Egalité كان من الواضح أنها حجبت لزمن على الأقل عنصرا انجليزيا كانت له الغلبة مرة فى العديد من محافلها Lodges وبالرغم من أنه لـم ينتم أحد من زعماء الحزب الوطنى للماسونية ، فان عـــددا كبيرا من تابعيهم كانوا من بين الأعضاء النشطين والمتحمسين · لقد كان الشيخ محمد عبده سيد محفله Mostre af his Lodge وقد هرع كثيرا من النواب البرلمانيين للانضمام الى الطريقة ، لقد وجد « رفعت » (وهو « ماسونى » أيضا) ، وكان عادة ما يصف المصريين الوطنيين بأنهم « متعطشـــون للانصاف hungry for justice ، وجدا اغراء عجيبا فى الصـــلة الصوفية التى كانت توحد كل الرجال فى رباط مشتركة من الحـرية ، وكان يؤمن بأن نفس الأداة التى ساعدت الايطاليين فى نضالهم من أجل الحرية والوحدة ، ستساعد ماديا القضية المصرية ·

ولابد لى أن أشرح الآن خروجى المفاجىء عن الموضوع ، وحديثى عن « الماسونية المصرية » ، اذ فى كل فترة من فترات بقائى بمصر ، وبصورة أخص عند كل محنة شديدة كان يمر بها مصير « عرابى » ، تلقيت سيلا من خطابات غفـــلا من التوقيع تعطينى كثيرا من الأفكار القيمة ، وتحيطنى علما بكل ما كان يحدث فى معسكر العدو ، وكان الجانب الأكبر من هذه الخطابات تحمل اشارات لا يمكن أن نخطئها فى أصل « ماسونى » ، وبعض هذه الخطابات جاءتنا عن طريق البريد ، وغيرها كانت تترك فى مكتبى من أشخاص غير معروفين ، وفى هـــذه اللحظة الدقيقة التى أصفها الآن ، تلقيت النصيحة التالية :

***

اخى المحترم

انتصارا للحق اتشرف باخباركم بما يأتى : وهو ان سلطان باشا صرح أمام جملة اشخاص ان عرابى باشا لم يحرق الاسكندرية ولم يامر بحرقها وانه تحقق له ذلك حينما توجه لمخابرة عرابى باشا فى صرف العساكر المحتاطين بسراى الرمل فى يوم ١٢ يوليو ١٨٨٢ وانه رآه وقتها واقفا عند باب شرقى فى غاية الكدر مما حصل من الحرق والنهب وهو يوبخ العساكر على ما اجروه كل التوبيخ وانه مولع نار شديدة وهو يرمى فيهـــا كل ما رآه مع العساكر من النهوبات وان سلطان باشا لما ساله عمن تسبب فى الحريق اخبره بغاية الكدر ان السبب فيه سليمان سامى ٠

وللتحقق مما ذكرته يمكنكم ان تتوجهوا تزوروا سلطان باشا بمنزله وتسالوه عن ذلك وهو لا شك عندى فى انه يخبركم كما اخبرتكم هذا ورجائى ان تحرقوا خطـــابى هذا بعد اطلاعكم عليه ومنى على اخويتكم السلام ٠

اخيـــكم

***

ان الانتصار القصير الأمد الذى كان مرجعه الى النجاح الذى كان مترقبا فى استجواب « سليمان سامى » يبدو أنه شجع القومسيون على أن يتحدى ، صراحة كل اتفاق لنا مع « بوريللى بك » ٠ وفى طريقى الى سجن الدائرة السنية صباح يوم ١٩ نوفمبر ، وجـدت أعضـــاء القومسيون على وشك استجواب شخص مالطى مسن وخائن ، جاء فجأة وبعد غيبة عن البلاد بخمسة أشهر ، وقد جمع بعض العبارات التى تفوه بها عرابى أثناء ضرب الاسكندرية ، وادعى أن لهـا معنى مســتترا وغامضا ٠ فى أول الأمر ، حاول « اسماعيل أيوب » بقليل من الاقناع أن يؤكد تأكيدا أكبر على حقيقة أن صاحب الســعادة الشاهـد كان

، باشا » وآن « الباشا لايمكن أن يكذب a Pacha could not lie » وفيما يلى الحوار الذى دار بيننا :

الرئيس : نحن نقصد اليوم أن نستجوب شـاهدا جديدا ضد كل المسجونين .

مستر برودلى : اننى أتجاسر وأقرر ان هذا لا يمـكن أن يتم مـا لم تسمحوا بحضور المتهمين اذ أن هذا مخالف للتعديل الذى أدخل على اجراءات المحاكمة التى وافق عليهـا بوريللى بك فى ٢ مـن نوفمبر باسم القومسيون والمعمول بها منذ توقيعها .

الرئيس : (القومسـيون يرفض هذا الاتفـاق) المتهم لا يمـكن أن يحضر .

مستر برودلى : اننى أود أن أشير الى أن « مسـيو بوريللى » قد ترك اجتماع القومسيون ليوقع الاتفاق ، وأنه قد وقع فى غرفة مجاورة فى حضور بعض أعضاء المحكمة ، فأن الرئيس هنأنى على انهائى للموضوع ، وان المحكمة عقدت لبضعة أيام لكى يكون الاتفـاق نافذ المفعول in force وليعمل بمقتضاه ، ويجب أن أوضح أيضا أن « مسيو بوريللى » قدم لنا رسـميا على أنه المستشار القانونى المفوض لدى نظارة الداخلية والقومسيون .

الرئيس : سنكتب الى مسيو بوريللى .

وبعد ساعة تأخير ورد خطاب .

الرئيس : بناء على رأى مسيو بوريللى ، يمكننا أن نستمر فى استجواب الشاهد ، وهذا ما سنفعله .

مستر برودلى : لما كنت لا أوافق على هذا الانحراف عن القواعد المتفـق عليها ، فاننى أرجو أن تسمحوا لى بأن أقدم طلب نقض باعتراض كتابى ، وأن انسحب .

وفى صحبة مستر سانتلانا Mr. Santillana ، قمنا بزيارة طويلة لـ « عرابى » الذى يبدو أنه لم يتأثر كثيرا باتهام « سليمان سامى » له ، بقدر ما كان تأثره بالغ العمق لما عرف بالخيانة التى كان هـو ضحيتها . وما لبثت أن اقتنعت أنا بصدق التوكيدات التى ذكرهـا لى عرابى . أما عن ادعاء « سليمان » أن « عرابى » كلفه بقتل الخديو، فقد ذكر على الفور استحالته استحالة جوهرية ، اذ قال عرابى : « لم

وعشرين كلة قد أطلقت ، وبقيت هنـاك حتى جاء « طلبة باشا » فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وذكر لنا أن الأميرال البريطانى يريد احتلال ثلاث طواب هى طوابى « المكس » و « العربى » و « العجمى » وانه يريد قرارا بتلك النتيجة من الخديو فى الساعة الواحدة والنصف

« عقد اجتماع برئاسة الخديو بحضور « درويش باشا » و «فدرى بك » ، المندوبين العثمانيين ، وبحضـور « اسـماعيل باشا حقى » و » طلبة باشا » والنظار ، وبعد تدبر الأمر ، استقر الرأى على أن يرفع الأمر للسلطان ، نظرا لأن الفرمان الامبراطورى لم يعط للخديو الحق فى أن يتنازل عن أى جزء من مصر لأية قوة أجنبية ، وأن يعود « طلبة باشا » الى الأميرال لاحاطته علما بهذا القرار ثم أمرنى الخديو بعـد ذلك بأن أبعث بجنود ليحتلوا طابيـة « العجمى » حتى يمنعوا نزول الانجليز · عرضت على سـموه الصعوبات التى منعتنى من أن أقـوم بهذا الاجراء ظهر عليه الغضب وقال « كيف تكونون جنودا ، اذا لم تستطيعوا أن تمنعوا العدو من احتلال بلادكم ؟ » ثم انفض الاجتماع بعد ذلك ، وبعد ربع ساعة ، بعث الخديو فى طلبى ، وفى حضـور « درويش باشا » سـألنى عن السبب فى حضور أربع فرق بيادة الى سراى الرمل : لم يكن عندى علم بهذه الحقيقة ، وذكرت له ذلك وقلت اننى أفترض أنهم قدموا لتعزيز حرس القصر ، فقال انه لم تكن هناك ضرورة لحضورهم وأن الحرس الذى كان موجودا من قبل فيه الكفـاية تماما ، وأن من الأفضل اصدار الأوامر ليتوجهوا الى مكان آخر · خرجت من حضرته وسألت عن الضابط القائد لهذه الفصيلة فاكتشف أنه كان « على أبو هاشم » من الفرقة السادسـة بيـادة ، سألته لماذا قدمت الكتائب الأربعة · وبأوامر من جاءت فأجابنى أن « سـليمان سامى » هو الذى أمرهم بتعزيز حرس سراى الرمل ، فطلبت منـه العـودة الى موقعه ، نظرا لأن خدماته غير مطلوبة هنا ، وأن حرس قصر الرمل فيه الكفاية تماما ·

« وفى الساعة الرابعة ، انصرفت متجها الى الاسكندرية ، وفى طريقى قابلت عددا كبيرا من الناس هاربين من المدينة ، وعند اقترابى من باب شرقى ، رأيت حشدا كبيرا من الناس خليطا من الجنود والمواطنين نازحين متجهين الى المحمودية مع زوجاتهم وأطفالهم ، وكلهم يصيحون وبسؤالى عن السبب فى كل هذا ، قال لى البعض ، أن الانجليز سيطلقون النار على المدينة ؟ وقال آخرون ان الضرب قد بدأ بالفعل ·

العربات متجهة الى هناك ، بعث بأربع فرق لتعزيز الحرس ، وقد فعل هذا من تلقاء نفسه دون أن يتلقى أية أوامر بشأنها .

« وبعد أن بلغ « طلبة باشا » قصر الرمل ، تفرق الجند ، وتشرف بمقابلة سمو الخديو ، وصار مؤكدا ، بعد التحرى ، أن الجنود ، لما قيل لهم ان الأهالى المدنيين والعسكريين فى الاسكندرية يغادرون المدينة فى حالة فوضى ، أدركوا أن هناك بعض المخاوف على القصر ، ومن ثم أحاطوا به . لقد شكرهم الخديو على ما فعلوه ، وبعث بـ « حسين بك الترك » ياوره ، مع « طلبة باشا » ليعبروا لى عن تحياته . لم يجدنى الرسول ، وقد عرفت هذا من « طلبة باشا » ، وأحاطنى علما بذلك عندما التقى بى أثناء النهار .

« ولما وجدت أن من المحال اعادة الجنود الى الاسكندرية ، وأن قلة منهم فقط كانوا فى « باب شرقى » ، وأن كثيرا من الضباط من بينهم « نسيم بك » مدير الســـاحل بالاسكندرية ، أخبرونى أن البوارج قد اقتربت من طابية « السلسلة » لكى تضرب ثكنات « باب شرقى » وتقطع عليهم خط الرجعة . عندئذ فكرت فى أنه من الضرورى اختيار مكان مناسب يلتقى فيه الجنود ، ولذلك أمرت ضباط مختلف الكتائب بأن يتوجهوا ، مع الجنـــود الذين يمكن جمعهم الى مكان مناسب على ترعة المحمـــودية ، وتوجهت مع « راغب باشـــا » رئيس المجلس فى عربته حتى القصر حيث تتلاقى الطرق ، أمام مدافن المسيحيين، هبطت من العربة ، نظرا لأن راغب باشا كان متوجها لمقابلة الخديو فى قصر الرمل ، وتوجهت أنا مسرعا نحو الترعة ، لكى أكون أول من تواجـد هناك ، وحتى أحافظ على النظام بين الجنود ، واستمرت القوات فى الوصول الى هناك ما بين الغروب وبزوغ الفجر . » .

***

لو كانت المحاكمة قد استمرت ، لكان لبيان عرابى حجتـــه الثابتة ، على ما أعتقد ، ولكان « ابراهيم بك فوزى » قد أدلى بشهادته ، ولاستطاع واحد يدعى « حسن أفندى الشمس » (١) (رئيس التحرير السابق لجريدة عربية اسمها « المفيد ») أن يذكر صراحة أنه فى وقت من الأوقات ، عندما كان المسجونين لا يزالون بضبطية بوليس القاهرة كان هو واقفا بالقرب من « عرابى » و « محمود سامى » عندما جـاء « سليمان سامى » اليهما ، وكاد يكون وقوفه بالقرب منه هو نفسه ،

(١) انظر مذكرات أحمد بك رفعت .

الفصل الثانى والعشرون

كيف تولينا الدفاع عن محمود باشا سامى

بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر ، سعدت بزيارة لم تكن متوقعة تماما من مستر برودويى Mr. Broadway ، الذى كان لعدة سنوات موضع ثقة كطبيب أسنان فى خدمة الأسرة الخديوية . بدأ « مستر برودويى » حياته كجندى ، ولكنه استطاع من عدة سنوات مضت ، الخلاص ، بفطنة بالغة ، من الخدمة فى مختلف أسلحة الجيش ، سعيا وراء مهنة أكثر ربحا وهى حشو وخلع أسنان عظماء المصريين . من الواضح أن زائرى كانت له شخصية طاغية ، وقد علمت بعد ذلك أنه كان قد شن حرب افتراءات مهنية طويلة ومكلفة ضد منافس له طبيب ممارس عام كان يقيم قبالته ، وكان قد وصف نفسه على لافتة من النحاس لازالت معلقة ، لم تكن أكثر اثارة من لافتة مستر برودويى التى كانت تحمل عبارة « طبيب أسنان غير عادى للأميرة الأم وكل أفراد الأسرة الخديوية » . لم يضيع مستر برودويى أى وقت فى الدخــول فى موضـــــوع زيارته ، اذ قال : « أريد أن تدافع عن « محمود باشا سامى » ، أنا أحمل اليك رسالة من زوجته ، ولكننى أؤكد لك أن هناك شخصيات أعظم وراءها ، وكنت مضطرا لأن أنزع شعار تاج الأميرة الخديوية من على المظروف ، ولعلمك ، زوجة الباشا هى نفسها أميرة من العائلة اليكنية ، ولم يكن لدينا فكرة عن أنه كان كبش فداء لبقية المسجونين ، بل ان الأميرة العظيمة الأم (١) قد قر عزمها على هذا ، وكانت كل الأميرات الأخـريات قد قررن أن يدلين برأيهن

---

(١) الأم المبجلة ، أم اسماعيل باشا (الخديو السابق) .

ل « لورد دافرين » عن « توفيق باشا » . أرجوله ، اقرأ هذا ، وناولنى مظروفا ممزقا (٢) يحوى مذكرة قصيرة مختومة حديثا ومكتوبة بالعربية على الوجه التالى :

انى زوج محمود باشا سامى أوكل مسيو برودلى الأوبوكاتى الانغليزى بالمحل الدفاع عن زوجى المذكور لدى مجلس التحقيق والمجلس العسكرى ان لزم حضور أحد المجلسين أو كليهما وفوضت له بالأمس فى كل ما يتعلق بالدفاع عن زوجى تفويضا تاما وأتحمل ساير المصاريف التى تلزم بهذا الغرض ادفع له من مالى وكلنا بذلك وكالة تامة بحيث يكون هاذه الورقة حجة تامة تنشر فى كل وقت وزمان وكتب بقاهرة مصر .

(توقيع) زوجة محمود باشا عديلة

وقد صدق زوجها على ذلك فكتب :

انى اصادق على قول زوجتى حضرة عديلة خانم بقبول جناب المحب الأفوكاتو الشهير حضرة الموسيو برودلى محاميا عنى فى القضية المنظورة على .

(توقيع) محمود سامى ١٣٠٠/١٢/٤هـ .

سألت مستر « رودوبيى » : « ولكن ألم يسبق ل « محمود سامى » ان دفع أتعابا لمحام وطنى يدافع عنه ؟ » فأجابنى مستر برودوبيى على الفور : « تقصد ليشنقه » واستطرد « يوسف كامل كان شحاذا منذ شهر مضى ، وهو غنى حتى الآن ، ولو شنق الباشا فسيكون أغنى رجل فى الواقع » . ولم يكن أمامى الا أن أعربت عن أملى أن لن تكون الأمور بالغة السوء كما تصور ، ولكنه لم يكن ليقبل أى رفض منى ، وقال ان الأميرة عديلة قد أخذت على نفسها عهدا بأن تنقذ زوجها وأنها ستتوجه الى « ليدى دافرين » اذا لزم الأمر ، بل وستلقى بنفسها تحت قدمى « لورد دافرين » نفسه ، ولكنك ستدافع عنه كما ستدافع عن « عرابى » . لقد وعدت بمطالبة « اسماعيل أيوب » بالتصريح اللازم ، وبعد ذلك علمت أنه فى نفس ذلك المساء قدمت زوجة محمود سامى ملتمسا تعضيدا لوجهة نظرها ، الى « لورد دافرين » .. لم يعد « اسماعيل أيوب » اذنا صياغة لمثل هذه البدعة فى تغيير المحامين ، ولذلك كان لابد من معالجة الأمر معالجة دبلوماسية . بعد ذلك بثلاثة أيام (يوم ٢٣ نوفمبر) بعثوا فى طلبى فى سجن الدائرة السنية ، وهناك التقيت ب « يوسف كامل »

---

(١) مزق المظروف ، لأن مستر برودلى كما ذكر « برودلى » ، لنزع من عليه شعار تاج الأميرة الخديوية . (المحقق)

فى حالته الصحية العادية (١) ، وهو يغادر زنزانة موكله بشكل لم يكن متوقعا • أخبرنى « محمود سامى » بعد ذلك أن المحامى المصرى حاول بصورة جادة أن يحثه على أن « يستعطف » القومسيون بالتوقيع على بيان بتجريم « عرابى » باستخدامه اللاشرعى للراية البيضاء فى الاسكندرية • استدعانى « اسماعيل أيوب » لمقابلته فى غرفته ، وبطرفة من عينه لا أخطؤها ، سلمنى الخطاب القصير التالى :

جناب المحب المحتشم مسيو برودلى الأبوكاتو

حيث أن يوسف أفندى كامل الذى كان عينه محمود سامى محامى عنه طلب تنازله عنه التوكيل حيث اعتراه عيا وتقدم مكاتبة من محمود سامى يرغب تعيين جنابكم محاميا عنه ولكون التحقيقات الابتدائية مع محمـــود سامى انتهت وبمقتضى البنـــد الأول من قرار القومسيون الرقيم ١٢ نوفمبر سنة ٨٢ وأعلن لجنابكم فى اليوم المذكور أن المتهم من بعد نهاية التحقيقات الابتدائية معه يكون له الحرية فى انتخاب أبوكاتو للمدافعه عنـــه وحيث أنه انتخب جنابكم فالقومسيون لا يمانع فى ذلك اتباعا لمنطوق القرار المحكمة عنه •

٢٣ نوفمبر ١٨٨٢ رئيس قومسيون التحقيق بمصر

خاتم اسماعيل أيوب

ثم شاهدت بعد ذلك جهود زوجته المخلصة لم تذهب هباء (٢) ، فمن يوم القاء القبض على زوجها ، نقلت كل أثاثها الفاخر من غرفتها ، وكانت تجلس مرتدية خيشا وسط رماد كدلالة على فرط حزنها ، وكانت تعيش فقط على أمل عودته ، بيد أن الصحف الوطنية الموالية للقصر ، أخذت ، فى قسوة مهذبة ، تكثف من حين لآخر فى نشر قصص رومانتيكية عن حزن الزوجة على زوجها الغائب الذى وجد مفاتن جديدة بين جميلات سيلان Ceylon (١) • ان المقصود بمثل هذا الحب المنزه تماما عن أى غرض لا يمكن أن يكون انسانا قاسيا لا قلب له ، كما يصفه أعداؤه •

---

(١) هذه العبارة لم يكتبها المؤلف (مستر برودلى) جزافا ، وانما اراد ان يوجه نظر القارىء بطريقة غير مباشرة ، الى أن المحامى المصرى (يوسف كامل) لم يكن مريضا على الاطلاق ، كما ادعى ذلك اسماعيل أيوب فى رسالته المختصرة الى برودلى • والموجودة على نفس هذه الصفحة • (المحقق)

(٢) أثناء المحاكمة فى القاهرة ، ذكرت الصحافة المصرية من حين لآخر أن زوجة محمود سامى قررت الانفصال عنه وطلبت الطلاق ، وليس هناك من شىء فى هذا الخبر يمت للحقيقة على الاطلاق (المؤلف) ، وان كنت أرى من سياق ما سرده المؤلف من اخلاص الزوجة لزوجها ما يدحض ما سمعه المؤلف من شائعة لا شك أنها مغرضة تماما • (المحقق)

(١) سيلان هذا الاسم القديم لجزيرة جمهورية سرى لانكا Sri Lanka (المحقق)

كانوا قد استكملوا كتابة دفاعهم ، وكان الوقت يمر ببطء شديد ، وكانت القراءة المتمعنة لما تصدره الصحافة المصرية الشهيرة الموالية للقصر (التى صار فيها عرابى الآن متهما اتهاما صريحا ببيعه لبلده للانجليز فى التل الكبير) كانت تسبب الكثير من الغم حتى عارضتها . وسمحت لبعض من مترجمينا أن ينقلوا الى العربية مقتطفات من صحفنا الانجليزية التى كانت لديها الجرأة فى رؤية القضية المصرية فى ضوء الصواب والخطأ . وقد نشرت صورة فى جريدة الأنباء المصورة Illustrated News شجعت المسجونين تشجيعا كبيرا . لقد زيلت بهذه العبارة « اعداد الشهود لمحاكمة عرابى » . وليس هناك من شيء أكثر صدقا من الحياة . لقد مثلت الصورة الفلاحين ورجال البوليس والجنود والضباط والباشوات ، وأخيرا وليس آخرا ، الريف بأسره the sticks ، كانوا ممثلين فى هذه الصورة ، فى حين كان كاتب قبطى يجلس على الأرض وهو مشغول بتسجيل اعترافه . لما رأى عرابى هذه الصورة قال وهو يتنهد : « آه ، لو كنت أصدق أن الناس فى انجلترا سيفهمون هذه الصورة ، لشعرت بالسعادة ، انهم سيرون فيها ما كنت أعنيه عندما كنت أصيح بلا جدوى مطالبا بالانصاف » .

فى هذا الوقت ، تعددت لقاءاتنا بشخصيتين كان مقدرا لهما ، بعد ذلك ، أن يكتبا عن مصر من وجهتى نظر مختلفتين ، اننى أشير بعبارتى هذه الى : « مستر ماكنزى ولاس «Mr. Mackenzie Wallace المراسل المشهور لجريدة التايمز Times فى القسطنطينية ، والثانى « مسيو جبرابيل شارم Mr. Gabriel Charmes ، وكان وقتها يمثل جريدة كانت يوما ما لها نفوذها فى مصر وهذه الجريدة هى « جريدة المرافعة «Journal des Debats» وكان « مستر ولاس » شخص لا يكل فى بحثه عن الحقائق ، وقد حاول ، فى اخلاص ، أن يساعد ما أمكن ، فى التعرف على مستقبل مصر من خلال ملاحظاته واقتراحاته المبنية على خبرته ، وقد وضعت تحت تصرفه أوراق عرابى ، وأعطيته كل المعلومات التى تمكنت من الحصول عليها فيما يتصل بتاريخ القضية التى كان يحارب من أجلها ، ولا شك أنه سمع من الطرف الآخر أكثر مما يمكن أن أقوله . وكان من الواضح أن « مستر ولاس » لم يتردد فى الوصول الى قرار . ان ما أسماه أول الأمر « ثورة عسكرية تافهة «an insignificant military revolt » ثم أسماه بعد ذلك « عصيان عسكرى كبير «a great military rebellion» ما لبث أن رآه بعد ذلك لا هذا ولا ذاك . لم يكن اختيار عرابى الا اختيار تقدير من البلاد بأسرها لقيادة حركة وطنية تماما ، نابعة من مفهوم واع ، وتميزت من بين مثيلاتها

الأخرى من الحركات باجماعيتها unanimity وشموليتها universality (١)

وباختصار ، يعترف « مستر ماكنزى ولاس » ، بصراحة جديرة بالفخر ، بأن كل مصر كانت مع عرابى ، وأن عرابى كان على رأس مصر كلها • انني أرحب بهذه الشهادة المحايدة عن وطنية عرابى الخالصة هو وصحبه ، وكم كنت أود أن اتفق مع « مستر ولاس » ، قلبيا ، بالنسبة للنتائج الأخرى التى توصل اليها • لقد أنصف مستر ولاس عندما أقر بحسن صيت عرابى الذى ، بعد أن كانت كل ثروة « جنة الفردوس » بين يديه ، لم يكن لديه من شيء ليتنازل عنه لأعدائه المنتصرين سوى بضعة فدادين ورثها عن أبيه كانت تدر عليه دخلا لا يصل الى مائتى جنيه سنويا • انه فى اعتقادى أن لو كانت لدى « مستر ولاس » نفس الفرص لدراسة شخصية عرابى كتلك الفرص التى أتيح لى الكثير منها ، لتعرف فيها على خصال أبعد سموا وأكثر واقعية من تلك الخصال التى يختص بها حالم أحلام أو مثرثر بأحاديث سطحية •

أما « مسيو جبرابيل شارم » ، فقد كانت له وجهة نظر مختلفة تماما ، فمن رأيه أن عرابى قد فشل فى ضرب الانجليز ، ونتيجة لذلك صار من المناسب معالجة الموضوع برمته كما اعتبرنا من « عرابى » و « الانجليز » ممقوتين وأضحوكتين فى نظر الشعب الفرنسى العاطفى • لقد كان هذا الحكم متوائما مع حالة « مسيو شارم » الذهنية وقت كتابته له ، اذ سبق له أن مجد فى جريدته وفى كتاب أصدره ، مجد السياسة العسكرية لمواطنيه الفرنسيين فى تونس ، وان كان ذات اسم تونس قد صار ، رغم جهود « شارم » ، اسما مكروها من أقصى فرنسا الى أقصاها • لقد سبق ل « شارم » أيضا ، لسنوات طويلة ، أن استخدم قلمه فى نزاهة نادرة ، فى مساندة نظام كان معروفا يوما ما فى مصر باسم الرقابة الثنائية Dual Control ، ولكن اذا كان « عرابى » عدوها الموعود قد هزم ، فلقد كان من الواضح أنها هى الأخرى مترنحة فى سقوطها • وفى روح من الاثارة الطبيعية جدا ، جمع « مسيو شارم » لمجلة العالمين الاثنين Revue des Aeux Mondes (٢) مادة لرواية كان يسره أن يدعوها « العصيان العسكرى فى مصر » (٣) • وعلى غير شاكلة مستر ولاس ، ولم يهتم مسيو شارم ، بل لم يسع وراء حقائق معتمدة ، اذ

---

(١) انظر : د• ماكنزى ولاس : مصر والمسالة المصرية
Dr. Mackenzie wallace : Egypt and the Egyptian Qestion,
لندن ، ماكميلان وشركاه ، ١٨٨٣ •

(٢) عدد ٥ أغسطس وأول سبتمبر ١٨٨٣ •

(٣) وعنوانها بالفرنسية : Insurrection Militaire en Egypt

انه لتشويه صورة عرابى والانجليز ، كانت الوسيلة الأكثر فعالية هى الاعتماد فحسب على قلم جاهز وخيال خصب لا يثير شكوكا ٠

انه ليكفينا مثل واحد لايضاح الطبيعة الواقعية لرواية مسيو شارم ، اذ انه يطالب الشعب الفرنسى أن يصدق ، فى جدية رزينة ، القصة التالية عن علاقات « سير تشارلز ويلسون » بالحكومة المصرية فيما يتصل بموضوع سوء معاملة الأشخاص المتهمين فى السجن ، فهو يكتب : « ذات يوم ، وصل سير تشارلز ويلسون الى النظارة فى ثورة سخط وقال متعجبا : « انك وعدتنى أن لن يتعرض المساجين للتعذيب ، ومع ذلك فقد حاقت بهم قسوة فريدة فى طابعها ٠ لقد حرمتهم من الرقاد أثناء الليل بطوله ، فجنودك كانوا يمشون فى الردهات جيئة وذهابا بأحذيتهم الثقيلة ، ومن ثم فقد حرم على كل واحد منهم النوم ٠ كيف تظن أن منهما تحت مثل هذه الظروف يمكن أن يجمع شتات أفكاره ويعد دفاعا سليما ؟ » (١) ٠

« وفى نفس المساء ، تلقى الحراس امدادا من الشباشب ، وطولبوا بأن يتحركوا فى هدوء ٠ وفى اليوم التالى ، عاد « سير تشارلز ويلسون » ، وقال « انه دائما نفس الشىء ، عرابى لا يستطيع النوم ، فزنزانته منخفضة ورطبة وباردة ، وصحته فى خطر بالغ » ، وفى الليلة نفسها ، انتقل عرابى الى غرفة شاهقة الارتفاع ، جيدة الدفء ورحبة ، بمعنى آخر جديرة بنزيلها ٠ وفى الصباح التالى ، كان « سير تشارلز ويلسون » مرة أخرى فى نظارة الداخلية ، وقال متعجبا : « أنت تتظاهر بأنك تنفذ اقتراحاتى ولكن سلوكك يبقى بلا تغيير ٠ ان مرتبة عرابى خشنة جدا بكل تأكيد حتى أنه لا يمكنه النوم عليها » ٠ وعلى الفور ، وضع على سرير عرابى أنعم مرتبة صوفية ، ومرة أخرى ، جاء « سير تشارلز ويلسون » ثانية ليوجه اتهاما ، اذ قال : « اننى أقر أن المرتبة جيدة ، ولكن ليست عنده ستائر الناموسية ، فالناموس الذى يئز طوال الليل حول رأسه يمنعه من كل تركيز فكرى ويعوقه عن اعداده لدفاعه » ، فعلقت ناموسية فى غرفة عرابى ، ومع ذلك لم يكن « سير تشارلز ويلسون » راضيا ، ومرة أخرى قدم الى نظارة الداخلية وقال فى تعجب : « الآن ، أنا مؤمن بتعمدك ، انك مصمم على ألا تدع عرابى ينام بأى ثمن ، فناموسيته بها ثقوب من خلالها تدخل الحشرات بسهولة أكثر من دخولها الغرفة ذاتها » ٠ فتغيرت الناموسية ، ومع ذلك ، لم يكن « سير تشارلز ويلسون » راضيا ، فقد عاد مرة أخرى ، وقال فى تعجب : « يجب أن

---

(١) مجلة العالمين الاثنين ، عدد سبتمبر ١٨٨٣ ، ص ١١١ ٠

تعلم أن عرابى الآن وحيد ، وأن زوجته تريد أن تراه من حين لآخر . انها فى الواقع سلسلة من التعذيب لحرمانه من مفاتن عيشته الخاصة les charmes de son intérieur . ان زيارات زوجته له ستكون سلوى وعزاء له معا . وفى تلك الليلة تسللت زوجة عرابى الى زنزانة زوجها . وهنا تتوقف معلوماتى ، ولكننى أعتقد أن هذا الكولونيل الشجاع أحس بأنه مظهر من مظاهر الاجحاف أن لا يسمح لعرابى بنقل كل نساء حريمه الى السجن . ان الرياء الانجليزى وحده هو الذى منعه من أن يقدم طلبا قد يثير خجل الكثير من السيدات الانجليزيات اللاتى كن يتجمعن فى أعداد غفيرة فى القاهرة على بعد خطوات من سجن عرابى » .

وليست بى حاجة لأن أقول انه ليست لأية كلمة من هـــذه القصة الطريفة ، أساس من الواقع ، كما أننى لا أظن أنه من الضرورى أن أكرر مرة أخرى ذكر اسم « مسيو جبرابيل شارم » اللهم الا للرد بالمثل على قذف كان يظنه ملائما ، مع افتقار الى شـــهامة لم نكن نتوقعها من فرنسى له شهرته وذكاؤه ، لينهال به على سيدة انجليزية (١) .

---

(١) المقصود بهذه السيدة : مسز نابير Mrs. Napier (زوجـــة مستر نابير ، المحامى الثانى ل « عرابى »)التى كانت قد جاءت من انجلترا خصيصـا لتشهد محاكمة عرابى ، ولما دخلت قاعة المحكمة كانت تجلس قبالة عرابى وكانت معها باقة ورد ، وضعتها على مكتب أمامها ، وكانت تنوى أن تبعث بها الى عرابى بعد انتهاء المحاكمة تقديرا منهـا لهذا البطل ، ولكن شاءت الظروف أن جلس بالقرب منها رجل لم يكن لها سابق معرفة به ، واذا بهذا الرجل يضع الباقة فى يد السجين فظن انها هى التى وضعتها فى يده ، وتكهرب الجو ، وكان « مسيو شارم » من بين مراسلى الصحف الأجانب الحاضرين لجلســة المحاكمة ، فألف عنها قصة بعيدة عن الحقيقة وصف فيها مسز نابير بالوقاحة وبأنها ظهرت بمظهر مجوج (انظر تفاصيل الحادثة فى نهاية الفصل الخامس والعشرين من هـــذا الكتاب) ـ (المحقق)

الفصل الثالث والعشرون

مشروعات للمصالحة

كان الأسبوع الذى أعقب أول لقاء عمل مع « محمود سامى » مقدرا له أن يشهد كلا من بداية ونهاية محاكمة عرابى ولم تظهر فى الأفق أية دلالات خارجية عن قرب أو توقع حل · أما ما اعتدنا عليه من تبادل الرسائل والاعتراضات مع أعضاء قومسيون التحقيق فلم يبد أى مظهر من مظاهر فتورها ، ولكن ابتدعت عراقيل جديدة ـ وكانت تمارس بقصد اعاقة دخولنا الى المسجونين ، بل ان « اسماعيل أيوب » أكد لنا بصورة جادة أنه لا يمكن بأى حال أن يقر بالسلطة الملزمة بتنفيذ الاتفاق المبرم مع مسيو بوريللى ، بالرغم من أننى فى الوقت نفسه الذى قال فيه هذا القول ، كان معى فى جيبى خطاب رسمى يذكر ضمنيا أنه أبلغ بالاعتراف بهذا الاتفاق اعترافا تاما ·

وكان « عرابى » فى انتظار « النطق عليه بالحكم » بثقة وبمزيد من الصبر ، وكان يقضى وقته سعيدا بما فيه الكفاية فى القراءة أو الكتابة · أما « عبد العال » و « طلبة » ، فكان كلاهما مريضين مرضا حادا الى حد ما ، وكان أولهما يعانى من « حمى خبيثة » انتقلت اليه من مستنقعات دمياط ، وأما الآخر ، فكان يعانى من « ربو » مزمن من زمن طويل ، وكثيرا ما كنت أعتقد أن « طلبة » لن يعيش ليغادر مصر منفيا ، ولقد تولى جراح انجليزى (١) علاجهما من مرضيهما مع عناية لم تفتر ، فى

---

(١) الجراح المقصود هو الميجـــور وورن Major warren ، وكان دكتور جاكسون Dr. Jackson من فرقة لورد ولسلى Lord Wolseley قد زار عرابى وطلبة ، عدة مرات فى عابدين قبل أن يسلما أنفسهما للسلطات المصرية ·

سلطة السلطان غائبة ، والقرار التسلطى Fiat لنظارة الجهادية العثمانية Grand Sereskérat لم يكن حتى مطلوبا على الاطلاق ، كما أن مكانة مختلف الأعضاء المؤلفة منهم المحكمة لم تكن تصلح لتشكيلها التشكيل القانونى ، بل ان بعضا منهم (بما فيهم الرئيس) قد استجوب فعلا كشاهد ضد المتهمين أمام « اسماعيل أيوب باشا » على اعتبار أنه « قاضى احالة «Committing magistraitc» .

ولكن لم يكن هذا هو كل شىء . نفس أساس المحكمة العسكرية كان قاصرا ، اذ فى ١٧ سبتمبر أصدر الخديو محمد توفيق ، فى وقار ، أمره العالى بالتسريح الكامل للجيش المصرى l'armée Egyptienne est dissoute ، وبعد ذلك بعشرة أيام ، وبأمر عال ثان ، شكلت المحكمة العسكرية التى سيمثل أمامها موكلونا . ويعلن القانون العثماني بوضوح تام أن « الخدمة العسكرية وقت الحرب «active service هى الخاصية المتطلبة من كل فرد عضو فى محكمة شكلت وفقا لهذه المتطلبات . وان محكمة عسكرية وجيشا سرح يمثلان أمرين لا يستقيمان تماما ، ومن ثم فلم يكن أمرا مستغربا أن كان النظار فى انجلترا فى حيرة حول هذا الموضوع ، ولا بد أن هذا التعجب قد بلغ الذروة مما اضطر سير ادوراد ماليت Sir Edward Malet الى أن يبعث (فى ١٤ نوفمبر) بالتلغراف التالى :

« أخبرنى تكران باشا Tigrane Pacha أن المحكمة العسكرية التى شكلت لمحاكمة عرابى وغيره من المسجونين « ليست مشكلة طبقا لأى سند قانونى «is not instituated under any legal code اللهم الا بمرسوم خديوى بمقتضى حق سموه ، وليس هناك بند فى القوانين لعقد محكمة عسكرية ، ولكن هناك فقط بند بدعوة المجالس العسكرية لمحاكمة مذنبين عسكريين » .

ومن ثم ، كان هذا التلغراف مستندا كافيا لبدء دفاعنا بحجة داحضة ضد مشروعية المحكمة وتشكيلها . بل لقد وجدنا عندنا دفاعات أخرى نستطيع أن ندعم بها موقفنا وهى : هل كان لانجلترا ، وقد قبلت مرة استسلام عرابى لها كأسير حرب ، الحق فى أن تسلمه الى أية سلطة أخرى غير سلطتها لتحاكمه تلك السلطة عن أفعال اقترفها فى ميدان القتال ضد انجلترا ؟ هل يمكن لأية محكمة عسكرية مصرية مثلا (حتى ولو كانت مشكلة تشكيلا شرعيا) أن تدينه أو تدين أى فرد آخر ، لاستخدامه الراية البيضاء بصورة خاصة للأضرار بالقوات الانجليزية وايذائها ؟ وانجلترا لن تدعى ، بكل تأكيد ، أنها تعمل » مع « الخديو »

فى نفس الوقت عندما كانت طوابى الاسكندرية ، امتثالا لأوامر الخديو ، كانت ترد ، ما أمكنها على نيران البوارج الانجليزية ؟

اننا يمكننا القول أننا كنا فى موقف أحسن عندما لم نعارض فى أربعة اتهامات معينة موجهة لموكلينا قصد « مسيو بوريللى بك » أن يعتمد عليها أساسا : أولها على القائمة : « الاستخدام اللا شرعى للراية البيضاء مخالفا بذلك القانون الدولى «Law of Nations» ومن الغريب أن « بوريللى بك » ، وهو المحامى الممتاز الى حد بعيد ، لم يدرك الفكاهة ـ العريضة المكشوفة ، البدهية ـ لمثل هذا الاتهام .

اذ قال بصراحة : « لقد كانت نكتة سخيفة «un mauvaise plaisanterie» ابتدعت لتدخل عليكم السرور أيها الانجليز . لقد اعترف بوريللى أنه كان عاجزا تماما عن أن يفهم بموجب أية سلطة قانونية ، يكون للمحكمة العسكرية الأكثر ريبة فى تشكيلها ، أن تصدر حكمها على أمور لا تعلم بها الا شعوب على صلات مودة فيما بينها comity of nations ، وعلى علم بالقانون الدولى jus gentium ، ولكن لم يكن هذا هو كل شىء . اننا يمكننا أن نتساءل : « ألم يكن رفع الراية البيضاء فى الاسكندرية (مساوية لرد المدافع المصرية على هجوم الأسطول الانجليزى ؟) . لقد لقى موافقة على الفور من قبل الخديو ، الذى تحت قوة الظروف يندد بهذا الفعل على أساس أنه متهم به ؟ هذه الحادثة التاريخية ، حادثة رفع الراية البيضاء لا شك أنها أثارت الى حد كبير « لورد آلكستر » الذى ظن أنه قد خدع بها ، بيد أن نفس تبرمه الطبعى كان من الواضح أنه غير كاف لأن يضع الفعل الذى كان يشكو منه ، فى عداد الجرائم . ان الأجيال المتلاحقة من المشرعين كانوا يجدون دائما مبررا مشروعا فى أن « الحرب خدعة «deceit in warfare» وأعلنوا أن ابراز راية الهدنة ليس مجرد عائق لأداء مثل هذه الأفعال ، على اعتبار أنها يمكن أن تؤدى قانونيا أثناء استمرار العداوات ، مثل سحب فرق أو جلب تعزيزات ، وبالمثل ، فان وجود مثل هذه الراية لا يستتبع أى التزام بالتوقف عن أى هجوم من جانب المتحاربين الذين فى مرمى نظرهم رفعت الراية . اننى أمسك عن اقتباس أى رأى من مراجع كثيرة لكبار الثقات القانونيين حول هذه النقطة الثابتة البرهان كل الثبات ، فيما عدا أحدثهم ، والذى ربما يعد أكثر من يعتمد عليه منهم وهو « سير جارنيت ولسلى Sir Garnet Wolseley » ، الذى صدرت له ليلة سفره فى طريقه الى مصر ، وبالضبط ثلاثة أسابيع الا يوما واحدا بعد ضرب الاسكندرية ، صدرت له الطبعة الرابعة من كتابه

« كتاب الجيب للجندى «Soldier's Pocket Book (١) فهو يصف فيه بدقة السلوك النمطى لحامل راية الهدنة على أنهـا « عملية لكسب الوقت » ، وفيها يكاد يعيش نشيطا فى تنظيمه الدقيق للشراك ، ويتباطأ فى رزانة « أثناء قيامه بالخدمة » ، « ويترجل متظاهرا بالبحث عن زلط فى حوافر جواده » ، هذا ما يجب عليه أن يمارسه ليحقق نجاحا ، وهو يقول : ان القائد العام (٢) « يجب ألا يسمح للحظة لآية أفكار انسانية لا معقولة أو زائفة أو أية أفكار عاطفية عن الشهامة أن يكون لها تأثير على قراره • لا ترجىء للحظة واحدة أية حركة أو أية عملية قد تشترك فيها ، لأن العدو قد بعث اليك براية هدنة ، فقد يكون « هدفه هو كسب الوقت » ، حتى تصله تعزيزات أو تغيير جناح أو تنفيذ حركة التفاف » • وبعد بضعة أيام من نشر « كتاب الجيب للجندى » ، أعطى « سير جارنيت ولسلى » لرجال الصـحافة بالاسكندرية مثلا فريدا فى الاستفادة من أن « الحرب خدعة » • هل حقا أن ما قام بتدريسه جروتيوس Grotius وفاتل Vattel أقره « لورد ولسلى » فى القاهرة من رفع الراية البيضاء لا يعد جريمة لمجرد أن المصريين مارسوه ؟ •

يكفينا هذا القدر عن حادثة الراية البيضاء ، وعلى أية حال ، لقد امتزج بها بصورة بارعة ، حريق الاسكندرية • هذا الاتهام ، يمكن أن ينظر اليه فى ضوئين واضحين : اما على أنه فعل استراتيجى كان لا بد منه أو أنه نتيجة حرق متهور بعيدا كل البعد عن أى تفكير عســكرى • أما بالنسبة للنقطة الأولى ، فيمكن أن يقال الكثير فى الدفاع عنها ، فالاتلاف فى الحرب devestation in war مسموح به مثلما هو مسموح بخدع الحرب ، فتدمير المدن واتلاف الحقول أمام أى عدو غاز أو عدو مترقب وصوله مؤكدا ، كل هذا لقى بالمثل مشروعية سامية فى الأحداث التاريخية السالفة ، بل ان هذه الأمثلة متناثرة بكثرة على كل صفحة تقريبا من صفحات مادونه تاريخ الحروب العصرية • ولم يكن « عرابى » محظـورا عليه أن يقول شيئا بالمرة ؟ ولكنه منذ البداية أنكر فى وقار الاتهام كله • لقد كان عبء البرهان على أعدائه ، وقد فشلوا جميعا فى أن يثبتوا بالحجة اتهامهم له • لقد كان فى استطاعة « عرابى » أن يقدم

---

(١) عنوان الكتاب بالكامل هو : « كتاب الجيب للجندى فى خدمة الميدان «The Solidier's Pocket Book for Field Service لندن ، ماكميلان وشركاه (١٨٨٢) ، ص ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ •

(٢) فى الأصل الانجليزى للكتاب ، اختصر المؤلف عبارة « القائد العام » فى ثلاثة حروف هى G.O..C ، اختصارا للرتبة العسكرية لـ : General Officer Commander (in chief) (المحقق)

دليلا قويا فى تبرئته لنفسه exculpation ، ولعله لم يكن فى حاجة الى تبرئة ساحة نفسه ، ولكنه لو لم يفعل ذلك لبقى موضع شك فى أمره الى الأبد · وعن موضوع مذابح ١١ يونيو لم تظهر أية بادرة لبرهان ، ومناقشة هذا الموضوع أكثر من هذا ليس الا ضياعا للوقت ، لأنه كان شكلا ، وبصورة قاطعة ، قد صرف عنه النظر ·

وقد بقى فقط اتهام واحد من هذه الادانة المخططة تخطيطا عجيبا ، وهو الاتهام الذى وصف بصور شتى : الاتهام « بالعصيان » ، وهو الذى يوصف مرة على أنه « تسبب فى اشهار المصريين للسلاح فى وجه الخديو » وتارة على انه « استئناف للحرب بعد خبر السلم » وتارة على أنه « اثارة حرب أهلية والقيام باتلاف الأراضى المصرية » وخط دفاعنا عن هذا الجزء كان واضحا ولا غموض فيه : فلقد كان « السلطان » بالنسبة لـ « عرابى » سيده his suzerdin (أو كما قال مستر جلادستون Mr. G:adstone : حاكمه his sovereign) ، وكان « الخديو » رئيسه المباشر وممثل سيده أو حاكمه ، وقد بدأت الحرب بعد تفكير متزو وبالاتفاق المشترك بين « الخديو » ونظاره المسئولين و « درويش باشا » رسول السلطان · وبعد ذلك بثلاثة أيام ، اذ « بالخديو » وقد أصبح فى حضانتنا أو تحت حمايتنا ، ينقض قرار الحرب · ان ذات وضعه جعل كل أفعاله وأوامره فى ذاتهـا ipso facto ، لاغية وباطلة null and void (١) · لقد صار الآن « رئيس دولة فى الأسر » ، ومع ذلك فلقد كان هناك سبب اضافى لعدم اعتبار أوامره ملزمة أو فعالة · ان الاتفاق المشترك الذى خول سلطة البدء بالعداوات ، كان ينقصه التصديق على « نبأ السلم » ، وحتى لو كان « لا يزال عميلا حر التصرف » ، فان قراراته كانت تتطلب تأييد تصديق مجلس النظار ، ولكن نظاره كانوا لا يزالون متشبثين بقرارهم الأصلى ، وأعلنوا استمرار الحرب بتلغراف طاف مصر بطولها وعرضها · ولقد كانت أفعال « عرابى » التى تلت ذلك دستورية تماما ، وقد رضخ لارادة الشعب بأسره ، كما عبرت عنه الاجتماعات الوطنية الكبرى التى عقدت فى القاهرة ، وحاكمه « السلطان » ، لم يظهر أية دلالات على رفض وقف الحرب ، وعندما أعلن الخديو (وكان من وجهة النظر المصرية ما زال أسيرا) عزل « عرابى » ، كما أعلن أنه عاص ، كان ذلك فقط على أساس أن مقاومته كانت عديمة النفع لغزاة وطنه ، ولم تصل لعنة السلطان anathema الى

---

(١) انظر : كالفو Calvo : القانون الدولى Le Droit International المجلد الرابع ، ص ٣٥٤ ، باريس ، ١٨٨١

مصر الا متأخرة فى ذات الأيام القليلة الأخيرة من النضال ، وكان هناك ما يدعو الى الشك فيما اذا كانت قد أذيعت رسميا بالمرة . وبالاضافة الى هذه الحقائق ، عندنا الوصايا العامة التى وصلت عرابى بقرار من السلطان ، وفيها أوصاه بأن ينقذ مصر من أن يصبح مصيرها مصير تونس ، وأن يحميها بأقصى جهده من كل تعد على الحقوق المقدسة للخليفة. ولم يكن عرابى من الناحية القانونية « عاصيا » ، ومن الناحية السلوكية كان الاسم الوحيد الذى يمكن أن يطلق عليه هو افتقاره الى النجاح فى مهمته . وكان طبعيا جدا أن ينعته الانجليز تماما مثلما اعتاد الفرنسيون من سنة مضت أن ينعتوا التونسيين بأنهم « عصاة insurgents» .

ولو أن القضية حكم فيها الى نهايتها ، لكان من واجبنا بالتأكيد أن نحاول (أملا مقابل أمل) أن نرسى دفاعا أعرض . لسلوك عرابى على الشريعة الاسلامية الغراء ، يكون ملزما بالمثل لكل من شخصه وقضائه المسلمين . لقد كنت أشك أحيانا اذا كان حتى ولاؤهم الجديد الخالص يمكن أن يكون برهانا ضد ادعاء مثل هذا ، ان التبرير الكامل الذى يمكن أن يستند اليه عرابى من بين مبادىء القانون الدولى فى أوربا ، كان قادرا على معالجة ترفع أكثر فعالية وعلى ايضاح أكثر تنوعا فى ضوء تلك القوانين الدولية القديمة التى كانت قداسنها هى البند الأول فى الثقة عند كل من « عرابى » ومتهميه . « وعرابى » من البداية كان سلوكه فيه التزاما تاما بواجبات المسلم الحق ، فى حين أن من تجمعوا الآن ضده قد انتهكوا كل سنة من سنن العقيدة .

ان أحد الملامح المميزة للقانون الأوربى هو سيادة السلطة العسكرية على السلطة المدنية زمن الحرب ، وطالما أن القانون العسكرى قد أعلن ، فان الأول ، بناء على المبدأ الرومانى القديم عن السلطة المطلقة imperium يطغى على الثانى والمفهوم الاسلامى لحالة الحرب مختلف تماما ، ومن ثم يكون الحكم على سلوك « عرابى » أثنـــاء المعركة استنادا الى الدستور الاسلامى الصارم . وطبقا للمبدأ الاسلامى ، فان الســـلطتين المدنية والعسكرية ، لا يمكن التفكير ، على الاطلاق ، فى أنه ليس هناك من وفاق بينهما ، فكلاهما له وجوده ، وكلاهما يمكن أن يعمل فى مجاله الصحيح من أجل الصالح العام والأمن العام للبلاد . ان من يعين قائدا للجيش له سلطة عليا مطلقة على الادارات الاخرى للدولة ! ويخول القائد فقط الهيمنة الكاملة على العمليات العسكرية . هذا المبدأ غريب فى ذاته ، ويبدو أنه استنادا اليه تقرر بالفعل قيام حكومة مؤقتة فى القاهرة . وكان عرابى الشخص الوحيد الذى خول بادارة القوات ، ولكنه لم يكن ديكتاتورا على

الاطلاق ، بالمعنى التشريعي والسياسي للكلمة : اذ كان بجانبه ويرأسه مجلس الأعيان الذى استمد منه سلطته ، واليه كان يقدم بيانا عن افعاله والذى (أى المجلس) احتفظ لنفسه بالرقابة وبادارة الأعمال المدنية للحكومة المصرية ·

كانت أعظم قوة لدفاعنا ، فى المظهر القانونى البحث ، يماثلها تنوع الظروف التى كان لا بد لنا من أن نستغلها فى الحث على تخفيف الأحكام extenuation · لقد كان فى استطاعتنا أن نظهر بصورة قاطعة أن نضال « عرابى » القصير من أجل استقلال مصر ، ربما كان أشهر حرب انسانية عرفها تاريخ العصور الحديثة ، والتى يمكن أن تقارن بصورة كريمة ، بالعمليات الحربية للاجناس الأكثر تطورا والأكثر حضارة ، والتى أعطت بأنصاف ، قائد الوطنيين المصريين المنهزم الحق الشرعى فى أن يعطف عليه اعداؤه المنتصرون · لقد سبق أن أشرت الى سلوك عرابى، أما « على فهمى » ، فقد بذل هو الآخر كل ما فى وسعه ليحمى مسيو د·شير Mr. De Chair أثناء سجنه فى مصر · لقد اعتاد أن يزوره يوميا وكان يبعث اليه بوجبات كانت تعدها له زوجته من بيته فى المدينة ، بل كان يزوده بملابس تلائم حرارة صيف مصر ·

وكان كرما بالغا من « مسيو فردناند دلسبس Mr. Ferdinand de Lesseps» أن يبعث الى بملف كى أستعين به ، اذا لزم الأمر ، يحوى كل التلغرافات التى تلقاها من « عرابى » عندما كان فى الاسماعيلية ، الى جانب نسخة من خطاب كان قد بعث به الى « مستر بلنت » · وفيما يلى ما يقوله مسيو دلسبس عن عرابى :

« عندما كنا معا فى مصر فى اوائل العام ، كان عرابى ناظرا للجهادية ، وقد قمت بزيارته فى مكتبه مرة · واثناء زيارتى له ، كان يحيط به كبار اهالى القاهرة ، وكانت ساحة قصر النيل تعج بالفلاحين ، بل ان غرف الانتظار كادت تكون مزدحمة بصورة غير مريحة ، وكان يبدو متالقا اسمى مكانة فى تقدير الشعب له · وفى مساء نفس ذلك اليوم شاهدته فى المسرح يحتل مكانا فى المقصورة الخديوية بجانب الخديو ·

« واثناء الحديث الذى دار بيننا ، اعتاد ان يقول الكلمات التالية : « اننى اعرف يا مسيو دلسبس انك تعشق دائما « الحرية » و « التقدم » وهما الشيئان الوحيدان اللذان اريدهما لوطنى » · قابلته أيضا فى حفل اقامه الفندق الجديد New Hotel بمناسبة عيد الاستقلال الأمريكى ، عندما كان يرد على تشكرات الخديو ·

« عدت بعد ذلك الى فرنسا ، ولم اعد الى مصر مرة اخرى الا بعد ضرب الاسكندرية ، ومن ذلك التاريخ حتى احتلال القوات الانجليزية للاسماعيلية لم ار عرابى قط ، اذ ان

الى التغاضى عما فات وان تتخلص من « كابوس » محاكمة عرابى بأى ثمن.
لقد كان لدى سبب قوى فى الاعتقاد بأنه كانت تحت المانيا على الوساطة
فى « داونج ستريت Downing Street (١) بوجهة نظر تجنب ما هو
أشد رهبة وهو « نشر غسيل السياسة القذر » فى مصر •

وكانت الحكومة المصرية فى هذه الفترة أيضـــا ، قد وصلت الى
نفس الرأى • وبعدما كاد يكون متزامنا من فشل محاولة « محمود سامى »
فى مصالحة « عرابى » ، وفشل محاولة القومسيون فى انتهاك قواعـد
المرافعة ، أبلغ « شريف » صراحة أن عقوبة الاعدام لن تنفذ على الاطلاق •
ولقد نقل « سير تشارلز ويلسون » الى « لورد دافرين » بأمانـــة :
الطبيعة غير الحاسمة للدليل الذى اعتمد عليه الاتهام الذى لا يعمل أكثر
من أن يؤيد ضد المتهم تهمة « العصيان الناجح ضد الخديو » • لقد كان
القلق الكبير الذى يقلق بال مجلس النظـــار المصرى الآن هو اخراج
« العصاة » من البلاد « جملة en bloc» (كتعبير الخديو هو نفسه)
بأسرع ما يمكن • و « رياض » لم يراجع نفسه أبدا فى مبدأ « لورد
دافرين » ، الذى أنكر فيه ذاته ، عن موضوع حقن الدماء ، وكان من
الواضح أنه ضعف من اللحظة التى أدركه فيها ، وكما سنرى بعد قليل ،
أنه بعد ذلك بعشرة أيام اعتزل العمل وتفرغ للحياة الخاصة •

لقد كنا ، نيابة عن المتهمين ، ميالين بالمثل للاتفاق على أى مشروع
معقول للمصالحة • اننى مقتنع بأن مصير المسجونين كان يتوقف كلية على
انجلترا ، وأن انجلترا لن تتدخل بالمرة الا بالأسلوب الذى سبق أن
أوضحته ، وان اطالة المحاكمة سيجر مصاريف باهظة ، من المحتوم أن
تنتكس الى شجار منهك ، وسينتهى بعد ذلك بصورة غير مرضية لموكلينا
عن الحل الذى يمكن أن نتوقعه بصورة معقولة من ترتيب بالغ الأهمية
« خارج نطاق المحكمة » •

ويوم الاثنين ٢٧ نوفمبر وجدت ، نتيجة لذلك ، أن كل الأطراف
المهتمة بهذا الأمر فى مثل هذا الاطار من العقل وفى مثل هذه الحالة من
الرأى لتحقيق آمال قوية لحل سريع عن طريق المصالحة ، اما عن كيف
أن الحكومات البريطانية والمصرية والتركية ومحامى المسجونين ، اتجهـوا
جميعهم فى هذا الاتجاه من التفكير ، فهذا ما سأحاول أن أوضحه •

---

(١) المقصود به « الخديوى توفيق وشريف باشا ورياض باشا • (المحقق)

أصيب الثالوث المصرى (١) بخيبة أمل مريرة وقاسية ، ولكن « شريف » ما لبث أن عقد عزمه على قبول ما هو محتوم بأحسن صفح ممكن ، وأما « توفيق » فقد وجد لفترة بعض العزاء فى مزاح بسيط مع الصحفيين الفرنسيين ، بينما آثر « رياض » اعتزال السياسة لفترة وأخذ يدبر الأمور فى صمت · وكان البديل الوحيد عند « لورد دافرين » فى بحثه عن ناظر له هوَ أن يختار بين ما يظهره « شريف » من أمانة فى العمل ووضوح يكاد يكون وضوحه كوضوح الشمس ، وبين ما هو واضح تماما بما عليه « نوبار » من تفاهة ونفاق ودماثة خلق bonhommie زائفة · وفى حكمة اختار أن يتمسك بأولهما · وقد تميز « لورد دافرين » بلطفه وألفته ورقة حديثه وبراعته فى أن يخفى عن الأنظار ارادته العنيدة وعزمه القوى على أن يشق طريقه وحده ، وكان أسلوبه فى معاملة النظارة المصرية أشبه بضغط يد حديدية تلبس بقفاز من المخمل ، اننى أعرف أن هذه العبارة مبتذلة بعض الشيء ولكن ليس هناك من تعبير آخر يسعفنى ليعرض تماما الفكرة التى أريد أن أنقلها · لقد أحس المصريون ، بذكاء ، بلمسة اليد الحديدية ، ولكن القفاز المخملى حرمهم من كل قوة للشكوى · كان لورد دافرين يصغى بصبر عجيب لقصتى عن معركتنا مع قومسيون التحقيق ، وحتى يقرأ قراءة متمعنة ، طلب منى أن أوافيه بمذكرات موجزة عن مختلف ملامح قضية عرابى والدفاع الذى اقترحنا أن نقدمه · لقد ركز تركيزا كبيرا على عجز الرأى العام عن أن يؤثر فى أية صورة على عمل وزارة الخارجية البريطانية ، ولكنه جعلنى أدرك بوضوح تام ، عن طريق الاستنتاج ، النقطة التى كنا نأمل فيها أن تعضدنا · ·اننى أذكر أنه أطلعنى يوما ، مصادفة ، على رسالة من « لورد جرانفيل » عبر فيها عن رأى مؤداه أن « طول مدة الدفاع يجب ألا تترك لنا » ، فأحسست أيضا ، بطريقة تكاد تكون لا شعورية ، باليد الحديدية داخل القفاز المخملى ·

ومن المواهب الخاصة التى وهبها الله لذهن « لورد دافرين » ، قدرته العجيبة على « التوفيق » و « التراضى » ، أما عن كيف أن موضوع المصالحة قد قفز أخيرا على السطح ، فهذا ما كنت عاجزا عن أن أذكره · اننى أعتقد أنه نشأ عن تلميح عابر الى اقتراحات « بوريللى » أيام مراسلته لى مستخدما صيغه القديمة : « عزيزى » و « زميلى العزيز » ، وحتى الوقت الذى كنت أكتب عنه ، لم أذكر كلمة واحدة عن الموضوع الى « عرابى » الذى كان ينتظر محاكمته فى هدوء وثقة · والى « لورد دافرين » و « لورد دافرين »

(١) المقصود به : الخديوى توفيق وشريف باشا ورياض باشا · (المحقق)

وحده ، يجب أن ترجع الفضل فى ابتداع الاحتجاج الاسمى من جانب المذنب nominal-plea-of-quilty على الاجراء الذى تضمن كل ما يمكن أن أسأله عن « عرابى » (تحت ظروف وجدت أننى قد وضعت فيها) ، وعلى أية حال ، أنقذ من حيث المظهر ، كلا من سياسة انجلترا وهيبة من تحميه Protégé · ولقد ظهرت مواهب « لورد دافرين » بصورة واضحة فى هذه المهمة البسيطة مهمة المصالحة بالنسبة لقضية عرابى ، وكان لممارسته لها تأثير كبير جدير بالتقدير على الموضوع البالغ الأهمية ، موضوع مستقبل مصر · وكان الزمن وحده لازما للسماح لنفس قوة التوفيق والتراضى التى تلعب دورها كاملا · ولكن لم يكن مقدرا لها ذلك · ان خبر خطته المشهورة ، خطة اعادة التنظيم ، لم يكد يجف بعد حتى انسحبت فجأة « اليد المتسلطة » التى ربما بعثت الحياة فيها · ولعل كاتبها كان يعرف أن هذا مقدر له أن يحدث عندما كتبها ، وربما كان هذا مسئولا الى حد ما عن ملامح معينة فيها ما يذكر القارىء أحيانا بصورة لا يمكن مقاومتها ، لوثيقة سياسية أو للمز سياسى ·

وقد تطلبت المصالحة المقترحة مناقشات طويلة ودقيقة ، ولكن عندما اتفق على شروطها فى النهاية أعطت مظهرا للبساطة التامة · والمصالح المتصارعة قد تمت المصالحة عليها ، قدر المستطاع ، بفضل « اليـــد التسلطية » ، وظهرت الحكومة الخديوية على المسرح فقط لتنفذ آليا ما سبق تنظيمه لها · وتمنعنى الحقيقة من أن أسجل حتى أقل قدر من المـــديح لسلوك المسئولين المصريين ، اذ أنهم اتبعوا ارشادات « لورد دافرين » بأقصى صورة ممكنة ، ولم يضيعوا أية فرصة ليجعلوا المسجونين يحسون بمرارة رحيلهم ، وبدلا من أن يستغلوا الموقف أحسن استغلال ويضمنوا لأنفسهم بذلك سمعة طيبة وشهرة من جراء ما قد يبدو أنه فعل كريم ، لم يضيعوا فرصة لدفع كل فرد للاعتقاد بأنهم كانوا مجبرين على أن يفعلوا ما فعلوه ، ومن ثم ، فقد لقى الصحفيون الفرنسيون ما شجعهم صراحة على وصف انجلترا ظلما بأنها ترغم الخديو على أن يبقىَ على أرواح رعاياه العصاة الذين كانت معهم ، من أول الأمر ، فى تحالف سرى على الموضوع المشئوم وهو احتلال البلاد بدافع من حقد خاص وهو « زيادة التفـوق الطبعى ل « فرنسا » «natural preponderance of France» · لقد كان واضحا كل الوضوح أن هذه التصريحات كانت نابعة من القصر وليس من أى مصدر غيره . وأنا لا أستطيع أن أقول ما اذا كان توفيق باشا ورياض يمكن أن يحق له الاعتماد على مثل هذه السياسة الفريدة · ولم يكد يبدو أن قيام المصالحة صار مشكوكا فى أمره ، حتى سمحوا ل « بوريللى بك »

بأن يوعز الينا بتلغراف يعلن فيه أنه « خير له أن يتخلى عن القضية عن أن يشارك فى أضحوكة قانونية «legal force» ، واستسلمت الصحافة المصرية الموالية للقصر لكل ما يرضى تماما مشاعر الفرنسيين المستوطنين فى مصر • وفى اعتقادى ما من شىء يمكن أن يصور عدم الاستقرار الميئوس منه وزيف القضية التى جئنا الى مصر لتأييدها ، أفضل من مؤامرة القصر الفاشلة التى ولدت ونظمت ونفذت تقريبا فى وجود « لورد دافرين » ، والتى من وقتها بلغت ذروتها فى التأريخات الرومانتيكية لمسيو جبراييل شارم •

لقد كانت تفاصيل المصالحة على الوجه التالى : كل الاتهامات الأخرى الموجهة ضد الباشوات : عرابى ومحمود سامى وطلبة وعلى فهمى وعبد العال ويعقوب سامى ومحمود فهمى ، فيما عدا العصيان البسيط ستسحب ، وسيستدعون للمثول أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان البسيط الذى بموجبه سيعترفون بأنهم مذنبون • ولقد كان من المفروض أن تسجل عقوبة الاعدام فى هذه الدعوى ، بيد أن المرسوم المعدل للعقوبة الى النفى من مصر من المفروض أن يقرأ على الفور ، وسيفقد المسجونون رتبهم وأملاكهم (١) بموجب مراسيم لاحقة ، ولكن لن تصادر أملاك زوجاتهم ، وعلى المسجونين أن يتعهدوا بالتوجه الى أية جهة من الممتلكات البريطانية المحددة لهم ، ويبقون فيها حتى يسمح لهم بمغادرتها •

ونتيجة لمصادرة أملاكهم ، ستتكفل الحكومة المصرية بتخصيص راتب مناسب لاعانة السبعة المسجونين وعائلاتهم فى المنفى ، وستتكفل الحكومة المصرية بنقل المنفيين على نفقتها الخاصة الى البلد المحدد لهم الاقامة فيه •

وقد أدرج « عبد الغفار بك » أميرالاى الخيالة ، أساسا ، فى قائمة المسجونين ليعامل طبقا لنفس الترتيب السارى على الجميع ، ولكنه فى آخر لحظة ، بناء على استيائه الشديد ، أحيط علما بأن يذهب حيث يشاء ، كما أن مدة نفيه ستكون ثمانى سنوات فقط •

وقبل شروط المصالحة ، كان هناك شيئان ضروريان ، هما استشارة « مسيو بلنت » تلغرافيا ثم الحصول على موافقة من موكلينا أنفسهم .

---

(١) عندما وافقنا على هذه العبارة كنا نعتقد ان مثل هذه المصادرة كانت طبقا للشريعة الاسلامية ، ولكن بدت لنا الآن أنها انتهاك مباشر لـ « حقى شريف Hatti Shereef أو للقانون النظامى Organic Law للامبراطورية العثمانية ، ومخالفة لكل ما هو معروف قبل هذا فى مصر • وعلى أية حال ، لم يكن لها تأثير على موكلينا ، اذ أنه كحقيقة ، لم يكن لهم (باستثناء واحد منهم) أية أملاك بالمرة •

المعروف أن الحفاظ على أى شىء سرا فى بلد شرقى ، يكاد يكون أمرا مستحيلا ؛ ولكن مما يبعث على الدهشة خلافا لهذه القاعدة ، أنه لم يكن هناك أكثر من شك فى أن شيئا غير عادى يحدث وتفوح رائحته فى مصر ما بين ٢٧ نوفمبر وأول ديسمبر ، عندما لقى المشروع ، فى الصورة التى شرحناها ، الموافقة التامة من كل الأطراف ٠

وفى ٢٩ نوفمبر ، بعد ترو مناسب ، بعث الينا مستر بلنت بموافقته ، وطلب منا أن نتذرع بحسن التصرف الكامل بالنسبة للأسلوب الذى سنتبعه ٠ لقد أحس معنا أنه لا يمكن فى الوقت الراهن التوصل الى شروط أفضل ، وفى ثقة ، ترك التبرئة التامة لعرابى ، للتاريخ وللحكم الهادى فى المستقبل ، وحتى هذه المرحلة المتقدمة من المفاوضات ، لم نشر ل « عرابى » بأية فكرة ، على الاطلاق عن مجرد احتمال أن تكون هناك مصالحة ٠ كان عرابى قد أعد نفسه لمحاكمته ، ويبدو أنه كان ينتظر المحاكمة بدون أدنى خوف ٠ لقد كان قلقه الرئيسى هو على مصير من كان يدعوهم « اخوانه فى الأسر » ٠

وفى تلك الأثناء ، كان القومسيون يسير فى عمله الروتينى كما لو لم يكن هناك شىء غير عادى فى الأفق ٠ لقد صارت الآن شدة ازدحام السجون فى أنحاء مصر مهزلة عامة ، وبات أمرا ضروريا تماما اتخاذ اجراء بشأنه ٠ لقد انبثق قومسيون فرعى للبت فى مختلف القضايا ، فأطلق سراح المسجونين المشتبه فيهم مجرد اشتباه (وكانوا يشكلون فى الحقيقة أغلبية كبيرة) ، أطلق سراحهم بكفالة on bail أو بناء على تعهدات رسمية recognizances ، وقد انتدب « الميجور ماكدونالد Major Macdonald لمراقبة اجراءات سير القضايا ، نيابة عن الحكومة البريطانية ٠

وفى صباح يوم ٢٨ نوفمبر (عندما كنا ننتظر فى قلق رد « مستر بلنت » على تلغرافنا) توجهت الى السجن حيث وجدت كلا القومسيونين يعملان بجد ٠ كان « اسماعيل أيوب » مشغولا فى وضع اللمسات الأخيرة ل « ملفات dossiers » الدفعة الأولى من المسجونين ، وكان كل متهم يستدعى بدوره الى الغرفة ويسأله القومسيون فى تهكم ، اذا كان يريد أن يتولى الدفاع عنه « محامون انجليز » ٠ لقد التزم « عمر رحمى » ، سكرتير عرابى ، الذى غرروا به بصورة مشينة ، لخيانة سيده السابق ، التزم بتعبير اسلامى بالغ القداسة ، اذ أعلن عن اعتقاده أن العدالة ألحقته لقضيته تجعل كل مساعدة كافرة نافلة تماما فى بلد اسلامى ، وأعقب هذا القول أن عم المائدة المغطاة بالجوخ الأخضر تصفيق رقيق ٠ وكان الثانى



شكل ١٠ ـ محمود فهمي باشا

فى دوره ، « محمود فهمى » ناظر الأشغال العمومية فى النظارة التى كان فيها عرابى ناظرا للجهادية ـ كان مهندس الخطوط المصرية فى كفر الدوار والتل الكبير • كان « محمود فهمى » قصير القامة ، لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح ، كان داكن البشرة جدا ، فى الأربعين من عمره ، عيناه مرحتان براقتان • لقد ألقى القبض عليه عندما كان يأخذ فكرة عن تحركات الانجليز فى القناة ، وكان يدعى باستمرار ، بالرغم من بشرته الداكنـــة جـدا وفرنسيته المتكسرة أنه أحد المستعمرين colon الفرنسيين يشرف على حقول قطنه • ووجه نفس السؤال التهكمى ، وان كان فى صورة تعنيف ، الى « محمود فهمى » الذى كان من نشأة مختلفة كل الاختلاف عن « عمر رحمى » ، أجاب محمود فهمى بغمزة من عينيه المرحتين السوداوين الماكرتين البراقتين ، أجاب بسرعة قائلا : « اننى لن يكون لى من المحامين ســوى محامين أخى عرابى » ، فقال له « اسماعيل أيوب » فى ذعر واضـــح : « ولكن هل توافق على مثل هذا العمل ؟ » واستطرد « اننى يجب أن أحذرك مسبقا أننا سنستدعى الضباط الانجليز ليبرهنوا على أن محمود فهمى « كاذب بطبيعته an habital liar » ، وأنه ، بتأكيد شهادة أكثر من عشرين شاهدا ، قد تجرأ وقال أن « أفندينا » عليه أن يحزم

أمتعته ويقيم فى فندق شبرد » واذ بترديد متعاطف لسخط مكبوت يسود المائدة المغطاة بالجوخ الأخضر · عندئذ أجبت قائلا : « حسن ، مع احترامى البالغ لسعادتكم ، فاننى لا أبالى بتهديدكم له حتى بما وصفتموه به ، وهو أمر يأسف عليه ، من آثام فظيعة مثل قولكم عنه أنه كاذب بطبيعته وأنه قال ان « أفندينا » عليه أن يحزم أمتعته ويقيم فى فندق شبرد · اننى ليسعدنى أن أتولى الدفاع عن « محمود فهمى » ، واذ بأصوات تتردد تنم عن السخط والفزع أشبه بفزع الورعين ، فقال « اسماعيل أيوب » متسائلا : « ولكن ، ألن تدافع أيضا عن « سليمان سامى » ؟ واستطرد : « قد يكون أحرق الاسكندرية ، ولكنه على أية حال لم يتكلم بامتهان صريح عن سمو الخديو » ، فأجبته قائلا : « كلا ، بكل تأكيد » ، وغادرت الغرفة فى صحبة موكلى ·

ولما صرنا وحدنا فى زنزانته ، نظرا الى « محمود فهمى » للحظة ثم قال لى عن قصد : « أنت تعلم بطبيعة الحال أننى استسلمت عن طيب خاطر للانجليز » · لابد أن تعبيرى الشخصى قد كشف عن ريبتى السافرة حتى أنه انفجر ضاحكا فى صفاء قلب وقال لى : « اعذرنى ، ولكنى أردت فى الواقع أن أعرف أى نوع من الأشخاص الانجليز أنت » ثم سرد لى القصة الكاملة عن ايمانه ب « عرابى » ، وكيف أصبح عضوا فى مجلس النواب وفى الاجتماعات المشهورة التى عقدت فى الاسكندرية ، وعن متاريسه (سدوده الترابية) التى أقامها فى كفر الدوار والتل الكبير ، وزيارته المتخفية للخطوط الانجليزية وسوء الحظ الذى أوقعه فى الأسر ، وقال وهو يتنهد : « آه ، عرابى المسكين لا يمكن أن يعمل بدونى · لو أننى أكملت المتاريس فى التل الكبير لما استطاع أبناء وطنك أن يأخذوا البلاد بهذه السهولة » · وذكر لى قصة أول ليلة مضاها كأسير حرب عند الانجليز ، فقال : « وضعونى تحت حراسة ضابط ، وقد هددنى الملازم الذى كان مسئولا عنى ، هددنى فى غلظة أننى لو تحركت لأطلق على النار ، فأجبته بالفرنسية : « سيدى ، اننى قائد وأعرف واجبى ، وما عليك الا أن تؤدى واجبك أنت » · وكان « محمود فهمى » واحدا من أقدر زملاء عرابى ، ولم يحجم مرة على الاطلاق عن اعترافه بعقيدته السياسية ، وتوجه مع كل أفراد أسرته الكبيرة من بنين وبنات الى المنفى دون أن يشكو من شىء · لقد سخر على فقدانه لكل من رتبته وأملاكه ، وبالرغم من أنه كان ناظرا مصريا للأشغال العمومية ، كانت يداه نظيفتين ، وكان كل ما لديه من متاع دنيوى لم يكن يستأهل أن يباع · لقد كان دخله الجديد كراتب يتقاضاه فى المنفى ، كان فى الواقع زيادة كبيرة فى الثروة · لقد كانت الخاسرة الحقيقية هى القضية التى كان يحبها وفرصة

قيام حكومة مصرية ذاتية • لقد كان « محمود فهمى » الذكى الأمين البشوش — كان هو بالفعل روح المستعمرة المصرية فى كولومبو Colombo • لقد كان يربى أبناءه الذكور ليؤدوا واجبهم كمواطنين مصريين عندما يحين الوقت • لقد وعدت « محمود فهمى » أن أبذل كل ما أستطيع من أجله ، ونصحته نصيحة بالغة الاخلاص بأن يعمل بالاتفاق التام مع عرابى •

وفى اليوم التالى (٢٩ نوفمبر) ذهبت الى السجن فى صحبة « مستر سلينتوتا » ، وتوجهنا رأسا الى زنزانة عرابى ، وفى بضع كلمات موجزة ما أمكننى ذلك ، شرحت له الاتجاه الذى اتخذته الأمور ، وذكرت له باختصار شروط المصالحة المقترحة • بدا عليه بعض الذعر فى أول الأمر ، ولم يبد بكل تأكيد أى مزيد من الحماس يوحى برضاه عن اى ترتيب اتخذ • لقد اعترف صراحة بأنه كان يفضل المحاكمة ، اذ كان يريد ان تعرف كل أوربا بقصته وأن يواجه متهميه وجها لوجه فى محكمة علنية ، وتساءل : « ألا يمكن للضوء الذى يلقى الآن على الشئون المصرية أن تمهد السبيل الى الاصلاحات التى فشلت أجهزته فى تحقيقها ؟ » ، ثم شرحت له بعد ذلك مخاوفى من احتمال عدم توسط انجلترا لو أن المحكمة المصرية حكمت عليه بالسجن طويل الأجل ، فأجاب : « هذا صحيح ، اننى أعرف تمام المعرفة أن مصيرى أنا وحدى يتوقف على انجلترا • » • وكان تفكيره الذى أعقب ذلك هو فى صحبة المسجونين ، وقال متسائلا : « لو اننى قبلت هذه الشروط التى تتحدث عنها ، ماذا سيكون مصير اخوتى المسجونين ؟ » فأخبرته بأننى لا أشك فى أنهم سيكون لهم نصيب فى الرأفة التى سيظهرونها نحوه ، ومرة أخرى تردد ثم قال لى متسائلا : « كيف يمكننى أن أقول اننى عاص ؟ » واستطرد : ألم أفعل طبقا لأوامر السلطان والخديو ؟ عندما لجأ الخديو الى الانجليز هل يمكنهم أن يدعونى عاصيا لا متثالى لارادة الشعب المصرى ؟ » ان اجابة منطقية على هذا السؤال كان من الصعب الادلاء بها • اننى لاحظت فقط أنه هو نفسه قد أقر بأن مصيره يتوقف فحسب على انجلترا ، ولما كانت انجلترا قد أنفقت بضعة ملايين من الجنيهات فى قمع ما كان يحلولها أن تدعوهم عصاة ، فقد كان أمرا بعيد الاحتمال أن نظارها سيؤيدون أى حل يتضمن تسفيها Stultification تاما لأفعالهم هى أنفسهم ، وأضفت أنه ، من جانبى ، كنت مقتنعا أن تبرئته الكاملة لم تكن الا موضوع صبر وزمن وتحقيق محايد ، ورد على ذلك قائلا : « ولكن هل سبق أن عاملت انجلترا عدوا مهزوما بمثل هذه الصورة من قبل ؟ » ، وفى هذه اللحظة تذكرت « مستر جلادستون » ، وكان فى تذكرى له ما أنقذنى . فرويت

الى المستر برودلى ومستر نابير ، محاميى عرابى باشا

بصفة كونى سلمت نفسى لأمة الدولة الانكليزية وشرفها وكونى واثقا بأمانتكما كما اننى واثق كل الوثوق بنزاهة وسعادة اللورد دوفرين وشرفه فانى افوض لكما ولسعادته فيما يقتضى • معاملتى به ومعاملة اخوانى السياسيين والأهلين المسجونين بما يليق لشرف انكلترا اذا تبين براءة ذمتنا مما نسب الينا من الأعمال الوحشية ولهذا لزم تحريره لعرض ذلك على سعادة اللورد المشار اليه •

٢٩ نوفمبر ١٨٨٢ (توقيع) أحمد عرابى

ان دليل الثقة الذى أعطانيه « عرابى » الآن ، لم يكن دليلا عاديا ، وبناء على مجرد توكيدى له ان كل شيء سيكون على ما يرام ، وافق على الاعتراف بأنه مذنب فى الاتهام الذى كانت عقوبته الوحيدة الاعدام ، أما بالنسبة لتعديل الحكم الذى سيعقب ذلك ، فقد اكتفى بكلمتى له واعتمد عليها • لقد بدد كلا من تلغراف « مستر بلنت » وخطاب «عرابى» كل سبب آخر للتردد ، وقد وافقنا باسم موكلينا على خطة المصالحة المقترحة •

ولما كان « بوريللى بك » قد تنحى الآن عن القضية ، فقد طلب منى ان أصل الى اتفاق مع « تكران باشا Tigrane Pacha »(٢) (وهو أحد وكلاء النظارة المصريين) لاتخاذ الاجراء الذى بموجبه يمكن تنفيذ الاتفاق بين الأطراف بصورة ملائمة • لقد بذل « تكران » كل ما فى وسعه لاخفاء الكمد الذى كان يحس به فى أداء هذا العمل ، وما لبث أن استكمل عملنا • وكان أول شيء لابد من القيام به هو البحث عن بعض بنود فى القانون العثمانى يمكن تطبيقها بالنسبة لحالة العصيان البسيط ، ولم يكن أمرا صعبا ، اذ ان المادة ٩٦ من القانون العسكرى الامبراطورى العثمانى والمادة ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى كانتا وافيتين بغرضنا تماما ، فقد نصتا على ما يلى :

مادة ٩٦ ــ كل أفراد يبلغ عددهم ثمانية أو أكثر يثورون مستخدمين

---

(١) كان تكران أرمينيا ، وكان ابن أخت « نوبار » وتلميذه • لقد أخذ فى اعتباره اراحة كل الأطراف حتى تلك اللحظة (بما فى ذلك رياض) وهو رجل قادر ، وكان يسير على نهج مدرسة خاله السياسية ، وقد تولى نظارة الخارجية خمس مرات : (١) ١٨ يوليو ١٨٨٦ (بالنيابة) ؛ (٢) ١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٧ يناير ١٨٩٢ ؛ (٣) ١٧ يناير ١٨٩٢ ، (٤) ١٥ يناير ١٨٩٣ ــ ١٨ يناير ١٨٩٣ ، (٥) ١٩ يناير ١٨٩٣ ــ ١٥ ابريل ١٨٩٤ • (المحقق)

الشكليات السابقة خلال اليوم التالى (٢ ديسمبر) ، وصيغة الوثائق الأخيرة اتفق عليها ، ورضيت الأطراف عنها · وغادرنا « تكران » بعد التنبيه علينا بمراعاة ألا يكون هناك فى الغد عناق قبل الرحيل ولا أى مظهر لفرح لا يليق · لقد أحس هو أيضا بالتأثير غير المنظور لليد الحديدية فى القفاز المخملى ، وأثناء بعد الظهر ، سمح ل « مستر نابير » ، لأول مرة بأن يزور عددا آخر من المسجونين ، وكانوا قد قدموا لنا مقدم الأتعاب ، وكان من بينهم « أمين بك شمس » الذى جيء به من الزقازيق ·

وبعد جولة ممتعة فى ميدان شبرا مع « مستر بوميروى Mr. Pomeroy قنصل أمريكا العام (١) الذى أظهر لنا الكثير من كرمه أثناء اقامتنا بالقاهرة ، وانتهزت الفرصة وزرت نوبار باشا الذى تعرفت به فى باريس · وبعد حديث قصير عن الاصلاح القضائى وعن المال ، جرنا الحديث الى موضوع الساعة ـ عرابى · استنكر نوبار استنكارا شديدا الضجة التى تحوط « عرابى » ، واقترح أن يطلق سراح « عرابى » وينفى حتى يصبح فى طى النسيان ، وذلك بعد أن ينال قصاصه الشخصى فى حضور ممثل جمعية ممثلة لمشايخ البدو · ولا شك أن الاقتراح له براعة الابداع ، ولكن « نوبار » لم يذكر طبقا لأية مادة من قانونه الجديد ، يمكن أن يطبق عليها الحكم تطبيقا قانونيا ·

---

(١) فى ذلك الوقت أيضا ، زار مصر ، جنرال ولاس General Wallace ، السفير الأمريكى فى القسطنطينية لقد كون ، بعد تحقيق دقيق ، رأيا مشجعا جدا عن الوطنيين المصريين ، شاركه فيه معظم مواطنيه من ذوى الفكر الليبرالى · الذى نحن بصدده ·

الفصل الخامس والعشرون

ثلاث محاكمات قصيرة من محاكمات الدولة

في وقت متأخر من مساء السبت ٢ من ديسمبر ، كان مختلف ممثلى الصحافة الأوربية الموجودين فى القاهرة ، قد أحيطوا علمـــا بأن محاكمة « عرابى باشا » ستكون فى اليوم التالى فى الساعة الثامنة تماما ٠ ولم يمض على النبأ وقت طويل حتى ذاع بين الشعب كافة ٠ وكاد يكون من المحال وصف شعور الدهشة الذى أحدثه هذا النبأ وقد بات معروفا بالتدريج ٠ صحيح أن المراسلين الانجليز الذين أحيطوا علما قد تنبأوا فى تلغرافاتهم التى بعثوا بها فى اليوم السابق باحتمال التوصل الى نوع من المصالحة ، ولكن أهالى القاهرة الطيبين ، يبدو أنهم لم يكونوا على علم على الاطلاق بما كان على وشك أن يحدث ٠ لقد تعاملت الحكومة الخديوية معاملة غير كريمة مع صديقتها القديمة الجازيت المصرية التى حرمت مرة واحدة مما اعتادت عليه من احتكارها للأخبار ٠ لقد طالعت القراء فى الصباح الذى نعنيه ، بالجزء الثانى أو الثالث من اعتراف « سليمان ســـامى » ولكنها لم تلمح أى تلميح عن النتيجة المرتقبة ٠

انبلج فجر يوم الأحد الحافل بالأحداث ، والذى كان عليه أن يشهد بداية ونهاية محاكمة عرابى ٠ انبلج مع صباح شمس جميل من كل صباحات مصر ٠ ولم يكن ضوء النهار يبدو عريضا حتى وصلنا السجن ٠ كانت الساحة الفسيحة قد كنست وزينت طوال الليل ، وكان الحراس الأتراك والجراكسة قد ارتدوا « ملابس التشريفة gala attire » ، أما الحراس الشاويشية الانجليز ، فيبدو أنهم كانوا فى حيرة اذ لم يكونوا على علم بسبب هذه الحركة غير العادية ، وكنا نحن ، « مستر نابير »

وأنا ، قد أحضرنا معنا ، فى عهدة واحد من كتبتنا ، الحقيبة الزرقاء التقليدية التى كانت تحوى الأردية المعتادة الميزة لمهنتنا . وما أن هبطنا من عربتنا حتى استقبلنا حارس طويل القامة ، اسكتلندى ، بتحية عسكرية وسألنا فى قلق عما اذا كان صحيحا أن مهمتهم فى السجن لن تلبث أن تنتهى وعما اذا كانت هناك أية فرصة لعودتهم سريعا الى انجلترا .

تلقانا « عثمان شريف » ، مأمور السجن ، بكل مظهر من مظاهر التعاطف المحترم ، وقادنا فى نشوة نصر الى القاعة الكبرى للمحكمة . وكانت أبوابها قد فتحت على مصراعيها كما لو كانت تستقبل الناس وهى حانقة . كل ذرة من تراب أزيلت بعناية من على منصة القضاء الخشبية التى أحسن صنعها . كما أزيل التراب أيضا من على كراسى القضاة المبطنة قاعدتها بالمخمل وكان صديقنا القديم العجوز « اسماعيل أيوب » مشغولا بالاشراف على توزيع أفرخ نشاف ، وعلى ازالة التراب من على المكاتب المغطاة بالجوخ ، والتى خصصت لاستخدام محامى كلا الطرفين والصحافة والمسجونين . وكان « اسماعيل » متألقا الآن فى زى رسمى فخم ، نفس قماشه يبدو أن تطريز الذهب يخفى بهاءه ، وصدره يكاد يتقد ، بالمعنى اللفظى ، بكوكبة من النياشين والصلبان ، ولكنه ، مع ذلك ، تنازل وساعد بنفسه في الترتيبات اللازمة ، وكانت أصداء قعقعة سيفه التركى الطويل تملأ القاعة الفارغة ،وكان يلقى مساعدة نشيطة فى واجباته الراهنة من شخصيات لا تقل فى رتبتها عن الضابط التركى الصغير « راغب بك » والذى (وهو ما كانوا يهمسون به) حارب فى التل الكبير والذى سبق أن رتب معى ، من أسبوع مضى ، نقل ثروة « محمد حسنى » قبل أوانه prococious ، من : « عبد العال » الى « حسين عاصم باشا » . استقبلنا « اسماعيل أيوب » بأعظم مظاهر المحبة القلبية ، وأكد لنا هامسا أن كل الأوراق الهامة قد أعدت بنظام ، الليلة الماضية . وقد أخبرنا « راغب بك » (وكان مرتديا أيضا رسميا أنيقا ، مزدانا بعدد طيب من نياشين متناثرة) وهو فى غاية من السرور ، أنه عين ، بهذه المناسبة ، رئيسا للتشريفات وكان خادمان أو ثلاثة مشغولين فى نشاط فى اعداد سبل الراحة للنظار المتوقع حضورهم ويملأون « صحن المحكمة » . وذلك بأن يعدوا لهم كراسى مريحة خيزرانية القاعدة . وبعد ذلك بقليل ، جاء مراسلو صحف : الجرافيك Graphic و « الأنباء اللندنية المصورة «Illustrated London News» « والدنيا المصورة «Le Monde Illustré والمصور «Illustration» حضروا الواحد فى أثر الآخر ، وبدءوا فى رسمهم بأسرع ما يمكنهم ،

تفاصيل قاعة المحكمة المصرية ، وقال لنا « اسماعيل أيوب » المسكين وهو ينتهد ، انه ليصعب عليه أن كل ما قام به من جهد سيذهب هباء وأن باشوات المحكمة العسكرية سيجلسون لخمس دقائق ويرسمهم الرسامون ويصبحون خالدين ٠

بعد ذلك ، صعدنا الى زنزانة « عرابى » ، وكان قد ارتدى بالفعل سرواله العسكرى ، ومعطفا سنجابى اللون فاتحة ، وكوفية من الحرير الأبيض لفها حول رقبته ٠ ولم يكن زيه يلفت النظر ، وكان يبدو مجهدا وقلقا ٠ لقد بدا أن قدومنا قد أدخل عليه السرور ، وكان شديد الاعجاب بأرديتنا ، أردية المحاماة التى حيرته ، تماما مثلما تنبأت به جريدة البنش Punch اللندنية منذ بضعة أسابيع قبل أن يكون من المتوقع ارتداؤنا لها ٠ لقد وقع « عرابى » وختم ، وكان على استعداد تام لذلك ، وقع الاعلانين القصيرين اللذين كان قد أعدهما « مستر سانتلانا » ، وكان أولهما على هذه الصورة :

« من تلقاء نفسى وحسبما اشار به على الأفوكاتو المحامى عنى فانى اعترف على نفسى بالخيانة التى تليت على » ٠

٣ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) احمد عرابى المصرى خاتم

اما الثانى ، فكان يحوى الكلمات التالية :

« الى سعادة اللورد دوفرين

انى اتعهد بان اعطى قولى بصفة رجل عسكرى ان اقيم فى المحل الذى تعينه لى الحكومة وحالى عند تركى مصر امتثالا لما صدر به الحكم على اعلن تشكرى لسعادتكم ٠

٣ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) احمد عرابى المصرى
خاتم

وكان الوقت قد اقترب من السابعة ، وقد بلغنى أن أعضاء المحكمة العسكرية يودون أن يلتقوا بى فى غرفتهم التى كانت خلف قاعة المحكمة والتى كانوا مجتمعين فيها الآن ، قدمنى « اسماعيل أيوب » لكثير منهم ، وكانوا جميعهم على شاكلته هو نفسه ، يرتدون ملابس التشريفة الفخمة التى يرتدونها فى الأعياد ، وكان « رءوف باشا » ، رئيس المحكمة ، طويل القامة نحيفها ، داكن البشرة ، فى الخمسين من عمره ، وكان يبدو فى قلقه وعدم راحته تماما كما لو كان سجينا ٠ لم يكن يرتدى الا نجمة ضابط عظيم مجيدى ٠ لم يكن هناك شئ فريد لأسجله عن زملائه : « ابراهيم باشا الفريق » و « اسماعيل كامل باشا » و « حسين

الأقل ، بامتياز مشاهدة الحياد والعدل وانتظام العدالة وهي تدار تحت الرعاية الانجليزية » • وكان النظار قد تجمعوا الآن ، وأنا لا يسعني الا أن ألوم نفسي لأن فجائية كافة الاجراءات قد جعلتني أنسى الكثير من وعودي التي كنت قد أخذتها على نفسي فيما يتصـــل بحجز أماكن لمن ســـيشاهدون المحاكمـــة • لقـــد كتبت الى ليـــدي ســـترانجفورد Lady Strangford في الصباح التالي ، تذكرني بأنني أكدت لها ، « ثقة مني ب « عرابي » ، أنها ستحتل أحسن مكان في قاعة المحاكمة ، وأنه نظرا لأنني لم أحترم قسمي معها ، فهي لم تعـد بعـد اليوم تثق في موكلي » • وفي الواقع ، لم يكن في استطاعتي الا أن أحذو حذو «عرابي» وأعترف بجرمي • لقد رتبت مع « مستر نابير » أنه سيبقى مع « عرابي » حتى يحين الوقت الذي يظهر فيه المتهم في المحكمة ، بينما توجهت أنا على الفور لأرى ماذا يمكن أن أقوم به من خدمة ل « مسيو شارم » • لم تكن هناك حاجة لممارسة التأثير على موضوع المقاعد ، اذ أن كل الحاضرين لم يزيدوا على أربعين شخصا • لقد كان هنـــاك : سير ١٠ أليســـون Sir A. Allison وميجور هوتون Major Hutton (سكرتيره » وبعض ضباط أركان حرب ، بلوم باشا Blum Pacha من الادارة الماليـــة ، ودكتور و٠هـ٠ راسل Dr. W. H. Russell ، ومســـتر ماكنزي ولاس Mr. Mckenzie Walkence، ولورد تشارلز بيرسفورد Lord Charles Berseford وجميعهم احتلوا مقاعد الى يمين المنصة • وجلس مباشرة أمام القضاة مستر بيل Mr. Beil من جريدة التايمز Times ومستر تشيرول Mr. Chirol من الاســـتاندارد Standard ومستر ماكدونالد Mr. Macdonald من الديلي نيـوز Daily News ومستر جـــودول Mr. Goodall من الديلي تلجراف Daily Telegraph ، ومســـتر بيرنارد Mr. Bernard من نيويورك هيرالد New York Herald ، ومسيو شارم Mr. Charmes من جريدة المجادلات Journal des Débats ، وحوالي خمسة عشر مراسلا آخر ، من بينهم سيدة كانت تؤدي مهمتهـــا في شجاعة لصالح جريدة سويسرية • ومن كان من المراسلين لم يخف عنه موعد المحاكمة ، زودوا أنفســـهم بما يحتاجونه من مذكرات وأقلام رصاص ، الخ ••• وكان الانتظـــار على أحر من الجمر • وطوال ذلك الوقت كان ستة من مراسلي الجرائد المصورة يرسمون بسرعة محمومة • وفي الثامنة تماما ، دخل القاعة في طابور التســـعة القضاة أخذوا أماكنهم في تسعة كراسي ذات مساند من الخشب الماهوجني منجـــدة بالمخمل الأحمر ، وكانت كراسيهم خلف المنصة • احتل « سير تشارلز ويلسون » مقعدا الى اليمين من المكان المخصص للسجين ، وجلست أنا خلف مكتب أمامه تماما • وكانت منصة المدعي العام شاغرة •

وقبل انعقاد الجلسة الثانية للمحاكمة ، مباشرة ، وصل سكرتير لورد دافرين ، مستر نيكلسون Mr. Nicolson (الذى ازاء كرمه معنا طوال بقائنا فى القاهرة ، من المحال علينا أن نوفيه حقه من الشكر والعرفان) ، وكان يحمل رسالة شفوية مؤداها أنه لابد من تغيير فى الاعتراف الكتابى ، اذ لكى نبعد الشكوك عند الحكومة المصرية ، تحذف عبارة « الانجليزية » ، كما تحذف أيضا « كما أقدم تشكراتى الى سعادتكم » . لقد كان من رأى « مستر نابير » ومن رأيى أنا نفسى ، أن مثل هذا التعديل لا يدخل أى تغيير مادى على روح القسم الذى أخذه « عرابى » على نفسه عن طيب خاطر (١) :

ان المحاكمة التى شهدها « عرابى » الآن أمام عينيه ، كانت تختلف

---

(١) ثارت بعد ذلك مناقشة حول هذه النقطة ، الأمر الذى اضطر « مستر نابير » الى أن يبعث بخطاب تفسيرى الى « مستر بلنت » وكان قد طلب بالفعل أخذ موافقة عرابى على التغيير المقترح والا نفذ التعهد على ماهو عليه وفيما يلى ما كتبه مستر نابير من القاهرة يوم ١٦ ابريل :

التى وافقت على التغيير لتحاشى الصراع ، نظرا لأن المحكمة كانت تنتظر حضورى ، ودون ما هدف بالمرة الى تغيير طابع التعهد الذى تعهدت به ، واعتبره الآن بمثابة قسم أعطى ، وأعطى فقط بناء على طلب « لورد دافرين » ، باعتباره ممثلا لانجلترا . وانتهيت الى أن كلمة الحكومة فى قسم معطى لممثل بريطانيا يمكن أن تنطبق فقط على الحكومة التى يمثلها .

« والمسجونون الذين كان من المفروض أن ينفوا نفيا مؤبدا » صدر عليهم الحكم فى فترات فى الأسبوع التالى ، وقد قدموا الى « لورد دافرين » ، كل على حدة ، تعهدات مكتوبة بنفس منطوق كلمات عرابى .

« وفى النهاية ، وبعد أن غادر المسجونون البلاد ، بقليل ، فى طريقهم الى « سيلان » ، أخبرنى مستر نيكلسون أن « لورد دافرين » تيسيرا للأمور ، وثيقة وحيدة ، يجب أن تتضمن أيضا توكيدا أكثر رزانة وأكثر من مجرد قسم ، وسلمنى فى الوقت نفسه مسودة بالعربية كان قد أعدها مترجم لورد دافرين .

« هذا ، ومع تعديل لفظى طفيف ، ختم عليه المسجونون كلهم ، وأعيد تسليمه الى سعادة اللورد . ولم تكن تحوى أى تلميح الى الحكومة المصرية ، وقد اعتبرها المنفيون أنها قسم شخصى قطعوه على أنفسهم للورد دافرين .

« ولم يرد فى أى من هذه الوثائق ذكر للحكومة المصرية أو تفكير فيها من جانبى أو من جانب المسجونين ، ولم يكن قسم مكتوب أو غير ذلك مطلوبا من المسجونين من أى فرد نيابة عن الحكومة المصرية ، بل على العكس من ذلك ، لقد أحيطوا علما فنسحب بأنهم لو عادوا الى مصر بدون تصريح ، فان عقوبة الاعدام ستجدد ضدهم .

« ولو أن أى شىء أكثر من ذلك كان مطلوبا لايضاح الأمر ، فيسنضح فى حقيقة أن أصل الوثيقة النهائية هى الآن فى حوزة وزارة الخارجية البريطانية ، انظر خطاب لورد دافرين رقم ٢٤ ، مصر ، رقم ٥ لسنة ١٨٨٣ ، وقد تركت نسخة واحدة مع الحكومة المصرية » .

اختلافا كبيرا عن تلك الاجراءات القائمة بعض الشيء والشكلية الخاصة بالمرافعة والتى سبق أن شاهدها من قبل · لقد عرف كل فرد فى القاهرة ، الآن ، أن « عرابى » قد حوكم ذلك الصباح ، قبل أن يغادر أكبر عدد من سكانها مضاجعهم ، وأنه اعترف بأنه مذنب فى تهمة العصيان ، وأنه سيصدر عليه الحكم بعد الظهر · لقد تغاضيت أنا عن عدائى السافر لصديقى العزيز مستر فيليب Mr. Philip المحرر «بالجريدة الرائدة» (١) »، اذ بعثت اليه بتلغراف موجز من المحكمة : « محاكمة عرابى تبدأ الآن » · وفى فترة الاستراحة بين الاعتراف والنطق بالحكم ، وصلنى رد يسأل فى عجلة عن « الدليل » ، الوثائق ، الأوراق ، الخ ·· » ولكن الوقت كان متأخرا جدا ·

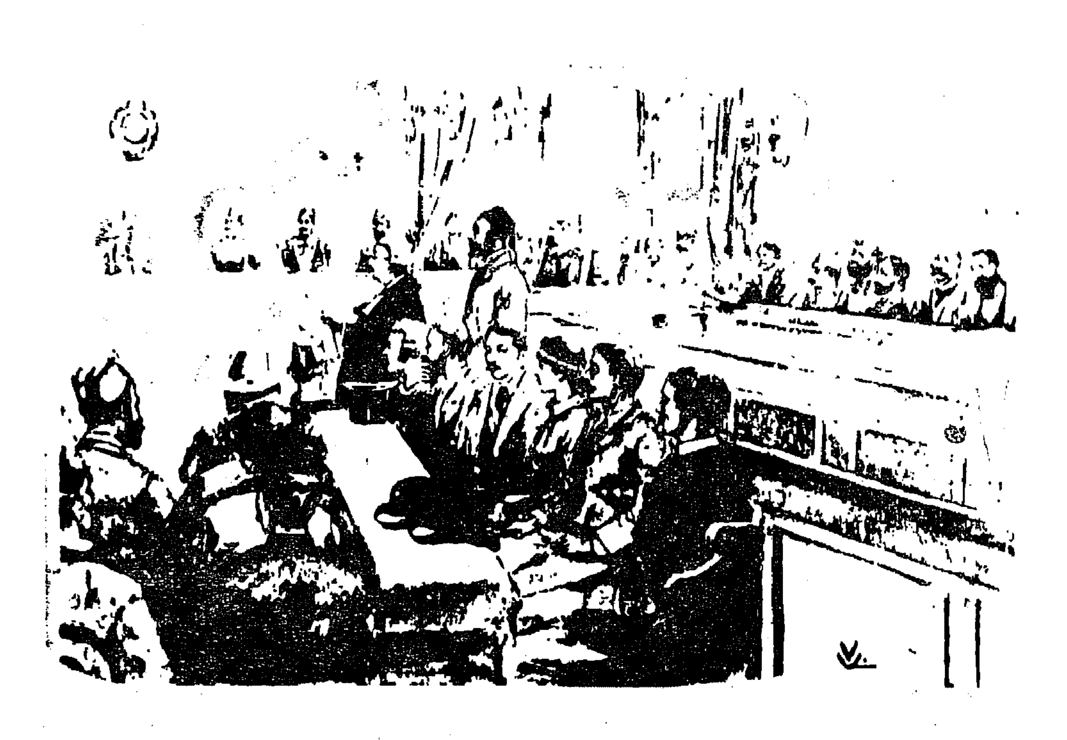
وبعد ساعة ، تجمع كل الباشوات Pachadom ، ليسمعوا مصير أحمد عرابى · كاد الشارع أمام سجن الدائرة السنية كاد لا يسمح بمرور أحد ، وكانت المحكمة ذاتها مكتظة اكتظاظا شديدا بالنظارة والسيدات المرتديات الملابس الفاخرة وقد احتللن بعض أحسن الأماكن ؛ وألقى « نوبار باشا » بابتسامة رقيقة على الحشد الذى تجمع بجوار المنصة ؛ وجلست مسز نابير Mrs. Napier (التى قدمت من انجلترا منذ بضعة أيام مضت) بجوار زوجها · ومنذ وصولها من انجلترا أظهرت الكثير من التعاطف النسائى مع السيدات الباكيات نزيلات الغرف المظلمة ذات الشبابيك الشعرية ، زوجات العصاة · وكان حضورها الشفوق قد ساعد الى حد كبير فى تطييب خاطر النفوس التى خارت قواها ، وساعدت على تهدئة القلق المستعر عند زوجات وبنات موكلينا · دخل القضاة كما دخلوا من قبل ، كما جيء أيضا ب « عرابى » ، وكان واقفا فى هدوء أمام قفص الاتهام ، وفى هدوء أيضا كان يراقب المشهد الذى أمامه :

سحب « رءوف باشا » ، فى عصبية ، وثيقتين من حافظة أوراقه السوداء · لم تكن عنده ثقة فى نفسه ليتحدث الى الجمهور الآن ، وبعد أن أومأ الى المتهم بأن المحكمة ستباشر عملها الآن لتنفيذ الحكم ، طلب من كاتب الجلسة أن يقرأ الحكم بصوت عال · وقد امتثل الكاتب لقراره ، وكان الحكم على الوجه التالى : ـ

« لما كان أحمد عرابى باشا قد أقر بأنه اقترف جريمة العصيان حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانون العسكرى العثمانى

---

(١) المقصود بالجريدة الرائدة «the leading journal» جريدة « الجازيت المصرية «The Egyptian Gazette» (المحقق)



شكل ١١ - عرابى باشا أمام المحكمة العسكرية فى ٣ ديسمبر ١٨٨٢

والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى ، وبناء على هـذا الاعتراف لم يكن أمام المحكمة الا تطبيق المادتين المذكورتين اللتين تعاقبان جريمة العصيان بعقوبة الاعدام ٠ وازاء هذه الدوافع تصدر المحكمة حكمها بالاجماع على أحمد عرابى باشا بالاعدام على جريمة عصيانه لسمو الخديو تطبيقا لنص المادتين والقرارين المذكورين وسيعرض الحكم المذكور عـلى سمو الخديو لابداء الرأى فيه » ٠

وأعقب ذلك لحظة صمت ؛ وفى هدوء سحب « رءوف » الوثيقـة الثانية من حافظة أوراقه وقال موجها حديثه الى المتهم :

« أحمد عرابى ، ستحاط علما بالمرسوم الذى أصدره صـاحب السمو الخديو »

وبعد ذلك نهض كاتب الجلسة مرة أخرى ، وقرأ ما يلى :

« نحن خديو مصر

بناء على اصدار الحكم بالقصاص على أحمد عرابى باشا بما قر عليه قرار المجلس العسكرى فى ٢٢ محرم ١٣٠٠ (٣ ديسـمبر ١٨٨٢) حسبما تقضى به المادة السادسة والتسـعون من القانون العسـكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى ٠

وبناء على ما رأيناه من استعمال ما لنا من حق العفو لأحمد عرابى المذكور ٠

أمرنا بما هو آت :

أولا ـ الحكم الصادر على أحمد عرابى المقتضى جزاؤه بالقصاص وقع تبديله بالنفى الى الأبد من الأقطار المصرية وملحقاتها ٠

ثانيا ـ هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على أحمد عرابى بالقتل اذا رجع الى الأقطار المصرية أو ملحقاتها ٠

ثالثا ـ على ناظر الداخلية وناظر الجهادية والبحرية تنفيذ أمرنا هذا كل منهما فيما يخصه ٠

صدر بسراى عابدين فى ٢٢ محرم ١٣٠٠ (٣ ديسمبر ١٨٨٢)
توقيعات ناظر الجهادية والبحرية (مصـطفى فهمى) ناظر الداخليـة (رياض)

امضاء محمد توفيق

بأمر الحضرة الخديوية رئيس مجلس النظار (شريف)

ثم ساد صمت · نهض القضاة للاستراحة ، واذا بواحد أو اثنين من مراسلى الصحف الذى كان طوال الوقت شديد الاهتمام بمصير عرابى ، والذى كانت له وجهة نظر مختلفة بالنسبة لاهمية الحركة الوطنية عن تلك التى كانت لها شعبيتها فى مصر ـ اذ به يصافح عرابى · وكانت « مسز نابير » قد وضعت باقة من الورود على المكتب أمامها ، وكانت تنـــوى أن تبعث بها الى « عرابى » بعد المحاكمة · ولكن رجلا كان جالسا بالقرب منها ، وبدون سابق صداقة وبدون معرفة لقصده ، وضع باقة ورودها ، بدون أى تفكير ، فى يدى السجين · عندئذ ، سمعنا صفيرا مرة أو مرتين ، ولكن الحشد الضخم أخذ ينفض تدريجيا ، وعاد عرابى « الى زنزانته ، واذ بالصحفية مراسلة الجريدة السويسرية (باعتبار أنها ممثلة عاشقة للحرية) تصرخ بصوت عال ، الى حد ما ، طالبة لقاءه شخصيا · لم أضع وقتا ، فأرسلت تلغرافا الى الجريدة الرائدة » بنتيجة المحاكمة ، فأصـــدر مستر فيليب طبعة أو طبعتين خاصتين ، ونتيجة لذلك ، توقف الى الأبد نشر اعتراف « سليمان سامى » ، لأن كل الاهتمـــام به صار غير ذى موضوع الآن ·

وما أن وصل « عرابى » الى زنزانته ، حتى رمى بنفسه على الفور على ركبتيه على سجادة صلاته المطرزة المصنوعة من وبر الجمل ، وكمسلم حق ، صلى صلاة شكر من كل قلبـه للعزيز الرحيم ، لانقـــاذه من بين أعدائه » ، وبعد انتهائه من صلاة الشكر ، شكر فى عبارات مؤثرة جدا ، كلا منا ، « مستر نابير » وشخصى ، على كل ما قدمناه له من خدمات جليلة · تركناه يكتب فى هدوء : خطاب شكر وعرفان « لمستر بلنت » الذى كان السبب فى انقاذ حياته ·

لقد أثارت « مسز نابير » بهدية زهورها ل « عرابى » ، التى رآها الجميع والتى لم تكن مقصودة ، أثارت فى بضـــع ساعات فى الواقع ، امتعاضات من كانوا حولنا · لقد صدم هذا الفعل القاهرة بأسرها ، صدمة عميقة ، بل لقد كان النادى الخديوى على استعداد لأن يظهر سخطه من خلال لوم أو طرد زميلى الممتاز ، ولكن لما تبين أنه لا ينتمى الى النادى ، ذهبت مظاهرتهم الموالية للخديوى ، أدراج الرياح · على أن « مســـيو شارم » استغل هذه الحادثة وبنى عليها أسطورة لا يمكننى أن أمنع نفسى من نقلها (١) ، اذ كتب يقول : « كان ترحيب حماسى ينتظر عرابى · قدمت آنسة انجليزية باقة من الزهور الى « مستر نابير » الذى قدمهـــا

---

(١) مجلة العالمين الاثنين Revue des Deux Mondes عدد أول سبتمبر ١٨٨٣ · ص ١١٧ ·

بدوره الى البطل · احمر وجه عرابى ، وسمعت همهمات استنكار ، ولم تمض بضعة أيام فقط حتى عوقبت هذه المرأة الوقحة على هذا المظهر الممقوت الذى يبعث على السخرية ، وقد تلقت هذه المرأة طردا من الاسكندرية ، فلما فتحته بحذر ، وجدت باطن الصندوق أبيض منقطا بدموع سوداء · أما ما احتواه الصندوق فكان اكليلا جنائزيا كبيرا ، وعلى الأشرطة التى تربطه كتبت الكتابة التالية : مع تحيات واحترام من أقارب وأصدقاء الضحايا التعساء الذين اغتيلوا فى الاسكندرية يومى ١١ و ١٢ يوليو ١٨٨٢ ، وكانت قائمة الأسماء التى ذيلت الكتابة رهيبة فى طولها » · اننى أستطيع أن أؤكد أن هذه الحادثة المسرحية لم تحدث على الاطلاق ؛ وانه ليصعب علينا أن نعرف اذا كان من واجبنا أن نعجب أيما اعجاب بخيال « مسيو شارم » الخصب ، أم نأسف لافتقاده الفريد لتلك الشهامة التى يدعيها وطنه · ويعتقد « مسيو شارم » أن مثل هذا الهجوم على انجلترا ، هجوم ملائم أن يقوم به فى كتابه « العصيان العسكرى فى مصر » ، لأن الصدق التاريخى والتذوق السليم فى نظره ، يعدان ، بطبيعة الحال ، أمرين فى الاعتبار الثانى تماما ·

وفى ٧ ديسمبر ، جئ بالباشوات : « محمود سامى » ، و « على فهمى » ، و « عبد العال » و « وطلبة » ليمثلوا أمام نفس القضاة ، وقدموا نفس الاعتراف ، وحكم عليهم بنفس الحكم ، وطبق عليهم نفس مرسوم تخفيف العقوبة ، وبعد ذلك بثلاثة أيام ، جرى ل « محمود فهمى » و « يعقوب سامى » نفس ما جرى لمن سبقوهما ، وكتبوا ، أفرادا وجماعات ، اعترافات بنفس نص الكلمات التى كتبها عرابى · وكانت الظروف التى أحاطت بهذه المحاكمة مماثلة تماما لتلك التى سبق أن وصفتها من قبل بالتفصيل · واذا كان هناك احساس بأن الاهتمام العام بها قد فتر الى حد ما ، فان السبب الوحيد هو أن الشخصية الرئيسية الكبيرة ناقصة · وبعد ذلك ببضعة أيام ، بدأ العمال فى فك معالم المحكمة التى كانت قد أقيمت بمنتهى العناية ، وبعدما تكلف اقامتها من تكاليف ، ولم تعد ترى الزى الفاخر للقضاة التسعة المصريين فى سجن الدائرة السنية ، وبهذا الأسلوب انتهت ثلاث المحاكمات من محاكم الدولة الكبرى للثورة المصرية فى سنة ١٨٨٢ ·

وكتب عرابى هذا الخطاب الى جريدة التايمز :

الى حضرة ناشر علم العدالة والانصاف مدير جرنال التايمس بالندن

انى قد اتبعت ما اشار به على كل من ذى الشرف المستر برودلى والمستر نابيار المحاميان عنى الواجب على الدوام التشكر لهما على ما بذلاه من الهمة والاجتهاد فى مسألتى واعترفت صورة لدى المجلس العسكرى بالعصيان على الخديوى اذ أن وزراء الانكليز قد أعلنوا مرارا بأنى من العصاة فلا أؤمل أنهم يبدلوا رأيهم هذا فى دفعة واحدة بل ولا يمكنهم ذلك وامتثلت ان أتوجه الى المحل الذى تعينه لى انكلتره للاقامة فيه الى أن يأتى الوقت الذى يمكن انكلترة من تغيير رأيها فيما يخصنى ولذا فانى لست بمتكدر فيما أصابنى ولا من الحكم الذى صدر على لكونه يدل على أنى برىء فيما نسب لى من المقتلة والحريق الذى لم يكن لى فيهما يد قط بل هى فظائع ضد مشروعاتنا الأساسية والشرعية ولتيقنى بأن معاملتى فى المستقبل بكرم الأمة الانكليزية فسأفارق مصر مطمئن القلب والخاطر خصوصا الاصلاحات التى كنا نرغب فى اجرائها فى بلادنا وأنه بعد مضى مدة قليلة يصير ابطال المراقبين وتخرج مصر من أيدى الأجانب المستوظفين الذين احتلوا كل وظيفة بمصر وأنه يصير اصلاح حالة المجالس المحلية وتوحيد قوانينها ونشرها والعمل على مقتضاها وأن يجعل للأمة مجلس نواب منها يكون لهم صوت ونظر فى مصالح الأمة المصرية وأن يصير اعمال حدود المعاملة المرابين مع الأهالى وبالوقوف على حقيقة لزوم هذا كله ليعلم لدى انكلتره أن عصيانى له موجب وسبب عظيم - انى ابن فلاح مصرى وقد اجتهدت على قدر طاقتى فى نوال هذه الاصلاحات كلها لوطنى العزيز الذى أنا من أبنائه ومحبيه فلسوء البخت لم يتيسر لى الحصول على الغرض المقصود لكنى أتأمل من الأمة الانكليزية أنها تتمم الأشغال التى ابتدأتها فاذا فعلت ما أؤمله منها من الاصلاح وجعلت مصر للمصريين كما هو واجب على ذمتها وشرفها تبين لدى جميع العالم اذ ذاك مساعى ذاك العاصى وحقيقة مقاصده - ان الأمة المصرية بأسرها كانت معى ومحبة لى كما انى محب لها أبدا فأؤمل أنها لا تنسانى عندما تتم انكلترة لها الاصلاحات التى كنت طالبها وأحاول الوصول اليها وانى لست بمتكدر على ما نالنى بل انى مسرور جدا حيث كان ذلك ذريعة توصل مصر الى ما هى جديرة به من الحرية والعمران وعندما تتمم انكلترة اصلاحاتها أرجو من شفقتها وانسانيتها أن تسمح لى بالعودة الى بلادى العزيزة على لأشاهد ثمرات الفلاح والعمران بوطنى قبل أن افارق الدنيا .

ها انا متشكر للمستر غلادسطون واللورد غرانفيل لتوسطهم فى مسألتى اذ انقذونى من الخطر العظيم وسيعلمان أنى لم أكن عاصيا حيث جعلت نفسى قائدا لأمة كاملة لا ترغب شيئا سوى العدل والانصاف .

وكذلك اعلن تشكرى الى اللورد دوفرين وسير ادوارد مالت حيث أظهرا نحوى غاية الملاينة وعلو الهمة كما اعلن ممنونيتى لحضرة صديقى العزيز مستر بلونت واخوانه ممنونية لا يمكن لى القيام بواجباتها اذ دافع عنى واعاننى بنفسه وما له فى وقت الضيق والعسر حين تركتنى احبائى من المصريين الذين كانوا يلازمون جانبى فى أيام اليسر .

أما ذو الشرف والأمانة المستر برودلى والمستر نابيار فانهما بذلا غاية جهدهما فى خلاصى وخلاص اخوانى واظهرها فى مساعيهما من الأمانة وخلاص الصداقة ما عجزت عن القيام بواجب شكرهما .

اتصوره وحيث ان سعادتكم كنتم لنا فى مدة السجن أراف بنا من الوالد عل أولاده فى حسن ملاحظتنا ودوام تفقد حالتنا والتردد علينا والسعى فى قضاء مصـــالحنا الخصوصية وحسن الاجتهاد فى معاملتنا بالعدل والانصاف فقد حملتنا مننا لا تعد ولا تحصى واعجزتنا عن القيام بواجب شكركم عليها فنرجو سعادتكم قبول تقديم احتراماتنا وكامل تشكراتنا لدى سعادتكم ٠

٤ ديسمبر ١٨٨٢ احمد عرابى المصرى

خاتم

وقد أحسن « عرابى » بصعوبة بالغة وهو يكتب الى « سير ادوارد ماليت » الذى قال ، وأنا أعتقد أنه صادق فى قوله ، أنه أساء فهمه منذ البداية ٠ ولو أن « سير ادوارد ماليت » حاول بصدق أن يتغلغل فى آمال وأهداف ومدى الحركة الوطنية لو أنه حتى ألقى أذنا صـاغية ومتعـاطفة للكثير من محن ومآسى المصريين الواقعيـــة ، فاننى واثق أنه ما كانت الاسكندرية قد ضربت ولا كانت حرب اشتعلت فى « التل الكبير » ٠ لقد كان خطأ « سير ادوارد ماليت » ناجما من افتقاره التام الى المعلومة الثقة ، اذ أن الناس الذين وضع فيهم ثقته المطلقة أخبروه أن القضية التى كان يقودها « عرابى » ما هى الا أسطورة ، فصدق ما قيل له ، ثم جاء وقت كان مضطرا فيه لأن يستمر فى تصديق ما قيل له رغم أنفه malgré lui وكانت النتيجة هى أننا مازلنا اليوم يواجهنا الموضوع الضخم وهو مستقبل مصر ، ومازال لدينا القليل من الضوء ليهدينا طريقنا أفضـــل من تلك المعلومات المجنونة المليئة بالأخطاء ــ أعنى بذلك التقارير الرسمية المصرية the Egyptian Blue Books بعد أن وصلت القاهرة ، لابد أن أقول بكل تأكيد أن « سير ادوارد ماليت » بذل كل ما فى وسعه لتيســـير مختلف الترتيبات التى لها صلة بمحاكمة « عرابى » ، ولكن الرسالة التى كتبها بخط يده الى « لورد جرانفيل » فى اليوم الســابق لوصـولى (١) تعطى

(١) مولاى القاهرة فى ١٧ أكتوبر ١٨٨٢

ان كبت العصيان من خلال انتصار التل الكبير قد أعقبه هدوء تام فى أنحاء البلاد ، وان كان فقط على درجات ٠ بدأ الأهالى يتغلبون عن الضربة التى أفقدتهم الاحساس لفترة ٠ وطبقا لكل التقاليد فان المنتصرين سينتهزون الفرصة ليتغطرسوا فى كل اتجاه ويسكتوا كل صوت لا يرتفع بالثناء عليهم ٠

والتقارير الواردة الآن من البلاد يبدو أنها توضح أن الناس لا يصدقون أنه ألقى القبض على « عرابى » أو أنهم مقتنعون بأنه والسلطات البريطانية قد وصلوا الى اتفاق صالحه ٠ انهم لا يمكنهم أن يفهموا أنه ، برغم أنه انهزم ، فهو يعامل معاملة ليـــا =

نموذجا لتقارير غير عادية ، يبدو أنها كانت تصله باستمرار ، وكان من عادته أن يؤسس عليها آراء لا تقل أهمية عنها ، ومع ذلك ، فقد عزم « عرابى » على أن يتغاضى عن ما فات ، وكتب تشكراته الى « سير ادوارد ماليت » .

الى سعادة السير ادوارد ماليت : المندوب البريطانى السياسى فى مصر

انى أقدم لسعادتكم مزيد تشكراتى على حسن مساعيكم فى معاملتى بالعدل والانصاف وبذل همتكم العالية فى خلاصى من الأخطار التى كانت محدقة بنا فأرجو سعادتكم قبول تشكراتى واحتراماتى الفائقة واخلاصى فى دوام الثناء عليكم ؟

(توقيع) أحمد عرابى المصرى

٤ ديسمبر ١٨٨٢ خاتم

أما الخطاب التالى فقد وجهه الى زميله السجين « أحمد بك رفعت » ، والخطاب نموذج طيب لأسلوب « عرابى » عندما يراسل واحدا من مواطنيه . لقد كتبه ردا على بطاقة تهنئة بعث بها « أحمد رفعت » له :

اخى وعزيزى المحترم احمد رفعت حفظه الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى صديقى العزيز خضر بك اما بعد فلقد سررت وملئت شجاعة وثباتا حين تشرفت بتلاوة مكتوبكم العزيز وقلت لنفسى اثبتى مكانك تحمدى أو تستريحى ، ثم اتى بى الى هيئة مجلس فيه كثير من الرجال والنساء الكل يظهر عليهم السكينة والوقار فتلى فى المجلس عبارة حكم بانتهاء اجل محدود لم يات وتلى بعدها عبارة باستبدال هذا الحكم بالنفى المؤبد والكل غافل عن معنى لكل اجل كتاب ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن لا قوة الا بالله فقبلنا هذا الحكم صورة وللسياسة احكام وبعد ذلك نثر علينا كثيرا من الورد والرياحين من كان حاضرا المجلس من السيدات الأوروباويات

= اعتبارها ، بينما ننتظر حكم محكمة عسكرية ، لأن مثل هذه المعاملة لا تماثل أية معاملة شهدوها من قبل أو سمعوا بها . لقد دبر « عرابى » أن يوحى للناس بالايمان بأنه يتملكه قوة قدسية لاستعادة عظمة الاسلام ، والقول الشائع بين الناس أنه لا يمكن أن يعدمه أحد ، وأنه مع ذلك سيبرهن على أنه « المهدى » ، وأكثر الناس جهلا يرددون قصة أنه فى الوقت الراهن ، يقوم برحلة لمدة أربعين يوما عبر السموات . و « عرابى » ، بوجه عام ، متمسكة بالتعاطف مع الطبقات الدنيا ، جعله يخطو خطوات سريعة وخطيرة منذ الوقت الذى صار فيه زعيم الشعب المعترف به ، ضد الغزو المسيحى المسلح .

وانفض المجلس كأنه كان مجتمع أنس فجزاكم الله خيرا على ثباتكم وعلى ما اظهرتموه من علو الهمة فى مجلس الاستفراغ هذا وقد طلبت من ذى الهمة والشرف مستر برودلى أنى لست بفرح من نجاتى من الموت ولكن يكون فرحي وسرورى بخلاص اخوانى جميعا الموجودين بمصر والمسجونين بالمديريات وكلفته بالمدافعة عنهم جميعا وان يلزم المجلس بأن يسمع دعواهم بالعدل والانصاف لئلا يقال انى اشتريت نفسى بدماء اخوانى الأبرياء الأحرار فلا بأس عليكم جميعا فالآجال محفوظة ونحن على الحق واعداؤنا على الباطل يعلم ذلك من المساعدات الالهية التى ارسلت لنا أحرار الأمة المحاربة لنا بعضهم من تونس وبعضهم من انكلترة وآخرين من القسطنطنية وايتاليا (١) ومن تحريك قلوب اهل السياسة اجمعين تلك من آيات الله فلا تكن من القانطين ٠

٢٤ المحرم ١٣٠٠هـ اخيكم

أحمد عرابى المصرى

***

مساء يوم المحاكمة ، وجهت الى دعوة لحضور حفل عشاء فى مطعم حديقة الأزبكية ، وكان صاحب الدعوة « مستر بومیروی «Mr. Pomeroy» المندوب الأمريكي والقنصل العام ، وذلك تكريما « للجنرال والاس «General Wallace» الوزير المفوض للولايات المتحدة فى القسطنطينية ، وحضر كثيرون من مواطنى المضيف ٠ وكان « سير ادوارد ماليت » من بين الضيوف أيضا ٠ ولقد طرح موضوع « عرابى » ، وكان هذا أمرا متوقعا ، باعتباره موضوعا من الموضوعات الرئيسية فى تجاذب أطراف الحديث ٠ ولقد طرح « مستر برنارد «Mr. Bernard» ممثل نيويورك هيرالد «New York Herald» بثقله الكامل ، خطته لتملك « مستر بارنوم Barnum» ومستر جوردن بنيت Gordon Bennett (٢) لموكلنا ، بل ويبدو أن « الجنرال ولاس » كان من رأيه أن الاقتراح جدير بالتفكير العميق ٠ كانت الآراء التى عبر فيها عن « عرابى » لها من السمات القوية للمبدأ الجمهورى ما خشيت أنها لابد وستثير مقت « سير ادوارد ماليت » الشديد ٠ ولقد قيل الشيء الكثير عن اختيار « فيجى Fiji » كمكان للنفى ، على اعتبار أنه فعلا منتجع أمريكى ترتاده السفن الشراعية الأمريكية

---

(١) أعتقد أن تلميح « عرابى » هنا المقصود به : لورد دافرين ومستر نابير سانتلانا ومستر برودلى ٠

(٢) لم يكن هذا هو الحل الغريب الوحيد الذى اقترح على « لورد دافرين » ، فلقد علمت من أحسن مصدر موثوق به أن سيدة روسية ذات جسب ونسب ، عرضت كتابة أن تتزوج « عرابى » لو سمح لها بذلك ، ومع ذلك ، فلم ير « لورد دافرين » أنه مطلوب منه أن ينقل خطابها الى السجين ٠

Schooners بالاضـــافة الى ما سينتظر « عرابى » فى الولايات المتحدة من استقبال . قبل هذا ، كانت « فيجى » قد اقترحت فى الدوائر الرسمية على امكان أن تكون مقرا لاقامة العصاة ، ولكن بعد العشـــاء الذى أقامه « مستر بوميروى » لم يرد ذكرها بعد ذلك على الاطلاق . ووسط ما كان يذكر على أنه مجرد ترويح ومزاح ، كان هناك مزيج جاد من التعـاطف الأمين فى مشاعر أصدقائى الأمريكيين فى مصر ، وهو شعور أنا شاكر له دائما .

وفى نفس ذلك المساء (٤ ديسمبر) غادر « مستر سانتلانا » ، الذى أدى لنا خدمات ممتازة ، غادر القاهرة فى طريقه الى روما . وفى الصباح التالى ، زرت « شريف باشا » لأتحدث معه عن مختلف الترتيبات المتصلة برحيل المنفيين لقد احتج وأعرب عن عدم رضاه الشخصى للمصالحة التى سبق الوصول اليها ، وشرح لى جانبا من وجهات نظره الخاصة بالنسبة للطابع الحقيقى للحركة الوطنية ، التى أكد لى أنه هو نفسه كان فى الحقيقة رئيسها حتى أقصاه « عرابى » بوقاحة عن ذلك المنصب ، وقال شريف عنه انه (أى عرابى) نظرا لأنه « فلاح » فلا يمكن أن ينجح فى عمـله . وفى اعرابى فى حياء عن أسفى لأن الصحافة بوجه عام ، تعطى الى حد ما ترجمة مغايرة لعواطفه ، هز رأسه وأعلن أن مراسلى الصحف لن يلبثوا أن يدفنوه قبل أوانه . وعند ذهابى الى سجن الدائرة السنية فى وقت متأخر بعد الظهر ، وجدت « اســـماعيل أيوب » وزملاءه مشـغولين فى استجواب زميل « سليمان سامى » فى هروبه الى « كريت » ، أعنى بذلك التاجر القاهرى « حسن موسى العقاد » . وما كدت أجلس حتى نهض المتهم عن عمد : « اسمعونى يا باشوات ! أنا أيضا مثل أحمد عرابى ، أطلب خدمات المحامى الانجليزى ، ولن أتكلم أكثر من هــذا اذا رفض طلبى » . ويبدو أن « اسماعيل أيوب » قد أخذ تمـــاما بحق من جرأة الطلب ، بينما أقلية من أعضاء المحكمة رفعوا أيديهم الى جباههم كدلالة صامتة على استنكارهم الشديد لمثل هذه الجرأة التى لم يكن لها سابقة . وبعد ذلك لهث « اسماعيل أيوب » ، وما أن استرد أنفاسه حتى قال موجها حديثه الى : « هل تعلـم أن هـــذا الرجل مضرم نار «an incendiary» وصاح زملاء « اسماعيل أيوب » فى صوت واحد : « وكان يوزع العصى على الأهالى ليضربوا بها الأوربيين فى الاســـكندرية » ، وقال اسماعيل أيوب : « أنت بكل تأكيد لن تدافع عنه ؟ » ، وبعد مناقشة القضـــية ، تأجل فى النهاية البت فيها ، حتى تتاح لى فرصة لقاء السجين قبل اتخاذ قرار فيما اذا كنت سأقبل أو لا أقبل أخذ مقدم الأتعاب الذى يرغب أن يدفعه لى . هذا اللقاء ، لقاء المصادفة مع « حسن موسى العقاد » ، لم يكن الا البداية لحادثة من أغرب الحوادث فى محاكمات الدولة فى القاهرة .

الفصل السابع والعشرون

مؤامرة القصر

هـذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

بالرغم من أن « محمد على » بدأ يحكم مصر تقريبا فى مستهل القرن التاسع عشر ، الا أن اثنين من أبنائه كانا لا يزالان على قيد الحياة ، بل وكانا أصغر من بعض أقاربهما من الجيل الثالث · كان « الأمير حليم » وأخته « الأميرة زينب هانم » قد غادرا مصر من عدة سنوات مضت ، ومنذ ذلك الوقت ، استقر بهما المقام فى « استانبول » ، وقدتخلى كلاهما عن حياتهما وثروتهما من أجل حلم مشترك : أن يعتلى الأمير عرش والده · وطبقا لنظام الوراثة الاسلامى ، فان « الأمير حليم » ، باعتبار أنه أكبر الذكور سنا من أفراد أسرة والده ، يصبح « باشا » أو « خديو مصر » بطبيعة الحال ، ولكن سلسلة من الفرمانات الامبراطورية (التى سلمت بها ضمنا كل أوربا) غيرت التقليد القديم ، فصارت السلطة العليا فى مصر تهبط الآن فى خط مباشر من الأب الى الابن · وبالاضافة الى هذه العوائق الخطيرة جدا ، فقد كان « الأمير حليم » يجد نفسه دائما وجهـا لوجه مع التزامه الرزين ، الذى من جرائه تخلى شكليا عن مطالبه ، ووافق على أنه لن يثير أية مشكلة فى المقاضاة بطلبه · وقد اعتبر كل من الأمير وأخته الأميرة دائما أنهما « فى حل » من قسمهما وكرسا بصورة ثابتة حياتهما وثروتهما ترقبا للتاج الوهمى الذى لا أمل فيه ·

وكان « الأمير حليم » قد أنفق الآن كل ثروته تقريبا بين أتباعه فى مصر ، وفيما كان يدفعه لصحف القارة الأوربية من اعانة منتظمة ، ولكن أخته كانت لا تزال غنية ، وكانت على استعداد لأن تنفق مزيدا من المال ، اذا سنحت الظروف بذلك · وكان « حليم » فى ذلك الوقت شخصية

مرغوبا فيها Persona granta عند الباب العالى والقصر، وكان المعروف أن تركيا ترحب به فى سرور ، ليحل فى أية لحظة محل ابن أخيه المتقلب الأطوار ؛ ولم تكن فرنسا ، الآن ، فى كافة الاحتمالات ، معارضة تماما للتغير . لأنه مثلما أن ميول « حليم » لم تكن كلها تركية ؛ فمن الواضح أنها كانت فرنسية أيضا • وكاد « حليم » وأخته يقتربان ، فى كل مناسبة ، من احراز نجاح • لقد سمعت أن آماله كثيرا ما كان يسخر الناس منها فى القاهرة ، حتى أطلق الناس عليه فى سخرية « المطالب الدائم بالعرش The Perpetual Candidate » ولكن، كحقيقة، حدث فى ربيع السنة الماضية ، أن أعد فرمان ، فعلا ، بتعيينه ، وكانت قد استؤجرت الباخرة التى ستقله الى مصر ، عندما ألغى المشروع نظرا للمعارضة القوية المشتركة من جانب كل من انجلترا وفرنسا •

ولم يكن « الأمير حليم » وأخته يميلان لأن يجلسا ساكنين فى ظل أحدث خيبة أمل لهما • ان عدم شـعبية ابن أخيهم ، « توفيق » التى لا توصف ، قد زادت فى قسوة حزبهم فى مجتمع الحريم Seraglios فى القاهرة ،ورأيا ، وهما راضيين قوة الحزب الوطنى المتزايدة ، وتقدمه السريع ، وكان واضحا أن محنة سياسية كبيرة فى مصر تلوح فى الأفق ، وأنه يمكن أن يكون هناك أمل فى أى شىء ، من جراء الصراع العام الخطير الذى ستسببه بلا شك ، بل يمكن أن يكون هناك أمل حتى فى المستحيل نفسه • فى هذه النقطة فكر « حليم » وأخته فى مشروع تبنى أفكار « عرابى » ، بالاتفاق اما معه أو مع أصدقائه ، وفى النهاية ، يصل « حليم » الى السلطة كحاكم شعبى ، على أكتاف الحزب الوطنى ؛ ونتيجة لذلك ، صار أمرا بالغ الأهمية لهما : الدخول فى نوع من المفاوضات مع الزعماء الوطنيين •

وكان « عثمان باشا فوزى » (١) الوكيل العام « ملأميرة زينب » فى القاهرة ، وكانت ذكرى « محمد على الكبير » عنده أسطورة لها تبجيلها ، وكان على استعداد لأن يخاطر بأى شىء من أجل ابن سيده السابق • لقد أؤتمن على مهمة جس نبض « عرابى » واخوانه ، ولكى يفعل هذا بصورة فعالة ، صار « عثمان باشا فوزي » التركى ل ما« Turk pur sang » من تلك اللحظة وطنيا متحمسا فى كل المظاهر ، ولم يكن هذا بكاف ، اذ كان هناك أمر ضرورى تماما على « عثمان باشا » القيام به وهو أن يبحث عن وسيط سياسى يمكن الاعتماد عليه ليقوم بدور الوساطة فى مفاوضات « حليم » المغرضة مع رؤساء الحزب الوطنى •

---

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب •

وبعد تفكير مترو ، قرر « عثمان باشــا فوزى » أن يجس نبض « حسن موسى العقاد » ، الذى كان قد عاد منذ بضعة أشهر سابقة من فترة نفى ثانية فى السودان • وصار الآن ينادى علانيـــة بولائه الشـــديد لـ « عرابى » ولقضية الحرية المصرية ، ولم يكن « حسن موسى » لا « مضرم نار » ولا « متعصبا » ، فهو لم يساعد قط فى حرق الاسكندرية ، ولم يوزع على الاطلاق عصيا على الشعب الثائر • لم يكن « حسن موسى » لا أكثر ولا أقل من مغامر سياسى شديد الذكاء ، له عين حادة يبصر بها الفرصة السانحة ، وكان ذا عزم قوى لتحويل التعقيدات القائمة الى أحسن تيسير مستطاع • وبالرغم من أنه كان رجلا له أساليب خطيرة ، الا أنه كان يتطلع الى السياسات على أنها وسيلة لزيادة ثرواته ، وقد تصور أنه رأى فى صداقته لـ « عرابى » كنز الدورادو El Dorado (١) حقيقى لمؤامرة • هناك قصة قديمة عن شاه فارسى سأل واحدا من خلصائه ما هى أعظم منة يمكنه أن يمن عليه بها ، فأجابه النديم : « أن تسمح لى يا مولاى بأن أحدثك حديثا هاما لدقيقة واحدة كلما أخذت مجلسك فى ســـاحة القضاء » ــ ولم يكن سلوك « حسن موسى » الا تصويرا لنفس الفكرة • لقد كان يتردد على جماعة عرابى لا لشىء الا ليتظاهر بأن له تأثير معين عليه ، وان كان فى الواقع ليس له من تأثير • لقد فهم الشاه الفارسى هدف نديمه ، أما عرابى ، فلم يسبر غور خطة « حسن موسى » الماكرة ، وهذا هو كل الاختلاف • وكان « حسن موسى » (وهو ما أخشى أن أقوله) نقطة ضعيفة فى درع عرابى ، ولكن حتى هنا ، كان شرفه وايمانه الصادق أكثر وضوحا بصورة نادرة •

ولأول ولآخر مرة ، أستطيع أن أؤكد أن « عرابى » لم يكن فحسب يجهل على الاطلاق بالصفقة التى كانت تتم بين « عثمان باشا فوزى » و «حسن موسى العقاد» التى سأسردها بعد ، بل ولم تكن له على الاطلاق فى أية فترة من فترات حياته أية اتصالات أو علاقات « بالأمير حليم » ، أو بأى من الأشخاص الآخرين الذين لهم اهتمامات فى مؤامرة القصر ، التى صار فيها الشخصية الرئيسية، وفي الواقع، لقد دبر أعضاء قومسيون التحقيق أن يكشفوا النقاب عن بعض تفاصيل خيوط هذه الخيانة العظمى المصرية الشديدة التعقيد بأسـلوب عجيب ، لأن التحقيق طابق خبراتهم الشخصية السابقة وساعد فى اعطائهم بعض الأهمية من جديد بعد انهيار

---

(١) يضرب المثل ببلد له ثراؤه الأسطورى العريض بـ « الدورادو » (وهى من دول أمريكا الجنوبية) ، وكان لهذا الثراء الأسطورى ما جذب اليها المستكشفين الأســبان الأوائل • (المحقق)

القضية الكبرى · ومن كافة الأشخاص الذين مثلوا أمامهم خلال مباشرتهم أعمالهم ، كان « حسن موسى » أكثرهم ذكاء الى حد كبير وأقلهم اختلاطا · لقد التزم موقف الجهل التام أو الموقف المتروى ، اذ أنه التزم فى اجابته من البداية الى النهاية بعبارة « أنا لا أتذكر non mi ricorbo» · لقد رفض « حسن موسى » على الاطلاق الاجابة على أية أسئلة محرجة أو تورطه هو نفسه أو أى شخص آخر · وقبل أن أغادر القاهرة ببضعة أيام ، قال « اسماعيل أيوب » انه ما من شىء أثر فيه تأثيرا كبيرا لصالح عرابى ، طوال تحرياته ، مثل نتيجة تحرياتهم فى تفاصيل المؤامرة الحليميـــة Halimist Plot (نسبة الى « الأمير حليم ») · فالدليل على أمانة «عرابى» السياسية فى وجود اغراءات ضخمة لم يكن سلبيا فحســـب بل كان وضعيا ، وكان كافيا لأن يخرس أعداءه ·

ما كاد يصل « حسن موسى » الى القاهرة ، حتى تعرض بيته لتفتيش دقيق ، وقــد وجــد فيه الكثير من الأوراق ، ولكن أية ورقة منهــا لم تكن تفيد فى شىء ، اذ كانت كل خطاباته مكتوبة بنوع من الشفرة طريف جدا : فيها أسود (ج أسد) ونسور وزهور وعندليبات ، وشـخصيات تاريخية ، امتزجت فى خلط لا أمل فى كشف ما وراءه · ووسط كل هذه الحثالة من الأوراق ، وجدت ذرة من ذهب ، اذ على جذاذة صغيرة من الورق وجدت قائمة طويلة لكمبيالات بمبالغ ضخمة تلقاها « حسن موسى » من « عثمان باشا فوزى » ، اننى أشعر ، عن يقين ، أن هذا الاكتشاف هو الذى دفع « حســن موسى » أن يضـــمن خدماتى كمحامى ، وفى نفس عصر ذلك اليوم ، وصلتنى رسالة فى اثر رسالة من « عثمان باشا فوزى » يتوسل الينا أن نأتى اليه ونراه بقصد استئناف الدفاع عنه ·

لقد احتل « ديلى Deli » « عثمان » و « حسن موسى » زنزانتين تكادان تكونان مواجهتين تماما لبعضهما البعض ، فى الطرقة التى قسمت بعد ذلك لتستخدم للسبعة المنفيين بناء على وعد بذلك التقسيم · وعندما رأيتهما فى آخر النهار ، كان كلاهما شديد الانزعاج ، وكان كل واحد منهما يتمنى لو استطاع أن يجعل من الآخر كبش فداء ؛ فقال « حسن موسى » أرجوك أن تنصح « عثمان باشا » أن يعلن أن كل ما فعله هو أنه أعطانى تلك الكمبيالات خلال أكثر الصفقات التجارية براءة ، وليس تحت أية ظروف كتبت الايصال الذى أعطيته له » · ورد « عثمان باشا » على ذلك قائلا لى : « قل لـ « حسن موسى » أن ايصاله هو المبرر الوحيد لى وأنا فى الحقيقة لا أعرف أكثر مما يعرف طفل لم يولد ، لماذا دفعت الأموال · أليس « حسن موسى » تاجرا ؟ ألا يمكن أن تكون هناك بعض

المعاملات التجارية مع الأمير « حليم » ؟ ألا يمكنك أن ترتب معه وتوحى اليه بمثل هذا الدفاع ؟ » ٠

وقد قدر لشخصية أخرى مرموقة أن تظهر عنـــد اقتراب مواجهة « حسن موسى » و « عثمان فوزى » ، وكان محررا لها اليـــوم التالى (٦ ديسمبر) ؛ اذ فى بعض كتب أو أوراق « حسن موسى » ، ورد ذكر للشيخ المبجل « الشيخ حسن العدوى » ، الذى صار الآن ، بعد وفاة رئيسه مؤخرا ، رئيسا للعلماء المصريين وشيخا للجامع الأزهر الشريف ٠ كان « الشيخ العدوى » واهنا كبير السن ضعيفا ، يئن تحت حمل سنواته الثمانين ٠ يكاد يبلغ طوله خمسة أقدام حتى فى أحسن أيامه ، ووجهه مجهد وغائر حتى كادت عيناه لا تبينان ٠ كان بوجه عام ملتفا بازار ليس نظيفا تماما ، مبطن بخطوط من الفرو ٠ كان يرتدى شالا ناصـــعا من الكشمير وعمامة جميلة ، وكان يحمل معه مسبحة ومصحفا ٠ وفى زنزانته (التى كان يقاسمه فيها « عبد الغفار بك ») كان يجلس على سجادة فارسية جميلة ، وكان يبدو دائما أنه نصـــــف مدفون فى المصاحف والمخطوطات المزخرفة ٠ لفترة ، أبعدنا عنه ، وبرهن ل « عبد الغفار » ، بأسلوب يبعث على الاقناع ، أن اســتخدام المحامين الكفرة جريمة ضد القانون ، ويبدو أنه كان على استعداد لأن يلقى علينا محاضرة عن تطفلنا بالدخول فى غرفته ، وبعد ذلك ، غير وجهة نظره تماما ، وطلب منا أن نساعده لو كنـا قادرين على ذلك ، واكتشـــف أن مختلف الفقرات فى مؤلفات أكثر المعاقين وعيا ــ تقر بأن المسلم يلجـــأ الى الكافر فى حالات الخطر المؤكدة والهلاك الوشيك ، ومع ذلك ، كانت روح « حسن العدوى » العجوز لا تزال غير مطمئنة ٠ وتحت هيكله الواهن ، ما لبثت أن اكتشفت وطنيا وباحثا غيورا على العدالة ، وأخلاقيا الى أبعد الحدود ٠ لقد كان مؤيدا قويا ومخلصا ل « عرابى » ، وبالتالى ، تبين أنه لم يتلق من « حسن موسى » الا القليل من المال الذى وهبه صدقات لحساب مسجده ٠ واذا كانت عندى ذكريات عن اقامتى فى مصر ، فاننى لا أجد أعظم قدرا من أربع سور قرآنية مزخرفة زخرفة جميلة بعث بها الى : الرجل العجـوز الأزهرى ، بعث بها اليوم عقب اطلاق سراحه ٠ انها فى الحقيقة هدية لها قدرها ، اذ ندر أن يهدى المسلمون بأمثالها للمسيحيين ٠

لقد بدأت المحاكمة بمواجهة « عثمان باشا فوزى » ب « حسن موسى العقاد » ٠ استجوب « اسماعيل أيوب » أولهما عن : متى ولماذا ظهر مثل هذه الكمبيالات الكثيرة ل « حسن موسى » ، فأجاب « عثمان باشا فوزى » أن لديه بعض الأوراق فى داره ، تحتاج الى اجراء بحث دقيق عنها ، وانه لا يستطيع أن يعطى أية معلومة بدونها ، ولم يقل « حسن موسى » شيئا ،

ولكنه همس ما يفهم منه أنه كان يدعو الله ألا يجد « عثمان باشا » أوراقه بالمرة · ثم استدعى الشيخ العجوز ، وسئل فى حدة اذا كان قد تلقى أية أموال من « حسن موسى » · ومرة فى اثر مرة ، رفض « اسماعيل أيوب » قبول اجاباته · وبعد أن أحس « حسن العدوى » بتعبه واجهاده ، أراح ذراعيه أخيرا على المنضدة ، وتحدث على الوجه التالى : — « أيها الباشوات ! ماذا فعلته حتى ترهقوننى بهذه الصورة ؟ لو كانت لكم زوجات كثيرة وجوار ، فأنتم مدينون لى بوجودهن · ألم يسع « اسماعيل باشا » الى الغاء تعدد الزوجات والحض على الزواج من واحدة ؟ ألم أكن أنا الشيخ الذى برهن على أن تجديدا مثل هذا (يقصد قصر الزواج بواحدة) مخالف لكتاب الله تعالى ؟ أهذه هى مكافأتى ؟ » ، وبسرعة أجل انعقاد الجلسة ·

فكر « عثمان باشا » طويلا فى قلق فى موضوع أوراقه · لقد صمم (وهذا ما شككت فيه) أن يظهر فى النهاية بعضها ويخفى البعض ، وكانت فكرته هو أن يبرهن على أنه يعمل فحسب كوكيل فى دفع المال أو تظهير الكمبيالات ل « حسن موسى » ، وفى الوقت نفسه ، لالقاء قليل من الضوء ، ما أمكن ، على وجهات نظر مستخدميه ، وقد قرر القومسيون أن يستأنف تحرياته بعد ذلك بثلاثة أيام (٩ ديسمبر) · وفى المساء السابق ، أخرج « عثمان » مظروفا مهلهلا مكتوبا عليه بالفرنسية : « الى والدى » ، وكان بداخله البيان التالى : ،

كمبيالات على البنك العثمانى الامبراطورى بمبلغ ١٠ر٠٠٠ جنيه لأمر سعادتلو عثمان باشا ، وكيل صاحبه السمو الأميرة زينب (أرملة كامل باشا) على الوجه التالى :

رقم	٤٣ر٧٣٦	١ر٢٠٠	جنيه
رقم	٤٣ر٧٣٧	١ر٢٥٠	»
رقم	٤٣ر٧٣٨	١ر٣٠٠	»
رقم	٤٣ر٧٣٩	١ر٣٥٠	»
رقم	٤٣ر٧٤٠	١ر٤٠٠	»
رقم	٤٣ر٧٤١	١ر٧٠٠	»
رقم	٤٣ر٧٤٢	١ر٨٠٠	»
		١٠ر٠٠٠	جنيه

القسطنطينية ، ١٣ يوليو ، ١٨٨٢

وفيما يلى ايصال « حسن موسى » :

لقد تسلمت من سعادة عثمان باشا الكمبيالات الأولى والثانية والتى يبلغ مقدارها ١٠٫٠٠٠ جنيه ٠

(توقيع) حسن موسى

انعقدت المحكمة فى الساعة العاشرة فى اليوم المحدد ، وكان مستر فيليرز Mr. Villiers موجودا ، لتحقيق رغبة « اسماعيل أيوب » وهى رسم أعضاء القومسيون الذى يرأسه ، لأنه كان لا يزال يحس ببالغ الحقد على الشهرة والشعبية التى انهالت فجأة على مجموعة المحكمة العسكرية ٠ فى وسط المائدة المغطاة بالجوخ ، جلس الرئيس بينما جلس سكرتيراه « يوسف أفندى » و « ماهر أفندى » اللذان جلسا قبالته تقريبا ٠ أما الخمسة أو الستة أعضاء « المتبقون » ، فقد التفوا حول المائدة فى أعداد متساوية ، واحتللت أنا نفسى كرسيا قرب واحد من السكرتيرين ، وبجانب « عثمان باشا فوزى » ؛ وجلس « حسن العدوى » بجانبه ، فى موقع يكاد يكون فى مواجهة « سير تشارلز ويلسون » ومترجمه مستر ماكولوج Mr. Mc Cullogh قدم « عثمان باشا فوزى » أولا أوراقه التى قرئت فى حينها ، وقد ساعدت بعض اشعارات البنك العثمانى أيضا فى ايضاح أن اجمالى المبلغ الذى تلقاه « حسن موسى » من الأميرة زينب وصل الى ما يقرب من ثلاثين ألف جنيه. وقد استجوب « حسن العدوى » مرة أخرى : « هل تلقيت أية أموال من « عثمان باشا فوزى » ؟ » فكان الجواب : « أبدا » ٠ وفجأة ، بدا أن « اسماعيل أيوب » مر بذهنه خاطر : تذكر أن الصورة التى ستخلد أعماله آتية ، ففكر تغيير الاستجواب بأسلوب مسرحى مباغت Coup de théâtre وخادع ، وفى صوت كالرعد سأل اسماعيل أيوب الشيخ العجوز الواهن « اذا لم يكن قد تجرأ ووقع وختم على قرار يعلن أن صاحب السمو الخديو يستحق أن يخلع ؟ » ٠ بدا « حسن العدوى » فجأة وقد استعاد حماس شبابه القديم ، فمال الى الأمام ، باسطا يده ، وناظرا فى ثبات الى اسماعيل أيوب ، وقال « آه ، يا باشا ! لا يمكننى بدون أن أرى الوثيقة التى يتحدثون عنها أن أقول ما اذا كنت قد وقعتها أو ختمتها ، ولكن هذا ما أقوله فعلا : لو أحضرت لى قرارا لكتب بالمعنى الذى تذكرونه ، فسأكون على استعداد لأن أوقعه وأختمه فى حضوركم ، حتى لو كان الآن ٠ لو كنتم مسلمين ، فهل تنكرون أن « توفيق باشا » قد خان بلده ولجأ الى الانجليز ، هل يعد بعد جديرا بأن يحكمنا ؟ » ٠ ولو أن قنبلة سقطت فجأة وسط الغرفة لما أحدثت ذعرا أعظم من ذلك



شكل ١٢ ـ الشيخ حسن العدوى أمام قومسيون التحقيق

الفصل الثامن والعشرون

سيدات مصر
والوطنية المصرية

لم يحدث فى أى جزء من أجزاء العالم أن خططت المرأة لكى تمارس المزيد من النفوذ السياسى الفعلى مثلما فعلت المرأة فى الشرق ، ولعله لم يكن للمرأة نفوذ له قوته كدافع فى شئون الدولة مثلما كان نفوذ المرأة فى مصر : اذ فى الحريم المصرى ، وجد عرابى بعضا من أكثر أشياعه وطنية ونفوذا • لقد كانت القضية الوطنية ، حتى فى مراحلها الأولى ، تؤيدها بحرارة : الغالبية العظمى من سيدات مصر ، وقد استمررن فى تأييدها حتى صار الأمل منها ميئوسا ، ولم يكن سرا أن أعلنت أميرات الأسرة الخديوية (باستثنائنا على الدوام لأم الخديو توفيق وزوجته) تعاطفهن القوى مع « عرابى » • وقد ذكرت « الوقائع الرسمية » حتى اليوم الذى أعقب ضرب الاسكندرية ، الهدايا المجانية من الخيول التى وهبتها للجيش « أم الخديو اسماعيل » المسنة ، وابنته الأميرة « جميلة هانم » ، وشكلت اتحادات تحت رعايتهما لنجدة واغاثة الجرحى فى كفر الدوار واعداد امدادات من الأتيال والضمادات ليستخدمها الجراحون فى الجبهة • هذا المظهر فى تاريخ الحرب يقدم بكل تأكيد ردا من الردود الجديرة بالملاحظة تماما على من ينكرون سواء شمولية universality أو تلقائية Suontaneity حركة عرابى •

وبعد بضعة أيام من انتهاء المحاكمة ، دهشت لأن يزورنى خادم أمين من طرف « الأميرة أنجى » أرملة « الخديو السابق سعيد باشا »،

التى تعد واحدة من أكثر النساء حبا للخير وأكثرهن شهرة فى مصر • جاءنى بخطاب من سيدته كما جاءنى بكثير من الهدايا الثمينة لكلينـــا مستر نابير وشخصى ، وانى اذ أنشر رسالتها فيما يلى ، التمس لنفسى عذرا وحيدا فى نشر رسالتها بما فيها من اطناب فى المديح ، هو أنها أهم دليل على ما لـ « عرابى » من تأييـد فى داخل البلاد ، وفيمـا يلى نص رسالة الأميرة :

جناب بهى الشيم سنى الهمم الموسيو برودلى الأفوكاتو المحترم

بعد اهدائى لجنابكم واجبات الثناء بكل احترام كما هو لايق بالمقام

بما ان هذا القطر المصرى قد شرف بوجودكم وآمال السعادة بطلعتكم البهية ونور ذاتكم المرضية فحصل عندنا وعند عموم أهالى هذا القطر مزيد المسرورية من حسن وداد وصداقة مساعى جنابكم الخيرية التى أوجبت اظهار العدل والانصـــاف بانفاس جنابكم الطـــاهر ، فلا برحت أيام السعادة الى جنابكم ناظرة ولازلنا مؤملين بمشيئة البارى تعالى مرور العدل دايما على هذا النسق الذى هو قدركم ثم ولما اشتهرتو به من المساعى الحميدة والفعل المبرور الذى خلد فى قلوب الأهالى السرور حملنى بالتشكر لجنابكم واظهار ممنونيتى لنحوكم حتى يبيضو تاريخ دولة انكلترى المتصفة بالعدل والكرم وعلو الشرف من القدم لازالت السعادة محاطة بها مع بقاء عزها حيث أنها هى الواسطة فى ازالة الكروب ولما اشكر خصوصا الجناب المحتشم جناب الموسيو بلونت الذى له اليد والباع الطـــويل فيذلك لكونه اجرى المساعى واهتم بقصد تشريفكم لهذا الوطن حفظكم الله واياه من كل سوء وبلية ليفـــوز بالحصول على زيادة المسرورية وكذا نتشكر من جناب مندوبكم الذى قام بتادية رسالة البشارة وشرف سرايتى وابلغ بما يسر الجميع وزادنى سرورا باظهار الحقائق وعليذلك فانه لا يمكن تادية كمال الممنونية والتشكرات الكفية بالنسبة لشهرتكم بالمساعى الحميدة التى خلدت لجنابكم ذكرا جميلا لا ينكر وآتمنا لجنابكم دوام العزة والاقبال محفوظين بالدولة البراتنيا العظماء ودمتم •

١٥ ديسمبر ٨٢ — خاتم انجى

بعد ذلك ببضعة أيام ، كان لى شرف الاستماع الى الأميرة ، التى كانت تود أن تحدثنى حديثا غـــير متحفظ عن المشاعر الحقيقية للأسرة الخديوية فيما يتصل بأسباب ونتائج الاحداث الراهنة فى مصر •

قالت الأميرة « ان كل فرد منا يتعاطف سرا ، من بادىء الامر ، مع « عرابى » لأننا كنا نعرف أنه لا يسعى الا لخير المصريين • لقد اعتقدنا مرة أن « توفيق » كان أيضا فى جانبه ، ولكن عنـدما اكتشـــفنا أن « توفيق » يقصد خيانة مصر ، كرهنه من قلوبنا • ولقد بذل توفيق كل ما فى وسعه ليجعل حيواتنا بؤســا منذ ذلك الوقت • لقد عرفته الأميرة

« انجى » التى نبجلها جميعا ، عرفته مرتين وفى منتهى الوضوح ، بسوء مسلكه ، ولكن لم ينصلح حاله بأية صورة ، ثم ما لبث بعد ذلك أن ذهب « توفيق » الى الاسكندرية ، وبعدها سمعت أنه انحاز تماما الى الانجليز ثم استقر رأينا جميعا منذ هذه اللحظة أن نتطلع فقط الى « عرابى » للدفاع عن البلد ، وعقدت اجتماعات من كل كبراء مصر فى القاهرة ، حضرها « الأمير ابراهيم » و « الأمير كامل » (١) والأمير أحمد واستقر الرأى بالاجماع بتفويض « عرابى » باستئناف الحرب · لقد رأينا فى « عرابى » محررا ولم يعرف حماسنا له أية حدود · اننا جميعا بعثنا له بخطابات وتلغراف بتهنئته وتشجيعه ، لقد كتبت الأميرة الى « عرابى » خطابا غاية فى الحماقة ، اذ عرضت عليه فيه ، على ما اعتقد ، أن تتزوجه باعتباره منقذا لمصر ، فكان كل ما قاله لها عرابى أن تهتم بشئونها وأن تبقى فى دارها · لقد ساهم كل فرد منا فى تكاليف الحرب طبقا لامكاناتنا · وكنا نحن الأميرات مشغولات دائما بعمل ضمادات للجنود ، وفى يوم من ايام سبتمبر ، عاد « عرابى » الى القاهرة وسمعت أول ما سمعت أنه جاء معه برأسى « الجنرال ولسلى » « والأميرال سيموز ، ولكن تبين أن هذه الاشاعات لم تكن صحيحة ، وأنه كان يعانى من هزيمة منكرة · عمنا جميعا حزن شديد ، ولكننا لم نكن بالغات الاكتئاب تماما مثلما صرنا عندما علمنا بعودة « توفيق » منتصرا ، لأننا توقعنا جميعا سوء معاملته لنا ، وقد كان : فقد بعث أولا فى طلب الأميرة المسكينة وعنفها لمكاتبتها لـ « عرابى » ، ولكن أمها ، مع ذلك ، أعلنت فى شجاعة أنها هى التى كتبت الخطاب وختمته بخاتم ابنتها ، فكان مآلها الطرد بعد ذلك ، ولكن الأم عنفت بصوت عال : الأغا الذى وشى بهما عند الخديو باستمرارها فى مراسلة « عرابى » ، وضربته فوق رأسه بكرسى ، فجرى بعد ضربه ، وهو يدمى ، الى سلم الخديو «توفيق» ليعلن عن شكواه ·

وفى النهاية ، صدرت لنا جميعا الاوامر بالذهاب الى القصر ،كثيرات من السيدات كن يصحن خوفا ، ولكن أم توفيق « عنفتنا بصوت عال وقالت ان بطلنا « عرابى سيسلمه الانجليز لهم ليقتلوه قتلا بطيئا بالمخاريز bodkins وأمسكت بقائمة فيها أسماء كثيرات منا سيجلن

---

(١) لقد أعلن الأمير كامل أمام قومسيون التحقيق أنه حضر الاجتماع بمحض ارادته وأنه لم يخضع لأى ضغط فرض عليه ليؤثر على رأيه ، وأنه صوت عن عمد لاستمرار الحرب لأنه كان يؤمن أن من واجبه أن يفعل ذلك » ·

لينفذ فيهن حكم الاعدام (١) ، ولكنى منـــذ أن تبين أنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا سواء لنا أو لعرابى بدون موافقة الانجليز ، من وقتها وهم يكرهون الانجليز الآن أكثر من كراهيتهم لنا • ولما عرف فى القصر أن حيـــاة « عرابى » قد أبقى عليهـــا ، استسلمت النســـاء لحزن وكآبة شديدين ، كما لو كان الموت قد حل بالأسرة فجأة • كان رأينـا عـن المستقبل رأيا اجماعيا تماما ، وهو أنه بعـد كل ما حدث ، فانه طـوال حكم توفيق ، فلن يكون هناك سلام بالنسبة له ، ولنا ، أو لمصر » •

وقد أتيحت لى فرصة بعد ذلك لرؤية « توفيق باشا » مـرتين ، عندما تنازل واستقبلنى فى اجتماع خاص فى قصر عابدين ، وعنـدما وصلت الى هناك صباح يوم ١٢ ديسمبر ، كانت الأبواب يحرسها حراس بريطانيون ، وبعد تناولى القهوة فى غرفة رئيس المراســيم فى الطابق الأسفل ، قادنى « تونيو بك Tonio Bey »الى سلم عريض من المرمر يؤدى الى غرفة مكتب ضخمة مؤثثة بأثاث فرنسى ، وبها ساعات كثيرة وشمعدانات عديدة والسجاد المزخرف بالأسلوب الشرقى،وكان «توفيق» جالسا على كنبة على الطرف الأقصى من الغرفة ، وكان هناك شـــخص آخر مندثرا كله ، وكان يحتل كرسيا على مســـافة بعيدة ، قدمه الى رسميا ، وأخبرنى فى الوقت نفسه ألا أعير اهتماما لزائره لأنه لا يستطيع أن يتحدث أو يفهم أية لغة أوربية » • بعد ذلك سمعت مصادفة أن من كان حاضرا وقت اللقاء ، كان رئيس الاساقفة الأقباط • كان « توفيق » قصير القامة ، مكتنزا وعصبيا ، ولم يكن ينقصـــه الذكاء على الاطلاق ، كانت عيناه وفمه تكشف بوضوح عن ضعف خطير فى الشـــخصية • وبالرغم من أن تعليمه كان كله فى مصر ، الا أنه كان يجيد الفرنسية تماما ، كما كان على المام طيب جدا بالانجليزية • وكانت أفكاره وآراؤه وطريقة تفكيره ، كانت مع ذلك كلها شرقية • كان سلوك « توفيـق » سلوكا قلقا بصورة دائمة لا يمكنه التحكم فيه مما يعطى دليلا لا يمكن أن تخطئه على تردده التام فى الوصول الى الغرض • هذا العجز الذى يؤسف له فى اتخاذ قرار يؤدى به دائما الى أن يفعل أفعالا مناقضة تماما لطبيعته الطيبة • « توفيق » ، باختصار ، يعد ملكا شرقيا دســـتوريا فاشلا manqué لقد حاول ، وان كان لم يحالفه التوفيق ، أن يرضى كلا الجانبين ، كما فشل بمؤامرته فى ارضاء كليهما • وفى وقت من الأوقات ، كان من السهل أن يرأس الوطنيين ويكسب ثقة الشعب المصرى ، ولكنه عن عمد أضاع فرصته • ومن اللحظة التى تشاحن فيها

---

(١) لقد حذفت جانبا كبيرا من هذا الجزء من القصة (المؤلف) •

مع « عرابى » ، ليضيع وقتا أولا مع تركيا ثم مع القـوتين العظميين ، صار أكثر شخص مكروه فى مصر كلها ، ومن الصعب اخفاء الحقيقة . كاد يكون مستقبله أمرا ميئوسا منه ، وكانت أية بداية طيبة تحت رعايته أمرا مستحيلا ، وسيكتب اسمه فى التاريخ على أنه « الأمير » الذى جاء بالانجليز الى مصر ، وهولندا ، لعنه كل المصريين ، بالفعـل ، ما بين « قنا والاسكندرية » (١) ، ولم تـكن جهـود انجلترا المسـتمرة فى الاستعانة به كوسيط محترم مناسب ، ليتدخل (وكثيرا ما يكون تدخل خير) فى الشئون المصرية . لم يكن فى قيامه بهذا العمل الا تكثيفا لهذه الكراهية ، وأكسب انجلترا صفة المشاركة فى أفعاله مثار الشـك والريبة . لقد كانت أفعاله أشبه ما تكون بابراز قماش أحمر لثور ثائر . ان موقف « توفيق » الجنونى الراهن ، يعيد الى الاذهان ما كنا نتغنى به فى طفولتنا :

« جلس : هامتى دامتى Hampty Dumpty على السور

« فسقط هامتى دامتى سقطة شديدة

« ولم تستطع كل خيول الملك ولا كل رجاله

« أن يعيدوا ل هامتى دامتى انتصاب قامته مرة أخرى » .

جلس « توفيق باشا » مرة فى ثبات ، على سور الوطنية المصرية ، ولكنه لم يتخل فحسب عن القضية بل خانها ، ثم سقط ، ولكن « لم تستطع كل خيول الانجليز ولا كل رجالهم . أن يعيدوا له حب او ثقة رعاياه الساخطين عليه .

وبعد أن قدم لى سيجارة ، بدأ الخديو حديثه معى بأن أكد لى بأن آراءه بالنسبة للمحاكمات الأخيرة قد أسيىء فهمها تماما فى أوربا ، وأنه كان هو ، بوجه عام ، ضحية التمويه الخبيث . انه لم يرد ابدا ، أو يؤيد أبدا ، اعدام المسجونين ، وأن تخفيف عقوبتهم كان عن رغبـة وكان ممارسة سارة للرأفة والرحمة . لقد لاحظت ، وأنا خجل ، أنه مما يؤسف له أن مراسلى الصحف الموهوبين والثقات ، قد نقلوا للعالم ترجمة مختلفة تماما لوجهات نظره (٢) ، وبصورة أخص الأوربية والعربية المحلية التى

---

(١) يقصد المؤلف بعبارة « ما بين قنا والاسكندرية » : من أقصى البلاد الى أقصاها . (المحقق)

(٢) فى مقاله الشهير عن « عودة الملكية فى مصر «Restoration in Egypt جريدة "Fortnightly Review" كتب مستر آردون بيمان Mr. Ardern Beaman

صورته ، باستمرار ، كما لو كان قد فرض عليه فرضا كتابة قرار النفى .
انه لم يجب ، بل سألنى اذا كان عليه أن يلتقى بمزيد من الصحفيين اذ يجد من الصعب عليه أن يلتقى بهم لقـــاء وديا ، وفى الوقت نفسه لا يقول لهم شيئا ، ثم فجأة ، غير مجرى حديثه الى موضوع جحود أسرته هو نفسه تجاهه . لقد أنهى عليهم بما فيه نفعهم ولكنهم « تنــكروا له ووخزوه » ، لقد علم أن الأميره ... قد قالت هذا « للورد دافرين » ، وأن الأميره ... أكدت ما قالته الأميره ، ولكن كل ما قيل ليس صحيحا وقال انه كم يكون سعيدا لو لم تلاحقه ألسنة الأميرات وأقلام رجال الصحف ، وقال ان أباه هو نفســـه لن يتركه وحــده ، فقد كان « توفيق » يبعث دائما بخطابات غاية فى الأدب والاحترام ومع ذلك ، اتهمه « اسماعيل باشا » لشخص ما ، كتب عنه بعد ذلك فى « التايمز » بأنه لا رأس له ولا قلب ولا شجاعة ni tête ni coeur ni courage (١) حاولت بعد ذلك أن أتحدث قليلا عن « عرابى » ، فقال الخديو انه يعتقد حتى الآن أن «عرابى» رجل طيب ، ولم يعتقد اطلاقا للحظة أن عرابى فكر مرة فى قتله ، ولو كانت عنده هذه النية لفعلها مائة مرة عندما كانا معا فى القاهرة . أمــا بقية الحديث فقد تناول تفكر « توفيق » الجنونى لعجزه عن ارضاء أى فرد . لقد ائتمننى ، على أية حال ، لو أمكننى ذلك ، أن أقول عنه انه لم يكن انتقاميا vindictive أو قاسيا cruel كان الانطباع الذى خلفه « الخديو توفيق » على ذهنى انطباعا مؤلما جــدا ، حتى أننى لم أكن آسفا ، و « تونينو بك » يقودنى مرة أخرى ، مارا بالمستنبت الزجاجى الضخم ، هابطا السلالم العريضة المغطاة بالسجاد الى البوابة الخلفية حيث كان توماس آتكنز Thomas Atkins (٢) يمشى ببطء جيئة وذهابا ، يحافظ على أمن الخديو المصرى الذى استعاد ملك ولايته .

معلومة خاصة عن موضوعه جاء فيها : « لم يضمر «عرابى» ل «توفيق» أى سوء نية ، حق صار واضحا له أن أوربا ستستخدم « توفيق » للتعمية as a stalking-horse فى الضغط على الحركة الوطنية . لقد بدا وضع « توفيق » أنه لم يعد يؤيده ولا يقف الى جانبه : فى المقام الأول ، لجريمته التى لا تغتفر وهى احضاره الانجليز الى مصر ، ثم اصراره على أن يربض الانجليز عند بابه . ومن الغريب تماما ، أن احساس الكراهية الوطنية كان أقوى ضد الخديو منه ضد الانجليز الذين استدعاهم لتلبية ندائه ضد رغبتهم ، لقد كان الانجليز ضيوفا لا مرحبا بهم ، وصلوا بناء على دعوة مضـــــيف غير محبوب فى بلده » (نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٦٣٠) .

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٢) اسم أحد الحراس الانجليز لقصر عابدين ممن كانوا مكلفين بحراسة « الخديو توفيق » شخصيا ، طبقا لتعليمات سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر .

(المحقق)

وكانت مقابلتى الثانية للخديو توفيق . يوم ٣٠ ديسمبر (فى صحبة مستر نابير) لنودعه قبل مغادرتنا لمصر • هذه الزيارة أتاحت لى فرصة تقديم طلب مباشر اليه ، نيابة عن بعض المسجونين الآخرين ، لأن « عرابى » كان فى طريقه الآن الى « سيلان » • كم كانت دهشتى عندما اكتشفت أنه يعرف كل التفاصيل الخاصة بحالاتهم ، اذ تصادف أن نفس الأشخاص الذين تحدثت نيابة عنهم كان يمقتهم بصورة خاصة • فى لقائنا الأول ، سمعت منه الكثير عن اساءات أميرات مصر له ، وأنا الآن ، أؤيد ، وكلى ثقة ، ما يتصل بسلوك أقاربه فى القسطنطينية المنطوى على الخيانة • لقد استراح كلانا . على ما أعتقد لانتهاء المقابلة وبهذه المناسبة ، كان « طلعت باشا » يحتل المقعد الذى احتله من قبل رئيس أساقفة الأقباط ، وبعد أن عبرنا عن امتناناتنا للكرم الذى غمرنا به ، غادرنا القصر ، ومن الصعب أن نجزم اذا كان وضع الحماة «Protectors» أو « المحميين «protected» يمثل أعظم المشاكل فى مصر ، أم أنه أوضح انحرافا عن الوضع السليم •

الجريدة خفف من صيغة تلغراف المراسل ، فقرأه الناس فى لندن على أنه « سخط مكبوت «Suppressed indignation

كان واضحا أنه من المحال على « لورد دافرين » أن يتساهل فى أمر الحملة النشطة للمؤامرة الفرنسية المصرية التى جاءت مباشرة فى أعقاب محاكمة « عرابى » ، وكان « رياض » من المعروف أنه واحد من كبار الموحين بها ، فقد ربتت اليد المتسلطة غير المنظورة على ظهر « شريف » مشجعة ، فى الوقت الذى سحبت فيه « رياض » فى حزم من منصب كان يلحق بنا الكثير من الأضرار ما أمكنه ذلك . ولسوء طالع مستقبل مصر أن «رياض» كاد يكون فى قوته خارج الحكم قدر ما كان له من قوة داخله .



(شكل ١٣) ـ عليك ان تتوجه الى سيلان ، يا عرابى

لقد تقرر الآن أن على « عرابى » أن يتوجه الى « سيلان » ، ولذلك حصلت على أطلس صغير واصطحبت معى مستر بيمان Mr. Beaman وتوجهنا الى السجن (٨ ديسمبر) لأنقل هـــذه المعلومة الى « عرابى » وصحبه . وجدنا « عرابى » يكتب رسائل فى زنزانته ، وما أن سمع النبأ الذى حملته له حتى ابتسم فى هدوء (لأ ننى لم أر عرابى يضحك أبدا) وقال « هذا فى الواقع شرف عظيم أن أعدائى لم يرضـــوا بأن يصدر فحسب قرار نفيى ، بل يبدو أنهم كانوا راغبين بالفعل فى أن

يبعثوا بى الى الجنة أيضا » ألم تسمع قط أنه عنـــدما افترق أبوانا الأولان فى سهول بلاد ما بين النهرين ، بعد طردهما من الجنة ، ذهب أبونا آدم الى سيلان « ومن وقتها سميت باسم « جنة آدم » ، بينما أمنا حواء وصلت الحجاز ، ومن يومها عرفت باسم جنة حواء ؟ » ٠ لا يمكن أن يكون هناك أعدل من هذا ، لقد طردت من مصر « بستان الدنيا » ــ لأذهب الى سيلان « جنة آدم » ٠ اننى أحييها على اعتبار أنها فأل سعيد »٠ وبعد أن غادرت زنزانة « عرابى » لأزور بقيـة المســجونين ، قابلت « اسماعيل أيوب » فى الطرقة ، وأخبرته برأى « عرابى » عن سـيلان، فنطلع الى وهو لا يكاد يصدق ، ثم قال فى اخلاص تام : « يا صديقى العزيز ، ما من شىء سيدفعنى الى تصديق أن فلاحا مثل عرابى خبير جدا فى التاريخ القديم ، كأن أعرف منه مثل هذه الحقائق » ٠

وكان « لورد تشارلز بيرسفور Lord Charles Berseford» فى القاهرة فى ذلك الوقت ، ولم يبال بأية متاعب للحصول على معلومة صحيحة عن الأسباب الواقعية للعمليات الحربية ، التى شارك هو نفســه فى جزء منها بشكل واضح تماما ٠ وكان من الملاحظ أن قلة من الانجليز صاروا أكثر شهرة منه فى مصر ٠ ومن المؤكد أنه لم تتح لأحد غيره تيســيرات أضخم لاكتشاف الحقيقة الكاملة عن الفصول الأخـــيرة من تاريخ تلك العمليات الحربية ٠ ولما كان « لورد تشارلز بيرسفورد » تواقا ليسمع عن « عرابى » قصته هو نفسه عن ضرب الاسكندرية ، عرض « مستر نابير » الموضوع على « عرابى » ، وفى اليوم التالى (٩ ديسمبر) طلب « عرابى » من « مستر نابير » أن يحمـــل الخطاب التـــالى الى « لورد تشارلز » :

الى صاحب الدولة والاجلال اللورد شارلس باريسفورد

انى اقدم أعظم التحيات وأزكى التسليمات لفخامتكم وأتشكر لدولتكم على ما أظهرتموه نحوى من حسن المساعدة وانتصاركم للحق فى المدافعة عنى من غير سبق مقابلة بين الأشباح ولكن الأرواح الحرة متعارضة متعاضدة فى خدمة الانسانية بأعمالها الشريفة هذا وانى أؤكد لدولتكم انه لم يكن بين المصريين والأمة الانكليزية ادنى عداوة أصلا تستوجب حصـول اى حاصل بل ولغاية الآن ليس احد من المصريين يعرف الأسباب التى انبنى عليها حصول الحرب التى حصلت حيث أنه لغاية الساعة التى ابتدى فيها بضرب المدافع على اسكندرية كانت الأمة المصرية محافظة كل المحافظة على حقوق الأمة الانكليزية بل وعلى حقوق اخوانهم الأوروباويين واظن ان سبب الحرب مجهول ايضا عند الأمة الانكليزية فلما حصل الحرب وكان تقرر بالمجلس المنعقد لذلك تحت رياسة الخديو ودرويش باشا مندوب الســـلطان بلزوم الموافقة فألزمنا بامر المدافعة بمقتضى هذا القرار الشرعى وكانت مدافعتنا عن بلادنا بمقتضى الشرع والقانون لكونها باقرار الخديو الحاكم الشرعى وجميع وكلاء الحكومة ولما كانت

الحرب قائمة فى اسكندرية كانت تاتينا رسل الخديوى يحرضوننا على القتال ويمدحوننا على الصبر والثبات مع عدم جودة الأسلحة ورداءة الطوابى وبعد تدمير الطوابى وتعطيل المدافع عقد مجلس آخر تحت رياسة الخديو ودرويش باشا أيضا للنظر فيما يصير اجراؤه بعد ذلك فتقرر فيه بانه اذا حصل الضرب على الاسكندرية فى اليوم التالى يصير رفع الرايات البيضاء على الطوابى علامة على طلب المكالمة وقد حصل ذلك واننا كنا مستعدين فى كل وقت لطلب الصلح ولكن لما ارسل طلبه باشا للمكالمة قيل له ان « الأميرال سيمور » يطلب تسليم ثلاث طوابى لاتخاذهم معسكرا للجيش الانكليزى وتقرر بالمجلس أيضا أن هذا الطلب من حقوق الحضرة السلطانية وقيل من مندوب الأميرال أنه ان لم يجاوب لهذا الطلب فانه يصير اعادة الضرب بالمدافع وأخذ تلك الطوابى قهرا وحيث أن موقع الاسكندرية لا يناسب لاقامة العسكر فيه ويخشى من اتخاذ خط الرجوع وضبطه من خلفهم بواسطة العساكر الانكليزية انجبرت العساكر المصرية على الرجوع الى جهة كفر الدوار لتسكون آمنة على خط الرجعة ومن هذا يعلم انه لو خرجت العساكر الانكليزية ، فى ثانى يوم بعد الظهر وجدت ممانعة وكان امكنها حفظ البلد من النهب والحريق أيضا وهذا البيــان بناء على طلب المستر نابيار المحامى عنى فى المحاكمة ثم أرجو دولتكم قبول احتراماتى الفـائقة لمعالى فخامتكم ٠

(توقيع) احمد عرابى المصرى

١٠ ديسمبر ١٨٨٢ — خاتم

وقد بدا على « عرابى » أثناء الفترة الأخيرة من سجنه الشاق ويجب أن نذكر دائما أنه كان يعيش فى حبس انفرادى صارم ، ولم يكن يخفف عن حدته سوى زياراتنا اليومية له) ــ بدا عليه قلق ملحوظ ليعلم مـا كتب عنه فى أوربا فى الشرق ٠ان كدره المرير منى تغير نبرة الصحافة العربية يبعث الأسى فى نفسى محبيه ، لم يكن حتى ذلك الوقت قد عرف بعد ما فيه الكفاية الفرق بين النجاح والفشـــل ، ولكى يسرى عن « عرابى » قليلا ، اعتاد واحد من مترجمينا أن يترجم الى العربية مقتطفات من التايمز Times والاستاندرلر Standard والديلى نيوز Daily News وقد اعتاد « عرابى » أن يقرأها باهتمام بالغ ، وكان لهذه الألفة البسيطة مع الصحف الأوربية ما أعطى « عرابى » أول فكرة عن أن يكتب هــو بنفسه ، لينشر فى انجلترا بعض بيانات موجزة دفاعا عن نفسه ، ومن أمثلة ذلك خطاباه اللذان بعث بهما الى « التايمز » ٠ وربمـا لم يبعث شىء فيه السرور أكثر من بعض الفقرات المختصرة التى كتبت عن مصر فى جريدة « الحق Truth» وكان شديد الميل لاسم الجريدة ، وكان بالغ الغبطة أن يرى أن مستر « لابوشير Mr. Labouchere» كان عـلى استعداد دائما لأن ينظر الى القضية المصرية بمنظار مصرى ٠ وفى نفس ذلك اليوم ، قبل أن ينتهى حبسه الانفرادى ، قال أنه تواق ليقول الحق

هذه افكارى اعرضها على نصراء الانسانية ولكم دوام الفضل وارجوكم قبول احتراماتى الفايقة ٠

(توقيع) احمد عرابى المصرى

١٠ ديسمبر ١٨٨٢ خاتم

وبعد الانتهاء من نظر قضايا « محمود فهمى » و « يعقوب سامى » (فى ١٠ ديسمبر) ، صار أمرا ضروريا الآن بالنسبة للسبعة المنفيين أن يستعدوا للرحيل ٠ وبناء على اقتراحى ، استقر الرأى على تقسيم الطرقة فى زوايا قائمة حتى زنزانة « عرابى » لتسمح للمسجونين السبعة بأن ينتشروا بدون تحفظ فى الغرف التى تضمها ٠ لقد كان أمرا مرغوبا فيه بصورة واضحة بأن يسمح لهم بأن يناقشوا فى حرية مختلف الترتيبات لرحلتهم المرتقبة ٠ لقد كنا فى حيرة شديدة من الزيارات التى لا تنقطع ، التى كنا نتلقاها من الوكلاء والخدم والأغوات سعيا وراء معلومة بالنسبة لخطط سادتهم ، وكان واضحا أنه لم يكن فى الامكان احراز أى تقدم حتى يمكن أن يسمح للمنفيين بالاتصال بأسرهم ٠ وقد جاء« اسماعيل أيوب » (وقد صار الآن ناظرا للداخلية) ، بقلبه الطيب، ليشاهد النجارين وهم يغلقون نهاية الطرقة ، وقرر أنه عندما ينقل النزلاء الى الأماكن الجديدة ، يجب ألا تمنع أسرهم ، بعد اليوم ، من الدخول اليهم ٠ كل هذا يبشر بالخير ، وكان موكلونا فى الواقع ، فى غاية الامتنان لهذا الأسلوب الذى عوملوا به ٠

وطوال الوقت الذى انصرم بين محاكمة عرابى (٣ ديسمبر) ومحاكمة يعقوب سامى (١٠ ديسمبر) ، تلقى لورد دافرين « أكثر من برهان واضح على الرضا الذى أحس به المصريون من سياسة الرحمة والرأفة ، بل كان « سلطان باشا » صادقا بما فيه الكفاية فى الاعراب عن اقراره الأسلوب الذى اتبع (١) ، بينما اعترف « نوبار » صراحة

---

(١) رسالة من لورد دافرين الى لورد جرانفيل

القاهرة فى ٧ ديسمبر ١٨٨٢

مولاى اللورد

اتشرف بان أحيط علم مولاى اللورد ان سلطان باشا زارنى اليوم ليعبر لى عن رضاه البالغ عن الطريقة التى انتهت بها محاكمة عرابى وصحبه المسجونين ، ولما كان سلطان باشا له نفوذه القوى فى البلاد ، فقد كان تعبيره عن رأيه له اهميته ٠



شكل ١٤ ـ الاستعداد للمنفى ـ من سنأخذ معنا ؟

« طلبة » وحده يعانى من مرض الربو المصاب به ، ولم يشعر بالراحة ٠ لقد كان غريبا أن ترى زعامة « عرابى » التى تنبىء عن نفسها قد أكدت ذاتها الآن ، وبدا أنه كان يفوق كل زملائه ولم يكن هناك شىء يفعل أو يقال دون أن يؤخذ رأيه أولا ٠ لقد اعتادوا جميعا على أن يلتزموا بنفس كلماته بل ان « طلبه » حاول أن ينسى تعبه عندما طلب منه « عرابى » أن يكون منبسط الأسارير ، ولا يكدرهم بنظراته الكئيبة ٠ وقد صارت غرفة عرابى ، باتفاق ضمنى ، مكان اجتماعهم العام ، وبناء على طلبى ، لم يضيعوا وقتا فى اعداد قوائم الأشخاص الذين يقترحون مرافقتهم معهم الى « جنة آدم » ٠

وفى الصباح التالى (١٤ ديسمبر) ، وعند وصولى الى سجن الدائرة السنية ، وجدت هذه القوائم ، وقد تم اعدادها بالفعل ، وكما كان متوقعا ، كانت القوائم تختلف اختلافا كبيرا جدا فى مداها ، ابتداء من « محمـــود سامى » ، التى تضمنت فقط خادمه الخصوصى ، الى « على فهمى » الذى تضمنت قائمته حتى أغاواته وأقاربه الفقراء ٠ والعائلة المصرية لها بطون كثيرة وبعيدة ٠ وفى أول حماس للفكرة ، يبدو أن بعض موكلينا فكروا فى هجرة كاملة الى سيلان ٠

وما أن حصلت على هذه القوائم حتى أخذتها الى « اسماعيل أيوب » فى مكتبه الجديد بنظارة الداخلية ٠ ومبنى نظارة الداخلية كان يوما ما

وفى ١٥ ديسمبر ، صدر قرار لا بمصادرة أملاك المنفيين السبعة فحسب بل « واعتبارهم مدنيا أمواتا ولا يحق لهم أن يرثوا » (٢) وهنا كان أول انتهاك فاضح لبنود مصالحتنا التى دونهـا « لورد دافرين » بنفسه • وفى نفس ذلك المساء عين حراس أتراك وجراكسة على البيوت التى تقطنها أسر المسجونين ، وفى الصباح التالى أرسلت لجنة منتخبة من نظارة الداخلية الى كل من هذه البيوت للغرض الظاهرى وهو عمل جرد للمحتويات • ومما يعد شينا أبديا فى جبين الحكومة المصرية هو انتهاك قداسة الحريم واقتحام خلوة النساء بصورة وقحة • وفى ساعة مبكرة جدا ، تلقيت خطابات عن الموضوع من موكلى ، فقد كتب « عرابى » يقول :

جناب المحب المحترم المستر برودلى المحامى عنى

بلغنى انه صار وضع عساكر على منزلنا ومنع أفراد العائلة من الدخول والخروج بقصد المحافظة على موجودات المنزل وحيث ان المنزل الذى به عائلتى هو بالايجار وليس لى بيت فى مصر ولا فى غيرها وإن جميع موجودات القصر ومفروشاته ملك حرمنا ولا يكن عندها شىء خلاف ملبوسات بدنى فنرجوكم اعلان الحكومة بذلك وفك الحجز عن ملك حرمنا •

المطيع لله

احمد عرابى المصرى

١٦ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) خاتم

وكتب « على فهمى » يقول هو الآخر :

ابلغنى خدمى ان الحراس الذين ارسلهم مدير ضبطية البوليس دخلوا منزلنا وصمموا على ان يبقوا فيه ، حيث ان المنزل المذكور وجميع موجوداته ومفروشاته ملك حرمنا لأنه كان مهرها عندما تزوجتها من حريم اسماعيل باشا ، سيدى ، فنرجوكم ان تعملوا على حمايتنا من هذا الظلم البالغ •

(توقيع) على فهمى

وعلى الفور ذهب « مستر نابير » الى سجن الدائرة السنية ليهدىء ما أمكن من قلق المسجونين • وقد بدأت أنا بالبحث عن « اسماعيـل أيوب » ، بينما أخذت « مسز نابير » على عاتقها مهمة مواساة السيدات

---

(١) نص العبارة القانونية هى كالآتى :
«declaring them civilly dead, and incapable of inheritance»

الكثير من النقاش ، دفعت « عثمان باشا » دفعا لأن يعد بأنه سيصرف كل الحراس من بيوتات المسجونين سوى حارس واحد ، وأن لا يسمح باقتحام المبنى ذاته بأية صورة من الصور ، وأن الأشخاص الداخلين أو الخارجين منه يجب ألا يتعرضوا لاهانة التفتيش الشخصى ٠

وفى طريقى عائدا الى سكننا ، التقيت ب « مسز نابير » ، وقد بدا الآن أن الأمور قد صارت فى الواقع أسوأ مما كنت أتخيل ٠ لقد تلقى « مستر نابير » لتوه رسالة من زوجته تخبره فيها أن « اثنين من المدنيين » وبعض الجنود ، دخلوا منزل « على فهمى » وشاهدوا كل غرفة فيه بل ورأوا السيدات وهن غير مرتديات النقاب » ؟ وقد رجتنا « مسز نابير » أن نحضر الى منزل (على فهمى » فورا ، لأنها غير متأكدة اذا كان الحراس عند باب المنزل سيسمحون لها بالخروج ٠ اننا لم نضيع وقتا فى تحقيق مطلبها ، ولكن قبل أن نصل الى هناك حدث حادث جديد ، ذلك أن « الخديو توفيق » كان معتادا أن يمر بباب « على فهمى » كل يوم ظهرا فى طريقه من المقر الرسمى فى عابدين الى قصره فى ضاحية الاسماعيلية ، فلما اقتحم رجال البوليس منزل « على فهمى » ، جن جنون الزوجة من هول ما حدث ، وانتظرت مرور الخديو ، فلما ظهرت عربته اندفعت بلا نقاب على وجهها حاسرة الرأس الى الشارع حاملة أصغر أطفالها بين ذراعيها وهى تصيح قائلة : « يا توفيق ! لقد أهنت امرأة من حريم أبيك ، هل نسيت أننى قبل أن أصبح زوجة ل « عـــلى فهمى » كنت فى حريم اسماعيل ؟ أما الآن فأنا مهانة وبلا نقاب كما ترى ٠ ان العار عليك كما هو على أنا ! » أما النظارة فأعادوها برفق خلال حديقة الياسمين وأشجـــار البرتقال الى دارها ٠ وفى اليوم التالى ، غير « توفيق » طريقه ، ولم يعد يزعج زوجة « على فهمى » أحد بعد ذلك على الاطلاق ٠ وعندما وصلنا الى منزل « على فهمى » كان السلام قد استتب الى حد ما ، وكانت المرأة المسكينة تواسى نفسها ، تصب أحزانها لنا من وراء حجاب بصـــوت غالبا ما كان يقطعه نشيج بكاء ٠ ولما كانت نكباتها غير عادية على الاطلاق، (وكانت بعض النسوة اللاتى كن يتوجهن الى دار « محمود سامى » عادة ما يفتشن الحراس) قمنا بأقوى تصديات فى الحى ، منها وحدها يمكن توقع أية ترضية مقنعة ٠ ومرة أخرى ، اذ ب « اليد الحديدية فى قفاز من المخمل » تجعل الناس يحسون بها : فقد انتدب « الميجور شيرمسايـــد «Major Chermside» لتهدئة حماس رئيس البوليس الموالى للقصر ، ومن ثم ، انحصرت مهام رجال البوليس عند بوابات « العصاة » ، تعتبر من الآن فصاعدا وظيفة بوابين عاديين ٠

كانت الاستعدادات للرحيل آخذة طريقها فى بطء . وقرر المنفيون أن يتركوا لنا توكيلا لتصفية أعمالهم ، فقمت باحالتها فى الوقت المناسب الى « مستر بيمان » ، أما عن ترتيبات الرحلة المنتظرة ، فيبدو أنها ندر أن تناولت الآراء العادية للاقتصاد المنزلى المصرى ، وكانت زوجات المنفيين قد بدأن فى تزويد أنفسهن بمعدات السفر ، وكانت بالأحرى معدات غير عادية ، وبقدر ما تأكدت منه ، كانت تتكون أساسا من معاطف صوفية ، وكميات ضخمة من السكر والقهوة ـ وكلاهما بالغ الوفرة الى حد ما فى سيلان . وكان كل زائر فى أثر زائر يتبارى فى قصه على المنفيين أكثر الأساطير خيالا عن مناخ وأهالى المكان المقدر لهم أن يعيشوا فيه . وقد بعث بعض الأشخاص الى « عرابى » بالبريد : رسوما كاريكاتورية رسمتها مجلة بنش Punch (اللندنية) عنوانها « عرابى المبارك Arabi the Blest » وقد أزعجته هذه الرسوم كثيرا ، وهو لا يمكن أن يغفر لرسام المجلة ما رسمه (وهو الذى لا يدخن ولم يذق طعم الخمر) . اذ رسمه والسيجار فى يده ، وماء الصودا والبراندى على المائدة بجواره . أما زملاؤه المسجونون فلم يهدأ لهم بال حتى ترجم لهم مترجمونا النص . ولقد كانت قصة « مجلة بنش » الخيالية عن انطباعات « السلطان » على نتيجة المحاكمة ، كانت موضع تقدير سام فى مكان قل أن يحلم كاتب القصة به .

. . . .

بعد ذلك بيوم أو يومين ، واجهت الحكومة المصرية مشكلة جديدة ، وهى أن المنفيين سيذهبون الى نفس المكان ، ولكن قد لا تقلهم جميعا سفينة واحدة ، اذ تبين أن سبل الراحة على ظهر السفينة التى كانت قد احتجزت لهم لا تفى بالغرض ، وسيتكدس المسافرون وستضج كل أوربا بشكواهم . كانت هذه هى النظرية التى طرحها لى « اسماعيل أيوب » مع بعض الحياء ، عندما زرته فى نظارة الداخلية بعد ذلك ببضعة أيام .

ثم أعقب ذلك أن استأجرت الحكومة المصرية باخرة كبيرة اسمها « المريوطية the Marotis » لنقل موكلينا وعائلاتهم الى كولومبو Colombo ، وكانت مناسبة بالفعل للرحلة التى كانت تحت رعاية « الكابتن بلومفيلد Captain Bloomfield » ، مراقب الميناء بالاسكندرية . ولما كان من واجبى أن أنصف السلطات المصرية ، فانه لا يسعنى الا أن أقول ان كل هذه الترتيبات قد نفذت جميعها بغض النظر عن أية نفقات ، ولكن الشيء الوحيد الذى أثار السخرية التامة هو الادعاء الكاذب بعدم وجود أماكن كافية لسفر كل المنفيين معا ، اذ تبين بعد ذلك أن

« المريوطية » يمكن أن تحمل ثلاثة أضعاف راكبيها • لقد كانت مجرد فكرة الفصل قد ملأت أذهان المسجونين بالشك والفزع ، ولم يكن من شيء ليدفعهم الى الصعود الى الباخرة (١) تحت هذه الظروف الا محض القوة •

لقد اقترح عليهم أن يكتبوا الى النظارة المصرية من خلالى ، معلنين استعدادهم لأن يتخلوا طواعية وعن طيب خاطر حتى عن أضيق سبـل الراحة ، شريطة أن يسافروا جميعهم معا ، وبناء على ذلك كتب واحد من أعوانهم هذا الخطاب الذى لم يكن فيه بالأحرى الا « التذلل » :

الى جناب المستر برودلى الأفوكاتو الانكليزى المحامى عنا

حيث نا نحب ان نتوجه مع بعضنا بدون اى داعى ضيق محلات بالوابور نظرا لكون راحتنا لا تتم الا بتوجهنا مع البعض بالنسبة لونس حريماتنا واولادنا بالوابور وأننـا متشكرين وداعين للحضرة الخديوى فيما أجرته معنا وما أمنحتنا به من الرافة والمرحمة التى لم كنا نتصورها نحن ولا عايلتنا ولا ننسى لسـموه فى أى وقت من الأوقات بل ولا اولادنا ايضا هذا الصنيع الجليل ونحن واولادنا عاجزين عن اداء واجبات تشكراتنا لجنابه العالى بالعموم داعين لجنابه العالى بخير الدعوات •

تحريرا فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢

[توقيعات : أحمد عبد الغفار ــ محمود فهمى ــ عبد العال حلمى ــ طلبة ــ عصمت ــ على فهمى ــ يعقوب سامى ــ محمود سامى]

وقد وضع خمسة من المنفيين أختامهم عليه (٢) ، وعندما أحضر الى « عرابى » ، اتجه الى « يعقوب سامى » وسأله : « هل وقعت هذا ؟ كنت أتمنى أن يقطعونى اربا أولا • لقد قلت وأقول ان « توفيق » لا يصلح لأن يحكمنا • كيف يمكننى أن أكذب وأعد بأننى سـأدعو الله له بخير الدعوات ؟ اننا على أية حال لم نهبط الى مثل هذه الدرجة » • اننى أذكر أننى لم أر « عرابى » قط أكثر انتهازا للموقف ، ثم قام بنفسه بكتابة المذكرة التالية التى بعثت بها الى جناب المستر برودلى الأفوكاتو المحامى عنا •

---

(١) كان يطلق عليها فى زمن عرابى اسم « الوابور » أو وابور البحر » •
(المحقق)

(٢) يتضح من النص المنقول عن الوثيقة الخطية المحفوظة بدار الوثائق القوميـة بالقلعة ، أن من ختموا عليه هم :
أحمد عبد الغفار ــ طلبة عصمت ــ على فهمى ــ يعقوب سامى ــ محمود سامى •
(المحقق)

وقبل أسبوع تماما من انتهاء المصالحة ، كتب « عرابى » هذا الخطاب ، الذى له طابعه الخاص تماما ، الى « مستر بلنت » :

الى صديقى ومنقذ حياتى ، مستر ويلفريد بلنت حفظه الله ، وبعد (١)

بعد تقديم تحياتى لك

الآن ، على ان اخبركم أنه لا يعنينى شىء بالنسبة للوضع الذى أنا فيه ـ بالنسبة للسجن وللاهانات وما سيحدث بعد ذلك ، طالما أننى وقفت نفسى لحرية بلدى ، ولن يهمنى أى شىء سوى خلاص أبناء وطنى من شراك أولئك الأفاعى ، ومن أنياب ذلك التنين الكبير (حيث يرقدون) ـ وسيتحقق هذا بحكمة الرجال المتنورين من الشعب الانجليزى الغيور على شرفه .

وبعد ذلك ، اذا كان هناك فى العمر بقية ، لوددت أن أعيش حرا فى « دمشق » مع اولادى ، بعيدا عن امور السياسة ، طالما ساكون خارج مصر ، ولو لم يسمح لى « السلطان » والمسلمون بالاقامة بين المسلمين ، اذن ، لفضلت أن أعيش فى لندن بين اخواننا ، اخوان الانسانية ، كانسان حر فى أرض الحرية ـ لا تحت تحفظ ومراقبة ، وسيفعل مثلما افعل رفاقى الذين قدموا ارواحهم فى سبيل بلدهم . انهم يستحقون أن يعيشوا أحرارا انى اقسم بأن احافظ على قسمى بألا اتدخل فى الشئون السياسية طالما بقيت بعيدا عن وطنى « حتى يقضى الله امرا كان مفعولا » (صدق الله العظيم) .

ثم ، اما عن كيف أن العدو حاول أن يثير الشك حولى ، فيما يتصل بحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو ، فهذا مجرد قذف ، كما أنه لا يمكن أن يؤيده أقل دليل أو برهان ، طالما ان مثل هذه الأفعال منافية لأداتنا الشريف . لقد حاولوا بهذا تحريض أوربا لتحطم ، كما تتحطم الذرات فى الهواء ، الحريات التى اكتسبناها لوطننا ، ومع ذلك فربما يأتى بعض الخير من هذا لشعبنا حتى يمكنهم أن يحصلوا على استكمال لحريتهم ، ليفلحوا فى تحويل قلوب الانجليز اليهم ، بالرغم من الجهود التى يبذلها العدو علانية .

اننى لا تعنينى الألقاب العفوية الشرفية (وكان لقبه « باشا » ، وقد جرد منه) لانى لا اريدها على الاطلاق . اننى راض بشرفى الذاتى ، لأنه هو الذى سيصاحبنى طوال حياتى وبعد مماتى . اننى لا ارغب الا أن يلقبونى باسمى فقط .

القاهرة فى ٢٣ نوفمبر — **أحمد عرابى المصرى**

وفى ٢٤ ديسمبر ، قرأت فى غير ما دهشة الأمر العالى التالى فى الوقائع المصرية :

---

(١) لم أعثر على النص العربى لهذا الخطاب ضمن وثائق كتاب برودلى المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كان مثبتا فى الأصل الانجليزى ، ترجمته عنه بصورة تقربه من النص العربى . (المحقق)

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الأحكام الصادرة من المحكمة العسكرية بتاريخ ٢٢ و ٢٦ و ٢٩ محرم سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ و ٧ و ١٠ ديسمبر ١٨٨٢ ، وبعد الاطلاع على أوامرنا الصادرة بتاريخ ٢٢ و ٢٦ و ٢٩ محرم سنة ١٣٠٠هـ الموافق ٣ و ٧ و ١٠ ديسمبر ١٨٨٢ ٠

وبعد أخذ رأى مجلس نظارنا أمر بما هو آت :

(المادة الأولى)

قد صار تجريد أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى ـ من جميع الرتب والألقاب وعلامات المشرف الحائزين لها مع محو وترقين أسمائهم من دفاتر ضباط الجيش المصرى محوا مؤبدا ٠

(المادة الثانية)

على ناظر الداخلية وناظر الحربية والبحرية تنفيذ هذا كل منهما فيما يخصه ٠

صدر بسراى عابدين ٠ فى ١٠ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (٢١ ديسمبر ١٨٨٢) ٠

(امضاء) محمد توفيق

بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية

(رئيس النظار)

أمضاء

(شريف) ناظر الداخلية ناظر الجهادية والبحرية

(أمضاء) (أمضاء)

(اسماعيل أيوب) (عمر لطفى)

وكان التجريد من الألقاب والرتب وعلامات الشرف (النياشين) أمر متوقعا ، ولكنه كان أمرا شاذا بكل تأكيد محو أسماء المنفيين من دفاتر ضباط الجيش المصرى ، الذى لم يعد له وجود بعد رسميا ٠

وفى صباح يوم رأس السنة (الكريسماس) كان لى حديث أخير طويل مع موكلى جميعهم ٠ أعطانى « عرابى » مسبحته الصغيرة السوداء

العربتان بشوارع لم تكن مألوفة لهم بالمرة حتى بلغوا ثكنات قصر النيل وهنا شكلت مجموعة صغيرة من القوات المصرية على هيئة مربع ، بينما كان الجنود البريطانيون يجولون حـول المربع الكبير ، وكانوا محتلين الطرقات العلوية وهم يؤدون واجبهم كمتفرجين ؛ ومن وقت لآخر كانت تنفرج أساريرهم • وضع المسجونون فى الوسط ، وقرأ ضابط بصوت مرتجف الى حد ما ، المرسوم الخديوى ، وصدر أمر للمصريين بأن يهتفوا « عاش الخديو ! » وطلب من المنفيين رسميا ، تسليم سيوفهم ونياشينهم ، ولكن كان واضحا من أول وهلة أنهم كانوا قد تركوها حيث كانوا ، ثم طلب من المسجونين بأن يركبوا العربتين ثانية ، وفى الوقت الذى كان يهم فيه « عرابى » بالركوب ، صاح قائمقام « مخلص » يدعى « الألفى » قائلا : « يا عرابى ، لقد جئت بالانجليز الى مصر ! » • هذا اللوم الذى أسىء توقيته يمكن أن يؤخذ على أنه أساس للشعور المصرى نحو الانجليز• وكان قد تجمع جشد من الأهالى ، وندر أن تسمع واحدا يردد عبـارة « الله ينقذك » بينما كان السبعة الوطنيون المصريون يمرون بهم فى طريقهم عائدين الى السجن • وجدير بالذكر أنه تحت ظروف مماثلة اعتاد المصريون أن يروا الكتافيات épauletres تنزع من على الأكتاف ، والنياشين تختطف من على الصدور والسيوف تكسر على الركبة ، ولكن كل هذه المشاهد كانت ناقصة هنا • هذا ، ولم يكن تعليق « حسن » غريبا ، اذ قال : « ربنا كبير ! أنت تلاحظ أنه حتى الخديو لم يجرؤ أن يمس عرابى » •

وما أن سمعنا بما حدث لموكلينا ، حتى توجه « مستر نابير » وأنا الى السجن ، وحاولنا أن نعيد لموكلينا ، بقدر ما يمكننا ؛ رباطة الجأش التى زعزعت عندهم • وبعد كل ما حدث ، فانه لا بد لى أن اعترف بأنه قد زادت راحتنا النفسية عندما سمعنا أن « المريوطية » قد مرت بالفعل عبر قناة السويس ، وقد صدرت لها الأوامر بأن تتجه الى « سيلان » فى المساء التالى • لقد تملكت أذهاننا مخاوف غير مريحة من مفاجآت جديدة قد تحدث نظرا لأن ثقتنا فى المعاملة العادلة للحكومة المصرية قد اهتزت بصورة لا أمل فيها • لقد كان من مصلحة موكلينـا تماما ، النصـح بتعجيل النهاية •

ومع ذلك ، كان هناك شىء آخر غاية فى الأهميـة ، الأمر الذى اضطرنا الى أن نرتبه مع نظارة الداخلية فى نفس ليلة رحيل المنفيين • كانوا جميعهم فى حاجة الى مال ، بعضهم كان مفلسا تماما ، وأخيرا نجحنا

الغاشرة هرع الينا حسن ، وهو يلهث ، ودخل غرفتنا وهو يقول ان « عرابى » وصحبه قد غادروا لتوهم سجن الدائرة السنية ، فذهب « مستر نابير » (وكان متجها الى السويس) ليبحث عن أمتعته ، بينما تحركت أنا بأسرع ما يمكننى الى ثكنات قصر النيل ٠

كان المشهد عند « قصر النيل » مشهدا يستحق التسجيل فعلا ٠ لقد كان ضوء القمر ساطعا ، وعندما دخلت الميدان الكبير ، رأيت القطار قد تحرك بالفعل ٠ وكانت ثلاثة جوانب من المربع التى تشكل ثكنات الجنود ، مبان شاهقة بواجهات لها شرفات عتباتها لها أقواس ولكل طابق فوقه الآخر ، أما الجانب الرابع من المربع فكان يضم الصالونات المذهبة لمبنى قصر النيل ونظارة الجهادية المصرية ، وكان بالميدان خط سكة حديد ينتصفه ويقسمه الى قسمين تماما من اليمين الى اليسار ، كاف تماما لمنشئات تحيط به وتوزع على كلا الجانبين لتترك مساحة للقطار ليمر ٠ وليس هناك ما يمكن أن يسمى رصيفا ، وكانت قضبان التحويلة على مستوى الرصيف ، وكانت « بواكى » الثكنات وعمارة القصر الأكثر بهاء تبدو واضحة كل الوضوح فى ضوء القمر الساطع الذى بدا كما لو كاد يعتم لهب المشاعل التى كان يحملها بعض جنود الحرس المصرى ٠ وعلى الفور ، تجمعت أمام العربات مجموعة صغيرة من النظارة الذين كان يهمهم الأمر ؛ من بينهم « سير تشارلز ويلسون » « ومستر ماكنزى ولاس » « وعثمان باشا غالب » ٠ كان القطار طويلا جدا ، كاد يكون امتداده بطول الميدان من جانب الى الجانب الآخر ؛ وركب فى المقدمة السيدات مع أطفالهن ، وأمتعتهن ، وخلفهن الخدم والحقائب الثقيلة وحارس من فرقة بنادق الملك الملكية (الكتيبة ٦٠) تحت قيادة الميجور فريزر Major Fraser ، وكان هناك أيضا بعض الضباط المصريين وقلة من الجنود المصريين لمصاحبة المنفيين الى السويس ٠ وخصصت عربة من عربات الدرجة الأولى ، فى منتصف القطار ، لـ « عرابى » وزملائه ٠ وعندما وصلت قصر النيل ، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم بالفعل : « عرابى » «ومحمود فهمى » « وعبد العال »كانوا فى ديوان « وطلبة » « وعلى فهمى » « ومحمود سامى » « ويعقوب سامى » فى ديوان آخر ٠ لقد بدوا فى صورة أكثر بهجة عن أية مجموعة عادية من الانجليز فى ظروف مماثلة لظروفهم ٠ تسلقت نوافذ القطار بصعوبة ، لأودعهم ، ومرة أخرى قال « عرابى » بضع كلمات تنم عن امتنانه ٠

كان أمر بدء الرحيل على وشك أن يصدر عندما جاءنا «مستر بيمان» بنبأ أن الشرطى المكلف بحراسة منزل « عرابى » لم يكن ليسمح لزوجة ابنه وأختها بمغادرته ٠ ماذا سنفعل ؟ كان الوقت قد تأخر ، وناظر محطة

سنوات ، « وعبد الغفار بك » لثمانى سنوات « وأحمد رفعت بك » « والأميرالاى خضر خضر » ، لخمس سنوات ، « وحسن موسى » لعشرين سنة (فى مصوع) ، و « محمد الصدر » ذثنى عشر شهرا ، أما « عثمان باشا فوزى » « وأمين بك شمس » وبقية موكلينا ، فكان قد أفرج عنهم بكفالة أو بدون كفالة ، والتعهد بأن يعيشوا فى المستقبل على « أبعدياتهم » أو أملاكهم فى الريف . وفى حالات كثيرة ، كانت قيمة الكفالة المحددة كبيرة ، وكان الأشخاص الذين يحكم عليهم بدفعها يطلب منهم أن يدفعوها نقدا ، ولكننا أخذنا احتياط ممكن لحماية موكلينا ضد أية مصادرة نهائية . وشاهدنا نسخا من الايصالات لأنها أودعت فى القنصلية البريطانية .

وبهذا الأسلوب ، شهدت نهاية سنة ١٨٨٢ نهاية أعمالنا ، فقررت أن أغادر القاهرة مساء أول يناير ، وكان عمل عاجل فى « تونس » قد أجبرنى على أن أؤجل لموسم أكثر ملاءمة : زيارتى للأهرامات والمساجد الغنية بالتفريغات الزخرفية والحليات المعمارية ومقابر الخلفاء والقلعة ، بل لم يحاول « حسن » المخلص لنا ، أن يثنينى عن عزمى بما عرضه على من أن يرينى القاهرة فى ثمانى ساعات طبقا لخطة خاصة ابتدعها لصالح الرحالة الانجليز والهنود ، وعجز عن أن يقتضى منى يوما زائدا . لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى بالفرجة . لم أعرف أحدا قط حج الى مصر ولم ير منها الا القليل ، مثلى ، ولكن عوضنى عن ذلك أننى تعرفت بعدد كبير من المصريين . ان المعرفة التى أحسست أننى اكتسبتها عن عواطف وآراء الشعب المصرى وأعمق مشاعر قلوبهم عوضتنى أكثر عن معرفتى القاصرة بأوجه الجمال المادية فى مصر ، كلا ، اننى أريد أن أقول أكثر من هذا — ولست خجلا أن أقول أنه ، طوال الأسابيع العشرة التى انشغلنا فيها فى الدفاع عن عرابى وصحبه ، أن كل ما رأيته خارج القاهرة وما أمكن رؤيته فيها كان محددا جدا فى قصرين وفى مكتبين خاصين وشارعين وسجن واحد .

وعندما ذكرت تلك الحقائق أثناء وجودى بين موكلينا ، الذين لم يكونوا قد أحيطوا علما باقتراب عودتى الى « تونس » ، رجانى « أحمد رفعت بك » بصورة أكثر جدية لو أسمح له ولأسرته أن يصحبونى ، اذ بعد ما تكشفت له الأمور لم تعد مصر فى نظرة بالمكان الذى يمكنه الاقامة فيه ، وأحس بكل تأكيد أن رحيلى سيكون دلالة على اهانة جديدة الى حد ما ، ولقد كان عبثا ما حاوله « عثمان باشا غالب » بنفسه أن يقنع زوجته أن تونس تحت الحكم الفرنسى أفضل قليلا من « دار الحرب » أو أرض الكفرة ، ولكن زوجة رفعت قالت ان ما هو خير لزوجها فهو خير لها

كانت هناك مساعدة معنوية انجليزية ، ومؤامرات فرنســـية ودسائس تركية (وكلها تجذبه في مختلف الاتجاهات) فيسمح له أن يتولى أعباء واجباته كمنفذ لوصايا «testamentary executor» « لورد دافرين » ، في أسلوب لائق ومهذب • ان لطفه الذي لايتغير وشفقته ، سهلت لي دائمـا انهاء معاملاتي الرسمية مع الحكومة المصرية •

وبعد أن أديت فروض الاحترام ل « شريف » ، زرت « ريـاض » لنفس الغرض • لقد كانت المســاعدة العظيمة جدا التي قدمهـــا لي ابنه « محمود بك » ، في أيامي المجهدة التي كنت أتردد فيها على غرف الانتظار بنظارة الداخلية ، جعلتني مشوقا لأن أذكره بهذه اللفتة البسيطة قبل أن أغادر القاهرة • لقد وجدت ناظر الداخلية السابق مستندا الى أريكة ، ويبدو أنه كان مستغرقا في تلاوة متمعنة للقرآن الكريم في مصحف كبير • لقد بدا « رياض » سعيدا للقـــائي ، وبعد « تسليك » ابتدائي لصوته ، بدأ بحديث مرتب بالفرنسية التي يتحدثها بنبرة ألمانيــة • قال رياض : « انني أعتقد أن « تونس » تعتمد تماما على المطر ، بينما تعتمد مصر في ريها كلية على فيضـان النيل • أكون شاكرا جدا لو أوضحت لي الفارق الرئيسي بين الزراعة في البلدين ؟ « فأجبته قائلا » ، لقد كتبت مؤخرا كتـابا عن « تونس » حيث يجد فيه كل المعلومة التي يريـدها ، وأنني سأبعث لأبنه بنسخة من كتابي فور وصولي » ، ولكنني اقترحت في تلك الآونة أن نتحدث قليـلا عن مصر ، اذ أنه أقرب للغرض • تطـلع الى في ثبات ، فرددت على حملقته بمثلها ، ثم ضحكنا كلانا • نحن الآن يفهم أحدنا الآخر تماما • لعل سعادته نسى أنه في آخر لقاء لنا تساءل عن موارد المياه التونسية • بدأ « رياض » بعد ذلك بالحديث عن الحوادث الأخيرة في

= الباهظة ، فعمل على تحسين سمعة البلاد بخفض الضرائب الى حدها الأدنى ، وطرد الموظفين غير الأمناء والغى عمل السخرة وبنى المدارس والمستشفيات وأدخل الأساليب الصـــحية الحديثة التي ظلت لسنوات نموذجا عالميا يحتذى به ، وقد أدى هذا الى رخاء مصر بان ضمن للفلاح المصري أن صارت له ثلاثة محاصيل سنويا ، وراعى أن يكون دخل الفلاح الصغير متقاربا نسبيا من دخل كبار الملاك ، كما أصلح الجيش المصري ، وزادت التجارة في عهده ، ومد السكك الحديدية والتيسيرات البريدية والتلغرافية وقد أفلح في وقف نشاط الحركة الوطنية في مصر بأن سعى الى مجيء « عباس الثاني » ، المتعاطف مع بريطانيا ، لعرش الخديوية في مصر • واعترافا من البرلمان البريطاني بخدماته ، منحه معاشا قدره ٢٥٠٫٠٠٠ دولار في سنة ١٩٠٧ •

وبعد عودة « بيرنج » الى انجلترا ، عين عضوا بمجلس اللوردات ، وقد كتب عدة مقالات عن الحرب العالمية الأولى ، وفي سنة ١٩٠٦ ، عين رئيسا للجنة تقصي الحقائق في حرب الدردنيل ، وتوفي في لندن في ٢٩ يناير ١٩١٧ ، عين رئيسا للجنة تقصي الحقائق في حرب الدردنيل ، وتوفي في لندن في ٢٩ يناير ١٩١٧ • (المحقق)

مصر وعن ضحالة الوطنية المصرية ، وعن الحاجة الملحة الى حكم أوتوقراطي، واليأس من وجود أي بديل للعصا و « الكرباج » ، كما تحدث عن الطبيعة المنكرة للجميل للأفعى الذى ظن مرة أنه فى مأمن منها وهى تحت كعبه . لقد كان من الصعب تصور أن مثـل هذا الرجل الضعيف البنية ، ببيئته القميئة ، له نفوذ شخص لا يدانيه نفوذ فى مصر ، نفوذ قوى بما فيه الكفاية ومتسلط بما فيه الكفاية ، يسمح له بأن تسند اليه ، بعد اعتزاله الحكم ، رئاسة وتمثيل نفس القضية الوطنية التى كان يكرهها من صـــميم قلبه ويحتقرها . لقد كان موضوعه المفضل هو ابراز ضعف الآخرين ـ تردد « الخديو » ، ضعف « شريف » ، قصور زملائه السابقين . هل كان يعتقد أنه من المحتمل أن الخديو بتغاضيه علنـــا أو صمتا عن « اعلان مطالب الجيش » فى سبتمبر هو الذى أدى الى سقوطه ؟ لقد كان جوابه الجاهز هو : هذا من المحتمل جدا c'est bien possible . كان يعرف كيف يجب أن تحكم مصر ، ولكنه يجب أن يتبع أساليبه الخاصـــة ويختار مرؤسيه الخصوصيين . يجب أن تكون له أقصى سلطة داخليا وأدنى تدخل خارجي. فاذا ما أتيــح له هذان الشرطان لكان « مصطفى ريـاض » (لأن هذا هو اسمه الكامل) ، رجلا قويا مسلحا . وقال لى : « قل لى بأمانة ، ما الذى تظنه أحسن : حـــكم استبدادى despotism (اذا أردت أن تسـمية كذلك) مع نظام ، أم لين leniency مع فوضى anarchy ؟ . لقد كان حديثه ممتعا جدا ، ولكن امكانية تنفيذ مثل هذه الخطة التى كان يدافع عنها فى جرأة ، قد ولت . ان « عرابى » طوال زمن سلطته القصـير قد أوضح للمصريين امكانية قيـام ادارة قائمـــة على مبادىء الحرية والعدل والأمانة . ان ما هو مطلوب من انجلترا أن تنفذ فى مجموعهـــا نفس الاصلاحات التى لم تكن تسمح لـ « عرابى » أن يكملها ، ونتيجة لذلك ، صار « رياض » ناظرا غير محتمل ، ولكنه كان أكثر خطورة فى معارضـته وهو خارج الحكم عما كان فى الحكم . وطالما أن انجلترا تسعى الى تنفيذ اصلاحاتها وحدها ، بدون أية مساعدة ، وبأنصـــاف الحلول ، فسيظل دائما شوكة فى جنبها .

وعندما استكملت هذه التوديعـــات ، كان لزاما على أن أعد العدة لرحلتى ، ونظرا لأنه فى عيد الأضحى يقوم الأوربيون بزيارات تحيـة للمصريين ، لذلك فانه فى يوم رأس السنة الميلادية يكون من المتوقع أن يزور المصريون الأوربيين ، فلمـا وصلت الى « بيت المفتى » ، وجدت أن « اسماعيل باشا أيـوب » « وعثمان باشـــا غالب » وغيرهما قد شرفونى بالزيارة وتركوا لى بطاقاتهم . وقد أدى « حسن » المعجزات بطريقة حزمة لأمتعتى ، وأعطيته شهادة رضى بها ، وبقشيشا سخيا قدره عشرة جنيهات .

لقد بكى بكاء منهمرا لفراقنا ، ولكنه واسى نفســه بأن أضاف حمارين الى اصطبله ، الذى سمعت أنه كان منصفا بما فيــه الكفـــاية ، وأطلق على الاصطبل اسم محامى عرابى • قرر « مستر نابير » أن يبقى أسبوعا بعدى ليسوى حساباتنا ويرعى مصالح واحد أو اثنين من موكلينا الباقين •

وبعد تناولنا عشاء الوداع ، وعندما كان كل شىء معدا للرحيـــن ، قادتنى عربتى لآخـر مرة عبر الشـــارع المألوف لى ، الى سجن الدائرة السنية شبه المهجور ، والذى يقيم فيه الآن بضع وثلاثون سجينا فقط • أيقظت رئيس السجانين وسلمته البـــلاغ التالى الذى حصلت عليه من نظارة الداخلية •

الى عثمان شريف أفندى ، المسئول عن ســـجن الدائرة الســنية

يصرح للسجين « أحمــد رفعت بك » بأن يطلق سراحه ويسافر مع مستر برودلى المحـامى الانجليزى ، ومع الضابط من ضبطية البوليس الذى سيرافقه •

(توقيع) اسماعيل أيوب

ناظر الداخلية

وعند البوابة ، التقيت ، بناء على اتفاق مسبق ، ب « على » رجل البوليس الطويل القـــامة ، الخطير ذو الوجه المخيف ، وكانت السلطات قد عينته ليراقب موكلى على ظهـر السفينة ويحول دون أية مؤامـرة فى الطريق ، كان « على » قد تعرف على أصدقاء ســـجينه ، وكان « على » قد أؤتمن على حمل صندوق ضخم من الصفيح مغلــق بقفــل ، كـان مليئا بالسجاير • قادنا «عثمان افندى » الى الطابق العلوى وقبل أن أذهب الى غرفة « رفعت » ألقيت نظرة أخيرة على الزنزانات الشاغرة التى كان ينزل بها « عرابى » وصحبه • كان « رفعت » مرتديا ملابسه ، ومنتظرا هذه الساعات الثلاثة ، لقد بكى الرجل العجوز المسكين « خضر خضر » بكاء مرا لفراقنا ، وودعنا « الشيخ محمد عبده » و « حسن موسى » وواحد أو اثنان آخران ، ودعونا فى الظلام ، ورجانى « عثمان شريف » أن أزكيه عند المسئولين بمزيد من التعريف بالخدمات الجليلة التى أسداها ، وحيانى جنود الفرقة الجبلية ، الانجليزية ، القائمين بالحراسة حيـونى تحيــة الوداع • بعد ذلك بدقيقة ، نقلتنا العربة : « رفعت بك » وأنا ، بسرعة عبر الشوارع الصامتة الى « منزل المفتى » • كان من الصعب على « رفعت » أن يقنع نفسه أن حريته ليست حلما على أية حال • وبعد توقف بضع دقائق

للاعراب عن اعترافي بالاهتمامات التى أظهرها حيالنـا مسـتر جروس Mr. Grosse وسنيور اويجى S. Luigi فى فندق شبرد ، توجهنا جميعا الى المحطة ، حيث أحضر لنا وكلاء شركة كول Cook تذاكرنا للباخرة الفرنسية « آسيا «Asie» ، التى سنستقلها ، والمتجهة الى مالطة Malta .

لقد كان سفر أسرة « رفعت » غير المتوقع بمثابة اشارة لتجمع ضخم من السيدات القاهريات اللاتى جئن الى المحطة النهائية فى مركباتهن المقفلة الأنيقـة broughams مصطحبات معهن أغواتهن . امتلأت واحدة من غرف الانتظار امتلاء كاملا ، وكان البكاء والعناق يكاد يكون رهيبا ، وقد حضرت « السيدة سارة » ، وهى سيدة غاية فى الجمال ، وهى زوجـة « رفعت » المطلقة ، حضرت لتودع أطفالها وان كنت أشك ، با بالأحرىٰ ، فى أنها كانت تقصد الابقاء على واحد من أطفالها لو كان فى امكانها أن تدبر ذلك ؛ بكاؤها ونواح صديقاتها قد زاد بالفعل من جو الاضطراب الذى ساد المكان ؛ واذ بحرم « حمدى » ، وهى شقيقة « رفعت » ، زوجة عدوى السابق ، صاحب التلغرافات التى عمل على تلطيخها (١) ، اذ بها تلقى بنفسها على رقبة شقيقها ، ولم يكن فى الامكان تهدئتها ، فى حين كانت السيدة « سارة » تبكى وهى ممسكة بابنها الأكبر ، أما زوجـة « رفعت » الثانية ، فقد أخذت تطمئن الأطفال الثلاثة (بالرغم من تشبث ضرتها الأكثر جاذبية ، بهم) ، وصعدت بهم فى أمان الى القطار . اتخذ « رفعت » مكانه قبالتى ، ويبدو أنه لم يكن بالغ التأثر بالضوضاء التى كانت محتدة حواليه ، بعث لى « حمدى » برسالة مع زوجته ، يقول فيها انه سيصلى من أجلى فى صلاته ، لأنه أنقذ شرف عائلته ، وأنه ما منعه من الحضور ليشكرنى شخصيا الا خوفه من « توفيق » .

وجاء السادة : نابير ، وكيرول Chirol ، وبيمان ، فيليرز ، ومكدونالد ، وايفانز Evans وكثير غـيرهم من الأصدقاء ، جاءوا الى المحطة ليودعونا الوداع الأخير ، وكم أنا آسف بالغ الأسف اذ لم أستطع أن أنقل الى قرائى الوصف التفصيلى الجدير بالتصوير للمشهـد الذى تشرته بعد ذلك « مسز مكدونالد » . تحرك بنا القطار متأخرا عن موعده بثلاثة أرباع الساعة . احتلت زوجة « رفعت » وأطفالها وخادمتها ديوانا، فى حين أن « رفعت » و « على » وأنا ، احتللنا الديوان الآخر . ولقد أراد « على » أن يجعل من نفسه شخصا مفيدا بوجه عام ، فوضع سيفـه

---

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

الكبير على رف الديوان المصنوع من الشيك ، وكان يشعل الشموع اذا لزم الأمر ذلك ؛ ويشرف على رعاية الأطفال في المحطات الفرعية ؛ وفي الضوء الرمادى للصباح المبكر ، قص علينا قصة طريفة عن كيف أنه قتل شخصا في بلدته ، مسقط رأسه ، ثم جاء الى مصر كجندى هو ونصيبه - هذا الشرطى الأمين ، لم يسبب لنا قلقا ، وقبل منى هدية ، ثلاثة دولارات عند افتراقنا . مع كل مظهر من مظاهر السرور . وعندما طلع علينا الفجر ، كان القطار يمر بنا عبر خطوط « عرابى » فى كفر الدوار . ومما أراحنى كثيرا أن قابلنا في الاسكندرية ترجمان شركة كوك ، الذى تكفل بأمتعتنا وأجلسنا فى عربات وقادنا الى رصيف السفينة . وبدا كل شيء قد انتهى بعد دفع ثمن التذاكر . وقد رفض « كمسارينا » أخذ « بقشيش » ، وانني لا أبالغ في ذكر الراحة التي لمسناها مع مثل هذا الترتيب . لقد كادت وكالة شركة كوك أن تكون هيئة ، أهميتها للمسافر المصرى كأهمية شرفة فندق شبرد للسياسى المصرى .

بعد ذلك بساعة أقلعت السفينة « آسيا » ، وكان الطقس لعينا ، وكانت اضطرابات السفينة « آسيا » لا يمكن وصفها ، ليت المسافرين في المستقبل يتجنبون ركوبها ما استطاعوا . وعلى مدى خمسة أيام طوال ، كانت مهمتى الوحيدة تتمثل فى الانصات فى صبر العاجز الى مناقشات سياسية ومنازعات أسرية ذات طبيعة مسلية جدا وقد استمرت بدون انقطاع بين الربان وطبيب ونذل . قال الأول أنه عن اقتناع : « ديموقراطى حق «democratic Legitimist» وقال أن سفينته معروفة بوجه عام باسم يخت مرسيليا Le Yacht de Marseilles أما الثانى فكان « راديكاليا » وحر التفكير ، وكان يمارس ما أسماه ب « الطب البحرى «la médicine maritime وذلك كتسلية ، وأما الثالث ، فغالبا ما كان ثملا ، وكانت رائحة فمه تفوح منها رائحة ثوم نفاذة ، وأحيانا يؤيد الطبيب وأحيانا يؤيد الربان ، وأصر كلاهما على معاملته كما لو كان محكمة استئناف .

وأخيرا ، فى ساعة متأخرة من بعد ظهر ٧ يناير ، شاهدنا ضوء « سنت المو «St. Elmo يرحب بنا . وقبل أن تظلم الدنيا رسونا . هبط « رفعت » المسكين (١) من الباخرة فى خوف وهو يرتعد ، ليكتشف

---

(١) رفض السلطان أن يسمح ل « رفعت » بالمجىء الى استانبول ، ولذلك ، أبحر رفعت هو وأسرته الى « تونس » حيث استقبلهم استقبالا كريما الجنرال حميدة بن عياد ، رئيس أسرة عربية نبيلة ، وبعد ذلك بوقت قصير ، توفى أبو « رفعت » ومن خلال الوساطات الطبية ل « درويش باشا » سمح لرفعت بالعودة الى استانبول ، واذا لم أكن

أن القنصل التركى كان مرءوسا له فيما مضى ، ومرة أخرى صعدت « الشوارع ذات السلالم » المؤدية الى جراند هوتيل Grand Hotel وكان سالفو Salvo رئيس الخدم هناك ، ليقابلنى وليقول لى كما كان يقول من قبل : « نحن سعداء جدا لنرى السنيور المحامى قد عاد ثانية سالما . ان الشيء الطيب هو أن القائد الانجليزى لم يشنق عرابى قبل وصول السنيور المحامى » .

مخطئا كثيرا ، يمكننى أن أقول ان « أحمد بك رفعت » ، قد ترك ، رغم ذلك ، بصمته فى سياسات الشرق .

بأن الوطنية المصرية لا يمكن أن يكون لها من دفاع . ولقد كان حكم الساعة هو اتهام ، الى حد ما ، وهو حكم ، فى كل الاحتمالات سينقضه التاريخ جملة . ان مشاعر بلد بأسره لا يمكن اخفاؤها الى الأبد .

وبعد نهاية الصراع المقتضب بفترة قصيرة جدا بدأ ضابط انجليزى(١) برتبة كابتن من ضباط القوات البحرية ، أحرز كلا من الشهرة والنفوذ فى الحرب ذاتها ، والذى من المحتمل أنه لم يكن له دافع للبرهنة على أن العمليات العسكرية التى اشترك فيها هو شخصيا بدور واضح ، لم تكن بدون مبرر ـ بدأ يكشف لنفسه جوابا عن السؤال : « هل كانت مطالب « عرابى » مشروعة ؟ « ثم بعد ذلك لخص نتيجة أعماله فقال : ـ » ربما كان من المؤكد أن الحركة يمكن أن تدعى حركة وطنية . وكثير من الانجليز أطلقوا عليها هذا الاسم فى مايو ١٨٨٢ ، عندما بدأت الأمور تأخذ طابع الجدية ـ وكان من بين هؤلاء الانجليز كثير من الضباط البحريين المشهورين التى يعين للفرقة الانجليزية التى أرسلت الى الاسكندرية فى ذلك الوقت .... فاذا نظرنا الى الموضوع من وجهة نظر مصرية وليس من وجهة نظر أوربية ، لم يكن هناك شك فى أن « عرابى » كانت معه عواطف الشعب المصرى . وكان أمرا طبعيا ان كان الأوربيون عاجزين عن أن يأخذوا وجهة نظر محايدة فيما يتصل بهياج الشعب ، نظرا لأن أى تغيير فى وضع الأمور سيؤثر على وضعهم ماديا . وكان فى استطاعة « عرابى » وحزبه أن يعلنوا أنهم كانوا يحاربون من أجل الاصلاحات . وكان البرهان الذى يمكن أن يقدموه على أنه يمثل عدالة قضيتهم هو ، كما ذكر آنفا ، أن انجلترا الآن بسبيل البدء فى نفس هذه الاصلاحات ، وكان فى استطاعتهم أيضا أن يشيروا الى حقيقة أنهم عندما كانوا فى السلطة ، لم يصرف مليم واحد من المال العام ، أيا كان ، سوى ما كانوا يعتبرونه ضروريا للصالح العام ـ وهى حالة نادرة وفريدة فى الشرق .. ان منهج زيادة الضرائب فى البلاد لا بد أنه يبدو غير عادل تماما بالنسبة للمواطنين المصريين ، وعدم تحقيق العدالة سبب آخر للتبرم ، الى جانب حقيقة أن الأوربيين كانت تسند اليهم كافة الوظائف ذات المسئولية . « وقد وصل مستر ماكنزى ولاس Mr. Mackenzie Wallace (٢) ، ماديا ، الى نتيجة مماثلة .

---

(١) الضابط المقصود هو : لورد تشارلز بيريسفور Lord Charles Beresford فى جريدة التايمز ، عدد ٨ يناير .

(٢) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

لقد ذكرنا ، اذن ، ما فيه الكفاية عن القضية التى كان « عرابى » يعانى من أجلها · أما الآن ، فأنا أخطو خطوة أبعد ، اننى لا أجادل فحسب فى أن مصر كلها كانت مع « عرابى » ، بل أؤكد ، دون ما خوف من أى اعتراض ، أنه فى تنفيذ هذه المهمة الوطنية ، أظهر « عرابى » وصحبه أمانة واعية ، واعتدالا وروحا انسانية ستشرفهم على مدى الأيام · وبعد نفى « عرابى » بفترة قصيرة ، عقد فى لندن اجتماع لجمعية الأجانب حملة أسهم قناة السويس ، لتدارس شئونهم ، برئاسة مستر بوفيرى Mr. Bouverie ، الذى قال فى الاجتماع : « لقد احتلت مشكلة الأسهم المصرية اهتمام المجلس ، وحتى قيام المشاكل السياسية فى مصر ، كانت الأمور تسير سيرا مرضيا ، وقال انه كان يعتقد دائما أن المشاكل ترجع الى نجاح ايرادات الحكومة المصرية · وقد أثبتت الميزانية العامة عن اغراء كبير · ان كل الحديث عن الوطنية المصرية « وعرابى » والخيط الطويل من العواطف التى دارت حوله ، كان يعنى فى الواقع ، أن عرابى وأتباعه لهم رغبة فى الحصول على بعض المال · « هل يمكن تصور أى اتهام أكثر من هذا الاتهام الذى لا أساس له والذى ليس هناك ما هو أبشع منه ؟ لقد سبق أن ذكرت عدة حقائق عن « عرابى » وصحبه أكدت ما أسماه « لورد تشارلز بريسفورد » : « أمانتهم النادرة الفريدة » (١) ، بل ان « بلوم باشا «Blum Pacha» الذى كان شاهدا معاديا لهم وليس منحازا الى جانبهم ، يؤكد أنه أصدر أمره الى أحد موظفيه وهو المرحوم سليجمان بك Seligman Bey بأن يلتزم التزاما غير عادى بمراجعة حسابات نظارة المالية المصرية أثناء ادارة المجلس العرفى لها فى القاهرة ، وقد راجعها بالفعل فاتضح أن مصاريف الحرب غطتها كلها تقريبا الاكتتابات التبرعية ، وكل ما فعله عرابى وصحبه هو أنهم صرفوا رواتبهم العادية من الرواتب العسكرية · وكحقيقة تذكر ، أنهم عندما استسلموا يوم ١٥ سبتمبر كانوا يستحقون بالفعل راتب أسبوعين · ونظرا لعدم الاقتناع بما يؤكد صحة سجلات الحكومة ، اتبعت احتياطات مماثلة بالنسبة لحسابات السكة الحديد والتلغراف وغيرها من الخدمات المماثلة (٢) · وجدير بالذكر أن « عرابى » وكبار أعوانه ، بعدما اطلعوا لعدة شهور على ثروة مصر ، وكانت كلها تحت أيديهم ، ذهبوا الى المنفى لا يحملون معهم

---

(١) انظر الفصل ٢٩ من هذا الكتاب ، وكانت عبارته
«Their singularly common honesty»

(٢) انظر الفصل ١٥ من هذا الكتاب ·

رئيس من بين أبنائها يقيم العدل بين الناس ويعامل الغنى والفقير على حد سواء ، وينفذ ثورتها الاصلاحية دون ما سفك لدماء • كل هذا كان فى استطاعة عرابى أن يفعله خيرا من أى شخص آخر وربما كان له أثره لولا ـــــ ؟ وازاء هذا لا يسعنا الا أن نردد مع عرابى ما قاله هو نفسه ، « لقد تخلت عن جهوده الأقدار » • ولقد حاول الوطنيون طـوال فترة سلطانهم القصيرة ، بلا شك ، أن يضعوا مبادئهم موضع التنفيذ (١) •

لقد جاء « لورد دافرين » الى مصر ، باعترافه ، لينقذ الموقف • لقد عكف بضعة شهور على دراسة دقيقة للمطالب المصرية ، وكرس كل جهوده وذكائه النادر وخبرته الناضجة لاكتشاف علاج • وأمامى الآن نتيجـة أعماله كما عرضها على مجلس البرلمان البريطانى ، وقد وضعت بجانبها بيان « الاصلاحات اللازمة لرخاء مصر » الذى كتبه « عرابى » فى زنزانته قبل أسبوع من محاكمته ، كان قد بعث به الى مدير جريدة « التايمز » اللندنية ، فلنقارن بين الاثنين ونحكم على « عرابى » فى ضوء تقريـر « لورد دافرين » :

صارت السياسة هى شغله الشاغل ، ولما أجريت الانتخابات نجح فيها ودخل البرلمان ، ونادى فى مقالاته وفى أحاديثه فى البرلمان باعلان الحرب عن النمسا وانشاء دولة موحدة تضم كل شمال ايطاليا ، وكللت جهوده بالنجاح ، وكان من أكبر المعضدين لـ « جاريبالدى Gariboldi فى توحيد جنوب ايطاليا ، ثم اتحد الشمال والجنوب ليكونا وحدة ايطاليا ، وكان الفضل الأكبر فى هذا التوحيد لجهود كافور ، وقد توج هذا التوحيد قيام الملكية فى ايطـاليا ، وكان أول ملك اسـند اليـه الحكم فيهـا هو فيكتور ايمانويل الثـانى Victor Emmanuel II (المحقق)

(١) يقول المقال الذى صدر فى Fortnnghtly Review الذى اقتبست منه من قبل « فى زمن سيادة الحزب الوطنى ، لم يتخلوا عن الفقراء ، وكانت تفحص حالاتهم بعناية تامة • لقد كان الموظف المغتصب يلقى عقابه بلا رحمة ، وكان الحزب وهو فى السلطة يحرص على السلطة ولا يحرص على المال • لقد كان أول صراع من نوعه فى الشرق ضد الرشوة وما يتبعها من شرور • وكان سبب شعبية عرابى التى لم يسبق لها مثيل والتى لم يكن جدال فيها ، تكمن فى الاهتمام الشخصى الذى أولاه للفقراء ليكونوا على قدم المساواة مع الاغنياء ، وفى رفضه الذى لم يحد عنه بقبول مال نظير تحقيقه العدل • اننى أذكر أن سيدة كانت قد جردت من بعض من أملاكها ، قيمتها ما يقرب من ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) جنيه ، عرضت قضيتها أمام الناظر (الوزير) ، وبعد فترة قصيرة استدعاها وأخبرها انها فى مدى يوم أو يومين ستسترد أرضها ، ولما كانت مستبعدة حدوث هذا الأمر ، رجته بطبيعة الحال ، أن يتقبل عشرة أفدنة هدية منها وكانت قيمة الهدية المقترحة مساوية لمصاريف القضية تقريبا ، ولكنه رفض الهدية •

خطة « لورد دافرين » لاعادة تنظيم مصر

(٦ فبراير ١٨٨٣)

« لن يكون عملا صعبا أن يمنح الشعب المصرى حكومة صالحة ، اذ على العكس من ذلك هناك ظروف كثيرة توضح أن اللحظة الراهنة ملائمة لافتتاح عهد جديد »

« نتيجة لهذا ، فرضت علينا مسئوليات . ان اوربا والشعب المصرى ، الذى اخذنا على عاتقنا ان ننقذه من الفوضى ، من حقهما على حد سواء ، أن يطالبا بأن تدخلنا يجب أن يكون مفيدا ونتائجه راسخة ، وانها يجب ان تتجنب كل اضرار اية قلاقل فى المستقبل ، وانها يجب أن ترسى على اسس ثابتة مبادىء العدل والحرية وسعادة الشعوب . »

بيان « عرابى » عن اصلاح أحوال مصر

(٢٥ نوفمبر ١٨٨٢)

انى وان كنت مسجونا فى سجن أعدائى فلا أبالى بما أنا فيه من الاهانة ولا بما سيحدث بعد ذلك فانى جعلت نفسى وقفا على تحرير بلادى من اجل ذلك فلا يهمنى الا سعادتها وانقاذها من حب الأفاعى القتالة الكثيرة الأنواع تلك الأفاعى هم الرباويون الذين امتصوا ثروة المزارعين بالربا الفاحش واغترفوا خيرات البلاد غرفا مع سوء المعاملة لأهلها هم والأجانب المتوظفين فى أعلى المناصب وغيرها بمرتبات باهظة الشاغلون لمعظم المصالح الأميرية حتى انجبرت الحكومة على رفت أبناء الوطن منها وهم الذين بايديهم زمام الحكومة من المسلمين الغير مصريين المتغلبين على ما ليس لهم بحق فهؤلاء الآخذون بمقاليد الأمور لا يروق فى أعينهم الا أن يروا المصريين دائما فى أسفل درجة من التأخير والقهر حتى يستقيم لهم امر التغلب على استبعاد أهل البلاد الأحرار بشدة ظلمهم وتعسفهم اذ انهم لا يعرفون شيئا من العلوم والآداب التى يفضل بها الانسان بعضه بعضا الا الكبر والتجبر والضرب والشتم وما من شأنه عن المتخلقين به وهؤلاء الذين غرروا باسماعيل باشا الخديوى السابق وحسنوا له فعل كل منكر حتى انقلوا البلاد بالديون الفاحشة التى ما صرفت الا فى قضى الشهوات البهيمية طمعا فى ما نالهم من الغنيمة الباردة التى خص بعضهم منها فوق المائتى الف جنيه وما نالوه من الأطيان والأملاك بلا مقابل التى يزيد ايرادها سنويا ثلاثين الف جنيها أولئك هم الأفاعى التى انتهشت لحوم المصريين الذين لا ناصر لهم اللهم الا ان يقيض الله لهم نصراء الحق احرار الأمة الانكليزية الحريصين على تحرير بنى الانسان ومن أجل أن يكون الدواء قاطعا للداء قد شخصت المرض المصرى ليسهل على الطبيب تعيين الدواء وحيث أن الأمة الانكليزية اخذت على نفسها النظر فى أمر اصلاح مصر على ما فى ذلك من عظم المسئولية امام العالم المتمدن وامام تاريخ هذا الجيل الكثير

« لا شك فى حقيقة أن الأجانب فى مصر معفون من الضرائب فى الوقت الذى يخضع فيه الوطنيون لها ، يزعج فكر المواطن الى حد بعيد . واذا كان رفع مثل هذا الحيف الواضح سيفعل الكثير فى كبت الشعور العام عند الحكومات الأجنبية المتعاطفة تجاه المصريين ، اذ سيشل شعور تعاطفها فى اللحظة التى تتأثر فيها مصالح رعايا المالية . »

« ان المطلب الرئيسى لمصر هو العدالة . وان نظاما للعدل نقيا ، غير باهظ التكاليف وبسيطا ، سيبرهن على أنه أكثر فائدة للبلاد من أعظم امتيازات دستورية . وبناء مجتمع فى الشرق بسيط جدا ، شريطة أن تقدر الضرائب تقديرا سليما ؛ وهو لا يتطلب وضع قوانين لاسعاد الناس ، ولكن أكثر التشريعات اتقانا ستفشل فى تحقيق ذلك ما لم تكن القوانين التى ابتدعت لهم قد شرعت تشريعا منصفا ..

« فى هذه الآونة ليس هناك عدل حقيقى فى هذا البلد وأن ما يجرى تحت هذا الاسم ان هو الا مهزلة بالنسبة لكل من المحاكم ذاتها وللسلك القضائى الذى يتظاهر بادارتها . »

رابعا ـ حيث أنه فى المدة المذكورة يكون اقتدار الأهالى على النظر فى مصالحهم قد علم لدى العالم حيث أن مجادلاتهم تكون علنية ونشرت فى الجرايد عربية والفرنسكية تعطى للمجلس حقوقا بعد تلك المدة على حسب الاستعداد الذى ظهر فى تلك المدة وعند ذلك يكون النظار مسئولين امام ذلك المجلس .

خامسا ـ يجب ان توضع قوانين أساسية تتحدد بها سلطة الحاكم وخصائصه وسلطة النظار ويبين فيها أن كل أمر صدر من الحاكم بدون اقرار نظاره او استشارة الناظر الذى يختص بنظارته ذلك الأمر فهو لاغ وعلى ذلك لا تجوز مخابرة الحاكم مع نواب الدول أو نفس الدول الا بواسطة ناظر الخارجية فى أى أمر كان .

سادسا ـ يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر المصرى عموما لا يفرق فيها بين اجنبى ووطنى فى جميع المعاملات وفرض الضرائب والرسوم وغير ذلك .

سابعا ـ يجب ان توحد القوانين فى جميع محاكم القطر المصرى وتسن قوانين عادلة توافق أخلاق البلاد وطباعهم ويراعى تنفيذ تلك القوانين بغاية الدقة بدون تداخل ذوى السلطة فى تاويلها واستعمالهم الطرق القديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدمها فى الحقيقة .

« ومن الواضح ان كل جهودنا لتزويد مصر بجهاز ادارى مناسب ستكون بلا جدوى ما لم يكن فى استطاعتنا أن نعتمد على مختلف الأقسام التى يتألف منها الجهاز ليؤدى فى كفاءة الواجبات المحددة لها ، ولن يحق للشعب المصرى أن يشكو من أن الادارات مكتظة بصورة غير ملائمة بموظفين أجانب لو كان من المحال أن تجد موظفين وطنيين تعلموا التعليم المناسب ، واذا كان من المحال أيضا توفر المؤهلات التى تؤهل لشغل المناصب الحالية الموكلة الى الأجانب والذين كان شغلهم لها محض ضرورة اقتضاها الوضع . واذا كان هذا الحيف مشروعا بلا شك ، فان فى استطاعة الحكومة المصرية وحدها أن تتخلص منه باخذها باسلوب حماسى وواع فى تعليم الأجيال الصاعدة . »

« ولكن هناك اصلاحات اخرى أساسية سيبدأ بها قبل أن تصبح الخدمة المدنية فى مصر قديرة أو اقتصادية . ومن سوء الحظ ، ان ادخال هذه الاصلاحات سيسبب الكثير من السخط ، وسيجلب بعض المتاعب الفردية . »

« لقد اوضح مستر فيتزجيرالد M. Firzgerald (١) فى تقريره المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ والذى سلمه الى « سير ادوارد ماليت » الذى رفعه بدوره الى مقامكم يا سيادة اللورد ، أن عدد الموظفين فى خدمة الحكومة المصرية ، من المضحك أنهم يزيدون عن الحاجة اليهم . »

« وبالرغم من ذلك ، فانه من المرغوب فيه جدا ، وجوب خفض عدد الأوربيين بصورة

ثامنا ـ ينظر فى أمر توسيع دائرة المعارف وانتشارها فى عموم البلاد بطريقة منتظمة واصلاح طرق التعليم والتعلم فيها مع البدء بتعميم العلم بالقوانين التى توضع أو تم وضعها ليكثر فى البلاد عدد المستعدين للحكم والقضاء .

تاسعا ـ يجب أن يرفت من لا لزوم له من الأورباويين ويكتفى منهم بقدر الضرورة مع مراعاة حالية مالية البلاد فى رواتبهم والمناسبة بينها وبين مرتبات الوطنيين حتى لا تقع المنافسة والمنافرة لسبب الامتياز الفاحش .

---

(١) هو بيرسى فيتزجرالد Percy Firzerald ، أحد الكتاب الانجليز الذين كان لهم اهتمام بمصر . ولقد ألف « بيرسى » كتابا عنوانه قناة السويس الكبرى The Great Canal of Suez نشر سنة ١٨٧٢ ، والكتاب يعطى بيانا موجزا عن المشروع وخلفيته ، وكان هذا الكتاب من بين الكتب التى اعتمد عليها « سير ايفلين بيرنج » (لورد كرومر » فى كتابة تقريره عن « الخديو اسماعيل » . (المحقق) .

ملموسة ، وبخاصة فى الأماكن التى تضاعف عددهم فيها لأسباب سياسية • »

« ليست هناك فى مصر خدمات ، وكان الناس على حق تماما من الشكوى من ذلك ، أكثر من شكواهم التى عمل بموجبها مسح تفصيلى Cadastral Survey للبلاد ، ولم يكن أمرا غريبا ، أن هذا المطلب ، مطلب الخدمات ، أثار اهتمام مجلس النواب » •

« لقد كانت تكاليف المسح التفصيلى باهظة ، والنتائج ضحلة ، وقام بجمع البيانات موظفون أوربيون لم تكن معرفتهم الفنية على مستوى عال دائما •

« واننى أتقدم الآن ، وأطلب من فخامتكم أن توجهوا اهتمامكم الى موضوع من أكثر الموضوعات اثارة للغم وهو المتصل بالظروف الاجتماعية الراهنة لهذا البلد ، وهو وضع له خطورته ، ويتمثل فى زيادة نسبة ما يمتلكه الفلاحون من الأراضى بصورة ملحوظة ، وبخاصة فى الدلتا • »

« ومن سوء الحظ أن الدين المرهون والذى يبلغ ٥٠٠٠ر٠٠٠ر٥ جنيه المشار اليه آنفا ، لا يمثل بأية حال من الأحوال كل ديون الفلاحين • لقد بلغنى من شخصية مسئولة أنه مدين على الأقل ب ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ جنيه أو ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ جنيه لمرابى فى الريف ، وهو حامل أسهمه وقادر على أن يبيعه بنفس السعر المناسب الذى يطالبه به الراهن • »

« ولو تحققت بذلك المطالب المعنوية لمصر ، (١) بتحقيق الأمن الداخلى والحرية

عاشرا ـ يجب ألا يحرم الوطنيون من الوظائف أيا كانت عالية أو دانية مادام الاستعداد موجودا ومن رفت من الذين لا ذنب لهم سوى دعوى تداخلهم فى الحوادث الأخيرة يكونون كغيرهم يدخلون الوظائف على حسب استعدادهم •

حادى عشر ـ تنظر طريقة فى وضع حد للمرباوبين لمنعهم عن استعمال الغش وادخاله على الأهالى لسلب أموالهم [وايقاف الفلاحين عند حد فى الأخذ بالرباء]

---

(١) جدير بالذكر أن « برودلى » فى نصه الانجليزى وضع فى هذا الجزء رقم ثانى عشر • جاء فيه ما ترجمته : « يجب أن توجه عناية الى أشغال الرى وغيرها من أساليب اخصاب التربة ، فلقد أهملت هذه الأساليب اهمالا شديدا ، وهى التى تمس حياة مصر » ـ

والعدالة . فانه يمكننا بعد ذلك أن نتجه الى التفكير في احتياجاتها المادية • ان ثروة مصر تنبع من ارضها التى تعتمد خصوبتها كلية على الرى ، وسنة بعد أخرى ينقل النيل فى مياهه الغـزيرة كنــوزا من كنـــوز باكتـولوس Pactolus (٢) الأسطورية • »

« وفى اللحظة الراهنة ، نحن نعمل للصالح العام بوجه عام ، ان أمنية كل فرد هى أن تكون مصر آمنة ، رخاء ، سعيدة ، قادرة على أن تسدد ديونها ، قادرة على أن تعمل على استتباب الأمن على طول القناة ؛ والا تدع لأية حالة اضطراب فى شئونها ان تكون مبررا لأى تدخل من الخارج • ان فرنسا وتركيا وكل قوة اوربية يجب أن تكون تواقة ، كما نحن تواقون أنفسنا ، للوصول الى هذه النتائج ، كما يجب الا تحسدنا على الوسائل التى نتبعها لضمان تحقيقها •

« ان نفس حقيقة اننا منحنا البـلاد نظم التمثيل السياسى لهو برهان على نزاهتنا • »

ثانى عشر ـ يكون اجراء جميع ما تقـدم تحت ملاحظة وارشاد أمناء من دولة الانكليز الى مدة معينة يمكن بها ظهور الاصلاح واقتدار الأهالى على أن يحكموا أنفسهم بانفسهم •

هذه الاصلاحات اذا صار مراعاتها فى مصر بغاية الدقة تكـون حقيقة قد اكتســبت الأمة المصرية نجاحها من أمراضـها المزمنة العضالة بحكمة الحكماء الأمناء وجـودة الدواء وتكون انكلترة قد أدت واجباتها بكمال الشرف •

٢٥ نوفمبر ١٨٨٢

(توقيع) أحمد عرابى المصرى

اننى أترك لقرائى أن يستخلصوا نتائجهم • قـد يكون « لورد دافرين » أدخل تحسينا على خطة عرابى ، أو لعله ابتدع خطة أكثر كمالا ولكنه فى النتيجة كان مضطرا لأن يترك لطبقة الباشوات ، التى استعادت سلطانها ، المهمة التى تكاد تكون مستحيلة ، وهى التخطيط لبرنامج وطنى بدون الوطنيين •

لم يكن عرابى الوطنى المصرى الوحيد على الاطلاق ، شخصية وكفاءة• لقد كانت عنده بكل تأكيد أحسن المقومات ليقود الناس ، ولـكن غيره أظهروا قدرة غير عادية فى تنفيذ خططـه تنفيـذا عمليا ، وان خطابات « محمود سامى » ، والوثائق الرسمية شواهد مطلقة على قدرات فكرية ،

ولا أدرى من أين جاء « برودلى » بهذا النص ، اذ لا وجود له على الاطلاق فى الخطـاب الذى بعث به « عرابى » الى مدير جريدة « التايمز » اللندنية والذى كتبه بخط يده والمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقلعة ، والتعليل الوحيد لهذه الاضافة من جانب « برودلى » هو أنه من فرط تقديره ل « عرابى » أضاف هذه الاضافة حتى لا يكون بيان « عرابى » أقل خطورة من بيان « لورد دافرين » ـ (المحقق)

(٢) له البحر فى الأساطير الاغريقية • (المحقق) •

للادارة التركية البحتة التى لم تتغير على مدى نصف قرن ، لا نرى الا البؤس والعزلة والدمار (١) .

لقد أدرك أقدر اثنين من أعضاء الأسرة الخديوية فى مصر بكل وضوح معنى ونتائج التسلط التركى فى تلك البلاد . لقـــد رأيا ما نجم من « حماية » السلطان الخليفة من اندماج كامل غير مثمر تماما ، رأيا الدمار المحتوم للبلد الذى يحكمانه . لا شك أن السيادة التركية لم تفعل شيئا على الاطلاق ، وفى كل الاحتمالات الانسانية لن تفعل شيئا لصالح مصر . لقد شلت جهودها فى الماضى وقت أن كانت تتطلع الى الحرية ، ولو استمرت تركيا قوية مطلقة العنان لباشرت بلا شك نفوذا أخطر فى المستقبل .

ويجرنا الحديث عن « تركيا » الى وصف ما فيها من الفساد والفوضى اللذين لا أمل فى الخلاص منهما واللذين يستشريان يوما بعد يوم ويعمان كل ادارة من الادارات التنفيذية التركية سواء فى الداخل أو فى الخارج . لقد أكد « مستر جلادستون » فى مقـال له فى سـنة ١٨٧٧ (٢) أن « فنون الزيف لقيت تطورا هاما فى تركيا » واستطرد متحدثا عن « الزيف والخداع والازدراء والانحراف عن العدل ورفض الاصلاح » وهى السمة التى كانت مميزة لسلوك الباب العالى تجاه أحداث هامة معينة كانت تحتل الاهتمام العام ، وحدث تحول الى ما هو أسوأ منذ ذلك الوقت . لقـد فشلت الأفكار الغربية التى نادى بها سلطان تركيا ، أمير المؤمنين ، عن الدعوة الى اقامة جامعة اسلامية Pan-Islamic ، فشلت فى اثارة الشقاق فى أوربا ، بل ان هذه الأفكار قد أدت الى أن تفاقم فى تركيا بشكـل ملحوظ الخلل والفساد « والزيف الذى تطور تطورا خطيرا » ، وهـو ما سبق أن شكا منه « مستر جلادستـون » فى مقـاله (٣) . وجدير بالذكر ، أنه طوال حكم السلطان عبد العزيز ومن سلفوه ، كانت الادارة الثنائية للباب العالى والقصر تسير بصورة متعادلة تماما ، وعلى أية حال ،

---

(١) صدر هذا الكتاب (فى سنة ١٩٠٢) قبل تطور الأحداث فى شمال افريقيا ، اذ حدث فى سنة ١٩٠٠ أن عقدت اتفاقية سرية بين ايطاليا وفرنسا [وكانت وقتها تحتل تونس (١٨٨١) بعد احتلالها للجزائر (١٨٣١)] بموجبها تطلق فرنســا يدها فى مراكش (سـميت المغرب بعد ذلك) وتطلق ايطاليا يدها فى طرابلس الغرب (سـميت لبيا بعد ذلك)وقد نفذت هذه الاتفاقية سنة ١٩١٢ عندما نشبت الحرب بين ايطاليا وتركيا وهزمت الأخيرة فيها ، فضمت ايطاليا طرابلس الغرب الى مستعمرتها ، وضمت فرنسا مراكش الى مستعمرتها ، وكانت هذه هى نهاية أملاك الرجل المريض (تركيا) فى شمال افريقيا . (المحقق) .

(٢) و (٣) عنوانه : عدوان فى مصر **Aggression in Egypt** ؛ مجلة القرن التاسع عشر **Mineteenth Cnturey** عدد أغسطس ١٨٧٧ ، ص ١٦٣ .

فيما يهم المظاهر الخارجية ، كانت تشبه بلا شك ، في كثير من الأساليب لعبة المضرب والجماح Shuttlecock and battledore (فكانت الادارتان الكبريان تمثلان « المضرب » ، بينما العمل القائم يمثل « الجماح ») ، ولكن جاء الحل فى النهاية ، وكان لا بد من الوصول اليه عاجلا أو آجلا ٠ وكاد القصر يبتلع تماما مهام الباب العالى ، ونتيجة لذلك صارت مقاليد الحكم لكافة الأغراض العملية فى أيدى رجل واحد هو السلطان عبد الحميد ٠ صحيح أن أصدقاءه كانوا يؤكدون في غموض أنه أعظم دبلوماسى أوربا ، ولكن ما كان يعزى اليه من قدرة فائقة كان ينقصه الدليل على ذلك ؛ اذ أن أفعاله الظاهرية كانت تخالف هذا الادعاء كل الاختلاف ٠ ويكاد يكون من المستحيل انكار أنه فى عهد السلطان الخليفة الراهن بلغ سوء الحكم فى استانبول ذروة السوء قل أن يدانيها ذروة ٠

ان مؤسس الأسرة المصرية الخديوية اكتشف الآثار الضارة للتدخل التركى الفعال فى شئون بلده ، وتمشيا مع طبيعته الخاصة وآرائه عن الأزمنة التى عاش فيها ، لجأ « محمد على » الى فصم عرى ارتباط مصر بـ « تركيا » بحد السيف ، وكان ابنه « ابراهيم » قد قاد جيشا مظفرا ، أوغل ما يقرب من مائة ميل من استانبول ، واحتلت قواته الأماكن الاسلامية المقدسة ، وأصبح نفس وجود الامبراطورية العثمانية مهددا ، ولم يتوقف « محمد على » عن زحفه الا امتثالا لأوامر أوربا ، ويؤكد ذلك أن الفرمان الصادر بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ (الذى حدد في النهاية سلطان محمد على بأنه وال على مصر) كان قد سبقته اتفاقية جاء فى ديباجتها أن السلطان التجأ الى الدولتين العظميين طالبا اعانتهما له ومساعدته وسط الصعوبات التى وجد نفسه مترديا فيها نتيجة المسلك العدائى الذى سلكه « محمد على » ، باشا مصر ، الذى يهدد وحدة الامبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان » ، وطوال بقية حكم « محمد على » ، حاد السلاطين الخلفاء « حمايتهم » لمصر فى تسلم جزية سنوية تصل الى ما يقرب من ٣٢٥٫٠٠٠ جنيه ٠

وقد شهد حكم كل من « عباس » و « سعيد » محاولات متكررة من جانب تركيا لتجديد سياستها القديمة فى التدخل الداخلى الفعلى فى مصر ٠ وعلى العكس من ذلك ، كان « اسماعيل باشا » على وعى تام تماما الى ضرورة الحفاظ على شبه الاستقلال الذى ناضل من أجله « محمد على » ٠ لم يحاول أن يتبع طريق الحرب الذى سلكه جده ، بل سعى للحفاظ على تسلطه من بعيد ، وأن يحصل على مزيد من حصانات وامتيازات يمكن أن تضمن له الحكم الذاتى الفعلى على مصر عن طريق عملية يصفها هو نفسه

بأسلوب عــذب بما فيه الكــفاية ، بأنهــا عمليــة تقبيــل السجادة kissing the carpet (١) : ف « بفرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ ، ضمن أن تكون الوراثة فى أكبر أبنائه الذكور ، أعنى انتقال وراثة باشوية Packalik مصر فى فرعه المباشر الى الأبد ، مع منحه الحرية الكاملة فى أفعاله بالنسبة للادارة الداخلية للبلاد ، ومنحه فرمان ٨ يونيو ١٨٦٧ ، لقب « خديو » ، وسلطة عقد اتفاقيات تجارية ، ومنحه امتيازات ، الخ ··· وحصل على حقوق هامة أخرى بموجب فرمان ٢٥ سبتمبر ١٨٧٢ ، وكذا فرمان ١٠ سبتمبر ١٨٧٣ ، وأخيرا منح كافة الامتيازات والحصانات التى صدق عليها وأكدها فى وقار ، فرمان شامل صدر فى ٨ يونيو ١٨٧٣ · ولقد نجح « اسماعيل باشا » الى حد كبير فى اضعاف نفوذ سلطان تركيا فى مصر ، بأن طالب أئمة المساجد عند القائهم خطبة الجمعة عند دعائهم الى الله أن يدعوا الله أن ينصر « جيوش الاسلام » بدلا من دعائهم الســابق بنصرة « جيوش رأس الامبراطورية العثمانية » · ولقد كانت عمليــة «تقبيل السجادة» ، لسوء الحظ أكثر العمليات تكلفة، وكان «اسماعيل باشا» هو وحده « الابن العزيز المحبوب » dearly beloved son عند السلاطين الخلفاء طالما ان عنده شيئا يعطيه · فى أيام رخائه ، نادرا ما كان يجىء الى القاهرة رسل أتراك ومندوبون أتراك ، ثم اذا جاءوا بعد ذلك ، كانوا يأتون فقط كحاملى خطابات تحية أو حاملى نياشين ، وكان « اسماعيل » يرد فى بشاشــة على المعونة العســكرية المطلوبة منه ، ويدفــع جزيته السنوية ، وكانت قد زيدت الآن الى ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه تركى وكان يعطى للسلطان ونظاره هدايا ثمينة كلما أرادوا ذلك ، وصارت عملية « تقبيل السجادة » مثقلة أكثر وأكثر ، ولكن نظام الحكم كان يلبى مطالبها بصورة تبعث على الاعجاب طالما أن النظام دائم ، ولكنها ساعدت بصورة أكثر فعالية فى الدمار المالى للخديو اسماعيل ، ولو أنه كان يعتقد (سواء كان تفكيره سليما أو خاطئا) أن التحرر الفعلى الذى كان يأمل فيه لنفســه ولشعبه ، يستحق منه أعظم تضحية قام بها ·

فى الأيام الأوائــل من شهــر مايو ١٨٨١ ، قمت برحلــة الى القسطنطينية · اننى لا أقصد أن أشير بالتفصيل اما الى الخلل السياسى الذى لا يمكن وصفه الذى يسود البلاد ، أو الى الفاقة الاجتماعية التى لا يمكن وصفها بالمثل والتى يبدو أنها ناجمة منه · وأود أن أوضح للقارىء أن هذين الأمرين ليس لهما علاقة بموضوع التسلط التركى فى مصر ،

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب ·

السلطان من انجلترا هو أن تعترف اعترافا كاملا ، دون ما تحفظ ، وبصورة فعالة ، بوضع مصر ، بأنها ولاية تركية ؛ وأن يسمح لها أن تساعد فى اعادة تنظيم نفسها · هذا الترتيب سوف ينقذكم من هموم لا نهاية لها ويمكنكم من تجنب أية مسئولية ، وفى الوقت نفسه لتقودوا دفة الأمور خلوا من التعقيدات الدولية · لا تنخدعوا - ان اسم الاسلام ومكانة الخليفة سيكون لهما فعل السحر على أذهان المصريين · لقد حاول « اسماعيل باشا » أن يقلل من قبضتنا على مصر فعلمناه درسا · حاول أن يسير وحده ، ولكن عندما توقف عن أن يتكىء على تركيا فقد عرشه » ، ولما وجدنى آكاد أكون مقتنعا بكلامه ، استمر قائلا : « ان ما اقترحه سهل تنفيذه تماما · ان « مستر جلادستون » عدونا السابق ، قد صار اليوم شخصا عادلا ، انه يدعو جلالة السلطان : « حاكم مصر » ، ان كل ما عليه أن يفعله هو أن يقدم لنا خططه وسنساعده فى تنفيذها ، واذا ما اتفقنا مرة على موضوع مصر ، فان أهم النتائج لا بد وأن تنطلق بالضرورة من تحالفنا الجديد · اننا سنمثل جبهة متحدة فى مواجهة عدونا المشترك ، الروسيا ، بل يمكننا أن ندفع فرنسا الى الانضمام · وأن تحذو حذوكم ، فى موضوع « تونس » ، ومع ذلك ، فانكم اذا أصررتم على تجاهل حقوقنا ، فيجب ألا تجأروا بالشكوى لو أننا دخلنا فى اتحادات أخرى » ·

لقد لقيت آراء « خير الدين باشا » عن موضوع المسألة المصرية وحلها ، موافقة من استانبول ، وبعد بضعة أيام من زيارتى له ، علمت أنه استدعى الى « قصر يلدز » ، ولكن عناده · فى موضوع الدستور حال بينه وبين احتمال عودته مرة أخرى للسلطة · والملاحظ اليوم أن كثيرا من حلول مريحة لمشكلات دبلوماسية تلقى تأييدا شديدا ، بل انه لا يساورنى أدنى شك فى أن اقتراحا مماثلا تقريبا للذى طرحه « خير الدين باشا » يلقى أو سيلقى تأييدا فى « داوننج ستريت » ، ولهذا ، فانه من الأهمية بمكان ، فى الفترة الراهنة ، أن يكون من واجب انجلترا أن تفهم المعنى الحقيقى للنفوذ التركى فى مصر ، وما من شىء يمكن أن يصوره ، أفضل من تعقب تأثيره فى ذلك البلد طوال السنوات الأربع الأخيرة ·

أعود الآن مرة أخرى الى استكمال قصة العلاقات بين مصر وتركيا التى كنت قد وصلت بها الى الفرمان الشامل الذى حصل عليه « اسماعيل باشا » فى سنة ١٨٧٣ · بعد ذلك بست سنوات ، كانت انجلترا وفرنسا سعادتهما هى فى تحقيق رغبتهما فى اقالة « الخديو اسماعيل » · وكما سبق أن أشرت ، كان أحد الأهداف الرئيسية لسياسته هو أن يخلص مصر تدريجيا من القيود التى كانت تربطها بـ « تركيا » · لقد اعتاد أن

يقول انه يرغب فى أن يجعل مصر نقطة التقاء حضارة الشرق بحضارة الغرب . لقد أقنعه ادراكه الذكى ، فى وقت مبكر من معترك حياته ، أن فكرة التقدم لا تتواءم كلية مع السلطان الخليفة الذى يبتلع كل شىء . وللتخلص من « اسماعيل » ، وقعت كل من انجلترا وفرنسا ، لسوء الطالع فى خطأ فادح عندما استغاثتا « بالسلطان عبد الحميد » . أسرع الباب العالى لاستجابة لطلبهما ، لأن نافورات كرم « اسماعيل » السخية قد جفت . فلما توارى « الخديو اسماعيل » عن مسرح الأحداث ، استردت تركيا ــ وكانت الحكم بينه وبين القوتين العظميين ــ سيادتها التى كانت قد فقدتها . وكان « خير الدين » فى ذلك الوقت فى السلطة ، كبيرا للنظار . وفى لقاءاتى معه فى القسطنطينية ، كان يشير مرارا وتكرارا الى مصير « اسماعيل » كعلامة انذار لكل من يتجاهل قوة السلطان الخليفة ، التى وصفت فى العام الماضى بأنها « أنصع درة فى التاج الامبراطورى » .

وفى تلغراف النظارة المؤرخ ٢٧ يونيو ١٨٧٩ الذى طالب « الخديو اسماعيل » بالتنحى عن الحكم ، عين أكبر أبنائه « محمد توفيق باشا » بدلا منه . ولم تكن هناك من وجهات نظر موائمة أفضل من وجهات نظر « السلطان عبد الحميد » . كان الخديو الجديد ــ صغير السن ، تعوزه الخبرة ، وكان تعليمه بالكامل مصريا ، وكان محبا مخلصا للتآمر من أجل مصلحته الذاتية ، وكان ، كما شاهدنا ، عاجزا تماما عن أن تكون له شخصية ثابتة مستقرة ــ وعلى الفور ، تطلع الى السلطان ليحميه ضد ذلك النفوذ الأجنبى الأوربى الذى برهن على خطورته فى الاطاحة بأبيه ، وفى الوقت نفسه ، لجأ الى اخفاء كرامته المنتقصة بتورطه فى قبول الحكم الانجليزى الفرنسى المشترك The Anglo-French Condominium باظهاره فى تفاخر ، أن سيده السلطان : الطرف الذى بارك الصفقة . لقد كانت الفرصة طيبة ويجب ألا تضيع . لقد أدخلت بضع كلمات بصورة خادعة فى الفرمان الجديد الخاص بتوليه ، الصادر يوم ٣٠ يوليو ١٨٧٩ ، كادت أن تحطم تماما نتائج جهود اسماعيل الثمينة من أجل الحكم الذاتى عمليا . وليس غريبا ان يدرك « السلطان عبد الحميد » ، تحت هذه الظروف ، فكرة جعل مصر مركزا لحركة الوحدة الاسلامية ، وهى بعد فى مهدها .

ان منشأ هذا الاتجاه الأخير فى السياسات الاسلامية يكتنفه الغموض ، وان كان من المعتقد ، بوجه عام ، ان الاتجاه اليه أملته الضرورة ليكون بمثابة اتحاد فى مواجهة المصالح الروسية والانجليزية المشتركة

فى آسيا الوسطى · ثم رأت حركة الوحدة الاسلامية بعد ذلك ، تحقيقا لغرضها : فصل الخلافة عن السلطنة العثمانية ، وأخيرا ، فى حالة الدفاع الذاتى ، تبناها السلطان الخليفة نفسه فى صورة اتحاد عام تحت رعايته دفاعا عن الاسلام ·

وبعد انتهاء اتفاقية برلين Berlin Treaty ، يبدو أن السلطان وجه اهتمامه الى الولايات النائية فى الامبراطورية الواقعة فى أفريقيا ، لقد عبر دون ما تحفظ ، للبارون د رنج Baron de Ring (١) عن آماله فى أن « أفريقيا ستعوضه عن فقده لأجمل ولاياته الأوربية » وأعلن عن أنه يجب « أن يبذل كل ما فى وسعه ليستعيد فى تلك الأجزاء سيادة وكرامة الماضى » · لقد أعطت أحداث سنة ١٨٨١ غير المتوقعة فى « تونس » شكلا عمليا للنظرية التجريدية « للوحدة الاسلامية » ، وقد وجد نشاط دعاتها العسكريون مجالا متجانسا للعمل : على الشواطىء الجنوبية للبحر المتوسط · لقد سبق أن رويت فى كتابى « تونس الماضى والحاضر Tunis Past and Present» قصة الصراع اليائس الذى أبقى عليه العرب على حدود طرابلس الغرب (٢) ·

لقد حاولت أثناء سردى لروايتى الراهنة ، أن أؤجل الى حد ما الحديث عن أعمال الوفود التركية فى مصر لأفرد مكانا لوصفها فى الفصل الذى أقوم بكتابته الآن · ولا شك أن قرائى سيذكرون أن من أولى نتائج مطالب الجيش يوم مسيرة عابدين هو قدوم وفد عثمانى الى مصر ، وصل ميناء الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ، وكان مؤلفا من : « على نظامى باشا » سرياور السلطان عبد الحميد و « على بك فؤاد » من أعضاء مجلس شورى الدولة ونجل « عالى باشا » الصدر الأعظم المشهور ، وفى معيتهما عدد كبير غيرهم من الشخصيات الهامة مثل « قدرى بك » و « أحمد راغب باشا » ، الذين روعى فى عناية أن يبقوا فى المؤخرة ·

(١) كان القنصل العام لفرنسا فى عهد اسماعيل ، وكان حاضرا وقت مسيرة ضباط الجيش الى قصر عابدين (سبتمبر ١٨٨١) والتى قدموا فيها للخديو مطالب الشعب والجيش وكان من اهم مطالب الجيش تنحية عثمان باشا رفقى عن الجهادية لتعسفه معهم وترقية الاتراك والشراكسة وحرمان الوطنيين من أية ترقية ، وقد تأكد مسيو « رنج » من صدق شكواهم ومن وقتها وقف الى جانبهم وكانت له الكلمة المسموعة عند الخديو ، وأيدهم فى المطالبة بعزل عثمان رفقى من نظارة الجهادية ، بل انه تشاجر مع رياض باشا باعتباره مسئولا عن كل أعمال رفقى ، فلم يجد الخديو بدا من اعفاء نظارة رياض وتعيين شريف باشا رئيسا للنظار ومحمود سامى البارودى ناظرا للجهادية خلفا لعثمان باشا رفقى · (المحقق) ·

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ·

وحتى يمكن مراقبة مسلكهم مراقبة فعالة ، كان كل فرد من أفراد الوفد له رقم كودى code منفصل للشفرة التليغرافية الخاصة به ، وطلب منه أن يراسل استانبول مباشرة ، ومع ذلك ، يبدو أن ساسة قصر يلدز ، نسوا المثل الفرنسى القائل : « الضمير الآثم لا يحتاج الى من يتهمه «qui s'excuse s'accuse» اذ نشر مقال فى جريدة « الوقت «Vakit» وهى الجريدة شبه الرسمية نبأ بوصول الوفد باعلان أن المندوبين لا يحملون شيئا أكثر من رسائل بريئة مهذبة وبسيطة » .

ويستطيع صديقنا القديم أحمد رفعت (١) ، أن يقدم لنا ، من حسن الحظ ، باعتباره شاهد عيان ، كشف حساب عن أفعالهم بالقاهرة :

كتب رفعت يقول : « على نظامى باشا » ، تركى ، قائد فرقة ، فى حوالى الخمسين من عمره ، وكان حتى قدومه الى مصر مجرد موظف على قوة الخدمات العسكرية . أما « على فؤاد بك » فهو ابن المرحوم عالى باشا الذى كان معروفا عنه أنه الصدر الأعظم ـ أما « على فؤاد بك » فهو فهو لا يزال شابا ، وهو أو كان ، من سكرتارية السلطان الذين هم موضع الثقة ، وأما ملحقهم attaché وكاتبهم ، فهو قدرى افندى (قد رقى ، فصار قدرى بك) ، وربما كان « قدرى » أقدر الثلاثة بالرغم من أنه (مثل أحمد راغب ، ياور السلطان) لم يعتبر عضوا رسميا فى الوفد لقد كان مواطنا من حلب ، وكاتبا له مقدرة ملحوظة ، وكان باعتباره سكرتيرا ثانيا للسلطان ، مسئولا عن المراسلات الضخمة التى كانت مستمرة مع شيوخ شمال أفريقيا ورؤساء الاخاءات الدينية المختلفة . وكان « قدرى » نادرا ما يرى أو يذكر اسمه ، ولكن عندما انسحب الوفد فجأة ، اتخذ مقره فى صمت فى القاهرة كبوليس سرى للسلطان ، ومنذ بضعة أيام فقط قبل وصول الوفد ، قال لى شريف باشا ، وكان وقتها رئيسا لمجلس النظار : اننى لما كنت على معرفة شخصية ب « على نظامى » و « على فؤاد » ، فينبغى أن يسمح لى بزيارتهما ، وأن استغل الفرصة التى ستتاح لى أحسن استغلال لأتعرف على الغرض الحقيقى من حضورهم الى مصر . وفى نفس ذلك المساء ، تلقيت رسالة بأن الخديو توفيق باشا يطلب منى أن أراه فورا . وبالرغم من أن الساعة كانت قد جاوزت منتصف الليل ، توجهت الى قصر الاسماعيلية ، فقال لى سموه اننى لما كنت سأقوم بزيارة المبعوثين الأتراك ، فقد طلب منى أن ألتزم الصمت التام بالنسبة للأحداث الأخيرة ، ولكنه طلب منى أن ألجأ الى

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

استخدام كل جدل ممكن استخدامه لأوضح لهم ولاء الخديو الكامل الذى لا يتغير لشخص ومصالح السلطان . وفى اليوم التالى ، توجهت الى قصر النزهة ، حيث كانت اقامة الوفد فى نوع من العزلة السياسية political quarantine ، فلم يكن يسمح لأحد فى بادىء الأمر بأن يزورهم بدون تصريح خاص . لقد كان لى بهم لقاء طويل جدا وخاص . لقد تناول حديثنا ثلاث نقاط ، أعنى ، المظاهرات العسكرية وشخص الخديو ووضع ومكانة السلطان فى مصر . لقد لاحظت أن المبعوثين كانوا شديدى القلق بالنسبة للنقطة الأولى ، كما كانوا يودون أن يعرفوا اذا كان يمكن اعتبار أن ما حدث « مقدمة لحركة عربية عامة » ، وما اذا كان أو لم يكن سقوط « رياض » وتولى « شريف » زمام الحكومة مكانه ، قد وضع فى الحقيقة حدا لمطالب الجيش . لقد أعربوا عن رغبتهم الشديدة فى عقد لقاء مع « عرابى » ، ولكننى أوضحت لهم أن « عرابى » قد ذهب مع قواته الى رأس الوادى (التل الكبير) ، « عبد العال » الى دمياط ، وأوضحت لهم أن هذه دلالة على خضوع الجيش . ثم بعد ذلك أعلنوا عن اتفاقهم معى فى أن اللقاء المقترح قد يثير شكوكا ، وكان من الواضح أنهم تخلوا عن الفكرة ، ثم بعد ذلك تحدثوا بالتفصيل عن الخديو . وما لبثت أن لاحظت أنهم كانوا أبعد من أن يقنعوا باخلاصه ، وأنهم كانوا قلقين من جراء ضعف شخصيته . وفى المساء السابق لسفرهم ، قدموا للخديو وثيقة مسهبة ليوقع عليها ، اننى أعرف أنه وقعها ، ولكن لم أستطع أن أحصل على أى مفتاح لمحتوياتها . لقد أعرب كل من « شريف باشا » و « حيدر باشا » عن قلقهما البالغ منها . لقد ذكر المبعوثون لكل فرد أنه ليس هناك من شىء يمكن أن ينقذ مصر سوى الاعتراف الكامل « لسيادة » السلطان . لقد أعربوا عن استيائهم الشديد للجهود التى تبذلها القوتان العظميان ليعود الوفد من حيث أتى ، ولكن خلال الأيام الأخيرة من اقامتهم، اتخذوا موقفا بالغ الحيطة ، اذ أن « على نظامى » ألقى خطابا فى الجنود فى القلعة ، وبعد ذلك علمت أنهم بعثوا سرا بواحد من معيتهم ، ضابط بحرى ، يدعى « أحمد راتب باشا » ، ياور السلطان ، الى الزقازيق ، ليلتقى ب « عرابى » .

ولا يفوتنى أن أذكر أننى وجدت فى العدد رقم ١٢٣٣ من الوقائع المصرية بيانا عن خطاب ألقاه « على نظامى » فى القوات ، كان مليئا بالغزير من النصوص القرآنية ، استهله على هذا النحو : ــ « اعلموا أن الخديو ان هو الا ممثل للسلطان الذى منحه سلطة عامة ، وأن الممثل على شاكلة من يمثله ، وبطاعتكم للخديو أنتم تطيعون السلطان ، وبذلك تنفذون

لا يوجد هناك من دافع الى ذلك ، لا لشيء الا ليرضى حكومة أجنبية » (١)، ولكى يدحض الاتهام الذى وجهه اليه الخديو ، يبدو أن « عرابى » كتب رسالتين دفاعا عن نفسه ، من خلال « أحمد أسعد » الى « محمد ظافر » المستشار الدينى الخاص للسلطان ، الذى كان مشتركا فى ذلك الوقت فى تشجيع اللاجئين التونسيين تشجيعا فعالا للاستمـــرار فى حـرب العصابات التى كانوا يديرونها على حدود « طرابلس الغرب » ، وكانت الردود التى تلقاها « عرابى » قد سبق أن أطلعت قرائى عليها (٢) ٠

ان الصورة التى افترضتها سياسة « قصر يلدز » عن مصر أثناء ربيع العام الماضى ، من السهل ادراكها : « عرابى » يوقع بالخديو ، و « الخديو » يوقع ب « عرابى » ، فتتعقد الأمور ، فيكون هناك مبرر للسلطان لأن يتخذ دور المبادرة فى تسوية حاسمة للشئون المصرية ٠ ويبدو أن ارتقاء « راغب باشا » الى منصب رئيس النظار المصرى ، بفضل تأييد ألمانيا ، كانت عملية محسوبة للسير قدما بالخطة (٣) ٠ وقبل تولى راغب باشا منصبه ببضعة أيام ، أرسل الصدر الأعظم التركى الى الخديو بالتلغراف التالى ، والذى وجد بين أوراق عرابى :

« قد عرض على الحضرة السلطانية تلغرافكم الشامل بانكم منتظرون بغاية الاشتياق مأمورا مخصوصا من طرف الدولة العلية وعلى ان الضــابطين الموجودين هناك يعلنون فى مواضع مختلفـــة انهم يردون الأمر الذى يصــدر من طرف الدولة العلية اذا لم يوافق واجههم ٠

فالمذكرة هى هنا جارية فيما يلزم أن يعمل بمصر ، والأوامر التى ستصدر من طرف الدولة العلية لا يتأتى دينا ولا قاعدة ردها وعدم قبولها بالنسبة للمؤمنين الموحدين الذين

---

(١) هذا نص كان بودى أن اطلع عليه بنفسى لولا عدم وجود أى عدد من أعداد الوقائع المصرية فى المدة من أول يوليو الى آخر ديســـمبر ١٨٨٢ فى كافة مكتبات مصر العامة منها والخاصة ٠

وجدير بالذكر أن الأستاذ محمود الخفيف ، ذكر فى كتابه « أحمد عرابى ، الزعيم المفترى عليه » (ص ٣٨٩) بعث الى السلطان بتلغراف يدور حول هذا المعنى ، وفيما يلى نص ما كتبه : « ٠٠٠ وكان عرابى قد أرسل بتلغراف الى السلطان قال فيه أنه حمل حملا على الحرب وأنه يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير ، ورجاه ألا يصدق ما يؤكده أعداء وطنه وملته أنه لو وجد فرقا عثمانية فى طريقه فان ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل اخوانه فى الدين معاملة الأعداء ٠ » واود أن اضيف أن فحوى التلغراف كان نقلا عن جريدة مصر رقم ١٧ صفحة ٢٢٢ ٠ (المحقق)

(٢) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب ٠

(٣) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب ٠

يقولون « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، فان الدين والملة شرعا فى أهل الاســـلام أمر واحد كالجنسية فى الملل غير الاسلام · فجميع أهل الايمان مكلفـــون مع الاخوة بالطاعة والاجتماع على كلمة الله · »

وبعد ذلك بعشرة أيام ، قدم وفد امبراطورى ثان ، قدم فى وقار الى الاسكندرية ، كان مؤلفا من « درويش باشا » ، وهو قائد عام ألبانى سابق ، و « أحمد أسعد » أحد المقربين الى السلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة · وكان « درويش » أستاذا قـديما فى النفاق والدهاء الشرقى اللذين كان يخفيهما بأسلوب معين من الخشونة والجفاء ، وبمظهر الاحترام ، كانت مهمته بصورة خاصة « مراقبة الخديو » ومحاولة دفع « عرابى » للذهاب الى القسطنطينية بمحض اختياره · أما « أحمد أسعد » فقد صدرت له من ناحية أخرى تعليمات بأن يتصالح مع الحزب الوطنى ويشجعه ، وأن يراجع ، بوجه عام ، أعمال رئيسه ، وكان لكل واحد منهما « كود تلغرافى» مستقل ، وكان كل واحد منهما يسعى لأن يستفيد من وضعه ، أحسن فائدة شخصية ما أمكنه ذلك ، فقد رتب « درويش » بيع عقار له فى بلغاريا للخديو مقابل ثروة ، فى حين يبدو أن « أحمد أسعد » أفلح فى بيع شفرته ، وكان تعليق « أحمد رفعت بك » على زيارته ل « درويش » يصور بوضوح هذا الدور غير العادى للمؤامرة التركية فى مصر · فلقد كتب أحمد رفعت بك يقول : « فى يوم ٦ يوليو سافرت من القاهرة الى الاسكندرية لتقديم واجبات الاحترام ل « درويش باشا » ، قاصدا أن أعود فى اليوم التالى ، ولكنه طلب منى أن أؤجل سفرى ، وفى اليوم التالى طلب منى أن أقترح على « عرابى » ، بأسلوب صداقـــة ، أن يذهب « ليعيش مع السلطان » بالقسطنطينية ، وبذلك تنتهى المشكلة ، ففعلت كما طلب منى ، ولكن « عرابى » رفض الفكرة · بعث « درويش باشا » فى طلبى فى اليوم التالى أيضا وفى هذا اللقاء ، سلمنى فى يدى انعاما من السلطان يرفعنى الى رتبة مدنية مساوية لرتبة « اللواء » وقال لى أنه سيكون من الحكمة ألا أعلن ترقيتى لفترة (١) · وبعد ذلك اكتشفت أنه وزع سرا ، انعامات مماثلة على كثيرين » ·

وسرد على « رفعت » قصة توضح خداع درويش الصفيق : فى يوم من الأيام ، تحدث حديثا وطنيا عن موضوع الأسرة الخديوية ، وأكد فيه ، فى حضور « طلبه باشا » وغيره ، أنه صار من المحال الابقاء على أى من حفداء «محمد على » ، على العرش ، وبعد ذلك بفترة قصيرة ، ذكر لنفس

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب ·

الفصل الثالث والثلاثون

مصر الحاضر والمستقبل

اننى لأتساءل مرة أخرى ، هل كان « عرابى » زعيم الحزب الوطنى الذى كانت جذوره عميقة فى قلوب الناس بطول البلاد وعرضها ؟ وهل كانت الحركة التى تزعمها هى النتيجة التلقائية والطبيعية لنكبات وفاقة وآمال المصريين هل كانت مختلف بنود ميثاق « عرابى » الشعبى (اذا استعرنا هذه التسمية الغربية) من الممكن تطبيقها تطبيقا عمليا ، أو بمعنى آخر ، هل كان هناك أى احتمال أن يحاول أهالى مصر أن يسيروا وحدهم مع فرصة طيبة للنجاح ؟ ان أحدث الكتاب الأوربيين الذين أخذوا على عاتقهم أن يقصوا علينا كل شىء عن وادى النيل ، ويقدمون لنا فى الوقت نفسه حلا للمشكلة المصرية ، يصرون على بحث هذه الموضوعات العملية تماما كما لو كانت تمثل حقبة منسية من زمن طويل من الفكر الاغريقى أو الرومانى ٠ ويبدو أنهم سلموا من البداية أن الوطنية المصرية، حقيقة كانت أم زيفا ، قد تخطت مرة والى الأبد ، مجال سياسات الواقعية، وكما هم يقررون ، فان الموضوع كله يتيح دراسة طريفة للمؤرخ ، ولكنهم أعلنوا بنفس القوة ، أن موضوع التقصى ميت ـ وميت ولكنه حفظ الى الأبد ، بعيدا عن الأنظار ـ باعتبار أنه ينقصه الحيوية ، كأية مومياء من مومياوات الملوك المحفوظة فى المتحف المصرى بالقاهرة ٠ ولا نجد أمامنا فى النهاية الا تقرير فحص بارع عمن ماتوا سياسيا ، عن « عرابى » وصحبه ، وكانت تصاحب الفحص نتيجته وهى العلاج أو العمل المقترح ، ويبدو من فوره أنه كله مختلف ولا أمل فيه ٠

يجيب مستر « ماكنزى دالاس » (١) على أسئلتى الثلاثة التى طرحتها على قرائى (وهو يفترض أن تحرياته هى وحدها بالغة الأهمية من الناحية التاريخية البحتة) ٠ « منذ أيام « محمد على » أو ربما من تاريخ مبكر جدا ـ لم يكن فىمصر شخص على الاطلاق له قبضة قوية حازمة على البلاد ، مثل « عرابى » ، اذ لم يكن تحت امرته الجيش والبوليس فحسب ، ونتيجة لذلك كان فى موقع يرهب به من يشاء ، بل كان يتمتع أيضا ، كما أوضحت ، بعطف كل قطاع تقريبا من الأهالى الوطنيين ٠٠ لم يكتسب « عرابى » نفوذه ولم يحافظ عليه عن طريق الارهاب ، لأنه لم تكن له منذ البداية قوة ليلحق ضررا بأى فرد ، وطوال زمن سلطانه لم يتسبب فى قطع رقبة أى فرد أو شنقه أو رميه بالرصاص ٠ ولو أنه ذهب مع « توفيق » الى صناديق الاقتراع ، ولم تمارس كافة طرق التزوير فى النتيجة ، لحصل « عرابى » على أصوات الأغلبية الساحقة للناخبين الاحرار والمستقلين ٠٠ ولو كنا لا نعنى أن نقيم شيئا أشبه بنظام دائم فى مصر ، فلماذا جئنا الى مصر بالمرة ؟ لو كنا لا نعنى أن نقيم فى الواقع حكومة صالحة ، فلماذا قضينا على الحزب الوطنى الذى كانت لديه فرصة أفضل بكثير للحفاظ على نظام حكم مختلف عن حكم الخديو الذى أعدناه للحكم ؟ » (٢) ٠

ولم يتوقف « دالاس » عند هذا الحد ، بل أخذ يسترسل فى مناقشة « مواهب » « الخديو توفيق » فى صورة محايدة ، فكتب يقول : « لم تكن عند توفيق قط ملكة أن يشيع بين رعاياه المحبة أو الحماس ، ثم صار مكروها بكل تأكيد عندما وقف بجانب الأجانب ضد « عرابى » ٠٠ ان « الخديو توفيق » أبعد عن أن يوقظ أية مشاعر فى الناس ، ولم تكن له أية خصال لحاكم بعيد النظر ونشيط » ٠

ويتفق معى « مستر دالاس » على أن « عرابى » كانت مصر كلها معه ، وقد كان من المتوقع له النجاح فى اقامة حكومة صالحة لو ترك له الأمر وحده ٠ وليس كلانا على خلاف فى الرأى فيما هو واضح من افتقار الحاكم الذى فرضناه على المصريين ضد ارادتهم ، الى ممارسة الحكم ، ولكننا فى خلاف ، بصورة خاصة ، حول العلاج الذى يستطيع كلانا أن يصفه للمرض الفتاك الذى يهدد مصر ، ويبدو من حين لآخر مهددا بنتائج

---

(١) انظر كتابه : « مصر والمسالة المصرية . «Egypt and the Egyptian Question» ص ٣٧٩ ٠

(٢) مصر والمسالة المصرية ص ص ٣٧٧ ـ ٣٩٧ ٠

وخيمة • ان بضع كلمات تفوه بها « مستر جلادستون » ، رئيس وزراء انجلترا ، تفوه بها مؤخرا أقدمها كنص مناسب اذ قال : « أما وقد جئنا الى مصر ، فنحن ملتزمون بأن ندع الخديو يقف على قدميه وأن « نهيىء له بداية طيبة » واذا بقينا يوما واحدا أكثر ، بعد تعهداتنا لأوربا ، سنكون بذلك قد نكثنا بتعهدنا »

وجدير بالذكر أن « مستر دالاس » وشخصى عاجزان تماما عن أن نتفق على تعريف لطبيعة وظـروف « البداية الطيبـة fair start التى يعنيها « مستر جلادستون » ، فهو يقول (اذا لم أكن مخطئا فى فهمه) ان « حركة عرابى » أقرب ما يمكن لأن تكون شمولية universal وأن « عرابى » كانت مصر بأسرها معه وتسانده ، وأنه كان أمينا وعادلا ، حتى أن فرصة لاقامة حكومة صالحة ، كانت فرصا أحسن ، ولكننا ساعدنا على تحطيمه • وهو يعترف بأن الخديو توفيق ضعيف ، تعوزه الخبرة ، وليس جديرا بتولى زمام الحكم ، وبالرغم من ذلك ساعدناه ليستعيـد قبضته على رعاياه العصاة • ان ما فعلناه بالنسبة لهذا الاجراء قد يكون خطأ ، ولكن كما يقول « مستر والاس » « ما كان لنا أن نتطـلع الى الوراء » • ان من واجبنا ، بالضرورة ، أن نستمر فى احلال الجديد محل القديم ورتق القديم ، واصلاح هنا ورتق هناك ، حتى تدفع عجلة القدر بالجهاز المصرى الى الحركة مرة أخرى ، وتمكننا من أن نترك البلد ليهتم بشأنه • ومع ذلك ، يعترف « مستر والاس » بأننا قد رمينا بالأدوات الأحسن ملاءمة للعمل الذى أقررنا القيام به ، ونحن اليوم نستخدم أدوات غيرها ذات نوعية مشكوك فيها وغير صالحة • ويبدو أن « مستر والاس » يعتقد أن تغيير الخطط عادية قد يكون أمرا ممكنا ، ولكن يجب ألا يسمح لها بأن تتضمن اعادة رسم خطانا السياسية • وهنا الفرق الأساسى فى وجهات نظرنا ــ اننى اتفق مع « مستر والاس » (وربما أحس به أقوى من احساس مستر والاس به) أنه بوجه عام ، كان « عرابى » على حق وأننا كنا مخطئين ، واننى اعترض على الابقاء على نتائج خطئنا بأى منهج ترميم أو آخذ بأنصاف الحلول أيا كانت كياستها • اننى أقولها بشجاعة ، اننا يجب أن نفعل بموجب معلومة « مستر والاس » ــ وهى معلومة قيمة ومحايدة ــ المعلومة التى قدمها لنا عن موضوع « الوطنية المصرية » ، واصلاح خطأ أساليبنا • ان علينا أن نفعل مثلما أراد « سـير ادوارد ماليت » لنا أن نفعله في المحنة التى بدأت بالمذكرة الثنائية The Dual Note وانتهت بضرب الاسكندرية (١) : « يجب أن نلجأ الى الحزب الوطنى » ،

---

(١) انظر الفصل العاشر من الكتاب •

وعرابى وصحبه يجب أن يسمح لهم بالعودة من « سيلان » ومساعدتنا فى « البداية الطيبة » فى مصر — وهى مهمة تختلف أساسا عن مجرد « بداية طيبة » شخصية لصالح الخديو ، وهم بكل تأكيد ، لن يتركوا لنا سببا لنندم على كرمنا وان ولاءهم الواضح الذى أظهروه وهم فى المنفى ، سيستمر ، وأنا واثق منه ، كما أن الخبرة بالنكبات لن تذهب كلها سدى ، وان حماية معنوية قائمة على تعاطف الشعب المصرى لن تكون ، على ما أعتقد ، أقل قوة من السيادة الفيزيائية التى ظفرت بها قوة عظمى فى المعركة ، والتى يعتمد وجودها ذاته ، الى حد كبير ، على مظهر القوة الذى يمكن أن نبقى عليه للحفاظ على ذكراها متجددة فى أذهان المهزومين · لو أن النفوذ الانجليزى فى مصر جاء اذن ليستقر على أساس من الحب والشكر ، لتحدى على الفور كلا من المؤامرة التركية والعداوة العسكرية لقوات البلاد ·

ان اقتراحى الأول ، لتحل على مصر السعادة ، وهو اللجوء الى الحزب الوطنى وعودة الوطنيين ، قوبل بصيحة استنكار ، ولكنى سأشرح فكرتى ، وقبل أن أشرحها أود أن أذكر أن موكلى « أحمد رفعت بك » عند سفره ؛ أعطانى بيانا موجزا عن طبيعة وامتداد حركة الحزب الوطنى مصحوبا ببعض ايضاحات عملية للمقدرة الادارية التى أحدثها ، كما قال ، ولقد نشرته ليكون أحد ملاحق هذا الكتاب (١) ، وربما سيساعد قرائى فى تكوين رأى بالنسبة لاحتمال استدعاء الوطنيين باعتبار أنهم يشكلون نجاحا كبيرا ، نظر لأن عودة الخديو لتولى حكم البلاد برهنت على أنها علامة فشل وجالبة للأذى والنكبات ·

ان اقتراحى اللجوء الى الحزب الوطنى هو من قبيل أنه طرف سابق لفكرة « بداية طيبة » لمصر ، اذ أن عودة الوطنيين لا يتضمن ثورة كاسحة ، اذ لا يحتمل أن يكون « توفيق » و « عرابى » ربانين لنفس القارب ، ونتيجة لذلك فمن المحتمل أن سموه سيجد نفسه مضطرا اما للاستسلام أو التنازل عن الحكم ، ولما كان المستحيل غالبا ما يحدث فى الشرق ، فان أسلوب التعايش modus vivendi بينهما يمكن أن يقوم ، ولكن يكاد يكون أمرا محتوما وضع حد لكل فرصة واقعية نتيجتها مرضية · اننى أترك لقارئى أن يحكم على الخديو توفيق حكما هادئا من قراءته لهذه الصفحات· لقد كان حكم « مستر والاس » بالنسبة لمواهبه أكثر مما يفى لغرضى · كان توفيق ، بمثابة الرمل الذى اخترناه لنقيم عليه بيتنا فى مصر ، ولن

---

(١) انظر الملحق رقم (١) [المحقق]

يدهشنا أن يتساقط بالفعل حول آذاننا · وسواء قبلنا أم لم نقبل ، فان « توفيق » مقدر له عاجلا أو آجلا أن يسقط حسابه فى أى برنامج مفيد لمستقبل بلده · ولما لم يكن أى جانب يثق فيه ، لذلك ، فان كل الاطراف سيهمها سقوطه فى قليل أو كثير ، ولو صحت الشائعة ، فانه يعد العدة بالفعل لنفى مريح وكريم ، بعيدا عن وادى النيل ؛ حيث لن يخلف وراءه من ذكرى سوى أنه أضعف حفيد ل « محمد على » وأكثر حاكم كرهه الشعب فى الأسرة الخديوية ، وأنه لم يعينه الا غاز أجنبى ·

ان انسحاب « توفيق » لا يتضمن بأى حال من الأحوال أى تغيير فى الأسرة الحاكمة ، ولكن من بين أمرائها من المتوقع أن نجد أكثر من واحد على استعداد بل وقادر على أن ينقبل المبادىء التى نادى بها « عرابى » بالفعل والقول · ان عودة « الوطنية المصرية » لن يكفيها أن نكتب خطابات فياضة مؤيدة ومتبنية لسياسة ، ولكن خديو هذه الحقبة من تاريخ مصر ، من واجبه هو نفسه أن يحمل الراية التى شعارها « مصر للمصريين » ، وأن يساهم فى مخاطر ونكبات المعركة · لم يسع « عرابى » على الاطلاق الى تقويض العرش الذى أقامه « محمد على » أو الى أن يصبح حاكما لمصر هو نفسه · لقد جاهد طويلا ، وبلا جدوى ، ليعمل يدا بيد مع « توفيق » ، ولم يتخل « عرابى » عن ذلك حتى شاهد برهانا فى اثر برهان على عدم الاخلاص من جانب الخديو · عندئذ أدرك عدم جدوى أية محاولة أخرى · وحتى ذلك الوقت ، كان من صميم ولاء « عرابى » أن يحمى ويحرس حياة وشخص حاكمه كحمايته وحراسته لحياته هو نفسه ، حتى ذات الساعة التى غادر فيها « توفيق » قصره فى الرمل لينضم الى القوة الغازية التى سبق للخديو أن أمر بشن الحرب عليها منذ بضع ساعات قليلة فقط · ولما لم يكن عند « عرابى » طموح شخصى ، فقد كان يسعده أن يعمل بسرور من أجل الصالح العام لمصر تحت قيادة أى رئيس سياسى مخلص لأمانته · ان وصول مثل هذا الحاكم الى السلطة يجب أن يكون جزءا لا يتجزأ part and parcel من عودة « الوطنية المصرية » ·

وقبل الدخول فى تفاصيل أخرى متصلة بهذه العودة الثانية التى لابد أن تسعى انجلترا لاتمامها عاجلا أو آجلا ، لتهيئة « بداية طيبة » لمصر وعدتها بها ؛ فاننى لا يمكننى أن أمسك عن الاشـــارة الى نقطتين اخريين ؛ فيهما أتجرأ وأعرض على النتائج التى وصـــل اليها « مستر والاسى » · اننى أعتقد أن تقديراته النسبية لشخصيتى : « نوبار باشا »

---

(١) انظر الفصل الحادى والثلاثين من هذا الكتاب ·

و « الخديو اسماعيل » خاطئة الى حد كبير : ف « نوبار باشا » ، وهذا أمر أنا متأكد منه ، لا يمكن أن يأمل أبدا فى أن يسمح له بالمشاركة فى العودة المرتقبة للوطنية المصرية ، اذ كان وجوده فى الحكم كله معارضة مستمرة لنفس الفكرة الأساسية للوطنية المصرية ، فنوبار والوطنية لا يمكن أن يتعايشا فى مكان واحد ، مثلما هو حال « عرابى » و « توفيق » . ان انطباعي الشخصى عن « نوبار » يضعه ، حتى من الناحية الثقافية ، دون مستوى سواء « شريف » أو « رياض » ، وفى كل من شريف ورياض خاصية أخرى نوبار دونهما بصورة لا يمكن قياسها ، ف « نوبار » أكبر خبير التقيت به ، يهتم بالنكت المبتذلة . انه يعرف ذوق من يسعى اليهم من أجل الوصول الى الكمال . ان المعدن الذى صـــنع منه معدن حساس ، له طلاء أوربى أكثر رقة من الطبيعة التى يمكن الاعتراف بهـــا لمنافسيه الاثنين ، ونتيجة لذلك ، يتخيل المراقب العرضى أنه قد وجد فى نوبار علامات تصفه بالتفوق ، ولكن « نوبار » يمثل نفوذا ميتا قد ولى ، وهو أقل اهتماما ، ان لم يكن بلا اهتمام ، بمصر المستقبل ، ولم يكن فى الماضى أكثر من دليل لأماكن المتعة والترفيه التقليدية traditional Fleshpets ذات مرة ، ذكر نوبار ل « لورد بيكونسفيلد «Lord Beaconsfield انه ليس هناك من شىء تحتاجه الامبراطورية التركية لتستعيد نشاطهـــا الأصلى سوى المحاكم والشرطة . ولم يضحك أحد من كل قلبه مثلما ضحك هو عندما اقتبس رئيس وزراء انجلترا نص كلماته عـــلى اعتبار أنهـــا كلمات « سياسى شرقى كبير » ، سواء فى البرلمان أو فى مكان آخر . وقال تعليقا على ذلك لصديق له : « يا صديقى العزيز ، ماذا تريد ؟ ان ما يفهمه الانجليز شىء مختصر ومحدد فقط ، ولذلك أحاول أن أرضيهم » ويتظاهر نوبار الآن ، على ما أعتقد ، بأنه ليس فحسب وطنيا غيورا بل ومن رجال المال الأصفياء من النمط الأكثر عنادا ، ومع ذلك ، فهو الآن أغنى من كل الأسرة الخديوية مجتمعة ، مع أنه بدأ حياته كاتبا سوريا ذليلا . فى أول بداية حياته تلقى مساعدة مالية من الخديو اسماعيل ، ولم يعرف أحد قط أنه اشترك فى صفقات تجارية . انه اليوم يسب سيده السابق ، ويحلم بحلمه الذى يتمناه فى المستقبل وهو قيام « نظارة نوبار [illegible] تكوان »(١) ولكنه حلم لن يتحقق . لقد سقط النقاب من على [illegible] جامع المال السورى [illegible] ان [illegible] « مطر للمصريين » لا يمكن أن [illegible]

[illegible]

---

(١) أو بمعنى آخر « نظارة عائلية » ، اذ كان « تكوان [illegible] نوبار »
[illegible] (المحقق)

عندما خضعت كل أملاكه وأملاك أسرته ضمانا لقرضين عامين ٠ واذا كان الفلاحون قد دفعوا ضرائب فادحة في عهده ، الا أن مصالحهم كانت بكل تأكيد محمية بصورة فعالة عما هي عليه في عهد « توفيق » ، فقد كانت الرعاية اليقظة الدائمة بالنسبة للرى ، قد جعلتهم أقدر على تحمل أعباء أكبر في عهده عن الأعباء الأقل التي يتحملونها اليوم ٠ لقد كان جمع الضرائب بعد أو وقت الحصاد أنسب الى حد كبير لطبيعة وظروف الفلاح عن دفع الضريبة شهريا أو ربع سنوى ٠ والفلاح المصرى ، كما هو معروف عنه ، مغامر ، ومولع بأن ينفق في حرية دخل كده وعنائه ، وما لم تجمع الضرائب عندما تتوفر له نقود ، كما كان في الماضي ، فانه لا يلبث أن يحطم نفسه (كما يحدث الآن) على يد المرابي في القرية ٠

ان أحسن رد على الادعاء هو الاشارة الى المشكلة الصارخة ، مشكلة ديون الفلاحين ، اذ عندما ذهب اسماعيل الى المنفى كانت هذه الديون قد بلغت مليونين من الجنيهات ، أما في عهد توفيق فقد تخطت الاثنى عشر مليونا ، ومع ذلك ، فان « مستر والاس » يصر على أن « اسماعيل » هو المسئول عن هذه البلية أيضا ٠

أما عن الطغيان في عهد « اسماعيل » ، فقد كان « الكورباج » موجودا قبل عصره ، وعاصر اختفاءه ، ومع ذلك ، كان هناك مزيد من الطرد والنفي والسجن طوال سنتي نظارة رياض « الأبوية » عن طوال سنى حكم « اسماعيل » بأسره ٠ اذا كان لبطون أقدام الفلاحين أن تشهد ، لشهدت ضد الأب ، ولو كانت شواطىء نهر النيل بليغة هي الأخرى لشهدت ضد « الابن » ٠ وكان اسماعيل ، على شاكلة كثير غيره من الحكام ، مجرد فرد فقط لم يحقق نجاحا ضخما ٠ وعندما أدرك أخطاءه والى أى مدى غدر به ، صمم على أن ينصف « الوطنية المصرية » ٠ لقد رفضت أوربا أن تسمح له باكمال تجربته وأرسل الى المنفى ٠ لقد مرت بمصر أحلك الأيام منذ غادرها ، ووسط هذه الفوضى الشاملة ، فانه لمن أسوأ الأمور أن حاكم البلاد الذى كان له نفوذه فيها يوما ما ، يغادرها الى منفاه ٠

وكتب « مستر والاس » قرب نهاية كتابه : « لم يكن في استطاعتي أن أكتشف في مصر أى عنصر وطني راغبا أو قادرا تلقائيا على أن يتكفل وينفذ بنجاح الاصلاحات التي أعتقد أنها هامة بصورة مطلقة للحفاظ الدائم على النظام وعلى الخير العام للبلاد » ، ولكن الاصلاحات التي يتحدث عنها « مستر والاس » ، كما سبق أن ذكرت من قبل ، مماثلة

لبنود « ميثاق عرابى الشعبى Arabi's Popular charter » ، ويعترف « والاس » بصراحة بأن « عرابى » كان أقدر من أى واحد غيره علـى تنفيذها . ولذلك فأنا فى حيرة من أمر « مستر والاس » : لماذا يتجاهل النتائج الحتمية لاعترافاته الذاتية ويعجز عن أن يجد الحل لمشكلة التى يثيرها فى عودة « الوطنية المصرية » التى يعترف بوضوح بمداها وقوتها .

وهناك خطر بالغ فى التأخير . لقد علمتنا خبرة اثنى عشر شهرا . علمتنا الكثير ، أن آخر عودة للخديوية كانت اكبر خطأ سياسى ، اذ لو أن انجلترا أيدت « عرابى » والوطنيين ، لظفرت بتعاطف مصر كلها ، ولصارت من دون كافة الألقاب « الحامية » لها ، ولكن كما هو واقع ، أما ما نشارك فيه فقط هو فى كراهية الشعب العميقة الجذور للشخصية المكروهة التى تحميها protage (١) ، وفى النظرة اليها فى افريقيا على أنها عـدوة لذات النظم التى ساعدنا فى تسليمها لنصف أوربا . بل ان حملة أسهم قناة السويس من المصريين أنفسهم قل أن استفادوا من الأسلوب الذى راعت فيه مصالحهم المالية لأن البلد ينحدر ببطء ، بل وبصورة مؤكدة ، الى الافلاس . ان الأخطاء والمغالطات الأساسية التى تكمن تحتها كل خططها للاصلاح والتطوير هى دائما بمثابة رحى ربطت حول عنقها . قد كانت فرصتها الوحيدة للأمان تتمثل فى التراجع الكريم وفى أن تلغى بصراحة ما قامت به . ان المهمة مهمة صعبة ، ولكن يبدو أن « مستر جلادستون » لا يحجم عنها تمثلا بقول الشاعر :

« بوابات أفيرنس Avernus (٢) مفتحة نهارا وليلا ،
« والهبوط هادىء والطريق ممهد .
« ولكن العودة مرة أخرى الى ضوء السماء الصافى
« ان هو الا عمل جهد ومشقة » .

واذا رجعنا مرة أخرى الى الآراء التى كان يسلم بها جلادستون فى سنة ١٨٧٧ (٣) ، عن مصر لوجدنا أنه كان صادقا فقط لتقاليـد

---

(١) الشخصية المقصودة هى شخصية الخديو توفيق . (المحقق)
(٢) هو الاسم الذى كانت تطلقه الأساطير على العـالم السفلى lower world الذى اشتق اسمه من بحيرة أفيرنس Lake Avernus فى كمبانيا Campania بايطاليا . (المحقق)
(٣) انظر مجلة القرن التاسع عشر Nineteenth Century عدد أغسطس ١٨٧٧ . مقالة بعنوان « عدوان فى مصر Aggressicn in Egypt »

اتهم بقلة الحياء وهى تهمة لا تغتفر . وقد وضع فى الفور أسلوب المبادلة reciprocity ، واقترح مستشارو الخديـــو القانونيون مبدأ أفلاطونيا محصنا للرد على أية أســـئلة هو « لا نســـتطيع «non possumus وكان على مصر أن تقترض قرضا جديدا ، نتيجة لذلك . ولو كان قد ترك لمصر أن تبدأ « بداية طيبة » لأتاحت لانجلترا أن تساعدها على الفور . ولتمكنت من مراجعة أعمال هذا القومسيون الدولى التى كانت أكثر مبالغة فى مجاملته .

لقد سمعنا القدر الكبير عن ديون الفلاحين . لقد وقع فلاحو مصر فى قبضة المرابين ، وكادت تكفى ديونهم لتجر محنة أخطر من أن توصف. ويبدو أن الفلاح المصرى فى حاجة الى نوع من الرعاية الدائمة خوفا من انقراضه . نحن نسمع من حين لآخر عن هذا البنك وذاك المنتظر انشاؤه لينقذ الفلاح كانسان ، ويقرضه المال بفائدة قدرها ٦٪ أو ٧٪ ليســـدد دائنه الذى أقرضه أصلا قرضا بفائدة ٥٠٪ أو ٦٠٪ ، ولكن يبدو أن شيئا من ذلك لن يتحقق ، اذ أن البنوك وغيرها من الشركات المالية لم تكن لها ميل خاص لعملية لن تجبى من ورائها الا الكسب الهزيل ، بعد أن التهم « ديمترى Diemetri» وصحبه ما التهموا بالفعل ، من مكاسب فى يسر تام ، ولذلك لم تكن الأمور لتتقدم فيما وراء مرحلة خطة غير مقبولة ، ولكن هذا المشروع لابد أن يســوى يوما ما عن طريق تحر محلى دقيق ، وعن طريق تخفيض كاسح لفوائد المرابين وانشاء محاكم خاصـــة لتحديد الاستحقاقات فى الحالات الفردية . انه لمـــا يؤسفنى أن أرى موضوعا بمثل هذه الأهمية الحقيقية قد تأجل لموسم ، ولكن ما من شك فى أنه سيلقى الاهتمام المناسب بعد عودة الوطنيين ، و « عرابى » سيساعد « مستر ادجارفينسنت Mr. Edgar Vincet» الى حد كبير ، فى أن يصل مع من يعرفهم حق المعرفة ، مع مرابى القرى ـ ـ « الأفاعى » كما اعتاد أن يدعوهم ـ الى اتفاق ، كما أن سلطات « يعقوب سامى » التنظيمية يمكن استخدامها لما فيه الصالح العام .

أما عن الأحداث التى أعقبت « عودة الخديوية » ، فيمكن ايجازها فيما يلى :

جاء مسيو بارير Mr. Barère الذى عين مؤخرا قنصلا عاما لفرنسا، يحمل نياشين جديدة من باريس لكل من بلوم باشا Blum Pacha وصديقى السابق بوريللى بك Borelli Bey وتولى ا. ت. روجرز بك E. T. Rogers Bey فحص قضايا الجلد على الأقدام bastinado فى طنطا بالرغم من الالغاء الرسمى للكوربـــاج . وأوقفت جـــريدة

« انبرهان » عن الصدور لاساءتها للانجليز · « وبالرغم مما ل « بوريللى بك » من علاقات لا تخفى على أحد ، بجريدة فرنسية معادية عداء مرا لانجلترا ، فقد كان الخديو على وشك أن يمنحه الباشوية ، نظير خدماته التى قدمها للبلاد » ، ومع ذلك كان لا يزال هناك أمل فى بلسم كان يترقبه الفلاحون وهو انشاء بنك التسليف العقارى Credit Foncier فى مصر يسمح بقرض الفلاحين أموالا لسداد ديونهم القديمة نظير فائدة قدرها ٧٪ ، بشرط أن تقوم الحكومة بجمع هذه الفوائد منهم فى نفس الوقت الذى تجمع فيه الضرائب ، ومن بين الأحداث الأخرى أن المحلفين الهولانديين الاثنى عشر الذين وقع عليهم الاختيار للعمل بالمحاكم المختلطة الجديدة ، من المتوقع مجيئهم للقاهرة ليبدأوا دراستهم للغة العربية توطئة لأن تسند اليهم فى النهاية وظائفهم الرسمية ·

وعند مثول هذا الكتاب للطبع ، واجهت انجلترا ومصر مشكلة أخرى لم يسبق لها مثيل فى عظمتها وخطورتها والتى كانت تلوح غامضة فى الأفق من بعيد خلال السنة الماضية · أقد سبق لى أن وصفت (١) كيف أنه ليلة عيد الاضحى (٢٣ من أكتوبر ١٨٨٢) وصلت أنباء الى القاهرة ، أن المهدى انتصر انتصارا حاسما فى السودان ، ولم تكن الانتفاضة التى تزعمها الا نتيجة طبيعية لضعف وعدم تنظيم الادارة التى حلت محل الحكم الأوتوقراطى القوى فى عهد اسماعيل · ان غياب « اليد التسلطية masterful hand» صار أمرا ملموسا سواء فى مصر أو فى أبعد ملحقاتها · وقد بدأنا الآن فى ادراك النتائج ، ولم يكن للمهدى دخل بوجه عام ، بالمصريين فى دلتا النيل ، وكان كل ما يهدف اليه هو اقامة سيادة سياسية ودينية جديدة ، وأن يقذف ب « توفيق » و « عرابى » الى البحر اننى أذكر أننى لما تحدثت مع « عرابى » ، وقتها ، عما يهدف اليه المهدى قال لى ان تسريح الجيش قد وضع مصر كلها تحت رحمة المهدى ما لم تستطع مصر الاعتماد على حماية القوات البريطانية لها · وقال عرابى : « ان مهدى السودان عدو للعرب ، لأننا نعرف أنه محتال · نحن سنيون ، ونعلم أن خلاص الاسلام أتى من الجزيرة العربية من قبيلة قريش التى أنتمى أنا نفسى اليها ، ومن واجب المصريين أن يقاوموا جميعهم المهدى على اعتبار أنه عدو خطير ، ولكن الفوضى التى تتفشى فى أرجاء البلاد ستتيح حتى لهذا الدرويش الافريقى فرصة للنجاح » ·

وعلى الفور ، صار أمرا ضروريا ارسال تعزيزات الى المناطق التى

---

(١) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب ·

بها قلاقل ، ولكن كيف يتم هـــذا ؟ ان الجيش المصرى بأسره قد سرح رسميا بهدف تحطيم أى أمل بعيد فى احياء كل بصيص اوطنية كامنة · ولم يكفهم نفى « عرابى » وتجريده من رتبه ، بل قالوا ان عار وخزى الزعيم يجب أن يشاركه فيه كل ضابط مرءوس له ، بل وكل نفر فى الجيش كان يحارب تحت الراية التى كان يحملها وازاء هذا الموقف المتدهور فى السـودان ، وكل الأمر بسرعة الى الكولونيل هكسColonel Hicks ورفاقه الشجعان ، وتوقفت عملية تسريح الجيش واهانته ، وأمكن جمع ما يمكن جمعه بقدر كاف من الجند المسرحين والمهـانين لينضموا تحت لواء الكولونيل هكس ، وقد شاهدت بنفسى نواة فرقة السودان وهى تغادر القاهرة فى طريقها الى السويس · لقد كان مشهدا مؤسفا لا يمكن أن ينسى ، اذ وضع الجنود المصرية فى عربات نقل وعربات نقل المواشى ، كما لو كانوا حيوانات · لقد غادروا العاصمة عزلا من السلاح كمساجين مهانين بكل صور الاهانة ، أما ضباطهم الوطنيون فقد اختيروا من بين من كانوا أكثر كراهية لنظام الحكم الجديد ، وكان نفس تعيينهم اجراء جهروا به وأعلنوه على أنه بمثابة عقوبة وقمع لهم وفى أول يناير ١٨٨٣ ، رست باخرتان بحذاء الرصيف فى السويس واحتشد ظهر واحدة منهما بالجنود المسرحين والمهانين من الكتيبة الأولى التى كان « عرابى » أميرالايا لها ، وعلى ظهر الثانية « وقف عرابى » وستة من رفاقه · وبعد ذلك بساعة أو ساعتين ، أجبر الجنود المصريون العزل من السلاح أن يشهدوا فى صمت كئيب الباخرة « المريوطية Mariotis» (التى كان مسافرا عليها عرابى وصحبه منفيين خارج بلدهم) وهى تبحر عبر البحر الأحمر وجهتها « سيلان » · وعندما صار ضروريا ، بعد ذلك ، ارسال مزيد من التعزيزات الى السودان ، كانوا يبعثون بتعزيزات الى السـودان ، كانوا يبعثون بتعزيزات بنفس الطريقة · وقد أرسل بدفعة أخرى من الجنود الى الجبهة وهم عزل من السلاح ، وكانوا يضربونهم وهم مكبلون فى الأغلال ، بل ان فرقة « عبد العال » المسماة بالفرقة السوداء ، التى كانت تعتبر زهـرة الجيش المصرى ، بعثوا بها لتحارب المهدى ، مع كل ما لقيته من المزيد فى الامتهان ، الأمر الذى دفع بهم الى الفرار والتمرد · ولم يكن هناك ما يبعث على الدهشة من أن الكولونيل هكس كان عاجزا هو نفسه عن الصمود بمعاونة مثل هذا الحشد الذى لا فائدة منه ، وما لبثت أن بدت النهاية : اذ بعد مضى ثلاثة عشر شهرا تماما من وصـول الأنباء الى القاهرة عن أول نجاح للمهدى ، علمت انجلترا كلها أن الجيش المصرى مع ضباطه الأوربيين ، أبيدوا جميعا فى مسيرتهم الى « الأبيض » ، ولم

يكن هناك من شك فى أن التعطش البالغ للانتقام ، وهو ما اتسمت به الأيام الأوائل من « عودة الخديوية » ، قد أسهمت أساسا فى هذه الكارثة المؤسفة ٠

انه من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، القول بأى اتجاه ستتخذه الأمور : فالمهدى المنتصر قد يتقدم الى الخرطوم أو ربما يرضى بنجاحه الراهن ، بل ان تفاصيل الصراع الخطير تكاد تكون غير كاملة تماما ، ولكن لن يأتى هذا التخمين بنتيجة ٠ على أن سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker قد طرح الوضع كله بوضوح أمام أعيننا (١) فهو يذكر لنا أنه لا جدوى من لوم الأشخاص المخطئين على ما حدث ، وأن التخلى عن السودان محفوف بالصعاب والخطر ٠ لقد علمنا أن النكبات الراهنة ان هى الا نتيجة غير مباشرة لطموح « اسماعيل باشا » ، ويعلن سير صمويل بيكر ، من ناحية أخرى ، ان اسماعيل كان مصمما على الغاء تجارة الرقيق « من محض الاحترام للمشاعر الانجليزية » ، وكتب سير صمويل بيكر يقول : « لقد كانت عند صاحب السمو اسماعيل باشا فكرة ضخمة هى الغاء تجارة الرقيق واقامة تجارة مشروعة مكانها ، ووضع أساس لحضارة المستقبل بأن يخضع لحكمة هؤلاء المتوحشون المزعجون الذين لا يعرف عنهم التاريخ شيئا حتى الآن ، اذ ما من بلد ضمه « اسماعيل باشا » الا وخربه صيادو العبيد slave-hunters ان النكبة التى حدثت ، لتصور تصويرا صادقا الضرورة الملحة لحكم قوى فى مصر ، والرغبة فى اقامة حكومة للبلاد ، بأسرع ما يمكن ، على أساس قومى ٠ ان أنصاف الحلول لن تؤدى الى تفاقم خطر الموقف ٠ اننا لا يمكننا أن ننقذ مصر بارسال قوة بوليس الى « سواكن » حتى ولو كنا نعتمد على ولاء كل فرد عضو فيها ، ومع ذلك ، فانه عندما نسمع أن ما يقرب من نصف الكتيبة هربت ما بين القاهرة والسويس ، يمكننا أن نشكل فكرة من الصعوبات التى لابد أن نتوقع مواجهتها ٠

ولو بذل « سير ايفلين بيرنج » (لورد كرومر) و (بيكر باشا) وأمثالهما ، أقصى ما فى وسعهم ، فستذهب جهودهم سدى (٢) ٠ ولو

---

(١) انظر جريدة بول مول Pall Mall Gazette ، عدد ٢٧ نوفمبر ١٨٣٨ ٠

(٢) جدير بالذكر أنه بعد مقتل « مكس باشا » الذى قاد حملتــه ضد المهدى ، أسندت ادارة مديرية خط الاستواء ، الى « غوردون باشا » الذى حارب المهدى على مدى سنتين (١٨٨٤ ــ ٨٥) ، وقتل غوردون ، ولم تسترجع مصر السودان الى سنة ١٨٩٨ ٠
(المحقق)

الملاحق

ملحق رقم (١)

الخطاب الذى بعث به أحمد رفعت بك الى « برودلى » يزوده فيه ببعض بيانات سريعة تفيده عن :

الحركة الوطنية - الاجتماعين الأول والثانى للجمعية الوطنية بالقاهرة ، وتعريف بالمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى ٠

ملحق رقم (٢)

بعض نماذج من وثائق الثورة العرابية ٠

ملحق رقم (٣)

مراجع التحقيق ٠

ثانيا ـ بالنسبة للاجتماع الأول للجمعية الوطنية بالقاهرة :

تستطيع أن تؤكد وأنت آمن أنه كان اجتماعا تلقائيا وفي حرية ودون أن يخضع بالمرة لأى تأثير بارهاب من أى نوع ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ أن دعوات الحضور نظارة الداخلية هي التى أصدرتها ، وكانت خطابات الدعوة مختومة وموقعا عليها من وكيل نظارة الداخلية، ولم يوقع عليها زميله « وكيل الجهادية » • وقد جاء المدعوون ، بما فى ذلك عدد ضخم من الشخصيات العامة ، جاءوا من تلقاء أنفسهم وبدون اى نوع من الضغط •

٢ ـ لم تكن هناك أية كلمة أمر ، ولم يكن الاجتماع مظهرا لقوة مسلحة ، وتركت الأبواب مفتوحة على مصراعيها أثناء المناقشات • وبعد قراءة الخطاب الذى طلب فيه عرابى قرار الشعب ، وبعد قراءة الوثائق الملحقة به ، غضب عدد كبير من الحاضرين ، وبخاصة العلماء والكنسيين، غضبوا من مسلك الخديو ، وكانت رغبتهم اقصاءه عن العرش فورا استنادا الى الشريعة الاسلامية الحنيفة • وقد رفع البطريرك الأرمنى ، لطيف باشا ، الذى كان أميرالا زمن محمد على الكبير ، رفع هو وغيره الأمر الى السلطان ، الذى يرفع اليه سلوك الخديو ، معربين عن رأيهم• أما عكوش باشا ، الذى كان من أشد الموالين للخديو توفيق ، فانه لم يحاول أن يخفف من خطورة الحقائق الموجهة ضد الخديو ، بل أعرب عن رأيه ناصحا باجراء تحرى فى الأمر ، وأما على مبارك باشا (الذى لم يكن خيرا من البطاركة الأرمنيين واليونان والأقباط ، والذى ادعى بأنه كان فى أية صورة مضطرا لحضور الاجتماع) فقد اقترح ارسال لجنة الى الاسكندرية للتأكد مما اذا كان الخديو ونظاره هم فى الواقع سجناء أم لا ، فاذا وجد أنهم ليسوا بسجناء ، يدعون للعودة الى القاهرة لتولى زمام الحكومة • وقد أقرت الجمعية هذا الاقتراح وقررت فى الوقت نفسه أن تبعث بتقرير كامل عن الظروف الى « الباب العالى » و « قصر يلدز » • وقد أمكن الوصول الى حل معتدل ، وكانت حرية المناقشة التى اتسمت بها التصرفات برهانا كافيا فى ذاتها على عدم وجود أى ارهاب بالمرة •

طالما أن خط الرجعة الذى هيأته البلاد بين القاهرة والسودان ، ما زال فى أيدى المصريين ·

٨ ـ أعرب « عرابى » عن استعداده على الفور ، لقبول هذا القرار الذى انتهى اليه المجلس ·

٩ ـ أعد المجلس خطابا موجها الى الخديو ، وكانت مسودته قد كتبها « ابراهيم باشا خليل » ، « وبطرس باشا » ، وقد نوقش فى المجلس فى حرية ·

١٠ ـ حتى الأميران « ابراهيم » و « كامل » اشتركا فى هذه المداولات ·

وبعد ، فهذه المذكرات قد تساعدك فى أن تعرف الحقيقة عنا ، عندما لن نراك بعد اليوم ·

احمد رفعت بك

القاهرة فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ ·

وثيقة رقم ٢ ـ تقرير كتبه احمد عرابى باشا فى سجنه الى مستر برودلى عما حدث له عقب تسليمه سيفه ونفسه للجنرال لو Lowe وانتقاله الى السجن المصرى ، وما لقيه من اهانة فيه ٠

وثيقة رقم ٣ ـ تقرير كتبه عبد العال باشا حلمي الى مستر برودلي عما لقيه من الظلم والغدر والاستبداد من رجال الحضرة الخديوية عندما أودع السجن المصري .

تابع محضر استجواب احمد عرابي

[١٠٧]

وثيقة رقم ٥ ـ صفحة من محضر استجواب أحمد عرابى باشا امام قومسيون التحقيق ، ويقضى باحكام الله فنقض العهد واحدث الفتن بين المسلمين وشق عصاهم ثم انتهى به الأمر الى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ... » وفيه اشارة الى الاستفتاء الذى كان يشغل عامة الشعب وقتـذاك وهو

جناب المحامي عن المستر برودلي زيد فضله

يا حضرة ... في ليلة الأربع الموافق ٤ محرم سنة ١٣٠٠ في الساعة ثلاثة عربي

وربع الموافقة الساعة ثمانية وربع افرنكي بعد الظهر من يوم ١٤ نوفمبر ٨٢

نظرت عربات كثيرة تأتي في الشارع وتقف عند باب السجن العمومي

ثم يعود بعضها [illegible] أن هذا لدي غير اعتيادي وبخروجي الى محل

الراحة علمت ان المجلس منعقد ... ان الوقت وحيث ان ذلك غير

معتاد نحصل عندنا فكر زايد نرجوكم استكشاف هذا الامر والوقوف

على اسباب ذلك لحفظ المسجونين ٤ محرم سنة ١٣٠٠

وثيقة رقم ٦ ـ رسالة عاجلة بعث بها احمد عرابى باشا الى محاميه مستر برودلى ، يطلعه على ان عربات كثيرة تاتى فى الشارع وتقف عند باب السجن العمومى بعد الظهر ثم يعود بعضها ، ولاحظ ان المجلس (قومسيون التحقيق) منعقد (على غير العادة) ، فساوره الشك ، وطلب من محاميه تحرى الأمر حفاظا على المسجونين .

من تلقاء نفسي وحسبما أشار به علي الافوكاتو المحامي عني فاني اعترف على نفسي بالجناية التي نسبت الي ليصدر عفو عني محمود سامي

الى سعادة اللورد دوفرين

اني اتعهد بانه حالما تولى بعضه رجل عسكري اني اقيم في المحل الذي تعينه لي الحكومة وحالا عند تركي مصر

امتثالا لما صدر به الحكم علي السابق محمود سامي

وثيقة رقم ٧ ـ كان الاتفاق قبل المحاكمة العسكرية للزعماء السبعة ان يوقع كل واحد منهم اقرارين :

(أ) اقرار بالاعتراف على نفسه بالخيانة التى نليت عليه (وهى عصيان أوامر الخديو) حتى يصدر بعده مرسوم خديوى بالعفو عنه ·

(ب) اقرار بأن يقيم فى المحل الذى تعينه له الحكومة عند تركه مصر ·

وفى هذه الوثيقة الاقراران المذكوران وقعهما محمو سامى باشـــا البارودى ، باعتباره احد الزعماء السبعة الذين كانت احكامهم متماثلة ·

جناب النبيل سني الهمم الكبير برودلي افوكاتو المحترم

[illegible] لجنابكم واجبات الثناء بكل اخلاص كما [illegible] بما ان هذا الخطر الذى [illegible] ذلك السعادة [illegible]

[illegible] وقد زالت [illegible] الحالي هذا الخطر [illegible] السرور [illegible] ودوام [illegible] جنابكم [illegible]

التي اوجبت [illegible] العدل [illegible] جنابكم الطاهره [illegible] ايام السعاده لجنابكم [illegible] ولذلك [illegible]

[illegible] البارى تعالى [illegible] العدل [illegible] هذا [illegible] الذى هو [illegible] تم ولما [illegible] المساعى الحميده

والشعور [illegible] الذى [illegible] السرور [illegible] بالشكر لجنابكم [illegible] حتى [illegible]

[illegible] المنصف بالعدل والكرم [illegible] الشرف [illegible] السعاده [illegible] الذى له [illegible] خصوصا [illegible]

[illegible] وكما [illegible] خصوصا لجناب [illegible] الخديو [illegible] بالحصول على زيادة السرور [illegible]

واهتم [illegible] لهذا [illegible] الله واياه [illegible] وزادني سرورا [illegible]

[illegible] الذى قام [illegible] رسالة البشاره [illegible] بالمساعى الحميده التى [illegible] لجنابكم

فاني [illegible] كمال [illegible] الكافيه [illegible] ورقيم ١٥ ديسمبر ٨٢

وانني لجنابكم دوام العز والاقبال محفوظين بالدولة البريتانيا العظمى

وثيقة رقم ٨ ـ خطاب بعثت به « الأميرة انجى » ارملة الخديو سعيد باشا التى اشتهرت بفعل الخير ، بعثت به الى مستر برودلى تشكره على ما بذله من جهد لانقاذ حياة عرابى باشا ، وقد علق برودلى عليه قائلا : « انه رغم ما به من اطناب ومديح لى ، الا انه أهم دليل على ما لـ « عرابى باشا » من تاييد داخل البلاد . »

الى صاحب الدولة والاجلال اللورد شارلس باريسفورد .

اني اقدم اعظم التحيات وازكى التسليمات لجنابكم واشكر دولتكم على ما اظهرتم نحوي من حسن المساعدة وانتصاركم للحق في المدافعة عني من غير سبق معرفة بيني وبينكم [illegible] متعارفة متعاضدة في خدمة الانسانية بالاعمال الشريفة هذا واني اؤكد لدولتكم انه لم يكن بين المصريين والامة الانكليزية ادنى عداوة اصلا تستوجب حصول ما حصل بل ولغاية الآن لم احدا من المصريين يعرف الاسباب التي انبنى عليها حصول الحرب التي حصلت حيث انه لغاية الساعة التي ابتدى فيها بضرب المدافع على اسكندرية كانت الامة المصرية محافظة كل المحافظة على حقوق الامة الانكليزية بل وعلى حقوق جميع اخوانهم الاوروباويين [illegible] ايضا عند الامة الانكليزية فلما حصل الحرب وكان تقرر بالمجلس المنعقد لذلك تحت رياسة الخديوي ودرويش باشا مندوب السلطان بلزوم المدافعة فالزمنا بامر المدافعة بمقتضى هذا القرار الشرعي وكانت مدافعتنا عن بلادنا بمقتضى الشرع والقانون [illegible] بامر الخديوي والحاكم الشرعي وجميع وكلاء الحكومة ولما كانت الحرب قائمة في اسكندرية كانت تأتينا رسل الخديوي تحرضنا على القتال وتحرضنا على الصبر والثبات مع [illegible] جودة الاسلحة ورداءة الطوابي ولعدم تدمير الطوابي وتعطيل المدافع عقد مجلس آخر تحت رياسة الخديوي ودرويش باشا ايضا للنظر فيما يصير اجراؤه بعد ذلك فتقرر فيه بانه اذا حصل الضرب على الاسكندرية في اليوم الثاني يصير رفع الرايات البيضاء على الطوابي علامة على طلب المكالمة وقد حصل ذلك واننا كنا مستعدين في اول وقت لطلب الصلح لكن لما أرسل طلبه باشا للمكالمة قيل له ان الاميرال سيمور يطلب تسليم ثلاث طوابي لاتخاذهم معسكرا للجيش الانكليزي وتقرر بالمجلس ايضا ان هذا الطلب من حقوق الحضرة السلطانية وقيل من مندوب الاميرال انه اذا لم يجاب لهذا الطلب فانه يصير اعادة الضرب بالمدافع واخذ تلك الطوابي قهرا وحيث ان موقع اسكندرية لا يناسب لاقامة العساكر فيه ويخشى من تجاوز خط الرجوع وضبطه من خلفهم بواسطة العساكر الانكليزية التجأت العساكر المصرية الى الرجوع الى جهة كفر الدوار لتكون آمنة على خط الرجعة ومن هنا يعلم انه لو خرجت العساكر الانكليزية في ثاني يوم بعد الضرب لما وجدت ممانعة وكان امكنها حفظ البلد من النهب والحريق ايضا وهذا البيان بناءً على طلب المستر ناپيار المحامي عني في المحاكمة ثم وارجو دولتكم قبول احتراماتي الفائقة لحالي وخادمكم

احمد عرابي
المصري

١٠ دسمبر ١٨٨٢

وثيقة رقم ٩ ـ خطاب بعث به « أحمد عرابى باشا » الى « لورد شارلس باريسفورد » يروى فيه قصة ضرب الاسكندرية تلبية لطلب اللورد من مستر برودلى .

ملحق (٣)

مراجع التحقيق

أولا ـ مراجع مخطوطة :

(أ) لم تطبع ولم تصور

١ ـ أحمد عرابى (باشا) : كشف الستار عن سر الأسرار (محفوظة بدار الوثائق بالقلعة) .

٢ ـ وثائق خطية لصقها « مستر برودلى » فى نسخة كتابه الضخمة التى تقع فى ٣ مجلدات والتى عنوانها
How We Defended Arabi and His Friends
، والمحفوظة بدار الوثائق بالقلعة أيضا)

٣ ـ وثائق الثورة العرابية (محفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، وأهمها ما يلى :

قضايا المتهمين : (أ) محفظة ٧ دوسيه نمرة ٣٨ محضر استجواب أحمد رفعت بك أمام قومسيون التحقيق .

(ب) محفظة ٨ دوسيه نمرة ٥٣/د / ٧ ، الأوراق المضبوطة فى منزل عرابى باشا

(جـ) محفظة ١١ دوسيه نمرة ١٥٤ محضر استجواب سليمان سامى بك أمام قومسيون التحقيق .

(ب) مخطوطات مصورة :

٤ ـ تقرير عرابى باشا الى محاميه « برودلى » الذى كان قد كتبه فى سجنه بالدائرة السنية فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، وأعاد كتابته وهو فى منفاه (أصدره المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١) ·

٥ ـ محضر استجواب عرابى باشا عن التهم الموجهة اليه أمام قومسيون التحقيق (نقلا عن محفظة ٨ ، دوسيه نمرة (١٥٣) المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقلعة ، والتى أصدرها مصورة عن الأصل: المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١) ·

ثانيا ـ مراجع مطبوعة تناولت الفترة موضوع التحقيق :

٦ ـ « الأوامر العليا والانعامات » ، الصادرة فى سنة ١٨٨٢ (اصدار نظارة الحقانية بمصر (المطبعة الأميرية ، ١٣٠٢ هـ) ·

٧ ـ
Blunt : W.S. : Secret History of the English Occupation of Egypt.
طبعة ١٩٠٧ (أعاد طبعه مع تصغير حجمه المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨١) ·

٨ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية : عصر اسماعيل ج ٢ ط ١٩٣٢ ·

٩ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، ط ١٩٣٧ ·

١٠ـ عبد الرحمن الرافعى : الزعيم الثائر : أحمد عرابى ، ط ١٩٦٨ ·

١١ ـ فريدون (جمع وترتيب) : كتاب منشئات السلاطين (بدون تاريخ)

١٢ـ فؤاد كرم (جمع وترتيب) النظارات والوزارات المصرية ج ١ ، مطبوعات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، ١٩٦٩ ·

١٣ـ فيليب جلاد : الادارة والقضاء (٦ مجلدات) ، الاسكندرية ، المطبعة التجارية ، ط ١٨٩١ ·

الفهرس

صفحة

فهرس الأشكال

هو « قصة مصر والمصريين » الذين ساءهم أن يتخلى عنهم خديويهم وهم يحاربون الإنجليز وينضم إلى معسكر العدو ، فالتفوا حول زعيمهم « عرابى » الذى حارب أعداء الوطن ، فلما أدرك هذا الزعيم أنه لن يكون كسب الحرب من نصيبه آثر أن يسلم نفسه هو وزملاؤه الستة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ لقائد جيش الاحتلال الجنرال « لو » حقنا لدماء أبناء الوطن .

ويرجع فضل ترجمة الكتاب إلى قرار اتخذته جمهورية سرى لانكا عام ١٩٨٣ بتحويل أول بيت نزل به عرابى فى مدينة كولومبو إلى متحف تخليدا لذكراه ، ووجهت الدعوة إلى الحكومة المصرية لحضور حفل الافتتاح ، وسافر الوفد برئاسة وزير الثقافة السابق الأستاذ محمد عبد الحميد رضوان .

والكتاب مرجع تاريخى وثائقى يفيد المؤرخين والباحثين الذين كانوا يترقبون ترجمته منذ وقت طويل .

مطابع الهيئة المصر

الثمن ٥٠٠ قرش

وفي الرابع عشر من مايو ، نتيجة لبعض الشائعات المزعجة ، وصلت لـ « سير ادوارد ماليت » تعليمات بأن يقابل عرابى ويخبره بأنه اذا حدث أى انتهاك للسلام ، فان أوربا بأسرها ، فضلا عن انجلترا وفرنسا ، سيحملونه المسئولية ، شخصيا ، أما لو ظل مخلصا الخ ٠٠ » فان أعماله وشخصه سينظر اليها نظرة تقديرية» ٠وأجاب عرابى أنه سيتكفل باستتباب الأمن العام طالما لا تأتى الأساطيل الى الاسكندرية كما وردت الأنباء بذلك ، فتقبل « سير أدوارد ماليت » وعد عرابى ، ولكنه كتب الى « لورد جرانفيل » أن الفائدة السياسية لقدوم الاسطول عظيمة جدا لأنها ستبطل الخطر الذى يحتمل أن يهدد الاوربيين فى القاهرة » ٠ وقد استقر الرأى فى كل من « دوننج ستريت Downing Street (١) » وكيه دورساى Quai d'orsay (٢) (وكان من حسن حظ سلام أوربا أن حل « مسيودفريسنيه » محل « مسيو جامبيتا » فى رئاسة الوزارة الفرنسية) على ارسال الأسطولين الى الاسكندرية واعطاء التعليمات التالية المتماثلة الى القنصلين العامين البريطانى والفرنسى فى القاهرة :

اولا — اعلان ان انجلترا وفرنسا تدخلتا فقط لتعزيز سلطة الخديو والحفاظ على الوضع الراهن Status quo (ولكن الخديو نفسه كان قد أعلن موافقته التامة على برنامج « عزيزة » محمود سامى ، وان مبادىء القضية الوطنية هى نفس اساس العدل ذاته) ٠ ثانيا — اسداء النصح للخديو باقالة النظارة فى أول مناسبة سانحة ٠ ثالثا — أن يكون مفهوما انه اذا سارت الأمور على خير مايرام (واسلوبا العمل الأوليان محسوبان بدقة تامة ليؤديا الى نتيجة عكسية تماما) فسيعامل عرابى وصحبه معاملة قائمة على التسامح ٠

وفعل « سير أدوارد ماليت » مثلما وجه ٠ وقدمت المذكرة الثانية المشتركة ، والكن عرابى رفض الاقصاء الذى فرض عليه ، ورفضت النظارة

فلما رفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه ، امتنع عن اقراره لبالغ قسوته ، وتمسكت النظارة باقراره ، ولكن الخديو أصدر ارادة سنية فى ٩ مايو ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه حيثما شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وأيد الخديو فى موقفه : قنصلا الدولتين العظميين انجلترا وفرنسا ٠

واحتدم الخلاف بين النظارة والخديو حتى فكرت النظارة فى دعوة مجلس النواب الى اجتماع غير عادى ، وهو اجراء غير دستورى ، اذ أن الخديو هو وحده الذى يملك هذا الحق كما تقضى بذلك المادة ٩ من الدستور ٠ وسوى الخلاف بين الطرفين بتعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو (انظر الرافعى : الزعيم الثائر أحمد عرابى ، ص ص ٩٩ — ١٠٣) ٠ (المحقق)

(١) مقر الحكومة البريطانية فى لندن ٠ (المحقق)

(٢) مقر الحكومة الفرنسية فى باريس ٠ (المحقق)

ثم يصف « عرابى » بعد ذلك بداية المرحلة الجادة من الحركة الوطنية :

« ... ولما أحست نبهاء الأهالى الذين هم آباؤنا واخواننا ورؤساء عشائرهم حضروا الى مصر ورأوا انه لا حاسم لسلب الأمنية الا افتتاح مجلس نواب للأمة المصرية يضمن لها أرواحها وأموالها واعراضها وسن قوانين عادلة يعتمد عليها فى حفظ الحقوق تضاهى قوانين المجالس المختلطة وحدود تامة للحاكم والمحكوم ليقف كل عند حده ولا يتعداه مع تغيير هذه النظارة التى فى مدتها سلبت الأمنية وكثر الخوف وكتب بذلك عرائض منهم سلمت بأياديهم عند سقوط النظارة الى دولتو شريف باشا عند جعله رئيسا للنظار على يد سلطان باشا بالنيابة عن نبهاء الأمة المصرية ورؤسائها ولكون العسكرية والأهالى بعضهم من بعض ومعاملتهم فى الخير والشر واحدة ، فوض هذا الطلب للعسكرية ولكون أن جميع الالايات استنابت ضباطها لوثوقهم بى واعتمادهم على أمانتى فوضوا الى تلك الطلبات .

« وعند شدة التهورات الواقعة من ناظر الجهادية « داود باشا » وزيادة الخوف كتب من طرفى الى ناظر الجهادية فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ بأن جميع العساكر ستحضر الى ميدان عابدين لعرض طلباتها وطلبات أهاليها على الحضرة الخديوية الساعة ٩ عربى من يوم الجمعة . وفى الميعاد المذكور ، أتت العساكر من محلاتها الى ميدان عابدين بغاية الأدب والاحتشام وقبل ذلك تحرر من طرفى الى كافة قناصل الدول الأورباوية بما سيصير اجراؤه مع الهدوء والسكون فى الوقت المعين وانه لا خوف على رعاياهم ولا على أموالهم وانه سيطلب فقط من الخديو ما يجعل البلاد حرة حافظة لحقوقها .

« ثم عرضنا تلك الطلبات على الحضرة الخديوية بواسطة مستر كوكسن Mr. Cookson قنصل دولة انكلترا باسكندرية حيث كان موجودا وقتها ، فقبل الخديو تلك الطلبات جميعها التى هى مقررة بأول ديكرتو صدر من جنابه الكريم فى أول ولايته وأن تلك الطلبات هى من اقصى آماله لكونها شرعية جميعها وصدر أمره الكريم بتوجيه النظارة ورياستها الى دولتلو شريف باشا وانصرفت العساكر داعين له بطول العمر والجميع متشكرين له على احياء البلاد وتحريرها من ضيق ربقة الاستعباد المصرى »

« ولما حصل من شريف باشا التأخير عن قبول الرياسة ، وتقدم له من عمد الأهالى الذين كانوا موجودين خلف اظهرنا فى ميدان عابدين عرايض يلحون عليه فيها بقبول الرياسة ، عليها نحو الأربعة ألف ختم فرحا بخلاصهم من ذلك النظارة التى من جملة ما أصابهم فى مدتها من الضرر حرمانهم من فوائد سبعة عشر مليون ليرا قيمة المقابلة التى كانت تحصلت منهم فى مدة الخديو السابق لأجل سداد الديون الأجنبية التى كانت على الحكومة بل حرمانهم من أصل المبلغ المذكور برمته مع أنه كان الواجب اعتبار هذا المبلغ دينا على الحكومة اسوة باقى ديون الأورباويين ، ومن جملة أعمالها رفت الوطنيين من الخدمات الميرية مع استعدادهم وقلة مرتباتهم ، واستخدام كثير من الأورباويين بمرتبات زائدة مع أن أعمالهم لا يمكن اجراها الا بواسطة الأصاغر من الوطنيين ، ولذلك صارت جميع الوظائف المهمة بيد الأورباويين من غير نظر لأعمالهم خلافا للقاعدة العادلة المرغوبة فى كل حكومة عادلة .

***

ثم بعد ذلك ، صور « عرابى » ، فى ايجاز الأحداث التى أدت الى.

فى مختلف بيوتهن ٠ لقد أثبت « اسماعيل أيوب » عدم علمه تماما بكل ما حدث وزودنى بخطاب الى مدير ضبطية البوليس ٠

توجهت بعد ذلك لزيارة « عثمان باشا غالب » لأول مرة ٠ وهو الذى كان قد دبر لمحو أى ذكر لد « تهانى القلبية ، ودفعه الى « ١٠،٠٠٠ مكيال من القمح » التى كان قد قدمها للمدافعين عن وطنه فى « كفر الدوار » ، وذلك تشفيا منه ومضايقة ما أمكنه ذلك لنفس المدافعين أنفسهم عن وطنه وقعوا فى أيدى أعدائهم ٠ لقد دبر منذ ذلك الوقت لأن يصل الى أرقى مكانة فى الواقع ، وصار ولاؤه الآن لا يرقى اليه شك على الاطلاق استقبلنى « عثمان باشا » استقبالا مهذبا جدا ، ودخل فى شرح طويل ليبرر لماذا وقف الى جانب « عرابى » حتى نقطة معينة وأنه بعدها صار ضميره عاجزا عن أن يذهب معه الى أبعد من هذا ٠٠ كان انطباعى عن « عثمان باشا غالب » أنه لا يمكن الاستفادة منه . وكان بصورة أساسية نديما عاجزا عن أن يكون صريحا معك ، وهو على استعداد تاما لأن يفعل شيئا يتخيل أنه قد يرضى الحزب الذى فى السلطة ٠ ولم يكن « عثمان باشا » ينقصه الذكاء على الاطلاق ٠ ولو أنه كتب لـ « عرابى » الفوز فى الحرب لكان هذا الفوز هو أمنيته كوطنى ٠ كان يبدو قلقا وهو يتحدث عن أى شىء فيما عدا الهدف المباشر لزيارتى ٠ وبينما كنت أنا جالسا على الأريكة فى مكتبه ونحن نتناقش مع تناول القهوة والسجاير ، أطلعنى على درج ملىء بصور عرابى ، وقال انه منذ بضعة أيام مضت ، « طبقا لأوامر عليا » ، أعدم أكثر من (ستة صور سالبة وجدت فى مختلف دكاكين المصورين فى القاهرة ، وصادر بضعة آلاف من النسخ المطبوعة ، ولكن بالرغم من كل هذا ، فلا زالت الصور تطبع فى كل أرجاء مصر ، وقرر أنه عاجز تماما عن أن يفهم « كيف أن عرابى وقد هزم ــ ماذا يريد الناس من عرابى أكثر من هذا ؟ » ٠

ومديرية بوليس القاهرة كانت هى ذاتها غاية فى الغرابة ٠ كانت بها ساحة قذرة تؤدى الى المديرية ، ويحيط بالساحة سجن من طابقين ، طابعه أشبه بجحور الأرانب ، ويفتقر تماما الى التهوية كافتقاره الى الصرف الصحى ٠ وداخل المدخل الرئيسى ردهة ، مكتظة دائما بالكتبة وبرجـال البوليس وبالشهود وبالناس « المتعطشين للعدالة » ، وعلى بعد ، كانت غرفة مدير البوليس نفسه ، وحول الغرفة أريكة طويلة منخفضة ، وكان المكتب الذى يجلس عليه الرجل العظيم من خشب الماهوجنى ، وبالغرفة نافذتان ضيقتان تطلان على حديقة صغيرة خضراء كاملة الخضرة ، ومليئة بأشجار النخيل التى كنت تسمع حفيفها وأنت جالس ٠ وأخيرا ، بعد

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

How We Denfended Arabi and His Friends

(A Story of Egypt and the Egyptians)

By : A. M. Broadley

(London, Chapinan and Hall Ltd., 1884).



شكل (١) ـ صورة احمد عرابى المصرى وعليها توقيعه

إهـــداء

الى

ولفريد سكوين بلنت Wilfred Scawen Blunt

وليدى آن بلنت Lady Anne Blunt

أعز صديقين لـ « عرابى » ـ صديقاه وقت الشدة

يتشرف المؤلف باهداء هذا السفر لهما ٠

خطاب عرابى باشا الى المؤلف

الى جناب المحب المحترم المستر برودلى المحامى عنى

ان جميع الأوراق التى تسلمت لحضرتكم المختصة بقضيتى يصير ابقاها بطرفكم لأجل حفظها لحين لزومها لطرفنا عند الاقتضى ولأجل حفظها كما ذكر وعدم تسليمها لأحد خلافنا ٠

تحرر هذا فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢

الطايع لله

احمد عرابى
المصرى



I Ahmed Arâbi the Egyptian

عزيزى

ومع ذلك فحضرتكم مرخصين من طرفى فى طبع ما يلزم طبعه منها ونشر ما يلزم نشره منها بحسب الاقتضى وبذا لزم التحشية وهذا تفويضا شرعيا معتبرا مرعيا ٠

خالم

كلمة المحقق

كان لابد لى من كتابة هذه الكلمة لأقدم للقارىء الكريم كتابا تراثيا ترجمته عن تاريخنا القومى عنوانه : « كيف دافعنا عن عرابى وصحبه »، مؤلفه مستر برودلى Mr. Broadely كبير محامى عرابى » (وكانوا ثلاثة : هو وزميلاه ايف Eve ونابير Napier) ، ألفه فى سـنة ١٨٨٤ ، وكان مستر بلنت Mr. Blunt صديق « عرابى » الحميم قد طلب من ثلاثتهم أن يتوجهوا الى القاهرة للدفاع عن « عرابى » ، ولما أحس بخطورة موقفه بعد أن وجهت اليه تهمة العصـيان التى كانت عقوبتها الاعدام ، وتكفل « بلنت » هو ومجموعة من كبار الشـخصيات الانجليزية بتغطية كافة تكاليف سفر المحامين واقامتهم فى مصر وأتعاب المحاماة ٠

والكتاب هو « قصة مصر والمصريين » الذين ساءهم أن يتخلى عنهم خديويهم وهم يحاربون الانجليز وينضم الى معسكر العدو ، فالتفوا حول زعيمهم « عرابى » الذى حارب أعداء الوطن ، فلما ادرك هذا الزعيم أنه لن يكون كسب الحرب من نصيبه آثر أن يسلم نفسه هو وزملاؤه الستة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ لقائد جيش الاحتلال الجنرال لو General lowe حقنا لدماء أبناء الوطن ٠

أما عن سبب ترجمة هذا الكتاب ، وقد انقضى على صدوره أكثر من مائة عام ، فيرجع الفضل فيه الى ما اتخذته جمهـورية سرى لانكـا Sri Lanka (سيلان Ceylon قديما) من قرار كريم فى أواخر سنة ١٩٨٣ ، هو تحويل أول بيت نزل به عرابى فى مدينة كولومبو ، الى متحف ، تخليدا لذكراه وهو الذى أقام فى الجزيرة منفيا ثمانيـة عشر عاما (١٨٨٣ ــ ١٩٠١) قضى تسع سنوات منها فى كولومبو وتسعا

اخرى فى كندى ٠ ووجهت الدعوة الى الحكومة المصرية لحضور حفـــل الافتتاح ، فتوجه وفد مكون من السيد وزير الثقافة السابق الأســـتاذ محمد عبد الحميد رضوان ، ومحافظ الشرقية (مسقط رأس عرابى) الأستاذ أمين ميتكس ، ومنـــدوب من وزارة الخارجيـــة المصرية وبعثت الهيئة العامة للكتاب بمجموعة كتب مؤلفة عن عرابى باللغتين العربيـــة والافرنجية ، لتوضع فى المتحف الى جانب صورة للزعيم وبعض وثائق خطية له مصورة عن أصولها المحفوظة بالنسخة الاولى لكتـــاب برودلى المودعة بدار الوثائق القومية بالقلعة ٠

فلما علم الأستاذ الدكتور عز الدين اسماعيل الرئيس السابق لمجلس ادارة الهيئة العامة للكتاب ــ أن كتاب برودلى لم يترجم الى العربية بعد ، رغم أهميته التاريخية التراثية ، أســـند الى ترجمته حتى يرى طريقه الى النور وليكون مرجعا تاريخيا وثائقيا ، يفيد المؤرخين والباحثين الذين كانوا يترقبون ترجمته منذ وقت طويل ٠

فماذا عن الكتاب ؟ انه يتألف من مقدمة وثلاثة وثلاثين فصلا وملحقا واحدا ٠ وقد كتب « برودلى » المقدمة فى ٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، بعد مضى سنة كاملة على صدور حكم المحكمة العسكرية الخديوية المصرية برئاسة « رءوف باشا » فى (٣ ديسمبر ١٨٨٢) على « عرابى » بالنفى الى الأبد من الأقطار المصرية وملحقاتها ٠ ولم يكن تأخير « برودلى » فى كتابتها الا رغبة منه فى الاطمئنان على حسن سلوك الزعماء السبعة فى منفاهم (وقد تأكد له ذلك) ٠ ومن أن انجلترا ستبر بوعدها ، كما أكد ذلك رئيس وزرائها وقتذاك مستر جلادستون Mr. Gladstone فى اتخاذ قرارها فى البقاء فى مصر أو عدم البقاء فيها ، اذا ما بدأت البـــلاد فى انتهاج « بداية طيبة » ، خاصة وقد ساعدت فى «عودة الخديوية المصرية» (وكان فى شك فى برها لوعدها ، خاصة وأن ما حدث فى تلك السنة من الهزيمة التى ألحقها « المهدى » فى الســـودان ، بالجملة التى كان يقودها هكس باشا Hicks Pacha وأبيدت عن آخـــرها ، ما جعله يستبعد تفكير انجلترا فى مغادرة البلاد ــ وكان صادقا فى نبوءته) ٠

وعلى مدى الثلاثة والثلاثين فصلا ، يستعرض « برودلى » كل مـــا فعله ، منذ تكليف « بلنت » له ولزميليه بالدفاع عن عرابى (فى أكتوبر ١٨٨٢) حتى مغادرته لمصر (مع مستهل سنة ١٨٨٣) : اذ غادر انجلترا الى « تونس » لانهاء بعض أعمال له فيها ، وفى الطريق أمضى يومين فى « باريس » ، فانتهز فرصة وجوده فيها وزار « الخديو اسماعيل » فى مقر اقامته فى آسنير Asnières على نهر الســـين ودار الحـــديث

بينهما عن مصر ، فذكر الخديو السابق لـ « برودلى » أن الوطنية المصرية قديمة قدم التاريخ وأن جنون الجيل الحالى (يقصد جيل القرن التاسع عشر) بها سببه : افتقاره الى زعيم قوى ، وأن فشل قضيتهم هو نتيجة طبيعة لضعف الحكومة المصرية من ناحية ، ولنجاح المؤامرات التركية من ناحية أخرى ، وأن الوحدة الاسلامية ليست ابداعا جديدا ، ولما تطرق الحديث الى « عرابى » ، رأى أن وجهة نظر الخديوى السابق فيه أنه شخص مخادع يتكلم ولا يفعل الا القليل . ولم يكن « الخديو اسماعيل » راضيا عن ابنه « توفيق » اذ قال عنه انه أظهر نفسه خلوا من « العقل والقلب والشجاعة » وهى الخصال المتطلبة فى حاكم مصر .

ثم سافر « برودلى » الى تونس وبقى بها أياما ، عرف أثناءها أن التونسيين قد بلغتهم هزيمة « عرابى » ، كما علموا بأنه أسر ، وأحسوا كما أحس اخوانهم المصريون ، بمرارة القنوط . وطوال اقامته بتونس، كان على اتصال تلغرافى بكل من « بلنت » (فى انجلترا) و « نابير فايف » (فى القاهرة) ، اللذين أبلغاه بأنهما أخذا وعدا من المسئولين المصريين بمقابلة « عرابى » فى السجن ، وحثاه على تعجيل مجيئه الى القاهرة .

ومن تونس سافر « برودلى » بحرا الى « مالطة » وظل ينتظر بها سفينة تحمله الى الاسكندرية ، ولما كان يتعجل الوصول اليها ، وخوفا من تأخر وصول السفينة المرتقبة ، لم يجد أمامه بدا من أن يسافر على سفينة طوربيد بريطانية تابعة للبحرية الملكية البريطانية ، اسمها هيكلا Hecla ، وكانت وجهتها الاسكندرية ، وقد رست به عند مرفأ بالقرب من جمرك الاسكندرية .

وفى الاسكندرية شاهد آثار تخريب طوابيها بفعل مدافع البحرية البريطانية ، كما شاهد أيضا آثار حريقها ، ثم استقل قطارا الى القاهرة أوصله الى محطة سكة حديد مصر (رمسيس حاليا) ، ومنها ركب سيارة عامة ومعه متاعه البسيط (وكان أهم ما فيه مراجع قانونية قيمة) ونزل بالفندق الخديوى Hôtel Khedivial (وكان فى الأصل أحد قصور الخديو اسماعيل قبل تحويله الى فندق) وقرر الاقامة فيه حتى يلتقى بزميليه « نابير » و « ايف » ، فلما التقى بهما ، نزل بفندق شبرد Shepheard Hotel كما نزلا به هما الاثنان .

وبدأ « برودلى » يتعرف على الشخصيات الانجليزية التى لها ثقلها فى المجتمع المصرى وقتذاك ، أمثال: «سير ادوارد ماليت Sir Edward Malet قنصل بريطانيا العام فى مصر ، و « سير تشارلز ويلسون

Sir Charles Wilson» منـــدوب بريطـــانيا فى قومســـــيون التحقيق (ثم بعد ذلك تعرف بـ « لورد دافرين Lord Dufferin» المنـــدوب السامى البريطانى فى مصر) ، كما تعرف بشخصية فرنسية هى « مسيو أوكتاف بوريللى Mr. Octave Borelli الذى كان يشغل منصب النائب العام ، ومن الشخصيات المصرية التى تعرف عليها : شريف باشا (ناظر النظار) ورياض باشا (ناظر الداخلية) واســـماعيل أيوب (رئيس قومسيون تحقيق مصر) وبتردده على شرفة فندق شـــبرد ، ملتقى الشخصيات الصحفية والسياسية ، تعـــــرف على الرأى العام المصرى وقتذاك (الذى كان مزيجا من الرأيين المصرى والأجنبى) ٠

ولما أحس برودلى بأن عمله سيتسع مجاله فى المســتقبل ، وأنه سيحتاج الى هيئة مكتب كاملة من كتبة وناسخين ومترجمين ، فضلا عن اضطلاعه هو « ونابير » (نظرا لسفر « ايف » الى انجلترا) بالشــئون القانونية ، مضافا الى ذلك رغبته فى الابتعاد عن أعين الرقباء (خاصة بعد أن عرفوه وعرفوا مهمته) ــ من أجل ذلك كان لابد لـ « برودلى » مــن البحث عن مكان هادىء قائم بذاته وبعيد عن فندق شبرد ، يتخذ منــه مكتبا يباشر فيه نشاطه ويلتقى فيه بأقارب ومعارف موكليه الذين لــن ينقطعوا عن زيارته فى مختلف الأوقات ، فاستأجر له موظفو فنـــدق شبرد « بيت المفتى » بحى الجمالية بالقاهرة ، وكان يفى بالغرض المطلوب وأقام فيه « برودلى » و « نابير » حتى مغادرتهمـــا لمصر فى ينـــاير ١٨٨٣ ٠

وقد اكتشف « برودلى » من البداية ، أن الحكومة المصرية (ممثلة فى شخص « بوريللى بك » النائب العام) ستناوشه فى اجراءات المرافعة وفى الســماح له ولزميله بزيارة موكليهمـــا فى ســـجن الدائرة السنية (ولو أن « سيرتشارلز ويلسون » كان يذلل لهما الصعاب ، من خلال مباشراته لوظيفته) وصارا يزوران موكليهما فى السجن بصـــورة تكاد تكون منتظمة ٠

وقد تعرف برودلى ــ من خلال سيرتشارلز ويلسون ــ على « محمد ابن أحمد عرابى » ، قبل زيارته لـ « عرابى » فى السجن ، فلما التـقى بـ « عرابى » طلب منه ، باعتباره محاميه ، أن يزوده بكل ما لديه من مستندات ليختار منها ما يراه ذا فائدة فى الدفاع عنه ، فأصدر عرابى أوامره لابنه محمد ، ولخادمه الخلاسى « محمد بن أحمد » بتنفيذ هــذه الرغبة ، وبالفعل أحضرا له منديلا كبيرا مليئا بالوثائق ، اختار منهـــا ما يفيده ، وحفظ الباقى فى القنصلية البريطانية بالقاهرة (وقد رافقه

فى هذه المهمة سير تشارلز ويلسون) ورقما كل وثيقة ووقعا على كل واحدة منها بالأحرف الأولى من اسميهما .

وبعــد أن تعــددت زيارات « برودلى » لـ « عرابى » فى السجن ، واطمــأن اليه بقيــة المسجونين الذين وكلوه للدفاع عنهم ، طلب من « عرابى » و « على فهمى » و « عبد العال حلمى » و « يعقوب سامى » و « أحمد رفعت » و « الشيخ محمد عبده » و « محمود سامى » أن يكتب كل واحد منهم تقريرا عما حدث له منذ تسليمه لنفسه للقوات البريطانية التى أسلمته بدورها الى الحكومة المصرية . وكان أهم هذه التقارير ، التقرير الذى كتبه « عرابى » والذى اختار له عنوان « الحوادث التى حصلت فى مصر من يناير ١٨٨١ لغاية شهر أكتوبر ١٨٨٢ » .

وكان « برودلى » حريصا على أن يحضر مع موكليه وقت استجوابهم أمام قومسيون التحقيق الذى كان يعقد جلساته مساء من الثانية بعد الظهر حتى السادسة ، فاذا لزم الأمر عقد جلسات اضافية ، كانت تعقد فى الصبــاح ، وكثيرا ما كان القومسيون لا يعلن « برودلى » بموعــد استجواب موكليه (وفى هذا اخلال بشروط الاتفاق الذى وقعه « مسيو بوربيللى » نيابة عن الحكومة المصرية ، و « برودلى » ، بوصفه ممثــلا للدفاع عن المتهمين) .

وفى ختام أعمال قومسيون التحقيق ، كشف التحقيق عن مؤامرة دبرها « عثمان باشا فوزى » الوكيل العام « للأميرة زينب هانم » بنت محمد على الكبــير (وأخت الأمير « حليـــم » المطالب بعرش الخديوية المصرية) ، ادعى فيها بأن الحزب الوطنى (الذى كان يرأسه « عرابى ») يرشح « الأمير حليم » لعرش الخديوية ، ولم يكن هذا الادعاء الا افتراء على الحزب ، أما حقيقــة الأمر فتتلخص فى أن « عثمــان باشا » من فرط حبه لـ « محمد على الكبير » وتفانيه فى خدمة أبنائه ، كان كل همه هو أن يصل « الأمير حليم » الى عرش الخديوية المصرية بأى ثمن ، فانضم « عثمان باشا » الى الحزب الوطنى كأحد أعضائه ، وبحث عن شخص يمكن أن يندس بين أعضائه ويقترب من عرابى وقادة الحزب ويوحى اليهم بفكرة ترشيح الحزب للأمير حليم ، فلم يجد الا تاجرا مصريا مغامرا هو « حسن موسى العقاد » الذى قام بهذه المهمة وكانت أمامه فرصة مواتية هى استياء الحزب من انضمام « توفيق »الى الانجليز وقد أفلح « حسن موسى العقاد»فى ابتزاز عشرة آلاف جنيه من « عثمان باشا » بدعوى صرفها على تمويل الحزب ، ولكن تبين من التحقيق كذبه فى دعـــواه ، اذ أنه أودع كل المبالغ التى تسلمها من عثمان باشا ، فى حسابه الخاص به ، وســوى

الموضوع حتى لا يصل علم « السراى » الى مؤامرة « الأمير حليم » وأخته ، وكان الضحية هو عثمان باشا ، اذ أن القومسيون قرر أن يدفع « عثمان باشا » أربعة آلاف جنيه كفالة لحسن سـلوكه لمدة أربع سنوات ، وأن يقيم فى منزله الريفى · ومما يؤسف له أن الأمير حليم وشقيقته لما علما بما آل اليه الأمر ، تخليا عن « عثمان باشا » فى شدته واستكتباه استقالة من وكالته لأعمالهما ولم يدفعا عنـه الكفالة ، ولم يسـتطع « عثمان باشا » سداد مصاريف اقامته بفندق شبرد ودفعهـا عنـه مستر جروس Mr. Grosse الذى كان يعمل بالفندق ·

وبعد انتهاء قومسيون التحقيق من استجواب كافة المتهمين ، وقبل احالة « دوسيهات » القومسـيون الى المحكمة العسـكرية التى كانت ستنظر فى القضية ، باعتبار أنها قضية عصيان عقوبته الاعدام ــ توسط « لورد دافرين » (وكان قد جاء الى مصر مندوبا ساميا لبريطانيا) بين الحكومة المصرية (التى يمثلها « مسيو بوريللى ») والدفاع عن المتهمين (الذى يمثله « برودلى » و « نابير ») لعقد مصالحة بين الطرفين ، وكانت المصالحة المطروحة تقضى بأن كل الاتهامات الأخرى الموجهة ضد «الباشوات» السبعة ، فيما عدا تهمة العصيان البسيط ، ستسحب ، وسيستدعون للمثول أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان البسيط ، والذى بموجبه سيعترفون بأنهم مذنبون · ومن المفروض أن تسجل عقوبة الاعدام فى هذه الدعوى ، وبعد النطق بها يعقب ذلك مباشرة صدور المرسـوم الخديوى المعدل لعقوبة الاعدام الى النفى من مصر وملحقاتها · ثم يعقب ذلك صدور مرسوم بتجريد المسجونين من رتبهم وأملاكهم (ولكن لن تصادر أملاك زوجاتهم) ، ونتيجة لمصادرة أملاك « الباشوات » السبعة ستتكفل الحكومة المصرية بتخصيص راتب مناسب لاعانتهم وعائلاتهم فى المنفى ، كما ستتكفل أيضا بنقلهم على نفقتها الخاصة الى البـلد المحدد لهم الاقامة فيه ــ وقد وافق « الباشوات » السبعة على كل هذه البنود ، وكتبوا الاقرارات والتعهدات المطلوبة وختموها بمحض ارادتهم ·

ولم ينس (برودلى) فى غمرة ما ذكره عن أحـداث هذه الفترة الخطيرة من تاريخ مصر ، أن يذكر مدى تقدير سيدات مصر ل « عرابى » ، وبخاصة أميرات الأسرة الخديوية ، اذ تقديرا لوطنيته عرضت عليـه احدى الأميرات أن تتزوجه ولكنه اعتذر لها اعتذارا رقيقا قائلا لهـا ان مكانها أن تعاون بنات وطنها فى تضميد جراح الجرحى المصريين ، كما أن أميرة أخرى هى « الأميرة انجى » (زوجة الخديو سعيد باشا) بعثت الى « برودلى » بخطاب شكر لحسن دفاعه عن عرابى ، وأميرات كثيرات تعرضن لبطش الخديو توفيق من جراء تعاطفهن مع « عرابى » ، وكان

لا يتورع أحيانا عن نفيهن (مثل عيشة هانم التى نفاها هى وخادمتها الى الحجاز (السعودية الآن) ـ ورغم كل هذا ظلت نساء مصر ، أميرات ووطنيات ، على تقدير رفيع له على وطنيته حتى قبل سفره منفيا ، فقد زودنه بالملابس والحقائب وسجاجيد الصلاة والمصاحف ·

ويتعجب « برودلى » من أن الحكومة المصرية لم تكن لتتوقف عن مضايقاتها للباشوات السبعة حتى قبل نفيهم : فمرة يقال لهم أن أربعة منهم سيتوجهون الى « سيلان » وثلاثة الى « هونج كونج » لأن السفينة المقرر سفرهم عليها اسمها « المريوطية the Marotis » ليست بها أماكن تكفى لسفر سبعتهم معا (ثم يتضح بعد ذلك أنها تتسع لثلاثة أضعاف راكبيها) · ومرة أخرى يطلبون منهم تخفيض عدد الأشخاص المرافقين لهم فى منفاهم ، ثم بعد ذلك تصدر الحكومة قرارها بمصادرة أملاك الزعماء السبعة واعتبارهم ، مدينا ، أمواتا ، ولا يحق لهم أن يرثوا ، ثم أعقب ذلك تعيين حراس أتراك وجراكسة على بيوتهم لمنع دخول أو خروج أى أشخاص اليهم ، ولم يتم ابعاد العساكر الا بعد توجه « مستر نابير » المحامى ، الى « اسماعيل أيوب » (الذى رقى بعد انتهاء رئاسته لقومسيون التحقيق ، ناظرا للداخلية) ، وكانت آخر هذه المضايقات للزعماء ، ما تمثل فى صدور تعليمات لهم ظهر يوم عيد رأس السنة الميلادية ، بأن يرتدوا معاطفهم ويركبوا فى عربتين أعدتا لنقلهم الى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) فلما وصلوه تشكلت مجموعة صغيرة من القوات المصرية على هيئة مربع ، ووقف المسجونون فى وسطه ، وقرأ ضابط ، بصوت مرتجف ، المرسوم الخديوى بتجريدهم من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف الحائزين لها ، مع محو تقرين أسمائهم من دفتر ضباط الجيش المصرى محوا مؤبدا ، ثم عادت بهم العربتان مرة أخرى الى السجن ! ·

ويصف « برودلى » مدى جمود العقلية الادارية المصرية ، فيقول ساخرا انه احتفظ بساعة ومكان سفر القطار المقل للزعماء السبعة الى السويس على أنه سر عميق ، وتيقنا من « برودلى » و « نابير » أنهما ربما لن يعرفا لا ساعة السفر ولا مكانه ، تركا سايسهما « حسن » عند سجن الدائرة السنية ، حتى اذا حدث شيء مباغت أبلغهما على الفور ، وقد حدث ما توقعاه ، اذ أسرع اليهما « حسن » يلهث ، فوصلا الى القطار فى محطة قصر النيل ولم يكن قد تحرك بعد ، وكان تحركه مساء يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، وركب فى عربات المقدمة السيدات والأطفال والخدم ، كما وضعت فيها الأمتعة ، وقام بالحراسة فيه حراس انجليز

وبعض الضباط المصريين وبعض عساكر مصريين لمصاحبة المنفيين الى السويس ، وخصصت عربة من عربات الدرجة الأولى ، فى منتصف القطار ، لـ « عرابى » وزملائه ، وكان فى وداع القطار عدد من النظار ، ورجال السلطة البريطانية ٠ وبعد أن تحرك القطار واختفى عن الأنظار ، أخذ « برودلى » يسترجع ما شهده ميدان قصر النيل من أحداث ٠٠ كيف شهد الكتيبة التى كان يقودها « عرابى » الى قصر عابدين مطالبا بتحقيق مطالب الشعب ، وكيف كان عمله ناظرا للجهادية مقره فى قصر النيل ،وفى مبنى قصر النيل ، عقد « المجلس العرفى » ، التى أئتمن عرابيا على الدفاع عن بلده !

وكان « برودلى » عند وعده لـ « عرابى » بدفاعه عن أبناء مصر من غير الزعماء ، بل اقترح على الحكومة المصرية اصدار مرسوم ادارى بنفى المسجونين منهم ، ووافقت الحكومة المصرية على هذا الاقتراح ، وأدخلت عليه بعض التعديلات لصالح المسجونين بما يتيح « الافراج الفورى » عن عدد كبير منهم سواء بتقديم « ضمان » عن حسن سلوكهم أو « تعهد » بأن تكون اقامتهم فى أملاكهم الخاصة ٠

ثم تحدث « برودلى » بعد ذلك فى كتابه ، عن انطباعاته الشخصية عن « عرابى » وصحبه ، فذكر مفاخرا أنه تبين من مراجعة سجلات الحكومة وحسابات السكة الحديد والتلغراف وغيرها من الخدمات المماثلة أن عرابى واخوانه لم يمسوها على الاطلاق ، وأنهم وهم الذين كانت ثروة مصر كلها تحت أيديهم ، ذهبوا الى المنفى لا يحملون معهم الا ملابسهم التى كانوا يرتدونها والراتب الزهيد الذى صرفته لهم الحكومة المصرية ، وهى حاقدة عليهم » ، بل يذكر «برودلى» أن « بلوم باشا Blum Pacha » الذى أسند اليه مراجعة حسابات نظارة المالية المصرية أثناء ادارة المجلس العرفى لها ، ذكر أن مصاريف الحرب غطتها الاكتتابات التبرعية من من الأهالى !! ، ويشيد « برودلى » بالبيان الذى قدمه له « عرابى » فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٢ عن اصلاح أحوال مصر ، وأنه لا يفرق ، ان لم يفق ، خطة « لورد دافرين » فى ٦ فبراير ١٨٨٣ عن اعادة تنظيم مصر ٠

ثم أشار « برودلى » بعد ذلك الى الضرر البالغ الذى جرته تركيا على مصر لرفضها (وقت تصدع العلاقات بين الخديو « توفيق » وعرابى») حضور جلسات مؤتمر استانبول الذى دعت اليه الدول الستة الأوربية (انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وايطاليا) ووجهت الدعوة

الى تركيا فرفضت بدعوى أن درويش باشـــا ذهب الى مصر لتسوية الخلاف . ويتساءل « برودلى » هل يمكن أن يكون النفـوذ التركى فى مصر حقيقة سياسية أم خيالا دبلوماسيا ؟ ويتحدث عن ســوء الأحوال فى الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية وما انتهى اليه الأمر فيهـا ويضرب لذلك مثـلا بـ « تونس » ومـا انتهـى اليه الأمر من احتـلال فرنسا لها ، وسوء حال ولاية طرابلس الغرب ، ويشير الى تفشى الفساد والرشوة فى الامبراطورية العثمانية ، ويسوق مثـلا على ذلك أنه لولا الرشاوى التى كان يغدقها الخديو اسماعيل على حاشية السلطان ونظاره لما حصل على أحسن الفرمانات التى استفاد منها هو وأبناؤه من بعـده ، وبخاصة فرمان حصر الوراثة فى العرش فى فرعه فحسب .

واختتم «برودلى » كتابه بما كان يتمنى أن تصبح عليه مصر فى حالة « عودة الوطنية المصرية » لمباشرة نشاطها وفى حالة اعلان العفو عن الزعماء وعودتهم الى مصر ، وفى حالة ما اذا كانت انجلترا صادقة النية فى أن تبدأ مصر « بداية طيبة » ، ولكن للأسف لم تتحقق كل هذه الامنيات ، بل ظل الاحتلال الانجليزى جاثما على صدورنا نحـــن المصريين حتى عقدت معاهدة التحالف بين مصر وانجلترا فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ ، والتى أعلن بموجبها أن مصر صارت دولة مستقلة ذات سيادة .

* * *

كانت هذه المامة مختصرة اختصـارا شديدا بكتـاب « برودلى » الذى ترجمته ، فماذا كان على أن أفعله بعد فراغى من ترجمتى له ، وهو المرجع التاريخى التراثى الزاخر بالشخصيات المصرية والأوربية البارزة التى لعبت منذ أكثر من مائة سنة مضت ، أدوارها على مسرح السياسة الملىء بأحداث تلك الفترة ، ثم هناك الوثائق العربية الموجودة به والنادر وجودها فى أى مرجع سواه ؟

أما عما ورد به من الشخصيات العالمية والمحلية والاحداث التى كانت تدور فى فلك تلك الفترة ، فقد كان من السهل تغطية بياناتها من مختلف المراجع والموسوعات العربية منها والأجنبية ، كما هو موضح فى الملحق رقم ٣ الذى عنوانه « مراجع التحقيق » .

واما عن كيف حققت الوثائق المترجمة بكتاب « برودلى » ، فقد رجعت الى النسخة الاولى من كتابه والمودعة بدار الوثائق القـومية بالقلعة ، اذ بها مجموعة من الوثائق العربية الخطية ملصقة قبالة بعض صفحات الكتاب الانجليزية ، فكنت اذا ما وجدت الاصـل العـربى

لندن (ضمن ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر « بلنت ») (١) ، ومن بين الوثائق الاخرى التى احتفظ بها « برودلى » لنفسه ولم يودعهـا ضمن الوثائق الملصقة بكتابه : وثيقتان بالتركيـة ، احداهما : فرمان ترقية عرابى الى رتبة الباشوية (فى ١٤ مارس سنة ١٨٨٢) وفرمان براءة ترقيته (فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٢) والفرمانان مترجمان الى الانجليزية ! ، ثم هناك أيضا الوثيقتان اللتان حررهما أهالى مديريتى الشرقية والاسكندرية ، أولاهما تمجد فى نظارة محمود سـامى باشا لأنها منذ تسلمها مقاليد الحكم عملت على تحسين ظروف البلاد ورسخت مبادىء العدالة ودعمت قواعد النظام ومحت أخطاء من سبقوها ، وطالبت بالابقاء عليها ، أما الثانية ، فقد انتقدت قبول الخديو لمذكرة الدولتين الانجليزية والفرنسية التى تطالب باستعفاء نظارة محمود ســـامى باشا ، وذكرت أن فى الاستسلام لهذه المذكرة قضـــاء على امتيازات المصريين وامتيازات الباب العالى ، وأن من يقبلها عليه أن يفصل كليـة والى الأبد قضيته عن قضيتنا ، ورفض السكندريون فى هذه الوثيقـة أن يربطوا أنفسهم بأية قوة أجنبية حتى لو كان عليهم أن يموتوا من أجل ذلك ، وهناك وثيقة هى حكم كبار علماء الأزهر الشريف عـلى الخديو توفيق بعد أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ، والى جانب هذه الوثائق ، احتفظ « برودلى » بتقارير : أحمد رفعت (سكرتير مجلس النظار) ويعقوب سامى (وكيل نظارة الجهادية) والشيخ محمد عبده (مدير تحرير الوقائع المصرية) ، وكذلك تقرير « عرابى » عـن العملية الحربية التى قام بتنفيذها لورد آلكستر Lord Alcester (أحد قادة البحرية الانجليزية الذين اشـــتركوا فى ضرب طـــوابى الاسكندرية ، وكان أول من أعلن استياءه لرفع المصريين المدافعين عن بلادهم ، للراية البيضاء) .

ولقد كنت ألجأ فى بعض الحالات فى تحقيقى للوثيقة المترجمة التى لا أجد لها أصلا ــ كنت ألجـأ الى الدوريات التى كانت تصدر فى نفس تلك الفترة (مثل « الوقائع المصريـة » أو جريـدة « مصر ») ، ولكن كثيرا ما كانت تصدمنى حقيقة أن السنة أو الشهور التى كنت أتمنى الاطلاع عليها فى هذه الدورية أو تلك أكتشف أن لا وجود لها لأنهـا بليت (بعد مضى أكثر من مائة سنة عليها) ، فلم يكن أمامى من سبيل

---

(١) انظر تقرير عرابى المصور عن المخطوطة المحفوظة بجامعة لندن بالمدرسة المذكورة (مطبوعات المركز العربى للبحث والنشر ــ ١٩٨١ ، بمناسبة الذكرى المئوية للثـــورة العرابية) ــ (المحقق) .

العسكر (الجند) ، الكلة (وجمعها : كلل) (طلقة المدفع) ، الدونغمة (الأسطول) ، الشفخانة (دار الشفـاء) ، الاستبالية (المستشفى) الوابور (الباخرة أو السفينة) ، الطابية (القلعة / الحصن) ٠

● **اسماء البلدان :** لندره (لندن) ، الأستانة (القسطنطينية ـ استانبول) ، انكلترا (انجلترا) ، الروسيا (روسيا) ٠

كما تميز أسلوب الكتابة ، أحيانا ، بادماج كلمتين فى كلمة مثل: نقلا عنها (نقلا عن ما) ، بنـاء عليما تيقنته (بناء عـلى ما تيقنته) ، فبهذه الليلة (فى هذه الليلة) ، وعليذلك (وعلى ذلك) ، بما حصلى (بما حصل لى) ، عنذلك (عن ذلك) ٠

واستكمالا لواجبى كمحقق ، رأيت أن أضيف الى الكتاب ـ خدمة للمؤرخ والباحث ـ ملحقين الى جانب ملحقه الوحيد الذى هو عبارة عن خطاب بعث به أحمد رفعت الى « برودلى » يزوده فيـه ببعض بيانات سريعة تفيده ، عن : الحركة الوطنية ، والاجتمـاعين الأول والثانى للجمعية الوطنية بالقاهرة ، وتعريف بالمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى ، أما عن الملحقين اللذين رأيت اضافتهما فهما على الوجه التالى :

ملحق رقم ٢ ـ بعض نماذج من وثائق الثورة العرابية ٠

ملحق رقم ٣ ـ مراجع التحقيق ٠

وقبل أن اختتم كلمتى هذه ، أود أن أوجه شكرى الى من عاونونى فى تحقيق هذا الكتاب ، وجميعهم زملائى وأبنائى العاملين بقطاع دار الكتب والوثائق القومية ، أخص بالذكر منهم الحاج نصر الدين حسين رئيس القطاع السابق ، ومن دار الكتب الأساتذة : سعد رشيد (مدير عام الدار) وفتحى الجوهرى (رئيس قسم الفهارس الشرقية) والسيدة قدرية حمروش (رئيس قسم المراجع) والأنسة آمال المغربى (بالمراجع) ومن دار الوثائق القومية : الأستاذ فؤاد جلال (المدير العام) والسيدة سوسن عبد الغنى (مدير قاعة الاطلاع) ـ والسادة زين العابدين شمس الدين وأحمد منصور ، وسامى اسكندر ٠

والله ولى التوفيق

عبد الحميد سليم

مقدمة

فى الثالث من ديسمبر ١٨٨٢ ، عاد « أحمد عرابى » الى زنزانته فى سجن الدائرة السنية بالقاهرة ، بعد اعترافه بأنه مذنب ، بعدما وجه اليه من اتهام شكلى بالعصيان ، وحكم عليه بالنفى المؤبد من مصر • وهأنذا اليوم ، فى ٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، بعد انقضاء سنة على صدور ذلك الحكم ، أكتب هذه الصفحات التى تروى بالتفصيل قصة الدفاع عن « عرابى » ، كما تحكى من ناحية ، قصة قضيته • وقد رأيت أن أطرحها على القارىء الانجليزى المنصف ليحكم عليها • وقد كان من المفروض أن تنشر مبكرا عن هذا ، ولكنى فضلت أن أؤخر نشرها • كنت منشغل الفكر وأنا أكتبها لأبدى دورى ، ما استطعت ، من « دور » المحامى الى « دور » المؤرخ ، كما أردت أيضا أن أعرف ماذا كان سلوك السبعة المنفيين الى سيلان Ceylan (١) فيه ما يبرر اعتقادى فى ولائهم وصدق ايمانهم ، كما كان من الضرورى انتظار انقضاء السنة الأولى على « عودة الخديوية المصرية » حتى يمكن نقد ما أنجزته نقدا عادلا أو وزنه وفقا لما جنى من ثمارها • وعلى هذا ؛ فان قصتى التى أرويها عن « عرابى » وصحبه ؛ أرويها بعد مضى سنة على تركهم لفترة ، على الأقل ، جلته السياسات الفعلية •

ان العهود التى أخذتها انجلترا على نفسها بمحض ارادتها ازاء مصر ، لم تف انجلترا بها كاملة ، ويبدو لى أن أى حل نهائى للمسألة المصرية لازال بعيد المنال ، كما كان من قبل ، كما أن ما اقترحناه من مشروع للبدء ب « بداية طيبة » لم يتجاوز فى تقدمه خطوة واحدة من المرحلة الأولية للمخاطبات الرسمية اننى عاجز عن أن أرى أية نتيجة مرضية يحتمل الوصول اليها •

وقبل أن تصدر انجلترا ، والشعب الانجليزى معها ، حكمهما على مصير دولة تعهدت لها انجلترا فى كل المناسبات ببداية حياة جديدة ،

---

(١) جمهورية سرى لانكا Sri Lanka ، الآن (المحقق) •

البيانات الاحصائية مثلما كان يفعل أجدادنا فى الازمنة الغابرة قبلنا ٠ هناك ثورة ضمنية ضد كل ما هو جامد ٠ واذا كنت قد انحرفت الى حد ما ، عن « جاذبية الظروف المناسبة » ، فقد انحرفت لأن ذات طبيعة عرضى العام تتطلب ذلك ، وحتى أضمن لقرائى تحقيق رغبتهم الفعلية فى رؤية مصر والمصريين من خلال وجهة نظر مصرية ، ونظرا لانهم على غير استعداد لتتبع برنامج دراسى تاريخى قاس ، فاننى والحالة هذه ، أتبع الى حد ما أسلوب الطبيب الذى يداوى مريضه ، الذى يثق فيه ، باعطائه الدواء داخل أقراص لها رائحة الزنجبيل ٠

اننى على علم تام بان حل « المســألة المصرية » الذى أشرت اليه ، سيساهم كثيرا فى ايضاح طبيعة الوضع السياسى٠اننى واثق أنهستنبعث صيحة استهزاء ممن سبق لهم عرض بضاعتهم ، وحاولوا أن يقنعوا الجمهور بحكمة مختلف نظرياتهم ، وأكاد أستطيع عد من سيتفقون معى فى الرأى ، اذ لن يزيد عددهم عن أصابع يدى الاثنتين ٠ ولما كنت شديد الايمان باعتقاداتى الشخصية ، فاننى لن أخفف من لهجة انتقادى للأسلوب الذى تتبعه انجلترا فى تعاملها مع مصر ٠ قلة هم الذين يعترفون بأنه كان من الفشل « عودة الخديوية المصرية » تحت رعاية انجترا ، وقلة هم أيضا الذين اعترفوا بيأسهم فى أن تتحقق « بداية طيبة » فى ظل هذه الظروف ـ ظروف عودة الخديوية المصرية ٠ لو كان ما عملته انجلترا ، بدلا من ذلك ، هو « عودة الوطنية المصرية » لكان عملها هذا عملا جديرا بها ، ولهيأت به فى اعتقادى للمصريين الرخاء والسلام والحكم الذاتى ، ولأسهمت فى وقف طوفان العدوان فى شمال أفريقيا ولما كان من شىء يمكن أن يرفع من مكانة ونفوذ انجلترا فى محافل أوربا ، من أن تنفذ تلقائيا ، وهى فى أوج نجاحها ونصرها ، الوعود التى وعدت بها بمحض ارادتها ، والتى اعتبرتها هدفها وسببا لحملتها على مصر ٠

وأثناء مثول هذا المجلد للطبع ، ذهل كل من فى انجلترا لهزيمة هكس باشا Hicks Pacha (١) فى السودان ، رغم ما هو معروف عنه من ذكاء ، وقد لقى حتفه فى معركة مشئومة أمام « الأبيض » ولقى فيها حتفه هو الآخر ادوارد بولدوين ايفانز Edward Baldwin Evans مترجمنا الأمين الغيور ٠ ولا شك أن ابادة المهدى للقوات المصرية سيؤجل جلاء قوات انجترا عن مصر ، وسيكون فى الوقت نفسه مدعاة للتعجيل فى البدء فى « البداية الطيبة » ، وسأوضح لقرائى فى مكان آخر الى أى

---

(١) سيجد القارىء تحقيقا مفصلا عن هذا الموضوع باحد هوامش الفصل الثامن من هذا الكتاب ٠ (المحقق) ٠

ولازال « عرابى » وصحبه ينتظرون فى صبر ، فى سيلان ، انصافهم الذى يتوقعونه عاجلا أو آجلا ، وكلهم ثقة فى ذلك الانصاف ، انهم يعتقدون فى سلامة طوية انجلترا سواء بالنسبة لمصيرهم الشخصى أو بالنسبة للمصير النهائى لمصر · انهم راضون أن « يقضوا المدة التى أرادها الله لهم » وامتنعوا فى ثبات عن رفع الشكاوى التى لا جدوى من ورائها أو عن اثارة هياج يثير الغضب ·

لقد كتب لى « عرابى » هذه الرسالة بعد فترة قصيرة من وصوله الى « سيلان » :

« الى صديقى الأمين والمحامى عنى المستر برودلى حفظه الله

بعد اهداء مزيد سلامى على حضرتكم نخبركم أننا جميعا وصلنا الى كلمبو بجزيرة سيلان بغاية الصحة فى ١٠ يناير ١٨٨٣ بعد ان قطعنا ١٤ يوما فى سفر البحر وحصل لنا من حكومة الجزيرة غاية الاكرام وحضروا لنا البيوت اللازمة واكرمونا بالمآكل الفاخرة التى تكفى لمنازلنا مدة أيام فنحن جميعا نثنى على رجال الحكومة الانكليزية بكل لسان على ما صنعته معنا من حسن الاعتناء كما كنا نأمل فيها وان البلد واهويتها وهياتها موافقة جدا وسندخل اولادنا بمدارسها ونحن نتعلم ايضا اللغة الانجليزية ومتى نجحت مسئلة سلب املاكنا كما هو الأمل فى همتكم نكون جميعا فى عيشة راضية ومن هذا الطرف جميع اخواننا واولادهم يخصوكم بمزيد السلام ونرجوكم ابلاغ مزيد سلامنا الى اخينا احمد بك رفعت اتكان معكم والى حضرة والدتكم العزيزة المعظمة عندنا ومن معكم ودمتم بخير ·

محبكم المخلص

٢٤ يناير ١٨٨٣ (توقيع) احمد عرابى المصرى

خاتم

· ومنذ ذلك الوقت ، كانت خطاباته تنطق بنفس الرضا والاستسلام، كما أن المنفيين السبعة ، كرسوا أنفسهم للدراسة المثابرة للغة الانكليزية، وقد جاءت بنتائج ممتازة · ان ذكاء هؤلاء العصاة الخشنين لا يمكن أن يكون ترتيبا يبطن نوايا لهم ·

ومنذ أيام قلائل مضت ، تلقيت الخطاب التالى باللغة الانجليزية من رئيس الحزب الوطنى السابق ، محمود ســامى ، الذى لم يكن يعرف قواعد اللغة الانجليزية قبل أن يستقر به المقام فى كولومبو colombo

هذا ، وأثناء اقامتى بالقاهرة ، قام مستر فريـــد ريـــك فيليرز Mr. Frederic Villiers برسم مجموعة من اللوحات من الطبيعة ، وهى اللوحات التى تزين هذا السفر ، ومهارة رسمها تتحدث عن ذاتها ، ولقد نجحت شركة طباعة الصور الميكانيكية Photo-Mechanical Printing Company فى نقلها طبقا للأصل • واذا كان مستر فيليرز قد هيأت له الظروف فى الواقع ، فرصا لم تتح لرسام غيره ، الا أننى أشك فى أن أى رسام غيره كان فى استطاعته أن يغتنم هذه الفرص خيرا منه •

ا• م• برودل

مكتبة فندق لينكولن ، لندن

أول ديسمبر ١٨٨٣

مقدم التعابى

يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، لم يكن قد مضى على انتصار بريطانيا فى معركة التل الكبير غير أسبوع واحد فقط ، ولم تبد بعد أية دلالة على أن أول زهو حماسى أثاره هذا النصر ، سيتوقف • ووسط الحماس العسكرى الطاغى الذى اتخذ شكلا جديدا ، ووسط التغنى بأغنيات النصر البهيجة ، ندر أن كان هناك متسع من الفراغ أو الوقت للتفكير فى مصير من حلت بهم الهزيمة ، ومع ذلك ، ففى صبيحة ذلك اليوم نشرت جريدة التايمز Times خطابا مطولا من سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker (١)

---

(١) هو المستكشف الانجليزى للبحيرة الضخمة المجاورة لبحيرة فيكتوريا ، وقد اسماها بيكر بحيرة البرت أو البرت نيانزا Albert Nyanza على أسم زوج الملكة فيكتوريا ملكة انجلترا وقتذاك • وفى سنة ١٨٦٩ حضر بيكر الى مصر مرافقا للأمير ادوارد Edward ولى عهد انجلترا ، فى حفل افتتاح قناة السويس ، وأثناء الحفل أوعز ولى عهد انجلترا الى الخديو اسماعيل أن يستعين بخبرة بيكر فى قيادة حملة عسكرية الى أعالى النيل لبسط نفوذ مصر فيه وللقضاء على تجارة الرقيق هناك ، فاستجاب الخديو لطلبه وعين صمويل بيكر (بعد أن أنعم عليه برتبة الباشوية) حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة ٤ سنوات تبدأ من أبريل ١٨٦٩ ، وبراتب سنوى قدره ١٠٫٠٠٠ جنيه ، فلما انقضت مدته خلفه من بعده جوردون Gordon الذى رفض أن يتقاضى أكثر من ٢٫٠٠٠ جنيه سنويا !!

وقد أصدر بيكر الكثير من كتب الرحلات منها : البندقية وكلب الصيد فى سيلان The Rifle and the Hound in Ceylon (١٨٥٤) ثمانى سنوات متجولا فى سيلان Eight years Wandering in Ceylon ١٨٥٥) ، بحيرة ألبرت The Albert Nyanza (١٨٦٦) ؛ روافد النيل فى الحبشة (١٨٦٧) ، قبرص كما رأيتها فى ١٨٧٩ Cyprus as I saw in 1879 (١٨٧٠) ، الحيوانات المتوحشة وأساليبها The Wild Beasts and Their Ways (١٨٩٠) (المحقق)

المخرمة ، وكان مستر بورج أبعد من أن تنطبق عليه أوصاف القنصل الفرنسي للمواطن المالطي ، اذ يمكن اعتباره أقرب شبها من الملك هنري الثامن Henry VIII ، وهو يكن أعمق احترام وتقدير للأسد البريطاني - رمز بريطانيا التي لا تقهر the «invitta Britannia ، الذي رسم منذ قرن من الزمان فوق نقش كتابي على المخفر المواجه لقصر الحاكم ؛ والذي يجد له مكانا دائما في كل طلب مالطي دفعا للأذى ، طالما أن مالطة تشكل جزءا من الامبراطورية البريطانية · شرحت لمستر ب·ب· بورج ما أواجهه من مصاعب ، فذكر لي أن السفينة الملكية « هيكلا Hecla» ستغادر مالطة عند الظهيرة وأنني لو طلبت من الأميرال جرام Admiral Graham أن يسمح لي بالسفر عليها فلا شك أنه سيحقق لي طلبي · ويقتضيني الانصاف أن أذكر عن مستر بورج أنه لم يعبر عن رأيه في عرابي بالتعبيرات المتعطشة للدماء التي اعتدنا سماعها ، بل اكتفى ، على العكس من ذلك ، بتعبيره عن أنه كان يتمنى أمنية صادقة ، أن لو كان العصاة قد أطالوا أمد المناوشات قليلا ، اذ انها أتاحت له أن يبيع مزيدا من التبغ للجنود البريطانيين المغادرين لمالطة ، كما مكنته أيضا من بيع مزيد من المرجان والدنتلا والمصوغات الفضية المخرمة لجيش بريطانيا عند عودته من مصر ، وليس في هـذا ما يثير الدهشة لأن مستر بورج يسترجع تلك الأيام السعيدة التي وضع فيها أساس ثروته عندما كان أحد تباعي المخيمات العسكرية Camp-Followers في بلاد القرم Crimea ··

وعلى الفور ، هبطت السلالم دون أن أفكر في طعام من فرط سعادة ما سمعت ، وناديت على قارب يحمل علامة القطة السوداء (أما عن لماذا كل ثالث قارب في مالطة يسمى بهذا الاسم ، فهو ما لا أعرف له من سبب) وما لبثت أن بلغت السفينة الملكية « هيكلا » · بعثت ببطاقتي الى قائدها كابتن ويلسون Captain Wilson ، وفضلت أن يكون طلبي هو أن أركب السفينة الى الاسكندرية ، وقد أخبرني على الفور أنه لو صرح لي الأميرال بذلك فسيستجيب لرغباتي عن طيب خاطر ، وبسرعة نقلني قارب « القطة السوداء » الى خليج الترسانة حيث مكتب الأميرال جرام · شرحت مهمتي لواحد من أتباعه الذي عاد الى بعد بضع دقائق ومعه التصريح الذي كنت أتمناه كثيرا ، فبعثت في طلب حقائبي وعدت الى « هيكلا » التي أبحرت بعد نصف ساعة من وصولي اليها · وطوال الرحلة كنت ضيفا على « ميس » الضباط · وكنت سعيدا أن أتاحت لي هذه الفرصة التعرف على شفقتهم وكرم ضيافتهم · « وهيكلا » سفينة مخزن توربيدو حمولتها ٦٫٢٠٠ طن ، وقد سبق أن أدت أعمالا مجيدة في صور متعددة طوال الأيام الأولى من الحملة البريطانية على مصر ، والتي

يبدو أنها لم تكن معروفة جيدا أو لم يدرك أمرها ، لأنها ظلت لأسباب واضـــحة ، بعيدة عن الأضـــواء · لقد كان لخـدمات كابتن واطسن Captain Watson المتواضعة ما ساعد فى عبور القناة عند الاسكندرية ، فضلا عن مساعدته فى تنظيم وتشغيل القطار المدرع · أما القائد نوركوك Norcock فقد خاطر بنفسه مخاطرة بالغة باشتراكه فى تدمير مخازن الذخيرة فى الطوابى ، وأعتقده أمرا جديرا بالتسجيل · وطوال سفرنا ، أمضيت ساعات طويلة فى مختبر السفينة أتطلع الى نماذج كل آلة معروفة فى قتال الطوربيد ، وقد كان بلا شك احساسا غريبا لأصور أننا كنا فى سفرنا نسافر فى أمان فوق شحنة قابلة للاشتعال كافية لتدمير مدينة أو لتفتيتنا ، فى لحظة الى ذرات لا يمكن التعرف عليها ·

وفى ١٨ أكتـوبر ، عنـد بزوغ الصـــباح دخلنا الميـنـاء الخارجى للاسكندرية ، وفيما حولنا من مشهد هادىء وآمن ، كان من الصعب التعرف على الأحداث التى كان قد مضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر · لقد كنا ، مع ذلك ، أمام طوابى دمرت وفنارات لم ترمم وواجهة قصر رأس التين المحطمة · وقبل الساعة الثامنة ، رست السفينة عند مرفأ بالقرب من الجمرك ، فاستأجرت عربة حملتنى بسرعة متجهة الى حيث محطة مصر ·

أرض الاسكندرية ، وفيهــا قابلت صـــديقى القديم ريتشـــارد ايف Richard Eve من آلدرشوت Aldershot ، ورتبت معه أن يرافقنى الى القاهرة كمحام فى القضية . لا شـــك أنك وجدت فى خدمة السكة الحديد قدرا كبيرا من الارتباك ، ولكنها كانت أسوأ من ذلك عند وصولنا . وفى الصـــباح التـــالى مررنا كلانا على ســـير ادوارد ماليت Sir Edward Malet (١) ، فأخبرنا بأنه بعث بالفعـــل بتلغـــراف من عرابى من خلال وزارة الخارجية البريطانيـــة موجه الى « مستر بلنت » و « سير و . جريجورى Sir W. Gregory » (٢) طالبا مساعدة محام انجليزى (٣) وأضاف انه يعتقد أن الحكومة البريطانية لم يكن لديها اعتراض على أن نتولى الدفاع عنه بما لنا من كفاءة وأحالنا ، اذا أردنا مزيدا من المعلومات ، الى « سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson » ، الذى عين مؤخرا مندوبا بريطانيا بقومسيون التحقيق الابتدائى ، وقال ان اجراءات المحاكمة قد اتخذت وفقا للقانون العسكرى الفرنسى ، ثم توجهنا بعد ذلك الى « سير تشارلز ويلسون » الذى أخبرنا أن « عرابى » ، من يومين سابقين ، تسلمته الحكومة المصرية واحتجزته (وأن « عرابى » كان هادىء النفس لعلمه بأن من يتولى حراسته خارج السجن جاويش انجليزى) ، وقـــال انه نتيجة لذلك يجب علينا أن نسعى للحصول على تصريح من « رياض باشا » ناظر الداخلية ، لزيارة « عرابى » . ولما رجعنا مرة أخرى الى الوكالة البريطانية حصلنا على خطاب رسمى للتعريف بنا وبمهمتنا ، من « سير ادوارد ماليت » الى تلك الشخصية المسئولة .

واستطرد مستر « نابير » قائلا : « وفى اليوم التالى توجهنا الى « رياض باشا » » فى صحبة « الكولونيل ستيوارت Colonel Stewart » (٤)

---

(١) شخصية متعددة المواهب ، نشأ نشأة سياسية اذ كان أبوه سياسيا هو الآخر ، وتقلد مناصب متعددة ، وكان من أنصار القضية الوطنية المصرية وقت أن كان قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر (واتخذ له مترجما مستر آردن بيمان **Mr. Arden Beaman** الذى كان دارسا للغة العربية) وبعد انتهاء عمله بمصر رقى سفيرا لبلاده فى برلين . (المحقق)

(٢) كان سير ويليام جريجورى معاصرا لجلادستون ، وكان معروفا ب « ليبراليته » . كان من المدافعين هو وصديقه الحميم بلنت ، عن القضية المصرية . كتب عددا من المقالات القوية المؤيدة لعرابى فى جريدة التايمز ، وزار عرابى ، وتصادفت أن كانت زيارته له فى الوقت الذى زاره بلنت فيه ، وقد قامت صداقة بين جريجورى وعرابى ، وكان اذا ما عن لعرابى أن يطلع الشعب البريطانى على شىء أن يبعث بما يريد نشره الى جريجورى وبلنت (وكان كلاهما يحرران مقالات بجريدة التايمز) لينشر له .

(٣) كاد مصير هذه الرسالة أن يكون لسوء الطالع كمصير الخطاب الذى بعث به بلنت الى عرابى . لقد أرسلت هذه الرسالة الى جريجورى فى الوقت الذى كان فيه مسافرا بالخارج ، ولم تصله الا بعد ذلك بوقت طويل .

(٤) كان الكولونيل ستيوارت ضابطا اسكتلنديا فى الكتيبة ١١ فرسان المشهود لهم =

بناء على طلب سير تشارلز ويلسون ، الذى قدمنا الى الناظر المصرى . عرفت رياض بالفرنسية الغرض من زيارتنا ، وباختصار ، رفض أن يسمح لنا بزيارة الأسير لأنه مخالف للقانون المصرى ، ولكن وعد بأنه سيكتب للسير ادوارد ماليت عن الموضوع ، وبعد ذلك بعث البك « مستر ايف » بتلغراف قال فيه : « رفض التصريح بمقابلة الأسير ، اذا أمكن الحصول عليه سيرسل لك مقدم الأتعاب فورا » . وفى يوم ٩ أكتوبر ، توجهنا مرة أخرى الى « سير ادوارد ماليت » فقال انه لم يتلق ردا من رياض ، ولكنه اعترف بأن تسليم عرابى كان مشروطا بأن يسمح له بأن يتولى محام الدفاع عنه ، وأضاف ان الحكومة الانجليزية لن تتدخل فى الحكم اذا تبين أنه مذنب فى مذبحة ١١ يونيو وحريق ونهب الاسكندرية أو سوء استخدام الراية البيضاء . بعد ذلك كتب « مستر ايف » مذكرة قدمناها فى وقتها المناسب لـ « رياض باشا » ، وكان ذلك بعد ظهر ذلك اليوم » .

واحساسا من « ايف » بخطورة كونه محاميا عن « عرابى » ، دس فى يدى الوثيقة التالية التى ربما كان مظهرها جديدا فى اجراءات الدفاع المصرية ، ولا بد أنها أذهلت بكل تأكيد متسلمها الى حد كبير :

سعادة رياض باشا ناظر الداخلية لدى صاحب السمو الخديو

انا ، ريتشارد ايف من آلدرشوت ، بانجلترا ، بصفتى محاميا ، وبالنيابة عن احمد عرابى باشا ، أعلنكم فيما يلى أنه من الضرورى ، بصفتى المحامى عنه ، أن يسمح لى بلقاء المدعو عرابى باشا ، وأنا لذلك اطلب اعطائى التصريح المطلوب فى الحال حتى يمكننى أن اتلقى منه تعليمات عن دفع مقدم الأتعاب ولأعطى تعليمات للمحامى الذى سيتولى الدفاع عنه فى اتهامات معينة موجهة ضده ، وتحت أية اتهامات إحتجز الآن المدعو عرابى باشا ؛ وانني اطلب اكثر من هذا أنه فور تسلمكم لهذا الاعلان أن عليكم أن تبلغوا المدعو عرابى باشا انني والنبيل مارك نابير المحترم ، المحاميين الانجليزيين عن المدعو عرابى باشا ، متواجدان الآن بالقاهرة فى انتظار لقاء عرابى باشا لتلقى تعليماته عن الدفاع عنه عند

= بالتفانى فى الخدمة العسكرية . خدم فى الحكومة المصرية أثناء الاحتلال ، وعمل بمصر فترة ، فلما كلفت الحكومة المصرية غوردون باشا الحاكم العام للسودان بتشكيل جيش لمحاربة المهدى ، كان استيوارت من بين القادة الذين أسند اليهم العمل ، فقاد الفرقة الثانية بالجيش ، وكان سبب اختيار غوردون له الى جانب كفاءته العسكرية أنه كان على علم بالسياسات الاسلامية وحارب استيوارت باستماتة ولكنه أسر وقتل ، وبالتنقيب فى جيوب سترته وجد بها مفكرة ودليل شفرة تراسل وبيان بالذخيرة المتبقية بالخرطوم ونسخ التلغرافات المتبادلة بين غوردون والقاهرة وخطابات غوردون المستمرة التى تطلب النجدة ، وبيان بعدد الجنود المتبقية فى المعسكر وأسلحتهم ، كما وجد من بين أوراقه على طلبات استغاثة موجهة الى كل من البابا فى روما وسلطان تركيا ـ (المحقق) .

٢ ـ أنه بالرغم من حقيقة أننى أخبرت رياض باشا ، أنا شخصيا ، يوم ٧ أكتوبر ، بأننى موجود بالقاهرة كمحام للدفاع عن عرابى باشا ، وأننى أطلب أن يسمح لى فورا بلقاء السجين ، رفض اعطائى مثل هذا التصريح ، وأصر منذ ذلك التاريخ على مثل هذا الرفض ٠

٣ ـ أنه ، بالاشارة الى ما نشرته جريدة بول مول Pall Mall Gazette (١) فى عددها الصادر يوم ٣ أكتوبر من أن لورد جرانفيل Lord Granville (٢) كتب يقول : « يجب أن يقدم كل تيسير معقول للسجناء فى مصر ولأصدقائهم للوصول الى تشاور معهم فيما يتصل بالدفاع عنهم » ، فان مثل هذا التيسير لم يقدم ، بل على العكس من ذلك ، وضع كل عائق فى طريق مستشار ومحامى السجناء ٠

٤ ـ لم ترد موافقة على الاعلان الرسمى المقدم لرياض باشا (والذى أرفق صورة منه) ، وأنه على قدر ما أعلمه لم تحط الحكومة المصرية السجين علما بحقيقة أننى على استعداد وراغب فى مساعدته بالدفاع عنه ٠

انني يا سيدى ، خادمكم المطيع

مارك نابيير

المحام عن عرابى باشا

الى سير ادوارد ماليت ، حامل وسام الحمام Knight Commarnder of the Bath الخ ٠٠٠ الخ ٠

« وفى اليوم التالى زاد قلقنا بما سمعناه من اشاعات سرت فى القاهرة عن أن « عرابى » أسيئت معاملته فى السجن ٠ وفى ١٤ أكتوبر

---

(١) صدرت جريدة بول مول فى لندن فى القرن ١٩ ، وكان رئيس تحريرها ويليام توماس ستيد william Thomas Stead ، وكان يعد من أنشط الصحفيين السياسيين فى عصره وكان له من البراعة الصحفية ما مكنه من السبق الصحفى فى نشر أخبار الوزارة البريطانية المحاطة بالسرية البالغة ، وكان أول من أدخل نظام اللقاءات الصحفية Journalistic IntervieWs فى الصحافة البريطانية ، وكان أول لقاء صحفى قام به هو الذى عقده مع غوردون Gordon قبل توليه منصب الحاكم العام للسودان خلفا لـ « هيكس باشا Hicks Pacha» الذى فشل فى اخماد ثورة المهدى ٠ (المحقق)

(٢) كان لورد جرانفيل وزيرا للخارجية البريطانية فى وزارة جلادستون Gladstone وكان متزعما للمجموعة الامبريالية Imperialistic Group فى مجلس الوزراء ٠ تميزت فترة توليه لوزارة الخارجية البريطانية بالتباطؤ فى الاجراءات ، اذ كان ينتمى الى المدرسة القديمة التى تقول « لا تؤد عمل اليوم اذا كان فى مقدورك أن تؤجله الى الغد » ، بل كان هو نفسه ينادى بتبطىء الأمور daWdling matters out ، على اعتبار أنك اذا تركتها فستحل نفسها بنفسها ، وهى سياسة جعلت انجلترا فى عهده أضحوكة أوربا ٠ (المحقق)

زارني «سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson» (١) وجاءنا بخبر طيب هو أنه سيسمح للمحامين الانجليز بالدفاع عن «عرابى» ، وأنه سيكون فى الامكان زيارة « عرابى » ، وبناء على ذلك كتبنا مرة أخرى طلبا رسميا للسماح لنا بزيارته ، وقدمنا الطلب الى رياض باشا • وفى المساء ، جاء « سير تشارلز ويلسون » ليزورنا مرة أخرى ، وان كان قد جاء ليقول ان الحكومة الخديوية تأسف على ما صرحت به وأن التصريح بمقابلة عرابى رفض مرة أخرى • وقد علمنا أن مجلس النظار ، اجتمع فى اليوم التالى « بخصوصنا » لعدة ساعات ، وأنه فضل الاستقالة عن أن يساعدنا • وفى يأس ، استنجدنا مرة أخرى ب « سير ادوارد ماليت » الذى أكد لنا أن لن تكون هناك محاكمة حتى نرى المتهم ، وأن هذا التأخير الطفيف سيتيح لنا الفرصة لنعد دفاعنا عنه • هذا هو الموقف الآن » •

وعلى الفور ، أعربت لزميلى المحامين « نابير » و « ايف » عن أقصى تأييدى القلبى للعمل الطيب الذى قاما به • لقد أزعجت جرأتهما الحكومة المصرية بكل تأكيد ، وأثارت نظرات العداء لهما فى أعين الأوربيين المستوطنين والموالين المحليين ل « سير صمويل بيكر » و « سير جوليان جولدسميد Sir Julian Goldsmid » (٢) ، وكان تأثير جرأتهما ملموسا فى القاهرة • لقد كانا صريحين تماما فى موقفهما من القضية المصرية الوطنية ، ولو أنه ليس من الأسلوب المهذب فى مصر أن تدعو الأشياء بأسمائها الصحيحة(٣) • لقد اتفقنا على ألا نتأخر عن الاتصال الدائم

---

(١) بدأ « سير تشارلز ويلسون » بالسلك الدبلوماسى البريطانى ، فاشتغل قنصلا فى آسيا الصغرى ، ثم عمل بعد ذلك فى القاهرة والخرطوم ، ومن الصدف العجيبة حقا أن يزامله فى الأماكن التى خدم فيها : الكولونيل ستيوارت ، وكان كلاهما فى الحملة التى رأسها غوردون لمحاربة المهدى فى السودان • ومن المعروف عن سير تشارلز ويلسون أنه كان واسع المعرفة ، وقد مكن له ذلك عمله ضابطا فى المخابرات ، وكانت التقارير الرسمية Blue Bookc حافلة بخطابات متبادلة بينه فى مصر وبين المسئولين فى لندن ، ولكنه كان منصفا فى هذه التقارير ومؤيدا للوطنيين المصريين ومظهرا لموقف الخديو توفيق على واقعيته تماما • (المحقق) •

(٢) كان سير جوليان جولد سميد من القادة العسكريين الذين يبعث بهم دائما فى المهام المستعصية ، وكان « ولسلى » فى حربه لعرابى قد عينه رئيسا للمخابرات ، وقد تركزت خطته هو و ولسلى ، فى كسب البدو الى جانبهم قبل بدء « معركة القصاصين » ، ونجحوا فى ذلك ، فكانوا يشترون ضمير البدو مقابل جنيهين أو ثلاثة جنيهات •
(المحقق)

(٣) المثل الانجليزى المقابل لهذه العبارة هو :
Its is not fashionable to call a spade a spade.
(المحقق)

يتوقف عن الحـديث عن الضرورة المطلقة فى عدم التسامح فى محاكمة أسرانا فى الحرب ، ومع « عرابى » بصورة أخص • لست متأكدا تماما اذا كانت نصيحته هذه بالنسبة لهذا الموضوع غير مغرضة تماما ، ولكن ما أثلج صدرى أن أقول أنه راهن « مستر ايف » على جنيه انجليزى ذهب أنه (أى ايف) لن يقابل موكله ــ وخسر الضابط الرهان •

كنت سعيدا بمعرفتى « بمستر كاميرون » مندوب جريدة «ستاندرد» الذى أراد أن يرى الشئون المصرية من خـلال وجهة النظر الانجليزية البحتة ، وكاد يكون أول شخص منشق عن الصيحة العامة التى طالبت بسفك الدماء والانتقام • لقد غـادر القاهرة فى اليـوم التالى متجها الى أوربا • ومنـذ ذلك الوقت ذاع صيته فى مدغشقر Madagscar (١) والصين • اننى لا أنسى أن « مستر كاميرون » هو الذى تحدث الى بكلمات التشجيع الوحيدة التى سمعتها ذلك المساء بين مختلف علية الساسة المصريين haute politique Egyptienne فى شرفة فندق شبرد المحتشدة •

---

(١) هى حاليا جزء من جمهورية ملجاسى Malagasy Republic التى تضم مدغشقر وصغرى جزر المحيط الهندى • (المحقق)

بما يؤدى الى اثبات أو دحض الاتهامات المقامة » • وبعـد مناقشة تلت ذلك عن تفاصيل ترتيباتنا المقترحة انصرف « مسيو بوريللى » واعـدا بالعودة بعد ذلك في المساء بعد مقابلته للنظار المصريين •

فلما عدت الى الشرفة قلت لمراسلى الصحف الذين كانوا جلوسـا هناك ، فى صبر ، بحثا عن آخر الأنباء • قلت لهم : « أيها السـادة ، عندى خبر لكم : « ان الحكم الذى أعلن هنا الليلة الماضية قد نقض — مستر نابير وأنا سيصرح لنا بالدفاع عن عرابى » • وعلى الفور ، كان هناك تدفق على مكتب التلغراف•، بل ان دكتور راسل امتطى فى نشاط حمارا حصاويا ، وأسرع فى اتجاه مكتب التلغراف وبسرعة كان فى أثره مندوب متحمس من جريدة الأخبار المركزية Central News » • ولا داعى لأن أقـول ان المحاميين « نابير » و « ايف » عند وصولهما شاركانى غبطتى ورضاى عن أول ثمرات أعمالنا المشتركة •

لم يعد « مسيو بوريللى » ولكننى تلقيت منه خطابا ينم عن أدبه ، وكان فاتحة تراسل لطيف من جانبه ، يجب أن أقر بأنه يمكن اتخاذه نموذجا لاتصال بليغ فيما بيننا • ونظرا لمـا وصلنا اليه من اتفاق ، ارتفعت مكانتى تدريجيا من « مسيو » الى « عزيزى المسيو » ومن « عزيزى المسيو » الى « عزيزى المسيو والزميل » ، ومن « عزيزى المسيو والزميل » الى « صديقى العزيز » ، وأخيرا من « صديقى العزيز الى « صديقى وزميلى العزيز جدا » ، وعندما لم يعد بيننا اتفاق سقطت مكانتى نسبيا بقدر مدى تباعدنا حتى وصلت الى الدرجة التى يقدم فيها مسيو بوريللى تحيـاته .. الخ • M. Borelli présente ses compliments, Etc. ، وفيما يلى أول خطاب أرسله الى ، وان كان قد فقد شذاه فى الترجمة : —

القاهرة فى ١٩ أكتوبر

سيدى العزيز

اننى ارجو أن تتقبل عذرى ، اذ بالرغم من محاولتى الوفاء بوعدى ، لم أتمكن من الحضور الليلة الماضية • اننى اعتقد ان كل الصعوبات سيتغلب عليها اليـوم ، واذا ما تحقق هذا سـترانى عند بابك • اننى مقتنع بان قيام اتفاق بيننا سـيكون امرا أكثر يسرا مما لو كان مع دبلوماسيين • ارجو أن تقنع مستر نابير لقبول اعتذاراتى •

المخلص لك

أ• بوريللى

وفى الوقت نفسه تلقيت مذكرة « سير ادوارد ماليت » هذا نصها :

القاهرة فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٢

عزيزى مستر برودلى

ان خطوة هامة فى سبيل السير قدما قد امكن القيام بها منذ أن سعدت برؤياكم بالأمس . لقد طلبت من مسيو بوريللى أن يمر عليك ويحدثك عن اجراءات المحاكمة ، اذ هو المستشار القانونى لنظارة الداخلية ، كما أنه اشترك فى التحقيقات الابتدائية .

المخلص لك

ادوارد ب. ماليت

لقد أدركت الآن حقيقة أننا مقبلون بالفعل على دفاع خطير للقضية ، وأدركت أن مهمتنا لابد وأن ستكون مهمة طويلة ومكلفة جدا . لقد اقتنعت أننا يجب أن نستأجر بيتا ، اذ لا يمكن لمواطن أن يحتمل سماع النقد اللاذع لرواد شرفة شبرد ، وفضلا عن أنه سيكون علينا أن نعين جيشا صغيرا من الكتبة والمترجمين ليساعدونا فى تعاملنا مع المتهمين وفى نسخ السجل الضخم أو الملف الضخم dossier الذى علمنا أنه قد انشىء بفضل مهارة « بوريللى بك » ومساعديه . وبناء على هذا ، بعثت ببرقية الى مستر بلنت ، لأحيطه علما ، فرد على بالبرقية التالية التى تحمل طابعه المميز : —

برودلى

فندق شبرد بالقاهرة

حكومة الوطن [يقصد الحكومة البريطانية] تعهدت بالتصريح لكم بالمرافعة . لا تقبل أية مساومة .

المصاريف حسب حسن تقديركم .. بلنت

تناولنا الغداء معا بروح معنوية عالية فى مقهى ممتاز فى حدائق الأزبكية ، وبعد ذلك ، فى المساء تعرفت ببعض من أشهر خصومنا : كان من الصعب أن تعرف فى شخصية مشهورة وديعة ومحبوبة مثل شخصية « روجرزبك » (وكان يوما ما قنصل بريطانيا فى القاهرة) جلادا لـ « عرابى » على صفحات جريدة « الجازيت المصرية » . وقابلنا أيضا مستر جودول Mr. Goodall الذى حاجج أكثر الاجراءات تطرفا

فى غاية من اللطف والأدب ، والذى سمعت عنه عند تعارفنا فقط ، أنه أدى خدمة جليلة أثناء تفشى وباء الكوليرا ، ثم قابلنا فى النهاية مستر فيليب Mr. Philip ، رئيس تحرير وصاحب جريدة الجازيت المصرية the Egyptian Gazette الذىحاربنا بجرأة حتى آخر لحظة ، وأعلن في ثبات أن العقوبة أكثر أهمية من المحاكمة ، وما لبث أن صار المفسر الملهم للعقيدة السياسية المنبثقة من شرفة شبرد · والآن وقد انتهى القتال ، فأنا أول شخص يتمنى للجريدة الرائدة ول « مستر فيليب » كل نجاح يتمناه · لقد امتد حديثنا الى منتصف الليل ، ومع ذلك لم يبد أن أى واحد منا يميل الى التنازل عن رأيه ·

وفى الصباح التالى ، مررت مرة أخرى ب « سير ادوارد ماليت » ، ويبدو أنه قد تعب بحق من المهمة كلها ، وقال ان موقفه هو نفسه فى الموضوع قد أسىء فهمه تماما · وذكر لنا « سير ادوارد ماليت » أن بعض السيدات الانجليزيات حسنات النية بعثن اليه بخطابات غفلا من التوقيع يبصرنه الى مخاطر جريمة سفك دم « عرابى » · وبناء على اقتراحه ، توجهنا جميعا لمقابلة « شريف باشا » ناظر النظار المصرى · ولما كانت دواوين الحكومة مغلقة نظرا لأن اليوم كان يوم جمعة ، توجهنا الى قصر شريف الخاص · كان شريف يقطن فى قصر منيف ، كان يوما ما ملكا ل « اسماعيل صديق المفتش » (١) · وكان لبياض صخور القصر

---

(١) يقترن اسم « اسماعيل صديق باشا » الملقب ب « المفتش » بالضائقة المالية التى حلت بمصر فى عهد الخديو اسماعيل ، فعجزت الخزانة المصرية عن الوفاء بأقساط ديونها مما اضطر الخديو الى اصدار ثلاثة مراسيم متتالية فى شهر واحد بطمأنة الدائنين هى : مرسوم ٢ مايو ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين ثم مرسوم ٧ مايو ١٨٧٦ بتوحيد الديون ثم مرسوم ١١ مايو ١٨٧٦ بانشاء مجلس أعلى مختلط مؤلف من عشرة أعضاء : خمسة منهم أجانب وخمسة وطنيون من بينهم اسماعيل صديق باشا ناظر المالية المصرية · ولكن الانجليز والفرنسيين لم يقتنعوا بكل هذه المراسيم وطالبوا بقيام رقابة ثنائية ، فأصدر الخديو اسماعيل مرسوما فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ بقيامها ومثل انجلترا فيها مستر جوشين Mr. Goschen ومثل فرنسا مسيو جوبير Mr. Joubert · وأثناء التفاوض بخصوص الرقابة الثنائية قتل اسماعيل صديق المفتش فى ظروف غامضة ، وان كان من المؤكد أن مقتله يرجع الى مطالبة « جوشين » باقصائه عن نظارة المالية كشرط أساسى لاصلاحها ، فوافق الخديو على ذلك مضطرا وعين بدلا منه الأمير حسين كامل (السلطان حسين) ، ثم عاد « جوشن » فهدد بمقاضاة اسماعيل صديق باشا أمام المحاكم المختلطة عن العجز الواضح فى الميزانية متهما له بتبديد هذا العجز اضرارا بحقوق حملة أسهم قناة السويس ، فاضطرب الخديو من هذا التهديد ، كما أدرك من حديثه مع وزير ماليته أنه لن يبقى على ولائه لمولاه دفاعا عن نفسه وسيشرك الخديو معه فى تبديد أموال الدولة لو قدم للمحاكمة · ففكر الخديو فى التخلص منه بتدبير مشروع محاكمته بتهمة التآمر على حياة الخديو واثارة =

ونصاعة بياض مرمره ما يبعثان على انبهار البصر تماما ٠ استقبلنا شريف فى غرفة مؤثثة بأرائك وستائر على الطراز الشرقى ٠ ومما هو جدير بالذكر أن هناك تشابها عجيبا بين القصور العريقة فى القدم ذات الزخارف العجيبة القديمة فى تونس وبين قصور القاهرة الأكثر أناقة ، ففى الأخيرة يلاحظ أن زخارف « الدوم gingerbread » محتفظة بطلائها الذهبى ، فى حين أنه فى الحالة الأولى محى طلاؤها الذهبى من مدة ٠ استقبلنا شريف باشا فى احترام بالغ واستمع فى صبر الى اعتراضاتى التى أعدت توكيدها ، وقدم لى القهوة والسجاير ووعد بتيسير الأمور ما أمكنه ٠ لقد زاره « سير ادوارد ماليت » بعد ذلك على انفراد ، ولكننى كنت أعلم أنه كان مؤيدا ، فى حماس لطلبى الذى ألححت فى تحقيقه وهو مقابلة موكلينا على الفور ٠ « وشريف باشا » قد يسهل على المرء أن يخطئه فى شخص أوربى ، فهو يدخن السيجار بدلا من السجاير ويلعب البلياردو بصورة تبعث على الدهشة ، ويلبس خاتما من الياقوت الأزرق ذا جمال غير عادى ، وهو يدعى أنه بالفعل رئيس الحزب الوطنى المصرى ٠ وفى أول لقاء لنا تجنبت كل مناقشة ، محتفظا فى ثبات بالغرض من زيارتى ــ تسوية لموضوع الدفاع ، والتصريح بزيارة عرابى فى زنزانته ، وفى النهاية وعد شريف باشا بالاتصال بـ « بوريللى بك » ٠

وقرب الظهر ، صحبنى مستر بيل Mr. Bell ، مشكورا ، لزيارة أخطر خصم لنا ، « رياض باشا » ناظر الداخلية ، الذى كان لا يزال جريح الأحاسيس من تأثير بلاغات واحتجاجات « مستر ايف » ٠ كان رياض يقطن فى منزل متواضع كاد يكون فى ظل القلعة وفى سرة مدينة القاهرة ٠ استقبلنى فى أدب ، ولكنه كان يتحدث الى بأسلوب تشنجى غريب ٠ لم يكن فى استطاعتى أن أعرف ما اذا كان ذلك نتيجة مزاج صفراوى أم نتيجة أزمات الربو التى تنتابه ٠ لقد حاول بلا جدوى أن يتحدث عن تونس بدلا من حديثه عن مصر ، ويبدو أنه قد أعجبه كثيرا بيانى عن الأسلوب الذى اتبعه الفرنسيون فى محاكماتهم فى تونس ،

= الخواطر الدينية ضد الرقابة الثنائية ، وتخلص منه الخديو قبل أن تبدأ محاكمته ، وتنفيذا لذلك الغرض استدعاه الى سراى عابدين وتلطف معه فى الحديث ثم اصطحبه الى سراى الجزيرة ، وما كادت تصل العربة باب القصر حتى نزل الخديو وأصدر أمره بالقبض على « اسماعيل صديق » واعتقاله ثم عهد الى أحد أتباعه فقتله وألقيت جثته فى النيل ، واستمرت المحاكمة الصورية ماضية فى سبيلها وحكم المجلس المخصوص بنفيه الى دنقله وسجنه بها ! (انظر التفاصيل الكاملة : فى كتاب : عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ج ٢ ، ط ١ ص ٧٤) ٠ (المحقق)

وأخيرا ، قال على مضض شديد أنه لن يعارض خططنا بعد اليوم ، وأضاف قائلا أنه « يأمل أن يأتى الله بالخير منها ، وان كان هو يشك فى ذلك كثيرا » . وعندما رأيت رياض فى المرة الثانية لم يكن وقتها فى الحكم ، وكان « عرابى » فى طريقه الى سيلان .

بعد الظهر ، تلقيت رسالة قصيرة من « مسيو بوريللى » يطلب من « مستر نابير » ومنى أنا نفسى ، أن نقوم بزيارته فى منزله لنتناقش أكثر عن قواعد الاجراءات المقترحة . كان « بوريللى » يقطن فى فيلا تكاد تكون مواجهة للوكالة البريطانية ، مؤثثة بأزهى أسلوب للبذخ الشرقى ، وبمساعدة القهوة والسجاير دخلنا فى مناقشة جافة بعض الشىء بالنسبة للتفاصيل التى انتهت الى الرجوع مرة أخرى الى « شريف باشا » . كان الموضوع له نتائجه البالغة الحيوية ، نظرا لأن بعض التغييرات التى اقترحت فى اجتماعنا ستحول بيننا وبين الوصول الى الوضع الأكيد الذى كنت آمل أن نصل اليه نتيجة ترتيب صارم لاجراءاتنا الخاصة بالمحاكمة ، مستقبلا .

كان « مسيو بوريللى » كريما جدا ، اذ أرسل لنا فى وقت متأخر من المساء رسالة قصيرة فيها أننا يجب أن نلتقى لنتحدث عن الاتهامات الموجهة لموكلنا . وهذه الوثيقة تعد على جانب كبير جدا من الأهمية ، اذ ذكرت ما يلى : —

أحمد عرابى وغيره متهمون بالآتى :

أولا : أنه رفع الراية البيضاء ، فى الاسكندرية صباح يوم ١٢ يوليو ، انتهاكا لقوانين الحرب وللقانون الدولى jus gentium وفى الوقت نفسه لسحبه لقواته ، تسببه فى حرق ونهب المدينة المذكورة .

ثانيا : لتحريضه المصريين لرفع السلاح ضد الخديو (وهى جريمة تنطبق عليها المادة (٥) من قانون العقوبات العسكرية والمادة (٥٥) من قانون الجنايات العثمانى) .

ثالثا : لاستمراره فى الحرب بالرغم من علمه بنبأ السلام (وهى جريمة تنطبق عليها المادة ١١١ من قانون الجنايات العثمانى) .

رابعا : لتحريضه على حرب أهلية ، ونقله الدمار والمذابح والنهب الى الديار المصرية (وهى جريمة تنطبق عليها المادتان ٥٦ و٥٧ من قانون الجنايات العثمانى) .

وفى المساء ، تعرفنا على « مستر شنتزلر Mr. Schnitzler وكيل

شركة تلغرافات رويتر Reuter، فى النادى الخديوى Khedivial Club (١)، المنتدى المفضل لعلية المسئولين المصريين • وكان أول من ألتقينا به فى النادى « سير تشارلز ديلسون » الذى كان من المفروض أن يقوم بدور بالغ الأهمية فى المحاكمة المنتظرة •

كان يومان قد مرا الآن منذ وصولى لقد بدأ لقاؤنا ب « عرابى » • فى صورة أخرى ، بعيد المنال كما كان قبل ذلك ، لقد ركزت كل جهودى فى محاولة لاحراز أول نجاح فى موضوع اجراءات المحاكمة ، ولـكن يبدو أننا لن نحقق الهدف على الاطلاق •

وفى وقت مبكر جدا صباح اليوم التالى (٢١ أكتوبر) أحضر لى ساعى « بوريللى بك » رسالة مع وثيقة منسوخة نسخا أنيقا ومطرزة بعناية بحرير أخضر • بدأت بقراءة الرسالة ، وفيما يلى نصها :

القاهرة فى ٢٠ اكتوبر ١٨٨٢

عزيزى مستر برودلى ،

فيما يلى مسودة للاجراءات التى أنوى التقدم بها لأخذ الموافقة عليها من حكومة صاحب السمو (الخديو) ، لذلك ارجوك ان تخبرنى اذا كانت متوائمة مع اتفاقنا اللفظى • أما عن التأخير لعشرة أيام ، فلا تنزعج ، وارجوك أن تتقبل الوضع : فى المقام الأول سيجدونه مدة طويلة جدا من جانبى ، وفى المقام الثانى ، انا متأكد ان هذا كاف ؛ وكحقيقة ، فان البيان l'instruction ضد عرابى لم يتم بعد ، وسأؤجل استكماله لبضعة أيام لأمكنك من ان تلحق بنا • انا منتظر منك كلمة رد على الفور ، ولو سمحت ابعث بها الى ،

المخلص لك

ا• بوريللى •

ألقيت نظرة على المسودة المنسوخة بعناية والمطرزة بالحرير • كانت تحوى نفس النصوص التى سبق أن اعترضت عليها والتى ستؤكـد ادانة المعتقلين ، قلت لرسول « مسيو بوريللى » أن « مستر نابير » وأنا سنلحق به بعد بضع دقائق • وعندما وصلنا اليه ، حاربنا مرة أخرى ، على مدى ساعتين من الجهد والتعب ، معركة اجراءات المحاكمة • ومرة أخرى مررت ب « سير ادوارد ماليت » الذى أخذ على عاتقه أن يوضح

---

(١) صار اسمه اليوم « النادى الدبلوماسى المصرى » ، ويقع بشارع قصر النيل بالقاهرة فى مواجهة شركة الخطوط الكويتية • (المحقق)

ل « شريف باشا » من جديد ، عدالة اعتراضى على رأى « مسيو بوريللى »، وهكذا ضاع يوم ثالث . وفى صباح اليوم التالى قدم الى مرة أخـــرى مبعوث « مسيو بوريللى » وفى هذه المرة أحضر لى رسالة أخرى ، وأنا لا يمكننى أن أمنع نفسى من اقتباس ما جاء بها :

القاهرة فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٢

زميلى وصديقى العزيز ،

اخيرا ، المسودة التى أعددناها هذا الصباح والتى وافقنا عليها جميعنا اعتمدتها كاملة حكومة صاحب السمو الخديو ، اننى ارى اننا يمكننا ان نضم « عبد العال » و« على فهمى » و « الشيخ عبده » فى المجموعة الأولى ، ثم نحصل على موافقة باضافة بند جديد الى دستور المحاكمة وهو « من يعرفون الانجليزية والفرنسية » .

لعلك لاحظت اننى احترمت وعدى بالنسبة لما رتبناه هذا الصباح ، وأنا واثق انه طالما ان الأمر يهمك فستفعل نفس الشىء . يجب أن نلتقى الساعة الثامنة .

المخلص لك جدا

ا. بوريللى

وبعد ذلك بساعة فقط كان كل شىء قد انتهى ، وبوريللى كطرف أول و « مستر نابير » وأنا ، كطرف ثان ، وقعنا الاتفاق التالى كاجراء اتفقنا على الالتزام به : ـ

عما يجب اتباعه في سير الدعاوى الجارى اقامتها بمعرفة القومسيون الخصـــوصى الذى تشـــكل فى مصر بموجب ديكريتوا خديوى رقم ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

البند الأول : عندما يتضح من التحقيق الابتدائى اتهام شخص أو جملة أشخاص فريبس القومسيون يبلغ ذلك حالا الى المتهمين ويعلنهم بأن قضيتهم صار احالتها على المجلس الحربى .

البند الثانى : كل من المتهمين له الحق أن يختار له محاميـــا يكون اما أبوكاتو وطنى ، واما أجنبى بحيث ان هذا الأبوكاتو يكون مقيم بمصر حين افتتاح المرافعة أمام المجلس الحربى وبالحالة هذه يقتضى بأن الحكومة المصرية تعتمد هذا الأبوكاتوا المختار قبل ما أن يواجه المتهم وكل أبوكاتوا له الحق أن ينتخب له أبوكاتو ثان بصـــفة مساعد ولكن لا يسمح لهذا المساعد أن يرفع صوته للتكلم .

الغاشرة هرع الينا حسن ، وهو يلهث ، ودخل غرفتنـــا وهـــو يقول ان « عرابى » وصحبه قد غادروا لتوهم سجن الدائرة السنية ، فذهب « مستر نابير » (وكان متجها الى السويس) ليبحث عن أمتعته ، بينما تحركت أنا بأسرع ما يمكننى الى ثكنات قصر النيل ٠

كان المشهد عند « قصر النيل » مشهدا يستحق التسجيل فعلا ٠ لقد كان ضوء القمر ساطعا ، وعندما دخلت الميدان الكبير ، رأيت القطار قـد تحرك بالفعل ٠ وكانت ثلاثة جوانب من المربع التى تشكل ثكنات الجنود ، مبان شاهقـة بواجهات لها شرفات عتباتها لها أقواس ولكل طابق فوقه الآخر ، أما الجانب الرابع من المربع فكان يضم الصـالونات المذهبة لمبنى قصر النيل ونظارة الجهادية المصرية ، وكان بالميدان خط سكة حديد ينتصفه ويقسمه الى قسمين تماما من اليمين الى اليسار ، كاف تماما لمنشئات تحيط به وتتوزع على كلا الجانبين لتترك مساحة للقطار ليمر ٠ وليس هناك ما يمكن أن يسمى رصيفا ، وكانت قضبان التحويلة على مستوى الرصيف ، وكانت « بواكى » الثكنات وعمارة القصر الأكثر بهاء تبدو واضحة كل الوضوح فى ضوء القمر الساطع الذى بدا كما لو كاد يعتم لهب المشاعل التى كان يحملها بعض جنود الحرس المصرى ٠ وعلى الفور ، تجمعت أمام العربات مجموعة صغيرة من النظارة الذين كان يهمهم الأمر ، من بينهم « سـير تشـــارلز ويلسون » « ومستر ماكنزى ولاس » « وعثمان باشا غالب » ٠ كان القطار طويلا جدا ، كاد يكون امتداده بطول الميدان من جانب الى الجانب الآخر ؛ وركب فى المقدمة السيدات مع أطفالهن ، وأمتعتهن ، وخلفهن الخدم والحقائب الثقيلة وحارس من فرقة بنادق الملك الملكية (الكتيبة ٦٠) تحت قيـادة الميجور فريزر Major Fraser ، وكان هنـاك أيضـا بعض الضـباط المصريين وقلة من الجنود المصريين لمصـــاحبة المنفيين الى السـويس ٠ وخصصت عربة من عربات الدرجة الأولى ، فى منتصف القطار ، لـ « عرابى » وزملائه ٠ وعندما وصلت قصر النيل ، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم بالفعل: « عرابى » «ومحمود فهمى » « وعبد العال »كانوا فى ديوان « وطلبة » « وعلى فهمى » « ومحمود سامى » « ويعقوب سامى » فى ديوان آخر ٠ لقد بدوا فى صورة أكثر بهجة عن أية مجموعة عادية من الانجليز فى ظروف مماثلة لظروفهم ٠ تسلقت نوافذ القطار بصـعوبة ، لأودعهم ، ومرة أخرى قال « عرابى » بضع كلمات تنم عن امتنانه ٠

كان أمر بدء الرحيل على وشك أن يصدر عندما جاءنا «مستر بيمان» بنبأ أن الشرطى المكلف بحراسة منزل « عرابى » لم يكن ليسمح لزوجة ابنه وأختها بمغادرته ٠ ماذا سنفعل ؟ كان الوقت قد تأخر ، وناظر محطة

دائما بين أصابعه وهو يتكلم ٠ أما سحابة القلق التى بدت مخيمة عليه فى بادىء الأمر ، فقد أخذت تنقشع عنه تدريجيا ، وقبـــل انتهـــاء اعتقاله كاد يكون مبتهجا ٠

وأثناء قراءته لخطاب مستر بلنت كان يبتسم من وقت لآخر ويرفع يده الى جبهته كعلامة للعرفان بالجميل وبالرضا ٠ هذه العادة ، عادة عرابى عند متابعته الرسالة دائما ، لاحت لى طريفة بصورة متفردة ، وأسلوبه المهذب بهذه الصورة الغريبة لم يعجز عن التأثير على من شـاء واتصل به ٠ وبعد انتهائه من قراءة الخطاب سألنى أن أسمح له باستخدام قلم الحبر والحبر اللذين أتينا بهما ، ليكتب قبـل كل شىء بضعة أسطر يشكر فيها مستر بلنت وزوجته ٠ ولما أتم هذا ، اقترح عليه مستر « ايف » على اعتبار أنها نصيحة ، أن يعطينا عـــرابى مستندا مكتوبا بخط يده ليتمسك بـ « مستر نابير » وبشخصى باعتبارنا محامين له ، وقد وافق على الطلب على الفور ، وختمه بخاتمه توكيدا للوثيقة ، وقام مستر فيلير Mr. Villier مراسل جريدة الجرافيك The Graphic بشفها بعد بذلك(١) ، ولكن المترجم المصرى وقع فى بعض أخطاء لا أرى لها تبريرا ، الأمر الذى أثار تعجب وحيرة الرأى العام البريطانى بعـــد ثلاثة أسابيع من نشرها ٠ وفيما يلى نص الوثيقة بخط عرابى وخاتمه :

« ديوان الحقانية المصرية فى ٢٢ أكتوبر ١٨٨٢ » ٠

« اننى عينت مستر ريتشرد ايف من ألدرشت لندرا أفوكاتيا لى وأفوضه أيضا أن يأخذ للمحاماة عنى « الخواجا برودلى من النكنزن (٢) وصاحب الشرف مارك نابير من انترنبل (٣) كلاهما متشرعان » ٠

(توقيع) أحمد عرابى

خاتم يحمل اسم أحمد عرابى

---

(١) كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى القرن التاسع عشر ، لعدم توافر الامكانيات المتاحة اليوم من مختلف وسائل التصوير الضوئى ٠ (المحقق)

(٢) يقصد لنكولنز ان Lincoin's Inn (المحقق) ٠

(٣) يقصد اينر تمبل Inner Temple (المحقق) ٠

الفصل التاسع

استيفاء أوراق عرابى

فى اليوم التالى (الاثنين ٢٣ أكتوبر) كان احتفال المسلمين بعيد الأضحى المبارك ٠ ارتدى كل فرد أحسن ملابسه وبدا كل الباشوات متلألئين فى نياشينهم وأوسمتهم ، وكادت الشوارع حتى فى ساعة مبكرة من النهار يصعب اجتيازها نظرا لازدحامها بالعربات وبالمارة ٠ لقد هرع كل القاهريين وزوجاتهم متدافعين لينعموا بشروق شمس العيد طبقا لعادتهم المصرية ، « وتوفيق باشا » كاد يضنيه فى هذه المناسبة الرياء والتهانى ، وخارج قصره لم يكن هناك من أحد غير الحراس الانجليز الذين كانوا يسيرون جيئة وذهابا ، وكان فى هذا المظهر ما يذكره بالثمن الذى أبقى به على العرش كما يذكره بالمشاعر الحقيقية لرعاياه الثائرين ٠ ولم يمكن الاستقبال الخاص الذى عقده فى نفس اليوم تكريما لأقاربه من الرجال والنساء ، الذين كانوا يؤيدون القضية الوطنية ، لم يكن يقصد به أن ذهنه قد أحس (عن اقتناع) بنفس الرضا الذى أحسوا به ٠ ولقد كان أمرا محيرا الى حد ما لجمهور الشعب the public levée عندما رأوا « ابراهيم أغا التتونجى » ، المتهم بسوء معاملته ل « عرابى » فى السجن ، وهو يتقدم ليمرر الشبكس (١) ذات الفم العنبرى ، على المندوبين الأجانب ٠

وبأسرع ما يمكننا توجهنا ، « مستر نابير » وأنا ، الى السجن لنحيى عرابى تحيتنا الصباحية المعتادة ، وكنا قد أحضرنا له حافظة خطابات جلدية

(١) الشبكس chibuks كلمة معناها النارجيلة ٠ (المحقق)

ما اقترحت أن أقدمه ، ولذلك فانني فكرت على الفور فى « مستر ديفيد سانتلانا Mr. David Santillana » أقدر الدارسين للعربية ، الفصحى ، والذى فقد وظيفته كأحد نظار الحكومة التونسية نتيجة معارضته البالغة الحماس للمراحل المبكرة للعدوان الفرنسى • وفى نفس ذلك المساء بعثت اليه تلغرافا على روما Rome ليحضر الى القاهرة دون ما ابطاء •

وكاد يكون الاحتفال بعيد الأضحى يوما مليئا بالأحداث فى القاهرة • وقد ورد تلغراف ينبىء عن قيام ثورة خطيرة فى السودان بزعامة المهدى ، لقد التقيت بـ دكتور شفاينفرت Dr. Schweinfurth الرحالة المشهور ، الذى كانت وجهة نظره من الخبر السىء الذى بلغنا مؤخرا ، أقتم وجهة نظر ، وساد شرفة فندق شبرد قلق بالغ • لقد كان من حسن الحظ تماما أنه لم يحدث خلط فى أذهان الناس (وفى هذه الحالة سيكون خلطا لا يغتفر) بين قضية « المهدى » وقضية « عرابى » (كما حدث لـ « باى تونس » سىء الحظ الذى كان بطريقة أو بأخرى على اتصال تلغرافى بمذبحة فرقة فلاتير Flatters) (١) ، كما أنها لم تكن لتشكل أية خطورة على « عرابى » فى هذا الظرف العصيب ••

وفى وقت مبكر من الصباح التالى حضر الى غرفتى ابن عرابى باشا والشاب محمد بن أحمد • لقد ذكرا لى أن زوجة عرابى قد وجدت الأوراق ، وبعض الجيران أخافوها بما سرى من اشاعة أن زوجها عليه أن يستسلم لرحمة السلطان . ولم يعرف أحد منهما أين ذهبت الأوراق ؟ واذا لم يكن قد سبق لى أن تحدثت بصورة جافة ، فقد فعلت ذلك بالفعل وقتها ؛ ثم توسلت اليهما ، مرة أخرى ، أن ينفذا ، بكل ما يواجههما من صعاب ، ما طلبه « عرابى » منهما أن يفعلاه • لقد بدا عليهما الفزع ووعدا بالقيام بمحاولة أخرى ، وبعد ذلك بساعتين عادا فى عربة مغلقة • عبرت الشرفة للقائهما ، فوضع ابن عرابى بين يدى «بقجة» كبيرة ، عدنا الى غرفة الجلوس المشتركة • كانت رسوم قماش « البقجة » عبارة عن رسوم أوراق كوتشينة ، لونها أصفر على أرضية بيضاء (وأنا

---

(١) كان سبب هذه المذبحة أن قوات الاحتلال الفرنسى فى الجزائر ، أرادت أن تبعث بحملة تاديبية لتاديب قبيلة بنى خمر «Khamirs» ، وكانت تسكن على الحدود التونسية الجزائرية ، والتى لم تفتر عن مناوشتها للجزائر منذ احتلال فرنسا لها فى سنة ١٨٦٥ فى عهد الامبراطور نابوليون الثالث Napoléon III وقد اختارت فرنسا لقيادة هذه الحملة الكولونيل فلاتير Colonel Flatters ولكن الخبيرين أجهزوا على الحملة تقتيلا ، ولم يكونوا يدرون أنهم بفعلتهم هذه قد مهدوا الطريق أمام فرنسا لاحتلال تونس التى استخدمت فى احتلالها مختلف أساليب الدهاء والضغط فاحتلتها فى سنة ١٨٨١ وظلت باقية فيها حتى حصلت على استقلالها فى سنة ١٩٥٥ • (المحقق)

لا زلت أحتفظ به) ، استخرجنا منها عددا ضخما من الوثائق العربية من مختلف الأصناف والأحجام ، وبعد أن صرفنا زائرينا ، مع شكرنا القلبي البالغ قررنا « مستر نابير » وأنا ، انه سوف يكون من الحكمة البالغة أن نودع تلك الأوراق فى القنصلية البريطانية) فأخذتها الى « سير ادوارد ماليت » على الفور ، ووافق على ما اقترحته ، وبناء على رغبتى ، سمح ل « مستر آردن بيمان «Mr. Arden Beaman» » ، وهو طالب ومترجم ملحق بالوكالة ، وكان وقتها يؤدى خدمته مع « سير تشارلز ويلسون » ، بأن يقوم بترجمتها ، وفى وقت متأخر من النهار توجهنا : «سير تشارلز» وأنا الى القنصلية البريطانية ووضعنا عليها الأحرف الأولى من اسمينا ، وسجلنا رقما على كل وثيقة منفصلة ، وأخيرا تركناها جميعها فى حيازة « مستر بيمان » ولقد سبب التوصل الى هذه الأوراق مزيدا من الهياج فى القاهرة ، وقد سمعت من وقتها ، فى القسطنطينية ، ما أثار من حقد غير قليل ٠

ثالثا : ابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية (١٨ر٠٠٠ جندى) ٠

وكان «عرابى» مسبقا لما عمله ، قد أعد خطابات كتبها الى القنصلين الفرنسى والانجليزى بالقاهرة ذكر فيها أسباب المظاهرة ٠ أذعن الخديو لكل المطالب مع استعداد وحماس مشوب بالشك الى حد ما ، وبعد ذلك بثلاثة أيام اذ ب « شريف باشا » (بطل الوطنية المصرية المعترف به فى أواخر عهد اسماعيل) يعين ناظرا للنظار ، وعقد أول مجلس للنظار وكان من حاضريه محمود سامى ، (رئيس عرابى المقبل) ناظر الجهادية واسماعيل باشا أيوب (قاضى عرابى المقبل) ناظرا لنظارة الأشغال العمومية ٠

أما دعوة مجلس النواب القديم بأعضائه ال ١٥٠ ، وزيادة عدد الجيش فقد صدرت بهما أوامر عالية على التوالى ٠ وبدا كل شىء الآن يسير فى سهولة ويسر ، ولكن المظاهر كانت خادعة بصورة فريدة : ف « توفيق باشا » ، فى الوقت الذى كان يؤيد فيه ، ظاهريا ، الوطنيين المصريين ، كان فى الواقع يتطلع ، مترقبا ، الى مولاه السلطان فى استانبول ٠ لقد اقترح الباب العالى تعقيبا على هذا ، تدخلا عسكريا وارسال وفد امبراطورى ، ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا كلا الاقتراحين ٠ زار « سير ادوارد ماليت » السلطان الذى رفض قيام نظم نيابية فى مصر ٠ وعند عودة « سير ادوارد ماليت » الى القاهرة (٢ أكتوبر ١٨٨١) بعث برسالة هامة الى حكومته أوضح فيها أنه فى هذا الوقت صار على علم تام بوجود مؤامرات تركية ، وذكر بالتفصيل أسباب المظاهرة التى قامت فى الشهر الماضى ، وقد أقر بواقعية المؤامرة التى كانت تستهدف القاء القبض على الأميرالايات الثلاثة ، وبالمطالب وبالتجاهل المستمر لتنفيذ الاصلاحات الموعودة ، وعدم ولاء رياض فى علاقاته مع الضباط ٠ وبعد ذلك بأربعة أيام بعث السلطان بوفد مؤلف من « على نظامى باشا » ياور السلطان ، و « فؤاد بك » من أعضاء مجلس شورى الدولة ، بعث بهما السلطان الى الخديو ليكونا بمثابة مساعدين له ومستشارين ، وقد وصلا الاسكندرية ، فقررت بريطانيا وفرنسا ، عندئذ ، أن ترسلا سفنا حربية الى مياه الاسكندرية كعلاج للموقف antidote ٠ لقد كتب سير ادوارد ماليت » (١٠ أكتوبر) يقول : « لقد سببت هذه الاشاعة اضطرابا كبيرا بين المواطنين » وقال له شريف باشا ، فى وضوح ، ان مثل هذه الخطوة « ستخلق حتما هياجا بين الشعب العربى بأسره وستؤدى الى ثورة عامة » ، وعليه فقد تم الوصول الى اتفاق وهو أن يعود المبعوثان التركيان الى القسطنطينية ، ويلتحق عرابى بفرقته فى داخل البلاد وتغادر

ما تاما ودائما من حق اقرار الميزانية » ولكنه أضاف بأنه يجب
ذر ، اذ « لا بد وأن يؤخذ فى الاعتبار المصالح المالية التى تعمل
دلة الملكة من أجلها » ، وهو يسأل فى النهاية عما ستكون
جة لو أن المجلس سمح له بالتصرف فى الايرادات غير المخصصة
بين العام ، ويجيب « سير ادوارد ماليت » على الفور (١٦ يناير)
بتلغراف بأن المرتبات الرسمية التى لا تنظمها عقود تخضع
جلس ، الذى قد يلغى مسح الأراضى ويستغنى عن الكثير من
من الادارات » ، وتوضح رسالة رسمية كتبت بعد ذلك بثلاثة
« سلطان باشا » رئيس المجلس وقتذاك (وهو وطنى حيى ،
ذكره كثيرا فى هذا الكتاب) كان يعلن مؤكدا ومرارا وتكرارا
بل بأية صورة تحت ضغط الحزب العسكرى ، بل ذلك الطريق
حه ويؤيده ، أعنى تصويت المجلس على الجزء « غير المخصص »
نية ، الذى صدقت عليه الرغبة الجماعية للبلاد ، بوصف المجلس
لقيقى والمتحدث باسمها ٠

ار الموقف أكثر وأكثر توترا ، وكان شريف باشا يبدو ضعيفا
ه بين كلا الطرفين ، وفى يوم ٣ من فبراير بعد تلقى الخديو
من وفد عن مجلس النواب أقال النظارة التى كان
شريف ، وعين نظارة وطنية خالصة تحت رئاسة محمود باشا
ووزعت مناصب النظارة المختلفة على الوجه التالى : على صادق
وأحمد عرابى للجهادية ومصطفى فهمى للخارجية وحسن شريعى
، ومحمود فهمى للأشغال العمومية وعبد الله فكرى للمعارف
، وبالرغم من معارضة المعتمدين الفرنسى والانجليزى ، تأييدا
المالية اللذين يعملان من أجلها ، الا أن الخديو وافق فى ٨ فبراير
حة الأساسية الجديدة للمجلس ، متضمنة بنود الميزانية : وفى
سه ، قدم مصطفى فهمى مذكرة قانونية جدا ومقنعة جدا يعارض
خل القنصلين العامين الأجنبيين فى شئون ادارية هى شئون
بحتة ، وفى الوقت نفسه تقريبا ، بعث السلطان بتلغراف الى
ؤداه أنه (أى الخديو) يجب أن يترك هذه المناقشة الخاصة
ة ، لمجلس النواب » ٠ وقد تقدم رئيس النظار الجديد الى الخديو
متزن ولبق ، وتلقى فى اليوم التالى ردا عليه ، وأصل الخطاب
م فى حوزتى :

طاب الجناب الخديوى المعظم أيده الله ٠

يزى محمود سامى باشا

فى قبولكم تاليف هيئة نظارة جديدة مع ما فى ذلك من عظم الأهمية دليلا قويا على

وأخيرا في ٩ أغسطس ، حصل « لورد دافرين » من السلطان على « مسودة » قرار اعتبرت فيه الحكومة العثمانية عرابى عاصيا (١) ، ولكن يبدو أن هذا القرار لم ينشر رسميا حتى نهاية الحرب ، وقبل ذلك بيومين ، كان الخديو (وهو الآن سهل الانقياد تماما) قد سره أن يعلن عن غضبه على « عرابى » ، وقد بدأ منشوره على هذه الصورة : ـ

« نحن خديو مصر

نعلن لجميع المصريين أن عرابى باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت على مصر وأهلها خسارة لا وصف لها وجعلت الدول الأوروبية ناقمة عليها ، فانها باتت الآن تعتبر المصريين امة غير متمدنة ؛ فهذه الآثام والجرائم منحصرة فى عصيان عرابى المذكور وتحريضه للقوم على السير تحت لواء العصيان ، وفى الدسائس التى نشأت عنها مذبحة طنطا وغيرها من البلاد ، فأوقفت فيها حركة التجارة وعطلت أعمال الزراعة ثم فى عصيانه لأوامر جلالة السلطان المعظم (٢) وهى الأوامر التى صدرت له بالانقطاع عن التظاهر بالعدوان فى الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة عن هلاك نفوس وتدمير قلاع وخراب أبنية .

وبعد أن بدد عرابى فى أقل من ساعة شمل سكان اسكندرية التى نهبها واضرم فيها النار وخرج منها بجيشه ذاهبا الى كفر الدوار حيث عسكر بقوم من غير علمنا وبغير ارادتنا فبعث ذلك على نزول الانكليز الى المدينة لاطفاء النار المضرمة فيها ومنع النهب والمحافظة على الراحة . وفوق ذلك منع المهاجرين من العودة الى أوطانهم وقطع بين أهلها وبينهم وسائل الصلة والطلاقة وقطع الماء عن اسكندرية واعلن جهرا عصيانه بأكاذيبه الظاهرة ، فلذلك عد عاصيا ومستحقا لأشد العقابات بمقتضى الشرع الشريف ؛ ولا يزال مع ذلك عاملا على تعميم الخراب بمساعدة جنده والأهالى المتحدين معه المنقادين لآرائه الوخيمة وقد تجاوز الحدود .

---

(١) فيما يلى نص القرار : « ان الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا ، وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ، ثم ألتمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه وقال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام ، وأن الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية ، انما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم .

وقد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع زلاته السابقة واستبد برياسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسؤولية عظيمة لا سيما أنها تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية .

وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية ، وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ويتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الأوامر ليعرض نفسه لمسئولية عظيمة ، وان معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية » .

(٢) هذا يتناقض تناقضا تاما مع تلغراف الخديو الذاتى الى السلطان ليلة ضرب الاسكندرية .

هم أنفسهم « ولو تسرب أى شيء بالمرة من التقارير الرسمية البريطانية عن أسباب « عمليات انجلترا العسكرية » فى مصر ، لكان التبرير لها أن القيام بها كان ضرورة فحسب للدفاع عن المصالح المالية البريطانية فى ذلك البلد . اننى أعتقد أن نفس هذه الشواهد ، التى جانبت الواقع ، لتوضح بما فيه الكفاية لعقل أى شخص محايد أن الحركة التى تزعمها « عرابى » كانت النتيجة الصادقة لمطامح المصريين ، التى تكمل اتفاقا قائما بين الرأى العام وتصرفاته كزعيم شعبى ، وأنه ، اذا أخذنا فى اعتبارنا ما فعله السلطان والخديو ازاءه ، فليس هناك من سند على توجيه اتهام بالعصيان أو بالخيانة العظمى سواء ضد « عرابى » أو صحبه .

الفصل الحادى عشر

أميرالايان اثنان

بعد أسبوعين تماما من وصولى الى القاهرة ، انتقلنا الى حينا الجديد فى « بيت المفتى » كان لبيتنا مدخلان ، يفضيان الى شوارع مختلفة ، تسمح بقدر كبير من الزيارات الحرة ، وتسبب مزيدا من التعب لمخبرى البوليس المخصصين لمراقبتنا ، وكانت الباكية التى بنى البيت على جزء منها تستخدم كمبيت لفريق من مشعلى مصابيح القاهرة ، وفى وقت متأخر من الليل ، لم نكن فى استطاعتنا أن نصل الى دارنا الا اذا قفزنا على أجسادهم فى الظلمة · قبل أن تفسر لى تلك الاجراءات السائدة ، ظننت ، سذاجة منى ، أنها جزء من نظام جاسوسية تعرضنا له بطبيعة الحال ، طبقا لعادات البلاد ، كلف واحدا أو اثنين من موكلينا غالبا · كانت وسط الدار غرفة كبيرة استخدمناها كمكتب عام لنا ولكتبتنا ، أسميته مازحا يوما ما : « مكتب الدفاع المدنى Bureau de la défense nationale وهذا ما بعثنا عنه بتلغراف الى باريس بالاضافة الى اكتتاب فيه بـ ٥٠٠٠٠ر٥٠ جنيه استرلينى لدعمه ·

كانت الغرفة المعنية فى شكل مثمن غير منتظم ، وأدت يوما من الأيام دور صالون قمار عصرى · وطوال تسعة الأشهر التى أقمناها فى الدار ، شهدنا العديد من الأحداث الغريبة المتصلة بعملنا ، كما أننا شهدنا لقاءات طيبة جدا لم تكن بالقليلة · لم نكن هناك فى اليوم السابق لاستقرار رأينا على تغيير اقامتنا · كانت طرقة شرفة فندق شبرد تشكل صعوبة كبيرة بينما كنا نزلاء به ، ولكن الآن بدأ أصدقاء وأقارب المسجونين الوطنيين فى المجىء الينا · فى بادىء الأمر ، أبدوا تفضيلهم

على جنابه العالى بخصوص عدم توسط الداخلية فى جرنال تحقيق قضية الجراكسة ليس الا ، وصادقه على ذلك ناظر الخارجية ، فالحق والحق اقول ان هـــذه العبارة المحزنة التى لا حقيقة لها هى أصل البلاء الذى صب على مصر صبا •

ويستطرد عرابى قائلا :

« ثم لا يزال ذلك النفـــور متمكنا من نفس الخديو الى ان جاءت مراكب انكلترا وفرنسا الحربية وتقدم من حضرات قناصلهما لائحة بناء على راى ارتاه ابو سلطان باشا غير جازم به كما صرح بذلك غير مرة ومقتضى تلك اللائحة هو سقوط نظارة محمود سامى باشا وتوجهى الى أوربا وتبعيد على فهمى باشا وعبد العال حلمى باشا الى داخل البلاد المصرية • ولما كان مقتضى هذه اللائحة هو من الأمور الداخلية التى لا دخل فيها للغير لم صار قبولها بمجلس النظار لا لأجل حفظ وظايفنا ولكن حرصا على حقوق البلاد التى فوضت لعهدتنا وامانتنا ، اما الخديو فقد قبلها بادىء ذى بدء • ولما كانت هذه المسألة من المعضلات واختلف فيها بين الخديو والنظار ، عمل جلسة بديوان النظارة وتقرر فيها طلب أعضاء مجلس النواب للنظر فيما اختلف فيه وتسوية المسئلة بوجه مرضى ، اذ يجوز القانون ذلك اذا طرأ على البلاد أمر غير اعتيادى ، فحضروا النواب وصار اطلاعهم على تلك اللائحة فجميعهم رفضوا قبولها وطارت الأخبار فى جميع البلاد فحصل فزع شديد واجمع الراى العمومى على عدم قبولها ، وحضرت عمد البلاد واعيانها الى مصر معلنين برفض هذه اللائحة ورفض من يقبلها وكتبوا بذلك محررات مختومة باختامهم وأحضروها لطرفى لوثوقهم بى وكذلك لما يأذن الخديو بافتتاح مجلس النواب رسميا ختم على رفض تلك اللائحة كثير من اعضاء مجلس النواب وجاء كثير من العلماء والتجار والأعيان من كل جهة وقدموا محررات باختامهم وفتوى شرعية من افاضل العلماء بوجوب خلع الخديو بمقتضى احكام الشرع الشريف الاسلامى وموجود بعض من تلك المحررات بطرفى وبعضها يوجد بطرف محمود سامى باشا رئيس النظار ، ولما صمم الخديو على قبول اللائحة وعدم افتتاح المجلس استعفت النظـارة وقبل استعفاؤها (٢٦ مايو) •

« ثم فى صباح ليلة استعفاء النظارة حضر لمنزلى قناصل جنرالية دول المانيا والروسيا والنمســـا وايطاليا ، وكلفـــونى بان اعطيهم كلمتى بحفظ الأوروباويين جميعهم واموالهم القاطنين فى القطر المصرى فاعتذرت لهم بانى استعفيت من الخديو ، فلم يقبلوا عذرى بل اجابونى بانهم يثقون بقولى وان جميـع المصريين متى علـــموا كفالتى للاورباويين فانهم يحترمونهم غاية الاحترام ، فلوثوقى بان العسكرية لا يفعلون شيئا يخل بشرفهم العسكرى وان الأهالى يكرمون نزلائهم ، فاعطيت لهم كلمتى بحفظ جميع الأورباويين القاطنين بالقطر المصرى وحفظ اموالهم كما احافظ على نفسى وعلى اولادى ومالى لحين تشكيل هيئة حكومة ، فانصرفوا مطمئنين •

« وفى مساء هذا اليوم ، اجتمعوا أعضاء مجلس النواب بمنزل ابو سلطان باشـا رئيس النواب ودعونى للحضور اليهم فاجبتهم فكلفونى أن احافظ على الأمن العمومى وكان معهم جملة من العلماء وقاضى مصر •

« فذكرتهم بانى استعفيت وقبل استعفائى فكيف اكلف بهذا الأمر وليس لى صفة فى الحكومة فاجابنى رئيس المجلس ابو سلطان باشا وسعادة سليمان باشا اباظة احد الأعضاء بأنهم نواب الأمة وانهم يكلفونى بذلك وانهم لا يقبلون استعفائى وانهم يتوجهون الى

الحالة الأولى وهى الأسرة ، لا يجوز أن يكون أسيرا وحاكما ينظر فى مصالح البلاد ، كما انه لا يجوز ترك البلاد فوضى بلا حاكم ينظر فى مصالح اهلها ؛ وفى الحالة الثانية وهى الانحياز ، فكتاب الله يحكم عليه بخروجه من جماعة المسلمين ، وبذلك لا يصح أن يكون حاكما عليهم ، من اجل ذلك تحرر تلغراف منى الى وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى لنظر ذلكفى المجلس وتحرر للمابين الهمايونى تلغرافا بذلك • وفى ١٧ يوليه تقريبا ، حضر لى تلغراف من الخديو يوجه على جميع المسؤولية وانى السبب فى حدوث الحرب وأن اشغال الطوابى وتركيب المدافع فيها لم كان ينقطع وانه حصل الصـــلح ، ومقتضى توجهى له للمكالمة معى مشافهة ، فعلمت من ذلك انه ماسور وانه مامور بطلبى للقبض على وانه ينفى عن نفسه بنسبة أسباب الحرب الى ، فكتبت له تلغرافا بأن انحياز جنابه الى الجيش المحارب لبلاده أثر فى قلوب الناس تأثيرا عظيما والتمست تعريفى بشروط الصلح حتى أتمكن من التوجه الى اسكندرية ، فلم يجاوبنى بشىء ، فكتبت تلغرافا الى وكيل الجهادية للنظر فيما ذكر فى المجلس ، وكذلك تحرر من الخديو ومن راغب باشا الذى كان رئيس النظار ، لكافة جهات الحكومة بحصول الصلح ، وابطال التجهيزات الحربية ، فتعطلت حركة التجهيزات الحربية نوعا من حصول المناوشات بين مقدمات الجيشين عند حجر النواتيـة ، فكتبت لوكيل الجهادية بنظر ذلك فى المجلس وأن المناوشات حاصلة بين مقدمات الجيشين ومن ذلك يعلم أنه لم حصل صلح ، وكتبت للمديريات بارسال طلبات الجهادية بدون تاخير ولا يلتفتوا لأوامر تصدر بشانها من غيرى •

« هناك عقد مجلس بديوان الداخلية للنظر فى كل ما ذكر ، حضره وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والأعيان ، وتذاكروا فيهذا الأمر الذى دهم البلاد ، فقر رايهم على ارسال وفد منهم الى الخديو باسكندرية ويطلبوا منه ومن النظار أن يتوجهوا الى القاهرة عاصمة البلاد فان كانوا مطلوقين السراح فيجيبونهم الى ذلك وان كان مقهورين على بقائهم فى اسكندرية تحت حفظ العساكر المحاربة للبلاد فيعود الوفد الى مصر ويخبر المجلس ليرى رايه • وتالف هذا الوفد من : على باشا مبارك ورءوف باشا ومن العلماء : الشيخ احمد كبوه شيخ طرق الصعايده بالأزهر والشيخ على نايل ، ومن التجار السـيد احمد بك السيوفى وسعيد بك الشماخ وكيل طرابلس الغرب ، وارسلوا وعادوا الى مصر ثانيا ما عدا على باشا مبارك والسيد أحمد السيوفى حجزا فى اسكندرية • وبعودة الوفد علينا بكفر الدوار ، افادونا بان الباطل لا يغنى من الحق شيئا وان من غش المسلمين فليس منهم وان الـــذين باسكندرية تحت قهر الانكليز وأنه لا يستطيع أحـــد أن يخرج منها الا بورقة رخصة من الانكليز ولكنهم مأمورين بأن يقولوا غير ذلك ، هذا ، ونشر اعلان من الخديو بختم فى ٤ رمضان ١٢٩٩ الموافق ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢يعلن الناس فيهـــا بعزلى حيث انى لم اعمل على مقتضى الأمر الخديو فى ارسال العساكر الى جهة العجمى لدفع ومنع عساكر الانكليز عن تلك الجهة بل تركت اسكندرية بلا موجب وأخذ العساكر وتوجهت الى كفر الدوار ، فعرض هذا على المجلس أيضا وصدر أمر من الخديو بالتلغراف الى وكيل الجهادية بذلك وبابطال التجهيزات الحربية •

« هنالك عقد مجلس حافل يزيد عن خمسماية نفس ، حضرة ثلاثة من البرنسات وشيخ الاسلام وقاضى مصر والشيخ المفتى والسيد السادات والسيد البكرى وكثير من العلماء الأعلام وبطريرك الأقباط والمطران وكثيرين من القسس وحضره حاخام اليهود ووكلاء نظار الدواوين ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضـــاة المديريات والمفتيين اللذين بالأقاليم وكثير من نبهاء مجلس النواب وعمد الأهالى ونبهائها وأعيان التجار وغيرهم وكثير

الم تكن ارض الله واسعة فأهاجر فيها أو لم كنت أتوجه الى لندره فاحتمى فيها ان فى ذلك لتذكرة لمن يتذكر ٠

« فالحق ، والحق أقول ، انى لست بعاص ، وانما قمت وقامت البلاد أى الأمة المصرية فى طلب تحرير بلادها مع غاية الشرف وحفظ الناموس لا لغاية شـخصية كما يفتروا المبطلون بل انى مكلف بحفظ البلاد من طرف الحضرة السلطانية حيث تبين لعظمته اخلاصى وسوء مقاصد الخديوى كما ورد لى بذلك كتاب من حضرة الشيخ محمد ظافر من خواص الذات الشاهانية وكتاب آخر من سعادة أحمد راتب باشا ياور الحضرة السلطانية موجودين بطرفى للآن ، ثم انى صرت قائد للجيش فى المدافعة عن البلاد بوجه الشرع والقانون وأمر الخديوى والمجلس أولا وقرار الأمة ثانيا ٠

« وليس بعد ذلك دليل ولا برهان ٠ هذا ما انتهى اليه البيان ؛ فياحضرات المحامين عنى : ذو الشرف المستر برودلى ومستر نابير ذو الشرف ومستر ايف ذو الشرف ، وياحضرات نصراء الانسانية والمحامين عن الحق بأنفسهم وبأموالهم من غير أن تأخذهم فيه لومة لائم صديقى الأمين مستر بلونت ذو الشرف والكمال والمشتركين معه من أحبائه المحافظين على شرف الانسانية بانجلترا ، هذه الرسالة كتبتها بيدى عما صـار من الحوادث الابتدائية والانتهائية على مقتضى الحق والانصاف بدون شك فيها ولا ريب ، وليس بعد الحق الا الضلال المبين ٠ » (١) ٠

أحمد عرابى المصرى

---

(١) لابد لى أن أوضح هنا أن هناك فارقا بين التقرير الذى كتبه « عرابى » وهو فى سجن الدائرة السنية بالقاهرة ، وتقريره الثـانى الذى أعاد كتابته وهو فى منفاه بكولومبو بجزيرة سيلان (سرى لانكا ، الآن) ؛ اذ أن تقريره الثانى (المحفوظ أصـله بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن تحت رقم ١٤١٣٩٤ ضـمن ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر بلنت ـ الذى نشره الأستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطى (مصورا) عن دارة : المركز العربى للبحث والنشر ، سنة ١٩٨١) ـ هذا التقرير منقح ومزيد ، اذ قسمه الى قسمين اثنين :

القسم الأول فى بابين :

الباب الأول ـ فيما يتعلق بالحوادث التى حصلت قبل الحرب

الباب الثانى ـ الحوادث التى أعقبت ذلك

القسم الثانى فى حوادث الحرب وما يتبعها

وختم تقريره هذا على هذه الصورة : انتهى فى ١٦ ذى الحجة ١٢٩٩ ختم ختم
هجرية

موافق ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ بمدينة كولومبو بجزيرة سيلان

بينما تقريره الأول الذى سجله مستر برودلى ضمن وثائقه (مترجما الى الانجليزية) ذيله بالعبارة التالية : كتبته فى سجن الدائرة السنية بالقاهرة فى هذا اليـوم ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ٠ (المحقق) ٠



(شكل ٦) ـ طلبة عصمت باشا

و « أحمد بك رفعت » ، ولذلك فقد تقدمنا رسميا بطلب التفويض لنا بتولى الدفاع عن ثمانية من المسجونين السياسيين الذين كانوا ينتظرون الآن محاكمتهم ، وكان من بين هذا العدد : « يعقوب سامى باشا » الذى سمعنا عن مقدرته غير العادية كوكيل لنظارة الجهادية فى نظارة عرابى سمعنا القدر الكبير ٠

وخلال صباح ٣٠ أكتوبر ، تلقينا خطابا بخط اليد بالفرنسية من « اسماعيل باشا أيوب » ، رئيس قومسيون التحقيق ، يفوضنا لتولى الدفاع عن ثمانية الأشخاص المعنيين ٠ توجهنا الى السجن على الفور ، فقدمنا مستر بيمان Mr. Beaman (وكان وقتها يقوم بالعمل كمترجم للكولونيل « سير تشارلز ويلسون ») الى « طلبة باشا » الذى كان يبدو أنه عاجز عن التعبير عن رضاه لما أحس بوصولنا ٠ « وطلبة باشا » كان بكل تأكيد واحدا من الأشخاص الذين يقول عنهم الفرنسيون « مظهرهم غير جذاب ne paye pas de mine» ٠ كان انسانا غاية فى الحياء ، قصير القامة ، شاحب اللون من قلقه ويعانى من أزمة ربو مزمنة وينفرد بمحيا يخلو من أى تعبير ٠ كان من الصعب أن تتصوره وهو يقود المشاه عند كفر الدوار أو فى تحديه الخديو فى حضور مجلسه ، وطوال متاعبهم فى القاهرة كان يلتصق بعرابى كما يلتصق الطفل الضعيف بأب قوى ، وكان

بيانا عن مسئولياتهم · وكان « سعد الدين بك » ، مدير البحيرة ، قد نال الثقة بسوء معاملته لبعض المسجونين المكروهين بصورة خاصة ، وهم في طريقهم الى السودان · و « محمد حمدى بك » ، وهو تركى ، كان صهر السجين « أحمد رفعت » الذى كان يكن له عداوة شخصية شديدة · لقد دبر ببراعة ألا يقدم التفاصيل عن ادارته لممتلكات المرحوم « مصطفى فاضل باشا » ، متجاهلا الطلبات الحماسية المتكررة من الباب العالى · لقد عنف « محمد حمـدى » لاعطائه أوراقا لناسخينا ، وحتى أثناء نظر قضية عرابى كان سليطا وجاف المعاملة ، بل تمادى الى درجة أنه كان يلطخ كمية من التلغرافات بالحبر ، ويرمى بها على المنضدة أمام أعضاء القومسيون المستائين ، ويتهم موظفينا بتشويهها لغرض شرير · ومن سوء طالعه أننى اكتشفت أن الحبر لم يكن قد جف بعد ، كما أنه لم يكن أحد من كتبتنا يباشر عملا منذ اليوم السابق · وبعد نجاة عرابى من الموت ، تكشفت ل « حمدى » الحقيقة ، وتغيرت معاملته الى صداقة ، بل صار ذليلا وتصادق مع « رفعت » المسكين ، وشكرنى والدموع فى مآقيه لأننى أنقذت شرف عائلته ولأننى كنت أحمى المصريين بوجه عام · أما « مصطفى راغب بك » و « سليمان يسرى بك » و « مصطفى قبرصى بك » و « محمود مختار أفندى » فلم يكن يعتد لهم برأى فى فئة المحامين البحريين · لقد أوضحوا أنهم كانوا أنفسهم بارعين فى تخويف المساجين والشهود ، ولم يكن فيهم من هو أخطر من « سليمان يسرى » · وعندما بدأ نجم الوطنيين فى الصعود مرة أخرى ، اعتاد « سليمان يسرى » أن يطاردنا ليحصل منا على شهادة أو تزكية ، بدعوى أنها ستساعده ماديا مع رؤسائه ·

الى هؤلاء السادة قدمنا « اسماعيل باشا أيوب » (وهو مصرى طويل القامة نحيفها ، يتميز بوجه ذكى معبر) ، فى رزانة صباح يوم ٣١ أكتوبر ، ثم ألقى كلمة كان قد أعدها بهذه المناسبة ، فقال : « ان مقدمكم يشكل فترة فى تاريخنا يجب اعتبارها علامة فى طريق تقدمنا · هذه هى المرة الأولى ، على مدى آلاف هذه السنين يحضر محامون أجانب أمام محكمة مصرية · نحن نرحب بمجيئهم كدلالة على أن انجلترا قد عزمت على أن تهيىء لنا اصلاحا تشريعيا ومحاكم أفضل » (ويبدو أنه نسى أن هذا كان مطلبا من المطالب الثورية التى طالب بها المساجين النازلين فى الغرف المجاورة له) واستطرد : « وأنا كمصرى ، يسعدنى أن أسمح لهم بأن يترافعوا · كلنا سمعنا عن « مستر برودلى » فى تونس : واننا نأمل أن يفهمنا ويساعدنا هنا » · وقد اختتم اللقـاء بتناول القهوة والسجاير وابداء الاعجاب المتبادل ·

ذلك الوقت ، بكل تأكيد ، عبر المحيط الأطلسى . أما بالنسبة لما أسدى الى من نصح ، فاننى أريد فى الواقع أن أشير الى مثلين اثنين ، كتب الى محام انجليزى من تمبل Temple يقترح أنه « لما كان استسلام عرابى غير شرعى ، » فهو لازال من الناحية التكنيكية محتجزا عند القوات البريطانية، ويستتبع هذا استصدار اعلام قضائى ضد « سير جارنيت ولسلى » أو « سير ادوارد ماليت » باحضار المسجون بجسده writ of habeos corpus للمثول أمام محكمة القضاء العالى للنظر فى أمره . وأما النصيحة الثانية فكانت من مسيو هنرى ديفرييه M. Henri Duveyrier الرحالة المشهور الذى تلقيت منه الخطاب التالى : —

باريس ، ١٨ شارع بيجال Pigalle

اول نوفمبر ١٨٨٢

سيدى ،

اننى بكل احترام احيطكم علما بانى خبرتى كرحالة فى الصحراء الكبرى منذ اثنتين وعشرين سنة مضت ، تجعلنى اعتقد ان « عرابى باشا » لابد وان له علاقة ما « بطريقة » اخاء دينى اسلامى ، طريقة « سيدى محمد السنوسى » التى تمقت المسيحيين مقتا شديدا .

فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان ادانة « عرابى باشا » يجب أن تخفف بصورة ما باعتبار انه عضو فى جمعية تتسلط على مشاعره ونزعاته .

اننى لا اعرف اذا كانت هذه الاشارة قد تفيدك ، ولكننى اكون شاكرا لو تكرمت وافدتنى عما اذا كان عرابى باشا او لم يكن عضوا فى اخاء دينى مع سيدى محمد السنوسى ، وما اذا كان أو لم يكن يتلقى تدعيما من الجمعية .

اننى يا سيدى ، اكثر من يكنون لك احتراما .

هنرى ديفرييه .

صار الآن مكتبنا الكبير فى دار المفتى مكانا مفضلا كمكان للتردد عليه ، كونت فيه العديد من الصداقات السعيدة ، والتى لا يمكن أن تنسى بسهولة ، فهذا مستر شيرول Mr. Chirol ، كاتب من الكتاب على المام تام بسياسات الشرق بصورة فريدة ، وكان فى ذلك الوقت يتولى أعمال المراسل الخاص لجريدة ستاندارد Standard ، كان واحدا من زوارنا المترددين علينا وكذلك مستر جون مكدونالد Mr. John Macdonald زميله القدير فى الديلى نيوز Daily News ، وبدأ أيضا كثير من المصريين فى زيارتنا بمزيد من الحرية ، وكان من بينهم شخص غاية فى الذكاء

الفصل الرابع عشر

ماذا حوته أوراق عرابى ؟

فى أول نوفمبر ، سلمنى « مستر بيمان » نسخا أصلية من ترجماته لأوراق « عرابى » التى يبلغ عددها ٦٩ ورقة ، وبفضل ما أوتى من قوة على تكبد العمل الشاق ، أتم مهمته الصعبة فى تسعة أيام ، بالرغم من ضغط أعماله الرسمية • ولو أن القضية العظيمة قد حوربت حتى نهايتها المريرة ، لكان الكثير من الوثائق التى أئتمننا عليها « عرابى » قد لقيت أهميتها البالغة فى دعواه أنه « ليس مذنبا » ردا على اتهامه بالعصيان ، بينما كان فى استطاعة الوثائق الأخرى أن تحث ، على أية حال ، بنفس القوة تقريبا ، على تدعيم الادعاء الذى يطلق عليه الفرنسيون عبـــارة « مراعاة الظروف المخففة للجريمة وعقابها Circonstances atténucuntes ان ما أقصد اليه هو أن أقدم فى هذا الفصل بضعة أمثلة تصور ما أؤكد عليه الآن وهو أنه لا جدوى من تجميع المزيد من الوثائق لأن فحوى كثير منها متماثل ، وتجميعها لا يساعد الا على البرهنة على امتداد وكثـــافة الحركة التى يتزعمها ، والذى كان وجودها من وقتها مثار شك بلا مسوغ على الاطلاق •

لم يكن فى استطاعة « عرابى » أن يعثر على الاطلاق على الخطابات الأكثر تأييدا ، وهى خطابات الرسول التركى « أحمد أسعد » ، ولــكن ما وجد فى دار « عرابى » من مراســلات أخرى من نفس الشخص تشير بوضوح الى تلك الخطابات المفقودة • ومن حسن الطـــالع أن زوجـــة « عرابى » احتفظت بها بمظروفها الأصلى المختوم • وفيما يلى خطابات من « قصر يلدز » :

من الشيخ محمد ظافر مفتي جلالة السلطان

ناظر الجهادية المصرية سعادتلو أفندم

قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم الى جلالة السلطان وجلالتـــه علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل اخلاص وأمانة فانها وقعت لدى جلالته موقعا حسنا حتى أن جلالته أمرنى أن أبين لكم سروره ورضاه وأكتب لكم كالآتى :

حيث ان حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر من أيدينا ووقوعها فى قبضة الأجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنساوية فنحن وضعنا كل ثقتنا فيكم ياوالدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شيء مثل ذلك ــ فكن على حذر دائما ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ولا تتركوا أية طريقة او وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المثمرة فى عصرنا هذا واضعا نصب عينيكم دائما الغرض الذى نرمى اليه الا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم وخصوصا يجب عليكم ان تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التى تربطكم بنا ٠

تلك البلاد هى بلاد مصر التى لها أهمية عظمى لدى انكلترا وفرنسا وخصوصا لدى الأولى ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن فى استانبول يمالئون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التى تؤدى الى الخراب وسوء المصير ٠ وقد رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن فى مصر وجهوا عنايتهم الى ذلك بنشاط وغيرة ؛ فرغبة جلالته الخصوصية هى أن تحذروا من أولئك الخونة الأشرار ومكايدهم وتراقبوا اعمالهم بعيون ساهرة لا تنام وبناء على التلغرافات والأخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا احد اعضاء الجمعية الموما اليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضا ان كل تلغراف من تلغرافاته لا تؤيد الآخر بل جميعها على طرفى نقيض ٠ وازيدكم معرفة بان « على نظامى باشا » و « على فؤاد بك » قد اثنيا عليك ثناء جميلا لدى الحضرة السلطانية وكذا احمد راتب باشا » ، فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة ٠ وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته فى « أحمد راتب باشا » ؛ فقد كلفنى لهذا السبب أن اظهر لكم ثقته فيكم واخبركم انه حيث أن جلالته يعتبركم رجلا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شيء منع وقوع مصر فى قبضة الأجانب وأن لا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التداخل فى شؤون مصر ٠ هذا وأن التعليمات التى ستصدر الى راتب باشا فى هذا الشأن لكم على حدتها ٠

وقد كتب خطابى هذا وخطاب احمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة أحد كتاب جلالته الأخصاء وبعد أن وقعنا عليهما باختامنا فى حضرته العلية ختمنـا على الظرفين ٠ هـذا واعلمكم بصفة خصوصية وسرية أن جلالة السلطان لا يعول على « اسماعيل » ولا « حليم » ولا « توفيق » بل يعول على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التى تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطته المستقلة فى استانبول وخلافها ولا يعطى رشوة لأولئك الموظفين الخائنين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجباته ويكون على دراية تامة بدسائس أعدائنا

من الضعف ويحتاج الى البحث الدقيق وراء الدواء الشافى العاجل ـ وعليه يهمكم قبل كل شىء منع ما عساه ان يؤدى الى التداخل الأجنبى وأن لا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصغوا الى الاختلافات التى تسبب الخدعة بل يجب عليكم فى كل الأحوال منع حدوث التدابير الأجنبية التى يقصد منها اثارة الفتن بكل تيقظ وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى ٠

وبما اننا سنكاتب بعضنا فى المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا فى أيدى الغير ٠ واسهل طريقة وآمنها التى يمكنكم اتخاذها الآن هى أن تعطوا مكاتبتكم الى الرجل الصادق الأمين الذى يحمل هذا وآخر من الشيخ محمد ظافر ـ وأزيد على ذلك انه من الضرورى ارسال ضابط سرا يكون عالما بأحوال مصر ويكون من احـــد اصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقدم الى اعتاب جلالة السلطان تقارير مســـهبة حقيقية عن أحوال البلاد ٠ هذا وارجوكم ارسال رد هذا بمعرفة الرجل الذى يحمل هذا الخطاب ٠

فى ٢٤ ربيع الآخر ١٢٩٩هـ	أحمد راتب
و ٢٢ فبراير ١٨٨٢م	ياور جلالة السلطان

ومن الأهمية بمكان أن تأخذ فى الاعتبار التاريخ الذى كتبت فيه تلك الخطابات ووضع الأشخاص الذين كتبوها : ف « أحمد أسعد » بعثه السلطان فى مهام سرية عديدة الى مصر منذ بداية سنة ١٨٨٢ ، ولتيسير هذا التراسل عين فى وظيفة دينية فى الجزيرة العربية ، ويصفه ردهاوس Redhouse بأنه « بديل السلطان فى مسجد الرسول عليه السلام فى المدينة ، ورئيس الوعـــاظ ورئيس المنشدين به » ؛ وأمـــا « محمد ظافر » ، فكان مستشار السلطان الروحى وموضع ثقته ، وكان له وحده حق الجلوس فى حضرته ٠ وكان يحتل جناحا من الغرف تجاور مباشرة الغرف الامبراطورية ؛ ولقد سبق أن وكلت اليه المفاوضات الدقيقة بالنسبة لتحركات عرب « تونس » على حدود « طرابلس الغرب » ؛ أما « أحمد راتب » ، فكان واحدا من الياوران الذين هم موضع ثقته ، والذى لعب دورا هاما (رغم سريته) فى أول مهمة تركية الى مصر ٠

وفيما يلى فرمانا الرتبة والبراءة الخاصان بعرابى واللذان صدرا على التوالى فى ١٤ من مارس و ٢٤ من يونيو ١٨٨٢ :

فرمان الرتبة :

نحن أمير الأمراء الكرام ذو القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى ؛ نيابة عن خديو مصر ، لمـا كان واحد من أمراء الجيش الامبراطورى فى مصر ، شخص له شهرته ومكانته ٠

ســخية لو تركت كوبرى الزيات مفتوحا عنـدما يتوجه عرابى الى الاسـكندرية الليلة ؟ » ولما رأى على وجهى ما أثاره اقتراحه ، تظـاهر بالضحك وقال انه كان يمزح فحسب ، ولكن هل يمكن الا أن يكون جادا فى عرضه مثل هذا العرض على أشخاص انجليز ؟ لقد كاد أن يرغمنا على أن نشرب بعض النبيذ الذى كنا قد طلبناه له ، كدليل على ايماننا بعدم جدية ما عرضه • وبعد أن غادرنا ، انتابت مستر « أوليفانت » حالة اغماء شديد coma وصرت أنا مريضا بصـورة عنيفة ، وأعتقد أن المرض المروع الذى جاء فى أثر ذلك أنقذ حياتى • وفى وقت متأخر من الليـل توجهنا نحن الاثنين الى نقطة البوليس حيث أخـذت شـهادتنا ، ثم أعقب ذلك خروج الأوربيين من الاسكندرية وبذلك مات الموضوع » ، ولقد أكد « مستر أوليفانت » هذه القصة الغريبة توكيدا تاما •

وكان أحـد زوارنا أيضـا « السـنيور ج • ب • ميسـداليا Signor G. B. Messidaglia» ، الذى كان يعمـل مـع « جيسى باشـا Gessi Pacha» ، أحـد النواب الثـلاثة لحاكم السـودان • لقـد بقى « مسيداليا » بالقاهرة طوال الفترة العصيبة كلها قبـل معركة التـل الكبير ، أو بالرغم من أنه كان يعارض عرابى شخصيا ، الا انه كان يمتدح علنا ، استتباب النظام الذى كان يلتزم به مرءوسيه ، اذا قال : « لم يكن يظن ، على الاطلاق ، أن يكون فى القاهرة مثل هذا الأمان الفعلى مثلما هو قائم خلال الفترة التى يمكن أن تسمى بحكم الارهاب » ، وقد أطلعنى على وثيقة وقع عليها كل الايطاليين المستوطنين تؤكد السـلوك الجدير بالمدح ل « ابراهيم بك فوزى » رئيس ضبطية القاهرة فى حكومة عرابى • وقبل عودته الى السودان مـرة أخرى (حيث أدى هنـاك عملا جليلا) أعطانا « السنيور مسيداليا » رسما كروكيا لضرب الاسكندرية ، كان له صيته الذائع فى القاهرة أثناء عمليات كفر الدوار ، وقد استخدم فيه اللون الأخضر والأحمـر والأصفر ، واستغنى فيه عن اظهـار الأبعاد بالمرة ، وكان فى الصـورة « عرابى » يلوح بسـيفه منتصرا بينما كانت

---

(١) رومولوجيسى Romolo Gessi ايطالى الأب ، أمة أرمينية من القسطنطينية • كان فى نفس عمر جوردون Gordon (حاكم السودان) • وبين الرجلين تشابه عجيب : فالوقت الذى كان فيه « جوردون » يقود جيشه المنتصر فى الصين ، كان « جيسى » يحارب مع « جاريبالدى » لتحرير ايطاليا ، واشترك كلاهما فى حرب القرم واشتركا أيضا فى حرب العصابات غير النظامية ، وكانا من نمط المحاربين الفدائيين Commandos وكانا يكمل كل منهما الآخر ، ففى الوقت الذى كان فيه « جوردون » حساسا وانعزاليـا ومتقشفا ، كان « جيسى » عطوفا اجتماعيا أليفا ، أما الصفة البارزة فيهما فهى البسالة التى لا حدود لها • (المحقق)

سفينته ، على الأقل ، مشتعلة وأخـرى تغرق ، وكان « مسيو جبراييل شارم M. Gabriel Charmes » (١) **يرى في هـــذا الرسم جريمـة** لا تغتفر تمثل ترجمة لعمليات جريئة لطرف واحد ، نشرها « الوطنيون » وبعثوا بها تلغرافات لتشجيع المصريين • ولو كانت المحاكمة قد استمرت لكنت قدمت مجموعة من الصحف الفرنسية الرسمية التي تكشف كيف أن جامبيتـــا Gambetla في سـنة ١٨٧٠ اقترفت خطأ بنشره بيانات عن نفسه بعيدة كل البعد عن الواقع •



(شكل ١١) وقائع الحرب باسكندرية كما ترى من القاهرة

لقد تقرر الآن ، بغض النظر عن النفقات ، الاعداد لعقد محكمـة جديدة في القاعة الكبرى بسجن الدائرة السنية • وبدأ العمال في العمل فيها ليل نهار بسرعة كادت تكون محمومة • وأعتقد أنهم لكي يحمـوا من سيحتلونها ، من البرد ، نزعت الأرضية الفاخرة من بلاطات الرخام •

---

(١) انظر مقال « العصيان العسكري في مصر «L'Insurrechon Militaire en Egypte مجلة العالمين الاثنين Revwe des Deux Mondes شهري اغسطس وسبتمبر ١٨٨٣ •

البداية الى النهاية ، وهناك خطابات معينة فى حوزة عرابى باشا قد نشرت بالفعل ، وقد اكدت محتوياتها تاكيدا قويا ، السرد المثير للدبلوماسية الملتوية ل « قصر يلدز » التى كشفتها التقارير الرسمية البريطانية Blue Bocks التى نشرت مؤخرا ، كما اننا نرجو أن نبرهن على أن سمو الخديو كان لفترة طويلة سابقة لبدء العداوات ، متأرجحا بصورة منتظمة بين الحزب الرجعى وبين الوطنيين ، ولكنه بعد وصول درويش باشا وافق كما وافق درويش باشا ، فى ثلاثة اجتماعات للنظارة ، فى المراحل الأولى للمقاومة - على التوكيد على اتخاذ اجراء حاسم ساندته بنود مبهمة لقرارات لاحقة أعلنت فى كل من القسطنطينية ومصر . وهناك نقاط قانونية اخرى قد تثار ، على ما نعتقد ، اعتراضا على تهمة العصيان ما بين ٢٠ يوليو و ١٣ سبتمبر ، خاصة وانه طبقا للدستور العثمانى العصاة من يشـــنون حربا على السلطان ، وهو الذى نكن له كل احترام ، قد دفعهم بالقول وبالفعل لبشـنوا الحرب التى سبق ان شنوها على العدو المشترك .

اننا سنسىء الى موكلنا لو اعتمدنا على مجرد المصطلحات القانونية ، ونحن ، بطبيعة الحال يجب ان نصر على تحديد للقانون المعنى الذى سيطبق على القضية ، ولقد ســـوينا اجراءات المرافعة ، لهذا الغرض ad hoc ، طبقا لقانون مرافعاتنا ، ولكننا نعتمد أساسا على براهيننا على ان عرابى ، ان كان على حق أو على خطأ ، كان يرأس بالفعل حركة وطنية وانه تلقى التاييد المعنوى والمادى من مصر كلها تقريبا ، وانه كان الشخص الوحيد الذى ترك وحده عندما فشل فى تحقيق النصر . هذه الحقائق نحن نشعر بأننا متأكدون من تدعيمها ، واكثر من هذا سنبرهن على أن الصراع الراهن كان أكثر حرب انسانية عرفت فى تاريخ الشعوب ، تميزت بالانعدام التام للذعر من القتال العادى ، وبأن جهود قوادها كانت موجهة ، بصورة متماثلة ، الى حفظ النظام واستتباب الأمن سواء بالنسبة للأشخاص أو الممتلكات . اما عن جرائم الاسكندرية : فان أية معلومة أعطيت للصحف ، قد وصلتنا بالفعل ، ومع ذلك ، فعلينا أن نعرف من الذين يتهموننا . ان كل ما نستطيع أن نقوله فى الوقت الراهن هو أن كل سلوك لاحق ل « عرابى باشا » هو فى ذاته أنصع دليل فى صالحه . واذا كان « عبد القادر » التونسى قد ارسل وحده منفيا الى دمشق ، الا ان غاراته على الجزائر قد فاقت فى خطورتها ووحشيتها أية افتراءات على « عرابى » حتى من الد اعدائه .

اننا لم يسمح لنا بلقاء عرابى . الا فى يوم ٢٢ اكتوبر ، وسمح لنا بزيارة موكلينا الآخرين بعد ذلك ببضعة ايام ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأحد أن يتهمنا بعدم المثابرة ، لقد عملنا بلا انقطاع وبمساعدة مجموعة مؤلفة من عشرين ما بين مترجمين وكتبة فى فحص وثائق كلا الطرفين . لقد بدأ المدعى بالاتصال فيما يختص بسير القضية أول نوفمبر . وهذا العمل هو اليوم بعيد كل البعد عن الكمال ، وما لم يتم ذلك العمل ، فلن نـكون قادرين تماما على ان نبدأ ما هو أكثر اهمية وهو استجواب الشهود .

وليست بنا رغبة فى ان نستعرض « أسلوب بلاغتنا » امام المحاكم المصرية ، ونحن على استعداد تام لأن نعرض فقط الدفوع المكتوبة بالعربية لتقرأ فى المحكمة علانية ، ولكن ما نطلبه بالفعل هو الوقت الزمنى لفحص الوثائق والأدلة الموجودة التى سيعتمد عليهــا الدفاع كبراهين كما سبق ان اوضحنا ذلك آنفا ؛ وبدون الموافقة على تحديده ، لن يكون انقاذ حياة «عرابى باشا» سليما أو عادلا، واننا نسلم بأن هذا الأمر له اهميته بالنسبة لمن

الفصل السابع عشر

رواية أحمد رفعت

قبل مجيء « لورد دافرين » للقاهرة بيومين ، كان « أحمد رفعت بك » الذى سبق أن شرحت أنه كان سكرتيرا لمجلس النظار الوطنى ، كان قد أعطانى تقريرا عاما عن دفاعه ، بالاضافة الى ما قدمه لى من مختلف الملاحظات والمذكرات لمساعدتى فى الاعـداد للمحاكمة المقبـلة ٠ وكان « رفعت بك » قد جمع روايته باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كتابة وحديثا ، وقد قصدته أن يقص روايته بنص كلماته ، قدر المستطاع ٠

كتب رفعت يقول : « هل كان حلما شهدت بنفسى فيه مصر كلها ، على مدى شهرين كاملين ، تشن حربا منظمة أعلنها خديويها ضد دولة كبرى مثل انجلترا ويساندە فى مهامه « عرابى » الذى عهد اليه الخديو نفسه بقيادة تلك الحرب ؟ لو كان هذا كله مجرد رؤيا ، لو كان على أن أستمر فى جهلى لماذا كان على شخص مدنى مثلى أن يبقى زمنا طويلا فى السجن أنتظر محاكمتى أمام محكمة عسكرية ، فى حين أن نفس ولاة الأمور المدنيين والدينيين المسئولين عن الحرب لازالوا طلقاء ، واذا كان لا يزال على أن أبقى فى هلع دائم من سوء المعاملة فى زنزانتى على يد عصابة من «الانكشارية» والشماشرجية كما حدث لى فى اليوم الذى ألقيت فيه ــ اذن ، فليس لى فى الحقيقة الا القليل لأقوله دفاعا عن نفسى ٠ ان كلماتى لا يمكن أن تساعد فى حل اللغز الذى طرحه أبو الهول للمسألة المصرية ، خلال ما يقرب من سنتين ٠

« ولكن لم يكن الأمر كذلك ، لقد وصل شعاع ساطع من العدالة الى زنزانتى ؛ اذ أن ذات الانجليز الذين هزمونا فى المعركة يطـالبون لنا

وأثناء المظاهرة عند عابدين ، كنت فى صحبة « حيدر باشا يكن » ، وهو من أقارب الخديو ، الذى أخبرنى أنه نصح « توفيق » مرارا وتكرارا أن يقيل نظارة « رياض » لمعارضتها للآمال الشرعية للبلاد ؛ أما ما أعقب هذه الأحداث فقد صار الآن جزءا من التاريخ • وقبل « شريف » النظارة ، ويبدو أنه تبنى البرنامج الوطنى ، وبعد ذلك ببضعة أيام ، اذ بـ « سلطان باشا » ، على رأس وفد ضخم ينتظره ويطالبه باسم البلاد بأسرها بالوفاء بوعوده ، وأعقب ذلك دعوة البرلمان المصرى للانعقاد على الفور •

« ثم قدم بعد ذلك الوفد التركى الى مصر برئاسة « على نظامى باشا » ، واننى أفضل أن أعطيك بيانا منفصلا عنه (*) • وبعد رحيل المندوبين ، أجريت الانتخابات ، وفى النهاية افتتح البرلمان فى الموعد المحدد له برئاسة « سلطان باشا » ، وألقى كل من « سلطان باشا » و « شريف باشا » خطابين كانت تفوح منهما أقصى ليبرالية وأمجاد وطنية . وبالرغم من أن قوة الخطاب الأخير منهما كانت ضعيفة بعض الشىء عن قصد ، كما بدا ذلك من ترجمته التى ظهرت فى النسخة الفرنسية للوقائع الرسمية ، الا أن تأثير هذين الخطابين البرلمانيين كان لاشاعة أقوى الآمال فى أرجاء مصر ولاذكاء شعلة الوطنية المصرية المتأججة الآن تأججا كاملا • لقد بدا أن عهدا جديدا قد بدأ ، وفترة تاريخية قد استهلت ، ولم تعد عبارة « مصر للمصريين » عبارة جوفاء • بعد ذلك بأربعة أشهر ، وقع « شريف » تحت رد فعل الآمال المحبطة والوعود غير المنجزة ، فرفض السير فى اتجاه البرلمان حول موضوع الميزانية ، ولم يجرؤ على المساس باتفاقية استخدام طوائف الموظفين الأوربيين • لقد خضع للآمال الوطنية التى كان يسعى كثيرا لغرسها ، واعتزل منصبه ليخلفه « محمود سامى باشا » ، وكان هذا فى فبراير ١٨٨٢ ، وصرت أنا سكرتيرا لمجلس النظار •

لقد وجد الحماس الشعبى الطاغى منافذ أخرى غير مجرد النقاش البرلمانى ، فقد كان هناكناديان أو جمعيتان لأعمال الخير Sociétés de bienfaissane هيئتا للحركة الوطنية التى اعترف بها اعترافا كاملا (والتى صار « عرابى » بما له من مواهب وقوة شخصية ، رئيسا لها) مجالا ملائما • لقد أنشئتا على أحسن أسلوب نظامى وقانونى ، وتبارى كبار الموظفين المصريين فى تسجيل أسمائهم أعضاء فيهما ، وكانت أولاهما تدعى « المقاصد الخيرية » وكان رئيسها الشرفى « الأمير عباس » ، الابن الأكبر للخديو ، وكان نائب الرئيس « سلطان باشا » نفسه ، فى

(*) ستجده فى الصفحات التالية .

وضعى ، وعرضت عليه أن أبعث اليه بالنسخ التى فوض الى تسليمها ٠

***

« وفى نظارة « راغب » التى تشكلت فى العشرين من يونيــو ، أعيد تعيينى سكرتيرا لمجلس النظار ، ولكن ضرب الاسكندرية بعد ذلك بثلاثة أيام حال دون تسلمى عملى ٠ وفى اليوم التالى ، وردت تلغرافات رسمية من راغب باشا تعلن الحرب بين مصر وانجلترا ، وأنه نتيجة لذلك فقد أصبحت البلاد بأسرها خاضعة للقانون العسكرى ٠

« دعا « يعقوب باشا سامى » وكيل نظارة الجهادية ، كل زملائه ، بالاضافة الى رؤساء مختلف الادارات ، للحضور الى ديوان الجهــادية حيث أخبرهم أن كل قسم من الادارة ، بما فى ذلك الصحافة ، يجب أن يطيع الأوامر المنقولة اليه من خلال ناظر الجهادية ، وأن كل فرد يعجز عن أداء واجبه سيعاقب طبقا لبنود القانون العسكرى ٠

« وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أيام ، ســمعنا أن الاسكندرية قد احترقت ، واذا بحشود من قاطنيها التعساء تزدحم بهم القاهرة ، التى صارت الآن أشبه بمدينة غزيت ، وأدى الافتقار الى أبناء يعتمد عليها ، الى اثارة قلق عام ، وقد بدا أى تأكيد لمعلومة أمرا مستحيلا . وفى توجيهى الى ديوان الجهادية ، وجدت أن « يعقوب باشا » ومدير الأمن ، قد اتخذا كافة الاجراءات اللازمة للمحافظة على النظــام ، كما أن اللاجئين عن الاسكندرية قد وزعوا على مختلف المديريات ٠

« عند هذا التلاقى للأحداث ، أو بعد ذلك بقليل ، تلقى « حسين باشا الدرملى » (وكيل نظارة الداخلية) بلاغا من ناظر نظارته فى الاسكندرية أنه قد تم الوصول الى السلام ، وأنه نتيجة لذلك ، يجب وقف كل التجهيــزات للحرب ، وأن اللاجئين يجب أن يـعودوا ثانية الى موطنهم الأصلى ، ؛ ومع ذلك فقد كانت التلغرافات التى وصلت « عرابى » قد صيغت فى لهجة مختلفة تماما ٠ لقد سمعنا من مسئول ثقة أن الخديو قد صار فعلا فى أيدى الأميرال الانجليزى وأن العمليات العسكرية مازالت مستمرة فى « كفر الدوار » ٠

« وكانت البلاد ، فى الواقع ، بلا حكومة ، عندما تلقيت مذكرة من حسين « باشا » رئيسى المباشر ، تخبرنى أننى قد عينت عضوا فى « المجلس العرفى » الذى سيجتمع فى ديوان الجهادية ، وفى الوقت نفسه تشكلت جمعية عمومية مكونة من كل رؤساء الادارات وكثير من العــلماء والموظفين ، وعقد اجتماعها فى ديوان الداخلية ٠ وقد استقر الرأى فى

وبعد ذلك بوقت ، أعد « الشيخ محمد عبده » مذكرة عن أحداث الاسكندرية يوم ١١ يونيو التى بالاضافة الى ببانين أو ثلاثة متماثلة في طبيعتها ، آثارت وقتها الكثير من الحقد ٠ وقد لا يحتمل أن تجـــد الحقيقية الصادقة ما يدعمها ، ولكن هناك حقيقة واحدة تبرز واضحة في المناقشة ، أعنى أن كارثة مثل هذه الكارثة ، كان من الواضح أنه كانت على غير ما كان يتمناه « عرابى » ، اذ انها كانت تعنى بالنسبة له ، كارثة لا ينقصها الا القليل من الدمار الاجتماعي والســـياسى المطلقين ، ولو كان ما أوحى به هو الســـبب ، لكانت الكارثة ، تعنى انتحارا أخلاقيا متعمدا ، فى حين أنه من الناحية الأخرى ، نتائج نفس الحادث بالنسبة للأعداء ستكون مفيدة بصورة واضحة ٠ والأمر كله يتخذ موقعا مختلفا تماما ، لو نظر اليه فى مختلف الأضواء الحكومية العريضة ، الغربية منها والشرقية ، فبالنسبة للأولى : ستعتبر مثـل هذا الاجراء هو المثير للقيام بمذبحة أو حتى بثورة ، وهى جريمة لا تغتفر ، فى حين أن الثانية ستعتبر ما حدث أمرا له ما يبرره ، وربما تدعو الى التحول بمهارة على الصعيد الدبلوماسى ٠ لقد رأى الشيخ « محمد عبده » بوضوح أن الأمر كان أمر حياة أو موت مع الخديو وحزب القصر المفقد الثقة فى « عرابى » الذى لم يعد الآن ، بارادة « مصر » وحدها ، بل بموافقة «أوربا » كلها ، الحارس المسئول عن السلام العام ، وكان يعتقد أنهم لم يترددوا فى اتباع نفس هذا الأسلوب المثير للشك الا لاخفاء عداوتهم الناجمة تماما ، والتى صارت اليوم أكثر قوة ، وكان غيره من الناس فى مصر يظنون ويؤكدون نفس الشيء ، وفى هذا كتب « الشيخ محمد عبده » :

« عندما دب الخلاف بين الخديو ونظارة محمود سامى ، سرت اشاعة فى القاهرة ان الخديو سيحاول ، من خلال اتباعه ، ان يثير شغبا فى القاهرة نفسها ، لذا ، فقد اتخذت احتياطات خاصة لقمع الشغب ، وطوال ما كانت النظارة فى الحكم راعوا هذا الأمر بصلة خاصة ٠

« واستدعى الخديو « ابراهيم بك توفيق » محافظ البحيرة وطالبه بوجوب جمـــع شيوخ قبائل البدو واحضارهم له ، فلما التقى بهم الخديو ، قابل الشيوخ بود بالغ ووعدهم بوعود ، واصدر امره الى المحافظ بان يامرهم بجمع ٣٫٠٠٠ من العربان ، وان ياتوا بهم الى العاصمة من ناحية الجيزة على امل انه طالما لا نظام بينهم سينتج عن ذلك شغب فى المدينة ولكن الشيوخ وجدوا ان من الصعب عليهم ان يجمعوا مثل هذا العدد من الرجال نظرا لخوف القبائل من العساكر ٠

« ولما فشل فى هذا الأمر ، ارسل الخديو الى « عمر لطفى » (وكان محافظا للاسكندرية وقتذاك) بتلغراف بالشفرة اخبره فيه ان « عرابى » قد ضمن الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وقد تحمل مسؤولية ذلك امام القناصل ، فاذا نجح فى ضمانه فان الدول

عن جذاذة ورق جاء فيها : « لو كنت مكانه لقلت نفس الشيء » وأعقب ذلك الاستجواب التالى :

الرئيس : موجود بند مندرج فى جريدة « الطان » الفرنساوى (المؤرخ ١٦ اغسطس موجه الى مديرى المديريات والمحافظات تطالبهم بتكذيب ما أشيع عن حدوث مذابح بالقاهرة وبتكذيب التقرير الذى يقول ان عرابى تلقى أموالا من حليم باشا) (١) وعليه امضاؤك ، فهل تعترف بأنه صدر منك ؟

احمد رفعت : أعترف أن هذا البند صدر منى بناء على أوامر المجلس العرفى الذى كان متشكلا بقصر النيل ، ومن ضمن أعضائه على حسب ما أعلم : سعادة اسماعيل باشا أيوب واسماعيل باشا أبو جبل وجعفر باشا ، وجميع وكلاء الدواوين • والأفكار المشتمل عليها ذلك البند هى أفكار الجميع وموافقة للأحوال ، وهذا التلغراف وخلافه كان يتحرر بمعرفتنا بناء على استصواب المجلس وخصوصا بناء على تنبيه رئيسه يعقوب باشا سامى ، وكلنا كنا مشتركين، حتى أن التلغراف الذى صدر بالعربى للاستانة بتبليغ قرار المجلس العمومى الذى انعقد فى الداخلية بتقرير « عرابى » فى مسنده صار تحريره بمعرفة بطرس باشا •

الرئيس : البند المذكور محرر عنه أفكارك وليس عن أفكار المجلس العرفى كما يتضح من عبارته الصريحة وادعاؤك بوجودى ضمن أعضاء المجلس العرفى فلا صحة له ، فانى لم أحضر هذا المجلس ولم توجد محاضر أو قرارات عليها امضائى •

احمد رفعت : المعلوم أن التلغرافات التى تصدر عن الحوادث والوقوعات ترسل عادة بدون امضاء ، وكانت تلغرافات حوادث الحرب ترسل بهذه الصفة ، فلما وجدنا التلغرافات (المزيفة) المرسلة مندرجة بجرايد أوربا بصفة كونها صادرة من أحد أعضاء حزب «عرابى»، وتليت على يعقوب باشا سامى ، وافقنى على أن أكذب كونى أحد المتحزبين وأن أورى أن ليس هناك حزب ولا متحزبون بل الأحوال تغيرت وصارت عمومية ملية بناء على اعلان الحرب بأمر الحضرة

---

(١) العبارات الموضوعة بين أقواس مربعة • بطول هذا الاستجواب ، عبارات سجلها مستر برودلى • بالانجليزية فى نص كتابه ، ورأيت اضافتها لما فيها من ايضاح لما غمض فى الاستجواب • أما نص الاستجواب فمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقلعة ضمن وثائق الثورة العرابية ، محفظة ٧ قضايا بالدوسيه ٣٨ • (المحقق)

أحمد رفعت : لم أتذكر أسماءهم انما أعلم أنه فى أحد الأيام حضرت امرأة من الحريم لم أكن متذكرا اسمها أيضا وقالت انه مزمع اطلاق المدافع باكر على مصر ، وفى جوابى السابق لم أقل أنى أعرفهم شخصيا ٠

وبعد يومين استؤنف هذا الاسد
كما قمت من قبل ، بتسجيل ال
وعند مثول « رفعت » (ولم يعد عصب
مرة أخرى كما يلى :

الرئيس : حيث أنه معلوم أن لك معرفة تامة باللغة أوراق بالجهادية محررة بهذه اللغة ، ومن « نسيم بك » (أحد أمناء القصر الامبراط ولم يكن عليها امضاء ، فها هى أطلع عليه حررتها أم لا ؟

أحمد رفعت : هذه الورقة هى صورة افادة كانت تح التلغرافات المذكورة فيها ، وبناء على تفهم باشا سامى رئيس المجلس العرفى ، وباطه باشا وأحمد باشا نشأت وخلافها ، لم أكن الآن ، وبعد ذلك تليت رسميا على أعضاء سعادة جعفر باشا واسماعيل باشا أبو جبل باشا وكل من كان حاضرا وقتها ، وبع التصحيحات فيها وتصدق عليها فهم وصد لا أتذكر من وكلاء الدواوين جميعا أو منه ر وبعد ذلك عطيت للتلغرافجى لارسالها ولك ترسل ٠

الرئيس : حيث أن هذه الورقة مسودة واعترفت بأنك حررتها فوقع عليها امضاءك ٠

أحمد رفعت : قد وقعت عليها ٠

الرئيس : قد اعترفت بانشاء الورقة المذكورة فقل لنا هل هى مكتوبة بخطك أو بخط خلافك ؟

أحمد رفعت : لم تكن مكتوبة بخطى ولم أعلم بخط من ٠

الرئيس : موجود ورقة ثالثة موقع عليها ختمك وأختام أعضاء المجلس

العرفى ومحررة بعنوان « بسيم بك » ، فاطلع عليها وقل لنا هل
أنت الذى أنشأت عباراتها أم لا ؟ .

احمد رفعت : نعم هذه الورقة أنشأت عبارتها أيضا بناء على استصواب
أوامر المجلس العرفى ، وأتذكر أن أغلب الأعضاء وخصوصا
سعادة اسماعيل باشا أبو جبل وسعادة جعفر باشا وسعادة
مرعشلى باشا وسعادة أحمد باشا حسنين ، كانوا ممن يرون
لزوم أخبار الاستانة أولا فأولا عما هو حاصل .

الرئيس : موجود ورقة رابعة موقع عليها ختمك وأختام أعضاء المجلس
العرفى ومحرره بعنوان باشوكيل الدولة العلية ، فاطلع عليها
وقل لنا هل أنت الذى حررتها أيضا ؟

أحمد رفعت : هذه الورقة هى نسخة ثانية من الورقة المختوم عليها منى
ومن بعض أعضاء المجلس ومعنونة باسم « بسيم بك » وجاوبت
عنها الجواب المتقدم .

الرئيس : هنا ورقتان أخريان ، احداهما بعنوان باشوكيل الدولة العلية
والثانية بعنوان « بسيم بك » ومختومتان منك ومن بعض
أعضاء المجلس العرفى ، فاطلع عليهما وقل لنا ان كنت حررتهما
أيضا أم لا ؟

احمد رفعت : هذان التلغرافان يشتملان على تفصيل واقعة كفر الدوار
وكتبتهما ترجمة من التلغرافات التى وردت عن ذلك من عرابى
باشا ومختوم عليهما من سعادة مرعشلى باشا وبطرس باشا
وسامى باشا وابراهيم بك فوزى مأمور الضبطية سابق وأحمد
بك وحافظ بك باشكاتب الدايرة السنية وأحمد بك شكرى
وكيل الدايرة وخلافهم ، وأرسلها للاستانة .

الرئيس : موجود أيضا ورقتان باللغة التركية بعنوان « بسيم بك »
ومختومتان منك ومن بعض أعضاء المجلس العرفى ومؤرختان
فى ٢ أغسطس ١٨٨٢ ، فاطلع عليهما وأفد عما اذا كانا من
انشائك ومكتوبتين بخطك أم لا ؟

أحمد رفعت : الورقة الأولى مختوم عليها من جميع أعضاء المجلس العرفى
ما عدا اثنين أو ثلاثة ، تشتمل على استعجال ورود خبر وصول
قرارات المجلسين العموميين السابق انعقادهما بالداخلية وعرض
عنها قبله ، والورقة المذكورة انشائى ومكتوبة بخطى ، والورقة

فلا تخسر الآخرة حتى ، وأنه فى يوم الخميس الموافق ٥ أكتوبر صار فتح باب أودتى بشدة لم تسبق فى الأيام التى أقمتها قبل ذلك التاريخ ، وصار هجوم جماعة داخل الأودة ، والباقى بقى خارج الباب ، وفى مقدمتهم أحمد أفندى كمال المذكور ، فزعق على وفزع بقوله : « قم ، قم » ، فعند قيامى لم أدر لماذا يطلب ذلك ، وكان بجانبه القواصة الترك واحد واحد ياوران الحضرة الخديوية وخلفه بتونجى لم أعرف اسمه انما لو رأيته أعرفه ، فابتدى يمسكنى بيديه الاثنتين من أذرعتى ويحسس بغلظة، ونزل الى صدرى ومن بعده لآخر أقدامى وبعد التفتيشات والتنبيه بقفل الشبابيك والاعتراض على وجود فرش ، خرجوا ، وبعد ذلك أحد المعاونين الجراكسة دخل عندى وهيئته دلتنى على أنه يبكى على ، ويقول : « مقدر عليك ويلزمك أن تتجلد » ، وأظن أنه فى ثانى يوم أو فى اليوم نفسه صار الابتدا فى تسمير أحد درفات أبواب أودتنا والشبابيك ووضع تحصينات حديدية عليها ، ففى يوم السبت التالى لهذه الواقعة بيوم صار احضارى أمام القومسيون ، فاجابتنى وقتها كانت تحت تأثير ما رأيته وما سمعته ، وما كنت أظن حصوله ونسبت أن أذكر أنه فى ليلة طلبنا من المنزل الساعة ٨ عربى ، ليلا ، كان فراش الضبطية يبكى بالدموع بحضور خادمى ، مذكان يوقد الشمعة ، فاذا كانت حالتى هكذا فى وقت استجوابى فى ٧ و ٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، فهل ترون سعادتكم مع كل ذلك أن تعتبروا قانونا وشرعيا أن اجاباتى يعول عليها أم لا ؟

الرئيس : هل ترغب بواسطة الاجابة المتقدمة ، رفض اجاباتك السابقة التى أعطيتها قبل حضور الأفوكاتو المحامى عنك ؟

أحمد رفعت : أظن أن سعادتكم تصدقون على أن لى الحق فى ذلك ، خصوصا وأنى ، كما عرضت ، وجدت فى محضر اليومين السابق ذكرهما الذى سئلت فيهما تارة من طرف سعادتكم وتارة بالفرنساوى من طرف جناب بوريللى بك ، أن بعض سؤالات البيك المومأ اليه لم تكن غير مندرجة فى المحضر المذكور ، ووجدت تحريفات وتغييرات طلبت من سعادتكم التصريح لى ببيان تصحيحها عنها ، لو اعتبرتم الاجابات المحكى عنها شرعيا ٠

(**الرئيس :** يمكنك أن تنصرف) ٠

ولست فى حاجة الى أن أقول أنه فى الوقت الذى غادر فيه قومسيون التحقيق حتى اليوم الذى غادر فيه « أحمد رفعت بك » مصر (الى الأبد ، فى كافة الاحتمالات) محكوما عليه بالنفى لخمس سنوات ، فى هذه المرة التى بلغت أربعين يوما ، لم يتحرش به أحد أبدا ، بل ان « اسماعيل أيوب » ، قد اكتفى تماما باستجواب شخصية وطنية سريعة البديهة وخطيرة ٠

يعرف عني أبدا أنني أسأت الى انسان أو ألحقت به ضررا واستطرد « لمدة ثلاثة أشهر بالقاهرة ، كانت حياة الخديو أتولى حراستها بنفسى فى حماس يوما بعد يوم . فلو كانت بى رغبة فى اغتياله ، فكنت فعلت ذلك فى أية لحظة • لماذا كان على ، اذن ان أفكر فجأة فى فكرة اغتياله فى الوقت الذى كنت أعتقد وقتها انه وقت نكباتنا وقت نكباتنا المشتركة ؟ » وأضاف قائلا : « هل أنا اذن فى حاجة الى أن أقسم لك قسما غير حادث أن ما قاله « سليمان سامى » محض افتراء ؟ » ، وبناء على اقتراحى ، وعد بأن يكتب بيانا كاملا عن تحركاته فى تلك الأيام المليئة بالأحداث ، ولكنه رجانى أن أبعث له بخادمه الأمين « محمد » الذى كان دائما الى جواره ، وقال : « اننى كلما أفكر فى ضرب الاسكندرية ، اذا بالشعور بالدوخان الذى كان ينتابنى قديما (مشيرا الى رأسه) لا يلبث أن يعاودنى وتصبح ذاكرتى فى لبس • اننى أريد أن أسأل « محمد » عن نقطة أو نقطتين • وبعد ذلك بيوم ، أكمل البيان الذى طلبته منه ، وفيما يلى ترجمة « مستر سانتلانا » لرواية عرابى عن كل ما فعله طوال عملية لورد آلكستر Lord Alcester (١) الحربية : —

« أثناء بقائى بالاسكندرية مع النظارة ، فى الفترة من ٧ يوليو حتى ١٠ منه ، اعتدت أن أتوجه فى الصباح الى قصر رأس التين ، وأعود منه بعد المغرب ، نظرا للاجتماعات المطولة التى كان يعقدها النظار ، فى المساء اعتدت أن أكون بنظارة البحرية •

« وفى ١٠ يوليو اجتمع مجلس النظار ، كما عقدت اجتماعات أخرى برئاسة الخديو وبحضور المندوبين العثمانيين • وقد استقر الرأى على أن من واجبنا أن نرد على نيران البوارج الانجليزية ، بعد أن تطلق خمسة أو ستة كلل ، وانفض الاجتماع فى الساعة الخامسة فى ذلك اليوم ، وانتقل الخديو وأسرته الى قصر الرمل ، وتوجهت أنا الى نظارة البحرية ، وأصدرت التعليمات اللازمة لقائد القوات ، وكان على سلاح البيادة أن يساعد الطوبجية ، نظرا لأن عدد رجال الطوبجية كان أقل من العدد المطلوب •

« وفى صباح يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ ، فى الساعة السابعة صباحا فتحت البوارج (الانجليزية) نيرانها ، فردت عليها الطوابى بناء على

---

(١) أحد قادة البحرية الانجليزية الذين اشتركوا فى ضرب طوابى الاسكندرية ، وكان أول من أعلن استياءه لرفع المصريين المدافعين عن بلادهم ، للراية البيضاء • انظر تفاصيل موضوع رفع الراية البيضاء ، والتكييف القانونى والعسكرى له أثناء الحرب ، فى الفصل الثالث والعشرين من هذا الكتاب • (المحقق)

الأوامر . ونظرا لأن القذائف كانت تسقط كثيفة جدا على نظارة البحرية توجهت مع « طلبة الباشا » الى طابية « كوم الدماس » بالقرب من الباب الجديد ، ونظرا لأنها كانت مرتفعة جدا ، فقد سمحت لنا برؤية بقية الطوابى . وسقطت القذائف كثيفة جدا فى طريقنا ، وانفجرت واحدة منها بالقرب من الباب الجديد وقتلت ضابطين وستة من رجال البوليس وحصان عربة كانت واقفة .

« بقيت في الطابيـة المذكورة حتى العاشرة والنصف بالتوقيت العربى (الرابعة بعد الظهر بالتوقيت الافرنجى) وأثناء الضرب ، جاء كل النظـار الينا ، بالاضـافة الى رسل من عند الخديو ومن درويش باشا ، يحملون تحيات صاحب السـمو ودرويش على الموقف الرائع للقوات ، بالرغم من أن التحصينات لم تكن قد استكملت بعد ، وبالرغم من أن البوارج الانجليزية كانت مسلحة أحسن تسليح ، وفى الساعة الثالثة من نفس اليوم ، جاء من القاهرة « عمر بك رحمى » « والشيخ محمد عبده » ، وكان معنا أيضا رئيس ضبطية الاسكندرية « مصطفى بك صبحى » و « سليمان بك سامى ، ويبدو أن الأخير قد فقد عقله اذ كان يتحدث حديثا لا معنى له لم أعره أدنى اهتمام ، نظرا لأننى كنت مشغولا بالحديث مع رئيس الضبطية حول نقل الموتى والجرحى الذين كانوا فى الطوابى والشوارع ، وسمعت « سليمان سامى » يقول: « يجب أن نغلق القناة » ، فقطعت حديثى للحظة مع ضابط البوليس لأعلق قائلا : « قناة السويس حيادية ويجب ألا تمس » .

« وبعد أن أنهيت حديثى مع رئيس الضبطية وجهت اللوم الى « سليمان سامى » على تركه قواته فى مثل تلك اللحظة ، وبقـدومه ليقلقنا بما لا معنى له وأمرته بأن يعود ثانية الى موقعه ، وبعد ذلك تركنا ، وكان موجودا وقتهـا « طلبة باشـا » و « عمر بك رحمى » و « الشيخ محمد عبده » .

« وتوقفت النيران ، وغادرت الطابية ، فوجدت حشدا ضخـما جدا قد تجمع بالقرب من الباب الجديد ، وأحاط الناس بى ومنعونى من السير ، وكانوا فى ذعر شديد . أعدت توكيدى لهم وطمأنتهم ، ففرع سعادة « راغب باشا » وأبعدنى عن الحشد ، وأخذنى الى داره ، وكان هنـاك حضورا : « شريعى باشا » « سليمان باشـا أباظة » و « زبير باشا » و « سلطان باشا » و « اسماعيل حقى باشا » ، وبعد أن صلينا العصر ، توجهنـا جميعا الى قصر الرمل ، لنعرض حـالة الأمور على

الخديو ، وكان ذلك قرب المغرب ، وبقينا هناك حتى الساعة الثانية ٠ عقد اجتماع خلال هذا الوقت برئاسة الخديو وحضره أيضا « درويش باشا » ، وقد تقرر رفع الراية البيضاء لو فتحت البوارج نيرانها ، كدلالة على اننا نريد أن نتفاوض ، وقد كلف « طلبه باشا » بأن يذهب الى الأميرال الانجليزى ليحيطه علما بما استقر عليه الأمر ٠

« ثم توجهت أنا الى باب شرقى وأصدرت أوامرى الى قائد الموقع بالاسكندرية أن يرفع الراية البيضاء لو فتحت النيران فى اليوم التالى قضيت الليلة هناك فى غرفة مخصصة لقائد موقع باب شرقى ، وبعد منتصف الليل ، جاء « طلبة باشا « وتلقى فى التعليمات التى استقر رأى المجلس عليها ، وكان فى الغرفة معى طوال غالبية ذلك الوقت ، « عمر بك رحمى » و « خليل بك كامل » ٠

« وفى الصباح التالى ، فى الساعة السادسة من يوم ١٢ يوليو ، وصل « محمود باشا سامى » سألت عن وقت وسبب قدومه الى الاسكندرية ، فقال انه وصل أثناء الليل وأنه توجه الى ضبطية الاسكندرية ثم الى دار رئيس المجلس « راغب باشا » وآخرين ، وأخيرا نزل ببنسيون فى المدينة وقضى فيه الليلة ، وقد جاء ليرى ، كما قال ، وضع الأمور ، وكجندى ، كان على استعداد لأن يقاتل من أجل وطنه، فشكرته ٠ وبعد ذلك جاء « محمود باشا فهمى » و « عايد بك » و « سليمان بك سامى » ، وأعقب ذلك حديث عما ينبغى عمله فى حالة اصرار الأميرال البريطانى على اعادة فتح النيران وأية أماكن يمكن للجيش أن يعسكر بها فى حالة ما اذا اضطر لترك المدينة ٠ سمحت ل « محمود باشا فهمى » و « خليل بك كامل » بأن يتوجها الى المحمودية ويقوما بالاستطلاع من « حجز النواتية » الى « كفر الدوار » وأن يضعا خطة لأى موقع قد يجدانه أكثر ملاءمة ، وتوجها الى مهمتهما والتزم رئيس البوليس بأوامرى بمساعدة الجرحى الذين كانوا فى أقصى الطوابى مثل طابية العجمى والمكس وعلى جانب القبارى ، وبعد هذا توجه « طلبة باشا » الى نظارة البحرية ليباشر مهمته ٠ وفى الساعة التاسعة والنصف فتحت البوارج نيرانها ، فخرجت من غرفتى لأشاهد رفع الراية البيضاء ، وتركنى الأشخاص الذين كانوا حضورا ٠٠ تركونى ليتوجهوا الى مواقعهم المختلفة ، وبعد عشرين أو خمسة وعشرين كلة توقف الهجوم ٠ وبعد ذلك بنصف ساعة ، جاءنى رسول من عند الخديو ، توجهت الى قصر الرمل وعرضت على الخديو نتيجة رفع الراية البيضاء على الطوابى ٠ وذكرت له أن عشرين أو خمسة

« وعند وصولى باب شرقى ، وكان ذلك فى الخامسة مساء ، وجدت الأميرالاى « عايد بك » الذى أخبرنى أن هناك اشاعة فى المدينة أن الانجليز سيبدأون فى اطلاق النيران مرة أخرى ، وأن الاهالى بل وحتى الجنود قد غادروها فى حالة فوضى ، وقال انه كان يحاول أن يجمع جنود فرقته · شجعته على أن يفعل ذلك ، وأن يمنع جنوده من التفرق، ووقفت أنا نفسى أمام البوابة لأوقف الجنود · لقد أخبرنى « محمود باشا سامى » و « عمر بك رحمى » أن « سليمان سامى » كان مع فصيلة من الجنود فى المنشية ، وأنه كان فى حالة من الجنون ، وكان يريد حرق المدينة ، ولم يكن لينصت لأية نصيحة ، على الفور بعثت فى طلبه ، وأظن أن رسولى اليه كانا « ابراهيم بك فوزى » وضابط آخر لا أتذكر اسمه ، وأصدرت أوامرى الى « عايد بك » ليبعث بأربع فرق لمنع الجنود من نهب المحلات · وفى الساعة الحادية عشرة أو ما يقرب من ذلك ، وصل « سليمان سامى » ومعه فرقتان كانتا فى حالة فوضى كاملة · سألته عما اذا كان صحيحا أنه أراد أن يحرق المدينة ، فأنكر أنه كانت عنده أية نية من هذا القبيل ، وقال ان كل ما فى الأمر أن جنوده كانت تحتل الشوارع المؤدية الى الميناء لمنع نزول القوات الانجليزية ، ولكنى لما لاحظت أن بعض الرجال فى حوزتهم أتيال وأقمشة أخرى ، فأمرته أن يقبض عليهم ويتعرف على الجنود الذين وجدت معهم هذه الأقمشة · اننى لم أتوقف عن تشجيع الجنود وتذكيرهم بشرف رايتهم ، وحاولت بذلك أن أمنعهم من مغادرة المدينة وبسرعة أوقفت مقاومتهم ، بل انى قلت لهم اننى قررت ألا أغادر المدينة ، وأنى على استعداد لأن أموت فيها — وسألتهم هل يريدون أن يتركونى وحدى ؟ وبينما كان يدور كل هذا ، جاء « حسن باشا شريعى » و « سليمان باشا أباظة » و « حسين بك الترك » ، ياور الخديو ، مع « محى الدين أفندى » ياور درويش باشا ووجدونى هناك لقد أخبرونى أن الجنود الذين كانوا فى الرمل كلا البيادة والخيالة ؛ أحاطوا بالقصر ومنعوا أى واحد من الدخول أو الخروج ، وسألونى عن سبب كل هذا ، ولكننى كنت أنا نفسى فى غاية من الدهشة لسماعى بهذا · وعلى الفور ، أرسلت « طلبة باشا » ، الذى كان قد جاء لتوه ، ليأمر الجنود بمغادرة القصر والتحرى عن أسباب هذا السلوك الذى سلكوه ، وأعلنت أمام كل الأشخاص الحاضرين أننى لا دخل لى بما كان يحدث هناك ، ثم سألت بعد ذلك « سليمان بك سامى » لماذا بعث بجنوده البيادة الى الرمل ، فذكر أنه لما وجد بعض

يذكر شيئا عن حريق المدينة ، وكلا الاثنين أثنياه بشدة عن أن يقوم بفعل مثل هذا الفعل ، ولكن سليمان نهض فجأة فى غضب واضح ، وعاد بسرعة الى المدينة • طلب عرابى من الشيمى أن يلحق به خشية أن يقترف فعلا أحمق » ، ويعيده ثانية • وفعل الشيمى ما طلب منه، ولكن فى اللحظة التى لمس فيها ذراع سليمان ، دفعه الأخير دفعة قوية بذراعه، فأوقعه أرضا ، فلما نهض ، كان سليمان قد بعد عنه بالفعل مسافة بعيدة الى حد ما •

وبعد ذلك ببضعة أيام ، اتضح أن الشهادات التى سجلها القومسيون بالاضافة الى شهادة سليمان سامى ، التى وصفها لورد دافرين Lord Dufferin وصفا ملائما بأنها شهادة « مشبوهة tainted» اتضح أنها قاصرة تماما ولا تربط عرابى بحريق الاسكندرية ، وكانت عاجزة تماما عن أن تشكل لأول وهلة prima facie دليلا ضده • ان محاولة توريطه فى حوادث ١١ يونيو بالاسكندرية ، كانت فى الواقع محاولة فاشلة بصورة مكشوفة جدا (١) • وبعد ذلك ببضعة أيام كانت زنزانة « سليمان سامى » خالية ، اذ أنهم أسرعوا به فجأة الى الاسكندرية لينتظر محاكمة لاعترافه على نفسه بجريمته • وفى الصباح قبل أن يغادر القاهرة الى الأبد ، شاهد عرابى وهو يعبر الساحة المربعة تحته ، وعاد بعد بضع دقائق محكوما عليه بالنفى لمدة بسيطة لاتهامه رسميا بالعصيان • ان أصدقاء « سليمان سامى » السابقين قد صاروا الآن ألد أعدائه : ألم يرو قصصا ملفقة عن لقاءاته مع مدير مديرية الاسكندرية ونائب مديرها ، وهو فى طريقه الى القاهرة ، أو ما حدث فعلا فى الاجتماع السرى لقومسيون التحقيق ؟ وفى السجن فى الاسكندرية ، وهذه حقيقة ، قام « سليمان سامى » بعدة محاولات فاشلة ، أولا لتخفيف عقوبته ثم لانكار اعترافه الأصلى ، ومع ذلك فلقد تقرر أن يحاكم طبقا لقوانين الشريعة الاسلامية التى تقرر بصورة قاطعة أن اعتراف الشخص على نفسه يمكن أن يؤخذ على أنه اجراء حتمى ضده ، ولكن لا يمكن أن يعد كافيا لادانة آخرين هو اتهمهم فى هذه القضية ، ولم تتردد محكمة الاسكندرية العسكرية فى ادانته • وبينما كان الفجر آخذا فى البزوغ صباح يوم ٩ يونيو ، جيء بـ « سليمان بك سامى بن داود » من السجن وهو يكاد يموت من الرعب وشنق من رقبته حتى مات وسط نفس الأطلال التى ساعد منذ سنة

---

(١) تلقيت فى ذلك الوقت بيانا من الشيخ محمد عبده وآخرين حول هذا الموضوع •

مضت تقريبا على اقامتها ٠ أما عما اذا كان حريق الاسكندرية يشكل جريمة ، اذا نظر اليه على أنه ضرورة عسكرية ، فهو موضوع صعب جدا ٠ لقد اعترف « سليمان سامى » باضرامه النار . ولكنه ادعى ، تبريرا لذلك ، أنه امتثل لأوامر رئيسه ، التى كانت بمثابة قانون ، ولكن « عرابى » أنكر بصورة متكررة هذا التوكيد ٠ وقد فشل « سليمان سامى » تماما فى البرهنة على ادعائه ، ومما يقوى الاعتقاد بأن ادعاءه كان مختلقا ، حقيقة أن بيانات « سليمان سامى » كلها كاذبة فى تفاصيلها وتحتمل الصدق ونقيضه ٠ اننى أعتقد أن تنفيذ حكم الاعدام عليه حكم يستحقه تماما ، وهناك شىء واحد لا يرقى اليه شك : أنه لم يمت انسان فى مصر كان الناس أكثر تقززا منه ولم يترحم عليه أحد مثل ميتة « سليمان سامى » ٠



شكل ٩ ـ محمود سامى باشا البارودى

وما أن تلقيت التصريح المطلوب حتى زرت « محمود باشا سامى » فى زنزانته ، التى وضع فيها القدر المعتاد من المناضد والكراسى التى صنع مقعدها من الخيزران · كان أول طلب له ، وأنا سعيد أن أذكره ، أن يسمح له بأن يكتب خطابا يشكر فيه زوجته ، ولا داعى للقول بأننى كنت على استعداد لأن أحقق له رغبته ، ثم أعقب ذلك سرده للقصة القديمة ، سوء معاملته فى السجن ، ورد فعل اليأس ، واعترافات الضعف اليائس أمام القومسيون · لقد استفاد محمود سامى أكثر من عرابى من « الاتصال الأوربى » · لقد كان أكثر مهارة فى السياسات الحديثة وفى الدبلوماسية ، وربما كان أكثر مهارة وأكثر ثقافة من ناظر جهاديته السابق ، ولكنه كان يفتقد الاحساس المرهف والوطنية البعيدة تماما عن الأثرة ثم الحماسة ، وهى الصفات التى كان يتصف بها عرابى ، والتى نجم عنها التأثير المغناطيسى لشخصية كان من الصعب مقاومتها · عرابى لم يكن يفكر الا فى مصر ، صحيح أن محمود سامى كان يفكر أيضا فى مصر ، ولكنه كان يفكر قليلا فى نفسه وفى طموحه أيضا ، ولكن يجب أن يكون فى الحسبان أن جيل النظار المصريين الذين سبقوهما كانوا يفكرون فحسب فى مصلحتهم الشخصية وفى تمجيد أنفسهم ولم يفكروا على الاطلاق فى وطنهم الذى كانوا يتظاهرون بمساعدته بحكمهم له !

وكان موكلانا الثمانية الأصليون (اذ اننا قد قررنا فى الوقت الراهن أن نتولى الدفاع عن الصاغ « خضر خضر » بدلا من « عثمان باشا فوزى »)

الوقت الذى لجأت فيه سلطات السجن الى انتقام تافه نظرا لتشككنا فى الأطباء الأتراك وفى الحراس الجراكسة ، فكانت تطلب بصورة متكررة وملحة ، تذوقه أدوية موكلينا قبل أن يتعاطوها ، أو بأن تكون الدعوات لزيارة السجن بعد أن يكون قد خيم عليه الظلام للتأكد من عدم وجود أى تدبير لأية خيانة • وكان الشيخ محمد عبده وأحمد رفعت يتطلعان فى حماس الآن لأن يحاكما محاكمة علنية ، وكاد أولهما يسترد قوته الذهنية العادية ، وساعدنا كثيرا فى اعداد مذكرة مستفيضة عن الشريعة الاسلامية كان مقصدنا أن نعتمد عليها ، الى حد ما ، بالاضافة الى تحليل لجريدته « الوقائع الرسمية » • وهو أيضا أعادت اليه الثقة كثيرا رؤيا أراحته : فقد حلم أن « توفيق » قد نجح فى أن يلف سلسلة طويلة وثقيلة حول جسمه بأحكام ، ولكن الشيخ ، بقوة فجائية ، كسر قيوده شطرين وأطلق سراح نفسه •

***

من جانبنا ، بذلنا كل جهد للاعداد للنضال المنتظر بأسلوب يناسب أهمية المصالح التى أؤتمنا عليها ، وعلى افتراض تطبيق أى منهج معروف من مناهج القانون (وهو أمر محال) ، وعلى افتراض أيضاً لمحاكمة عادلة أمام محكمة محايدة (وهو أمر لازال محالا) ، فان الدعوى المثارة بين « الخديو توفيق » و « عرابى » قد عرضت من وجهة نظر قانونية وتكنيكية بصورة جذابة لم يسبق لها مثيل • ولا يمكن لشخص عاقل أن ينتقد توكيد المحامى المصرى (الذى كان رفيقى فى السفر منذ ستة أسابيع مضت بين القاهرة والاسكندرية) أن الادعاء الذى فضلته الحكومة الخديوية ضد « العصاة « قد هيأكل الفرص « لقضية جميلة » (اذا استخدمنا نص كلمات المحامى المصرى) • من الواضح أن الأشياء المتطلبة التى عجزنا عن توفيرها حتى ما هو أبسطها ، لا شك أنه أثر تأثيرا كبيرا جدا على الوضع الذى وجدنا أنفسنا فيه •

ولقد استرعى انتباهنا فى المقتطف الموجز للاتهامات المعنية والذى سلمه لنا بوريللى بك « أن بنودا معينة من القانونين العثمانيين : القانون العسكرى وقانون العقوبات ، ذكرت بسهولة فى ترتيب ، وان كان هناك سر مكشوف هو أن هذه القوانين لا يمكن تطبيقها على القضية المطروحة ، والقانون العسكرى المصرى القديم منذ عهد محمد على (وهو قانون ميت الآن) لم يتضمن بنودا مطابقة لطارىء مماثل ، والقانون العسكرى العثمانى الامبراطورى يمكن تطبيقه فقط بعد المرور بشكليات معينة ، وفى هذا المثال الراهن لا يتضمن واحدا منها • والسلطة المتطلبة وهى

علاقاتنا اقتصرت على تبادل الرسائل فحسب • لقد نقلت نسخة من هذه الرسالة بالعربية الى رئيس المحكمة التى ستتولى محاكمته فى القاهرة • لقد كان هدفها الوحيد الحفاظ على حيادية القنال البحرية (وهو ما ظل عرابى وفيا دائما لها) وحمـــاية ارواح وممتلكات الأوروبيين فى مصر •

« اننى أبعث اليك بترجمة فرنسية لهذه الوثائق التى تشرف الرجل الذى اضطلعت انت بكرمك البالغ بالدفاع عنه • انه ليبدو لى أمرا لا معقولا ان القائد العام للجيش يمكن ان يكون عرضة لعقوبة الاعدام بعد تسليم سيفه للقائد الانجليزى المنتصر • »

(توقيع) فرديناند دلسبس •

لقد كانت خطابات وتلغرافات عرابى تؤكد تماما تعبيرات مسيـو دلسبس من مدح لعرابى • ان عرابى لم يتحدث عن ضرورة غلق القناة الا في اللحظة الأخيرة عندما كانت القـــوات الانجليزية تطـأ قدمها الاسماعيلية فعلا ، وحتى ذلك الوقت ، كان يعتمد على توكيد دلسبس المتكرر له وهو أنه نظرا لحيادها فلن يغزوها العدو • لقد كانت الملامح الرئيسية للتراسل هو القلق المستمر على سلامة الأوربيين المستوطنين • ومن هذه البرقيات ، اخترت ، عشوائيا التلغراف التالى :

« الى سعادة صديقى المحترم مسيو دلسبس بالاسماعيلية

لقد تلقيت رسالتكم بالفرنسية ، وطبقا لاقتراحكم ، لقد اصدرنا اوامر لرئيس بوليس القاهرة ان يرعى امن الأورباويين الذين هم فى اسبتالية العباسية بالقاهرة ، وان يكفل لهم الحرية الكاملة فى مغادرتها او البقاء فيها • لقد كتبت ايضا لمدير مديرية الشرقية لمضاعفة جهوده للحفاظ على امن الأورباويين فى « الرقادية » والتأكد من عدم تعرضهم تماما لأية مضايقات •

عرابى

وأما عن « شمولية «universality الحركة الوطنية ، فقد تحدثت أنا عنها بالتفصيل فى مكان آخر •

وهكذا ، فى بضع كلمات تبلور الدفاع الذى كنا نقصد أن نعرضه نيابة عن عرابى • لقد كنت فى الوقت نفسه على علم ، وأنا متألم ، أن أعمالنا فيما يتصل بمحكمة القاهرة ، كادت تكون من المؤكد غير مثمرة • لقد كانت محكمة التحقيق والمحكمة العسكرية مجرد تعبير عن الأقليـة المنتصرة • لقد كان أسلوبها المختار هو اضفاء صورة شبه قانونية جليلة على النتيجة الحتمية ، لمعركة حزبية شرقيـــة ، وزوال الأضعف وبقاء الأقوى ، وفى رفض فى بعض الحالات ، ورضا تام فى أخـرى ، صار

مختلف أعضاء هـذه المحـاكم الأداة السـهلة الانقياد للثالوث المصرى Egyptian triumvirate المرحب لعودة السلطة الخديوية ، « توفيق » و « شريف » و « رياض » ، الذين كان ثلاثتهم ينادون مرارا وتكرارا بأن تكون العقوبة الموقعة عليهم عقوبة يستحقونها وعبرة لغيرهم . وكان هذا أمرا طبعيا لدارس السياسة الشرقية : لقد أطاح عرابى ، فى بأس ، بالاثنين من النظار ، ولولا انقاذ الانجليز لتوفيق لكان سقوطه فى كافة الاحتمالات البشرية سقوطا ذريعا عن سـقوطهما . وكان عرابى العدو المشترك للثلاثة جميعهم ، وهو الآن يرقد مهانا ، فمن له الحق فى أن يتدخل بين المنتقمين وانتقامهم ؟

لقد اعتاد الساسة فى الشرق على أعجب تقلبات فى عجلة القدر : شحاذون يصبحون رؤساء ، ورؤساء يصبحون شحاذين ، ورجال يغادرون السجون ليحتلوا مناصب عالية ويتمتعوا بالحظوات الملكية ، ورؤسـاء مجالس ورؤساء نظارات سابقون مودعون فى سجون مظلمة فى كل جزء من الامبراطورية ، ولا يعرف امرؤ ما سوف يحدث غدا . هناك مبدأ محدد يطغى على كل المبادىء وهو أن الأضعف يحبط مسعاه دائما ، وأن الفكرة المجردة عن التحقيق والمحاكمة العادلة الطيبة فى قضية عرابى ، وقـد حيرت المنتصرين أكثر من حيرتهم لنفس الهزائم التى لحـقت بهم هم أنفسهم من قبل . لقد كانوا يتطلعون الى « اختفاء » المهزوم كجزء لا يتجزأ من النصر ، ولم يكونوا يتصورون للحظة أن التعبير الحر عن هذا المبدأ قد يتعارض مع تحقيقه . اننى أحس احساسا مؤكدا أن « اسماعيل أيوب » و « رءوف » كانا ، سرا ، يمقتان كافة الاجراءات التى طلب منهما الاشراف عليها ، ولكنهما عزما على أن يقوما بالمهمة على أنهـا جزء من قدرهما ، وحمدا لله على أنهما كانا حكيمين تماما فى تصرفهمـا لتجنب احتمال أن يكون مصيرهما كمصير عرابى هما أنفسهما . لقد أحس كلاهما بالراحة عندما انحصرت وظيفتهما فى النهـاية فى شـكليات ، وكاد يحتضننى « رءوف » عندما التقينا مصادفة بعد ذلك بأربعة أشهر فى محطة سكة حديد مصر .

أمام محكمة مثل هذه المحكمة هبطت فرص نجاحنا حتى وصلت الى أمل بعيد جدا فى الواقع . وتحت مثل هذه الظروف كنت أبذل كـل جهدى ، فى أمانة ، لأنقل بالفعل مكان القضية من القاهرة الى أقـوى محكمة ، محكمة الرأى العام فى أوربا وفى انجلترا ، لأننى كنت أعرف تمام المعرفة أنها كانت السبيل الوحيد للوصول الى محاكمة عادلة كنا نطالب بها . عند أول مرحلة من أعمالنا صرنا مقتنعين أن جو العدالـة

المصرى الذى دب فيه الفساد ، مقرونا بـ « رد فعل اليأس » السائد سيكون له خطورته حتما على « عرابى » وصحبه ما لم يوجد علاج قوى للموقف ، وعندما تأكد لنا كم كانت قضيتهم عادلة ، أخذ قلقنا على سلامتهم يزداد لحظة بعد أخرى ، ولكن العلاج القوى ما لبث أن جاء لمساعدتنا فى شكل تغير ملحوظ فى الرأى العام المثقف فى انجلترا ٠

ذلك أنه حوالى ٢٧ نوفمبر صارت كل الأطراف المهتمة بالقضية تميل بدرجة أكبر أو أقل ، الى قبول مصالحة معقولة ٠ لقد كانت الحكومة الانجليزية يقظة تماما الى المضايقات المعوقة فى الشئون المصرية التى مردها الى وجود مازال يبدو فى الأفق من الغموض الشديد الذى يكتنف المحاكمة ٠ وكان كل من الحكومة الانجليزية والرأى العام فى هذا الوقت قد اقتنعا بأنه لا يمكن تنفيذ حكم الاعدام تحت أية ظروف ، وأن المشكلة الحقيقية الوحيدة هى وضع المساجين ، وكان موقف الحكومة الانجليزية موقفا صعبا ، اذ أن ملايين عديدة من الجنيهات قد أنفقت فى سحق حركة وصفت فى مختلف الأوقات بأنها انتفاضة عسكرية a military rising وعصيان كبير a great rebellion وعملية حل لغز conundrum عندما لا تكون الحرب حربا وانما يتبين أنها كيدية vexatious ومكلفة معا ٠ بعد كل ما ورد ذكره ، لم يكن من المتوقع أن يقر « مستر جلادستون » أى أسلوب ينتهى باعلان أن عرابى لم يكن عاصيا على أية حال ، وأنه لهذا كانت انجلترا بريئة فى شنها الحرب على السلطان والخديو وعرابى فى آن واحد ٠ وكانت الحكومة الانجليزية قد اقسمت بوجود عصيان حقيقى ، واذا ثبت ذلك شكليا ، فهى لا تهتم الا قليلا بما سواه ، ولكن أى شىء مثل حكم الاعدام كان خارج الموضوع تماما ٠ لقد كنت مقتنعا بأن لورد جرانفيل Lord Granville سيرفض حكم الاعدام أو حتى النفى الى السودان (نظرا لأن سير ادوارد ماليت Sir. Edward Malet قد وصمها على أنها خطيرة بالضرورة) ولكننى كنت متأكدا بالمثل أنه لن يتدخل فى أى حكم آخر يصدر — على سبيل المثال ، السجن لمدة طويلة فى أحد السجون المصرية ، وهو فى الواقع سيكون مفضلا عن عقوبة الاعدام ، أو النفى الى النيل الأبيض ٠ وكنت فى شك فى أن الرأى العام وقتذاك (لأن رد الفعل كان لا يزال الى جانب عرابى) قد يضغط على الحكومة الانجليزية لأكثر من هذا ٠ وكانت نظارة الخارجية الانجليزية ، وأنا متأكد من هذا ، متيقظة للمزايا الكثيرة من تجنب محاكمة ما ، وأقرت دائما أن الاعتراف بالعصيان يمكن اصدار الحكم عليه بدون محاكمة ٠

وكانت تركيا أكثر ميلا من أى طرف من الأطراف التى يهمها الأمر ،

الفصل الرابع والعشرون

ليلة المحاكمة

عندما تصل كل الاطراف فى نزاع معين الى الايمان بأن المصالحة compromise هى أحسن حل مرغوب فيه للصعوبات التى تواجهها ، فان تفاصيل الترتيب الذى كان من المفروض أن يتأثر به شكليا ، تصبح فى الواقع أمرا ثانويا فى أهميته ، بيد أنه فى الحالة الراهنة يستلزم الأمر ، بكل تأكيد ، قيام ترتيب خاص الى حد ما ، ففى المقام الأول ، العقوبة الحقيقية التى توقع على « العصاة » لن تتعدى مجرد النفى ، وفى المقام الثانى ، النظرية الانجليزية « للعصيان » يجب أن يكون لها ، بشكل ما ، ما يؤيدها ويؤكدها ، وفى المقام الثالث ، ان ما يعتبر أمرا مرغوبا فيه هو تجنب ما لا يعد ضروريا وهو جرح الكرامة المصرية Egyptian amour propre ، وتجنب ما لا يستوجبه الأمر من زيادة تحطيم ما زال يتشدق به من « الهيبة الخديوية «Khedivial prestige لقد كان يهمنا بطبيعة الحال ، أساسا ، البند الأول فى المصالحة ، التى كان مبدؤها كنا على استعداد الآن لقبوله عن اقتناع قوى بأن موكلينا قد يتعسر وضعهم حتما لو رفضنا المصالحة نظرا لأنه كان من الواضح أن الحكومة الانجليزية لن تساعدهم على طول الخط .

ولم يكن قد مر على بقاء « لورد دافرين » بمصر أكثر من ثلاثة أسابيع ، وكان تأثيره ملموسا جدا بوجه عام . وقد رأت الحكومة المصرية فى النهاية وبوضوح تام أنه لم يعد يصرح لا بالانتقام العنيف ولا بالظلم الطفيف ، وأنهم بعد ذلك ، يجب أن يتخلوا هم أنفسهم عن سياستهم وينتهجوا سياسة جديدة قائمة على أفكار أوربية من العدل والرأفة ، ولقد

ل « عرابى » قصة نابوليون Napoleon كمـــا ورد ذكرها فى مجلس العموم منذ ثلاثة أسابيع مضت (١) • ويبدو أن عرابى زادت دهشته من عقد مثل هذه المقارنة (وكان يوما ما قد درس بامعان حياة القائد الكورسيكى العظيم) ولكنه أعرب عن شك فيه كثير من التواضـع ، فى أنه لم يكن شخصية لها أهميتها ليعامل مثل معاملة ، نابوليون ، فذكرته أن صانع المقارنة كان فى الواقع هو حكم arbiter مصائره •

---

(١) سال لورد راندولف تشرشل Lord Randolph Churchill اللورد الأول للخزانة البريطانية عما اذا كانت هناك أية سابقة لاستخدام القوات البريطانية كما حدث فى مصر ، لقمع عصيان عسكرى ضد حاكم أو حكومة لدولة أجنبية ، وما اذا كانت مثل هذه السوابق قد أكدت أن القوات البريطانية ، وقد اعتقلت زعماء العصـــاة وغيرهم ممن يماثلهم من المذنبين السياسيين ، قد صدرت لها تعليمات من الحكومة البريطانية بأن تسلمهم ليتصرف معهم حاكمهم أو حكومتهم بعد مســاندة القوات البريطانية للحاكم أو الحكومة أو اعادتهما الى سابق عهدهما ؛ واذا كانت هناك سوابق ، فهل من الممكن ذكر السوابق •

مستر جلادستون — ردا على سؤال اللورد النبيل ، ساستهل حديثى بابداء ملاحظة أننى لا أظن أن المساعدة التى قدمت فى حالة سابقة قد تبعدنا عن نقطة معينة — أننى لست على علم بأية سابقة فى التاريخ لترتيب مماثل لما هو قائم فى مصر ، أدى الى أسلوب من الاجراءات انتهى فى عمليات عسكرية • ان الوضع الذى التزمنا به فى مصر وضع لا أظن تماما انه يتمشى مع أية أوضاع قد التزمنا بها فى أية دولة أخرى فى حدود ما أعلمه • هناك حالتان تلقيان قدرا معينا من الضوء على الموضوع ، وهاتان الحالتان سأذكرهما للورد النبيل ، احداهما حالة انهاء الحرب الفرنســـية الكبيرة فى ووترلو Waterloo فى ذلك الوقت كان الملك لويس الثامن عشر Louis XVIII — قبل المائة يوم ، قد أقام ملكه فى فرنسا ، وكان يعتبر من وجهة نظر حكومة هذا البلد (انجلترا) الحاكم الشرعى للبلاد ، وكانت العملية العسكرية تحت قيادة نابوليون ، وكانت كلها عمليـــة تعد بمثابة مقاومة شرعية شديدة ضد السلطة الشرعية • اننى لا أدخل فى موضوع صوابها ، ولكن هناك رسالة كان قد بعث بها لورد باتهرست Lord Bathurst، وكان وقتهـــا ناظرا للحربية البريطانية بعث برســـالة بتاريخ ٢ يوليـــو ١٨١٥ ، الى الدوق ويلنجتون Duke of Wellington • وانا لن أقرأ الفقرة كلها ، ولكننى سأقرأ فقط جزءا منها ، أعتقد ان له أهميته بالنسبة للسؤال الذى طرحه اللورد النبيل • تشير هذه الرســـالة الى ان « لورد باتهرست » قد تلقى خطابا من « دوق ويلنجتون » عن موضوع الترتيب الذى قام به القائد العسكرى • وكان الخطاب يتضمن الفقرة التالية : « لا يمكن أن يتصور انه فى اتفاقية ما تم التفاوض فيها مع هذه الســـلطات » — يعنى الســـلطات الفرنسية — « تفاوضتم فيها فخامتكم أنكم ستدخلون فى أية ارتباطات ، بها سيظن أن جلالة الملك المعظم ملك فرنسا سيحرم تماما من مجرد مباشرة سلطته فى انزاله قصاصا يستحقه أمثال رعاياه الذين بدسائسهم المتسمة بالخيانة وبعصيانهم الذى قاموا به رغم عدم وجود ما يستفزهم له ، فوتوا على جلالته كل حق فى الرأفة والرفق • » لا شك أن تلك الفقرة تجيب عن السؤال ؛ واللورد النبيل على علم تام بالظروف التى لها صلة بالمارشال نى Michel Ney ، وهى باختصار ظروف لها تماثلها فى تلك الآونة بالموقف الذى نحن بصدده •

ومرة أخرى ، عاد « عرابى » الى موضوع رفاقه · كيف سيرحلون على أساس مقارنة مستر جلادستون التاريخية ؟ لم يكن فى استطاعتى الا أن أقول : « سيكون فى القضية الراهنة سبعة نابوليون بدلا من نابوليون واحد ، وهذا أفضل بكثير من أن أى واحد منكم يستكمل المقارنة بأن يمثل المارشال لى Maréchal Ney (١) » ومرة أخرى ، أكدت له أن لا داعى لأى خوف على هذه الرأس · فكر لفترة طويلة ، وأخذ يذرع زنزانته ذهابا وجيئة ، ثم التفت الى وقال لى ما يلى : « عندما جئت أنت الى هنا وائتمنتك على حياتى وشرفى لتحافظ عليهما · ان ما فعلته وقتها أؤكده اليوم ، وأنا لهذا على استعداد لأن اتبع نصيحتك · أما بالنسبة للنياشين ، فلا يهمنى أن أفقدها لأننى لم أكن أسعى لها أبدا ، وأما بالنسبة لأملاكى فليس لى شىء سوى ما خلفه لى أبى ، وهو يكاد يفى لنا بالزاد (٢) · اننى لا يمكن أن أتوقع من انجلترا أن تغير قرارها بالنسبة لشخصى على الفور ، ولكنى أحس ، وكلى تأكيد أنها ستفعل ذلك فى المستقبل · اننى سأكتب لك خطابا يدعمك للموافقة على أية بنود تعتقد أنها عادلة وكريمة ، ولكننى سأدعوك لتشهد أننى أفعل هذا بصورة أكثر على أمل أن تنقذ اخوانى من المعاناة ، وليس لصالحى أنا وحدى » · اننى لم أر « عرابى » قط فى أوج عظمته مثلما كان فى هذا اللقاء البالغ الأهمية ·

وبدون لحظة تردد ، جلس وكتب الخطاب التالى :

---

(١) كان ميشيل نى Michel Neg (١٧٦٩ - ١٨١٥) من أحسن قواد فرنسا العسكريين فى عهد نابوليون ، انتصر فى معارك كثيرة من معارك نابوليون ، أظهر فيها شجاعة نادرة حتى لقبه نابوليون بأشجع الشجعان le brave des braves وظل على ولائه لنابوليون حتى كانت هزيمته فى هانو Hanau فى سنة ١٨١٤ ، ولما سقطت باريس ، شجع « لى » نابوليون على أن يعتزل الحكم ، وبعد اعتزال نابوليون الحكم وعودة لويس الثامن عشر أخذ « نى » على نفسه الولاء للملك الذى جعله اميرا وأنعم عليه بنيشان سان لوى St. Louis وتمتع بمركز مرموق فى البلاط ، وبدا كأنه كرس حياته لخدمة آل بوربون Bourbons · وعندما هرب نابوليون من البا Elba ونزل عند فريجيس Fréjus فى مارس ١٨١٥ ، ارسل « نى » للقبض عليه ، ولكن « نى » انضم الى نابوليون عند ليون Lyon وشق طريقه الى باريس ، فاسند اليه نابوليون قيادة الفرقتين الأولى والثانية ، وفى معركة عند ووترلو Waterloo ، وفى قتال عنيف عند « كاتربرا Quatrebras فقد « نى » ثلاثة جياد امتطاها الواحد فى اثر الآخر ، ثم حارب على قدميه حتى منتصف الليل وحوله القتلى ، فلما سلمت باريس هرب « لى » الى سويسرا ولكنه ألقى القبض عليه وحوكم على خيانته ونفذ فيه حكم الاعدام فى ٥ ديسمبر ١٨١٥ رميا بالرصاص فى قصر لكسمبرج Luxembourgh · (المحقق) ·

(٢) تبين أن دخلها كان أقل من ٢٠٠ جنيه سنويا ·

أسلحتهم ويرفضون أن يتفرقوا أو لا يتوقفون عن الثورة عندما تصدر لهم أوامر من سلطة أعلى ، يمكن أن تطبق عليهم عقوبة الاعدام ٠

مادة ٥٩ ــ ان من يأخذ على عاتقه ، بدون أمر من الحكومة ، وبدون دافع ، قيادة تقسيم أو مكان محصن أو مدينة الخ ٠٠٠ وأى قائد ، بدون دافع مشروع يستمر فى الحفاظ على قواته تحت السلاح بعد اصدار الحكومة أوامرها له بالتسريح ، يمكن أن تطبق عليه عقوبة الاعدام ٠

وكان لابد لقومسيون التحقيق أن يكتب ما يلى :

الى المستر بدودلى ومستر نابير ، محاميى عرابى باشا

ان من راى قومسيون التحقيق أن هناك دوافع لارسال عرابى باشا الى المحاكمة أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى ٠

فاذا لم يكن لديكما أى اعتراض لتقدمانه ، فان القومسيون سيبعث بالمتهم فورا لمحاكمته أمام المحكمة العسكرية ٠

رئيس قومسيون التحقيق بمصر

(اسماعيل أيوب)

كان علينا أن نجيب على الفور انه ليس لدينا أى اعتراض ، وبناء عليه كان على « اسماعيل أيوب » (عضو حديث فى المجلس العرفى ، وضيف عرابى فى كفر الدوار) أن يكتب « الى رءوف باشا » (وهو أيضا عضو حديث فى المجلس المذكور) ما يلى :

المحكمة العسكرية رئيسى سعادتلو افندم حضرتلرى

انه قد تم استنطاق الشهود فى المسالة المتعلقة بعرابى باشا وقد قر قرار القومسيون على احضار المذكور لدى المحكمة العسكرية لينظر فى دعوى العصيان الموجهة على عرابى باشا حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى وبناء على ذلك فان القومسيون يوجه عرابى لتنشر الدعوى عليه لدى المحكمة العسكرية ويوجه أيضا سائر المحاضر والأوراق المتعلقة بهذا الأمر افندم ٠

رئيس قومسيون التحقيق بمصر

(اسماعيل أيوب)

لم يبق بعد ذلك شىء لتسويته سوى الاتهام والحكم وقرار تعديل الحكم commutation لقد استكملت ٠

عاصم باشا » (الحارس القضائي للشاب الصغير « محمد حسنى » الذى دس الىسم ل « عبد العال ») و « خورشيد باشا » و « سليمان نيازى باشا » « وعثمان لطيف باشد » و « سليمان نجاتي بك » • و « رءوف » من البربر المستوطنين بمصر ، أما البقية ، فكانوا من المماليك الأتراك أو المماليك الجراكسة • أما العضو التاسع ، « أحمد حسنين » • فكـان مصريا ، وكان وجهه المرح وجسمه الممتلىء ، مألوفا لكل زائر أوربى ، لأنه كان الأميرال الأول لأسطول النيل (١) ، ويبدو أن أوربا كانت قد تبارت في الانعام على « أحمد حسنين » بالنياشين ، بل وباعادة الانعام عليه بها ، اذ أن صدره العريض كان يحمل على الأقل عشرين صليبا من الصلبان بما في ذلك وسام ضابط جوقة الشرف Legion d'honneur (٢) وبطيبة قلبه الزائدة هنأني على نتيجة المحاكمة واعترف لى بأنها كانت حلا سعيدا لكل الأطراف المعنية • وطوال الوقت الذى كنت أتحدث فيه مع الأميرال المصرى ، كان « اسماعيل أيوب » مشغولا بالكتابة • واقترب منى الآن وهو يحمل ورقة ، وقال انه يأمل ، من أجل المظاهر ، اننى لا أعارض فى قراءة جانب من قرار الاتهام الذى صاغه هو ، فأجبته فى حزم انه يمكن أن يباشر حكمه الشخصى ، ولكن لو اسـتخدمت أية ورقة أخرى غير تلك الأوراق التى كان « عرابى » على علم بها ، فان عرابى « لن يعترف بأنه مذنب » ، وفى رباطة جأش تامة ، تنهد فى عمق ، ووضع مسودته تحت النشافة ، ولم تتل بعد ذلك على الاطلاق • وبعد ذلك ، سحب القضاة الأختام المتصلة بسلاسلهم ، كل على حدة ، وبدءوا فى التصديق على الاتهام الشـكلى الموجز الذى كان معـــدا • دخل الغرفة الآن « سير تشارلز ويلسون » وهو مرتد أيضا زيه الرسمى •

عندما توجهت للحاق ب « مستر نابير » فى زنزانة « عرابى » ، أحضر لى كاتبى خطابا من صديق عابر هو « مسيو جبرابيل شارم » ، رجانى فيه أن أحجز له أنسب مقعد يستطيع وهو جالس فيه أن يسجل مذكرات عن سير المحاكمة ، ورجانى ، « أن يمتد كرمى ليشمل صديقه « بشارة تكلا » (٣) محرر جريدة « الوطن » ، حتى يتمتع مصرى واحـــد ، على

---

(١) Lord High Admiral of the Nile Fleet.

(٢) هو أسمى وسام فى فرنسا ، أنشأه نابوليون الأول Napoléon I ، وكان ينعم به مكافأة لمن يقدمون لفرنسا خدمات جليلة • (المحقق)

(٣) كان سوريا بالغ المهارة ، أيد عرابى حتى حدثت المحنة ، وظل قابعا فى هدوء فى سوريا حتى انتهت المحنة ، ثم عاد ليؤيد سياسة خديو مصر ؛ وهو أذكى صحفى وطنى التقيت به • كان مخلصا تماما لهمته فى اغتنام الفرص opportunism ، اذ بعـــد بضعة أيام من انتهاء المحاكمة ، نشر مقالا برهن فيه على تآمر عرابى مع الانجليز » ، ذكر فيه أنه (أى عرابى) « باع نصر التل الكبير » •

وبعد بضع دقائق ، شاهدت من خلال الباب المفتوح : « عرابى » يعبر الساحة مع « مستر تابير » الذى كان يرتدى رداء المحاماة ، كما شاهدت « عثمان شريف » واثنين من الحراس الجراكسة · مر « عرابى » حول مؤخرة الغرفة ، وبعد أن اجتاز قفص الاتهـام من طرفه الى طرفه الآخر (وكان مخططا له أصلا أن يحوى على الأقل عشرين سجينا) جلس قريبا منى · وفى الوقت نفسه ، اتخذ « مستر نابير » مكانه بجوارى · ساد القاعة صمت رهيب للحظة · كان عرابى يبـدو فى بادىء الأمر عصبيا ، ولكنه ما لبث أن تمالك كيانه · فتح « رءوف باشا » محفظة أوراق صغيرة ، وقرأ وهو ممسك بورقة أمامه ، ما يلى :

« أحمد عرابى باشا ، أنت متهم أمام هذه المحكمة بناء على طلب قومسيون التحقيق بجريمة العصيان ضد الجناب الخديو حسـبما تقضى به المادتان ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى و ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى ، فهل تقر بالتهمة أم لا ؟ » ·

وما أن بدأ « رءوف باشا » بالكلام حتى وقف عرابى · وعندما انتهى قال عرابى : « ان محاميى سيجيبان بالنيابة عنى » ، وعلى اثر ذلك ، نهضت أنا ، وقرأت ترجمة فرنسية للاعتراف بالذنب ، ومقدما فى الوقت نفسه النسخة الأصلية بالعربية موقعة ومختومة ، والتى قرأها أيضا كاتب كان يجلس أمام منضدة صغيرة أمام الرئيس · تطلع « رءوف باشا » الى «عرابى» مستعلما ، فطأطأ عرابى رأسه علامة على موافقته . ثم أعلن الرئيس أن المحاكمة ستؤجل حتى الثالثة بعد الظهر ، وفى مدى خمس دقائق ، أعيد « عرابى » ثانية الى زنزانته · أما الحاضرون الذين كانوا قلة فقـد انصرفوا فى هدوء · أما القضاة التسعة الذين كانوا يرتدون ملابس فاخرة، فغادروا المبنى ، البعض ركب مركبات مقفـولة broughams . والبعض ركب بغالا أو حميرا ذليلة ، عائدين الى مساكنهم الخاصة بهم فى شوارع القاهرة الشبيهة بالمتاهات ·

ونظرا لأن الكثير من الزنزانات كانت تطل على الساحة الوسطى ، فقد أتاحت الفرصة لأن يشاهد « عرابى » فى ذهابه ومجيئه كثيرون من المساجين ، وسببت ، بطبيعة الحال ، الكثير من الاثارة والحدس · وفى فترة الاستراحة بين المحاكمة واصدار الحكم ، توجهت لزيارة موكلينا ، الذين كان عليهم أن يشاركوا ، اذا رغبوا ، فى الاستفادة من المصالحة ؛ وبدون استثناء ، أقروا الخطوة التى اتخذها « عرابى » · ولقد فزع محمـود سامى » المسكين مما ينتظر أملاكه من مصادرة ، ولعله أدرك ، أكثر من زملائه ، الخطر الحقيقى فى موقفهم ·

الفصل السادس والعشرون

بعد اعلان الحكم

شهد مغرب يوم ٣ ديسمبر كل سكان مصر العرب وهم يحتفلون فى صمت ينم عن فطنة بنجاة « عرابى » • ومن دوافع فطنتهم الغنية عن البيان ، أن كانت هذه الأفراح الذاتية متخفية ما أمكن تحت ستار الظلمة والأبواب المغلقة ، ولكننى وصلت ببرهان كاف ، وقتها ، الى أن فرحة الناس كانت عامة وصادقة • وفرحة المسلم الحق تتخذ مظهرا خارجيا بسيطا ، ولكن عندما يرى المرء بوضوح تام هرجا واخلاصا حقيقيا نابعا من القلب ، يتأكد له أنه لا ينقص هذا المشهد الرائع الا الحماس التام • وفى مثل هذه الحالة ، حالة الفرح عبر الناس عنها بكسائهم الفقراء وتوزيع الصدقات واقامة صلوات شكر لله • وذبح للعجول السمينة ، وكان كل مصريى مصر مسرورين من رأفة انجلترا • أما القصر والأتراك الجراكسة ، فقد رفضوا وحدهم أن يهدأ بالهم ، وكادت مرارة خيبة أملهم الجديدة تنسيهم حلاوة انتصارهم الأخير •

زرت « عرابى » فى زنزانته فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، فقال لى أن ثلاثة أمور فقط تشغل باله ، اذ كان يريد ، فى المقام الأول ، أن يتأكد من أن زملاءه المساجين لم يعودوا فى خطر ؛ ثم أراد أن يعرف بعض الوسائل التى يستطيع بها أن يجعل شعب انجلترا وأوربا على ادراك تام بالدوافع التى أدت به الى أن ينتهج طريقا قد يبدو لأول وهلة أنه لا يستقيم واعلاناته السابقة عن موضوع « العصيان » ، وكان تواقا لأن يقدم تشكراته الى أولئك الانجليز المسئولين الذين شاركوا فى المحاكمة الأخيرة • وحتى قبل أن أصل الى سجن الدائرة السنية ، كان « عرابى »

قد كتب بالفعل خطاب شكر طويل وبليغ الى أعز أصدقائه « مستر بلنت ».
وبعد تجاذب حديث عن وضعه الذاتى ، وعن المستقبل المنتظر للسياسات
المصرية ، أصر « عرابى » على أن يقدم الى مذكرة عن موضوع « اخوانه
فى الأسر » (ولقد أقسمت له أننى سأبذل كل ما فى وسعى من أجلهم)
وأن أبعث له ، عن طريقى ، برسالة الى « التايمز » ، تفسيرا للاعتراف
الذى قدمه عند محاكمته وتقديم بعض ما عبر عنه كتابة ، عن شكره لكل
من « لورد دافرين » و « سير تشارلز ويلسون » و « سير ادوارد ماليت ».
وفى وقت متأخر بعد الظهر ، بعث الى « عرابى » بهذه الخطابات
الخمسة (١) ، واعتقد أنها كلها تلقى ضوءا هاما على أحسن ملامح شخصية
« عرابى » ·

لقد تحدث الخطاب الأول فقط عن مصير زملائه وسوء حظهم :

عزيزى المحترم المحامى عنى المستر برودلى

انى لا احب ان يقال عنى انى اشتريت نفسى بدماء اخوانى الأبرياء الذين هم مسجونون معى وبالمديريات والمحافظات من العسكرية والملكية والعلماء والقضاة والعمد فارغب اليكم ان تطلبوا من مجلس التحقيق سماع اجوبتهم ومعاملتهم بالعدل والانصاف حيث انى اعتقد ببراءتهم جميعا ولم يقع منهم ما يخل بحقوق الانسانية الا مانسب الى سليمان سامى بك فانى لا ابرئه من تهمته حريق الاسكندرية لكثرة الشبه عليه كما انى لا اجزم بوقوع الفعل منه فالتحقيق يظهر الحقيقة اما حادثة ١١ جونيو ١٨٨٢ باسكندرية فانى ابرئه منها وابرىء جميع ضباط العسكرية وارجوكم ملاحظة حالة جميع اخوانى المسجونين ·

٤ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) احمد عرابى المصرى

خاتم

---

(١) لقد اتهمنى «مسيو شارم» باختلاق رسائل عرابى (انظر جريدة عالمين Revue des Deux Mondes سبتمبر ١٨٨٣) وهو مخطىء تماما ، وأما عن مناقشته لصياغة واحدة منها ، فاننى أقرر أننى لم أكن أعلم شيئا عن صيغتها حتى أتم عرابى كتابتها · وصيغتها الأصلية أمامى الآن (وقد كتبها عرابى من صورتين) ، وقد أخبرنى « مستر سانتلانا » (المترجم) وهو أقدر حكم فى هذا المجال ، أنه يعتبر أن قوة عرابى فى الكتابة العربية منمقة لا يفوقه فيها من بين الدارسين العرب الذين التقى بهم الا كتابة « خير الدين باشا » ، ومما يؤسف له أن « مسيو شارم » يتحدث عن عرابى على أنه لا يمكنه أن يقرأ أو يكتب أو يفهم ·

هانا متشكر لجميع الأمة الانكليزية كما أنى متشكر لك أيها الفاضل ولسائر مديرى الجرانيل الانكليزية الذين اتحدوا فى طلب معاملتى معاملة اخوان بالعدل والانصاف ولأعضاء القوة الانكليزية الذين ارتفع صوتهم مرارا فى خصوص مسألتى واظهار حقوقى وكذلك متشكر لجناب السير تشارلس ولسن الذى تردد الى كثيرا وتعهدنى بأحسن ملاحظة فى أيام سجنى .

ها انا مهاجر مصر الا انى متيقن أن الأيام والحوادث ستبين حقوقنا وما كنا عليه من حب وأن انكلترة لا تندم أبدا على ما أبدته من التسامح والمساهلة مع من قاتلته فى المعارك حتى يتبين لها حقيقة مسعاه .

٤ ديسمبر ١٨٨٢ أحمد عرابى المصرى

خاتم

وكان خطاب « عرابى » الى « لورد دافرين » كما يلى :

الى صاحب الدولة والاجلال اللورد دوفرين

انى لما كنت قائدا للأمة المصرية فى طلب تحريرها ومعاملتها بالعدل والانصاف ولم تساعدنى الأقدار الالهية سلمت نفسى لعلو همة الأمة الانكليزية لوثوقى بذمتها وشرفها وقد تحصلت على ما كنت أؤمله منها اذ أنها هى التى توسطت فى أن احاكم محاكمة علانية مبنية على الأصول المتعارفة وهى التى وجهت لى رجالا ذوى الشرف والأمانة للمحاماة عنى بصفة وكلاء شرعيين فرأيت أنه من الفرائض الواجبة على ذمتى ابداء رضائى وشكرى عما وجدته من حسن المعاملة وارجو دولتكم أن تقبلوا منى حسن تشكرى بعنايتكم بشانى وشان اخوانى وتكونوا لسانا لى فى عرض ممنونيتى الى مستر غلادستون واللورد فرانفيل الفخم .

٤ ديسمبر ١٨٨٢ احمد عرابى المصرى

خاتم

وكتب « عرابى » الى سير تشارلز ويلسون الخطاب التالى :

الى سعادة السير شارلس ولسن دامت معاليه

انه لعلمى بأنى قايدا لأمة بأكملها لا تطلب شيئا سوى العدل والمســـاواة وحفظ الحقوق ولم تقع منى فى مدة تصرفى ما يخل بحقوق الانسانية بل كنت دائما أطلب المحافظة على حقوق العموم وحفظ الحياة العمومية سلمت نفسى بصفة أسير الى ذمة وشرف انكلترا لوثوقى بأنها تحسن معاملتى أنا واخوانى الذين كانوا معى وقد تحصلت على ما كنت

الذعر الذى انتاب الحاضرين ، ولقد اختفى الدم بصورة واضحة تحت وجنتى « اسماعيل أيوب » الداكنتين ، وللحظة لم يتحدث أحد ٠ وفى أدب ، دعى « حسن العدوى » ليستريح ، ولم تبد أية محاولة بعد ذلك لاستجوابه ٠ وبعد ذلك ببضعة أيام ، أطلق سراحه بشرط أن يعود فى هدوء الى قريته مسقط رأسه ، حيث لن يعرف تاريخ مصر عنه شيئا أكثر من هذا ٠

وما لبث أن صار واضحا ، من مزيد من التحرى الذى حدث بعد الظهر ، أن « حسن موسى » قد تلقى مبلغا كبيرا جـــدا من « حليم » وأخته ، بدعوى أنه سيغرى الحزب الوطنى بالرشوة ، ليعلنوا أن « الأمير حليم » هو مرشحهم لعرش الخديوية ، وكان واضحا أيضا بالمثل أنه وضع كل الأموال التى حصل عليها فى حسابه الخاص فى البنك وأنه لم يدفع ولا قرشـــا واحدا منهـــا لأى فرد آخر ، وأن « عرابى » لا علم له تماما بدسائسه ، ولكى يرضى ضميره ، يبدو أنه أرسل الى « عرابى » جبنا والى « محمود سامى » هدية من الفاكهة ٠ وقد توقف استجوابه قليلا عند هذه النقطة ٠ وكما يقتضينى واجبى ، بذلت كل ما فى وسعى لأنقـذ « حســـن موسى » من نتائج أفعاله ، ولو أنه حوكم ، لأمكن ادانته بقضية التآمر الجسيم ، ولكن هذا كان سيشيع حتما ادانة « الأمير حليم » وأخته ، على اعتبار أنهما شريكان له ، وفى النهاية ، نفى « حســـن موسى » لعشرين سنة الى « مصوع » ، وكانت تشير كل الاحتمالات الى أنه لن يلبث أن يهرب منها ٠ اننى لم أحس نحوه بأى تعاطف ، اذ أن مؤامرته وضعت ، حتى أمانة « عرابى » العفة فى خطر ، وكانت محض فرصة لكى تثبت للقومسيون اثباتا قاطعا السمعة الحميدة والنزاهة اللتين يتحلى بهما « عرابى » ٠

أما « عثمان باشا فوزى » ، فلم يجرد لا من نياشينه أو رتبته ٠ لقد أجبر على الاستقالة من وكالته « للأميرة زينب » وواحدا أو اثنين آخرين من أعضاء الأسرة الخديوية ، وأن يدفع ٤٠٠٠ جنيه كفالة لحسن سلوكه لمدة أربع سنوات ، وأن يقيم فى منزله الريفى ٠ ومما يؤسف له أن « الأمير حليم » وشقيقته ، فى قسوة منهما ، تخليا عنه فى شدته ولم يدفعا عنه الكفالة ، ولم يستطع سداد مصاريف اقامته بشبرد ، ولكن مستر جروس Mr. Grosse ، الذى كان يعمل بفندق شبرد تجشم دفعها نيابة عنه ٠ وباختصار ، لقد ترك الأميران خادمهما الســـابق المخلص ليواجه مصيره ٠ وفى وحدة تقاعده سيكون أمام « عثمان باشا فوزى » وقت كاف ليتأمل فى زيف وضعه ثقته فى وعود الأمراء ، ولكنه لما كان عزيزا عند الجميع ، فهو لن يلبث أن يعود الى القاهرة ٠

وهنا أترك « اسماعيل أيوب » وقومسيون التحقيق • أما عن الأخير فقد مات ميتة طبعية بعد ذلك ببضعة أيام ، وأما عن « اسماعيل أيوب » فقد رقى الى منصب ناظر للداخلية ، وبذلك فتح له طريق للحياة له فائدته الفعلية ، ولكن ضعفه وطيبة شخصيته الضعيفة كانتا سببا فى اضاعته الفرصة على نفسه • لقد اختفى « اسماعيل أيوب » الآن وابتعد عن مجال السياسات المصرية مثلما اختفى « حسن العدوى » العجـوز ، وكان سلفه الذكى « رياض » قد نسج شبكة من النفوذ الشخصى لم تضم فحسب نظارة الداخلية فى القاهرة ، بل ضمت أيضا شعبا عديدة فى داخل البلاد ، وكان « رياض » قد اتخذ ابنه سكرتيرا خاصا له وعديله وكيلا لنظارته ، كما كان أقاربه ومدينوه وتابعوه : مديرين ومديرى مديريات ومشايخ قرى • لقد انتقل هذا التنظيم القوى على هذه الصورة الى « اسماعيل أيوب » الذى وجد نفسه ازاءه ضـــعيفا جدا ضعفا لا يقوى على مقاومته أو التخلص منـــه ، وما لبثت أن حيكت مؤامرة من هؤلاء المرءوسين كانت سببا فى فشله فى أداء مهام وظيفته ، فحل محله « خيرى باشا » الذى رشحه القصر ، وربما كان من حسن الطالع لمصر ، أن انتقلت اختصاصات الادارة الفعلية لنظارة الداخلية كلها ، تقريبا ، الى أيدى « مستر كليفورد لويد «Mr. Clifford Lloyd •

الفصل التاسع والعشرون

الى المنفى

بعد أربعة أيام من المحاكمة الصورية لـ « عرابى » ، مر زملاؤه « محمود سامى » و « عبد العال » و « طلبة » و « على فهمى » بنفس أسلوب المحاكمة ، وكان لمثولهم أمام المحكمة العسكرية فى الصباح وبعد الظهر ، ما جذب حشدا ضخما جدا من النظارة ، ولكن لم تحدث أية حادثة أثناء المحاكمة تستوجب وصفا على أية حال ٠

وما كاد القضاة ينهضون حتى سمع همس بالخارج بأن « رياض باشا » قد استقال من منصبه ناظرا للداخلية ، وكان صحيحا ما قيل عن أنه كان مريضا وأنه لزم فراشه دبلوماسيا ، ولكنه كان سرا مفضوحا اذ انه حزن فى النهاية حزنا يائسا عن واحدة من العثار السياسية الكثيرة التى جاءت بها النهايات غير المتوقعة لمحاكمات الدولة ٠ وكان « رياض باشا » قد وعد باتباع سياسة ذات قصاص مثالى ، ولكنه لم يتخل عن منصبه كـ « ناظر » ، كما تظاهر أصدقاؤه أن يوهموا به ببراعة ، « حتى يقدم احتجاجا وجيها ضد ما نفذ فعلا من اطلاق سراح « عرابى » ، وكان قد صودق فعلا على قرارات تخفيف العقوبة ، وكان مستعدا تماما لأن يبتلع خيبة أمله ، ولكن طلب منه أن يستريح ، بعد ذلك ، بعث رياض طبقا لما تقضيه الضرورة ، بطلب متواضع هو أن يعفى من مهام منصبه ، ثم صار لفترة متوعكا بصورة خطيرة جدا ٠ ولم تكن طبيعة مرضه الذى كان يعانى منه معروفة تماما على الاطلاق ٠ لقد بعث مراسل خاص زكى بتلغراف بأن مرض « رياض » كان « تعطشا للدماء مكبوت «Suppressed bloodthirstiness» ولكن رئيس تحرير

فى جريدة « الحق » ، وبناء على ذلك كتب الرسالة التالية الى « مستر لابوشير » :

الى ناشر لواء الحق والعدل المستر هنرى لابوشير مدير جرنال التروث

انى أهدى لحضرتكم أزكى التحيات واسنى التسليمات واتشكر لحضرتكم على ما اديتموه من المدافعة عن الحق واطلب معاملة اخوانى بالعدل والانصاف انتصــــارا للحق وواجبات الانسانية فلا ريب أن للحق والعدل دعاة وأعوانا هم اصحاب الأرواح الطاهرة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ولا مراء فى ان لسان الحق ينطق بأن حضرتكم واسطة عقدهم وقطب دائرتهم هذا وحيث انى لا يهمنى أبدا الا اصلاح حالة بلادى وسعادة اهلها ولو انى سأفارقها فادى انبئك بما يلزم اتخاذه فيها من الأعمال المهمة الموجبة لثروتها ورفاهيتها ولا ينبئك مثل خبير حريص على نجاح وطنه :

اولا ـ يجب تشكيل مجلس نواب للامة المصرية فيها تعرض جميع اللوائح والقوانين عليه وتعطى لأعضائه الحرية التامة فى الدولة ويكون انتخابهم حرا كما فى البلاد المتمدنة وايما يكون لهم الحق فى ابداء رايهم واعطاء القرارات فقط ولا يلزم الحكومة العمل بمــا يقرره الا بعد مضى زمن فيه يعلم اقتدار الأهالى على النظر فى مصـــالحهم بواسطة نشر مجادلاتهم العلانية فى الجرايد العربية والافرنكية وعند ذلك يكون النظار مسئولين امام ذلك المجلس والزمن اللازم لذلك لا ينقص عن خمسة اعوام .

ثانيا ـ يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر المصرى عموما لا يفرق فيها بين اجنبى ووطنى فى جميع المعاملات وضرب الضرائب والرسوم وتلك المساواة يمكن للحكومة لغو ضريبة الوبركو التى اضرت بالفقراء كل الضرر .

ثالثا ـ يجب اتخاذ طريقة عادلة للمساواة بين المزارعين فى اشغال تطهير الترع وحفظ الجسور والأشغال العمومية بحيث ان الشغالين يستولون على اجرهم حقيقة ويصير ابطال طريقة التسخير التى هى السبب الوحيد فى عدم العمران وتشتيت شمل الفقراء الذين لا قوت لهم الا من كد ايديهم .

رابعا ـ من اهم اللزوم وضع حد للمرابين لمنعهم من استعمال الغش وادخاله على الأهالى لسلب اموالهم وايقاف المزارعين عند حد فى الأخذ بالربا .

خامسا ـ يجب أن توحد القوانين فى جميع محاكم القطر المصرى ويراعى تنفيــذ تلك القوانين بغاية الدقة بدون تداخل ذوى السلطة فى تاويلها واستعمالهم الطرق القديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدمها فى الحقيقة .

سادسا ـ لا يحرم الوطنيون من الوظائف أيا كانت عالية أو دانية مادام الاستعداد موجودا ومن رفت من الذين لا ذنب لهم سوى دعوى تداخلهم فى الحوادث الأخيرة يكونون كغيرهم يدخلون الوظائف على حسب استعدادهم .

سابعا ـ يكتفى من الموظفين الأوروباويين بقدر الضرورة مع مراعاة حالة مالية البلاد فى رواتبهم والمناسبة بينها وبين رواتب الوطنيين حتى لا تقع المنافسة والمنافرة بســـبب الامتيازات الفاحشة .

لكل فرد أنه لولا وجود «شمولية التجريم universality of incrimination» لكانت أية نتيجة أخرى مستحيلة ، ومع ذلك ، فمن هذه اللحظة يبدو أن الحكومة المصرية لسبب لا يمكن تعليله ، قد عزمت على أن تبذل أقصى ما يمكنها لتغيير تفاصيل المصالحة ، للتحامل على موكلينا ، ووجدنا أنفسنا أيضا ، رغم أنفنا ، ضالعين فى اتفاق دائم ينتهى فقط عندما يسافرون الى سيلان ٠

وقبل أن استمر فى سرد وصفى لتوجه « عرابى » وصحبه الى المنفى ، فانى أرى من واجبى ، حتى ولو كان فى ذلك تعبى ، أن أجنح أمام قرائى بوضوح مرة أخرى البنود التى على أساسها قبلنا الترتيب الذى وضع حدا لاجراءات المحاكمة وليس أفضل من أن أذكرها بنفس اللغة التى استخدمها « لورد دافرين » نفسه :

« ستوجه الى « عرابى » وجماعته فقط تهمة العصيان أمام المحكمة العسكرية ، وبالنسبة لهذه التهمة سيعترفون بانهم مذنبون ، وفى حالة ما اذا ما أصدرت المحكمة عليهم حكمها بعقوبة الاعدام ، سيرفع الحكم الى الخديو الذى سيخففه الى نفى مدى الحياة ، وسيتعهد المسجونون بانهم سيتوجهون الى أى مكان سيحدد لهم ، والذى سيبقون مالم يدعوا للانتقال منه ٠ ولو حدث أن عادوا خلسة الى مصر ، فيمكن أن تطبق عليهم عقوبة الاعدام بدون أية محاكمة من جديد ، وبموجب قرار لاحق من الخديو ، ستصادر أملاكهم ، ولكن أملاك زوجاتهم لن تمس ، وتتكفل الحكومة المصرية بمنح كل سجين راتبا يكفى لاعاشته ٠

وبقرار آخر ، سيجرد المسجونون العسكريون من رتبهم العسكرية ٠ »

هذه الكلمات توضح نص ما وصل اليه الطرفان من اتفاق قبل صدور الحكم على « عرابى » وصحبه ٠

وفى صبيحة يوم ١٣ ديسمبر ، تم اقامة التقسيم الخشبى والباب فى نهاية الطرقة ، والحجرات داخلها كنست وأعدت لنزلائها ، وكان خدم المسجونين قد أحيطوا علماً بما سيحدث ، وكانوا الآن مستعدين ومتأهبين للمساعدة فى مهمة نقل العزال ، وفى وقت قصير ، نقلت السجاجيد وستائر الناموسيات ، والسراير والاوانى النحاسية والفخارية الى الغرف الجديدة ، وعبر « عرابى » الممر ، ووقف داخل الستار ليحيى كل اخوانه فى الأسر عند وصولهم ٠ كان من الواضح أن عشرة أسابيع المحنة التى فرقت بينهم قد زادت من تقدير كل واحد منهم للآخر ، وكان اللقاء الأول للزعماء الوطنيين السبعة لقاء قلبيا كما تقضى به تقاليد الشرق ، فكان هناك الكثير من العناق ولمس الأيادى وقليل من الدموع ٠ وقد استمر

قصرا من القصور البهيجة التى كان يمتلكها « اسماعيل صديق المفتش » ، وكانت ردهته الضخمة الفسيحة وسلماه المزدوجان ، قد أفـادت فى الاجتماعات الوطنية التى عقدت فى شهرى يوليو وأغسطس ، ولكن لم يحطم فيه شىء أو تغير مكانه • أما الأقمشة الحريرية التى لا تزال تزين النوافذ والأبواب ، فقد صارت الذكريات الوحيدة للزمن الذى كان فيه صاحبها الأصلى يحتل مستوى رفيعا داخل جدرانه • والمعروف أن غرف الانتظار هى المظهر الأساسى للروتين اليومى لكل ادارات الحـكومة فى الشرق • وقد ساعد التشييد الغريب لنظارة الداخلية المصرية على تحقيق هذا الغرض بشكل غريب : اذ كانت الردهتان العلوية والسفلية تشكلان ردهتى استراحة رطبتين ومريحتين ، وفيهما تقدم القهوة والسجاير ، وتكون « الدردشة » التى تساعد على قتل الوقت ، بينما يجلس قبالتنا فى مكان منعزل مريح وبعيد : رئيس تشريفات ناظر الداخلية ، وكان يدخل من الضيوف الذين سيمثلون أمام حضرة فخامة رئيسه من هم أكثرهم حظوة ، الواحد فى أثر الآخر بين صفين من الانكشارية مرتدين ملابس قرمزية موشاة بالذهب • عندما دخلت ، وجدت « اسماعيل أيوب » جالسا على كنبة من المخمل وأمامه منضدة صغيرة مطلية باللاكيه ، وكان مشغولا فى استخدام الخاتم الذى كان متصلا بسلسلة ساعة جيبه ، فى ختم عديد من الوثائق العربية ، كان يقدمها له فى خضوع ابن صهر سلفه • أعطيت « اسماعيل يوب » القوائم التى كنت قد أحضرتها معى ، فقال لى انها يجب أن تختصر ، وأنه غير مسموح لأى شخص منفى أن يأخذ معه أكثر من خادم وخادمة ، فوعدته بتحقيق ما يتفق ورغباته ، ثم قال لى فى هدوء : « نحن نفكر فى أن نبعث بأربعة من موكليك الى سيلان Ceylon وثلاثة الى هونج كونج Honk Kong اننى أعتقد أنك لن تجد أية صعوبات ؟ » فأجبته على الفور بأن مثل هذا التغيير أكبر خرق لاتفاقنـا الأصلى ، وانني بكل تأكيد سأقدم كل اعتراض ممكن فى وسعى أن أقدمه، وقلت له فى الوقت نفسه اننى مسئول مسئولية أخلاقية نيابة عن موكلى فى ضرورة التنفيذ الملزم لبنود المصالحة ، وأنه ليس لى أى غرض فى أن أفقد ثقتهم (١) • ورجعت ثانية الى سجن الدائرة السنية ومعى قوائمى ، وأنا أحس فى الواقع بعدم ارتياح •

لقد تغير الآن تماما المشهد فى طرقـة المنفيين • كـان ثلاثة من الأغوات الأشداء يحرسون ثلاثة من الغرف الداخلية التى كان فيهـا

---

(١) بعد كثير من المفاوضات ، صرف النظر عن هذه الفكرة ، ولم يدر المنفيون ، على الاطلاق ، بالخطر الذى كان يتهددهم •

« عرابى » و « عبد العال » و « على فهمى » يستقبلون الزوار لأول مرة منذ سجنهم بعيدا عن زوجاتهم وغيرهم من الأقارب ، وكان وكلاء أعمالهم يحضرون لهم حسابتهم ، والاخوة الفلاحون من داخل البلاد يناقشـــون ما حل بهم من مآسى ، كما كانوا يتناقشون فى المحاصيل ، وكان التجار يسعون في اضرار الى الوصول الى تسوية كمبيالاتهم التى لم تسدد بعد . وكان باعة الملابس العسكرية يعرضون بضاعتهم ، وواحد من المسجونين يقلد دور المحامى أمام رءوف باشا رئيس المحكمة العسكرية ، بينما كانت مجموعة طيبة من براعم «العصاة» يعانقون آباءهم من وقت لآخر ويعترضون طريق كل فرد . وما أن انصرفت السيدات ، حتى عقد اجتماع فى غرفة « عرابى » . كانت أنباء التحديد المقترحة قد سببت القليل من الأسى ، ومع ذلك ، لم يكن هناك مفر من الاذعان لها . وبعد الكثير من التشاور ، أعدت قوائم جديدة ، وفيما يلى أمثلة أخذت فى عجلة من بين النسخ التى جمعتها :

قائمة قدمها « عبد العال »

١	عبد العال حلمى	
١	السيد حلمى	ولدنا
١	سليمان	أخينا
١	على الماسى	تابعنا
١	زكية هانم	اختنا
١	دلفرج	خادمة
٦	فقط ستة أشخاص لا غير	

قائمة قدمها « على فهمى »

١	على فهمى	
١	عزيز فهمى	ولدنا
١	محمد على فهمى	ولدنا
١	الست ايديل	حرمنا
١	حميدة هانم	كريمتنا
١	زينب هانم	»
١	رنج كل هانم	أخت حرمنا
١	فاطمة	كريمتنا
١	حليمة	خدامة
١	صبر	خدامة

١ عبده	خدام
١ محرم	الآغا
١٢ فقط اثنى عشر شخص لا غير	

ونتيجة لهذا التحديد الذى فرض الآن ، رفضت زوجات اثنين أو ثلاثة من المنفيين مغادرة مصر • لقد كانت الحكومة المصرية بارعة كل البراعة فى هذه التعديلات المثيرة للمضايقات التى لا يمكن لأى أوربى عادى أن يتوقع فهمه لها • وجدير بالذكر ، أنه بالنسبة للعقلية الشرقية، عدم وجود الأغوات معناه امتهان لكرامة النساء ، ولهذا فقد رجا موكلونا ، بشكل حماسى ، أن يصحبهم خدمهم النوبيون • رجعت ثانية الى « اسماعيل أيوب » ومعى قوائمى الجديدة ، بدأت كلامى بلمسة رجاء لعواطفه الاسلامية بالنسبة للأغوات • وعلى مدى ساعتين كاملتين ، أجلت فيها أعمال نظارة الداخلية ، بينما كنت أناقش مع ناظر الداخلية الموضوع الخطر الشأن ، عما اذا كان « أغا » واحدا يمكن عده على أنه مساو لخادمتين أو العكس بالعكس ، وكانت النتيجة هى أن كل المنفيين ممن اصطحبوا معهم زوجاتهم ، دبروا أن يكون فى معيتهم أغا •

وكانت الحكومة المصرية تعرف أفضل من أى شخص آخر أن البيوت التى كانت تقطنها عائلات موكلينا السبعة ، كانت ، بدون استثناء ، اما مؤجرة من غرباء عنهم أو مملوكة ملكية خاصة لزوجاتهم ، ولذلك أعفيت من الاستيلاء عليها ، وكان أربعة من السبعة المنفيين قد تزوجوا من سيدات الحريم الخديوى ، وكان كل مصرى يعلم تمام العلم أن البيوت التى يقمن فيها والأثاثات التى تحتويها هذه البيوت والمجوهرات اللاتى يتزين بها ، كانت تشكل قيمة المهر الذى دفعه أزواجهن • ونظرا لرقة شعور هؤلاء النسوة التعيسات ، كان من الواجب تجنب توجيه أية اهانة لهن أو الثورة فى غضب فى وجوههن لأنهن لم يعتدن جميعا عليها ، على ما أعتقد • ولكن ما لبث أن صار واضحا أنه لم يعد هناك اظهار لأى مظهر من مظاهر الشفقة سواء تجاه « العصاة » أو عائلاتهم التى لا تجد من يدافع عنها (١) •

---

(١) ذكر « يعقوب سامى » ، فى رزانة ، فى بيان مكتوب أنه عند عودته الى داره فى ليلة من الليالى ، فى وائل صيف سنة ١٨٨٢ وجد زوجته (التى كانت نزيلة سابقة لقصر الخديو) راقدة فى الحديقة ، تكاد تكون فاقدة الوعى ، من جراء الضرب المبرح الذى لقيته من أغوات القصر لافشائها أسرارا الى زوجها والى عرابى ؛ ومنذ تلك اللحظة ، صار يعقوب سامى (رغم أنه تركى الأصل) أشد الوطنيين حماسا •

نرجو تبليغ الحكومة المصرية مقصدنا الوحيد وهو تتميم الوعد الذى بيننا : بأن نسافر سويا الى المحل المعين لسكننا وحيث أننا نحب أن نذهب مع عائلاتنا فى وابور واحد فلا يمكننا التشكى من ضيق المحل فى الوابور وفى ذات الوقت لا يمكننا أن نعبر عن تشكراتنا للحكومة المصرية لما أجرته ولما ستجريه لراحة سفريتنا من هذه البلاد .

تحريرا فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ ـ توقيعات وأختام :

محمود سامى
أحمد عرابى
يعقوب سامى
محمود فهمى .
على فهمى
طلبة عصمت
عبد العال حلمى
أحمد عبد الغفار

وكانت الأيام الأخيرة من اقامة موكلينا فى مصر آخذة فى الاقتراب . وكانت قوائم مصاحبيهم فى المنفى قد استقر الرأى عليها أخيرا ، واعتمدت ، وكان المقيمون فى بيوتهم مشغولين فى حزم مختلف أمتعتهم ، وقد قام « مستر بيمان » والميجور شيرمسايد » بمساعدة « سير تشارلز ويلسون » فى مهمة ضمان تخليصهم من أية مضايقات أثناء اعدادهم لأمتعتهم ، ولكن الحكومة المصرية تدخلت مرة أخرى تدخلا غير قانونى ، عندما أعلنت أنه لن يصرح للسيدات أن يأخذن معهن مبلغا ماليا يزيد على ٢٠٠ جنيه . ومن شدة النشاط غير العادى على كلا الجانبين ، شهد صباح يوم عيد رأس السنة الميلادية (الكريسماس) كل الأمتعة وقد أمن عليها فى حينها واعتمدتها مديرية البوليس مسبقا انتظارا لأمر الرحيل الذى كان متوقعا فى كل لحظة .

سيذكر قرائى (١) أنه كان قد اتفق بين كل الأطراف أنه فى وقت لاحق للمحاكمة الصورية أن المنفيين كانوا سيجردون بمرسوم ، من رتبهم ومن ألقابهم ، ولم يكن من أحد يعير أية أهمية لعظمتها وبريقها الخارجى الا « عرابى » ، ولم يؤثر فيه شىء أكثر من توقعه فقدان لقبه ونياشينه ،

(١) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

وسجادة صلاته كتذكار ، وتبادلت صورا فوتوغرافية مع كل المنفيين ٠ لقد استقر رأيهم على أن يتقبلوا فى سعادة ما هو محتوم ، ويضعوا ثقتهم التامة فى انجترا ، وأن يراعوا ولاءهم للعهد الذى عاهدوا عليه « لورد دافرين » ، وأن يظهروا أنفسهم فى كل أسلوب أنهم جديرون بالقضية التى كانوا يعانون من أجلها ، وكانت كلماتهم كلها أمل فى مصر وثقة فى انجلترا ٠ كانت تعبيراتهم عن الشكر والعرفان بالجميل ل « مستر بلنت » تمس القلب ، كما كانت واضحة ملموسة ٠ تركت سجن الدائرة السنية وأنا سعيد بلغة وسلوك الأصدقاء الذين لن أراهم أبدا بعد اليوم ٠

لم تستطع السلطات المصرية أن تقاوم تسديدها لآخر ضربة لكرامة وعزة نفس amour propre أعدائها المنفيين ، اذ فكرت ، بدون علمنا ، فى الاحتفال بعيد رأس السنة (الكريسماس) ، باحتفال شكل انتهاكا مباشرا للبنود التى اتفق عليها كلانا ٠ لم يكن هذا الفعل القمىء من جانبها أكثر من خبث لا أخلاقى ، لأن المشهد الذى ارتجلوه كان بلا هدف ، ولا معنى له ، بل لم يساعد الا على أن جر على مدبريه سخرية الصحافة الأوربية بأسرها ٠ وبغض النظر تماما عن توكيداتنا الخاصة ، فان لغة رسالة « لورد دافرين » (١) توضح بما فيه الكفاية أنه لا « مستر نابير » ولا أنا نفسى ، كنا نتخيل قط أن تجريد موكلينا من نياشين « الشرف العارضة «accidental honours بموجب أمر عال ، تنتهزها نظارة شريف فرصة ، وتجعل تنفيذها عمليا مشهدا يشهده الملأ ٠ لقد جرح هذا الفعل مشاعر المنفيين جرحا عميقا ، وقتها ، ولكنه لم يكسب الأشخاص الذين فكروا فيه : لا فائدة ولا مجدا ! وكل مشاهد محايد لم يتطلع اليه فى ضوء آخر غير ضوء الاعتراف الفعلى بالعجز السياسى ٠

وهذا هو ما حدث : بعد الساعة الثانية من بعد ظهر يوم عيد رأس السنة بقليل ، توقفت عربتا أجرة ، فجأة ، أمام سجن الدائرة السنية ، وأمر المسجونون بأن يرتدوا معاطفهم وأن يتبعوا السجان « عثمان شريف » ، ففعلوا ما أمروا به وهم يرتعدون خوفا من خيانة حقيقية خطيرة ٠ وعندما بلغوا البوابة ، أمروا بأن يدخلوا العربتين فى صحبة ضابط بوليس ، وكان « عرابى » وصحبه مرتدين ملابسهم المدنية ، وواحد أو اثنين منهم لم يترك لهم فرصة ليلبسوا أحذيتهم الطويلة ، ومرت بهم

(١) انظر الصفحات الأولى من هذا الفصل ٠

فى أن يحصل كل واحد منهم على ثلاثين جنيهـــا مقدما من راتبهم فى « سيلان » (١) ٠

لم تنس سيدات مصر العظيمات « عرابى » حتى لحظة توجهه الى المنفى ، ففى صمت وحذر من « توفيق » أخذن فى تزويده بما هو مناسب من معدات السفر : واحدة بعثت بحقيبتى ســـفر انجليزيتى الصنع ، وثانية بعثت له بمصحف كبير وثالثة بعثت له بسجادة صلاة مطرزة ، ورابعة بعثت له بحقيبة ملابس ، وخامسة بعثت له بسلة رحلات وهكذا ٠٠٠٠ ولقد كان مخططا أصلا أن قطار خاصا متجها الى السويس يبدأ من التحويلة فى منتصف ثكنات قصر النيل فى الساعة التاسعة تماما مساء يوم ٢٦ ديسمبر ٠ طوال العصر ، نقلت كل أمتعة السفر (ومن بينها طرد خاص ب « عرابى ») الى هناك ، وسمح للزوجات الباقيات بمصر بتوديع أزواجهن بالسجن ٠ أما عن ساعة ومكان الرحيل فقد احتفظ بهما على أنهما سر عميق ٠ وفى آخر لحظة ، وصلتنا اشـــارة أن الرحلـة ستؤجل نظرا لسيادة الطقس السىء فى السويس ٠ وعلى سبيل الحيطة من احتمال أية مفاجآت ، وكان من حسن الحظ أن فعلنا هذا ، جعلنـا مراســـلتنا ، حسن ، يتولى مهمة الحراسة فى السجن ٠ وحوالى الساعة

---

(١) يقول مستر بيمان Mr. Beamen ، فى صدق تام :

« انها حقيقة تسترعى الانتباه ، أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه شخص وظيفته وظيفة دنيا فى الوقت الراهن أن يدخر ثروة كافية فى بضعة شهور لتكون ضمانا له ضد ما يواجهه فى المستقبل ، نجد أن المنفيين السبعة ، وهم الآن فى سيلان ، الذين يمكن القول أنهم فى فترة سنة أخذوا على عاتقهم أن يجعلوا مصر ملكا حرا in fee simple ، تركوا وطنهم وهم فى فقر تام ، وعرابى الذى كان فى امكانه أن يجمع أكثر من مليون جنيه ، اعتمد على أصدقاء ليبعثوا له بحقيبة مليئة بالملابس ، عن طريق السكة الحديد ، ومن زمن مضى ، انقضى ما كانت تتقاضاه أسرته من معونة شهرية ، وقبلت هذا الوضع ، فصارت ما تتقاضاه عشرة جنيهات شهريا ، وكان هناك أشـــخاص ، لم يريدوا أن تذكر اسماؤهم ، بعثوا لأسرته بمعونات عن طريقى ٠ وهذا يعقوب سامى الذى كان يجســد روح عرابى الثانية alter ego ؛ والذى كان قائد القاهرة أثناء شهور الحرب ، كان لبعض الوقت فى منصب يمكنه من أن يجمع منه ثروة طائلة ، ترك مصر وأثاثه ومنزله الصغير واقع تحت دين ، وهو مفلس تماما ٠ وكذلك كان حال الآخرين ٠ انه ليس من روح عبادة الأبطال المنفيين أو بروح التلميح ضد من خلفوهم قد كتبت هذا ، ولكن ندر أن يكون هناك من سبب معروف له تقريره لماذا انتخب الشعب المصرى رجلا ، أسند مسئوليتهم الى أناس نشأوا من نفس طبقتهم ، ممن عرفوا كل الاساءات المريرة التى ألمت بهم ، والذين كانوا على استعداد لأن يدافعوا عن حقوقهم التى اكتشفوها أخيرا — عن أن يبقوا على ولائهم لحاكم انتقل الحكم اليه بالوراثة من مجلة Fortnightly Review ، العدد الصادر فى نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٦٣٦ ٠

مصر قد أعرب عن رفضه لأى تأخير ، وكان الحى الذى يقطن فيه أهل عرابى بعيدا بعض الشىء ، ومع ذلك ، فقد أوضح « سير تشـــالز ويلســون » لـ « عثمان باشا غالب » فى نبرة فيها حزم أن القطار لا يمكن أن يتحرك حتى تصل السيدات الغائبات ، وبناء عليه ، وازاء هذه الضرورة الملحة ، بعث مدير البوليس بعربته لتبحث عنهن ، ثم أعقب ذلك صمت طويل وغريب . وجاء بعض الخدم الى ليودعونى ، وكان « مستر نابير » قدحجز مكانا لنفسه ولحقيبة « عرابى » ، وكان واحد أو اثنان من الجنود الانجليز فى ورديتهما . فصافحا « عرابى » ، بل ان « الميجور فريز » نفسه (وهو ما أشاع الرضا فى نفس موكلينا بشكل واضح جدا) اتخذ مقعدا بجانب « عرابى » . وأخيرا ، قدمت امرأتان مرتديتان ملابس كلها بيضاء ، وبسرعة اختفيتا فى عربة من العربات المخصصة لسيدات المجموعة ، وما أن أغلق الباب عليهما حتى أعطيت الاشارة للتحرك . وفى لحظة ، اختفى القطار الذى كان يحمل « عرابى » وصحبه المنفيين ، اختفى خلف جدران قصر النيل . كان الزمن وقتها قرب منتصف الليل ، ولكننى بقيت لفترة بعدها تلبية لدعوة بعض ضباط الكتيبة الثانية الجبلية المشاة الخفيفة (١) ، لأشاهد القاعة التى زينت أفخـــر زينـــة ، والتى صـــارت الآن قاعـــة « الميس mess-room » والتى استخدمت فى الأربعـــة الشهور الماضية فقط فى عقد جلسات اللجنة الوطنية المصرية .

اننى أرى مناسبا تماما ، أن أنهى سردى عن محاكمة عرابى ، برحيله من قصر النيل . ان نفس هذا المبنى الذى شهدنجاحاته المبكرة وانتصاراته الأخيرة ، شهد بالمثل اختفاءه لفترة على الأقل ، من على مسرح التاريخ المصرى وهو هنا حررته من السجن : الجندية الساخطة ، ومن قصر النيل سارت الكتيبة التى كان يقودها الى قصر عابدين مطالبة بتحقيق مطالب الشعب pronunciament ، وفى قصر النيل عمل ناظرا للجهادية ، وهنا أيضا عقد المجلس العرفى الذى أئتمنه على الدفاع عن بلده ، وفى قصر النيل ، أود أن أسدل الستار على ذلك الجزء من قصتى التى حاولت أن أقصها . كم كانت أفكار عرابى نفسه غريبة وكذلك انعكاساته غريبة هى الأخرى وهو جالس فى ساحة قصر النيل التى يضيؤها القمر ، ينتظر فى صبر اقلاع القطار الذى كان سينقله فى بضع دقائق بعيدا عن مشهد هو من دون كل الفترات أكثرها أهمية طوال تاريخ حياته ، مشهد سينقله الى المنفى !

---

(١) Battalion of the Highland Light Infantry.

الفصل الثلاثون

مصير أبناء الشعب

ما كادت المحكمة العسكرية تنطق بحكمها الشكلى على آخر شخص من « المتهمين من الفئة الأولى » · حتى بدأت الحكومة المصرية ، دون ما عجلة الى حد ما ، فى حصر اهتمامها هى ذاتها فى مصير أبناء الشعب ، ولم تكن السجون فى داخل البلاد مكتظة الى درجة التكدس فحسب ، بل كان لا يزال مودعا فى سجن الدائرة السنية ما يقرب من مائة شخص سجنوا بتهم تتراوح ما بين تهم عامة ، وتهم غير محدودة من تهم الخيانة العظمى ، وقد بعث بعض المتهمين فى المديريات بوكلائهم الى العاصمة بقصد ضمان خدماتنا لهم ، وقد قبلنا أيضا مقدم أتعاب نيابة عن عديد من المسجونين الذين سجنوا فى سجون فى القاهرة لم يسبق الاعداد لها extemporized jails ، وقد سمح لنا فقط برؤية موكلينا بعد الموافقة النهائية على المصالحة الخاصة بـ « عرابى » واخوانه المشهورين · وكادت تكون آخر كلمات تفوه بها « عرابى » أثناء انتظاره فى قصر النيل هو تذكيره لى بالمطلب الذى كان كثيرا ما يردده ، وهو السهر على مصير أصدقائه ، ونحن ، بكل تأكيد لم ندخر وسعا فى اتباع تعليماته ، وفى أن نضمن لأتباعه ظروفا أفضل ، طالما كان من الممكن توقعها ·

وفى هذا الوقت (٢٥ ديسمبر) ، كان « مستر نابير » وأنا ، مسئولين مسئولية مشتركة عن مصالح المسجونين التالين : « الشيخ محمد عبده » و « الاميرالاى عبد الغفار بك » و « أحمد بك رفعت » و « عثمان باشا فوزى » ، « وحسن موسى العقاد » « والأميرالاى خضر خضر » « والشيخ حسن العدوى » (الذى سبق أن تحدثت عنه تفصيلا)

بالاضافة الى « أمين بك شمسى » « وأحمد بك أباظة » (وكلاهما تاجران كبيران من ملاك الأراضى فى الزقازيق) و «أحمد محمود » و « ابراهيم الوكيل » (وهما عضوا مجلس النواب المصرى) « وحسن باشا شريعى » (وكان ناظرا سابقا للأوقاف) « ومهنا أفندى عمر » (من أعيان أسيوط) « وحسن باشا الدرمللى » (وكيل نظارة الداخلية سابقا) « وسليمان جومور » والأخوان الألفى (أيضا من الزقازيق) « ومحمد الصدر » وهو محام وطنى ، « والأميرالاى ابراهيم فوزى » ، وكانوا فى مجموعهم تسعة عشر شخصا ٠

وكان الاتجاه فى بادىء الأمر ، هو الاستمرار فى اتبـــاع منهج المحاكمات الاسمية ، واصدار الحكم بالسجن والنفى أو الغرامة على كل من وجهت اليهم أقل جنح ممن تبين أنهم مذنبون ، وباستثناء الاتهام الموجه ضد « حسن موسى » « وعثمان باشا فوزى » ، كادت تكون الحـالات الأخرى متماثلة ، وكان موكلونا ، مع بقية المصريين ، قد لعبوا فى قليل أو كثير ، دورا بارزا فى النضال من أجل الحرية ، ولم يكونوا أتراكا أو جراكسة أو كان لهم أصدقاء ذوو نفوذ فى المحكمة ٠ لقـد اختيروا ليدفعوا جريرة وطنيتهم ٠ ونظرا لأن قضية « عرابى » قد سوت ، تكنيكيا ، دعوى العصيان ، لذا ، كان واضحا لنا أنه لم يعد هناك أمل فى المحاكم المصرية ٠ وبينما كنا نتشاور مع موكلينا عن أكثر الأساليب نفعا لاتباعها ، أفرج قومسيون التحقيق عن « حسن باشا شريعى » « والاخـــوين الألفى » « والأميرالاى ابراهيم فوزى » افراجا غير مشروط ٠

ومن أجل ما هو أحسن لصالح المتهمين ، تقدمت باقتراح للحكومة المصرية بأن الموضوع يمكن تناوله كله فيما يتصل بالأفراد الذين نمثلهم ، بأن يصدر مرسوم ادارى بنفيهم ، ولم تلق الفكرة موافقة فحسب ، بل امتدت لتشمل الحالات المؤجلة بوجه عام ، وقد أدخلت ، نتيجة لذلك ، تعديلات فى صالح المسجونين تتيح الافراج الفـورى لعـدد كبيـر من الأشخاص ، سواء بتقديم ضمان عن حسن سلوكهم أو بالتعهد بأن تكون اقامتهم فى أملاكهم الخاصة ٠

وقد طلب من ناظر الداخلية (بالاتفاق مع قومسيون التحقيق وسير تشارلز ويلسون) اعداد قائمة مصنفة بالمسجونين استعدادا لاستصدار المراسيم ، وقد قدمت لنا كل التسهيلات للقيام بأية توكيلات قد نراهـا ملائمة لملابسات مختلف القضايا التى وكلت الينا ، ولم يقر موكلونا بهذا الترتيب فحسب ، بل ان كثيرا منهم كان سعيدا لتخلصه من أن يحاكم محاكمة علنية ، وحتى لا يضطر لأن يعترف بأنه مذنب ٠

اننى لم أر « حسن الدرملى » ولا « حسن باشا شريعى » الا لفترة قصيرة من الوقت حتى يمكننى أن أبدى بأى رأى فى مواهبهما الشخصية ٠ أما « « أمين بك شمس » و « ابراهيم الوكيـل » و « أحمـد محمـود » و « محمد الصدر » ، فكانوا رجالا أذكياء قادرين تماما على المساعدة فى الحكم الذاتى لبلدهم ، وكانوا أربعتهم ماسونيين Freemasons غيورين ٠ أما « أحمد بك أباظة » ، فلم التق به على الاطلاق ، وقد أفـرج عنـه فى الزقازيق ، ويذكر عنه أن مئات من مؤاجريه سحبوا القارب الذى كان يحمله عائدا الى بلده فى نشوة نصر الى بيته الكبير فى الشرقية ٠ أما « سليمان جوموز » العجوز ، « والأميرالاى ابراهيم فوزى » ، فقد حاربا أثناء الحرب٠

ولما لم يكن فى استطاعة أحد أن يحدد التهمة الصحيحة ضد كل فرد « عاص » ، فقد كانت مهمة أعضاء قومسيون التحقيق الابتدائية مهمة شاقة جدا ، وقد ازدادت حيرتهم بالانشقاق الذى تصدع فى صفوفهم بين الرئيس الجديد وبين عضو آخر ، كان يرى أنه أحق منه فى هذا المنصب ٠ وعندما قدمت أخيرا القائمة الى « اسـماعيل أيوب » و « سـير تشـارلز ويلسون » ، كادت تكون بلا فائدة ، اذ أن المسجونين الذين لم يكونوا متهمين بأنهم « توجهو الى الحرب » اتهموا اتهاما خطيرا بأنهـم « كانوا يريدون التوجه الى الحرب » وكانوا « متعاطفين مع الحرب » ، وبتوزيعهم جريدة « الطائف » « وبالباسهم حيواناتهم ملابس كتب عليها اسـم « جنرال ولسـلى » ، « وبدعائهـم » ل « عرابى » بالفوز ، وبسـببهم « اسم الخديو » ، الخ ٠

وانصافا ل « اسماعيل أيوب » ، يجب أن أقول ، أنه بذل كل جهده ليكون محايدا فى عدالته حتى آخر لحظة ، وأتاح لنا كل فرصة ليحثنا على أن نفعل كل ما يمكننا عمله نيابة عن موكيلنا ٠ كانت هذه المفاوضات النهائية متعبة الى أقصى حد ، وأيامى المتبقية لى فى مصر كدت أن استنفدها كلها فى زيارات مجهدة لاتنتهى ، من مكتب اسماعيل أيوب » فى الداخلية الى مجلس النظار حيث « شريف باشا » فى الخارجية ، وأخيرا ، عندما كادوا يعتبروننى المتردد الدائم على غرف الانتظار المصرية هذه ، شعرت بالرضا التام ، وأنا أرى « شريف » و « اسماعيل أيوب « يختمان المراسيم التى كانت ستنهى مهمتنا فى مصر ٠ وجدير بالذكر ، أن ابن « رياض » ، « محمود بك » ، وابن شريف ، « أحمد بك » و « بيجرين باشا » بذلوا فى مناسبات كثيرة كل جهدهم لمساعدتى فى التعجيل بالحل ٠

وفى النهاية سوى كل شىء وبموجب المراسيم التى صدرت الآن (٢٩ ديسمبر) ، نفى « الشيخ محمد عبده » خـارج مصر لمدة ثلاث

تأثير عسكرى ، أيا كان ، على التعبير عن الارادة الوطنية • لقد سمعت « يعقوب سامى » نفسه يصدر هذا الأمر فى غرفة صغيرة ، خلف الصالون الكبير بسراى قصر النيل •

رابعا ــ بالنسبة للمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى :

١ ــ اعترف « اسماعيل أيوب باشا » نفسه انه استقال من منصبه كعضو فيه ، ولكن اذا لم تكن هناك حرية تامة ، واذا لم تكن هنـــاك أية صورة من صور الكبت ، كيف كان فى استطاعته أن يفعل ذلك ؟ وبخاصة بعد زيارته لتحية « عرابى » ، وكان مستقلا قطارا خاصـــا الى كفر الدوار •

٢ ــ ستلاحظ أيضا أن « رءوف باشا » (رئيس المحكمة العسكرية) كان يحضر اجتماعاته باســـتمرار • وتوقيعـاته وأختامه تذيل معظم محاضره ، ولو لم يكن المجلس له مطلق الحرية فى أفعـــاله ، لماذا رجع رءوف من الاسكندرية لينضم اليه ؟ لو كان لا يقر أفعاله ، لماذا لم يحذ حذو « اسماعيل أيوب » ويستقيل ؟ •

٣ ــ باشر المجلس فى حرية : الرقابة الدستورية على أفعـــال عرابى ، وعندما اقترح « على مبارك » أن يدخل فى مفاوضات معه ، قدم عرابى للمجلس مسودة رده ، الذى أجرى عليه عدة تعديلات •

٤ ــ أشير فى اجتماع المجلس أيضا الى موضوع سجن مدير مديرية الغربية •

٥ ــ قرر المجلس ابقاء « عثمان باشا غالب » فى منصبه مديرا لمديرية أسيوط بالرغم من أن عرابى كان من بين الراغبين فى استعفائه•

٦ ــ لم يحضر « عرابى » على الاطلاق أى اجتمـــاع من اجتماعات المجلس ، ولم يكن حتى « محمود سامى البارودى » عضوا فيه ، وكان الأشخاص الذين يتكون منهم المجلس ، فى الغالبية العظمى ، مستقلين تماما عن أية اعتبارات حزبية ، ويكفى أن نذكر منهم على سبيل المثال : جعفر باشا ، واسماعيل باشـا أبو جبل ، وسامى باشا من ادارة الغـاء تجارة الرقيق الذى تلقى تعليمه فى انجلترا وأمريكا ، والذى كان زوج ابنته قد تورط فى عدائه لـ « عرابى » فى مؤامرة الضباط الجراكسة •

٧ ــ يوم الهزيمة فى « التل الكبير » ، وقبل وصول « عرابى » الى القاهرة ، اجتمع المجلس العرفى فى قصر النيل ، وقرر بالاجماع ألا تستمر الحرب التى كان من المتوقع ، من حيث المبدأ ، أن تستمر ،

انطباعات شخصية
عن : عرابى وصحبه

يكاد يكون من الصعب الحكم على « عرابى » وقضيته منفصلين ، ويستتبع هذا ، وهو أمر قد يكون طبعيا ، أنه لابد لهما على المدى البعيد اما أن يصمدا معا أو ينهارا معا · ولعله مما يصعب على اقراره هو ماذا كانت شخصية عرابى نفسه أو طبيعة الحركة التى قادها ، كانا ، لفترة على الأقل ، موضوع مزيد من سوء الادراك ومن سوء العرض · وتجنبا لأن اختتم كتابى هذا بموعظة سياسية ، تعمدت طوال سردى ، وأثناء السير قدما فى قصة الدفاع عن « عرابى » ، أن أذكر حقيقة فى أثر حقيقة لأبرهن على أن الوطنية المصرية كانت تعبيرا حقيقيا ، وتلقائيا وشموليا لآمال الشعب المصرى بأسره ، وأن « عرابى » انتخبه الصوت الصامت الاجماعى لخمسة ملايين من أبناء شعبه ليكون رئيسا وممثلا له معترفا به ، وأن هدف وموضوع القضية التى كانت تدعى بحق « وطنية » ، كان لارضاء تعطش شرعى تام للعدالة والأمانة الادارية والضمان الشخصى والمساواة السياسية · وسبب كل هذا السوء فى الادراك وسوء العرض لأول وهلة · لقد اهتمت كل الأطراف فى الحرب المصرية ، بدرجة كبيرة ، فى البرهنة على أن « عرابى » وصحبه كانوا مخطئين لسبب بسيط جدا وهو أنهم اذا لم ينجحوا فيما فعلوه ، اذن ، فمن الواضح تماما أنهم لا بد وأنهم اما مخطئون أو أنهم ضلل بهم هم أنفسهم · ولما كان هنــاك طرف قوى ومتسلط ، والآخر ضعيف ومهزوم ، فلم يكن من الصعب بث الاعتقاد

الا ملابسهم التى كانوا يرتدونها ، والراتب الزهيـــد الذى صرفته لهم الحكومة المصرية « وهى حاقدة عليهم » .

ولا يساورنى أدنى شك فى أن « عرابى » وصحبه كانوا قادرين تماما على أن يساعدوا فى حكم ذاتى ذكى لبلادهـم وينفـذوا فى مهارة التغييرات والتحسينات التى خلفوها لنا كوارثين لهم وخلفا لهم . لم يكن عرابى مجرد حالم أو متحمس بل كان من وجهة النظر المصرية : رجلا مثقفا وقادرا بطبيعته ، على وعى تام ببلده واحتياجات بلده ، حباه الله بالكثير من النشاط والأمانة التامة فى تحقيق الغرض ، ولم تكن مصر تحتاج لأكثر من هذا ؛ واذا كان افتقاره الى المعرفة السياسية وجهلـه بالتعديل فى السياسات الأوربية سيحرمه من صلاحية أن يكون أعظم حاكم ، الا أنه لو عمل مع حاكم وطنى عقليته راجحة كرئيس له ، يكون فى استطاعته أن يساعد المصريين على أن يشقوا طريقهم وحدهم ويمنحهم العدل والمساواة والأمان وهى الأمور التى كانوا يتوقون اليها . ان مصر لم تكن فى حاجة الى رجل على شاكلة تاليران Talleyrand (١) ولا على شاكلة كافور Cavour (٢) ، ان كل ما كانت تحتاجه هو

---

(١) كان الأمير تاليران (١٧٥٤ ــ ١٨٣٠) دبلوماسيا فرنسيا شـــهد الكثير من التغييرات فى عهود الحكم الفرنسية (حكومة الثورة ــ الثورة المضادة ــ حكم نابوليون ــ عودة الملكية فى آل بوربون) وخرج منها تاليران كاقوى شخصية سياسية فى عصره وكان لمهارته البارعة فى مؤتمر فينا الذى عقد فى شـــتى ١٨١٤ و ١٨١٥ عقب هزيمة النمسا ما أتاح لفرنسا وهى المهزومة أن تتخذ وضعها كقوة أوربية كبيرة . وقد ساعده على ذلك ما شاهده من شقاق بين المنتصرين على فرنسا ، اذ أخذت النمسا وانجلترا جانبا وروسيا وبروسيا جانبا آخر ، فقال تاليران للمجتمعين أن الحرب التى شنها المنتصرون لم تكن حربا على فرنسا ، ولم تكن أيضا حربا على آل بوربون بل هى بالأحرى حرب على نابوليون ، وأن لويس الثامن عشر ، باعتباره الحاكم الشرعى يجب أن يجد تأييدا منكم لا الحاق عقوبة به . ومن عجيب الأمر أن المنتصرين كان من الصعب عليهم مقاومة جدله ، وحقق ما كان يرمى اليه من حفظ كرامة فرنسا . (المحقق)

(٢) كان كافور (١٨١٠ ــ ١٨٦١) أعظم سياسى ايطالى فى القرن التاسع عشر اتجه أول ما اتجه الى التجارة ، اذ تولى ادارة أملاك أبيه ، وفى طريق ادخاله التحسينات التى أجريت فى بريطانيا ، تمكن كافور من زيادة دخل أبيه ودخله ودخل المستأجرين ، وبفضل نصيحة صديق له سويسرى الأصل ، غامر بدخول ميدان الأعمال الحرة فانشـــأ تبوكا ، وبنى سككا حديدية ومصانع ، ودخل ميدان التصدير ونجح فيه ، وكان واسع الأسفار ، وكانت زياراته للخارج نقطة تحول فى حياته ، اذ أمدته بالمادة العلمية للمقالات التى أخذ يكتبها عن التجارة الحرة وقانون القمح فى بريطانيا وقوانين الفقراء والمشـــكلة الأيرلندية والسكك الحديدية ، وعندما صدرت فى سردينيا قوانين تحرر الصحافة فى سنة ١٨٤٧ ، أنشأ كافور « جريدة البعث It Risogimento» التى صارت الجريدة الرســـمية للرأى الساردينى والايطالى للتحرر ، وتولى هو رئاسة تحريرها ، ومن ذلك الوقت فصاعدا

« ان حكامها الفعليين لازالت تستجلبهم ، فى الواقع ، من أصل أجنبى ، ولكن الجد الأعلى لنسلهم كان واحدا من اسرع رجالات القرن الراهن الذى برهن على أحقيته في تاسيس أسرة ، بتحرره من كان يحكمهم من العبودية التعسفية لسلطان مستبد ولقد آخر خلفاءه على عاتقهم تحرير بلدهم الذى تبنوه ، لا يزالون يسيرون به قدما ، والأمير الـذى يتربع على العرش الخديوى الآن يمثل على آية حال . مبدأ الحكم الذاتى والتعاقب والوراثى والاستقلال الاقتصادى » .

« اننى اود ان أطرح على حكومة جلالة الملكة سياسة اكثر كرما — سياسة تتضمن داخل حدود معينة وحكيمة ، اقامة نظم تمثل الحكم الذاتى ، له مديريات وكميونات ، ذات وجود سياسى ، متحرره من اى تاثير خارجى ، رغم تقديم المساعدة لها فعلا ، كما ينبغى أن يكون عليه وضعها لفترة ، بالنصيحة المتعاطفة والمساعدة ، وفى الواقع ، ليس هناك طريق وسط يمكن اتباعه . ان وادى النيل يمكن ادارته مالم يكن هناك مطمح فى النجاح من جانب لندن . ان آية محاولة من جانبنا للمشاركة فى مثل هذه المهمة ستحيلنا على الفور ، فى نظر مكانه ، الى عناصر موضوع كراهية وشك « بالرغم من أن المجتمع الشرقى لا يلتئم شمله حتى الآن ، الا على يد القوى القسرية للحكم المطلق ، الا أنه مما ينبغى ان يذكر ، من ناحية ، أن الدين الاسلامى دين ديموقراطى اساسا ، ومن ناحية أخرى ، أن الفكرة البدائية هى ان الكبار فى الريف يتجمعون فى مجلس حول زعيمهم ، وهى فكرة لم تختف كلية من تقاليد الناس ، بل ان

الانتقاد كان على حكماء هذه الأمة الحريصة على شرفها التعاون على انتقاء الدواء النافع بالأمانة ليكون أقوى تاثيرا فى قطع الداء وبما أنى خبير بما يصلح بلادى حريص على سعادتها فاعرض افكارى فى شان ذلك على نصراء الحق بانكلترا والتدبر فيها وهى كما سيذكر :

أولا — يجب أن يكون حاكم البلاد منها عالما باحوالها محبوبا عند اهلها محبة حقيقية ولم يكن من الذين سبقت لهم مشاركة الخديو السابق فى مظالمه وان يكون موقرا مهنيا ذا خبرة بتنفيذ القانون لا بالغدر والخيانة ولم يتدنس بارتكاب أمور سابقة [أوجبت انحطاطه من قلوب الأهالى واحتقارهم لمنزلته] ولا أرى فى الحالة الراهنة اوفق من ابراهيم باشا نجل الخديو السابق .

ثانيا — تكون حكومة البلاد مقيدة لها مجلس نظار يسال كل ناظر منهم عن الأعمال المختصة بنظارته امام هيئة ذلك المجلس ويسئل جميعهم أمام الدولة التى تريد ان تضع الأساس للحكومة الى مدة ستتعين فيما ياتى .

ثالثا — يتشكل مجلس نواب ومجلس شيوخ تعرض عليهما جميع اللوائح والقوانين وتعطى لأعضائهما الحرية التامة فى المداولة ويكون انتخابهما حرا كما فى البلاد المتمدنة وانما يكون لهما حق ابداء آرائهما واعطاء القرار ولا يلزم الحكومة العمل بما يقرره المجلسان ويكون ذلك الى مدة خمس سنين .

المبدأ الانتخابى لازال باقيا لدرجة ما ومتفقا عليه بين المجتمعات الريفية ، ولهذا فاننا لو كيفنا أنفسنا على ما هو قائم فعلا ، وحاولنا أن نتوسع فيه بنسب ، قد تبدو لنا أنها مطابقة لاحتياجات واستعدادات البلاد ، لكنا قد نجحنا فى اقامة نظام حي وله وجود ذاتى وفطرى ، له قوة التطوير ، ولتحقيق أهدافنا يجب أن نضع الأساس العريض والعميق » •

« مجمل النظم المصرية المقترحة »

١ ـ الدائرة الانتخابية فى الريف ـ وتتألف من ممثلين من كل قسم يختارهم ناخبون بالغون من الرجال الذين لهم حق التصويت فى القرية •

٢ ـ مجالس المديريات ـ (ويتراوح أعضاؤها من أربعة الى ثمانية) ويختارهم ممثلو القرى •

٣ ـ المجلس التشريعى ـ ويتكون من ستة وعشرين عضوا ، منهم اثنا عشر يعينهم الخديو بعد استشارة نظاره وستة عشر تنتخبهم مجالس المديريات •

٤ ـ الجمعية العمومية ـ وتتكون من ثمانين عضوا : ثمانية من النظار وستة وعشرون أعضاء المجلس التشريعى وستة وأربعون عضوا ينتخبهم ممثلو القرى •

٥ ـ ثمانية من النظار ـ مسئولون أمام الخديو •

٦ ـ سمو الخديو •

« وقد يكون هناك اعتراض على أن الجهاز السابق لا يجسد بالفعل المبدأ البرلمانى بمعنى الكلمة لأن كلا من المجلس التشريعى والجمعية العمومية استشاريان أكثر منهما جهازى وضع قوانين ، ولكن قلة من الناس سيكونون على استعداد للالتزام بأن مصر لم تنضج بعد لتكون لها حكومة شعبية بحتة » •

وكان « يعقوب سامى » ضابطا اداريا ممتازا ما فى ذلك من شك ، وكان يتميز بالسهولة الفائقـــة فى الترتيب والتنظيم · أما « على فهمى » و « عبد العال » فكان كلاهما ضابطين ممتازين ؛ أما « محمود فهمى » فكان أحسن مهندس تستطيع أن تفخر به مصر · وأيست بى حاجة الى أن أسوق مزيدا من الأمثلة من بين أبناء الشعب من بين أشياعهم · ان انطباعاتى الشخصية عن « عرابى » وصحبه لا تترك مجالا للشك فى ذهنى فى أنهم لو وجدوا فقط ذلك التعاون المخلص والنابع من القلب من حاكمهم المباشر ، وهو ما كانوا يتوقعونه مرة ، ولو انهم لم يلازمهم سوء الطالع الذى تمثل فى تدخل أجنبى مسلح ، لكان فى استطاعتهم أن يحققوا ، بصورة مرضية ، وبأسلوبهم الخاص وطبقا لرؤاهم الخاصة ، المهمة التى كانت مصر كلها قد ائتمنتهم عليها ·

الفصل الثانى والثلاثون

سلطان أم تسلط ؟ (١)

فى سياسات الشرق ، كادت تصبح القاعدة « أن ما يكون من المحال احتماله هو الأكثر حدوثا » . لقد سمعت يوما ما شخصية مصرية تقول بكل مظاهر الاخلاص ان هناك شيئين لهما صلة « بعمليات بريطانيـــا الجريئة » الأخيرة ، يبدوان مستحيلين ، لم يكن فى استطاعته أن يفهمهما على الاطلاق : الأول ، لماذا كان الانجليز يريدون دائما أن يأتى الأتراك الى مصر ؟ والثانى ، عندما طلب الانجليز منهم بالفعل أن يأتوا ، لم يأتوا على الاطلاق ؟ (٢) . وعندما يفكر المرء للحظة فى الضرر البالغ الذى جرته

---

(١) جزء من هذا الفصل أعيد نقله من مقال صدر فى جريدة Fortnightly Review (عدد ديسمبر ١٨٨٣) وكان عنوانه المؤامرات التركية فى مصر Turkish Intrigues in Egypt بتصريح خاص من رئيس التحرير ت.هـ.س. اسكوت

(٢) فيما يلى موجز لأحداث هذه الفترة وموقف تركيا منها : قام خلاف بين نظارة البارودى والخديو توفيق من جراء قرار المجلس العسكرى الذى أدان الضباط الجراكسة الأربعين المتهمين بالتآمر على عرابى والضباط والنظار المصريين ، فطالب القرار بنفيهم الى أقاصى السودان وتجريدهم من رتبهم ونياشينهم فلما رفع للخديو ، رأى تعديله نظرا لتعسفه ، فأصدر ارادة سنية فى ٩ مايو بتعديل الحكم ، فثارت النظارة وفكر النظار فى دعوة مجلس النواب للانعقاد بدون أمر الخديو (وهو اجراء غير دستورى) ، وجاهر البعض برغبتهم فى عزل الخديو وتعيين الأمير حليم باشا بدلا منه ، ولكن سوى الخلاف بتعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو .

فرأت الدولتان العظميان (انجلترا وفرنسا) عدم السكوت على هذا الوضع ، فقدمتا مذكرة مشتركة للخديو طالبتا فيها باستقالة نظارة البارودى . فقبل الخديو المذكرة المشتركة ،

تركيا على مصر ، فانه يبدو غريبا بكل تأكيد أن ينظر الى التدخل التركى على أنه نوع من « علاج مشروع patent remedy» لمنكبات مصر ! ، وانه لأمر غير عادى بالمثل ، عندما نسترجع المؤامرات الملتوية التى لجأت اليها تركيا طوال سنتين كاملتين لتتخذ مبررا لتدخلها ــ لو استرجعنا ذلك لأدركنا السبب فى أنها فشلت فى آخر لحظة فى جمع الفاكهة التى نضجت وحان قطافها .

سلطان أم تسلط ؟ هل يمكن أن يكون النفوذ التركى حقيقة سياسية أم خيالا دبلوماسيا ؟ هذان السؤالان أكانا يفرضان نفسيهما على المطلعين على مجريات الأحداث فى مصر ، وقد دفعتنى أهمية هذه المشكلة بوجه خاص ، الى أن أفصلها عن مناقشتى لمستقبل مصر .

لو أراد المرء أن يدرك النتائج المضرة لسوء الحكم التركى ، لكان فى استطاعتنا أن نسوق حالة « ولاية » طرابلس الغرب المتاخمة لحدود مصر كمثل مناسب للوصول الى هذا الادراك ، اذ أنه فى هذه الولاية ، نتيجة

= فاستقالت النظارة احتجاجا على قبول الخديو للمذكرة ، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا وأبقى على عرابى ناظرا للجهادية والبحرية خوفا من انتفاض الجيش على الحكومة .

فى هذه الأثناء ، حضر وفد عثمانى برئاسة درويش باشا ، (بناء على دعوة من الخديو) لتقصى الحقائق ، وغادر الاسكندرية فى ١١ يونيو ١٨٨٢ . وفى هذه الأثناء أيضا رأت الدول الأوربية الكبرى الست : انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وايطاليا ، ضرورة عقد مؤتمر فى استانبول للنظر فى المسألة المصرية ، وعرضت الفكرة على تركيا ولكنها رفضت الاشتراك فيه بحجة أنها بعثت بوفد برئاسة درويش باشا ، وسوى الموضوع بتولى راغب باشا رئاسة النظارة ، وأن نظارته قادرة على اعادة الأمن والنظام الى نصابهما . ومع ذلك عقدت الدول الأوربية الكبرى الست ٧ جلسات ، عقدت فيها ميثاقا أسمته ميثاق النزاهة Protocol de Désinteressement يقضى بألا تفكر أية دولة من الدول الست المجتمعة فى احتلال جزء من مصر . ثم أضاف المندوب البريطانى الى هذا الميثاق عبارة : « الا فى الأحوال القهرية » .

فلما حدثت مذبحة الاسكندرية ، أوضح مندوب بريطانيا فى المؤتمر (لورد دافرين) أن أحوال مصر تستدعى التدخل عسكريا فى شئونها لقمع الثورة وليعود للخديو نفوذه ، وقال انه ينبغى أن يكون هذا التدخل « تركيا » ، ولما كانت انجلترا واثقة من جمود السياسة التركية وضعفها ، ولما كانت مطمئنة الى انقسام الدول الأوربية الكبرى فى الرأى وعدم اتخاذها قرارا معينا فى المسألة المصرية ، انتهزت انجلترا هذه الفرصة ولها ما تستند اليه من ذريعة وهى الاضافة التى أضيفت الى ميثاق النزاهة وهى عبارة « الا فى الأحوال القهرية » ، فقامت بوارجها ، وحدها ، بضرب الاسكندرية ، ولم تحرك تركيا ساكنا بل كل ما فعلته أن طلبت من مصر تزويدها بالبيانات عن سير القتال أولا بأول !! . (المحقق)

وانما ذكرتهما عرضا فحسب · أذكر اننى بينما كنت فى استانبول ، كان رئيس أغوات السلطان « سعادتلو بهرم أغا » له أسمى نفوذ فى قصر يلدز Yildiz Kiosk · وكان الأهالى المواطنون من الممكن تقسيمهم جميعا بالتحديد الى : من يسمح له بتقبيل راحة يده ، ومن يحكم عليه بحضن بطن قدمه · ولقد علمت أنه استنفــدت ثلاثة أيام فى مداولات دبلوماسية فيما اذا كان سفير امبراطور ألمانيا يقدم أولا احتراماته الى « بهرم أغا » أم أن من واجب « بهرم أغا » أن يزور السـفير الألمـانى ، وأعتقد أن « بهرم » انتصر في النهاية · ومن الطريف أيضا أن تعرف أن جلالة السلطان يستخدم ثلاثة آلاف جاسوس فى القسطنطينية وحدها ، وان خدمات البوليس السرى تكلفه ١٨٫٠٠٠ جنيه شهريا ، وأنه يقضى وقته فى قراءة تقارير هذه الادارة،وان أى نوع من العمل ، أيا كان بسيطا، لا يمكن أن ينجز دون اللجوء الى أسلوب منظم أحسن تنظيم وأعيد تنظيمه تماما وهو أسلوب « البقشيش » · وعندما كنت فى العاصمة التركية ، كان الناس يهنئون أنفسهم على أنه قد صدر أخيرا فرمان خاص باحتكار التبغ نظير « بقشيش » معتدل قدره ٣٫٠٠٠ جنيه ، ويبدو أن هذه أول عملية نفذت بنجاح خلال فترة طويلة جدا من الزمان · والسلطان أكثر دأبا ، ويصر على أن تعرض عليه كل ورقة من أوراق الدولة · وأثناء مرحلة خطيرة لمحنة سياسية مؤخرة ، وجد سفير من السفراء : السلطان وأمامه منضدة تكومت عليها وثائق ، وكان مشغولا بقراءتها ، حتى أنه سرت بعدها أشاعة بأن جلالته كان يصحح قواعد تقاسيم الأغنيات التى سيتغنى بها المغنون فى مقاهى احدى المدن المغمورة الواقعة على ضفاف البوسفور !

لقد انتهزت فرصة وقمت بزيارة مبكرة ل « خير الدين باشا » الذى ترك تونس من خمس سنوات مضت فى فضيحة ، ولكنه « قبل السجادة » تقبيلا له فعاليته فى استانبول ، فصار الآن « كبير نظـار الامبراطورية العثمانية » وهو الآن استقر به المقام فى قصر فخم جديد فى ضـواحى القسطنطينية ، وكان لا يزال فى الحكم حتى بضعة شهور فقط ، وذلك نظرا لأن السلطان رفض ، ولا زال يرفض ، مشروعا محكما للدسـتـور العثمانى كان « خير الدين » قد جمع مادته مما اكتسبه صيتا كسياسى تونسى ، وتمسك بمشروعه تمسكا شديدا من وقتها ، لقد تحول حديثنا بطبيعة الحال الى مصر ، فقال خير الدين « أنتم والانجليز تواجهون مشكلة رهيبة هناك là bas (يقصد مصر) ، ولكننا نستطيع أن نسويها لكم بأكبر سهولة ممكنة · لا بد وأنكم سترجعون لنا عاجلا ذلك أم آجلا ، اذا أردتم أن تتجنبوا عراكا مع حلفائكم الأوربيين · ان كل ما يطلبه جلالة

ناموس الله ، اذ يقول جل وعلا : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) . ويبدو واضحا كل الوضوح أن المبعوثين غادروا مصر وفى نيتهم أن ينصحوا السلطان بأن يزيد من نفوذه ، بأن يبدأ اتصالاته بأبرز ضباط الجيش المصرى ، وبخاصة الاتصال ب « عرابى » .

وظهر مبعوث تركى آخر على المسرح ـ أحمد أسعد (٢) ، الذى ما لبث أن تعرف على « عرابى » ، ونقل له انطباعه عن الدرس الهام الذى تلقنه عن « تونس » ، وأوضح له بمهارة ، القوة الاضافية التى يمكن للقضية الوطنية أن تستمدها من هيبة السلطان الخليفة .

وطوال كل هذا الوقت ، استمر « توفيق باشا » فى الحفاظ على علاقاته مع السلطان من خلال « قدرى بك » ووكيله الشخصى الخاص فى القسطنطينية . وقد علم « عرابى » فى النهاية أن الخديو ، فى خطاب من خطاباته الى السلطان اتهم « عرابى » بالتآمر لبيع البلاد للانجليز ، وبأنه يعمل ضد مصالح الخليفة » .

ومرت أربعة شهور منذ رحيل الوفد ، وصار « عرابى » الآن ناظرا للجهادية وأقوى شخصية فى مصر ، وكان لا يزال يرفض باصرار فكرة مجىء قوات تركية الى مصر ، لو أنه كان يدرك الفوائد التى ستجنيها هذه القضية من تأييد وموافقة الخليفة ، وهى حقيقة سبق أن ألمح اليها « أحمد راتب باشا » وقت مجىء وفد « على نظامى » . اننى لم أر أن وطنية « عرابى » ، وهو المسلم الحق ، قد اهتزت صورتها بشكل ما لمجرد رغبته فى أن يلقى تأييدا معنويا وعونا وتشجيعا من رئيسه الروحى (٣) . وفى تاريخ متأخر ، فى ٨ يوليو ١٨٨٢ ، نشرت الوقائع المصرية خطابا من « عرابى » عن الموضوع كتب فيه : « اننى لم أقل اننى سأحارب الأتراك لو حضروا الى مصر ، بصورة أكثر جرأة مما لو حاربت الانكليز ، لأنه ليس من المعقول أن يبعث أمير المؤمنين بعساكر الى مصر فى وقت

---

(١) هذا هو ما نقله « برودلى » عن عدد الوقائع المصرية الذى لم يسعدنى الحظ برؤيته والاطلاع عليه (رغم بحثى عنه فى كافة المكتبات العامة والخاصة) ، ومما يؤكد صحة هذا الخبر أن الأستاذ محمود الخفيف ، ذكر فى كتابه « أحمد عرابى ، الزعيم المفترى عليه ، ص ٢٢٤ ، ما يلى :

« ... وزار على نظامى باشا » ديوان الجهادية فى مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلاى الثانى ، واستقبله البارودى بالحفاوة ، وألقى نظامى خطابا بالتركية على الضباط والجند عربه لهم البارودى ، حثهم فيه على طاعة الخديو . (المحقق)

(٢) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

الأشخاص فى حضور الخديو انه ما من حاكم جدير بأن يكون حاكما مثله · وقبل زيارة « رفعت » ل « درويش » ببضع ساعات ، كان درويش قد قلد « عرابى » النيوط الأكبر المجيدى وسلمه براءته أو خطاب ترقيته (١) · وقد سبق أن وضحت بالتفصيل التام ارتباط « درويش باشا » بضرب الاسكندرية · وأثناء تلك الأيام المليئة بالأحداث ، كان على اتصال تليغرافى ساعة بعد ساعة مع « قصر يلدز » · ولم يكد يرجع الخديو الى قصر رأس التين حتى صعد « درويش باشا » الى يخته وتظاهر بأنه أساء فهم اشارات لورد آلكستر (٢) بالتوقف ، وفى الوقت المناسب وصل الى القسطنطينية ·

وأثناء الحرب ، وطبقا لتعليمات معينة ، ونظرا لأن الاتصال كان مستمرا ، كانت كل حركة دفاعية يبلغ بها تلغرافيا الى كل من « الباب العالى » و « قصر يلدز » ، وكان المجلس العرفى فى القاهرة ينقل يوميا تفاصيل أعماله وقراراته بأسلوب مماثل ، ومع ذلك ، فقد كان جلالته الامبراطورية بالغ الحكمة تماما لدرجة أنه لم يقم بأية اشارة أكثر من السؤال باستمرار عن أية معلومة ، ومع ذلك ، فقد حدث أخيرا أن قطعت أسلاك التلغراف عبر الصحراء ، ففقد « قصر يلدز » حصيلته اليومية من الأبناء من المؤمنين فى القاهرة ·

لقد حاولت أن أوضح المعنى الحقيقى للتأثير التركى والمؤامرة التركية فى بلد تجشمنا فى سبيله وفى نشاط بالغ ، مثل هذه المسئولية الكبيرة ، ومنذ توقيع اتفاقية برلين ، وتركيا تقوم باختباراتها · لقد اختبرت فى الميزان وتبين أنها عاجزة · لقد كان فسادها وخلل ادارتها يفوق الوصف ، وصار ارتشاء موظفيها أكثر صفاقة · ونظرا لأنها لم تقم بأية محاولة من جانبها لتحقيق وعودها الجميلة عن الاصلاح ، فلقد صار من واجب انجلترا أن تنقذ مصر من حكومة القسطنطينية التى وصفها وزير انجليزى بارز ، أحسن وصف ، بقوله انها « حكومة النصب » · وباختصار ، ان مستقبل مصر يجب ألا يعتمد على تركيا ·

---

(١) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب ·

(٢) أحد قادة البوارج البريطانية الرابضة فى مياه الاسكندرية وقتذاك ·

تبقى مجرد قول بلا فعل • لقد كان واضحا تماما ، على أية حال ، أن « نوبار باشا » لم يكن له أى دور فى تحقيق هذا الشعار عمليا •

هناك مثل قديم يقول : « الغائبون هم دائما المخطئون » (١) ، وهذا ما حدث مع الخديو اسماعيل الذى عاش مدة طويلة كافية لا لأن يسمع فيها أن أصدقاءه السابقين يتحدثون عنه بالسوء ، بل وأكثر من هذا يشهد منظرا غير مهذب لشخص أفاده هو بصفة خاصة ، ويستبيح لنفسه فى صفاقة أن يحط من شأنه ، ولا يقصد من وراء ذلك الا تحطيمه ! • صحيح أن اسماعيل اقترف عدة أخطاء ، ولكن ستكون صورته فى التاريخ أفاده أخطاء ، ولكن ستكون صورته فى التاريخ أفضل من « توفيق » أو من « نوبار » • لقد انطلق « اسماعيل » سريعا جدا وبلا ترو تام ، الى الامام فى حياته الطائشة ، ولكن بهدف تطوير مصر ، بما كان يدعوه الاتصال بأوربا European Contact • لقد كانت خطته فى تركيز المشاريع التجارية فى خدمته الشخصية ، خطة خاطئة فى أضخم صورة ، ولكن أفدح أخطائه كلها هو أن يسند الى أجانب أمثال « نوبار باشا » حكم البلاد متحديا العواطف الوطنية ، التى هو نفسه مفجرها الى حد كبير • ويتمسك « مستر والاس » بأن اسماعيل يجب أن يكون موضع مساءلة هو نفسه أساسا عن كوارث الأيام الأخيرة ، ولكننى أعتقد أنه يلقى التبعة على كاهل من هو ليس بمخطىء : يقـــول لنا ان اسماعيل هو سبب « الدين الوطنى » ، ولكنه نسى كم من المال المقترض استنفد قبل وصوله الى مصر ، والى أى مدى أنفق فى الأشغال العمومية بما فى ذلـــك قناة السويس التى لم تكن تدر بعائد على مصر ، ولكنها وحـدها مسئولة عن خمس ($\frac{1}{5}$) ديونها • صحيح أن اسماعيل ورث أملاكا ضخمة واشترى غيرها وأن أفراد أسرته حصلوا أيضا بطبيعة الحال ، على أراض بنفس الطريقة ، واذا كانت الأشغال العامة التى أنفق عليها المال ببذخ انحصرت على الاطلاق ، فى الأماكن التى كانت فيها الأملاك الخديوية ، الا أنهـــا أفادت مصر كلها فى كثير أو قليل ، واحقاقا للحق لم ينزع « اسماعيل » ملكية أحد مما يملكه ، ولم يأخذ أرض أحد بدون مقابل ، وان ما يقال عن استيلائه على مزرعة كروم نابوث Naboth ، ان صح هذا ، فهى لا تعدو أن تكون حالة فردية • لقد كان اللوم أقوى من أن يحتمله اسماعيل

---

(١) نصه بالانجليزية «the absent are always in the wrong»
(المحقق)

شبابه وخبرة سنوات نضجه ، أما عن عون الوطنيين المصريين فستبقى دائما كذكرى باقية للثبـــات السياسى ، وأما عن وعود انجلترا ، بأن تتيح لمصر « بداية طيبة » فستحقق فى النهاية بطريقة واعية ٠

وباستعراض هادىء لأحداث سنة ١٨٨٣ (وكانت كلها سريعــة جدا) يتضح على الفور الاختلاف بين بداية طيبة « بالنسبة للخديو الذى وقف على قدميه مؤخرا ، و « بداية طيبة » بالنسبة لمصر التى لم تقف على قدميها على الاطلاق . فاذا كانت انجلترا قد توجهت الى مصر بقصد البداية الأولى ، فقد اقترفت شيئا أقرب الى الجريمة السياسية ، ولو كان ما أرادته بأمانة هو أن تحرر مصر من الفوضى ، لكان عذرها كافيا لتخفيف الجرم ٠ اننى لا أنكر ، أنه لو كان لا بد من قول الصدق ، فان « البداية الطيبة » بالنسبة ل « توفيق » كانت تمثل الملامح الرئيسية لأول عودة « للوطنية المصرية » ٠ وأن « البداية الطيبة » بالنسبة لمصر ، يجب أن تكون أساسا لعودتها الثانية ، لأن انجلترا لن تضيف الى الواجب الذى تخلت عنه فصلا لخطأ اقترفته » ٠ لنلق نظرة على الماضى ٠

لقد بدأت فترة « عودة الخديوية » ، بمحاكمات الدولة ٠ ولم تكد تنتهى هذه ، حتى بدأ فى الاسكندرية الانعقاد الوقور ل « قومسيون العفو الدولى International Indemnity Commission» ، ومرة أخرى تدعى مصر لتستعد للتضحية ٠ ان الخسائر التى ابتلى بها أشخاص معينون من أهالى الاسكندرية كان سببها حرب أعلنها الخديو ، شكليا ، وفيها حارب كل من المصريين والانجليز بعضهما البعض ٠ ان مثل هذا الضرر لا يعطى « حقا » فى العفو ٠ ان الحق المعنوى لمن يحسون بالمعاناة قل أن يكون أقوى ، لأنهم لا يسهمون بشىء عن طريق دفع الضرائب لمساعدة حكومة مصر ٠ عندما فرض الفرنسيون على التونسيين أن يقدموا تعويضا صغيرا وطفيفا ، نظير الأضرار التى لحقت بالمستعمرين الأجـــانب فى ضربهم ل « صفاقس » ، حرصوا على أن يقرر كل متسلم لايصال بأن ما دفعه من مال انما دفعه عن طيب خاطر وليس تحت قسر قانونى ٠ ان قومسيون الاسكندرية أثناء مباشرته لأعماله أدان الحكومة المصرية وطالبها بدفـع تعويض وصل الى ما يقرب من أربعة ملايين جنيه استرلينى ، وكانت أكثر المطالب بعدا عن الصواب ، يوافق عليها بدون حتى أى تظاهـــر بالمعارضة ، وكان على المصريين أن يدفعوا مرة أخـــرى نظير ما أسماه « مستر والاس » « الجرة المهشمة the smashed cockery» ، وكان كل عضو من أعضاء القومسيون يعتقد أن من واجبه أن يساند بحماس مطالب مواطنيه ، ولا يمكن لأى مندوب أن يعارض رغبات زميل له والا

قصدت انجلترا أن تحافظ فى مخططها على اعادة تنظيم مصر ، وأن تراعى فى الوقت نفسه العهود التى أخذتها على نفسها فى مواجهة أوربا كلها ، فانها لا يمكنها أن تفعل ذلك فقط الا ب « عودة الوطنية المصرية » فى أوسع معناها ، لتحتل مكانتها لركيزة قد تصدع بنيانها . ولكى تتم هذا الصنيع ، لا بد لها أن تستدعى « عرابى » وصحبه من المنفى ، وتسمح لهم ، تحت رعاية حاكم شعبى همام قادر ، بأن يساعدوا بأسلوبهم الخاص فى ضوء ما يرونه هم أنفسهم . وطبقا لنموذج « لورد دافرين » — فى وضع برنامج دستورى « للوطنية المصرية » .

ملحق (١)

خطاب من أحمد رفعت بك الى المؤلف

في غضون بضعة أيام ستعود أنت الى تونس وسنتوجه نحن الى المنفى ، ولا شك ان الناس سيكثر سؤالهم لك عن مصر ، لأن أى قرار بالنسبة لمصيرها النهائى هو بعيد كما كان دائما · ان أمانينيا القومية قد تحطمت في هذه اللحظة ، ولكنني لا أعتقد أنها ماتت · ان أعداءنا ، في هذه اللحظة هو المظفرون وصوتهم له قوة وجلجلة النجاح · انهم يقولون ان الوطنية المصرية (التى أصفها بأنها ترابط كل المغلوبين على أمرهم بحثا عن العدالة) لم يكن لها وجود على الاطلاق ، وهم حتى ولو اعترفوا بأنه كانت هناك روح مثل هذه الروح بالخارج ، فانهم ينكرون أن « أحمد عرابى » كان رمزها الشرعى ، بل انهم يتمسكون أكثر من هذا بأن الآمال المصرية لا هدف لها ، لأن أهالى مصر غير أهل لأن يقوم بينهم حكم ذاتى ، ونتيجة لذلك يجب أن يحكم عليهم بوصاية دائمة tutelle propetuelle ويذهب آخرون الى أبعد من هذا ، ويقولون ان عرابى أفزع مصر كلها بالوطنية · وقبل أن نفترق ، استأذنك فى أننى سأترك لك بضع مذكرات ستساعدك فى الرد على ناقدينا ، من واقع شهادة عيان ، لاتنس أن تخبرهم أن مصدرك شخص تركى ، رجل كل مصالحه يجب أن تكون مع الطرف الآخر ، وأنه قوض مستقبله الواعد تعاطفا مع المصريين ، اخوانه فى الدين ·

أولا – بالنسبة للحركة الوطنية بوجه عام :

١ – لا تحوى الوقائع الرسمية الا جزء من قوائم الهدايا الوطنية من مال ومؤن أرسلت طواعية من كل أرجاء مصر الى «عرابى» ، وقد سجل المتطوعون أسماءهم بالألوف كمحاربين ، اذ لا يعقل أن تستطيع قوة أو سلطة ارهاب معروفة ، أن تجمع جيشا قوامه مائة ألف رجل فى بضعة أيام · هذه النتيجة التى لم يسبق لها مثيل يجب أن تعزى وحدها الى شعور اجماعى ·

٢ ــ لو كان الأمر عكس ذلك ، لكان لابد أن تنهار المقاومة على الفور فى مواجهة قوة انجلترا الأقوى : أما وقد كانت نابعة من شعور اجماعى ، فقد دامت لشهرين كاملين ·

٣ ــ هناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهى تعاطف أسمى الشخصيات فى البلاد ، تعاطفا تلقائيا مع عرابى (باعتباره المثل للحركة الوطنية ، فقد بعث له الأمراء والأميرات وغيرهم بتلغرافات وخطابات وهدايا تحية له من الفواكه وغيرها الخ ··· ، وكل هذه التلغرافات والخطابات المرسلة اليه تلقبه بـ « حامى حمى الديار المصرية » : فالأميرات ــ و ــ والأرامل ــ بعثن له بأخواتهن الى كفر الدوار باكتتاب فى اعتمادات للدفاع العام ، أما الهدايا من الخيول ، فيبدو أنها لم تكن لها نهاية ، فالأمير ابراهيم ، لم يكن راضيا بالحصة الأولى التى بعث بها ، فأصر على أنه يبعث بأربعة خيول أخرى من أحسن السلالات ، كما أنه اعتاد أن يزور الجرحى علانية فى مستشفى العباسية ، وكانت حرم أحمد باشا نشأت الرئيسية الفخرية لاتحاد الأميرات والسيدات اللاتى كن يعملن بصورة لا تعرف الكلل فى انتاج الضمادات للجرحى ·

٤ ــ يجب ألا ننسى حماس الهيئات الدينية ، اذ كانت الصلوات ليلا ونهارا فى كافة المساجد (وبصورة خاصة فى مسجدى الحسين والجامع الأزهر) داعين بالنصر لـ « عرابى » والجيش المصرى ·

٥ ــ أن حب الشعب المصرى كله لـ « عرابى » لم يعرف حدودا · لقد امتد الى صغار الصبية فى الشوارع ، وكان الأطفال الصغار والبالغون يرددون كلهم على حد سواء عبارة « الله ينصرك يا عرابى » ، وكان الزجل الشعبى التالى على كل لسان :

يا توفيق يا وش النملة

من قال لك تعمل دى العملة ؟

(أى أنه بفعلته هذه جاء بالانجليز الى مصر)

وفى مدى بضعة أيام قليلة لم يعد لاسم « توفيق » ذكر فى مصر ، فى حين سمى جيل كامل من شباب المصريين باسم « عرابى » ·

ثالثا ـ بالنسبة للاجتماع الثاني للجمعية الوطنية بالقاهرة :

١ ـ صدرت دعوات هذا الاجتماع أيضا من وكيل نظارة الداخلية، وقد صدرت فقط عندما رئي أن الاجراءات التى أقرت فى الاجتماع السابق للجمعية لم تأت بنتيجة وصار الموقف متغيرا من أساسه ٠

٢ ـ انتظم الاجتماع ما يقرب من ٤٠٠ شخص بما فى ذلك الأمراء ورؤساء مختلف الطوائف الدينية ، بدون استثناء ، كما حضره أيضا ، الباشوات الذين كانوا مماليك عباس باشا ، وكانوا يهتمون بمصالح توفيق باشا ، الذين تزوجوا حفيدات سيدهم السابق ٠

٣ ـ أعرب الأمراء الثلاثة ـ ابراهيم وأحمد وكمال ، ورئيس قضاة القاهرة والمفتى الحالى وسلفه ، والباشوات المماليك السابق ذكرهم وكل الأشخاص الرسميين وغير الرسميين الحاضرين ، أعربوا من تلقاء أنفسهم ، وفى منتهى الصراحة ، عن غضبهم من الخديو ، وفى كلمتى اثناء المرافعة ، أشرت الى حديثى مع « يعقوب باشا صبرى » مملوك الخديو عباس مع قاضى القضاة ، وسأقتبس فيما يلى نص الكلمات التى تفوه بها الأمير كمال ، فى مكتب ناظر الداخلية وفى حضور عدد كبير من الأشخاص ٠ قال : « فى نظرنا ، لم يعد للخديو وجود اليوم اننا سنعترف به لو كان هنا على رأس حكومته وبلده ، ولكن أين هو ؟ هو اما سجين أو حليف لقوة أجنبية غزت مصر ٠ » فصفق له من استمعوا لهذه الكلمات على اعتبار أنها متمشية تمشيا تاما مع واجباتهم الدينية والمدنية ٠

٤ ـ وكان القرار هو أنه طالما أن الخديو قد انتهك كلا من الفرمانات ومبادىء الشريعة الغراء ، لم يعد قادرا على أن يصدر أوامره ، ويجب أن يثبت عرابى فى منصبه ناظرا للجهادية ، وتوكل اليه مهمة الدفاع الوطنى ، انتظارا لتلقي أوامر من القسطنطينية ، وقد اقترع على القرار بالاجماع برفع الأيدى ٠ وقد ختم على محضر الجلسة procès-verbal كل فرد بكامل ارادته ، وبحماس واضح ـ وكان القرار الذى أمكن الوصول اليه يعتبر نهاية لمؤامرات القصر ، التى جرت على مصر مثل هذه النكبات التى لا حصر لها خلال السنة الماضية ٠

٥ ـ لم يحضر « عرابى » أيا من هذين الاجتماعين ، بل ان « يعقوب سامى » ، وكيل نظارته ، اشترط على الأميرالاى « عبيد بك » أن يحضر هو نفسه ، خشية ألا يعزى ، أو حتى يظن أن يكون هناك

تأثير عسكرى ، أيا كان ، على التعبير عن الارادة الوطنية · لقد سمعت « يعقوب سامى » نفسه يصدر هذا الأمر فى غرفة صغيرة ، خلف الصالون الكبير بسراى قصر النيل ·

رابعا - بالنسبة للمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى :

١ - اعترف « اسماعيل أيوب باشا » نفسه انه استقال من منصبه كعضو فيه ، ولكن اذا لم تكن هناك حرية تامة ، واذا لم تكن هناك أية صورة من صور الكبت ، كيف كان فى استطاعته أن يفعل ذلك ؟ وبخاصة بعد زيارته لتحية « عرابى » ، وكان مستقلا قطارا خاصا الى كفر الدوار ·

٢ - ستلاحظ أيضا أن « رءوف باشا » (رئيس المحكمة العسكرية) كان يحضر اجتماعاته باستمرار · وتوقيعاته وأختامه تذيل معظم محاضره ، ولو لم يكن المجلس له مطلق الحرية فى أفعاله ، لماذا رجع رءوف من الاسكندرية لينضم اليه ؟ لو كان لا يقر أفعاله ، لماذا لم يحذ حذو « اسماعيل أيوب » ويستقيل ؟ ·

٣ - باشر المجلس فى حرية : الرقابة الدستورية على أفعال عرابى ، وعندما اقترح « على مبارك » أن يدخل فى مفاوضات معه ، قدم عرابى للمجلس مسودة رده ، الذى أجرى عليه عدة تعديلات ·

٤ - أشير فى اجتماع المجلس أيضا الى موضوع سجن مدير مديرية الغربية ·

٥ - قرر المجلس ابقاء « عثمان باشا غالب » فى منصبه مديرا لمديرية أسيوط بالرغم من أن عرابى كان من بين الراغبين فى استعفائه ·

٦ - لم يحضر « عرابى » على الاطلاق أى اجتماع من اجتماعات المجلس ، ولم يكن حتى « محمود سامى البارودى » عضوا فيه ، وكان الأشخاص الذين يتكون منهم المجلس ، فى الغالبية العظمى ، مستقلين تماما عن أية اعتبارات حزبية ، ويكفى أن نذكر منهم على سبيل المثال : جعفر باشا ، واسماعيل باشا أبو جبل ، وسامى باشا من ادارة الغاء تجارة الرقيق الذى تلقى تعليمه فى انجلترا وأمريكا ، والذى كان زوج ابنته قد تورط فى عدائه ل « عرابى » فى مؤامرة الضباط الجراكسة ·

٧ - يوم الهزيمة فى « التل الكبير » ، وقبل وصول « عرابى » الى القاهرة ، اجتمع المجلس العرفى فى قصر النيل ، وقرر بالاجماع ألا تستمر الحرب التى كان من المتوقع ، من حيث المبدأ ، أن تستمر ،

ملحق (٢)

بعض نمـاذج من وثائق الثورة العرابية

جناب المحامين المحترمين مسيو برودلي الافوكاتو ومسيو نابير الافوكاتو

بالجلسة التي انعقدت بالقومسيون امس تاريخه تقرر ما يأتي

[illegible]

١٢ نوفمبر ١٨٨٢

وثيقة رقم ١ – تعليمات بعث بها رئيس قومسيون مصر (اسماعيل أيوب باشا) الى المحامين « برودلى » و « نابير » ، يحيطهما علما بالاجراءات التى ينبغى عليهما اتباعها فيما يتصل بالاشخاص الذين توكلوا فى الدفاع عنهم .

أنهي الى مسامع حضرتكم لحضرة جنابكم المعظم حفظه الله اقول ان ابراهيم اغا التوتنجي دخل عندي في يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة
وشتمني وكان معه جملة من العساكر والبيبة المعينة السنية جاؤا لاجل تفتيش اودتي وبعد تفتيش بغاية الدقة اخذوا من
عندي ثلاث مجلدات مجلدين من كتاب العقد الفريد في علم الادب والمجلد الاول من تاريخ ما توسط من القرون مترجم من
الفرنساوي للعربي بطبع مصر ولما سألت حامل المجلدات الى اين تأخذ الكتب وقلت له ان كان ولا بد من اخذها فاوصلها
الى بيتي فأبى وهل لك بيت وبعد ذلك بثمانية عشر يوما لا يدخل عندي مكتوب ولا مفروش اي شيء كان حتى جاء
عندي احد رجال الدولة الانكليزية وسأل عن حالي فطلبت منه الاذن بدخول المصحف فاذن لي به فكان ذلك فرج
لي من خرجت من الحبس ... محمد عبده

وثيقة رقم ٤ ـ تقرير كتبه الشيخ محمد عبده الى مستر برودلي عن زيارة ابراهيم اغـا التوتنجي في غرفته عندما رحل الى السجن المصري ، وسرقة كتبه وكيف ان أحد الضباط الانكليز حقق له ما طلبه من تزويده بنسخة من المصحف الشريف .

١٤ـ محمد علي الأنسي (جمع وترتيب) الدراري اللامعات في منتخبات اللغات (بدون تاريخ) ٠

١٥ـ محمد عمارة (دكتور) : الأعمال الكاملة للامام محمد عبـده ، الكتابات السياسية ، ج١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ٠

١٦ـ محمود الخفيف : أحمد عرابى ، الزعيم المفترى عليه (اعادة طبع)، المركز العربي للبحث والنشر القاهرة ، ١٩٨١ ٠

ثالثا ـ مراجع مطبوعة عن تونس (تنـاولت قضية لفيضة ، و «بنو خمير»

١٧ و ١٨ ـ
Broadley, A.M., The Last Punic War, Tunis Past and Present, 2 vols. 1882.

١٩ ـ د ٠ نقولا زيـادة : تونس في عهـد الحمـاية ١٨٨١ ـ ١٩٣٤ (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣)

رابعا ـ موسوعات وقواميس

٢٠ ـ Concise Oxford Turkish - English, English - Turkish Dictionary, 1975.

٢١ ـ Hamlyn Encyclopeuic World Dictionary, 1971.

٢٢ ـ Encyclopedia Britannica, Edn. 1979.

٢٣ ـ Encyclopedia Americana, Edn. 1980.

٢٤ ـ La Grande Encyclopédie, Edn. 1922.

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥١٧٠

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٨٥ - ٥